

International Islamic University
Islamabad - Pakistan
Faculty of Islamic Studies
Dept of Dawah & Islamic Culture



الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد
كلية أصول الدين (الدراسات الإسلامية)
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

أثر الملاء على الدعوة إلى الله في المجتمع الباكستاني من منظور القرآن الكريم (دراسة وصفية تحليلية)

إشراف

فضيلة الأستاذ الدكتور **عبد الحميد خروب** حفظه الله تعالى ورعاه
رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

الطالب

عبد الرحمن محمد البازي

240-FU/PHDDIC/F15

العام: 2016م

مذہب

Accession No. TH24753

PHD

۲۹۷۷

ع ب ا

- اسلام - بحوث
- اسلام - دعویہ
- اسلام - اثر الملائ
- اسلام - مجتمع
- اسلام - پاکستان
- اسلام - قرآن کریم

الإهداء

إلى النبيوع الذى لايمل العطاء إلى من حاكت سعادتي بخيوط منسوجة من قلبها إلى من أنارت دربي
بنصائحها، وكانت بحرا صافيا يجرى بفيض الحب والإخلاص والاستقامة وتوصي دائما بالأخلاق
الحسنة **والدتي العزيزة** حفظها الله وعافاها.

إلى من سعى وتعب لأنعم بالراحة والهناء الذي لم يخل بشئ من أجل دفعي في طريق النجاح الذي
علمني أن أرتقي سلم الحياة بحكمة وصبر ولقي ربه صائما مصليا ملبيا مجاهدا وغازيا في سبيل الله،
إلى روم أبي الطاهرة رحمت الله عليه دوما

إلى من حبهم يجرى في عروقي ويلهج بذكراهم فؤادي وعلموني حروفا من ذهب وكلمات من درر
وعبارات من أسمى وأجلى عبارات في العلم إلى من صاغوا لي علمهم حروفا ومن فكرهم منارة تنير
لنا مسيرة الحياة.

لنأمسيرة الحياة إلى **أساتذتي الكرام وأهل الفضل** الذين غمروني بالحب والتقدير والنصيحة
والتوجيه والإرشاد وعلى رأسهم فضيلة الدكتور **عبد الحميد خروب** حفظه الله ورعاه وأستاذنا
ومريتنا الدكتور **أحمد جان الأزهرى** رحمه الله الباري. وإلى كل من نسي القلم وحفظه القلب.

إلى كل هؤلاء أهدى هذا العمل المتواضع راجيا من المولى القدير أن يجد القبول والنجاح وينفعنا به
ويعمدنا بتوفيقه وهو الموفق والمعين.

محمد عبدالرحمن محمد البازي

شكر و امتنان

الحمد لله حمداً كثيراً وأشكره عزوجل دائماً، ثم أشكر والدتي الحنونة بارك الله في عمرها، وأسبغ عليها نعمة السلامة والعافية، ووالدي الكريم رحمه الله وغفر له وأجزل ثوابه، وإن كنت لا أستطيع رد جميلهما وإحسانهما خير ما جازى والدين عن ولدهما، فإنني أسأل الله الحي الذي لا يموت أن يجزيهما عني بفضله وإحسانه خير الجزاء.

كما أشكر الجامعة الإسلامية العالمية على إتاحة فرصة الدراسات العليا فقد وجدت وزملائي خيراً كثيراً والحمد لله على ذلك.

وأخص بالشكر سعادة مشرفي وأستاذي الكريم، فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحميد خروب، رئيس القسم على حسن اهتمامه ورعايته لأبنائه الطلبة وبناته الطالبات. ولقد كان توجيهات فضيلته وتشجيعه أبرز الأثر - بعد توفيق الله عزوجل - في إنجاز هذا البحث وإتمامه، وإذ لا أملك له ثواباً إلا الدعاء فإنني أسأل الله تبارك وتعالى أن يجزيه عني كل خير، وأن نعيم الآخرة وخيراتها.

ثم أتقدم بوافر الشكر والتقدير البالغ لفضيلة المشرف السابق، الأستاذ الدكتور أحمد جان الأزهرى رحمه الله تعالى، الذي تكرم بالإشراف على هذه الرسالة فكان بحق مرشداً موجهاً ناصحاً، ولم يخل علي من وقته على كثرة مشاغله وظروفه القاسية والأمراض المتعبة، فقد فتح لي قلبه وبيته، وغمرني بكرهه وأفادني من علمه الكثير، ومن جانب القدوة والأسوة فيه أكثر.

وفي هذا المقام أيضاً أشكر فضيلة شيعي الأستاذ الدكتور تاج أفسر وكيل الكلية، وفضيلة الأستاذ الدكتور عبد القادر هارون عودة الشلي. أسأل الله سبحانه أن يجزيهم بفضله خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر لكل من تتلمذت على يديه من أصحاب الفضيلة المشائخ، وأسأل الله جل وعلا أن يجزيهم بفضله وإحسانه.

ولا يفوتني في هذا المقام أيضاً أن أشكر أهل بيتي عل ما قدموه من عون، وما بذلوه من جهد في تحفة الجوا المناسبات للبحث والاطلاع وأسأل الله عزوجل أن يجمع لي ولهم بين خيري الدنيا والآخرة.

كما أشكر كل من أكرمني بالمساهمة في هذا البحث برأى أو تسديد أو معونة، وأسأل الله سبحانه وتقدس أسمائهم أن يجزيهم عني خير الجزاء.

ختاماً أسأل الله المولى العلي القدير أن يرزقنا علماً نافعا، وعملاً صالحاً متقبلاً، ونية خالصة، إنه هو السميع العليم. وصلى الله على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

فهي مشتملة على النقاط التالية:

- 1- أهمية البحث وسبب اختيار الموضوع
- 2- الدراسات السابقة
- 3- مشكلة البحث
- 4- منهج البحث
- 5- خطوات البحث
- 6- منهج دراسة الآيات القرآنية
- 7- الهوامش والتوثيق
- 8- خطة البحث

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي الأمين الذي أمر بالدعوة إلى الله تعالى، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

لقد حوى القرآن الكريم الكلام عن الأنبياء والأمم السابقة، واهتم بالملأ ويعني به في القرآن الكريم: جماعة من المرزبين في الأمة ممن استأثروا بالسيادة العامة على من تحتهم من الناس واختصوا بصفات ومظاهر معينة، وبرز من الملأ في القرآن الكريم عدة أقسام:

الملأ من الإنس، الملأ المؤمن، الملأ المعاند والمعرض، الملأ من الجن، الملأ السافل، الملأ الأعلى منهم، والملأ من الإنس هم المعنيون في هذا البحث إن شاء الله ممن ينطبق عليهم المصطلح الصالحون ومنهم المعاند ومن الذين في أيديهم القوة والبطش والمال والسلطة، وهم (الأشراف والسادة والكبراء) الذين قادوا الهجمات الشرسة على الدعوة من الأنبياء والعلماء عبر التاريخ، وقابلوا ما عرضه الأنبياء والدعاة عليهم، ولهم سمات ومظاهر خاصة بهم.

وقد واجهوا الدعوة ذاتها، وتجاوزوا من الحدود على الأنبياء والدعاة، وهاجموا أتباعهم وحللة الدعوة، وفي المقابل نرى حرص الأنبياء والدعاة على هداية الملأ وحاشيتهم، لما لهم من كبير أثر على الناس وكانت دعوتهم بالتي هي أحسن، باللفظ اللين وبإيضاح الأدلة والإيغال في التوضيح ورد الشبهات والدفاع عن التحديات والعراقيل التي تواجه الدعوة إلى الله تعالى والثقافة الإسلامية.

فملأ اليوم يحتاج إلى الدعوة إلى الإسلام حاجة المريض إلى الدواء والجائع الغذاء والعريان إلى الكساء والخائف إلى الأمان، وليس ذلك موجودا إلا عندنا نحن أمة محمد صلوات الله عليه فالدعوة إلى الله أصبحت إجمالا تحتاج إلى تفاصيل كامل وشامل.

وأما اختصار الطريق الدعوة، وكسب أكبر عدد لصفوفها، وتقليل المحن والصعوبات أمام الدعوة والأتباع، ثم كان لهم أثر ملموس في توجيه الأحداث وسير الدعوة، وهذا كلها سجلها القرآن الكريم وعصرنا مليء بهذه القوة الغاشمة فأردت كشف اللثام عن هذه الظاهرة مرتبطة بماورد في القرآن، وأهلها في المجتمع عن سماتهم وأقوالهم وأفعالهم وسميت:

أثر الملأ على الدعوة إلى الله في المجتمع الباكستاني من منظور القرآن الكريم.
(دراسة وصفية تحليلية)

أهمية الموضوع:

إن أهمية الموضوع أظهر من طلوع الفجر لكون علاقته وثيقة مع كتاب الله لكل زمان ومكان، إن دين الإسلام الغراء من أهدافه الرفيعة مواجهة جميع أنواع التكبر والظلم والاستبداد والإيذاء والحسد والعدوان ، ولقد أقام الإسلام الحنيف وأوجب إقامة الاعتدال والتعامل بالسلوك الحسن وحذر من كل أشكال العدوان وإهانة البشرية، والتسلط على دمه أو عرضها أو مالها دون بينة شرعية او فكرة مقبولة لدى اصحاب العقول.

يقول الله تعالى: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء الزكاة... الآية.

وبما أننا نبتغي بالدعوة إلى الله تعالى الوصول إلى ضمائر الناس والنفاذ على قلوبهم لكي يقنعوا ويطمئنوا عن صدق بما نعرضه عليهم، فإن العوائق التي تصدهم عن قبول م يدعوهم إليه يجب إزالتها ليصفو المنهل المبارك ويتضح أمامهم الحقائق الثابتة والمهيغ ويستبين السبيل السوى والغى.

ولما كانت الدعوة الإسلامية الرحيمة كفيلة بضمانه بأتم الحرص لكافة البشرية وصيانة حرياتهم وحماية ممتلكاتهم وتشجيع الأمن فيهم وتدفع الخوف عنهم وتحليب أسباب التعايش والرزق والتفاهم فيما بينهم؛ ولحل هذه الزعزعة والمشكلة اخترت هذا الموضوع ليكون مفيداً لكل داع ومدعو و محلاً للدراسة والبحث.

أسباب اختيار الموضوع:

1. شغفي الشديد به، أثناء قراءة القرآن الكريم، والاطلاع على دعوات الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم وعلاقتهم مع الملأ المؤمن والملأ المستبد، وباعتبار هذا الموضوع يحاول الباحث أن يصل إلى التأمل والتدبر في كلام الله عز وجل، والرجوع إلى التفسير إلى كتب التفسير والحديث وذلك التركيز فضل عظيم من الله أولاً ثم من الأساتذة على الباحث.
2. عدم وجود دراسة مستقلة متخصصة دعوية في هذا الموضوع، نتعرف على شيء مما في القرآن الكريم من الدعوة والقائمين بها من الأنبياء والدعاة وما عانوه من المدعويين، وخاصة الملأ، لما فيه من الحكم والسر وفوائد وأغراض، ولورود أخبار الأنبياء وقصصهم في القرآن الكريم عبر ودروس، لقد كان في قصصهم عبرة... الآية
3. قضية الأنبياء والرسل عليهم السلام هي قضية الدعوة إلى الله، والتي يرثها أتباعهم من الدعاة إلى الله إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

4. بيان الأثر الذي يحدثه الملأ من خلال جاههم ومكائنتهم المرموقة وسيطرتهم على مقدرات الشعوب والأمم إيجاباً وسلباً بشكل عام، وبالتالي التأثير السلبي على مسار الدعوة، والصراعات التي قامت بين الأنبياء والدعاة ومن عارضهم، والانقسام إلى فريقين يختصمون.. فريق هداه الله وفريق حق عليه الضلالة بشكل أخص.

5. ضرورة توجيه الدعوة إلى الله، والتصدي لهم، في السبيل الأمثل

6. في دعوة الملأ أن نتعرف كافة الفئات مهما كان المدعو حاكماً، أو حاشية، أو محكوماً لا يملك إلا نفسه ومن يعول.

7. الصبر على طريق الدعوة وعقباته كما صبر أولوا العزم من الرسل عليهما السلام، ، واللجوء إلى الله تعالى أن ينصر دينه وجنده، وأن يعلي كلمته على كل كلمة سواها. كيف نضمن بعون من الله عز وجل للدعوة الإسلامية في المجتمع الحماية من كل أطراف نزوع فكري مكري داخلي وخارجي، نحو التطرف والتشدد وكيف نصونها من كل رابطة مع الفكر المنغلق المظلم المتشائم الذي يمكن أن يفرخ بيضة التشدد و الإرهاب والغلو والتطرف؟

8. وأعظم سبب أن الدعاة اليوم يلزم من قبل الملأ المستكبر وأعداء الإسلام متطرفين وإرهابيين كما كانت العادة في الأمم السابقة والحقيقة عكسه. وسيبرز البحث بمشينة الله ما هي الحقيقة؟؟؟ ومن هنا على الدعاة أن يطلع على حياة الرسل عليهم السلام وما تعرضوا له من كيد واستبداد وتضليل وإيذاء من الملأ بشكل أخص، وعلى أسلوبهم ونهجهم ذلك. فبهذا هم اقتده.. الآية. ولذا أحببت أن أساهم في إبراز جانب من جوانب الدعوة إلى الله تعالى في حياة الرسل عليهم السلام ومواجهتهم مع الملأ من خلال القرآن الكريم.

والله أسأل أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وينفع به الإسلام والمسلمين، وهو على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

الدراسات السابقة:

لقد كتبت أبحاث ورسائل كثيرة، لكنني عند استعراضها لم أجد تشابهاً بينها وبين هذه الدراسة، يلاحظ القارئ أن الأبحاث والدراسات السابقة كانت عامة، وتناولت الموضوع بطريقة عرضية، فقد وجدت مادة البحث مشتتة ومتناثرة في بطون كتب لم تكن في الأصل بهذا الموضوع ولم أقف على بحث متخصص في ذلك إلا ما أخصها بالذكر:

- 1- الأنبياء والملأ دراسة مقارنة من خلال القرآن الكريم والعهد الجديد والقديم، لفضيلة الدكتور حسين محمود أحمد المهدي، الطبعة الأولى: 1429هـ 2008م
والبحث في أصله رسالة (ماجستير) اشتملت على أربعة أبواب:

الباب الأول: مفاهيم التوحيد والنبوة والملأ

الباب الثاني: الحوار العقائدي بين الأنبياء عليهم السلام

الباب الثالث: الحوار الاجتماعي بين الأنبياء عليهم السلام والملأ

الباب الرابع: مناهج الأنبياء عليهم السلام في حوارهم مع الملأ

وتقع في خمسة صفحة، وهذه الدراسة، وإن كانت في صلب البحث، إلا أنها عالجحت الموضوع من جانب، وقيد بالمقارنة بين القديم والجديد، وأخذ من الأنبياء ثلاثة فقط منهم سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام وسيدنا النبي ﷺ كما أنه لخص بمفهوم الملأ عند اليهودية والنصرانية، و حوار الأنبياء مع الملأ في التوحيد والنبوة والبحث. وبحسبنا يمتاز بعلاقته مع جميع الأنبياء ومواجهتهم الملأ من سيدنا نوح ونبينا عليه الصلاة والسلام إلى سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم ومن ورثو الدعوة من الصحابة والدعاة المخلصين..

- 2- موقف الملأ من دعوة الرسل عليهم السلام في قصص القرآن الكريم وكيفية مواجهته إعداد: عبد الرحمن محمد علي البرادعي الأنصاري، إشراف: الأستاذ الدكتور أحمد أحمد أبو السعادات، 1414هـ 1994م المملكة العربية السعودية جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مركز الدراسات العليا الإسلامية المسائية، ولا ريب أن هذه الرسالة رسالة ماجستير مشتملة بالمجلدين مع الأسف الشديد لم تتوفر للباحث كاملة مع كثرة المحاولات، تحدثت كرسالة

موضوعية، بل تناول عن القديم دون الواقع. وقضية بحثي العصر الحاضر وباكستان بشكل أخص.

3- آيات الملأ في القرآن الكريم تفسر موضوعي كلية الدراسات الفقهية قسم أصول الدين، جامعة آل البيت، إعداد: زياد عادل عبد الرحيم الزعبي، المشرف: دزياد خليل الداغين، 1424هـ 2003م وهذه الرسالة رسالة مفيدة موضوعية، لكنها منحصرة في دراسة موضوعية فقط لم يخرج الباحث من اطار المنهج الموضوعي من أوله إلى آخره اختار جانباً موضوعياً، ومحاولة بحثنا بمشيئة الله تعالى ستكون مساهمة موضوعية من جهة ودعوية من جهة أخرى، والنمل يعذر عن قدر الذي حملا.

ولا أعيب أبداً جهد فضيلتهم فقد بذلوا جهودهم يشكر ويحمد لهم فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر بل يدعى بطول العمر لمن على قيد الحياة، و بالمفخرة لمن توفاهم الله ورفع الدرجات...

وهناك بحوث متناثرة مقدمة في المؤتمرات والندوات، لم أذكرها خوف الاطئاب سوف... إن شاء الله.

مشكلة البحث:

مشكلة البحث تحتوي على النقاط التالية منها:

1. ما أثر الملأ على الدعوة إلى الله تعالى؟
2. ماهو أثر الملأ على الفرد والمجتمع؟
3. ماهي الأنواع والأسباب والأساليب للملأ ضد الدعوة إلى الله تعالى؟

فالمشكلة التي سوف أقوم بمساهمة هي علاج الملأ المستبد من خلال القرآن الكريم

منهج البحث:

ولقد اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي والتحليلي.

خطوات البحث:

إن طبيعة هذا الموضوع تسير وفق الخطوات العلمية التالية:

الخطوة الأولى: جمع الآيات الواردة النبي لها صلة بالموضوع:

تتبع الآيات القرآنية التي كانت لها علاقة وثيقة بالملأ على سير الدعوة والدعاة من خلال كتاب الله تعالى، والأساليب التي ينتهجها الملأ في إغراء حكامهم وأمرائهم ضد الدعوة إلى الله تعالى، حفاظاً على مكانتهم ومناصبهم، وعلى المنهج والخطوة نفس كان السير في طبيعة العداء المتأصل بين الدعاة والملأ الظالم خاصة في العصر الحاضر.

الخطوة الثانية: الإكتفاء ببعض الأمثلة دون تكرار:

الموضوع للبحث يتعلق بالملأ في القرآن الكريم، ولا يمكن استيعاب لكل ماورد من الأحاديث والسيرة لرسول الله ﷺ، من أمثلة على عناصر البحث، بل حاولت أن اكتفي ببعض الأمثلة والمواقف التي لها علاقة عميقة بالموضوع، كما أن القارئ يلاحظ أثناء قرائته تكراراً لبعض النصوص، سواء كان النص آية أو حديثاً أو أثراً، وكان ذلك - في نظر الباحث - أمراً ضرورياً، ليكون كل باب أو فصل أو مبحث وحدة موضوعية دعوية تحليلية مكتملة، مع ارتباطها ببقية أجزاء البحث، ذلك أن النص الواحد قد يشتمل على شواهد عديدة يستفاد منها في أكثر من موضع، وبالإضافة لتكرار النصوص حسب النظرة للإستفادة المستنبطة، والمعاني الدعوية المحتملة من النصوص، وأركز ببعض الكلمات الصعبة التي لها حاجة شديدة إلى توضيح أكثر فأكثر دون أي تكرار.

الخطوة الثالثة: محاولة ذكر واكتفاء ترجمة بعض الأعلام دون البعض لشهرتهم:

أحاول أن أذكر ترجمة مختصرة للتعريف بالأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومن بعدهم، باستثناء المشهورين من الصحابة كالخلفاء الأربعة ونحوهم... كما أن بعض الدعاة والأعلام المشهورين لم نذكر تراجمهم لشهرتهم وكثرة الكتابة عنهم. مثل: علامة عبد الرحمن السعدي والمفكر الإسلامي سيد قطب... رحمهما الله تعالى.

الخطوة الرابعة: مراعاة الظروف والأحوال التي تدور حول البحث:

نظرا للظروف واقتضاء الحال لم أذكر إسم أي شخص أو أي جماعة، مذهبية كانت أو سياسية، بل حاولت قدر الاستطاعة أن يكون البحث سببا للخير والصلاح، والألفة والأخوة للأمة الإسلامية عاما وللمجتمع بشكل خاص.

الخطوة الخامسة: تركيز الباحث على الآيات القرآنية المباركة

لاشك أن الموضوع يتعلق بالقرآن الكريم أكثر من الأحاديث والنصوص الأخرى وذلك لتوثيق العلاقة بين البحث والباحث وبين القرآن الكريم، وترغيبا للدعاة والباحثين الذين ليس لهم إلمام بكتاب الله واستخدامه في الدعوة إلى الله تعالى.

الهوامش والتوثيق:

- 1- قمت بتوثيق أقوال المفسرين الذين لديهم اهتمام أكثر فأكثر من الآخرين
- 2- إذا أشرت إلى المصادر فأذكر باسم الكتاب ثم المؤلف، والجزء والصفحة ورقم النص ولم أذكر الطبعة إلا مرة عند الحاجة خشية الإطالة.
- 3- وإذا ذكرت كلام أهل الفضل والعلم بتصريف أو اختصار أو أكثر من مصدر أقول ينظر كذا أوامر في صفحة كذا أو أنظر ...

خطة البحث

يتضمن البحث من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وكل باب يتكون من ثلاثة فصول، وكل فصل، يشتمل على مباحث، ثم الخاتمة والتوصيات، وتفصيل ذلك كما يلي:

المقدمة: وهي تحتوي باختيار عنوان الموضوع وأهميته كما أنها تشتمل بأسباب اختيار الموضوع، وأحاول تذكير أهم الدراسات السابقة ومدى إسهامي فيها، ومشكلة البحث، كما تشمل منهج البحث المتبع وخطة البحث.

التمهيد: وهو يشتمل على أربعة أمور:

الأمر الأول: مفهوم الملائة في ضوء القرآن الكريم.

الأمر الثاني: الفاظ مقاربة والكلمات التي لها صلة بالملائة في القرآن الكريم

الأمر الثالث: مقاصد ذكر القصص القرآنية وعلاقتها بالملائة

الأمر الرابع: تحديات الملائة في المجتمع الباكستاني ومواجهتهم للدعوة إلى الله

الباب الأول: المظاهر والسّمات الرئيسية للملائة في القرآن

الكريم، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أنواع الملائة في القرآن الكريم، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: الملائة الأعلى من الملائكة

المبحث الثاني: الملائة من الجن

المبحث الثالث: الملائة من الأنس

المبحث الرابع: المؤمنون من الملائة

المبحث الخامس: المتعاطفون من الملائة الكفار

المبحث السادس: الكفار المصرحون بالتكذيب من الملائة

المبحث السابع: المنافقون من المأ

الفصل الثاني: أسباب عداوة المأ للدعوة الرسل عليهم السلام،

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: الاستكبار.

المبحث الثاني: الخوف على المنصب والجاه.

المبحث الثالث: تأثير بعض المأ على بعض.

المبحث الرابع: الإصرار والعناد.

المبحث الخامس: المأ الجهل.

المبحث السادس: المأ الحسد.

المبحث السابع: المأ والتقليد الأعمى.

المبحث الثامن: الترف والانحماك في الشهوات.

المبحث التاسع: إنكار المأ البعث والجزاء.

المبحث العاشر: اتباع الهوى وكراهية الحق.

الفصل الثالث: آثار المأ على الفرد والمجتمع وفيه، ثمانية مباحث:

المبحث الأول: أثر المعاملة السيئة على الناس

المبحث الثاني: أثر الترغيب والإغراء

المبحث الثالث: أثر التخويف والترهيب

المبحث الرابع: أثر التضليل والتلبيس

المبحث الخامس: أثر الجهل المدمر

المبحث السادس: أثر المأ على الحاكم والمحكوم

المبحث السابع: أثر أساليب المأ على الدعوة

المبحث الثامن: أثر النفاق على الدعوة.

الباب الثاني: أساليب الملأ ضد الدعوة إلى الله تعالى

الفصل الأول: تشكيكات الملأ على الدعوة إلى الله تعالى وفيه : مبحثان

المبحث الأول: شبهات الملأ على الدعوة إلى الله تعالى

المبحث الثاني: شبهات الملأ على الرسل عليهم السلام.

الفصل الثاني: الجهود والمواجهات من الملأ، وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: التكذيب المستمر والجحود المتواصل

المبحث الثاني: الترغيب و المساومة

المبحث الثالث: التهديد والوعيد

المبحث الرابع: الإيذاء الروحي والنفسي

المبحث الخامس: الإيذاء البدني والجسمي

المبحث السادس: الملاحقة والتضييق

المبحث السابع: الاستعجال في الوعيد

المبحث الثامن: الإعداد للمواجهة

المبحث التاسع: الآثار السلبية على عامة الناس

المبحث العاشر: المخادعة

الباب الثالث: عراقييل الملة في المجتمع الباكستاني، ودور

الدعاة في معالجته، وفيه:

الفصل الأول: العراقييل والعقبات في المجتمع وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: الجهل في الملة

المبحث الثاني: الغلو والتطرف في الملة

المبحث الثالث: العصبية في الملة

المبحث الرابع: استمرار الملة على المعاصي

المبحث الخامس: التعصب والغلو والتطرف في الملة

الفصل الثاني: توظيف مناهج الأنبياء في دعوة الملة في العصر

الحاضر، وفيه: ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص و الإستقامة في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

المبحث الثاني: المحاجة والمخاورة،

المبحث الثالث: الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى

المبحث الأول: الإستقامة في طريق الدعوة، وفيه الفروع التالية:

المبحث الثاني: الحوار والمحاجة والمجادلة بين الأنبياء والملة، وفيه الفروع التالية:

المبحث الثالث: الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى

الغاية: وفيها أهم نتائج البحث والتوصيات:...

الفهارس الفنية:

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الأحاديث النبوية
- 3- فهرس الأعلام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم...
- 4- فهرس المصادر والمراجع
- 5- فهرس الموضوعات

التمهيد

يشتمل على الأمور التالية:

الأمر الأول: مفهوم الملأ في ضوء القرآن الكريم.

الأمر الثاني: الفاظ مقاربة والكلمات التي لها صلة بالملأ في القرآن الكريم

الأمر الثالث: المقاصد من الآيات القرآنية التي ذكر فيها الملأ

الأمر الرابع: تحديات الملأ في المجتمع الباكستاني ومواجهتهم الدعوية

الأمر الأول

مفهوم الملا وتعريفه في ضوء القرآن الكريم

موضوع (الملا) بحر لا ساحل له؛ وقد أخذ كثير من العلماء جوانب عديدة، نظراً إلى ظرف الموضوع نبداً بالمفهوم في ضوء القرآن الكريم والحديث النبوي ﷺ، وتاريخه، والفرق بين الرسم (الملا) بالالف و(الملوك) بالواو.

الملا في اللغة بمعان متعددة أذكر منها:

(1) أشراف القوم ورؤسائهم وذوا الجاه منهم⁽¹⁾.

قال صاحب تهذيب اللغة: "الملا مهموز مقصور: أشراف الناس ووجوههم"⁽²⁾، والملا: الرؤساء.

ومنه قول رسول الله ﷺ في دعائه علي رؤساء الكفر كأبي جهل وأشباهه: "اللهم عليك الملا من قريش"⁽³⁾.

وقوله عليه الصلاة والسلام: "إن الملا قد بغوا علينا"⁽⁴⁾، قال الإمام النووي "رحمه الله" هم أشراف القوم"⁽⁵⁾.

(1) - تهذيب اللغة للأزهري، طبعة دار الكتاب العربي، 1967م، وينظر: لسان العرب لابن منظور: 4252/6، طبعة دار المعارف، 1404هـ.

(2) - تهذيب اللغة للأزهري: 404/15، لسان العرب: 4252/6، وينظر تاج العروس للزبيدي: 437/1.

(3) - رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، (باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من المشركين بمكة): 1399/3، الطبعة الثالثة، دار ابن كثير،

ومسلم في كتاب الجهاد (باب ما لقي النبي ﷺ - وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين): 153/12، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية 1392م.

(4) - رواه البخاري في كتاب التمني، (باب قول الرجل: لولا الله ما اهتدينا): 2644/6، ومسلم في كتاب الجهاد، (باب غزوة الأحزاب): 171/12-172.

(5) - شرح النووي علي صحيح مسلم "12

وفي الحديث القدسي "فيم يختصم الملائكة الأعلى؟" (1)

والمراد من الملائكة الأعلى: الملائكة المقربون عليهم السلام (2).

وروى ابن اسحاق وهو يحكي قصة بدر قال: "ثم ارتحل رسول الله -صلي الله عليه وسلم-، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة - كما حدثني به عاصم بن عمر بن قتادة ويزيد بن رومان - ما الذي تهتفون به؟ فوالله إن الأعجائز صلحا (3) كالبدن المعلقة فحرقناها، فتبسم رسول الله صلي الله عليه وسلم ثم قال: أي ابن أخي أولئك الملائكة؟" (4).

كما جاء لفظ (الملائكة) بمعنى الأشراف والسادة وذوي الجاه في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: "مر الملائكة من القرين على رسول الله -صلي الله عليه وسلم- وعنده سيدنا خباب بن الارت وصهيب الرومي وبلال الحبشي وعمار رضي الله عنهم، فقالوا له: يا محمد! أرضيت بمولاه؟" (5).

وفي حديث سيدنا أنس بن مالك -رضي الله عنه- وهو يحكي قدوم رسول الله -صلي الله عليه وسلم- إلى المدينة "ثم أرسل إلى ملا بني النجار" (6).

(1)- رواه الترمذي في كتاب التفسير، (باب ومن سورة ص): 5/ 368-369، دارسحنون، الطبعة الثانية 1413هـ، وقال: هذا حديث حسن صحيح، رواه أحمد: الفتح الرباني: 223/17، دارأحياء التراث العربي، والدارمي: 449/2، دار سحنون تونس، الطبعة الثانية 1413هـ.

(2)- ينظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير: 4/ 351، دار الفكر بيروت، 1399هـ الموافق 1979م، بلوغ الأمان من أسرارالفتح الرباني للساعاتي: 223/17.

(3)- صلحا: أي: مشايخ عجزه عن الحرب، هو الذي انحسر الشعر عن رأسه. [النهاية في غريب الحديث: 47/3].

(4)- السيرة النبوية لابن هشام: 2/ 253، مكتبة الزهران بالقاهرة، وأورده ابن كثير في البدايه والنهايه نقلا عن ابن إسحاق: 3/ 372، دارأحياء التراث العربي، الطبعة الأولى 1408هـ.

(5)- رواه أحمد: الفتح الرباني 18/ 137، وابن جرير: تفسير الطبري: 7/ 200، مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الثانية 1373هـ. والواحد في أسباب النزول ص: 213، دارالقبلة، الطبعة الثانية 1404هـ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة [بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: 88/7، دار الفكر بيروت، 1413هـ].

(6)- رواه أحمد: الفتح الرباني: 18/ 137، وابن جرير في تفسيره: 7/ 200، مطبعة مصطفى البابي، الطبعة الثانية 1373م، والواحد في أسباب النزول: ص 213، دار القبلة، الطبعة الثانية 1404هـ، قال الهيثمي في مجمع

وفي حديث سيدنا ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: "إن الملاء من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمداً، لقمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي حتى دخلت على النبي -ﷺ-، فقالت: هؤلاء الملاء من قومك قد تعاقدوا عليك، لو قد رأوك، قاموا إليك فقتلوك..."⁽¹⁾.

وإن مصطلح (الملاء) بوجوه متعددة:

منها: أنه أخذ الملاء، من قولهم: ملاء الرجل بملاء ملاءة فهو ملئ، فوصفوا بذلك لأنهم ملئوا شرفاً، أو عقولاً راجحة، أو بما يطلب ويتغنى منهم، أو وصفوا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة، والمجالس بماء والأكف نوالاً كما أن لهم شأن في المجتمع والسياسة.

ومنها: أنه مأخوذ من قولهم: فلان ملئ بك، أي: مطبق له قادر عليه، فوصفوا بذلك لأنهم قادرون على ما يراد منهم من كفاية الأمور وترتيب المهمات⁽²⁾.

والملاء اسم جمع -غير أنه يختلف- كما في لسان العرب: عن (رهط) و (قوم) ونحوها من أسماء الجمع، على اعتبار أن لفظ (مالئ) وإن لم يجمع جمع تكسير على (ملاء) إلا أنه من لفظه على كل حال.

قال في لسان العرب: "ليس الملاء من باب رهط وإن كانا اسمين للجمع، لأن رهطاً لا واحد له من لفظه، والملاء وإن كان لم يكسر مالئ عليه فإن مائلاً من لفظه"⁽³⁾.

حكى أحمد بن يحيى: "رجل مالئ: جليل بملاء العين بجهته"⁽⁴⁾.

الزوائد: "رجال أحمد رجال الصحيح غير كُردوس، وهو ثقة" [بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: 88/7، دار الفكر بيروت، 1413هـ]

(1)- رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، (باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة): 1430/3-1431، ومسلم في كتاب المساجد: 6/5-7، شرح النووي على صحيح: 7/5.

(2)- ينظر: لسان العرب: 4252/6-4253، التفسير الكبير للفخر الرازي: 181/6، المطبعة البهية المصرية، 1357هـ، تفسير أبي السعود: 200/4، دار إحياء التراث العربي بيروت، تفسير روح المعاني: 36/12، دار الفكر بيروت، 1403هـ.

(3)- ينظر: لسان العرب: 1252/6، تاج العروس: 436/1.

(4)- الجهر: بضم الجيم: هيئة الرجل ومنظره. ينظر: ترتيب القاموس المحيط: 546/1، تاج العروس: 437/1-438.

وشاب مالى العين: إذا كان فخما حسنا، ويقال: "فلان أملاً لعيني من فلان، أي: أتم في كل شيء منظراً وحسناً، وهو رجل مالى للعين: إذا أعجبك حسنه وبهجته"⁽¹⁾.

ويجمع (الملاء) على (أملاء)⁽²⁾.

(2) الجماعة من الناس مطلقاً.

قال الجوهري: "ولملاء: الجماعة"⁽³⁾.

ومنه قول رسول الله ﷺ - في حديثه عن نبي الله موسى - عليه السلام - : "حتى انتهى إلى ملأه من بني إسرائيل"⁽⁴⁾.

وقوله - عليه السلام - : "بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل..."⁽⁵⁾.

وفي الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم"⁽⁶⁾.

قال ابن حجر: "قوله (وإن ذكرني في ملأ) بفتح الميم واللام، مهموزه أي: جماعة"⁽⁷⁾.

(3) الخلق:

قال في تهذيب اللغة: "ولملاء أيضاً الخلق، يقال: أحسن ملاك أيها الرجل، وأحسنوا أملاءكم"⁽⁸⁾.

(1) - تاج العروس: 437/1-438.

(2) - لسان العرب: 1252/6.

(3) - الصحاح للجوهري: 73/1، دار العلم بيروت، الطبعة الثانية 1399هـ، ترتيب القاموس المحيط: 274/4، تاج العروس: 436/1.

(4) - رواه البخاري في كتاب الأنبياء، (باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام: 11249/3، ومسلم في كتاب الفضائل، (باب فضائل موسى عليه السلام): 127/15.

(5) - رواه البخاري في كتاب الأنبياء، (باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام: 11246/3، ومسلم في كتاب الفضائل، (باب من فضائل الخضر عليه السلام): 147/15.

(6) - رواه البخاري في كتاب التوحيد، (باب قول الله تعالى: "ويحذركم الله نفسه"): 2694/6، ومسلم في كتاب الذكر، (باب الحث على ذكر الله تعالى): 3/17.

(7) - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 476/13، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1410هـ.

(8) - تهذيب اللغة: 404/15، وفي لسان العرب: 4253/6.

ومنه حديث رسول الله ﷺ: "أحسنوا الملاء كلكم سيروى"⁽¹⁾.

قال النووي: "الملاء بفتح الميم واللام وآخره همزة، وهو منصوب، مفعول أحسنوا، والملاء: الخلق والعشرة، يقال: ما أحسن ملاء فلان، أي: خلقه وعشيرته"⁽²⁾.

(4) التشاور والتتابع على الرأي، والاجتماع على الأمر⁽³⁾.

"يقال: ما كان هذا الأمر عن ملاء منا، أي تشاور واجتماع"⁽⁴⁾. ومنه قول أبي سفيان يوم أحد: "قد كانت في القوم مثلة، وإن كانت لعن غير ملاء منا"⁽⁵⁾ أي: تشاور من أشرافنا وجماعتنا"⁽⁶⁾.

(5) الطمع⁽⁷⁾. ملاء: أي طمع

(6) الظن⁽⁸⁾. ملاء: أي ظن

عدد ذكر لفظ الملاء في القرآن الكريم:

ورد مصطلح الملاء في القرآن الكريم ثلاثين مرة في اثنتي عشرة سورة في سورة: البقرة، والأعراف، ويونس وهود، ويوسف، والمؤمنون، والشعراء، والنمل، والقصاص، والصافات، وص، والزخرف، وقد جاء هذا المصطلح بحسب الرسم العثماني كالتالي: معرفاً بال التعريف: الملاء: 22 مرة، مضافاً: ملاءه: مرة واحدة. ملكه 6 مرات. ملكهم: مرة واحدة. أما البحث عن الملاء الأعلى في سورتي ص، والصافات فليس مكان البحث هنا، وقبل أن نتطرق إلى شيء من التفصيل نأتى إلى ماورد لفظ (الملاء في القرآن الكريم) في ثلاثين موضعاً، وفيما ذكرها: قال تعالى:

"ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى"⁽¹⁾.

(1)- رواه مسلم في كتاب المساجد، (باب قضاء الصلاة الفائتة): 188/5.

(2)- شرح النووي على صحيح مسلم: 188/5، وينظر: النهاية: 351/4.

(3)- ينظر: ترتيب القاموس المحيط: 274/4، تاج العروس: 435/1.

(4)- ينظر: لسان العرب: 4253/6، تاج العروس: 435/1.

(5)- رواه أحمد، الفتح الرباني: 56/21، وأورده ابن كثير في تفسيره: 412/1-413، دار المعرفة بيروت، 1402 هـ.

(6)- بلاغ الأمامي من أسرار الفتح الرباني: 56/21.

(7)- ينظر: ترتيب القاموس المحيط: 274/4، لسان العرب: 4253/6، تاج العروس: 436/1.

(8)- نفس المصادر السابقة، ونفس الصفحات.

"قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين" (2).

"قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظك من الكاذبين" (3).

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب" (4).

"وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون" (5).

"ثم بعثنا من بعده موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه" (6).

"وقال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر" (7).

"وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض" (8).

"ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه" (9).

"فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم" (10).

"وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" (11).

"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا" (12).

"يَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ" (1).

(1) - سورة البقرة، الآية: 246.

(2) - سورة الأعراف، الآية: 60.

(3) - سورة الأعراف، الآية: 66.

(4) - سورة الأعراف، الآية: 75.

(5) - سورة الأعراف، الآية: 88.

(6) - سورة الأعراف، الآية: 90.

(7) - سورة الأعراف، الآية: 103.

(8) - سورة الأعراف، الآية: 109.

(9) - سورة الأعراف، الآية: 127.

(10) - سورة يونس، الآية: 75.

(11) - سورة يونس، الآية: 83.

(12) - سورة هود، الآية: 27.

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ" (2).

"يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ" (3).

"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَمُضِلَّ عَلَيْكُمْ" (4).

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ" (5).

"ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ" (6).

"قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ" (7).

"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ" (8).

"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون" (9).

"قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَكُنْمْ بِأُتَيْتِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" (10).

"وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ" (11).

"اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ" (12).

(1) - سورة هود، الآية: 38.

(2) - سورة هود، الآية: 96-97.

(3) - سورة يوسف، الآية: 43.

(4) - سورة المؤمنون، الآية: 24.

(5) - سورة المؤمنون، الآية: 33.

(6) - سورة المؤمنون، الآية: 45-46.

(7) - سورة الشعراء، الآية: 34.

(8) - سورة النمل، الآية: 29.

(9) - سورة النمل، الآية: 32.

(10) - سورة النمل، الآية: 38.

(11) - سورة القصص، الآية: 20.

(12) - سورة القصص، الآية: 32.

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي" (1).

"لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقْلَقُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ" (2).

"وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ" (3).

"قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ" (4).

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (5).

اتضح من سرد الآيات القرآنية أن كلمة الملائكة في معظم خطاباتها تعني الصفة الخاصة التي تدور مع رغبات الجبابرة والمترفين والذين يتلونون في مواقفهم كالحرياء في الرضاء وهم لا يرون إلا مصالحهم الشخصية والتهمة التفوقية والميلذات الشهوانية والتلاعب في الحق وتزويره أمام الشعب.

يمكنني أن أذكر باختصار وإيجاز معاني لفظ (الملائكة) الوارد في الآيات المباركات التالية:

1- الملائكة بمعنى ذوو الجاه والصدارة من الأشراف والسادة، والرؤساء والكبراء، والقادة والزعماء.

وهذا الاستعمال هو الغالب في القرآن الكريم، ويتضح ذلك جلياً في كثير من الآيات السابقة كقوله تعالى: "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (6)، وقوله جلاً وعلاً: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ" (7)، وقوله تعالى: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَمُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا" (8).

(1)- سورة القصص، الآية: 38.

(2)- سورة الصافات، الآية: 8.

(3)- سورة ص، الآية: 6.

(4)- سورة ص: الآية، 67-69.

(5)- سورة الزخرف: الآية، 4.

(6)- سورة الأعراف: الآية، 60.

(7)- سورة الأعراف: الآية، 73.

(8)- سورة الأعراف: الآية، 88.

وقوله جلال شأنه: "وقال الملائكة من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم"⁽¹⁾، وقوله تبارك وتعالى: "فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم"⁽²⁾، وقوله عز وجل: "فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاًنا"⁽³⁾، وقوله تعالى: "فقال الملائكة الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم"⁽⁴⁾، وقوله سبحانه: "وقال الملائكة من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم"⁽⁵⁾، وقوله تباركت أسمائه: "قال للملائكة حولي إن هذا لساحر عليم"⁽⁶⁾، وقوله سبحانه وتعالى: "وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملائكة يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين"⁽⁷⁾.

وقوله عز وجل: "وانطلق الملائكة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن لهذا لشيء يراد"⁽⁸⁾، وأذكر هنا بعض أقوال المفسرين في تفسير لفظ (الملائكة):

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: "قال الملائكة من قوم فرعون إنا لنراك في ضلال مبين"⁽⁹⁾ الملائكة: أشرف القوم ورؤسائهم"⁽¹⁰⁾، وقال في التسهيل: "الملائكة: أشرف الناس"⁽¹¹⁾، وقال النسفي: "الأشرف والسادة"⁽¹²⁾، وقال الزجاج: "هم الرؤساء والأشرف"⁽¹³⁾، وقال الفخر الرازي: "قال المفسرون: (الملائكة): الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أئمة الأئمة، والدليل عليه أن قوله تعالى (من قوله) يقتضي أن ذلك الملائكة بعض قومه، وذلك البعض لا بدوا أن يكونوا موصوفين بصفة لأجلها استحقوا هذا الوصف، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملأون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم،

(1)- سورة الأعراف: الآية، 109.

(2)- سورة يونس: الآية، 83.

(3)- سورة هود: الآية، 27.

(4)- سورة المؤمنون: الآية، 24.

(5)- سورة المؤمنون: الآية، 33.

(6)- سورة الشعراء: الآية، 34.

(7)- سورة القصص: الآية، 20.

(8)- سورة ص: الآية، 6.

(9)- سورة الأعراف: الآية، 60.

(10)- تفسير القرطبي: 149/7، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1408هـ.

(11)- الكلي؛ محمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 36/2، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، الطبعة الثانية 1393هـ.

(12)- تفسير النسفي: 546/1، دار الكتاب العربي بيروت (بدون تاريخ).

(13)- الزجاج، معاني القرآن الكريم وأعرابه: 346/2، دار عالم الكتب بالرياض - السعودية، الطبعة الأولى 1408هـ،

وينظر: معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس: 2046/3.

وتتوجه العميون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدل على أن المراد من (الملأ): الرؤساء والأكابر⁽¹⁾.

وقال أبو السعود في قوله جل وعلا: "قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم"⁽²⁾ أي: الأشراف منهم؛ وهم أصحاب مشورته⁽³⁾.

وقال ابن قتيبة: "أشرافهم ووجوههم"⁽⁴⁾، وقال الآلوسي: "أي الأشراف منهم، وهم أهل مشورته ورؤساء دولته"⁽⁵⁾.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا"⁽⁶⁾

"الملأ: هم السادة والكبراء"⁽⁷⁾، وقال أبو جعفر النحاس: "الملأ: الرؤساء"⁽⁸⁾، وقال الزجاج: "رؤساء القوم وكبرائهم"⁽⁹⁾، وقال ابن جرير: "الكبراء من قوم نوح وأشرافهم"⁽¹⁰⁾.

وقال أبو الحيان في قوله تعالى: "فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم"⁽¹¹⁾ "أي كبراء الناس وعظمائهم"⁽¹²⁾، وقال الآلوسي: "أي الأشراف"⁽¹³⁾، وقال ابن كثير: "هم السادة والأكابر منهم"⁽¹⁴⁾.

(1)- الرازي، التفسير الكبير: 150/14.

(2)- سورة الأعراف: الآية: 109.

(3)- تفسير أبي السعود: 259/3.

(4)- ابن قتيبة، تفسير غرائب القرآن الكريم: ص، 171، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 1398هـ.

(5)- تفسير روح المعاني: 21/9.

(6)- سورة هود عليه السلام: الآية، 27.

(7)- تفسير ابن كثير: 442/2.

(8)- أبو جعفر النحاس، معاني القرآن الكريم: 341/3.

(9)- الزجاج، معاني القرآن الكريم: 47/3.

(10)- تفسير الطبري: 126/12.

(11)- سورة المؤمنون: الآية، 24.

(12)- أبو الحيان، تفسير بحر المحيط: 402/6، دار الفكر دمشق - سوريا، الطبعة الثانية 1403هـ.

(13)- الآلوسي، تفسير روح المعاني: 25/18.

(14)- تفسير ابن كثير: 243/3.

وقال ابن جرير في قوله تعالى: (وانطلق الملائكة منهم...) (1) "انطلق الأشراف من هؤلاء الكافرين من قريش" (2)، وقال الشوكاني: "المراد به (الملائكة): الأشراف كما هو مقرر في غير موضع من تفسير الكتاب العزيز" (3).

في ظل هذه الآيات الكريمات والأحاديث المباركة علمنا أن هؤلاء الصفوة أو الحاشية هم مشكلة كل عصور الطفيلان في القديم والحديث، وهم أقرب ما يكونون إلى وصف (الملائكة) الذين حدثنا القرآن الكريم - في أكثر من آية - عن صفاتهم وخطورة دورهم الخبيث في كافة الأزمان، إضافة إلى ذلك أقول: إن الملائكة المستبد الظالم العالمي وحاشيته في العصر الحاضر أظهر من طلوع الفجر ظلما وعدوانا وسفك دماء المسلمين الأبرياء، بلسان الحال يقولون من أشد منا قوة، ألم يرو أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، إن بطشه شديد. وأن عذابه عذاب أليم.

2- القوم والجماعة مطلقا، أو طائفة من القوم.

وهذا المعنى أورده بعض المفسرين بيانا للفظ (الملائكة) في بعض الآيات، كقوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام: "قال يا أيها الملائكة أيكم يأتي بي بعريها.." (4) قال ابن كثير: "جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده" (5)، "والملائكة: جماعة من الجن والإنس" (6).
وقول الله جلا وعلا في قصة سيدنا موسى عليه السلام: "فذلك برهانا من ربك إلى فرعون وملئه" (7)، قال ابن كثير: "أي قومه" (8).
وقوله سبحانه وتعالى: "وقال فرعون يا أيها الملائكة ما علمت لكم من إله غيري" (9)، فرعون يخاطب بمقولته الجموع من قومه؛ كما أوضح ابن كثير (10).

(1)- سورة ص: الآية، 6.

(2)- تفسير الطبري: 126/23.

(3)- الشوكاني، تفسير فتح القدير: 321/4، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة- مصر، الطبعة الثانية 1383هـ.

(4)- سورة النمل، الآية: 38.

(5)- تفسير ابن كثير: 363/3.

(6)- التسهيل لعلوم التنزيل: 96/3.

(7)- سورة القصص، الآية: 32.

(8)- تفسير ابن كثير: 388/3.

(9)- سورة القصص، الآية: 38.

(10)- تفسير ابن كثير: 390/3.

وهذا التفسير للفظ "الملائكة" في هذه الآيات ليس متفقاً عليه بين المفسرين، فهناك من يجعل المراد بالملائكة هنا أيضاً الأشراف والسادة⁽¹⁾.

3- يراد من (الملائكة) الملائكة.

وذلك في آيتين كريمتين قيد فيهما لفظ (الملائكة) بوصف (الأعلى)؛ للدلالة على الملائكة عليهم السلام.

والآيتان هما قول الله سبحانه وتعالى: "لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى.." ⁽²⁾، وقوله عز وجل على لسان رسول الله - ﷺ -: "ما كان لي من علم بالملائكة الأعلى إذ يختصمون" ⁽³⁾.
 روى ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: "الملائكة الأعلى: الملائكة" ⁽⁴⁾، وكذلك قال قتادة ⁽⁵⁾.

وقال البغوي: "الملائكة الأعلى: هم الملائكة؛ لأنهم في السماء" ⁽⁶⁾.

وفيما أوردته من المعاني تنحصر استعمالات لفظ (الملائكة) في القرآن الكريم، وأما في السنة النبوية فقد سبق عرض نماذج منها أثناء الحديث عن تعريف الملائكة في اللغة.

والمقصود بلفظ (الملائكة) في هذا البحث هو المعنى الذي غلب استعماله في القرآن الكريم، وانتشاره في كتب التفسير بياناً للفظ (الملائكة)؛ والذي صدرت به المعاني الثلاث للفظ (الملائكة) في القرآن الكريم.

وعلى هذا فـ (الملائكة) هم الذين لهم بروز وتصدر في أقوامهم، وشرف ومكانة في مجتمعاتهم، ونفوذ وسيادة في أوطانهم، أو ينظر الناس إليهم هذه النظرة حسب التصورات والأعراف، والمفاهيم القائمة، ويشعر العامة أن هؤلاء القادة على التأثير في مجريات الأحداث والاستحقاق لقيادة الناس في المجتمع، ومنهم من يكون ممسكاً في الواقع بمقاليد السلطة ومتولياً مناصب الرئاسة والزعامة في عامة الناس.

(1)- تفسير القرطبي: 165/19، 772/20.

(2)- سورة الصافات، الآية: 8.

(3)- سورة ص، الآية: 69.

(4)- تفسير الطبري: 23:83.

(5)- نفس الصفحة من المرجع السابق.

(6)- تفسير البغوي: 23/4، دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة الثانية 1407هـ، وتفسير القرطبي: 147/15، وتفسير

ابن كثير: 3/4.

وحيثما يطلق عليهم القرآن الكريم لفظ (الملأ) فإنما هو من قبيل بيان الواقع، وذكر الأمر القائم بغض النظر عن استحقاقهم لوصف الشرف والسيادة أو عدمه، وقريب من ذلك فعل رسول الله ﷺ - حيث بعث كتابه إلى هرقل، وفيه:

"من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم"⁽¹⁾، فإطلاق الرسول -عليه السلام- على هرقل بأنه (عظيم الروم) ليس من باب الحكم باستحقاقه لهذا الوصف، وإنما هو من باب بيان الواقع؛ فهو كبير وعظيم عند قومه: يعظمونه ويهابونه، كما قال ابن جرير: "المراد من تعظمه الروم وتقدمه للرئاسة عليها"⁽²⁾.

وكذلك إطلاق لفظ (الملأ) في القرآن الكريم على المتصدرين من أقوام الرسل -عليهم السلام- إنما هو بيان للحال وتقرير للواقع⁽³⁾.

يقول الباحث: لقد خطر في بالي ماهو السر والحكمة في الفرق بين هذين المصطلحين مع أن القرآن الكريم يكرر مصطلح الملأ ولم يذكر أى مفسر ولا أى عالم لغوى، عن الفرق بينهما، إلا إن علم الرسم يشير إلى بعض المعلومات دون أى ربط وعلاقة بين المصطلحين.

2- الفرق بين رسم (الملأ) بالالف وبين رسم (الملؤ) بالواو في القرآن الكريم

عرفه الدكتور السلواي: لم ينتبه مفسروا القرآن الكريم من السلف الصالح إلى الاختلاف في رسم الكلمة الواحدة في القرآن الكريم بأكثر من صورة، فلم يأت أحد منهم على ذكر هذا الاختلاف البين في رسم الكلمة الواحدة فاعتبروها ذات معنى واحد رغم اختلاف رسمها في آية عن رسمها في آية أخرى.

ولأن القرآن الكريم كلام الله تعالى وقد تعهد سبحانه بحفظه (قراءة ورسمًا) فلا بد إذاً أن في اختلاف رسم الكلمة الواحدة اختلافاً طفيفاً في المعنى، وإلا لما كان هناك داعٍ لاختلاف الرسم. وحين نتدبر مثل هذه الكلمات تدبراً دقيقاً وعميقاً نستطيع أن نميز هذا الفرق الدقيق في المعنى بين رسمي الكلمة الواحدة والذي لم ينتبه إليه أي من مفسري القرآن من سلفنا الصالح.

(1)- رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، (باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ): 9-7/1، ورواه مسلم في كتاب الجهاد، (باب كتب النبي ﷺ): 103/12-111.

(2)- فتح الباري: 279/8.

(3)- زيدان؛ عبد الكريم، أصول الدعوة: ص 366، الطبعة الثالثة 1396هـ / 1976م.

ومن هذه الكلمات كلمة (الملأ)، حيث رسمت بضعاً وعشرين مرة على هذه الصورة (الملأ)، بينما رسمت في أربعة مواضع على صورة (الملأ)، فما الفرق بينهما في المعنى؟

وردت كلمة (الملأ) مرسومة بحرف الألف في كثير من الآيات القرآنية الكريمة مثل:

"ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذا قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله.."

"قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين".⁽¹⁾

"قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسلأ من ربه"⁽²⁾.

"...يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون"⁽³⁾.

"وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري..⁽⁴⁾"

"لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب"⁽⁵⁾.

أما المرات الأربع التي ورد فيها رسم الكلمة بالواو (الملأ) ففي الآيات:

"قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم"⁽⁶⁾

"قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون"⁽⁷⁾

"قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين"⁽⁸⁾.

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم..⁽⁹⁾"

(1)- سورة الأعراف: 60

(2)- سورة الأعراف: 75

(3)- سورة يوسف: 43

(4)- سورة القصص: الآية 38.

(5)- سورة الصافات: الآية 8

(6)- سورة النمل: الآية 29.

(7)- سورة النمل: الآية 32.

(8)- سورة النمل: الآية 38

(9)- سورة المؤمنون: الآية 24

وحين نستعرض المرات الكثيرة التي ورد فيها رسم الكلمة بالملأ نجد أن معناها ينصرف إلى علية القوم في المجتمع وهم شريحة عريضة من الأغنياء وأصحاب الشهرة والنفوذ، وهم الذين يشكلون الرأي العام في أي مجتمع، ففي المجتمعات القديمة كان (الملأ) يعبر عن طبقة الأغنياء وطبقة أصحاب السلطة المعينين عن طريق الملك، وطبقة هي في حاشية الملك سواء من أقاربه أم من مستشاريه.

وأما في المجتمعات الحديثة فنستطيع أن نضيف إلى ذلك شريحة الإعلاميين وشريحة الفنانين وشريحة مشاهير السياسيين وشريحة رجال الأعمال وغيرهم. وهؤلاء هم (الملأ) الذين يستطيعون أن يؤثروا تأثيراً كبيراً في الرأي العام لأي مجتمع حديث.

وبالعودة إلى الآيات التي ذكرت (الملأ) برسم حرف الألف نجد أنها تشير إلى هذه الأصناف من الناس ففي الآية "ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلون قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليل منهم والله عليم بالظالمين" (1).

نلاحظ أن الذين طلبوا من النبي أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله هم الشريحة التي تسيطر على الرأي العام في المجتمع وهم أصحاب مصلحة مادية أيضاً لأنهم ذكروا أنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم فيريدون أن يستردوا الديار، ثم نلاحظ أنهم نكصوا على أعقابهم حين كتب عليهم القتال إلا قليل منهم

والآية "قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين" (2). وردت في سياق مختصر قصة نوح مع قومه حيث وردت القصة في 6 آيات فقط نتحدث عن إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه ورّد (الملأ) الذين هم أصحاب الرأي العام عليه برفض دعوته ثم عقاب الله تعالى لهم بالغرق.

والآية "قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مومنون" (3). وردت أيضاً في سياق مختصر لقصة صالح وقومه ثمود في 7 آيات، ونجد أن (الملأ) هم الذين استكبروا من القوم واستهزأوا بالمؤمنين المستضعفين وأعلنوا أنهم كافرون بما أرسل به صالح فأخذهم الله بالرجفة.

(1)- البقرة: الآية 246

(2)- سورة الأعراف: الآية 60

(3)- سورة الأعراف: الآية 75

وأما الآية التي تذكر رؤيا ملك مصر أيام يوسف عليه السلام "...يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون" (1). فقد توجه فيها الملك إلى خطاب (الملأ) الذين هم شريحة اجتماعية مكونة من الكهنة والسحرة وخبراء عصرهم في تعبير الرؤى والأحلام.

وفي الآية الكريمة "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري..." (2). يخاطب فرعون (الملأ) الذين هم على القوم البارزين في شتى المجالات والذين يوجهون لهم الدعوات للمشاركة في المحافل والمجالس والاجتماعات العامة التي يلقي فيها الحاكم خطاباً.

وفي الآية الكريمة "لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب" (3). نجد أن (الملأ الأعلى) هم شريحة عريضة من الملائكة الكرام الذين يمتازون بعلمهم بما سيكون على الأرض من أحداث، وهم يتحدثون بها فيسمعها الجن الذين كانوا يتخذون من السماء مقاعد للسمع، ونجد أن هذه الشريحة من الملائكة كبيرة ومنتشرة في السماء لأن الجن كانوا يتنصتون عليها من مختلف أجواء الأرض.

أما الآيات الأربع التي رسمت فيها كلمة (الملأ) بالواو، فنجد أن (الملأ) فيها هم خاصة الخاصة في المجتمع، فهم في المجتمعات القديمة مستشاروا الملك المقربون وحاشيته من أقاربه، وفي المجتمعات الحديثة فهم رجال الرئيس من مستشارين ووزراء، وحين نستعرض هذه الآيات نجد فيها جميعاً مايلي:

"قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم" (4). فملكة سبا تخبر خاصة مستشاريها بأنها ألقي إليها كتاب كريم، ولم تخبر صنّاع الرأي العام في مجتمعتها، بل أخبرت عدداً محدوداً جداً (الملأ) من مستشاريها ووزرائها فقط.

"قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون" وهي هنا تستشير خاصتها في الخطوة التي تتخذها إزاء رسالة سليمان إليها، ومن البدهي أنها لا تخاطب الرأي العام هنا بل تخاطب خاصة الخاصة.

(1)- سورة يوسف: الآية 43

(2)- سورة القصص: الآية 38

(3)- سورة الصافات: الآية 8

(4)- سورة النمل: الآية 29

"قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين" ⁽¹⁾. وفي هذه الآية نجد سليمان عليه السلام يخاطب (الملأ) الذين هم خاصة مستشاريه من الجن والإنس، فيسألهم أياكم يأتي بعرشها، ومن البدهي أنه لا يخاطب شريحة عريضة في المجتمع بل شريحة خاصة جداً وهي مستشاروه.

ولكي نستيقن أن ما ذهبنا إليه من تفسير معنى (الملأ) بالألف هم الشريحة العريضة من المجتمع التي تشكل الرأي العام فيه، ومعنى (الملأ) بالواو من أهم خاصة الخاصة في المجتمع، فسوف نستعرض آيتين كريمتين خاصتين بقصة نوح عليه السلام حيث ورد في إحدهما ذكر (الملأ) بالألف، وورد في الأخرى ذكر (الملأ) بالواو، وسنحاول شرح الفرق الدقيق في المعنى بين اللفظين.

ففي الآية 27 من سورة هود نقرأ من قصة نوح "فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين".

وفي الآيتين 24 و 25 من سورة المؤمنون نقرأ من قصة نوح وقومه "فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين، إن هو إلا رجل به جنة ففريصوا به حتى حين".

فقصة نوح في سورة هود استغرقت 24 آية وكان فيها كثير من التفاصيل، والآية التي ذكر فيها (الملأ) بالألف نقرأ فيها كلاماً موجهاً من (الملأ) إلى نوح في صيغة المخاطب "ما نراك إلا بشراً"، "وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا"، "وما نرى لكم علينا من فضل"، "بل نظنكم كاذبين". وهذا يعني أن نوحاً عليه السلام كان يدعو (الملأ) كل يوم فيسمع منهم مثل هذا الكلام، ومن البدهي أن (الملأ) الذين كان يدعوهم يوماً بعد يوم هم أناس من علية القوم ولكنهم (ملأ) مختلف في كل يوم أي شريحة أخرى من شرائح علية القوم، فبعضهم كان يرد عليه بالقول "ما نراك إلا بشراً مثلاً" وبعضهم يرد عليه بالقول "ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا"، وبعضهم كان يرد عليه بالقول "وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين".

أما قصة نوح في سورة المؤمنون فقد وردت مختصرة جداً عنها في سورة هود حيث وردت في المؤمنون في 7 آيات فقط فلم ترد فيها تفاصيل كثيرة، وقد ورد فيها ذكر (الملأ) بالواو ليعبر عن قوم محدودي العدد هم خاصة الخاصة في المجتمع، حيث اجتمعوا معاً وتشاؤروا في شأن دعوة نوح دون أن يكون نوح موجوداً معهم،

حيث نجدهم يتكلمون عنه في صيغة الغائب "ما هذا إلا بشر مثلكم"، "يريد أن يتفضل عليكم"، "إن هو إلا رجل به جنة فترصبوا به حتى حين". ثم لما أصرت هذه الخاصة من الناس (الملأوا) على الكفر بدعوته دعا الله تعالى قائلاً في الآية 26 "قال رب انصربي بما كذبون" فأوحى الله تعالى إليه في الآية التالية 27 "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا...". وعليه فإن (الملأ) الذين كفروا بدعوة نوح هم عامة علية القوم، بينما (الملأوا) الآخرين هم من خاصة علية القوم.

مما سبق نستطيع أن نعرف (الملأ) بأنهم علية القوم من مشاهير السلطة والإعلام والثروة والفن وهم صانعو الرأي العام في المجتمع.

أما (الملأوا الكوادر) فهم خاصة الخاصة من علية القوم من الوزراء ومستشاري الملوك والرؤساء. فهم سواء في أمريكا يمثلون مستشارون خبراء في مهنتهم متخصصون في مجالاتهم يؤخذ بأرائهم ولهم استراتيجيات حسب توجيهاتهم يدورون مع الرئيس حيث دار (رجال الرئيس) وفي المملكة أو الإمارة فهم (حاشية الملك أو الأمير) من أقاربه ومستشاريه، وفي الجمهوريات فهم (وزراء الرئيس ومستشاروه كما في باكستان) والله تعالى أعلم وعلمه أتم.

الأمر الثاني

الألفاظ المقاربة والكلمات التي لها صلة بـ (الملأ) في القرآن الكريم

لقد تضمن القرآن الكريم ألفاظا وكلمات لها معنى مقارب لكلمة (الملأ) بالمعنى الاصطلاحي. وكلها تدور حول الجاه والمنصب، والسيادة والرياسة، وذلك كما يلي:

1- الأنداد والمتبوعون:

وقد ذكر القرآن الكريم الأمثلة كثيرة حول هذا كما في الآية الكريمة: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله..." إلى قوله تبارك وتعالى وتقطعت بهم الأسباب⁽¹⁾.

ذهب ابن عباس رضي الله عنهما والسدى وأكثر المفسرين إلى أن الأنداد هنا هم الرؤساء والمتبوعون، يطيعهم الاتباع في معاصي الله تعالى⁽²⁾ وإن حصرها ابن عاشور بالأصنام فقط، ونفي أن تشتمل هذه الكلمة في القرآن الكريم كله لمعنى الرياسة والسيادة⁽³⁾ (والمفسرون يرون مدلول الأنداد محتملا لأن يراد به الأصنام، وأن يراد به السادة والزعماء، ويمكن القول بأن السياق يرجح إرادة الزعماء؛ حيث أن الصورة كلها تمثل موقفا بين السادة والأتباع، بالإضافة إلى أنه في الآية السابقة نفسها ومن تكلمة قوله تعالى: أن القوة لله جميعا، في مقام الرد على اتخاذ الأتباع زعماءهم أندادا من دون الله، والأتباع لا يعتقدون في الأصنام القوة التي يعتمدون عليها في الحياة اعتمادا مباشرا⁽⁴⁾).

قال الرازي: واختلفوا في المراد بـ هؤلاء المتبوعين على وجوه... أحدها أنهم السادة والرؤساء من مشركي الجن، عن قتادة والربيع وعطاء... ويجب أيضا نحملهم على السادة من الناس، لأنهم

(1) - سورة البقرة: الآية، 165-167

(2) أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، ت: 546هـ، المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز، تحقيق: الرجال الفاروق وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الطبعة الأولى، ج2، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، الدوحة، 1977م، ص54.

(3) محمد طاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، والدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1985م، ج2، ص9.

(4) عبد الحليم حفي، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، مطابع الهيئة المصرية للكتاب، 1989م، ص234-235.

الذين يصح وصفهم من عظمهم بأنهم يحبونهم كحب الله دون الشياطين. ويؤكد قوله تعالى: إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا^{1،2}.

ففي هاتين الكلمتين معنى الخضوع كما هو المعهود من الرعايا الضعفاء مع الملوك والأمراء، والوثنيون يقيسون الله تعالى على من يعظمونه من الرؤساء وعظماء الخلق، ولا سيما المستبدين المستكبرين منهم، الذين استعبدوا الناس استعبادا، بل تعبدوهم فعبدوهم.

والأنداد عند جمهور المفسرين أعم من الأصنام والأوثان، فيشمل الرؤساء الذين خضع لهم بعض الناس خضوعا دينيا³.

وقد ظن الأتباع في أسيادهم الأنداد والمتبوعين أنهم نافعوهم، وأكد لهم أندادهم ومتبوعوهم هذا الظن حتى وصل إلى درجة القناعة؛ فكان التفصل والتبرؤ منهم يوم القيامة على خلاف ما وعدوهم به⁴.

يقول الله عن لسان حالهم: (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين.... من عيص)⁽⁵⁾.

قال الرازي: اعلم أن تعالى لما بين حال من يتخذ من دون الله أندادا بقوله:

ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب... على طريق التهديد زاد في هذا الوعيد بقوله تعالى: "إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا". فبين أن الذين أفنوا عمرهم على عبادتهم واعتقدوا أنهم أوكد أسباب نجاتهم فلأنهم يتبرأون منهم عند احتياجهم إليهم... معنى الآية أن المتبوعين يتبرأون من الأتباع ذلك اليوم.

فبين تعالى ما لأجله يتبرأون منهم وهو عجزهم عن تخليصهم من العذاب الذي رأوه، ولأن قوله: وتقطعت بهم الأسباب، يدخل في معناه أنهم لم يجدوا إلى تخليص أنفسهم وأتباعهم سبيلا، والأيس من كل وجه يرجو به الخلاص مما نزل به وبأوليائه من البلاء يوصف بأنه تقطعت به الأسباب⁽⁶⁾.

- (1) سورة الأحزاب، الآية: 67،
- (2) محمد بن عمر الرازي، ت: هـ 604 تفسير مفاتيح الغيب، ج2 تقييم: خليل عى الدين الميس، ج13 دار الفكر، بيروت، 1995، ص، 234.
- (3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الطبعة الثانية، ج2، دار الفكر، ص 65-66.
- (4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، مصدر سابق، ص 97.
- (5) سورة إبراهيم، الآية: 21.
- (6) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ج2، ص 233-234.

2- الأكاير والكبراء:

ونجد هذا المرادف في قوله تعالى: "وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها..."¹ وفي قوله تبارك وتعالى: وقالوا ربنا إنا أطعنا ما دتنا وكبراءنا... السبيلا² وجعلنا في هذه الآية صيرنا. فهي تتعدى إلى مفعولين؛ فالمفعول الأول، مجرميها، والثاني، أكابر. وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر، وقدم للأهم³

قال المراغي: ومجمل القول أن سنة الله في الاجتماع البشري قد قضت أن يكون في كل عاصمة لشعب أو أمة بعث فيها رسول أو لم يبعث زعماء مجرمون يمحرون بالرسول وسائر المصلحين من بعدهم، وهكذا كان الحال في أكثر أكابر الأمم والشعوب، ولا سيما في العصور التي تكثر فيها المطامع ويعظم حب الرياسة والكبرياء؛ فتراهم يمحرون بالأفراد والجماعات؛ فيحفظوا رياستهم ويعززوا كبرياءهم، كما يمحرون بغيرهم من الساسة والرؤساء إرضاء لمطامع أمتهم وتعزيز نفوذ حكومتهم بين الشعوب والدول. والمراد بالأكابر المجرمين ممن يقاومون دعوة الإصلاح، ويعادون المصلحين من الرسل وورثتهم، وكان أكثر أثل مكة أكابر كذلك. وتخصيص الأكابر بذلك لأنهم أقدر على المكر واستتباع الناس لهم⁽⁴⁾.

3- البطانة:

لقد ورد مصطلح البطانة في القرآن الكريم في موضع واحد، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا..."⁵ وفي الحديث عن منافق أهل الكتاب: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانة..."⁶

- (1) سورة الأنعام، الآية: 123.
- (2) سورة الأحزاب، الآية: 67.
- (3) ابن عطية عبد الحق بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 5، ص 338.
- (4) أحمد مصطفى المراغي ن تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، 1990م، ج 8، ص 20.
- (5) سورة آل عمران، الآية: 118.
- (6) البخاري، صحيح البخاري، كتاب: الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق، د/ مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، طبعة 1، 1422هـ، 77/9.

ومن هذه العبارات والمعاني جميعا يمكن اعتبار أنه مفهوم البطانة مفهوم خاص لمن يحيط بالشخص، أو الحاكم، ويطلع على أخص أسرار، وقد يكون ذلك شخصا أو أشخاصا عدة، وقد يكون مشهورا بحسن الخلق أو سوءه، وقد يكون من القوم أنفسهم، أو من قوم آخرين، كما دلت عليه الآية القرآنية التي ذكرت البطانة أما (الملأ) فيشمل البطانة وغيرها في بعض الأحوال، فمفهوم الملأ ينحصر في مفهومين، بحسب البيئة والمرحلة الزمنية، وما يمكن استنتاجه من القصص القرآني.

جميع هذه الأنواع من الملأ عامة وخاصة، وخاصة الخاصة نجدها في العصر الحاضر، عقيدة وفكرا وسياسة... كما أن الدعوة أمام العقبات والتحديات الفاشلة من قبلهم.

على الدعاة أن يدافعوا عن كيدهم ومكرهم بكل قوة واستقامة، ويرفعوا راية الإسلام في كل بر وبحر، وإلا ستبقى الأمة مشلولة الأيد أمام العالم.

الأمر الثالث

المقاصد من ذكر "الملأ" في الآيات القرآنية وأغراضه

ما أخبر الله سبحانه وتعالى به في القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة والأنبياء -عليهم السلام-، والحوادث الواقعة في زمن رسول الله -ﷺ-.

والقرآن الكريم كتاب دعوة دينية وإسلامية قبل كل شيء، والقصص إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها⁽¹⁾.

وأهداف ذكر القصص في القرآن الكريم على التفصيل كثيرة⁽²⁾، ويمكن تلخيصها في أهم هذه الأهداف والأغراض فيما يلي:

أولاً: التفكير والاعتبار، وتلقي الدروس والعظات.

ومن البديهيات أن هذا في قول الله تبارك وتعالى: "لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الباب"⁽³⁾. عبر ودروس.

فصاحب العقل السليم حين يقرأ ويستمع إلى القرآن الكريم وقصص المذكورة فيه يأخذ العبرة، ويستلهم الدروس، ويتعظ ويتأثر، ويقيس ويقارن نفسه بحال أولئك السابقين "أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزي بمثل جزائهم؛ ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار، ويتجنب عن المستكبرين والمعاندين، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء"⁽⁴⁾.

ومن أجل هذا التفكير والاعتبار؛ أمر الله تعالى رسوله -ﷺ- أن يقص على أهل مكة ما ينزل عليه من القصص "فاقصص القصص لعلهم يتفكرون"⁽⁵⁾.

وخاطبه كذلك بقوله تعالى: "وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين"⁽¹⁾.

(1)- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم. 143، دار النشر والتوزيع

(2)- بحوث في القرآن الكريم ص 78-121.

(3)- سورة يوسف الآية: 111.

(4)- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 20/13، مكتبة المعارف الرباط - المغرب.

(5)- سورة الأعراف، الآية: 176.

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: "في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم، وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق، ونبا صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون"⁽²⁾.

ثانيا: تسلية الرسول ﷺ - وثبتنا قلبه الشريف ﷺ

وذلك وعد الله في قوله سبحانه: "وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك"⁽³⁾، يقول ابن كثير: "يقول الله تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أهمهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزيه المؤمنين، وخذل أعداءه الكافرين، كل هذا مما نثبت به فؤادك يا محمد، أي قلبك، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة"⁽⁴⁾.

فقد كان عليه الصلاة والسلام يتعرض لأصناف من الأذى، فيحزن لحال قومه ويأسى؛ فتتزل عليه الآيات بقصص من سبق من إخوانه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- فتكون على قلبه بردا وسلاما، تشيع فيه الطمأنينة، وتسليه وتخفف عنه، وترفع من همته، وتشجذ عزيمته -ﷺ-، وتزيده في الدعوة ثباتا وتشميرا، وصبرا وتحملا لما يقاسيه من أذى المكذبين والمعاندين.

ثالثا: التأكيد على وحدة رسالة توحيد الله عزوعلا، وعبادته وحده لا شريك له.

وفي هذا يقول الله عزوجل: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"⁽⁵⁾. ويقول تعالى: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت"⁽⁶⁾. ويقول سبحانه: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"⁽⁷⁾.

(1)- سورة هود، الآية: 120.

(2)- تفسير ابن كثير: 465/2-466.

(3)- سورة هود عليه السلام: الآية، 120.

(4)- تفسير ابن كثير: 465/2.

(5)- سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية، 25.

(6)- سورة النحل: الآية، 36.

(7)- سورة الشورى: الآية، 13.

ويقول الرسول ﷺ: "الأنبياء إخوة العلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"⁽¹⁾.

فدين الأنبياء -عليه السلام- واحد، وهو توحيد الله سبحانه، وعبادته وحده، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع وتنوعت المناهج.

هذه الحقيقة واضحة وظاهرة في قصص الرسل -عليه السلام- في القرآن الكريم؛ ففي قصة نوح -عليه السلام- يقول تبارك وتعالى: "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"⁽²⁾.

وفي قصة هود عليه السلام: "وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"⁽³⁾، وفي قصة صالح -عليه السلام-: "وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"⁽⁴⁾، وفي قصة سيدنا إبراهيم -عليه السلام-: "وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله"⁽⁵⁾، وفي قصة شعيب -عليه السلام-: "وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"⁽⁶⁾.

ومن هنا تجلت القواسم المشتركة في العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني، فهي هي، والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير"⁽⁷⁾.

يقول الحافظ ابن كثير: "الإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم؛ وإن تنوعت شرائعهم، وتعددت مناهلهم كما قال تعالى: "لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"⁽⁸⁾، قال ابن عباس: "سبيلة وسنة"، فهذا نوح يقول: "وأمرت أن أكون من المسلمين"⁽⁹⁾، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: "إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين" ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا

(1) - رواه البخاري في كتاب الأنبياء، (باب "واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا"): 1270/13،

ورواه مسلم في كتاب الفضائل، (باب فضائل عيسى عليه السلام): 119/15.

قال ابن حجر: "العات: بفتح المهملة: الضرائر، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه علّ فيها، والعلل: الشرب بعد الشرب، وأولاد العلات: الإخوة من الأب وأمهم" [فتح الباري: 605/6].

(2) - سورة الأعراف: الآية، 59.

(3) - سورة الأعراف: الآية، 45.

(4) - سورة الأعراف: الآية، 73.

(5) - سورة العنكبوت: الآية، 16.

(6) - سورة الأعراف: الآية، 85.

(7) - سيد قطب، في ظلال القرآن: 1880/4، دار العلم الجيزة- مصر، الطبعة الثانية عشرة 1406هـ.

(8) - سورة المائدة، الآية: 48.

(9) - سورة يونس: الآية، 72.

وأنتم مسلمون⁽¹⁾، وقال يوسف: "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأخفي بالصالحين"⁽²⁾، وقال موسى: "يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين"⁽³⁾، وقال السحرة: "ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين"⁽⁴⁾، وقالت بلقيس: "رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"⁽⁵⁾، وقال تعالى: "إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا"⁽⁶⁾، وقال تعالى: "وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون"⁽⁷⁾، وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"⁽⁸⁾ أي من هذه الأمة"⁽⁹⁾.

رابعا: إثبات صدق الرسول الأمين ﷺ - في دعوته:

يقول سيد قطب: "كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة، فمحمد ﷺ - لم يكن كاتباً ولا قارئاً، ولا عرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى، كما يزعم المستشرقون، ثم جاءت هذه القصص في القرآن الكريم وبعضهم جاءت في دقة وإسهاب، كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى -عليهم السلام- فوردوا في القرآن الكريم اتخذ دليلاً على وحي يوحى"⁽¹⁰⁾. ويقول أيضاً: "فهذه القصص غيب من الغيب ما كان يعلمه النبي ﷺ - وما كان معلوماً لقومه، ولا متداولاً في محيطه، إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير"⁽¹¹⁾.

(1)- سورة البقرة: الآية، 131-132.

(2)- سورة يوسف: الآية، 101.

(3)- سورة يونس: الآية، 84.

(4)- سورة الأعراف: الآية، 126.

(5)- سورة النمل: الآية، 44.

(6)- سورة المائدة: الآية، 44.

(7)- سورة المائدة: الآية، 111.

(8)- سورة الأنعام: الآية، 162-163.

(9)- تفسير ابن كثير: 425/2.

(10)- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ص 145.

(11)- سيد قطب، في ظلال القرآن: 1880/4.

ولذلك يقول الله -تبارك وتعالى- مخاطباً رسوله ﷺ - بعد قصة نوح -عليه السلام-: "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين" (1).

وبعد قصة يوسف -عليه السلام-: "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون" (2).

يقول الشوكاني في تفسيره: "وإذ لم يكن رسول الله ﷺ - لديهم عند أن فعلوا ذلك؛ انتفي علمه بذلك مشاهدة، ولم يكن بين قوم لهم علم بأحوال الأمم السالفة، ولا خالطوهم ولا خالطوه، فانتفي علمه بذلك عن طريق الرواية عن الغير فلم يبق لعلمه بذلك طريق إلا مجرد الوحي من الله سبحانه" (3).

ويقول تبارك وتعالى بعد عرض قصة موسى -عليه السلام- مخاطباً رسول الله ﷺ - كذلك: "وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين" (4)، "وما كنت ثاوياً في أهل مدين" (5)، "وما كنت بجانب الطور إذ نادينا" (6).

فرسولنا ﷺ - لم يكن حاضراً في زمن موسى وشعيب -عليهما السلام- يحكي قضيتهما عن مشاهدة مباشرة، ولكنه الوحي الإلهي ينزل عليه ﷺ - بقصص أولئك السابقين من الرسل عليهم السلام- (7). ويخاطب أيضاً رسول الله ﷺ - بعد ذكر امرأة عمران وزكريا ومريم -عليهم السلام-: "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم وما كنت لديهم إذ يختصمون" (8).

كما يخاطبه عزوجل على وجه الامتنان عليه ﷺ بإيراد القصص الذي ما كان له أن يعلمها بدون الوحي: "كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق" (9).

(1)- سورة هود عليه السلام: الآية، 49.

(2)- سورة يوسف عليه السلام: الآية، 112.

(3)- الشوكاني، تفسير فتح القدير: 85/3.

(4)- سورة القصص، الآية: 44.

(5)- سورة القصص: الآية، 45.

(6)- سورة القصص، الآية، 46.

(7)- عبد الرحمن، موقف الملأ من دعوة الرسل، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة - السعودية، 1414هـ / 1994م.

(8)- سورة آل عمران: الآية، 44.

(9)- سورة طه: الآية، 99.

"ذلك من أنباء القرى نقصه عليك" (1).

إن قصص القرآن الكريم بمثابة دليل وشاهد على صحة نبوته -عليه السلام- وصدق رسالته إذ أنه -صلى الله عليه وسلم- كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً فإذا ذكر هذه القصص على وجه من غير تحريف ولا خطأ؛ دلّ ذلك أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحة نبوته (2).

ويقول الباحث: إن صاحب الرسالة لم ينكلم ولم ينطق من عنده بل كان ينطق عن الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وما ينطق عن الهوى إلا وحي يوحى. وكان أمامه كل القصص والتواريخ مع أنه لم يدرس في أى مدرسة أو جامعة، ولم يكن لديهم نوع.

خامساً: بث الطمأنينة والسكينة في قلوب الدعاة ونفوس المؤمنين.

وذلك حين يعلمون من خلال القصص القرآني أنهم ليسوا وحدهم في هذا الطريق، طريق الإيمان وطريق الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما هناك من سبقهم في موكب الدعوة إلى الإيمان، موكب الرسل -عليهم السلام- وأتباعهم المتدبر التاريخ، صبروا فكانت العقوبة لهم بإذن الله سبحانه وتعالى وبتقديره. ومن ثم ستأسس المؤمنين ويرتاح بال الدعاة، ويفتح لهم باب الأمل العريض، والثقة بالحق الذي يحملونه، والنصر الذي يرجونه.

"لقد كان هذا القصص يتنزل على رسول الله -ﷺ- في مكة، والقلّة المؤمنة معه محصورة بين شعابها، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها، والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية؛ فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق ويربهم معاملة في مراحلها جميعاً، يأخذ بأيديهم، ويثقل خطاهم في هذا الطريق، وقد بات لاجباً (3) موصولاً بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشري، وبات بهذا الركب الكريم مأنوساً مألوفاً، لا موحشاً ولا مخوناً، أنهم زمرة من موكب موصول في طريق معروف، وليسوا مجموعة شاردة في تيه مقطوع" (4).

(1) - سورة هود عليه السلام: الآية، 100.

(2) - التفسير الكبير: 14/146.

(3) - أي: واضحاً. [لسان العرب: 4003/5]

(4) - سيد قطب، في ظلال القرآن: 4/1948.

سادسا: التأكيد على السنن الربانية في الأمم والمجتمعات، وتحقيقها في واقع البشرية.

نعم تجد في كتاب الله عزوجل بكل وضوح في القصص القرآنية حيث يتحقق في النهاية الوعد للمؤمنين: "والعاقبة للمتقين"⁽¹⁾، والوعيد للمكذبين مع اختلاف المظاهر والأشكال لهذا الوعيد: "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا"⁽²⁾.

وقد كرر القرآن الكريم ذلك في كل قصة من قصص الرسل عليهم السلام-، يقول الله تعالى في قصة نوح عليه السلام: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ"⁽³⁾.

ويقول الله سبحانه في قصة هود عليه السلام: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ"⁽⁴⁾.

ويقول الله عزوجل في صالح عليه السلام: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ"⁽⁵⁾.

ويقول تعالى في قصة شعيب عليه السلام: "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّبْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ"⁽⁶⁾.

وهناك شواهد واقعية كثيرة جدا من التاريخ على تحقيق السنن الإلهية في الحياة الإنسانية.

(1)- سورة الأعراف: الآية، 128.

(2)- سورة العنكبوت: الآية، 40.

(3)- سورة العنكبوت، الآيات، 14-15.

(4)- سورة هود عليه السلام: الآية، 58.

(5)- سورة هود عليه السلام: الآية، 66-67.

(6)- سورة هود: الآية، 94.

سابعاً: التأسى والاقتداء.

القصص القرآني ينزل لتأسى الرسول -ﷺ- فأتبعه المؤمنون على توالي الأجيال والقرون بمن سبق في موكب الدعوة والإيمان من الرسل -عليهم السلام- وأتباعهم.

ويقول الله عزوجل مخاطباً رسوله -ﷺ- بعد ذكر عدد من الرسل -عليهم السلام-: "أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدِهْ"⁽¹⁾.

"أي: اقتدِ واتبع وإن كان هذا أمراً للرسول -ﷺ- فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به"⁽²⁾.

ويخاطب الله كذلك رسوله -ﷺ- بقوله:

"وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ"⁽³⁾.

يقول ابن كثير: "أي من خبرهم كيف نصرُوا وأبدوا على من كذبهم من قومهم، فلنك فيهم أسوة بهم وقدوة"⁽⁴⁾.

وفي الدعوة إلى الاقتداء والتأسى يقول تبارك وتعالى أيضاً:

"فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ"⁽⁵⁾.

ويقول سبحانه وتعالى: "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ"⁽⁶⁾.

ويقول عزوجل: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ"⁽⁷⁾.

وكما تأسى الرسول -ﷺ- واقتدى بإخوانه المرسلين -عليهم السلام-؛ فإن المؤمنين على مرّ العصور يجدون في رسول الله -ﷺ- الأسوة والقدوة.

(1)- سورة الأنعام: الآية، 90.

(2)- تفسير ابن كثير: 2/955.

(3)- سورة الأنعام: الآية، 34.

(4)- تفسير ابن كثير: 2/130.

(5)- سورة الأحقاف: الآية، 35.

(6)- سورة الممتحنة: الآية، 4.

(7)- سورة الممتحنة، الآية: 6.

قال تبارك وتعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (1).

وهكذا هذا القصص القرآني متنوع الدروس والعظات، متجدد العبر على مرّ العصور والأجيال، يجد فيه كل جيل ما يتعظ به ويعتبر، لو قرأه بتفكير وتدبر.

(1)- سورة الأحزاب، الآية: 21.

الأمر الرابع

تحديات الملأ في المجتمع الباكستاني ومواجهتهم الدعوية:

إن من أعظم التحديات الداخلية التي تواجهها اليوم الدعوة الإسلامية في العالم عموماً وفي باكستان بشكل خاص من قبل الملأ المستبد المستكبر الداخلي والخارجي عقدياً كانت أو فكرياً، علمياً كانت، أو عملياً، تربوياً كانت أو اجتماعياً، سلوكياً كانت أو أخلاقياً، في الفرد والأسرة والمجتمع، هي التكبر والعصبية والاستبداد والجهالة وخلو قلوب الناس عن هدف دعوى إسلامي عظيم، لا يتوجه إلى إيجاد حل لما تعانيه الدعوة الإسلامية من المشاكل بسبب ضعفهم في علوم الدين والمعارف العصرية، فإن الجهل والغلو والتعصب والتكبر هي التحدي الأساسي لضعف الأمة وانحطاطها في الحياة، وإزالة الأمية والجهالة من الأمة هو الحل الوحيد لتهيئة طريق التقدم والتطور للشعب، وحيث أن جهالة الناس عن الدين يكمن فيها سبب الانحطاط والسقوط فلا مسأغ أن يترك هذا الفراغ ويتفرج الشعب موقع المتفرجين، حتى تكثر المشكلات والتحديات على وجه التدريج أمام الدعوة فينسند طريق الازدهار والنهضة، وهذا الفراغ هو الذي تسبب لكل ما هنالك من أشكال التحديات والمشكلات المعاصرة للشعب، ولهذه التحديات أنواعاً وأسباباً وآثاراً ومعالجة، قسمت الأمر إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قضية دعوة الملأ في العصر الحاضر: وفيه

1- معرفة مشكلة الملأ

2- آثار الملأ على الفرد والمجتمع

3- مواجهة الملأ بالتخطيط الدعوى

إن قضية الملأ ومعاملتهم مع الدعوة إلى الله تعالى قضية ذات أهمية كبرى، فقد اهتم الدعاة بمواجهتها وأدى حقها، ولكل وجهة هو موطأ في الاهتمام، كما أن ما حصل بالأمس يتكرر اليوم من جديد. فإذا كان المستكبرون من الملأ ومن معهم في الأمم السابقة قد واجهوا أنبيائهم عليهم السلام ومن تبعهم من المؤمنين بالأذى والبطش، وإلقاء التهم، وإثارة الشبهات، وإذا كان صناديد الكفر وذوو الجاه من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين قد بذلوا جهودهم في القضاء على رسول الله ﷺ وصحبه المؤمنين رضي الله عنهم، وحاربوا الإسلام - وقد بذر بذرتة بمكة وأقام دولته بالمدينة- بكل الوسائل المتاحة، وواجهوا بكل ما أوتوا من قوة ومن سلاح حسي ومعنوي، فإن زعماء الكفر اليوم يسرون على نفس الخطى، ويسلكون ذات

المنهج، وإن اختلفت مفرداته وأساليبه بحسب ظروف الزمان والمكان، كما أن تجاه الكفر واحد، وهو العداء المستمر المستحكم للإسلام والمسلمين.

تلك هي سنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال:

يقول الله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا".¹

"وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..."²

ورسول الله ﷺ قال: إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء³

إن الأمر ليس مرتبط بزمان ولا مكان، فكلما وجد الباطل، تحركت رؤوسه بغية الصد عن دين الإسلام وإطفاء نوره سبحانه وتعالى: "يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"⁴

إن الملام في عصرنا الحاضر من كفار يهود ونصارى ووثنيون ومنافقين و من تبعهم يعملون في السر العلانية، على نحو أي أثر للإسلام كلما وجدت الفرصة استغلوا وسيطروا. يقول الله تعالى:

"وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا..."⁵

هذه الآية الكريمة تكشف عن الغيظ الخبيث الذي يوجد في قلوب الأعداء، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم، إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم، فهو من القوة ومن المثانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويهربه كل بغاة وطغاة، ويكرهه كل مفسد، إنه بهذا حرب كله حرب على الباطل والفساد والظلم والاستبداد.

وتتنوع أساليب ووسائل عداوة الأعداء للإسلام والمسلمين وأدواتهم، والمهدف يستمر:

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً"⁶

(1) سورة الفرقان: الآية 31.

(2) سورة الأنعام: الآية، 112.

(3) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً 126/2

(4) سورة التوبة: الآية 32-33.

(5) سورة البقرة: الآية، 120.

6 سورة النساء: الآية/ 103.

والأمثلة كثيرة جداً، واكتفي هنا بالإشارة إلى ما تحدثت به سادة الكفر مما تظهر اتجاههم، في حرب الإسلام. يقول غلاستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً:

مادام هذا القرآن في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان¹

إن الملأ الخارجي علموا حقيقة القرآن وحاولوا اليوم أن يبعدوا الأمة عنه، وإليه أشار سبحانه عزوجل: "يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"²

ولذلك فإن الواجب على المسلمين، وعلى الدعوة خاصة، دراسة الملأ ومعاملتهم مع القرآن الكريم وأهله من الدعوة إلى الله تعالى دراسة علمية دقيقة، ليعرفوا حقائق ما في قلوبهم وضغائن ما في صدورهم.

أولاً: معرفة مشكلة الملأ:

أن جهل واستبداد الملأ وظلمهم مشكلة عظيمة ولها أسباب سائقة إليها، ومدة لمظاهرها وسماتها ولهذه الأسباب أهميتها لدراسة المشكلة فهي الممهدة للعلاج ويقطعها تقطع المشكلة من جذورها، كما أن هذه الأسباب تختلف من جهة تأثيرها، باعتبارات متعددة، فقد يكون سبب ما مؤثراً في بيئة أو بلد أو فرد وغير مؤثر في الآخرين، أو موجوداً هنا وغير موجود في مكان غيره.

ثانياً: آثار الملأ على الفرد والمجتمع:

لاشك أن للملأ آثار سيئة غير حميدة على الفرد والمجتمع ودراسة هذه الآثار نافعة لتغيير الناس من الغلو والتطرف وهذه الآثار منها:

- ماهو أثر من الناحية العقيدية مثل: التفرق.
- ومنها ماهو أثر من الناحية الفكرية مثل: التناقض
- ومنها ماهو أثر سلوكي مثل: الوقوع فيما هو شر من المعاصي.
- ومنها ماهو أثر من الناحية الاجتماعية مثل: تضييع الحقوق...

1 قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، الشباب المسلم في مواجهة التحديات لعبد الله علوان ص51،

ط/2، 1409، دارالعلم.

2 سورة التوبة: الآية، 33.

ثالثاً: مواجهة الأعداء بالتخطيط الدعوى:

إن المواجهة والمعالجة لمشكلة الملأ يجب أن يكون مبنياً على الضوابط العلمية القرآنية، وبالدراسة للنصوص وكلام أهل العلم، وتطبيقاً يتم بتوضيح أن ثمة أسساً وخصائص لمنهج الإسلام في معالجة أمراض الملأ وجهالتهم وغلوهم، ولا بد أن يكون العلاج مقابلاً لأسباب، فيكون منه علاج عقدي، وعلمي، ومنه علاج تربوي، ومنه علاج فكري واجتماعي.

ولذلك أن المعالجات المعاصرة لمشكلة الملأ في جميع المجالات تحتاج في الغالب إلى مراجعات شاملة، لأن الزلل والخطل فيها كثير.

القسم الثاني: مواصفات الداعية: وفيها:

1- سلامة العقيدة وقصد الاخلاص

2- صلاح النية والقول والعمل

3- العلم بما يدعو إليه

4- اللين والعطف في الدعوة

5- الصبر بالأذى...

6- الثقة: التامة بوعده الله جل وعلا (وعدا الله لا يتخلف)

من المعلوم أن الدعوة إلى الله تعالى هم من أحسن الناس إليه وصفوة المجتمع، وأفاضل الأمة، وأخير الأمة.

يقول الله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"¹

جعل الله للدعاة صفات مميزة، ومرتبة عالية، وتيسر لهم بتوفيقه مهمتهم، وتفتح القلوب للأخذ عنهم وتصل بهم إلى أقصى الغايات وأهدافهم. ومن أهم الصفات للدعاة:

أولاً: سلامة العقيدة وقصد الاخلاص:

على الداعية أن يكون مخلصاً في النية والقول والعمل. موحداً لله سبحانه في ربهيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ومخذاً من جميع أنواع الشرك وصور الابتداع، مقتدياً ومتبعاً فيه السلف الصالح عليهم رضوان الله، سالكاً منهمجهم ومقتنياً بهم لأنه من أساس الدعوة.

يقول الله تعالى: "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ..."²

ويقول سبحانه: "فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"³

1 سورة فصلت: الآية، 33

2 سورة البينة: الآية، 5

3 سورة الغافر: الآية، 14

فلا بد أن يكون الدعاة مقاصدهم خالصة، فلا تكون الغاية لديهم الوصول إلى منصب وجاه، وإلا سيكون الفشل والخسران في تقديرهم.

ثانياً: إصلاح النية والقول والعمل:

صلاح العمل والنية توأما لا ينفكان، والدعاة متعبدون بالمقاصد والغايات، كما هم مأمورون بالأسباب والوسائل:

"...فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا"¹

فيجب على الداعية أن يكون مخلصاً لله لا يريد رياء ولا سمعة، ولا ثناء الناس ولا مدحهم وحدهم، إنما يدعو إلى الله يريد وجهه الله سبحانه، كما قال سبحانه:

"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ..."²

ويقول عز وجل: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ"³

والإخلاص من أعظم الصفات التي تحب على الداعية فريدوا بدعوتهم إلى الله سبحانه وجهه الله والدار الآخرة، ويريدوا إصلاح الفرد والمجتمع.

ثالثاً: العلم بما يدعو إليه:

فمن يجهل دين الله كيف سيبلغه ويدعو إليه سبحانه؟ بل إنه سيفسد أكثر مما يصلح، يقول الله تعالى:

"فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ"⁴

ويقول سبحانه: "...يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ..."⁵

وقوله عليه الصلاة والسلام: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"¹

1 سورة الكهف: الآية، 110

2 سورة يوسف: الآية، 108

3 سورة فصلت: الآية، 33

4 سورة محمد: الآية، 19

5 سورة المجادلة: الآية، 11

فإن ذلك لازم في حق الدعوة، إذ لا دعوة دون علم وبصيرة: "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"²

إن الدعوة مطالبون بالاتجاه وبمعرفة الواقع الذي مايجول حوله ، وإدراك ماينخطه أعداء الإسلام من المكر والكيد، ضد الإسلام والمسلمين، والدعوة الى الله تعالى، والثقافة الإسلامية.

رابعاً: اللين والرحمة في الدعوة:

باللين والشفقة، والرحمة، والبشاشة والود، يمكن أن يصل الداعية إلى قلوب المدعويين.

يقول الله تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..³

"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"⁴

إن الدعوة في أمس حاجة اليوم إلى مراعاة أحوال المدعويين، وظروفهم الزمانية والمكانية، وعلاقتهم بالإسلام وموقفهم منه، ومن ثم ترتيب الأولويات في التعامل معهم، والتدرج في دعوتهم إلى الله تعالى، ابتداءً بالهم فالمهم...

خامساً: الصبر على الأذى

وقد يجد الدعاة أنواعاً من المشاكل في طريق الدعوة إلى الله من الملأ الجاهل، وقد تثار حولهم أنواع الشبهات من الحاقدين، قد يتعرضون للأذى، وكل ذلك يحتاج إلى الصبر. تلك إحدى السمات الدعاة الناجحة.

يقول الله تعالى: يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"⁵، ويقول سبحانه: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ..⁶

1 رواه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً 39/1 ومسلم في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة

128/7

2 سورة يوسف عليه السلام: الآية، 108

3 سورة آل عمران: الآية، 159

4 سورة النحل: الآية، 125

5 سورة لقمان: الآية، 17

6 سورة الأحقاف: الآية، 35

سادساً: الثقة: التامة بوعده الله جل وعلا (وعده الله لا يتخلف):

لقد وعد الله سبحانه المؤمنين الصادقين المخلصين بالنصر والغلبة والتمكين في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..."¹
 "...وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ"²

"يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ..."³

"وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ"⁴

من فطرة الله انتصار الحق وأهله مسألة يقينية، ولا ريب فيه:

"...وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا"⁵

يعتقد الدعوة وتطمئن قلوبهم، ويثقون أن المستقبل للإسلام، ويواجهون كيد الأعداء ومكرهم في كل زمان ومكان، متيقنين أنه مهما اشتد الظلام فلا بد من طلوع نور الفجر والشمس.

"...وَيُؤْمِنُ بِفَرِّحِ الْمُؤْمِنُونَ . يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ"⁶

القسم الثالث: من أساليب الدعوة ووسائلها:

ولقد كتبت مئات كتب ورسائل علمية ومباحث كثيرة حول اختيار الوسائل والأساليب في الدعوة إلى الله تعالى، وأنا أكتفي هنا في الخاتمة بالإشارة إلى بعض الكليات المفيدة للدعاة إلى الله سبحانه منها:

1	سورة المؤمنون: الآية، 55
2	سورة الروم: الآية، 47
3	سورة الصف: الآية، 8-9
4	سورة الصافات: الآية، 171-173
5	سورة النساء: الآية، 122
6	سورة الروم: الآية، 4-5

أولاً: شمولية الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان:

من ميزة الدعوة إلى الله تعالى أنها شاملة وكاملة وعامة في كل زمان ومكان، من بعثة النبي صلى الله عليه السلام، إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فقد أشار القرآن الكريم إلى عالمية الدعوة وشموليتها:

يقول الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"¹

"وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ"²

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..."³

أساليب الإسلام ومنهجه ووسائله ليست مقتصرة على دائرة معينة محدودة، بل هي شاملة وكاملة لجميع حياة البشرية. وبالتالي على الدعاة تفكير وسائل الدعوة وأساليبها، مراعاة لشموليتها وعموميتها.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً..."⁴

ومن وسائل نجاح الدعوة أيضا العمل إلى إيصالها إلى كل فئات المجتمع، من الأمراء والوجهاء، والتجار والحرفيون، والطلاب والموظفون، والعمال والمزارعون، والفقراء والضعفاء، كل هؤلاء في حاجة إلى أن تتجه إليهم الدعوة.⁵

أقول أن الدقة في فهم الأولويات وتقديم الأهم على المهم أمر في غاية الأهمية في الدعوة.

ثانياً: البدء بالقضايا الإيمانية والتركيز على العقيدة السليمة:

من منهج الإسلام في الدعوة الحرص على تركيز قضايا الإيمان بالله سبحانه، واليقين بالآخرة، والتذكر الدائم لها، والحرص على الإخلاص لله تبارك وتعالى، ومحبة والإتابة إليه، والحذر من مظاهر الشرك والتوجه لغير الله

1 سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية، 107

2 سورة القلم: الآية، 52

3 سورة الأعراف: الآية، 158

4 سورة البقرة: الآية، 208

5 موقف الملأ من دعوة الرسل عليهم السلام، 815/2

سبحانه وتعالى. كما لا ريب فيه أن للدعاة إلى الله تعالى في رسول الله أسوة حسنة وقدوة جلية، فقد مكث بمكة 13 عاما قضاها في تركيز قضايا الإيمان والتوحيد لله عز وجل.

ثالثا: الدعوة بالقدوة الحسنة:

يقول الله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ"¹

إن المقصود من الأسوة أو القدوة أن يكون الداعية المسلم قدوة صالحة فيما يدعو إليه فلا يناقض قوله فعله، ولا يفعله قوله.

وهي من الأساليب الناجحة، فإن الداعية يمكن أن يكون داعيا دون أن يتحاور أحد، وذلك بعمله وأخلاقه الصادقة الإسلامية، سيرة وصورة وسيرة، مما يؤثر في القلوب، ويبعث على الإعجاب، والالتزام بمنهج الإسلام الخالد.

نعم ولو أن كل مسلم في ديار الكفر تمثل بهذه القدوة لحصل من ذلك بإذن الله خير كثير في إقبال الناس على الإسلام، وقد حدث كثيرا.

فكم من مهتدين إلى دين الله سبحانه في الماضي والحاضر كان سبب هدايتهم -بعد فضل الله سبحانه- يكمن في هذه الدعوة الصامتة... الدعوة بالقدوة، ولا يغيب عن الأذهان دور التجار المسلمين في إيصال الإسلام كثير من الدول في جنوب آسيا وغيرها، وحين تمثلوا به في سيرتهم، وأمانتهم، وفي نزاهتهم وحسن تعاملهم، فكانوا بذلك دعاة صادقين مخلصين، لا للتجار فقط، كما أن اليوم ليس بعيد من المسلمين إن أرادوا التغيير في العالم.

رابعا: الترغيب والترهيب:

يتضح لكل متأمل داع من منهج القرآن الكريم، أن الإنسان بفطرته يحب العاقبة الطيبة، والحياة السعيدة، في العاجل أو الآجل، كما أن حرص الدعاة ربط الناس بالآخرة، بترغيبهم بما فيها من الثواب والنعيم، والجزاء الحسن لمن آمن وعمل صالحا، وتحذيرهم من العذاب والشقاء لمن كفر وجحد واستكبر من العامة والخاصة من الملائكة.

خامسا: رد الشبهات الواردة على الإسلام:

إن القرآن الكريم ملئ بالرد على شبهات الجاحدين بالأدلة العقلية والنقلية.

وقد نجد في العصر الحاضر من المؤلفات والتصانيف والمباحث في الرد على الشبهات، ومع ذلك فما زالت هذه الوسائل في حرب الإسلام ومواجهة الدعاة مستمرة، ولكن مع التجدد الأساليب، وتنوع في الجمل والألفاظ والمضامين وطريقة العرض والتقديم.

ولذا فالحاجة لازالت أيضا قائمة إلى الاستمرار في أسلوب، وتجديد الوسائل لرد على الشبهات الباطلة بإقامة الحجة والبراهين، وتوضيح الحقائق، بإشارة دقيقة إلى أمراضهم الهالكة.

سادسا: الاستفادة من مؤسسات مختلفة:

فالييت، والمسجد، والمدرسة، والجامعات، والإدارة، ومراكز الدعوة والثقافية، والإعلامية، والنوادي الرياضية والاجتماعية، كل ذلك وغيره يمثل دوائر يمكن أن يستغل منها الفرص ويستفاد في نشر الدعوة إلى الله تعالى والثقافة الإسلامية.

فيجب على الدعاة من خلال هذه المؤسسات العمل على إيصال الكلمة الطيبة المادفة، سواء في خطبة منبرية، أو درس، أو محاضرة، أو ندوة، أو حديث عابر، أو دعوة فردية مباشرة، كما يمكن لهم استثمار هذه المؤسسات في إبراز صورة صادقة عن الإسلام ومعانيه وفضائله من خلال أنشطة عملية متنوعة ذات مضامين إسلامية هادفة مفيدة، كما أن المجال واسع جدا، وإمكانات الدعاة فيه متفاوتة، وكل يختار بمجاله، ويدلى بدلو، حسب ما وهب الله تعالى ويسره له من القدرات الموهوبة من الله سبحانه وتعالى.

سابعا: الاعداد التربوي للمدعوين:

من منهج الله جل وعلا، ورسوله ﷺ، لما ابتدأ دعوته بمكة المكرمة، إذ لم يقصد عليه صلى الله وسلم، مجرد التجميع بمعزل عن التربية، بل عمد ﷺ إلى تربية المستجيبين له، وتعليمهم، وإعدادهم، ومع قلة عددهم رضوان الله عليهم أجمعين في المجتمع المكى، إلا أنهم مثلوا القاعدة القوية للبناء الإسلامي الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثامناً: تحسين العلاقة بين الدعوة والمدعوين:

من صنع الله سبحانه وتعالى أن التعاون على العمل الخير مبدأ إلهي قرآني، فقد أكد سبحانه وتعالى:

"وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْفُجُورِ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"¹

إن الدعوة إلى الله وإلى دين الإسلام من أعظم البر، ومن ثم فالتعاون وتحسين العلاقة مع الفرد والمجتمع أمر شرعي، بل هو من ثمرات الأخوة والولاء والقيام بين المؤمنين كما قال تعالى:

"وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ"²

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ"³

إذا اجتمع أعداء الإسلام على مواجهة الدعوة والحق، فإن من الخطورة أن يتفرق الدعوة وهم يحملون راية الإسلام إلى كافة البشرية، كما يلزم من التخطيط لأعمال الدعوة ومشاريعها، تقوم به المؤسسات القائمة على شؤون الدعوة، بحيث توجه الطاقات والمواهب والقدرات، في شتى مجالات الدعوة، سواء كان ذلك في البلاد الإسلامية، أو في المجتمعات الكافرة على اختلاف ديانتها، دون أن ينشأ تضارب أوازد واجبة، أو تفریط أو إفراط، وكل ذلك يحتاج إلى تنسيق وتفاهم وتكامل وتخطيط وتنظيم وترتيب وتربية دعوية.

تاسعاً: الإعداد الجهادي للدفاع عن التوحيد:

يجب على الأمة الإسلامية اليوم تعد نفسها للجهاد في سبيل الله والدعوة إليه والدفاع عنه حماية للإسلام.

يقول الله سبحانه:

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ"⁴

1 سورة المائدة: الآية، 2

2 سورة التوبة: الآية، 71

3 سورة الأنفال: الآية، 73

4 سورة الأنفال: الآية، 39

نعم إن للجهاد في سبيل الله تعالى أهمية كبرى في الدعوة إلى الله وحماية الإسلام، ونصرة الدين الحنيف وحراسته، ومواجهة استبداد الملأ واستكبار الطواغيت، حتى تزول العوائق والمشاكل التي تحول بين الناس وبين الدعوة إلى الله.

والجهاد أهم لبقاء الأمة الإسلامية قوية شامخة، وعليها الإعداد، كما أشار إليه سبحانه:

"وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"¹

على كل من يجول على الأرض من المسلمين، أن يقوم بتربية معنوية ومادية، حتى إذا حانت ساعته، كانوا مستعدين فكريا وعمليا، لمهاجمة جارحة على الأعداء ولإظهار الإسلام على سائر الأديان، وليثبت أن كلمة الله هي العليا.

ويوم غلأ هذا الفراغ بعمل دعوى وفكر جهادى عظيم، فإن المياه ستجري في مجراها بصورة تلقائية، والعمل العظيم هو الجهاد في سبيل الله وتبليغ الدعوة إلى عباد الله تعالى ولا شك إن إملأ هذا الفراغ إنما يمكن بإنفاذ آلاف الناس من حضيض الجهالة وقهر الأمية، وذلك إنما يكون بنشر العلم والدعوة والجهاد في هذا الشعب بصورة جادة جديدة متميزة مبدعة، فإن العلم والتعليم والدعوة والجهاد هي أشياء وأمور أساسية لا تتكفل لبقاء المجتمع وصحته وازدهاره فحسب، بل إنما يتقدم بها إلى الكمال والتطور والتقدم في جميع مجالات الحياة الإنسانية في جهة صحيحة فإن العلم الصحيح يرشد إلى رقي العقل ويهدي إلى طريق استخدامه، ومن هنا تحتاج الأمة إلى التدبر والعمل بالقرآن الكريم، وذلك فإن الاستفادة بالعقل السليم والفكر الدعوى في الأوضاع الاجتماعية المتغيرة، وفي ضوء الوحي الإلهي، واتخاذ الخطوة بالعقل والفهم ودراسة الصور والأشكال الجديدة واستعراض إمكانيات الرقي وفرصه والتفريق بين المصالح الأساسية وغيرها من متطلبات العقل السليم.

ولكن إذا تلوثت جدة العقل وجودته وبالغ الناس في عبادة العقل الدني بغض النظر عن الوحي الإلهي، فهناك تتوقف عملية الرقي الفردى والاجتماعي، وعملية الإصلاح في الأوضاع المتغيرة، وتبدأ الزعزة في المجتمع.

وإن العقل له المجال الخاص، وليس هو فوق كل شيء، وقد منح القرآن مع الإنسان والكون نظرية وحدة المبدأ، وحقيقة الحياة، وذلك لأن الحياة عبارة عن حركة دائمة وهذه هي نظرية العصر.

فحل هذه التحديات إنما يمكن باستخدام عقلنا في جميع مجالات الحياة حتى نستخرج أساليب حكيمة لكل أمر مهم من أمور الدين، ونكون على بصيرة تامة في أداء فريضة الدعوة الإسلامية نشرها في شعوب العالم وبخاصة في شعبنا المنكوب.

وإذا كانت الأمة تحمل في غصونها هذا، فالثقافة اللادينية أشد خطراً منها، فإن الأميين لا تزال ألواح قلوبهم صافية، لا يكون عليها شيء يصعب محوه وإزالته، ولكن الثقافة أمر يقر ثوابت، وتثبت نظريات ومعتقدات يعضون عليها بالتواجد، وقلما ينفكون عنها، وإن كثيراً من الشباب المسلم يتصلون بالجماعات العصرية اللادينية فيتلقون أصول الإسلام وتعاليمه وتاريخه ممن يضمرون العداء والكيد للإسلام والمسلمين.

وكذلك شأن المدارس الرسمية والكتليات الحكومية في البلاد حيث يدرس الطلاب المسلمون مادة الثقافة اللادينية على أيدي الأساتذة، هم من أعداء الدين ومن الذين لا يعرفون الثقافة الإسلامية فيشبهون وهم يغضون ويمقتون ونفس شعبهم، ويحبون شعب الخافدة، ويزعمون أن المسلمين ليس لهم أي دور في بناء المجتمع وتحرير البلاد، وتعمير الحضارة والثقافة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

فلا بد من حل هذه المشكلة، فيجب على علماء الشعب ودعاة الأمة، المحاولة لتغيير هذه الحالة السيئة بما يمكن لهم اختيار أساليب حكيمة مراعيًا لخصوص المكان والموقع والعصر الراهن وظروفه، من تقديم المنشورات والمطبوعات والرسائل بما يصححون به أخطاءهم، ويصلحون به أحوالهم، ويرشدون به إلى خير السعادة والفلاح.

وفي رأيي أن الكتب والكتيبات الإسلامية بلغة معاصرة حية لتؤدي دورها العظيم في إيجاد التحول والانقلاب في حياة الأمة ما لا يمكن لغيرها من الوسائل الثقيفية، وهذا مما لا يرتاب فيه أحد ممن له أدنى ممارسة بالعلم والأدب، والدعوة والثقافة، فإن الكتب والكتيبات العلمية والأدبية لها الآثار العظيمة بعيدة المدى في حياة أي شعب من شعوب العالم، ولكن فيا للأسف، إن علماء الأمة ودعاتها، ليس لهم في هذا السبيل أي عملية أو طريقة لتغيير الشعب وظروفه السيئة إلى الظروف الحسنة بهذا الأسلوب الحكيم الدعوى.

وأما حال المدارس والجامعات والكليات التي، قد وضعت أمام كل طالب ثقافة الغرب وحضارته، يرسم في ألواح الطلاب والطالبات ما يخالف الإسلام من حرية المطلقة، وعدم الحاجة إلى الحجاب الشرعي، وعدم الضرورة إلى إطاعة الزوج، وما إلى ذلك مما يكره الطلاب والطالبات ثقافة الإسلام، ويحبوا النصرانية والثقافة اللادينية من غير علم ووعي العلماء.

فهؤلاء من العامة والخاصة، والشباب في المدارس الحكومية والكليات الرسمية ينفذ إلى قلوبهم التشكك والارتباك بمختلف الأساليب والوسائل الممكنة لهم، ولكن الطلاب والأطفال السذج لا يعرفون شيئا عن ذلك، فثبتت في قلوبهم ما يلقى إليهم من أساتذتهم خلال الدراسة والمحاضرة.

وعلى ذلك فإن التعليم في هذه المدارس الرسمية يقوم على أساس العلمانية والثقافة اللادينية تماما، فبشأ الطلاب على حب هذه النظريات الإلحادية فكيف تكون نتائج مستقبلهم لحياتهم ومجتمعهم وأمتهم؟

أقول: كل من يؤمن بالله ويعتقد بالإسلام وثقافته يعرف أن هذه الحالة المأساوية سينتج نتيجة سيئة للشعب من دون ريب فيها، فلا بد من حل هذه المشكلة مما يجب على علماء هذا الشعب تنشئة شبابهم وجيلهم الناشئ على الدين الصحيح والمثل العليا، وتبصيرهم بأمر دينهم وتمكين تعاليم الإسلام في نفوسهم، فإن شباب اليوم هم رجال الغد، وقواد المستقبل، فثبتت في قلوبهم أن الإسلام ودستوره وثقافته لا زالت ولا تزال خالدة شاملة، ولا يعتريها النسخ والزوال ولا العقم والجمود، ومسيرا لكل زما، موفيا لجميع مطالب الإنسان المتطورة وقضايا المتجددة المتنوعة في جميع ميادين الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، والميادين التي يزاول فيها الإنسان نشاطه من كل نوع في كل عصر ومصر.

ولذلك فلا بد أن يتخذ خطوة رائدة وتخطيطا فكريا دعويا وجهاديا مناسبة للظروف السائدة هنالك للدعوة الإسلامية والتربية الدينية لهؤلاء الأجيال والشباب المسلمين في باكستان وفي العالم الإسلام، حتى تتمكن من إعادتهم إلى الدين الخفيف، وإيقاظ الصحو الإسلامية في أوساطهم، ونفخ الروح الإسلامية في قلوبهم وبعث العواطف والحماسة الدينية في نفوسهم، وهذا الأمر يحتاج إلى جهود جبارة يمكن بها تحقيق ما نرمله من الأهداف والوصول إلى الغايات السامية.

والملاء في هذا الباب لهم مسار وطريق خاص للتعليم والتربية للجيل المستقبل، وهناك ساسة من الملاء وهناك الإقتصاديين والمتقنيين وو، ولا بد أن يكون لهم أسباب وآثار ونتيجة في الفرد والمجتمع، إن خيرا خيرا، وإن شرا فشرا.

الباب الأول:
المظاهر والسمات الرئيسة للملأ
في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أنواع الملأ في القرآن الكريم

الفصل الثاني: أسباب عداوة الملأ لدهوة الرسل عليهم السلام

الفصل الثالث: آثار الملأ على الفرد والمجتمع



الفصل الأول:

أنواع الملائ في القرآن الكريم

وفيه سبعة مباحث:

- المبحث الأول: الملائ الأعلى من الملائكة
 - المبحث الثاني: الملائ من الجن
 - المبحث الثالث: الملائ من الإنس
 - المبحث الرابع: المؤمنون من الملائ
 - المبحث الخامس: الملائ من الكفار المتعاطفين
 - المبحث السادس: الملائ من الكفار المكذبين
 - المبحث السابع: الملائ من المنافقين
- 
- 
-

المبحث الأول: الملائكة الأعلى من الملائكة

ذكر القرآن الكريم كلمة الملائكة الأعلى مرتين؛ في سورة الصافات في معرض الحديث عن الجن، في قوله تعالى: "لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذُّونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ"¹ في سورة ص، أثناء نفي علم الرسول صلى الله عليه وسلم باختصاص الملائكة الأعلى: "مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يُخْتَصِمُونَ"²

هم أشرف الملائكة ولا يراد منه تفضيل الملائكة على البشر أو تفضيل البشر على الملائكة إنما المراد هنا تفاضل الملائكة بعضهم بعضاً عند الله تعالى، ويظهر التفاصيل في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ يقول الله تعالى: "أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلى ذراعها تقربت إليه باعاً، وإن أتانى بمشي أتيته هرولة"³ دل الحديث على أن الملائكة متفاوتون منزلة ومرتبة ووظيفة.

ويميل رأى الباحث إلى أن الملائكة مثل البشر في التفاضل والمقامات، والمتأمل في كتاب الله يجد أكثر من ذكر من الملائكة هو جبريل، فهو أقرب المقربين من الملائكة إلى الله تعالى.

فهاهو ربنا يقول لزوجات النبي ﷺ إن جبريل ولي لرسوله: "إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ"⁴ فهذا التذكير باسم جبريل دليل تفضيل لهذا الملك العظيم، وبما أن محمدًا ﷺ أشرف الخلق أجمعهم فالحق أن يرسل الله إليه أشرف الملائكة ليبلغه الوحي، فالمرسل سبحانه الأعظم والمرسل إليه عظيم فجبريل الرسول عظيم كذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وينطبق مثل ذلك على حديث يحكى لنا محبة الله للعبد كما ذكره أحمد في مسنده عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن العبد ليلتمس مرضاة الله ولا يزال بذلك فيقول الله عز وجل لجبريل: إن فلانا عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه فيقول: جبريل رحمة الله على فلان ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السماوات السبع ثم تحبب له إلى الأرض قد ثبت من القرآن الكريم أن جبريل أفضل من

(1) سورة الصافات: الآية 8

(2) سورة ص: الآية 69.

(3) صحيح البخاري: باب قول الله تعالى: ويذكركم الله نفسه، 121/9.

(4) سورة التحريم الآية 4.

الملائكة بل يكفيه أنه الأمين على الوحي إلى رسول الله ﷺ وفيه يقول الله عز وجل: وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ⁽¹⁾.

حديث القرآن الكريم عن الملائكة الأعلى (الملائكة) وأحوالهم:

قال تعالى: "الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا"⁽²⁾.

وحديث الرسول ﷺ عن أحوال ملا من الملائكة:

"وقال رسول الله ﷺ: إني قمت من الليل، فتوضأت، وصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استقلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال: يا محمد قلت: لبيك رب. قال: فيم يختصم الأعلى؟ قلت: لا أدري. قالها ثلاثا. قال فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله من نديي، فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد قلت: لبيك رب. قال: فيم يختصم الملائكة الأعلى؟ قلت: في الكفارات قال: وماهن؟ قلت: مشي الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء حين الكريهات. قال: ثم فيم؟ قال: قلت: في الدرجات.. قال: وماهن؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام".

نداء جبريل عليه السلام من السماء بأمر الله سبحانه وتعالى:

وقال رسول الله ﷺ: "إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه. قال: فيحبه جبرائيل. ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبرائيل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه قال: فيبغضه جبرائيل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال: ثم يوضع له البغضاء في الأرض"⁽³⁾.

وهذا دليل على أن عند الله مجموعة من الملائكة الكبار المقربين، فيحدثهم تبارك وتعالى عن أحوال أهل الأرض فيعلن بتقريب وسعادة من يحبهم من عباده، وتبعد من يكرههم من عباده الأشقياء.

(1) سورة الشعراء الآية: 192-194

(2) سورة غافر، الآية: 7-9.

(3) رواه صحيح البخاري كتاب الأدب (باب الثقة من الله تعالى) حديث رقم 5716.

وصحيح مسلم؛ كتاب البر والصلة والآداب (باب إذا أحب الله عبداً حُبَّه لعباده) حديث رقم (4901).

والذى أرى هنا جدير بالذكر هو أن ما يدبر العباد من تدبير تعايش وما يمرون من حياة من أيننا آدم إلى الآن، كل هذا النظام شبيه بنظام الله سبحانه وتعالى.

الملائكة يصلون على المؤمن في مجلس صلته:

وقال رسول الله ﷺ: "الملائكة يصلون على أحدهم مادام في مجلسه الذى صلى فيه يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تب عليه. ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه" (1).

وقال رسول الله ﷺ: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط متفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً" (2).

الملائكة يدعون لمن أصلح نفسه وسعى في إصلاح الناس.

إعلم أنه قد استفاد من الشرع: إن الله تعالى عباده هم أفاضل الملائكة ومقربو الحضرة لا يزالون يدعون لمن أصلح نفسه، وهذبها، وسعى في إصلاح الناس فيكون دعاؤهم ذلك سبب نزول البركات عليهم، ويلعنون من عصى الله، وسعى في الفساد، فيكون لعنهم سبب الوجود حسرة وندامة في نفس العامل، والهجمات في صدور الملائكة السافل فيكون أن ييغضوا هذا المسى، ويسبوا إليه، إما في الدنيا، أو حين يتخفف عنه جلاب بدنه بالموت الطبيعي، وأهم يكونون سفراء بين الله وبين عباده، وأهم يلهمون في قلوب بني آدم خيراً أى يكونون أسباباً لحدوث خواتم الخير فيهم بوجه من وجوه السببية، وأن لهم اجتماعات كيف شاء الله وحيث شاء الله يعبر عنهم باعتبار ذلك بالرفيق الأعلى، والندى الأعلى (المجلس الأعلى)، والملائكة الأعلى، وأن الأرواح أفاضل الأدميين دخولاً فيهم ولحقاً بهم³ كما قال سبحانه وتعالى: "يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً. فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي. وَأَدْخِلِي جَنَّتِي" (4).

(1) رواه صحيح البخاري: كتاب الأذان (باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد)، حديث رقم (639)، وصحيح مسلم، رقم الحديث (649)، وصحيح ابن حبان رقم الحديث (1753).

(2) الإمام أحمد شاه ولي الله الدهلوى ت 1176هـ، حجة الله البالغة، ضبطه ووضع حواشيه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ج 1، ص 30.

(3) الإمام أحمد شاه ولي الله الدهلوى ت 1176هـ، حجة الله البالغة، ضبطه ووضع حواشيه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ج 1، ص 33.

(4) سورة الفجر، الآية: 27-30

ينزل القضاء من الملأ الأعلى:

يقول الإمام شاه ولي الله رحمه الله تعالى: أن هنالك ينزل القضاء، ويتمين الأمر المشار إليه بقوله تعالى: فيها يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ¹ وأن هنالك يتقرر الشرائع بوجه من الوجوه.

وزاد الإمام رحمه الله تعالى بتنوع الملأ الأعلى إلى ثلاثة أقسام:

"واعلم أن الملأ الأعلى على ثلاثة أقسام:

1- قسم على الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم، فخلق أجساما نورية بمنزلة نار موسى، فنفخ فيها نفوسا كريمة.

2- وقسم وفق حدوث مزاج في البخارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض للألوات البهيمية.

3- وقسم هم نفوس إنسانية قريبة المأخذ من الملأ الأعلى مازالت تعمل أفعالا منجية تفيد للخلق بحم حتى طرحت عنهم جلايب أبدانها، فانسلكت في سلوكهم وعدت منهم، والملأ الأعلى شأنها أنها تتوجه إلى بارئها توجها ممعنا لا يصدها عن ذلك التفات إلى شيء وهو معنى قوله تعالى: يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ²

وتتلقى من رها استحسان النظام الصالح واستهجان خلافه، فيقرع ذلك بابا من أبواب الجود الإلهي وهو معنى قوله تعالى: وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا"⁽³⁾، اجتماع أفاضل الملأ الأعلى وأثره في قلوب الناس⁽⁴⁾.

مما يقتبس من كلام الشيخ رحمه الله: أن هناك مجموعة من كبار وأفاضل الملائكة تجتمع حول أحوال الناس وقضاياهم من المؤمنين وغيرهم وتأثير اجتماعهم في قلوبهم.

وأما سبب الإطالة مع قلة العلاقة بالموضوع لفائدة القارئ وكل من لم يعرف عن الملأ الأعلى وأحوالهم شيء، وكذلك كل أعمال الملأ السفلي معلقة ومربوطة به ومامن عمل يصدر على الأرض إلا وله ربط وثيق بالملأ

(1) سورة الدخان، الآية: 4

(2) سورة غافر، الآية: 7

(3) سورة غافر، الآية: 7

(4) الإمام أحمد شاه ولي الله الدهلوي ت 1176هـ، حجة الله البالغة، ج 1، ص 34

الأعلى ويتشكل ماصدر من الإنسان من عمل، إن كان حسنا حسنا، وإن كانت سيئة فسيئة. كما أن الفكر الإنساني لا يرى، لكن بشكل الحسن والقبيح.

وبالتالي أن نظام الأرض وتديرها شبه لما يدبر العلام الغيوب، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض سبحانه. والإنسان خليفة الله وملكه في أرضه من حقه أن يعرف العلاقة بينه وبين ربه سبحانه.

على الداعية أن يستفيد ويفيد من معرفة العلاقة الوثيقة بين الله وبين الملائكة الأعلى، بين الله وبين الملائكة السفلي ثم بين الملائكة السفلي وبين الملائكة الأعلى وهكذا بين الملائكة الإنس بالإنس وهلم جرا... وأعتقد أن هذا أمر في غاية الأهمية لعامة الناس وللدعاة خاصة في عصرنا الحاضر في معالجة الفرد والمجتمع لأن معرفة الوسائل الحديثة وعلاقتها بالملائكة ثم استخدامها لا يمكن إلا بهذا الأسلوب. والله أعلم

المبحث الثاني: الملأ من الجن

وقد أشرنا إلى أن الملأ ليس قاصراً على الملائكة والإنس فحسب، بل هو في الجن أيضاً، ففيهم الوضيع، وفيهم الشريف، وفيهم صاحب المكانة المرموقة أو المنحطة، وفيهم اللبيب و السفه.

ولم يصرح القرآن الكريم بوجود ملأ في الجن كما صرح به في الملائكة أو الناس، ولعل الحكمة فيه أن هذا راجع إلى ضرورة عدم إقامة علاقة بين الجن والإنس، لما فيها من اتخاذ بعضهم بعضاً أولياء واستمئاعهم ببعض.

والله أشار سبحانه وتعالى: "وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ... إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ"¹

وعند تدبر القرآن الكريم نجد أن أكثر حديثه عن الشياطين على أنهم أكابر للجن كما قال عزوعلا:

"فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمُ وَالْعَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ"²

وهذا زعيم جميع الجن ممن كان على شاكلته، ومثال قصة سليمان -عليه السلام- مع ملكة سبأ، ومن ثم جمعه للملأ: "قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ... فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ"³

فلو حاولنا تخيل الموقف، نرى سليمان -عليه السلام- بين ملكه من كل المخلوقات وإليه يشير ربنا سبحانه عزوجل: "وَحَشِيرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ"⁴

فيأمر من يستطيع من هذا الملأ أن يحضر له عرش ملكة سبأ، ومن هذا الملأ جنوده من الجن، فيظهر النص لنا أن الملأ من الجن هم العفاريت بنص هذه الآيات حينما يقف عفريت من الجن ليظهر مواهبه، وقدرته. قال ابن عاشور: ومعنى عفريت - حسبما يستخلص من مختلف كلمات اللغة - أنه اسم الشديد الذي لا يصاب ولا ينال، فهو يتقى لشره. وأصله اسم لعتاة الجن. ويوصف به الناس على معنى التشبيه⁵.

(1) سورة الأنعام، الآية: 128

(2) سورة الشعراء، الآية 94-95

(3) سورة النمل، الآية: 38-40

(4) سورة النمل، الآية: 17

(5) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) دار التونسية للنشر -

تونس ج19، ص 270-271. سنة النشر: 1984 هـ

إذن نستطيع القول بأن الملأ من الجن هم العفاريت: قال ابن عطية:.. وقرأ الجمهور:، عفريت، وقرأ أبو رجاء، وعيسى أبو رجاء، وعيسى الثقفي: قال عفريه. ورويت عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وقرأت فرقة: قال عفر: بكسر العين. وكل ذلك لغات فيه وهو من الشياطين: المارد القوى¹

وقال رسول الله ﷺ: "أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك أعفر"⁽²⁾، ومعناه أنه يعتمد على المكر والدهاء في قيامه، وفي سياسته للناس إذا خضعت لهم الأمور، ودانت لهم الرقاب، فلا رحمة ولا عدل ولا خير، بل خبث وقهر.

من سياق هذه الآيات المباركات عرفنا أن الملأ من الجن هم الكبار والسادة ذوو الجاه منهم، وتجدد صفة التمرد والمكر والدهاء في العفاريت من الجن كما أن هذه الصفة من القواسم المشتركة بين الإنس والجن، دون الملائكة عليهم السلام فإنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومنهج الدعوة ضالة المؤمن يستفيد أينما يجدها ومنهج خير وفائدة لدعاة الجن، حين سمعوا القرآن الكريم قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا وإليه أشار سبحانه وتعالى: "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا"⁽³⁾.

أصبح كل من سمع داعيا إلى القرآن وترك الشرك والكذب بنية عدم الرجوع إليه، بل من الحكمة أن يستغل الداعي ويجعلها ضالة له حتى يدعو الناس إلى الله تعالى.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز، ج 11، ص 201

(2) عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، ت: 255 هـ سنن الدرسي، تحقيق: فوز أحمد زمري، خالد السبع العلمي، الطبعة الأولى، ج 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407 هـ، ص 155، كتاب الأشرية، باب ما قيل عن السكر، حديث رقم 2101.

(3) سورة الجن، الآية: الآية 1-6

المبحث الثالث: الملائكة من الأنس

إن المقصد الأول من موضوع هذه الدراسة التي تعنى بالملائكة في القرآن الكريم، هو الملائكة من البشر كلهم. من حيث الإيمان والكفر فقد بينت أنواعهم الخلقية من ملائكة وإنس وجن، وأما هنا فالحال مختص بالبشر، وطرائقهم لإيمانهم وكفرهم، عقيدة وفكرهم، قال الله تعالى: "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"¹

انطلاقاً من قول الله تعالى أن البشرية مختارة بين البينين، بين الإيمان والكفر، بين الخير والشر، بين العبادة والاستبداد، ولا يكره الإسلام أحداً أن يؤمن، سواء كان صغيراً أو كبيراً، غنياً كان أو فقيراً من الملائكة كان أو غيره من الإنسانية وأن الله أعطى لهم الحرية لا الحرية المطلقة حتى يتمتع بما أعطى الله لها من الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها.

جعل الله الملائكة من الأنبياء والمرسلين والدعاة المخلصين خلفاء في الأرض، وهدى البشرية السبيلين إما شاكرين وإما كافرين، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، وحسبوا أنهم يحسنون صنعا، وبدأوا بفساد الأرض إفسادها واستخدام القوة الشيطانية في العالم ولسان حالهم يقول، معلنين ذلك بقولهم: من أشد منا قوة، أنا ربكم الأعلى، أليس لي ملك وهذه القوة تحتي، فالأمة اليوم في أشد حاجة لمواجهة الاستبداد والفساد والظلم، إلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين الذين يفتحون أفكار البشرية بمفتاح العلم والتربية الإسلامية.

ولا تتم الخلافة للبشرية إلا بمعرفة الله والدعوة إليه، ولا تكمل الإنسانية إلا بالعمل بما أمر الله والنهي عما نهي الله عنه.

من هذا المنطلق سيأتي التفصيل في الفصل القادم باذن الله تعالى.

المبحث الرابع: الملائكة المؤمنون

لقد علمنا من تقرير ما مضى من معارضة الملائكة لدعوة الرسل عليهم السلام، ولا ينبغي وجود طائفة من الملائكة الذين آمنوا بالله تعالى، وصدقوا المرسلين، وتغلبوا بتوفيق ربهم سبحانه على الحواجز النفسية وما يسوقه الشيطان من اعتبارات تحول دون الاستجابة لداعي الإيمان.

وأشير فيما يلي. بإيجاز. إلى بعض أولئك المؤمنين¹.

مؤمن من آل فرعون:²

كان لهذا الرجل الصالح ومكانة وجاه في آل فرعون، ومما يدل على ذلك أن فرعون لم يتعرض له مباشرة بسوء لما أبدى رأيه في دعوة موسى عليه السلام، بل ترك له المجال، واستمع لكلامه وهو يجادل ويحاور، وينافح عن نبي الله موسى عليه السلام، ويعلن وجهة نظره في الدعوة والرسالة³.

أسلم هذا الرجل وجهه لله تعالى، وآمن بموسى عليه السلام، وكم إيمانه خوفاً من بطش فرعون وطفغيانه.

ولما استمع إلى فرعون وهو يشاور الملائكة مبدئياً رغبته في قتل موسى عليه السلام كما قال عز وجل:

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَّبَّهُ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"⁴

أراد ذلك الرجل المؤمن في نقاشه مع فرعون أن يكون له دور في حماية نبي الله موسى عليه السلام، والدفاع عنه، وإظهار ما في دعوته من الحق والمهدي، وإبراز ما فيها من الخير والنجاة، والسلامة والفلاح في الدنيا والآخرة، فتحرك لذلك في ذكاء وحكمة وخاطبهم بمقولته التي حكاها القرآن الكريم: ("وقال رجل من آل

(1) ذكر في أخبار عاد وثمود في بعض كتب التفسير إيمان مرثد بن سعد من أشرف عاد وأماثلهم، وجندع بن عمرو أحد رؤساء ثمود.

ينظر: تفسير الطبري 219/6، تفسير البغوي 171/2، 176، تفسير ابن كثير 228/2، تفسير القاسمي، ط/2، 1398هـ، دار الفكر 175/7، قصص الأنبياء لابن كثير 144/1.

(2) ذكر بعض المفسرين أنه كان ابن عم فرعون.

ينظر: تفسير ابن كثير 77/4، تفسير الطبري 58/24، قصص الأنبياء لابن كثير 389/2.

(3) ينظر تفسير الطبري 58/24.

(4) سورة غافر، الآية: 26.

فِرْعَوْنَ يَكُفُّكُمْ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ¹.

ملكة سبأ:

دعاهما نبي الله سليمان عليه السلام إلى الإسلام وعبادة الله وحده، كما قال الله تبارك وتعالى على لسانها تخاطب أشراف قومها ورجال دولتها:

"قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ"²

وبعد استشارتها الملأ من حولها رأت أن تبعث إلى سليمان عليه السلام بهدية عظيمة تختبر بها وضعه وحاله، وتحقق بها من أمره:

"وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ"³.

وحين اتضح لها. بعد توفيق الله تعالى وهدايته. أن سليمان عليه السلام صاحب نبوة ورسالة، لارجل دنيا أو طالب شهوة، توجهت إلى سليمان عليه السلام، وهناك أعلنت إسلامها وبراءتها مما سلف من الشرك وعبادة الشمس من دون الله تعالى "قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"⁴.

أصحمة، النجاشي:⁵

وهو الذي أجاز أصحاب رسول الله ﷺ لما هاجروا إلى الحبشة فرارا بدينهم، فأكرمهم وآواهم، وأحسن جوارهم، ووفر لهم الحماية والأمن، فعاشوا في كنفه مدة من الزمن مطمئنين آمنين.

(1) سورة غافر، الآية 28_44.

(2) سورة النمل، الآية 29_31.

(3) سورة النمل، الآية: 35.

(4) سورة النمل، الآية: 44.

(5) النجاشي لقب لكل من ملك الحبشة، و(أصحمة) بفتح الهمزة وإسكان الصاد وفتح الحاء، اسم علم لهذا الملك الصالح، قال ابن قتيبة وغيره: معناه بالعربية عطية.

ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم 22/7_23، الروض الأنف 2/79.

وقد ثبت إسلامه رضي الله عنه، ولما مات نعاه رسول الله ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم.

"فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى لهم النجاشي صاحب الحبشة في اليوم الذي مات فيه وقال: استغفروا لأخيكم"¹.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما "أن النبي ﷺ صلى على أصحمة النجاشي"².

الطفيل بن عمرو الدوسي:

كان من أشرف دوس وسادتها وأكابرها. قدم مكة والتقى رسول الله ﷺ، واستمع إليه، فأسلم عن قناعة وبقين، ثم عاد إلى دوس يدعوهم إلى دين الله الذي آمن به، ولما أبطأوا في الاستجابة له داء إلى رسول الله ﷺ متأثراً يشكو إليه الحال.

"فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقال: إن دوساً قد هلك، عصت وأبت، فادع الله عليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ألهم اهد دوساً، وأت بهم"³.

وعاد الطفيل رضي الله عنه إلى دوس ليكون له. بعد توفيق الله تعالى. دور وسبب في هداية الكثيرين في أوساط قبيلته.

وكان رضي الله عنه حريصاً على نصرة الرسول ﷺ وخدمة الدعوة. فعن جابر رضي الله عنه "أن الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة"⁴. قال: حصن كان لدوس في الجاهلية. فأبى ذلك النبي ﷺ للذي دُخِر⁵. الله للأَنْصار"⁶.

- (1) رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب موت النجاشي 3/1408، ومسلم في كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز 22/7.
- (2) رواه البخاري في الجامع الصحيح كتاب فضائل الصحابة، باب موت النجاشي 3/1408، ومسلم في كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنائز 22/7.
- (3) رواه البخاري في الجامع الصحيح كتاب المغازي، باب قصة دوس 4/1596، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل غفار وأسلم 77/16.
- (4) يقال: فلان في منعة، أي في قوم يحمونه ويمتنعونه. لسان العرب 6/4276-4277.
- (5) دُخِرَ الشيء أي اختاره. ينظر ترتيب القاموس المحيط 2/251.
- (6) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر 2/130.

وقد كان لإسلام الطفيل رضى الله عنه قصة ذكرها ابن إسحاق فقال: "كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث: أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش. وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً. فقالوا له يا طفيل، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا¹. وقد فرق جماعتنا، وشئت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا نكلمه ولا نسمع منه شيئاً."

قال: "فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منهم شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً² فرفأ³ من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه."

قال: "فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة. قال: فقممت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعي بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر وما يخفي على الحسن من القبيح، فما بمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يباني به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته."

قال: "فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعي قولك، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك. قال: فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا على القرآن، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام..."⁴.

(1) أى ضاقت علينا الخيل في امره. ينظر النهاية في غريب الحديث 254/3.

(2) الكرسف بضم الكاف وسكون الراء وضم السين: القطن. النهاية في غريب الحديث 163/4، ترتيب القاموس 37/4.

(3) الفرق بالتحريك: الخوف والفرع. النهاية في غريب الحديث 438/3.

(4) خير إسلام الطفيل من عمرو رواه ابن إسحاق دون اسناد: السيرة النبوية 307/1 وأورده ابن قيم في زاد المعاد نقلاً عن ابن إسحاق، ط/8، 1405 هـ، مؤسسة الرسالة 624/3-625، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة، ط/3، 1405 هـ، دارالمعارفة 600/1-601، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن إسحاق 123/3-124 ثم قال في نهاية الخبر:

أسيد بن حضير الأوسي وسعد بن معاذ الأوسي:

كان لهما في الأوس شرف وسيادة ورياسة، وتم إسلامهما رضي الله عنهما، إذ أكرمهما الله تعالى بالهداية على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، فكان ذلك سببا في إسلام الكثيرين. بفضل الله. تأثرا وتأسيا بهما.

قال ابن إسحاق: "حدثني عبيد الله بن المغيرة بن معيقب¹، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن أسعد بن زُرارة² خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني الأشهل، ودار بني ظُفر. وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زُرارة. فدخل حائطا³. من حوائط بني ظُفر، فجلسا في الحائط واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير⁴ يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لأبالك، إنطلق إلى هذين الرجلين الذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وأتھما عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أسعد بن زُرارة مني حيث ما قد علمت كفتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدما، قال: فأخذ أسيد بن حضير حرته ثم أقبلت إليهما، فلما رآه أسعد بن زُرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيدقومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال فوقف عليها متشمتا⁵، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ماتكروه؟ قال: أنصفت، ثم ركز حرته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يُذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشارته وتسله⁶ ثم قال: أحسن هذا الكلام وأجل، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: نغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي

هكذا ذكر محمد بن إسحاق قصة الطفيل بن عمرو رسالة بلاإسناد، وحيرو شاهد في الحديث الصحيح.

- (1) معيقب: بضم الميم وفتح العين وسكون الياء وكسر القاف، على التصغير، تقريب التهذيب ص 374،
- (2) زُرارة: بضم الزاي وتخفيف الراء. المغني ص 118.
- (3) الحائط: البستان من النخيل إذا كان عليه حائط والجدار. النهاية في غريب الحديث 462/1.
- (4) أسيد: بضم الهمزة وفتح السين، على التصغير، وحضير: بضم الحاء وفتح الضاد. نصيرالمنتهى 15/1، تكملة الأكمال 430/2.
- (5) أي ينال منهما سبواشمتما، من شتمه يشتمه إذا سبه. ينظر ترتيب القاموس المحيط 672/2.
- (6) أي ارتياحه وانسباطه (والسهولة ضد الحزونة). لسان العرب 2134/3.

رجلا إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حرته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين، فو الله ما رأيت بهما بأسا، وقد غيبتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك¹، قال: فقام سعد مغضبا مبادرا تحوفا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحرية من يده ثم قال: والله ما أراك أغيت². شيئا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة مارمت هذا مني³ أنفشنا في دارنا بما نكره. وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره؟ قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحرية وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهيله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنعم أسلمتم ودخلتم في هذه الدين؟ قال: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حرته فأقبل عامدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير قال: فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الإشل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيا وأبجنا نقيبة⁴، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، قال: فو الله ما أمسى في دار بني عبد الإشل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة.⁵

(1) لينتهكوا ذمتك وينقلوا عهدك، يقال: أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وذمامه. النهاية في غريب الحديث 52/2.

(2) أي نفعت بشيء من الغناء بالفتح أي النفع. ينظر لسان العرب 3309/5.

(3) من رام الشيء: أي طلبه، والمراد: ما بلغته ولا تمكنت منه. ينظر لسان العرب 1782/3.

(4) "رجل ميمون النقيبة: مبارك النفس مظفر". لسان العرب 4514/6.

(5) السيرة النبوية لابن هشام 41-38/2، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن ابن إسحاق 187-180/3، وكذلك هو في السيرة الحلبية 171-170/2، ورواه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق بتمامه 438/2-

440، وينظر طبقات ابن سعد 421-420/3، سبل الهدى والرشاد 274-272/3.

عبد الله بن سلام:¹

من أحبار يهود وسادتهم، قال ابن حجر: "كان من المشهورين بالرياسة في اليهود عند قدوم النبي ﷺ".²
كان حريصاً على رؤية رسول الله ﷺ والجلوس إليه ولما سمع منه وعرف أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام هو الحق سارع إلى الاستجابة له، والإيمان برسائله، والانضمام إلى دعوته عليه الصلاة والسلام.
يقول رضى الله عنه: "لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه".³ وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ فجمعت في الناس لأنظراليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب..."⁴

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترق".⁵
فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: "أخبرني بمن جبريل آتفا" قال: جبريل؟ قال: "نعم"، قال ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية "من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله".⁶ أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت،⁷ وإذا

(1) عبد الله بن سلام: بتخفيف اللام. تلخيص المشابه 28/1، وكان اسمه الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. ينظر: سنن ابن ماجه، كتاب الإِدْب، باب تغير الأسماء 1230/2، السيرة النبوية لابن هشام 113/2، صفة الصفوة 718/1-719، فتح الباري 163/7.

(2) فتح الباري 350/7، وينظر السيرة النبوية لابن هشام 113/2.

(3) أي ذاهبوا مسرعين نحوه". النهاية في غريب الحديث 279/15.

(4) الحديث رواه الترمذى في كتاب صفة القيامة 602/4 وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب إطعام، ط/دار الكتب العلمية 1083/2، والحاكم في المستدرک 14/3 وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقى في الدلائل 531/2 وصححه الألبانى: صحيح سنن ابن ماجه 222/2.

(5) "بالحاء المعجمة والفاء: أى يجتنى من الثمار". غريب الحديث عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ) المحقق: د. محمد عبد المعيد خان الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن الطبعة: الأولى، 1384 هـ -

1964 م 81/1

(6) سورة البقرة: آية 97.

(7) فتح الباري 347/7.

سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد¹. وإذا سبق ماء المرأة نزعتم. قال أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت². وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم ييهتوني، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: "أى رجل عبد الله فيكم" قالوا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: "أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام" فقالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فقالوا شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، قال فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله³.

ثمامة بن أثال رضى الله عنه⁴

ولإسلامه رضى الله عنه قصة يرويها أبو هريرة رضى الله عنه فيقول "بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: "ماذا عندك يا ثمامة؟" فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم⁵، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد فقال: "ما عندك يا ثمامة؟ قال: قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكرك، وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد فقال: "ماذا عندك يا ثمامة؟" فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكرك، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله ﷺ: "أطلقوا ثمامة"، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلى والله ما كان بلد أبغض إليّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خليك أخذتني وأنا أريد العمرة فما ذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له

(1) "بانصيب على المفعولية أى جذبه اليه". فتح الباري 348/7.

(2) بهت: بضم الباء والهاء، ويجوز إسكانها: جمع بهيت، وهو الذى يبهت السامع بما يفتره عليه من الكذب. ينظر فتح الباري 348/7.

(3) صحيح البخاري رقم الحديث 4480 باب {من كان عدوا لجبريل}

(4) ثمامة بن أثال: بضم الثاء، وأثال: بضم الهمة وتخفيف التاء. تهذيب الأسماء 140/1، تكملة الإكمال 115/1.

(5) قال القاضي عياض: معناه إن تقتل صاحب دم لدمه موقع يشفي بفته في عرفهم. ينظر شرح النووي على صحيح على صحيح مسلم 87/12.

قائل: أصبرت؟ قال: لا ولكنني أسلمت مع رسول الله ﷺ ولا والله ما يأتيكم من اليعامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ¹

(1) رواه البخاري في الجامع الصحيح كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة 1589/4، ومسلم. واللفظ له- في كتاب الجهاد، باب ربط الأسير 87/12-89.

المبحث الخامس: الملأ من الكفار المكذبين

لاشك أن الملأ لديهم من الامتيازات بين أقوامهم، والمكانة في عشائريهم، والسلطة والنفوذ في مجتمعاتهم، والتوسع في شهواتهم، ما يحشون عليه من الزوال إن هم استجابوا لمنهج الله تعالى الذي جاء به الرسل عليهم السلام، والذي يجعل الأمر كله لله سبحانه، يتساوى الناس بين يديه، ويسير الجميع حسب ضوابط وتعاليمه.

وهكذا تتكرر هذه الحقيقة، ويتكرر هذا الموقف المعادي من الملأ. في معظمهم. مع كل رسول يعينه الله تعالى ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده والبراءة من عبودية ماسواه.

ويؤكد القرآن ذلك، يقول الله سبحانه وتعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرِكُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"¹

يقول الألوسي: "والكلام مسوق لتسليية رسول الله ﷺ مما ابتلى به من مخالفة مترفين قومه وعداوتهم له عليه الصلاة والسلام وتخصيص المترفين بالكذب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام"²

ويقول ابن كثير في معنى الآية الكريمة: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ أَي نَبِيٍّ أَوْ رَسُولٍ" إِلَّا قَالَ مُتْرِكُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة، وقال قتادة هم جبابرهم وقادتهم ورؤسهم في الشر "إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" أي لا نؤمن به ولا نتبعه"³

ويقول عز وجل: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرِكُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أُولُو حِجَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. فَانْتَفَعْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ"⁴

فالإصرار على الكفر والتكذيب سمة غالبية على الملأ المترفين في كل دعوة ومع كل رسول.

(1) - سورة سبا: آية 34

(2) - تفسير روح المعاني 147/22

(3) - تفسير ابن كثير 540/3

(4) - سورة الزخرف: آية 23-34

ويقول سبحانه مبينا أن ذلك ابتلاء من الله عز وجل للمرسلين عليهم السلام. "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَجْرِمِيهَا لِيُنْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"¹

"يقول تعالى وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون ثم تكون لهم العاقبة"²

وفي خبر أبي سفيان حين سألته هر قل عن رسول الله ﷺ، وكان من ضمن أسئلة هر قل (قال أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت بل ضعفاؤهم) وفي نهاية الحوار علق هر قل على تلك الإجابات من أبي سفيان، فكان مما قال: "وسألتك عن أتباعه أضعافاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل"³

يقول ابن كثير: "الوقع غالبا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته"⁴

نعم، وفيه عظة وعبرة لمن يأتي من الأمة من الدعاة والمدعوين أن الله جعل لكل داع عدوا من المجرمين من الملاء وغيرهم من متبعيهم، قديحى بعضهم إلى بعض زخرف القول وغرورا، حتى يخدعو من بعدهم بقولهم الزور، ويصددهم عن سبيل الله بكل طاقة لديهم.

(1) - سورة الانعام: آية 123

(2) - تفسير ابن كثير 172/2

(3) - الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير، باب (قل يا أهل الكتاب تعالوا...) 1657/4-1658، ومسلم في كتاب

الجهاد، باب كتب النبي ﷺ 105/12-106

(4) - تفسير ابن كثير 442/2.

المبحث السادس: الملأ أمن الكفار المتعاطفين

منهم من يتعاطف مع المسلمين ومنهم من بقى على كفره، ورفض الاستجابة لدعوة الله تعالى، والدخول في دينه سبحانه، ومع ذلك فقد كان في موقفهم نوع تعاطف مع القائمين على الدعوة، يصل أحيانا إلى الحماية والنصرة، دافعهم إلى ذلك عصبية قبلية، أو حمية عشائرية، أو معرفة للحق واقتناع به، ثم بمنعهم بعد ذلك من الإيمان الحواجز النفسية كالخوف على المكانة والسيادة، أو الخشية من أصحاب النفوذ من حولهم، أو الرغبة في مسايرة المجتمع الكافر، أو الحذر من الاتهام بالخروج عن العقيدة السائدة والمنهج المألوف، إلى غير ذلك من الأسباب.

وهناك أمثلة من هذا الصنف برزت على عهد رسول الله ﷺ. "ومنهم وكان شريفا معظما في قريش، مطاعا في أهله وأهل مكة، لا يتجاسرون على مكاشفته بشيء من الأذى".

أبى أبو طالب أن يستجيب لدعوة رسول الله ﷺ، ومع ذلك فقد قدم له وعدا بالحماية، وكان مما قال له- كما يقول ابن إسحاق- "إى ابن إخى، إى لا أستطيع أن أفارق دين أبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت".

ومما نرى في العصر الحديث كثيرا م أن الناس والدول تتقارب، حرصا لمصالحهم الفردية والمادية، مع أن الكفر ملة واحدة، على الداعية أن يفرق بين من يتعاطف ويتلطف مع المسلمين، وبين من يتعدون من حدودهم باسم المصالح للمسلمين، وبين من يشددون ويتجاوزون ويظلمون دون حق.

"اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا"

ونفذ أبو طالب ما التزم به، فقد كان يدافع عن رسول الله ﷺ، وينصره- بقدر من الله تعالى- ويقوم دونه أمام الملأ من قريش.

قال ابن إسحاق: "وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه".

وتحمل من أجل موقفه العنت والحر، والظغط المعنوى المستمر ولما مات أبو طالب وجد الملأ من قريش الفرصة والسعة في الأمر ليتحركوا في إيدائه عليه الصلاة والسلام بمالم يتمكنوا من قبل.

يقول ابن إسحاق: "فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبى طالب¹".

¹ سيرة ابن هشام (1/ 179)

هرقل، عظيم الروم:

وهو الذي بعث إليه رسول الله ﷺ كتابا يتضمن دعوته إلى الإسلام، فإبدى هرقل حينها تعاطفا مع الدعوة، ومع رسول الله ﷺ، وأظهر اقتناعا بالحق في دعوته، ورغبة في اللقاء به عليه الصلاة والسلام.

ويبدو هذا الموقف من هرقل في كلماته التي خاطب بها أبا سفيان إثر استدعائه له أثناء وجوده في الشام، فقد قال له بعد حوار طويل حول رسول الله ﷺ: "إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو إني أعلم إني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه".

ومع هذه الكلمات فقد آثر هرقل البقاء على دينه خشية على دنياه، كما قال النووي: "وإنما شح في الملك ورغب في الرياسة فآثرها على الإسلام".

من عادة البشرية أن كل إنسان ذوجاه ومال ومنصب يتمنى أن يكون على درجة ومرتبة عالية، وبروتوكولات فاخرة، وخاصة أن المراتب السياسية داء فتاك في الأمة، على الدعاة المسلمين أن يختاروا المنهج النبوي في الدعوة إلى الله لعلاج هذا المرض ويعرفوا أساسه ومصدره حتى تعود الأمة إلى مجدها وتاريخها.

والفرق واضح بين المرضى وبين من يحتاج المعالجة منهم، يصفهم القرآن الكريم ويفرق بينهم بقوله سبحانه:

"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّيْنًا وَرَحَبُنَا وَاتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعْنًا فَنُصَرِّفُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ".

"وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ"².

علمنا من الآيات الكريمات أن المخاطبين من اليهود أنواع وأمراضهم مختلفة، وأحوالهم شتى، ولا بد على الدعاة، أن يفرقوا بين المستبدين منهم والمتعاطفين.

المبحث السابع

الملأ من المنافقين

¹ المصدر السابق 199/1

2 سورة المائدة: الآية، 83-84.

مما تحذر الإشارة إليه ونحن بصدد بيان حال الملأ مع الدعوة أن هناك من الملأ من دخل في دين الله نفاقاً، إذ حين أن يجابه الدعوة علناً، ويحارب الدين جهاراً، ففضل أن يكيدله من الداخل بأن يتظاهر بالدخول في الإسلام، ويصرح بكلمة الإيمان ثم يتحرك بعد ذلك وقد اطمأن الناس له لينفس عن حقه الدفين، فيثير الشبهة، وينشر الاتهام ويجابه من داخل الصف، ويتمالاً مع أعداء الدعوة خارج الصف المسلم. وهذا الصنف خطورته على الدعوة أكبر وأعظم، وأثره السلبي على المؤمنين أشد وأطم.

وفيما يلي أذكر مثالين لمن سلك طريق النفاق من الملأ المعاندين: قارون: ¹كان قارون من بني إسرائيل كما تشير الآية الكريمة: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ" ²

وكان مترفاً واسع الغنى جزيل المال كما صرح القرآن بذلك في قول الله سبحانه: "وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" ³

ومع كونه من بني إسرائيل إلا أنه آثر السير في ركاب فرعون، وسلوك منهجه واقتفاء أثره كما قال ابن كثير: "لم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلاً به متعلقاً به" ⁴

والثابت في القرآن الكريم أنه كان عدواً لموسى عليه السلام كافراً برسالة مجيهاً له ومنهاضاً.

وهناك موضعان في القرآن الكريم يقرن الله عز وجل فيهما قارون وفرعون وهامان مما يدل على أنه كان من الأكابر وأصحاب الشأن في العداوة والكيد لموسى عليه السلام ولدعوته.

يقول الله تعالى: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مَنَاقِبِينَ" ⁵

ويقول عز وجل: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" ¹

(1) - هو - كما قيل - قارون بن بصهر بن قاهث، ابن عم موسى عليه السلام. ينظر: تفسير الطبري 105/20، تفسير البغوي 454/3، فتح الباري 553/6.

(2) - سورة القصص: مى آية 76

(3) - سورة القصص: من آية 76

(4) - تفسير ابن كثير 428/2.

(5) - سورة العنكبوت: آية 39

فالأيات تجعل موقف قارون هو نفسه موقف فرعون وهامان في التكذيب والاستكبار. قال القرطبي: "خصهم بالذكر لأن مدار التدبير في عداوة مصسى كان عليهم، وفرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال الكنوز، فجمعه الله معهما لأن عمله في الكفر والتكذيب كاعما لهما"². وقال الشوكاني: "خصهم بالذكر لأنهم رؤساء المكذبين بموسى"³.

والسؤال هنا: هل كان قارون صريحا في الكفر والعناد، والعداوة والمجاهمة، أم كان منافقا يستتر بالإيمان في الظاهر، وهو في الباطن كافر محارب لله عز وجل ولرسوله مصسى عليه السلام؟

يشير كلام كثير من المفسرين إلى أن قارون كان منافقا يطن الكفر ويظهر الإيمان. ويحتمل أنه كان في بداية الأمر مصرحا بالكفر والعداوة، ولما رأى أن اتجاه بني إسرائيل. وهو منهم. كان هو الدخول في دين الله سبحانه، آثر عند ذلك أن يستتر بالإيمان نفاقا ويناهض موسى عليه السلام ودعوته من الداخل كما فعل أمثاله في عهد رسول الله محمد ﷺ.

رواه عن قتادة وغيره أن قارون "نافق كما نافق السامري"⁴.

وذكر ابن كثير أن "قارون كان كافرا في الباطن منافقا في الظاهر"⁵.

ومن ثم يمكن. إن صح هذا الرأي. أن نعتبر قارون صورة من صور النفاق في تاريخ الرسل عليهم السلام، يظهر الإيمان ويصرح به مادام هو الاتجاه العام لدى قومه (بني إسرائيل)، في الوقت الذي يتحرك فيه للقضاء على الدعوة وإيذاء موسى عليه السلام واتهامه بالأباطيل، يساعده على ذلك السعة ووفرة المال، التي دفعته إلى الغرور والاستكبار، واحتقار المؤمنين من عباد الله، والرفض لنصح الناصحين من قومه كما قال عز وجل: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ

(1) - سورة غافر: آية 23-24

(2) - تفسير القرطبي 199/15.

(3) - تفسير فتح القدير 488/4.

(4) - ينظر: تفسير الطبري 160/20، تفسير ابن كثير 399/3، تفسير البغوي 454/3 تفسير أبي السعود 24/7

(5) - فصوص الأنبياء لا بن كثير، ط/3، 1408هـ، مكتبة الطالب الجامعي 486/2.

لَهُ قُوَّةٌ لَا تُفَرِّجُ إِلَّا اللَّهُ لَا يَجِبُ الْفَرَجُ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ...¹

عبد الله بن أبي ابن سلول² (رأس النفاق في عهد رسول الله ﷺ):

كان من صناديد الخزرج وسادتها وعظمائها، بل يقول ابن إسحاق: "قدم رسول الله ﷺ المدينة. كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة. وسيد أهلها عبد الله بن أبي ابن سلول، لا يختلف عليه في شرفه اثنان، لم نجتمه الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره"³.

"وكان قومه قد نظموا له الحزب ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن⁴ ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً"⁵.

أعلن عبد الله بن أبي في بادئ الأمر عداوته، وأظهر بغضه وكراهته وصرح بموقفه.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فذكية⁶. وأسامة وراءه، يعود سعد ابن عباد في بني الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، فسارا حتى مرا بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم⁷ عبد الله بن أبي، فإذا المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المسلمين عبد الله بن زواعة، فلما غشيت المجلس عجاجة⁸ الدابة، حمر⁹ ابن أبي أنفه برادته فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن، فقال له عبد الله بن أبي ابن سلول: أيها المرء، لا أحسن مما تقول إن كان

(1) سورة القصص، الآية: 76-80.

(2) - سلول: بفتح السين وضم اللام الأولى وتخفيفها، المفعي ص 131، قال السهيلي: "سلول: هي أم أبي". ينظر الروض

الأنف في تفسير السيرة النبوية لا بن هشام لأبي القاسم السهيلي، طبعة دار الفكر، بيروت 14/3.

(3) - السيرة النبوية لا بن هشام 192/2 (مع اختصار يسير).

(4) - ضغن: أي حقد، والضغن: الحقد والعداوة والبغضاء.

ينظر لسان العرب 2592/4.

(5) - السيرة النبوية لا بن هشام 192/2-193.

(6) - "أي كساء غليظ منسوب إلى فذك بفتح الفاء والدال وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة". فتح الباري 293/8.

(7) - "إي قبل أن يظهر الإسلام". فتح الباري 293/8.

(8) - "عجاجة الدابة هو ما ارتفع من غبار حوافرها". شرح النووي على صحيح مسلم 158/12.

(9) - "إي غطى". فتح الباري 293/8.

حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، فمن جاءك فاقصص عليه. قال عبد الله بن رزّاحة بلى يا رسول الله، فاغشنا في مجالسنا، فإننا نحب ذلك...¹.

ونلاحظ هنا صراحة ابن أبي الموقف من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووضوحه في المجاهدة، ولكن ذلك الأسلوب تغير وتبدل بعد غزوة بدر حين رأى ابن أبي الانتصار الفاصل للمسلمين في تلك المعركة، وما حصل فيها من القتل والأسر للكبراء من قريش، ورأى الموقف القوى لرسول الله ﷺ في المدينة وإقبال الناس عليه ودخولهم في دين الله سبحانه وأن التوجه العام قد أصبح لصالح الاسلام.

لما شاهد رأس النفاق ذلك آثر أن يغير أسلوبه في حرب الاسلام ومواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل في الاسلام نفاقاً ليتمكن من التحرك بحرية، وفي قلبه ما فيه من الحقد والضغينة.

وكان يتغير حاله من حين وآخر، كما هي عادات المنافقين.

ففي حديث أسامة من رواية البخاري المذكورة آنفاً "فلما غزا رسول الله ﷺ بدرا فقتل الله بها من قتل من صناديد الكفار وسادة قريش، فقفل رسول الله ﷺ وأصحابه منصورين غانمين، معهم أسارى من صناديد الكفار وسادة قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجّه، فبايعوا رسول الله ﷺ على الاسلام، فأسلموا"³.

إضافة إلى ما سبق قد يكون من أسباب تظاهرة بالاسلام، أن يبقى على مكانته عند قومه، وشرفه ومقامه بينهم، كما يقول صاحب الظلال في مقدمة تفسيره لسورة البقرة وهو يقارن بين وضع الاسلام في مكة ووضعه في المدينة، فقد ذكر أن الاسلام في المدينة أصبح قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيراً أو قليلاً، وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً عظيماً، وفي مقدمة من كان مضطراً لمصانعتها نفر من الكبراء دخل أهدوهم وشيعتهم في الاسلام، وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث

(1) - الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب، باب كنيسة المشرك 2292/5-2293، ومسلم في كتاب الجهاد، باب ما

لقى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين 157/12-159

(2) - أي عاد. ينظر النهاية في غريب الحديث 4-92

(3) - رواه البخاري في كتاب الأدب، باب كنيسة المشرك 5-2293

بينهم ومصلحتهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياهم، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي أبن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرى لتجوه ملكا عليهم قبيل مقدم الإسلام على المدينة¹.

ويقول في مقدمة تفسيره لسورة آل عمران: " كانت غزوه بدر الكبرى قد وقعت وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش، وكان هذا النصر بظروفه التي ثم فيها والملابس التي أحاطت به تبدو فيه واثقة المعجزة الخارقة، ومن ثم اضطر رجل كعبد الله بن أبي إبن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكرهته لهذا الدين ونبيه ﷺ وأن يكتب حقه وحسده للرسول الكريم وأن ينضم. مناققا. للجماعة المسلمة وهو يقول: هذا أمر قد توجه، أي ظهر له وجهه، وهو ماض فيها لا يره عنها راد.

بذلك وجدت بذرة النفاق في المدينة، وأصبحت مجموعة من الرجال ومن ذوى المكانة فيهم مضطرة إلى التظاهر بالإسلام، والانضمام إلى المجتمع المسم بينما هي تضر في نفسها الحقد والعداء للإسلام والمسلمين، وتترص بهم الدوائر، وتلمس الثغرات في الصف، وتترقب الأحداث التي تضعف قوى المسلمين أو ترزع الصف المسلم ليظهروا كوامن صدورهم أو ليضربوا ضربة الإجهاز إذا كان ذلك في مكنتهم².

أقول: إن مما لا جدال فيه أن الخير ما تصلح به حال الإنسان وأن الشر ما تفسد به حاله وقد يبدو ذلك من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعقيب، فالخير بين، والشر بين، وليس يخفى على عاقل أن يجتنب ما يؤذيه، ولا أن يحرص على ما ينفعه، ولكنه وضوح الوهلة الأولى التي تعجل صاحبها عن تبين ما وراء السطح من أصول الحقائق، وخبايا الأعماق، فالخير والشر قضية البشرية بأسرها في كل عصرها وبيئاتها، أو هما محور كل ما عرف لها من قضايا الماضي، أو سيعرف لها في مستقبل الدهور ويكفي أنها . أي: الإنسانية . على ما تزعم لنفسها اليوم من رقي وعلم، تعاني من القلق، والحيرة، والملل وشقوة النفس، ما كانت تعانيه في أشد عصورها جهالة وبعداً عن الخير والحق، وذلك يدعونا

إلى أصل تكوين الإنسان بالتركيز إلى الدعوة إلى الله تعالى وتوثيق العلاقة معه سبحانه جل وعلا.

عفوالم أضف هذه المجموعة لخوف الإطتاب::

(1) - في ظلال القرآن 1-25

(2) في ظلال القرآن 1-344-345

هناك مجموعة كبيرة من الملأ القديم والحديث قدوا جهوا وعارضوا الرسول ﷺ ومن اتبعهم من الدعاة لم نذكرهم، منهم:

أبو جهل وأبو لهب، وأبو سفيان، ومسيلمة، وأسود عنسى وفي العصر الحاضر كأمريكا ومن سلك مسلكهم، لوأخذنا نبذة عن مواجعتهم لطال البحث.

الفصل الثاني

أسباب عداوة الملائكة لدعوة الرسل عليهم السلام

وفيه عشرة مباحث:

المبحث الأول: الاستعلاء والاستكبار.

المبحث الثاني: الخوف على المنصب والجاه.

المبحث الثالث: تأثير بعض الملائكة على بعض.

المبحث الرابع: الإصرار على الباطل.

المبحث الخامس: الملائكة والجهل.

المبحث السادس: الملائكة والحسد.

المبحث السابع: الملائكة والتقليد الأعمى.

المبحث الثامن: الترف والانغماس في الشهوات.

المطلب التاسع: إنكار البعث والجزاء.

المبحث العاشر: اتباع الباطل وكراهية الحق.

المبحث الأول: الاستعلاء والاستكبار

جرت عادة الملأ بتكذيب الرسل عليهم السلام، والوقوف في وجه الدعوة لكل الوسائل والأساليب أما الملأ المكذبون، والكبراء الكافرون لم يمنهم من الإسلام والاستجابة للمرسلين غموض في الدعوة، أو التباس في أمر الرسالة، ولم يدفعهم إلى الجحود والعداء الصريح شك في شخصية الرسول عليه السلام، فإن الرسل عليهم السلام اختارهم الله تعالى من صفوة الخلق، ومن أشرفهم نسبا، وكان كل رسول يعنه إلى قومه، يعرفون نسبه، وصدقه وأمانته، ثم هم بعد ذلك مؤيدون من الله عز و جل بالآيات البينات والمعجزات الواضحات، بحيث تقوم الحجة، ويتضح الأمر مثل طلوع الفجر.

إن المانع لهم من الإيمان بعيد كل البعد عن قضية الوضوح في الدعوة أو الصدق في الرسول، فتلك الأمور لديهم واضحة، والأمر فيها منته لا تنقصه الحجة، ولا يعوزها الدليل. ولكن الموانع منهم وفيهم، والخواجز بينهم وبين الإسلام إنما وضعوها هم لحاجة في أنفسهم، فاتهموا موقف العداء والتكذيب، والحرب والمجاهمة لرسول الله عليهم السلام، وهم في ذات الوقت يعلمون في قرارة نفوسهم أن ما جاءت به الرسل هو الحق، وأن المسألة مسألة وحى ينزل من السماء، يبلغه الرسل الصادقون عليهم السلام لا كذب فيه ولا ادعاء.

ولذا قال موسى عليه السلام في خطاب فرعون كما حكى القرآن الكريم:

"قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا"¹

إى لقد كانت مستقرا في علمك، واضحا في قرارة نفسك، أن هذه الآيات ما أنزلها إلا الله تبارك وتعالى لتكون بصائر "إى حججا وأدلة على صدق ما جئتك به"²

يؤكد الله سبحانه تلك الحقيقة في معرض تسليته لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام، فيقول عز وجل:

"قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ"³

"والجحد في اللغة: إنكارك بلسانك ما تستيقنة نفسك"¹

(1) - سورة الاسراء: من آية 102.

(2) - تفسير ابن كثير 67/3.

(3) - سورة الأنعام: آية 33.

فالظاهر أنهم يبحثون عن علل واهية وشبه باطلة لتكون أساساً ومبرراً لما قرروه سابقاً، وتلك غاية الشر والظلام. ولهذا الواقع من الملأ الكافرين أسبابه، ولهذا العداوة دوافعها، ولذلك المكر والكيد عوامله وبواعثه.

وقد وصف الله تبارك وتعالى الملأ المكذبين بهذا الوصف في مواضع كثيرة في القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله عز و جل عن الملأ من قوم صالح عليه السلام: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنُتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ"².

ويلاحظ في الآيات المتكررة وصفهم بالاستكبار مرتين لتكرير هذا الوصف وتأكيد ملازمته لهم، والاشعار بأن ما في نفوسهم من الكبرياء هو الذي أودى بهم إلى الإنكار للرسالة، والتكذيب بالرسول عليه السلام، والاحتقار والاستضعاف للمؤمنين.

قال الألوسي في تفسير الآيات: "وأعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير إيداناً بأنهم قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار"³.

ولذلك قال تعالى عنهم في مواضع أخرى: "فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"⁴.

"فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"⁵.

إى "استكبروا عن امتثاله"⁶.

ويتكرر وصف الملأ بالاستكبار في قصة شعيب عليه السلام، كما في قوله تعالى: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا..."¹.

(1) - تفسير غريب القرآن 28

(2) - سورة الأعراف: آية 75-76

(3) - تفسير روح المعاني 164/8

(4) - سورة الذاريات: آية 44

(5) - سورة الأعراف: من آية 77

(6) - تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، ط1 و دارالكتب العلمية

فالاستكبار والفطرس² هي التي دفعت بالملأ أن يتجهوا إلى هذا التهديد الصريح "لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا".

والكفر في عاد سببه كذلك الاستكبار، كما يقول الله عز وجل عنهم: "فإما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة..."³

ويلاحظ أن الآية بينت باعثهم إلى الاستكبار، وهو شعورهم بشيء من القوة "وقالوا من أشد منا قوة" كما ختمت الآية بتقرير نتيجة الاستكبار وهي الجحود بآيات الله "وكانوا بآياتنا يمجدون".

فليس الحال نقصاناً في البراهين، أو ضعفاً في الدليل، بل الواقع أنهم كانوا يعرفون أن الرسول حق، وأن آيات الله حق، ولكن العلة الأصلية هي الاستكبار الذي أودى بهم إلى الجحود.

وهذا نبي الله نوح عليه السلام يشتكى إلى ربه سبحانه استكبار المستكبرين، كما يحكي القرآن الكريم:

"وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لهُمْ جَافَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا وَتَآبَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"⁴ إلى عظيم بالغا إلى النهاية القصوى⁵ فالملأ من قوم نوح عليه السلام بلغوا في الاستكبار غايته، وكان من تاعجه ذلك التكذيب المتواصل، والمكر الرهيب⁶، كما كان من مظاهره الانتقاص من قيمة الرسول عليه السلام وازدراء⁷ من حوله من المؤمنين، كما قال الله تبارك وتعالى: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يَبْدُؤَ الرَّأْيَ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّن عِنْدِي فَقَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَثْلُمُكُمْ هَا وَهَاهُنَا⁸

(1) - سورة الأعراف: من آية 88

(2) - "الفطرس: الإعجاب بالنفس، والتطاول على الأقران، والتكبر". ترتيب القاموس المحيط 402/3.

(3) - سورة فصلت: من آية 15

(4) - سورة نوح عليه السلام: آية 7

(5) - التفسير الكبير 136/30

(6) - أي المخيف، من رهب: أي خاف. ينظر لسان العرب 1748/3.

(7) - "الازدراء: الاحتقار والانتقاص والعيب". لسان العرب 1830/3

(8) - سورة هود عليه السلام: من آية 27

فهم يسمون إتباع نوح عليه السلام (أراذل) لأنهم فقراء ليسوا من أصحاب الغنى والجاه فينظرون إليهم نظرة احتقار وازدراء، ويغمطونهم¹ في استعلاء وكبرياء.

ويكتمل الوقف بمطالبتهم لنوح عليه السلام أن يطردهم من حوله حتى يتسنى² لهم، وهم الملأ الكبراء - أن يفكروا في الإقبال عليه وعلى دعوته، وكان الجواب ما حكاه القرآن: "وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحْمَةً وَلِكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ"³ "وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ"⁴

وكذلك يفعل كبراء قريش حين يطالبون رسول الله ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين.

فمن سعد رضى الله عنه قال: "كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا..."⁵

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: "مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا يا محمد، أرضيت هؤلاء؟"⁶

وفي رواية ابن جرير: "...فقالوا يا محمد، أرضيت هؤلاء من قومك عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فنزلت هذه الآية "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ"⁷⁸

(1) - أى يحقرهم، قال في لسان العرب: "غمط الناس: احتقارهم والازدراء بهم وما أشبه ذلك، وغمط الناس غمطاً: احتقرهم واستصغروهم". 3300/5.

(2) - أى يتيسر، "يقال: سئيت الشيء إذا فتحته وسهلته، وتسنى له كذا أى تيسر وتأتى". لسان العرب 2129/3.

(3) - سورة هود عليه السلام: من آية 29

(4) - سورة الشعراء: آية 114-115.

(5) - الحديث رواه مسلم في كتاب الصحابة رضى الله عنهم، باب في فضل سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه 187/15.

(6) - الحديث رواه أحمد: الفتح الرباني 137/18، والواحدى في أسباب النزول ص 213. ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس، وهو ثقة" 88/7.

(7) - سورة الأنعام: آية 52-53

(8) - تفسير الطبرى 200/7. قال شاکر: إسناده صحيح 36/6 (طبعة دار المعارف)

ومظهر آخر يقرر الاستكبار في نفوس الملائكة المكذبين، يبينه الله سبحانه في قوله: "كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشرا منا واحد تتبعه إنا إذا نفى ضلال وسعر"¹

"ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ. فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"²

فهم لكبريائهم لا يريدون أن يتأملوا في الدعوة وما تحملها من الحق، وإنما يتجهون إلى شخص الداعية "أبشرا منا واحد تتبعه"، "أنؤمن لبشرين مثلنا".

"إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة، النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق، ولكن إلى الداعية فتستكبر عن الإذعان والتسليم"³

ومن أولئك الملائكة المستبدين المكذبين الذين بالغوا في الاستكبار غايته، وفي العتو نهايته، فرعون ومن حوله من الأكابر المتفذين، والذين قال الله تعالى في شأنهم: "وَاسْتَكْبَرُوا وَكُنُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ."⁴

لقد كان الاستكبار موقف فرعون الدائم والمستمر، يقرر ذلك قول الله جل وعلا: "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"⁵

"ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ. فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"⁶

"فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ"¹

(1) - سورة القمر: آية 23-24

(2) - سورة المؤمنون: آية 45-47

(3) - في ظلال القرآن 3432/6

(4) - سورة الضحى: من آية 39

(5) - سورة يونس عليه السلام: آية 75

(6) - سورة المؤمنون: آية 45-46

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"²

"وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ"³

ويستمر الاستكبار مع ورود الآيات البينات، وتو الى المعجزات الواضحات، ونزول العقوبات المندرات:

قال الله تعالى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ"⁴

"وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ"⁵

ويبرز كبرياء فرعون حين يجمع الجماهير لينادي فيهم مشيراً إلى عظمة وقوته، وضعف موسى عليه السلام وهوانه - في زعمه -: "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"⁶

بل يصل الاستكبار بفرعون غايته حين يتعاضم على الله سبحانه فيدعي الألوهية للعباد: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ..."⁷

فَحَسَرَ فَتَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى⁽⁸⁾ مع إن فرعون وملاه في داخل نفوسهم متيقنون بصدق موسى عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين حقاً. ذلك مما قرر القرآن الكريم عنهم: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ".⁽¹⁾

(1) - سورة يونس عليه السلام: آية 83

(2) - سورة القصص: آية 4

(3) - سورة الدخان: آية 30-31

(4) - سورة الأعراف: آية 133

(5) - سورة النعكموت: آية 39

(6) - سورة الزخرف: آية 51-52

(7) - سورة القصص: آية 38

(8) - سورة النازعات: آية 23-24.

إنه الكبر الذي يمنعهم من الإسلام خيفة أن يرجعوا عبادا لله كسائر العباد، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع، ويكره عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع، وأن يشرعوا فيقبلوا منهم التشريع، وأن يأمرهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع⁽²⁾ ويجذو كبراء قريش حذو السابقين من الملأ المكذبين، فيمنعهم الكبر من الإيمان ويستحقون بذلك وصف الله لهم في قوله تعالى: "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ"⁽³⁾ والعزة هنا ليست العزة الإيجابية بالحق وسلوك طريق الرشد، ولكنها عزة الباطل وحية وتكر دفعهم إلى رفض الحق ومناهضة الدعوة وتجاهل الحجة مع رسول الله ﷺ⁽⁴⁾:

"وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُقْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَيِّنَ لَهُ عَذَابَ إِلِيمٍ"⁽⁵⁾

والاستكبار كذلك هو باعثهم إلى إثارة الشبهات، والمجادلة بالباطل بلا حجة ولا برهان، دفعا للحق، وصدا عن سبيله، "إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُودُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ"⁽⁶⁾

ويقول تعالى عن الملأ المجادل: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ. ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ."⁽⁷⁾

وثني العطف كناية عن النكير⁽⁸⁾

ومن مظاهر الاستكبار أيضا لدى هؤلاء: التعنت والعنف في الاقتراحات والمطالب كما في قول الله سبحانه:

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْغُلَامُكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا"⁹

(1) - سورة النمل: آية 13-14

(2) - في ظلال القرآن 3/ 1202.

(3) - سورة ص: آية 2.

(4) - ينظر زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ط 1407/1 هـ، دار الفكر 318/6.

(5) - سورة الجاثية: الآية 7-8.

(6) - سورة غافر: الآية 56.

(7) - سورة الحج: الآية 8-9.

(8) - تفسير البيضاور 84/2.

(9) - سورة الفرقان: 21.

وكذلك من مظاهر واستبداد الكفر واستبدادهم يعلنونه للعامة مع علمهم الكامل بأن محمد ﷺ هو الصادق الأمين ﷺ، كما فعل الوليد بن المغيرة - أحد رؤساء قريش - فنزل فيه (1) قول الله تبارك وتعالى: "سَأَرْهِفُهُ صَعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فُتِّلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ." (2)

فهو الاستكبار إذن يمنعهم من الأتباع، لاقلة البراهين، ولاضعف الأدلة.

روى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني "أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافع هذا الصابي؟ فقال والله إني لأعلم إنه لنبي ولكن متى كنا لعبد مناف تبعاً؟ وتلا أبو يزيد "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" (3) (4) ينكرونها بالاستهتة وهم مستيقنون أنك لم تكذب ولم تأت بها إلا عن الله تبارك اسمه (5)

نعم، تعد صفة الاستعلاء والتكبر والعجب والانهيار بالذات، من اقبح الخصال البشرية و من الرذائل التي لا ينبغي للانسان الاتصاف بها. و قد تصدت تعاليم الدين الحنيف لتلك الخاصية بشدة و عنف حيث ورد في ذمها في القرآن الكريم الكثير من آيات الذكر الحكيم.

فقد حذر القرآن الكريم العوام من الناس والخواص من العلماء والدعاة المخلصين من حالة الاستعلاء و الاحساس بالعلو التي يعيش هؤلاء الناس اتجاه الآخرين مما تؤدي بهم في نهاية المطاف الى الاستنكاف عن الخضوع لله تعالى و عبادته الامر الذي يؤدي الى مردودات سلبية على مستوى الافراد و الجماعة.

(1) - روى ابن جرير نزول الآية في الوليد عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد والضحاك. تفسير الطبري 152/29،

وينظر تفسير ابن كثير 442/4.

(2) - سورة المدثر: الآية 16-25.

(3) - سورة الأنعام: الآية 33

(4) - ينظر تفسير ابن كثير 129/2.

(5) - تفسير غريب القرآن ص 28.

(4) - تفسیر ابن کثیر 265/4.

ويقول القرطبي: قوله تعالى "أَوَلَمْ يَكُنْ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا" أى خصص بالرسالة من بين آل عمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا، وهو استفهام معناه الإنكار بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ أى ليس كما يدعيه، وإنما يريد أن يتعاضم ويلتمس التكبر علينا من غيى استحقاق⁽¹⁾

وقال الرازى في قولهم (أشر): استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له⁽²⁾

فصالح عليه السلام - في نظرهم - ليس من السادة ولا من الأكابر، فكيف يعطون موافقتهم له لينال السيادة ويكون له الأتباع؟ ويشاركوهم في هذا الأتباع؟

وعلى آثارهم يقتدى الملأ المكذبون في عهد موسى عليه السلام إذ يعلنون أنه ليس با الإمكان إعطاء الفرصة لموسى وهارون عليهما السلام لينالا زعامة وسيادة ورياسة: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"⁽³⁾

والمراد بالكبرياء هنا العظمة والرياسة⁽⁴⁾

فهم يعلنون مكابرتهم للحق وجهودهم لما جاء به موسى عليه السلام بأمرين أحدهما خوفهم على الرياسة الدنيوية التي يحرصون على ثباتها ويجدون في بقائها، لأن النبی إذا عترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه فصار أكبر القوم⁽⁵⁾

وهذا - في خطتهم - مالا يمكن أن يكون، ولابد من مجابته، ولذا أعلن فرعون أمام موسى عليه السلام:

"قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى".⁽⁶⁾

"والمعنى جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك حتى تغلب على أرضنا وديارنا"⁽¹⁾

(1) - تفسير القرطبي 90/17.

(2) - التفسير الكبير 51/19، وينظر: تفسير البغوي 262/4،

(3) - سورة يونس عليه السلام: الآية 78.

(4) - ينظر تفسير ابن كثير 426/2.

(5) - التفسير الكبير 142/17.

(6) - سورة طه: الآية 57-58.

فمستلة النبوة والدعوة في نظر فرعون "تمهيد للاستيلاء على الحكم والأرض"⁽²⁾.

وفي عهد رسولنا ﷺ أيضا يرى الكبراء المكذبون في شخص رسول الله ﷺ من ينافسهم أمر الرياسة والزعامة، ولذلك يرفضون الاستجابة للحق الذي يحمله عليه الصلاة والسلام.

يقول سيد قطب وهو يتحدث عن أسباب الأضطدام بين دعوة رسول الله ﷺ وبين قريش وأوضاعها: كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم

"وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ" ⁽³⁾

والقريتان هما مكة والطائف، فإن رسول الله ﷺ مع شرف نسبه، وأنه في الذؤابة ⁽⁴⁾ من قريش لم تكن له مشيخة فيهم ولارياسة قبل البعثة بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرها في بيئة تجعل للمشيخة والرياسة القبيلة كل الاعتبار فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد ﷺ من هؤلاء المشيخة ⁽⁵⁾.

ولذا تواصلوا فيما بينهم بالوقوف موقف التكذيب والاصرار على الوضع القائم حتى لاتضيع المكانة والزعامة:

"وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ" ⁽⁶⁾

أى إن هذا القول الذى يقول محمد ويدعون إليه من قول لاإله إلا الله شئ يريد مناهجه يطلب به الاستعلاء علينا وأن نكون فيه أتباعا ولنا مجيبيه إلى ذلك ⁽⁷⁾.

فهى كلمة تحذير. أى انمايريد محمد بما يقول الانقياد له ليعلو علينا وتكون له أتباعا فيتحكم فينا بمايريد فاحذروا أن تطيعوه ⁽⁸⁾.

(1) - تفسير القرطبي 142/11.

(2) - في ظلال القرآن 2340/4.

(3) - سورة الزخرف: 31.

(4) - اي من أهل الشرف فيها، والذؤابة في الأصل هي شعر المصفور من شعر الرأس، وذؤابة الجبل أعلاه، ثم استعير للعر والشرف والمرتبة. ينظر النهاية في غريب الحديث 151/2.

(5) - في ظلال القرآن 3652/6.

(6) - سورة ص: الآية 6

(7) - تفسير الطبري 126/23.

(8) - تفسير القرطبي 100/15.

وهكذا نجد الواحد من الملائكة المكذبين يعتبر الدعوة الصادقة والنصح الخالص افتياناً⁽¹⁾ على سلطانه ونقصان نفوذه ومشاركة له في النفوذ والسلطان⁽²⁾.

يعلم المكذبون للرسول عليهم السلام من ذوى الرياسة وأصحاب السلطة أن سيادتهم ورياستهم إنما تقوم على أساس باطل، وأن زعامتهم وسلطانهم إنما يعتمد على أصل هش مهترئ، ومن ثم فإنهم يخشون من دعوة الرسول عليهم السلام أن تعيد الحق إلى نصابه⁽³⁾، وتزهق به الباطل الذى به يتشبثون، فتساقط زعاماتهم، وينتهى سلطانهم، وتزول سيادتهم.

وأضاً فإن استعبادهم للناس، وتحكمهم فيهم، وخضوع الأتباع لهم فيما يملكون ويمرمون سواء كانوا أصحاب الرياسة الدنيوية كفرعون وأمثلة أو أصحاب رياسة دينية كالأحبار والرهبان الذين حكى الله عز وجل استعبادهم للعامة، وعبادة الأتباع لهم، في قوله تبارك وتعالى: "اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ رُفُقَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ"⁽⁴⁾.

كل ذلك التحكم والاستعباد لن يكون له بقاء إذا انتشرت دعوة الرسول عليهم السلام والتي تعلن أول ماتعلن أن العبودية في الأرض هي لله وحده دون سواه، وأن أول توجيهات الدعوة: "اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ"⁵.

وهذا بطبيعة الحال يخيف الملائكة المكذبين، والكبراء المعاندين، لأنه يفسد عليهم جيروتهم وطغيانهم واستعبادهم للبشر، ويضيع عليهم ما حققوه من مكاسب - حسب تصورهم - يتيح لهم أن يمللوا ما حرم الله فيحله الناس، ويمرموا ما أحل الله فيحرموه الناس، وأن يشرعوا فيجحدوا الأتباع، ويأمرؤا فيجحدوا الامثال دون ضوابط أوقيود. وبالتالي فهم يعتبرون دعوة الرسول عليهم السلام خطراً يتحددوا زعامتهم وسلطانهم ووجودهم.

قال في الظلال: والملائكة آخر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان في الأرض وترده إلى إله واحد هو رب العالمين⁽¹⁾.

(1) - يقال لكل من أحدث شيئاً في أمرك دونك: قد افنت عليك فيه. لسان العرب 3481/5.

(2) - في ظلال القرآن 3080/5.

(3) - النصاب: الأصل والمرجع... ونصاب كل شئ أصله. لسان العرب 4437/6.

(4) - سورة التوبة: 31.

(5) سورة الأعراف:

إن الملأ المكذبين يرون في كلمة التوحيد (لآ إله إلا الله) أوما يتضمن معناها من الكلمات خطراً على الجاه والمكانة التي يتبوؤونها، والقداسة التي يحيطون أنفسهم بها، لهم الأمر والنهي، والطاعة والخضوع، قراره صائب لا خطأ فيه، وتصرفهم هو الحق الذي لا مرية فيه، لا ترد لهم كلمة، ولا يناقش لهم رأي.

ذلك أنهم يدركون معنا كلمة التوحيد، وأنها ترد العبودية فتجعلها لله وحده، وتردد التحليل والتحريم فتجعله لله سبحانه وحده، وترفض الآلهة المزعومة التي تعبد في الأرض كلها، وتفرد الله جل شانه بالالوهية والعبادة، والتوجه واليخضوع. وهذا ماجعل الملأ من قريش يقفون موقف الرفض لما طلب منهم رسول الله ﷺ أن يقولوا (لآ إله إلا الله).

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : "لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش منهم أبوجهل فقالوا يا أبا طالب، ابن أخي يشتم آلهتنا، يقول ويقول، ويفعل ويفعل، فأرسل إليه فأنه، قال: فأرسل إليه أبوطالب، وكان قرب أبي طالب موضع رجل فخشي أبوجهل إن دخل النبي ﷺ على عمه أن يكون أرق له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، فلما دخل النبي ﷺ لم يجد مجلساً إلا عند الباب فجلس، فقال أبوطالب: يا ابن أخي، إن قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول وتفعل وتفعل، فقال: يا عم إني أريدكم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية، قالوا: وما هي؟ نعم وأبيك عشراً. قال: (لآ إله إلا الله)، قال فقاموا وهم ينفضون ثيابهم وهم يقولون: "أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ" (2) لقد كانوا يفهمون أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله (3) وأنها تحمل في طياتها الإلغاء لكل الآلهة المزيفة من دون الله سبحانه، ولذا أحسوا بخطورة دعوته ﷺ على مراكزهم الباطلة.

إن الأرض لله، والعباد لله، فإذا ردت الحاكمية في أرض الله فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله، أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرى فيعبدون الناس لهذه الأرباب (4).

(1) - في ظلال القرآن 3/ 1313 د.

- سورة ص: الآية 5. (2)

(3) - في ظلال القرآن 3/ 1348

(4) - في ظلال القرآن 3/ 1348.

ويمكن أن يسمع الطاغوت بإعلان كلمة لا إله إلا الله، أو أن الله هو رب العالمين، إلا حين تفقد هذه الكلمة مدلولها الحقيقي، وتصبح مجرد كلمات لمدلول لها، وهي في مثل هذه الحالة لا تؤذيه لأنها لا تعنيه، فأما الطاغوت لا يطبق هذه العصبية⁽¹⁾، بل يحاربها ويهاجمها بشدة وهذا ما فعله الملأ المستكبرون في كل جيل، ومع كل رسول من الرسل عليهم السلام.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك في قصص القرآن: فرعون لعنه الله، والذي ادعى الألوهية كما سجل القرآن الكريم: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"⁽²⁾.

بل أعلن صراحة أنه الرب الأعلى مخاطباً بمقولته جموع الجماهير: فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى⁽³⁾.

فهل يتصور من فرعون بعد ذلك وقد ادعى الربوبية والألوهية أن يوافق على دعوة يأتي بها نبي الله موسى عليه السلام ليعيد الحق إلى يصابه، والعبودية إلى مستحقها وهو رب العالمين جل وعلا؟

إن ذلك -دون شك- يرهب فرعون ويخيفه، حين يعلن موسى عليه السلام مصدر دعوته وحقيقتها: "وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"⁽⁴⁾.

"لم تغب على فرعون وملئه دلالة هذا الإعلان: إعلان ربوبية الله للعالمين، لم يغب عنهم أن هذا الإعلان يحمل في طياته هدم ملك فرعون، وقلب نظام حكمه، وإنكار شرعيته، وكشف عدوانه وطمعانه"⁽⁵⁾.

إنه بمجرد أن قال موسى عليه السلام لفرعون... "وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جئتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"⁽⁶⁾ تبين مدلول (رب العالمين) إنه رد سلطان كله إلى الله يرد عبودية العالمين كلها إلى رب العالمين"⁽⁷⁾.

(1) - المصدر السابق.

(2) - سورة القصص: الآية 38.

(3) - سورة النازعات: الآية 23-24.

(4) - سورة الأعراف: الآية 103-104.

(5) - في ظلال القرآن 3/1347.

(6) - سورة الأعراف: الآية 104-105.

(7) - في ظلال القرآن 3/1330.

ولذا لم يستجب فرعون لدعوة الله سبحانه، بل قرر مجابته وعدم السماح لها بأن تأخذ طريقها إلى الجماهير، لأنه يعلم انتشار دعوة التوحيد معناه ضياع مركزه القائم على استعباد الناس، وعلى تأليههم له من دون الله تعالى.

وكذلك فعل الملائكة من حوله، والذين يرون استمرار مصالحهم ونفوذهم، وضمان مراكزهم ومناصبهم.. هو في وأد هذه الدعوة، والقضاء عليها، وفي بقاء سلطان فرعون وجبروته وطغيانه، يشرع للناس ما يشاء، ويستعبدونهم لما يريد.

وهكذا تعرض موسى لتلك المواجهة التي المستمرة التي تكشف عن حقيقة المعركة بين دين الله كله، ودين الجاهلية كلها، وتبين كيف ينظر الطاغوت إلى هذا الدين، وكيف يحس فيه الخطر على وجوده⁽¹⁾.

وهكذا كان كل رسول من الرسل عليهم السلام يجد العداوة والمواجهة أول ما يجدها - في الغالب - من الملائكة ذوى الجاه وأصحاب الرياسة لأن الدعوة - في نظرهم - تهدد رياسته، وتزعزع مكانتهم، فيصيبهم الخوف والفرع من ضياع الزعامة، وفقدان السيادة، وزوال المنصب والجاه.

يقول سيد قطب: إنه ليست البيئة هي التي تنقص الملائكة للتصديق، إنه السلطان المهدد بالدينونة لرب الواحد، إنها عقدة الحاكمية والسلطان، إنها شهوة الملك العميقة في الإنسان، إنه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام⁽²⁾.

أقول: أن الدعاة لا يحاولون في العصر الحاضر معالجة الملائكة وفق مناهج القرآن الكريم، وأصبحت العراقيل تترى وتزايد يوماً بعد يوم فكل صاحب منصب وجاه يسمى أن يكون في أرقى مرتبة ولو لم يكن له حق. وليس هناك رأي ثان أن له تأثير على الفرد والمجتمع عامة، وعلى الدعاة المخلصين بصورة خاصة.

(1) - المصدر السابق.

(2) - في ظلال القرآن 31314.

المبحث الثالث: تأثير الملأ بعضهم على بعض

قد يقع كثيرا التأثير السلبي المتبادل داخل دائرة الملأ من الكافرين المستبدين المعاندين، وقد يحصل الضغط المعنوي أو المادي من أفراد منهم على آخرين بغية توحيد موقف العداء، أو طريقة التعامل مع الرسل عليهم السلام.

وكذلك أرباب الكفر من أصحاب النفوذ وذوى السيادة - فضلا عن التأثير على عامة الناس - يؤثر بعضهم على بعض، ويتواصلون بالتكذيب والمواجهة ويتناصحون بالكيد والمجاهدة. وإذا وجد من بعضهم ميل إلى الاستجابة للهدى تحرك أقرانه للضغط عليه وبذل المحاولات لإثباته عن التفكير في الإيمان، أو التجاوب مع الرسول عليه السلام⁽¹⁾.

يقول الله تعالى عن القادة والأكابر المكذبين برسول الله ﷺ: "وَأَنطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ"⁽²⁾، أي: استمروا على دينكم، وسيروا على طريقتكم، وداوموا على سيرتكم، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد عليه السلام من التوحيد⁽³⁾.

تكشف الآية المباركة تواصل الملأ بينهم على التكذيب، والتناصح بالباطل الذى يحبونه، ومجاهدة الحق الذى يحمله الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد استخدم فرعون لعنه الله هذا الأسلوب على الملأ من حوله لما جاءهم موسى عليه السلام وأراهم الآيات البينات: "فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ"⁽⁴⁾.

إذ خشى فرعون أن يؤثر في نفوس الملأ حوله ما شاهدوه من الحجة القاطعة والمعجزة البينة، فأراد أن يشاغلهم عما ظهر من الحجة، ويزيل ما يحتمل أن يبقى في نفوسهم من أثر أو اقتراب من الحق، وأن يضغط عليهم بأسلوب هادئ مكر، فأظهر لهم أنهم جميعا أمام عدوك مشترك، وأنه في أمس الحاجة إلى رأيهم وفكرهم ومشورتهم لمقاومة هذا الخطر الماحق بالجميع.

"قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"⁽¹⁾.

(1) - ينظر موقف الملأ من دعوة الرسل في قصص القرآن الكريم رسالة الدكتوراه، عبدالرحمن محمد علي البرادعي الأنصاري 1414هـ / 1994.

(2) - سورة ص: الآية 6.

(3) - ينظر تفسير ابن كثير 27/4، تفسير روح المعاني 166/23.

(4) - سورة الشعراء: الآية 32-33.

أى فمارأيكم؟ ومالذى أعمله؟ يظهر من نفسه: أنى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم. ومثل هذ الكلام يوجب جذب القلوب وانصرفها عن العدو⁽²⁾.

فأشاروا عليه بماوافق هواه، ويرضى غروره، ورضخوا لتأثيره وأمره، كماقال الله عزوجل عنهم: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا آمُرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أُمُرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ"⁽³⁾.

بل ومحاولون هم أيضا-فيمابعد-إغراء فرعون وتخريضه، وتهيججه واستتارته، ضد موسى عليه السلام ومن استجاب لدعوته من المؤمنين: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَذَرَكَ وَآهْلَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"⁽⁴⁾.

وفي قصة ثمود نلحظ كذلك التأثير السلبي والتواصى المتبادل بين أولئك الذين قرروا قتل نبي الله صالح عليه السلام، فأفشل الله تعالى خططهم، ثم عقروا الناقة التى نأهم الله سبحانه عن التعرض لها بسوء. قال عزوجل: "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا نَقَاسِمُوا بِاللَّهِ لَئِن بَيَّنَّتْهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَتَقُولَنَّ لَوْ لَئِيهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ"⁽⁵⁾.

فقد أشار بعضهم على بعض أن يقدموا عهودهم على الاستمرار فيما خططوا لهم بنى الله صالح عليه السلام، وأن يوثق كل منهم عهده ويؤكدده بالحلف⁽⁶⁾.

وفي دائرة الملأ من قريش نجد أيضا صورا متعددة لهذا التأثير السلبي بين الكبراء والأشراف، منهم: عن ابن عباس رضى الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكانه رق له، قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت نَجْدًا لتعرض لماقبله⁽⁷⁾، قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولايبلغ قومك أنك منكر له، أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بأشعار منى، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منى ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، والله إن

(1) - سورة الشعراء: الآية 34-35.

(2) - التفسير الكبير 132/24.

(3) - سورة هود عليه السلام: الآية 96-97.

(4) - سورة الأعراف: الآية 127.

(5) - سورة النمل: الآية 48-49.

(6) - تفسير البغوى 423/3، تفسير القاسمى 73/13.

(7) - بكسر القاف وفتح الباء: أى عنده. ينظر لسان العرب 555/3.

لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة⁽¹⁾، وإنه لمثمر أعله، مغدق أسفله، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليعظم ماتحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعنى حتى أفكر، فلما فكر قال هذا سحر يؤثر بآثره عن غيره، فنزلت "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا"⁽²⁾ " (3).

إن هذا الخير أيضا يؤكد أن الملأ المعاندين كانوا يبذلون جهودهم في الحيلولة بين عليّة القوم وبين الاقتراب من الحق أو التأثير به وما يمكن أن يتبع ذلك من الاستجابة الفعلية لدعوة الله تعالى، وما يلحقه من احتمال تأثير الجماهير بمن يؤمن من أولئك العلية، وتأسيسهم وسلوهم نفس السبيل.

وذلك ما يخشاه أمثال أبي جهل، والذي قرر ان لا يدع فرصة للوليد ابن المغيرة لمجرد التفكير والتأمل بعد أن رق لمجاها به رسول الله ﷺ، فضلا عن الاقبال على الهدى والدخول في دين الله تبارك وتعالى.

ويتجه أبوجهل إلى الوليد ليؤثر فيه بأسلوب يحمل الدهاء والمكر إذا دخل عليه من الباب الذي يثير فيه الأنفت، ويشعل فيه الكبرياء، وينهزه⁽⁴⁾ لدفع الاتهام عنه لما يرضى القوم ويصحح فكرهم عنه، وإن تناقض مع ما أدركه عقله، ووصل إليه فهمه.

وما زال به أبوجهل حتى حقق هدفه، ونال بغيته، فقد نطق الوليد كفرا، واعتبر كلام الله تعالى سحرا. وكان لأبي جهل مواقف ودور بالغ في التأثير والضغط على أقرانه من الملأ للاستمرار في مواجهة الدعوة، ومجاها رسول الله ﷺ وذلك عن طريق إثارة نوازع الحمية والعصية والثأر، والتقليل من قيمة الآراء الداعية إلى الثأن والتفكير في النتائج والعواقب، واتهام أصحابها بالتخاذل والضعف والانحزام الذليل، مع إثارة الجماهير في الاتجاه الذي يريد، فيضطر الآخرون إلى مجاراته، والاستمرار في الطريق الذي رسمه لهم، خشية أن تصدق اتهاماته لهم أمام العامة، فيفقدوا مراكزهم ومواقعهم وتضطرب سمعتهم ومكانتهم، وهذا من أساليب أبي جهل الخبيثة الماكرة اتضحت في هذا الموقف، وتكررت في مواقف أخرى كثيرة.⁵

(1) - بضم الطاء، وقد تفتح: أى رونقا وحسنا. ينظر النهاية في غريب الحديث 3/ 137.

(2) - سورة المدثر: الآية 11.

(3) - رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 550/2-551، والبيهقي في الدلائل 2/ 198-199، وابن جرير عن عكرمة مرسلا: تفسير الطبرى 156/29، وينظر البداية والنهاية 78/3.

(4) - أى يدفعه. ينظر ترتيب القاموس المحيط 450/4.

(5) - ينظر موقف الملأ من دعوة الرسل في قصص القرآن الكريم، عبد الرحمن محمد على البرادعى الأنصارى ص 109.

وتجدر الإشارة إلى أن من الأشراف والسادة من تعاطف مع رسول الله ﷺ، ولكنه مع ذلك امتنع عن الإسلام بتأثير من الاتجاه العام للملاء من حوله.

ومن هؤلاء أبو طالب، فبالرغم من عطفه على ابن أخيه عليه الصلاة والسلام، والقيام بدوره حمية وعصبية، إلا أنه فضل البقاء على ما عليه أهل مكة من الدين الباطل حتى وافته المنية، وكان لبعض الملاء من قريش أثر في ذلك.

فمن سعيد بن المسيب⁽¹⁾ عن أبيه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة⁽²⁾ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أباجهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: أي عم قل لآله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة⁽³⁾ حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب⁽⁴⁾، وأبي أن يقول لآله إلا الله...⁽⁵⁾". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمري: "قل (لا إله إلا الله) أشهد لك بها يوم القيامة. قال: لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك...⁽⁶⁾".

هذه بعض النماذج والمواقف التي تتضح لنا التأثير السلبي بين الملاء المستبددين المكذبين أنفسهم، والتناصح والتواصي بل الوقوف موقف الحرب والعداء تجاه الرسل عليهم السلام، كما أنه أصبح اليوم من عادات الشعب والمجتمع.

(1) - المسيب: بضم الميم وفتح السين، وفتح الياء المشددة على المشهور، وقيل بكسرهما ينظر: تهذيب الأسماء/ 59/219، 2، المغني ص 231.

(2) - المراد قربت وفاته وحضرت دلائلها وذلك قبل المعاينة والنزع، شرح النووي على صحيح مسلم 214/1.

(3) - أي ويعيدانه إلى الكفر بتلك المقالة، كأنه قال: كان قارب أن يقولها فيردانه. فتح الباري 651/8.

(4) - خير مبتدأ محذوف: أي هو على ملة. فتح الباري 651/8.

(5) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء 1788/4 - 1789، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشتر في النزع 214/1.

(6) - رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشتر في النزع 216/1.

المبحث الرابع: الإصرار على الباطل

من طبيعة الملأ المكذبين المصيرين على الباطل، أنهم على إذعان بصدق الداعي والدعوة، وعلى معرفة بالحق، ومع ذلك يجحدون ويحاربون الرسل عليهم السلام، فلم يبق إذن ما يمنعهم من الاستجابة للهدى إلا المكابرة والإصرار والعناد، والجحد والعصيان.

والذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق، وهو الإصرار مبدئياً على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلاً⁽¹⁾.

ولذلك وصم الله تبارك وتعالى بهذا الوصف أشراف عاد وكبرائها الذين يتبعون بالكفر والضلال، ويقتدى بهم في العناء للحق وأهله، وذلك في قوله سبحانه:

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ⁽²⁾.

الجبار المتكبر والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له⁽³⁾.

وعند يعند بالكسر أى خالف ورد الحق وهو يعرفه⁽⁴⁾. هذه السمة للملأ المكذبين واضحة وظاهرة لمن يستعرض القصص في القرآن الكريم.

ففي قصة نبي الله نوح عليه السلام يذكر الله سبحانه وتعالى شكوى نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل:

"قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"⁽⁵⁾.

فقد بين الله تبارك وتعالى أنهم (أصروا) أى ثبتوا على ما هم عليه من الكفر وأقاموا عليه⁽⁶⁾.

(1) - في ظلال القرآن 1036/2.

(2) - سورة هود عليه السلام: الآية 59.

(3) - تفسير القرطبي 37/9، وينظر تفسير البحر المحيط 235/5.

(4) - تفسير القرطبي 48/19، وينظر معان القرآن لأبي جعفر النحاس 360/3.

(5) - سورة نوح: الآية 5-7.

(6) - تفسير الطبري 92/29.

وفي ثنايا الآيات نلاحظ بعض الأمثلة لهذا الإصرار، ومن ذلك الفرار من سماع الحق ومن الاستجابة للهدى، وسد الأذان احترازاً من سماع السلام، أو جعلها على الرؤوس لئلا يسمعوها كلامه، أو تنكروا منهم لئلا يعرفهم نوح عليه السلام، فيدعوهم إلى الحق والهدى أو ليعرفوه اعراضهم عنه وعجم رغبتهم في الاستماع والتفكير فيما جاء به من الدعوة إلى دين الله جل شأنه ⁽¹⁾.

ومن المعلوم أن كل ذلك هو بعض مظاهر الجحود والإصرار تجاه دعوة نوح عليه السلام.

وحين يستعجل الملأ المكذبون في عاد عذاب الله تعالى فإنما يدفعهم إلى ذلك أيضاً الإصرار على الباطل ومعاندة الحق: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ" ⁽²⁾.

كما كان الإصرار والعناد هو المحرك لهم إلى رفع عقيرتهم ⁽³⁾ بالإعلان عن استهتارهم بدعوة هود عليه السلام، والجهر بأنه لا قيمة لكلامه في ميزانهم، فإن وعظهم أوسكت فالأمر لديهم سيان ⁽⁴⁾، لا يغير من أوضاعهم شيئاً، ولا يقي في نفوسهم أثراً: قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ⁽⁵⁾.

فهذه الموعظة من هود عليه السلام وهذه التذكرة وهذا التحذير لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة، فإذا الإصرار والعناد والاستهتار قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين فما يعيننا أن تعظ أو لا تكون أمن الواعظين، وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة ⁽⁶⁾.

و نجد من التمرد والإصرار والعناد لهم في قولهم الباطل "قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ" ⁽⁷⁾.

(1) - ينظر: تفسير ابن كثير 4/425، تفسير القرطبي 18/149.

(2) - سورة الأعراف: الآية 70.

(3) - رفع عقيرته: أى صوته. ينظر لسان العرب 4/3035.

(4) - أى سواء. ينظر لسان العرب 3/2162.

(5) - سورة الشعراء: الآية 136.

(6) - في ظلال القرآن 5/2610.

(7) - سورة هود عليه السلام: الآية 53.

ونلاحظه كذلك في قول المكذبين من الملأ لموسى عليه السلام: "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُتَحَرَّتَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ" أى قد تقرر عندنا أنك ساحر فمهما جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية مايكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوى عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل⁽¹⁾.

ونلاحظه كذلك في خطاب الملأ المستكبرين من قوم صالح عليه السلام لمن آمن بدعوته من المستضعفين "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّبِعُوا أَوْ نَبُذْكُمْ أَوْ يُصِيبُكُمْ يَوْمٌ مِمَّا يَوْمُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ ثَاغِيَةٌ أَلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ" ⁽²⁾.

إن هؤلاء جميعا يعلنون أنهم قد أصدروا قرارهم بعدم الإيمان مهما كانت الحجج والبراهين، وأنهم ثابتون على الكفر والضلال والعداء مهما ظهر من دلائل الحق وموجبات الإيمان فما نحن لك بمؤمنين، وما نحن لك بمؤمنين، وما نحن لك بمؤمنين، إنا بالذي آمنتكم به كافرين.

فالأمر قد انتهى، والقرار قد صدر، ولا أمل في الاستجابة للهدى، والاتباع للرسول، وليكن بعد ذلك مايكون. وكبراء قريش في عهد رسول الله ﷺ كانوا يكيلون الاتهامات له عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر وكاهن وساحر، وهم في حقيقة الأمر يعلمون أن ذلك بعيد عن الواقع، ولذلك كانوا يراجعون أنفسهم ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين⁽³⁾.

ومع ذلك كله يدفعهم العناد والمكابرة، والجحود والإصرار، إلى المجاهرة بالاتهام لرسول الله ﷺ، مع أنهم إذا خلوا بأنفسهم كذبوا ما يلفظون به ويدعون.

فهذا الوليد بن المغيرة يثنى على كلام الله تعالى، أين طلب منه أبوجهل على انفراد أن يقول في رسول الله ﷺ وفيما جاء به ما ثبت به كراهيته وإنكاره، فكان جوابه:

(1) - تيسير الكريم المنان في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن السعدى، ط/1408هـ / 1988م، دارالمدى 2/ 147.

(2) - سورة الأعراف: الآية 75-76.

(3) - في ظلال القرآن 6/ 3686.

..وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلو، وإنه ليحطم ماتحته... (1).

مع هذه الحقيقة وهذا الثناء لم يتجاوز فكره ولم يحوله الوليد إلى الإيمان بالله تعالى والاستجابة للقرآن الكريم، بل غلب عليه العناد باتهام كلام الله عز وجل بأنه سحر يؤثر.

ومن ثم نزل في الوليد قرآن يتلى يسمه بالمعاندة لآيات الله جل وعلا: "كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرَاهُ صَغُودًا".

"إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ" (2).

لذا يخاطب الله عز وجل رسوله ﷺ مسلياً: "قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" (3).

قال في تفسير المنار: روى عن أهل التفسير بالمأثور أن سبب نزول الآية أقوال خاصة من بعض رؤسائهم المستكبرين (4) تنطبق على قوله في تسمية الآية "فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" أي فإنهم لا يصدقونك كاذبا ولا يعتقدون أنك كذبت على الله فيما جئت به: وهم لم يجربوا عليك كذبا على أحد، ولكنهم يجحدون بالآيات الدالة على صدقك بإنكارها بالسستهم فقط كما جحد قوم فرعون من قبلهم بآيات الله... (5).

(1) - رواه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي 55/2 - 551، والبيهقي في الدلائل 2/ 198.

(2) - سورة المدثر: الآية 16-25.

قال ابن كثير في التفسير: وهذا المذكور في السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء فريش لعنه الله 442/4.

(3) - سورة الأنعام الآية 33.

(4) - ينظر تفسير ابن كثير 2/ 129-130.

(5) - تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ط2، طار المعرفة 372/7.

بل زادو في العداوة والمخالفة والشقاق، يقول الله تبارك وتعالى: "بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ" (1)، أي: ومخالفة له ومعاندة ومفارقة (2).

مهما بذل الرسول ﷺ من الجهد أنهم يعادونه ويفارقونه، ولا سبيل لهم إلى الإيمان ولا استعداد لديهم للاستجابة، فإن مبدؤهم وثباتهم على الكفر، فهو لا يسمن ولا يغنى من جوع.

يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: "وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ يَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ" (3).

قالوا: قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك، وفي آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك، ومن بيننا وبينك حجاب فلا اتصال بيننا وبينك، فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا، أو أنهم قالوا غير مباليين: نحن لانبالي قولك وفعلك وإنذارك ووعدك، فإذا شئت فامض في طريقك فإننا ماضون في طريقنا لانسمع لك، وافعل ماأنت فاعل وهات وعيدك الذي تهددنا به فإننا غير مباليين (4).

قال ابن الجوزي: ومعنى الكلام: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم (5).

ولو كان الغرض البلوغ إلى الدليل على صحة الرسالة لوجدوا في القرآن برهانا قاطعا وحجة بينة على أنه رسول من عند الله سبحانه بما يحويه القرآن الكريم من إعجاز سواء في أسلوبه وبيانه، أو في مضمونه وموضوعاته. والمشكلة أن المسئلة بعيدة عن طلب الدليل والرغبة في البرهان، إنما هو العناد والمكابرة والإصرار وإصدار القرار بالكذب ثم البحث بعد ذلك عن المبررات لهذا الموقف السلبي، والا فهم لن يقدموا على الاستجابة مهما ظهر لهم من دلائل الحق وبراهين الإيمان.

وقد أكد الله عز وجل عنهم ذلك في كتابه: "وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ" (6).

"وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ" (1)، وَلَوْ فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ" (2).

(1) - سورة ص: الآية 2.

(2) - تفسير ابن كثير 4/ 26.

(3) - سورة فصلت: الآية 2.

(4) - في ظلال القرآن 5، 3108، وينظر تفسير روح المعاني 24/ 96.

(5) - زاد المسير 7/ 54.

(6) - سورة الأنعام: الآية 111.

"وَأَن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ" (3).

"أَفَتَرَبَّيْتَ الشَّاعَةَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ. وَأَن يَرَوْا آيَةً يُغْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِيرٌ" (4).

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِفُوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ" (5).

ولقد تعودوا في المنازعة والمجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق مهماتينت لهم الهدى، ويهاوتون فيه مهما لاحت لهم أنوار حقائقه، يؤزهم إلى العناد والمكابرة أزا، والرب أعد لهم عدا.

يقول صاحب الظلال: "إنهم يتخذون موقف الإعراض عنادا وإصرارا فليس الذى ينقصهم هو الآيات الدالة إلى الإيمان، ولا العلامات الدالة على صدق الدعوة والداعية، ولا البراهين الناطقة بما وراء الدعوة والداعية من ألوهية حقة هى التى يدعون إلى الإيمان بها والاستسلام لها".

ليس هذا هو الذى ينقصهم، إنما ينقصهم الرغبة في الاستجابة وبمسك بهم العناد والإصرار، ويقعد بهم الإعراض عن النظر والتدبر (6).

إنما صورة متكررة للملأ المكذبين على مر التاريخ في مواقفهم من الرسل عليهم السلام.

وتلك حقيقة يؤكدها القرآن الكريم. قال تعالى:

"وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُومًا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (7).

أى إننا ثابتون على دين آبائنا وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى (8).

فهما جاءهم من البراهين، ومهما علموا من الحق والهدى، فعنادهم بمنع من الاستجابة، وإصرارهم يدفعهم إلى الثبات على الباطل، ومواجهة الحق، والوقوف في وجه الرسل عليهم السلام.

(1) - سورة الأنعام: الآية 7.

(2) - سورة الحجر: الآية 14-15.

(3) - سورة الطور: 244.

(4) - سورة القمر: الآية 1-2.

(5) - سورة محمد: الآية 32.

(6) - في ظلال القرآن 2/ 1036.

(7) - سورة الزخرف: الآية 23-24.

(8) - تفسير النسفي 3/ 310.

المبحث الخامس: الملأ والجهل

لا شك أن الجهل بالعقيدة وبالدين وبأحكامه آفة خطيرة، وداء عظيم، فهو يحجب عن معرفة الحق، ويبعد عن سنن الهدى، ويؤدي إلى الضلال، وذلك من المظاهر والسمات التي وسم بها الملأ المكذبون في بعض آيات القرآن الكريم، كقوله عزوعلا على لسان نبيه نوح عليه السلا مخاطبا الملأ الجهال من قومه:

"وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا زَجَنًا وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ" (1).

ويقول تبارك وتعالى على لسان سيدنا هود عليه السلام: "قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ" (2).

وكذلك على لسان نبينا لوط عليه السلام: "أَتُنْكُمُ لِنَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ" (3).

وبوجه الله سبحانه نبيه ﷺ: "قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ" (4).

فالأيات الكريمة وغيرها توضح أن الجهل كان أحد أسباب ضلالهم، وعدائهم للحق، وإثارتهم للشبهات، في وجه الرسل عليهم السلام.

والجهل في عموم هذه الآيات يشمل عدم معرفة الله جل وعلا المعرفة الحقيقية، وإدراك ما يبجله سبحانه، وما يليق به، وما ينزه عنه تبارك وتعالى كما يشمل عدم العلم بصدق وعده تعالى وتحقيق وعيده، وهو كذلك جهل بعواقب الأمور، واغترار بظواهر الدنيا، كما أنه سوء في التصور، ونقص في العقول، ضعف في الإدراك، وقصور في النظر والتأمل والتفكير، كما يتضمن ما يصدر عنهم من السفه في اتهام الرسل عليهم السلام وابتقاص المؤمنين.

ولاشك أن ذلك متحقق في الملأ الذين جاهاوا أنبياء الله عليهم السلام.

(1) - سورة هود عليه السلام: الآية 29

(2) - سورة الأحقاف: الآية 23.

(3) - سورة النمل: الآية 55.

(4) - سورة الزمر: الآية 64.

والجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله، بل جميع الرسل: من تحقيق التوحيد، وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جداً من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما معهم من العلم، ومن جهلهم يجعلون الفقر والفلة طعناني الدين والدنيا.

ولذلك استغل جهال قوم نوح بهذه الاعتراضات كما بين الله سبحانه وتعالى:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُشْرِكُوا بِآيَاتِنَا الرُّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ" (1).

وجواب سيدنا نوح كان متضمناً وصفهم بالجهل كما يحكي القرآن الكريم: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَفَعَلْتُمْ عَلَيْكُمْ أُنْزِلُكُمْ مِمَّا كَانْتُمْ فِيهَا فَتَرَوْهَا وَتَرَوْهَا كَارِهُونَ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحِمًا وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ" (2).

قال ابن جرير: تجهلون الواجب عليكم من حق الله، واللازم لكم من فرائضه، ولذلك من جهلكم سألتهم أن اطرد الذين آمنوا بالله (3).

ويقول أبو السعود: ولكني أراكم قوماً تجهلون بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل، ومحنة المؤمنين عنده، وباستيجاب طردهم لغضب الله، وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه أنفة من الانتظام معهم وزعماً منهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى، أوتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة، وإثارة صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار (4) ومن مظاهر الجهل استعجال العذاب كما قال المكذوبون لهود عليه السلام ما حكاها القرآن:

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (5).

(1) - سورة هود عليه السلام: الآية 27.

(2) - سورة هود عليه السلام: الآية 28-29.

(3) - تفسير الطبري 30/21.

(4) - ينظر تفسير البحر المحيط 5/218.

(5) - سورة الأحقاف: الآية 22.

وهذا دلالة على ضعف في الإدراك، وسوء في التصور، وخلط في الفهم حول حدود مهمة الرسل عليهم السلام، فلا يعلمون أن وظيفتهم هي تبليغ دين الله سبحانه، أما تحقق الوعيد ونزول العذاب فذلك أمر موكل إلى الله تعالى خارج عن مهمة الرسل عليهم السلام، ومن ثم أجابهم هود عليه السلام بما تضمن وصفهم بالجهل: "قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ" (1).

أى لاتعقلون ولا تفهمون (2) ومن ثم تجهلون مواضع حظوظ أنفسكم فلا تعرفون ماعليها من المضرة بعبادة غير الله، وفي استعجال عذابه (3).

وأيضاً فإن توالى الاقتراحات، وطلب الآيات، والذي تكرر من الملأ المكذبين، هو نتيجة لعوامل عدة منها الجهل بسنن الله تبارك وتعالى.

قال الله عز وجل: "وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ" (4).

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" (5).

"وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ فَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (6).

قال السعدى: فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات التي جاءتهم فلم يؤمنوا بها لعوجلوا بالعقاب كما هي سنة الله (7).

وهم يتشاءمون بالرسل عليهم السلام، ومنشأ ذلك الجهل أيضاً.

(1) - سورة الأحقاف: الآية 23.

(2) - تفسير ابن كثير 4 / 160.

(3) - تفسير الطبري 25/26.

(4) - سورة الأنعام: الآية 111.

(5) - سورة البقرة الآية 118.

(6) - سورة الأنعام: الآية 37.

(7) - ينظر تفسير الطبري 7 / 187.

يقول الله سبحانه عن آل فرعون: "إِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (1).

الآية تنفي عنهم العلم، وتصنفهم بالجهل بحقيقة المصائب ومصدرها وسنة الله عزوجل فيها.

وهم كذلك يحتجون بمنهج الآباء والأجداد كما قال سبحانه: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ" (2).

وهو احتجاج قائم على الجهل، فإن الحق لا يرفض لمجرد كون الناس لم يعتادوه، والباطل لا يتبع ويعتمد لكونه طريق الآباء ومنهجهم، ولذا قال الله عزوجل: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ" (3).

إن هؤلاء المكذبين وهبهم الله جل وعلا وسائل التفكير والعلم والإدراك، ولكنهم لا يستعملونها في الوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى المعرفة الحقيقية التي تنمّر توحيده وعبادته، ولا يستفيدون منها في البحث عن الحق وتدبره، وتفكير فيما ينفعهم فيما لهم وعاقبتهم، والتأمل في آيات الله سبحانه، وما جاءت به الرسل من الحجة والبراهين.

قال الله تعالى: "وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" (4).

"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" (5).

وعلى أي حال فإن الواجب على المسلم تعلم أمور دينه والتفقه فيه، حتى لا يعبد الله بغير ما شرعه، ولأن من أمكنه التعلم ولم يتعلم يأثم..

(1) - سورة الأعراف: الآية 131.

(2) - سورة الزخرف: الآية 23.

(3) - سورة البقرة: الآية 170.

(4) - سورة الروم: الآية 6-7.

(5) - سورة الأعراف: الآية 179.

وقد يعذر الجاهل لعدم علمه، أو عدم استطاعته التعلم، لكنه لا يعذر بعد العلم، فقد قامت عليه الحجة حيثئذ، وقد أتتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير ولم يسمعوها ولم يبصروا، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

المبحث السادس: المأ والحسد

جعل الله المحبة الخالصة بين المسلمين هي أوثق عرى المحبة في الله، وجمع المتحابين تحت ظلال عرشه، ووثق الإسلام بذلك بوجوب المحافظة على مال المسلم وعرضه ونفسه، بأن لا يصيبه أذى ولا يُجس بسوء. ولكن تبحر بعض النفوس في مياه آسنة، تتشفي ممن أنعم الله عليهم ورزقهم من خيره بالحق والحسد، فيثمر ثراً خبيثاً غيبةً ونغمةً واستهزاءً وغيرها. ولا يخلو مجتمع من تلك النفوس الدنيئة. لذلك كان لزماً علينا معشر الدعاة أن نطرح مثل هذه المواضع التي انتشرت في المجتمع الإسلامي.

ولاشك أن الحسد كان أحد أهم العوامل التي دفعت بالمأ إلى التكذيب وإعلان الغداوة، والمبارزة بحرب الرسل عليهم السلام.

ذلك أن أولئك الكبراء يشعرون بالمكانة التي نالها الرسل عليهم السلام، فيتغيظونهم ذلك، ويحرك في نفوسهم كوامن الحسد والغيرة، أن ينفرد الرسول عنهم بهذه المنزلة العالية، منزلة النبوة والرسالة، فيعظم عليهم هذا الاختصاص، وتجري على ألسنتهم عبارات التعجب والاستغراب من تميز الرسول عنهم بهذا الشرف والمكان.

يقول الله سبحانه حاكياً قول المأ من ثمود عن نبيهم صالح عليه السلام: "أُلْقِيَ الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ. سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُّ"⁽¹⁾.

أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا، وهو استفهام معناه الإنكار⁽²⁾. وكذلك قال أمثالهم في قريش عن رسول الله ﷺ: "أُنْزِلَ عَلَيْهِ الدِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي"⁽³⁾.

وليس من المعقول - في نظرهم - أن يذهب رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام بهذه المكانة وهذا الشرف، وهم الكبراء والسادة والأشراف، كما قال الله تبارك وتعالى عن شاعم: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثَيْنِ عَظِيمٍ"⁽⁴⁾.

(1) - سورة القمر: الآية 25-26.

(2) - تفسير القرطبي 90/17.

(3) - سورة ص: الآية 8.

(4) - سورة الزخرف: الآية 31.

ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بنى هاشم، وهم في العلية من العرب، كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ولا رئيس عشيرة، في بيئته تعتر بمثل هذه القيم القبلية، وهذا ما قصد إليه المعترضون بقول "لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّ عَظِيمٍ" (1).

والمراد بالقريتين كما كان من الصعب على العلية في قريش أن يهضموا هذا الواقع الجديد، وهم يرون نجم رسولنا عليه الصلاة والسلام يعلو ويزهر، فغلا الحسد، وتحرق النفوس.

وكانت هذه العادة البغيضة لوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام، وأمثالهما، يؤذيه ويؤلمهم أن تتجاوزهم هذه المنزلة فلا يكون لهم فيها نصيب، ويغضبهم أن يختص نبي الله ﷺ بأمر النبوة والرسالة، فتتهيج قلوبهم كمدا وحسداً، ندما وحسرة.

ويتحول مافي النفوس إلى واقع ملموس يتمثل في العداء الجاد والحرب المعلنة للدعوة وأهلها، بالرغم من قناعتهم بأن مسألة النبوة حق وصدق، وأن رسولنا عليه الصلاة والسلام لا يكذب قط، كما قال عز وجل:

"فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ" (2).

يقول ابن جرير في تفسير الآية: إنهم لا يكذبونك علماً، بل يعلمون أنك صادق، ولكنهم يكذبونك قولاً: عنادا وحسداً (3).

وكم صرح أبو جهل و أبو لهب وغيرهما- في اللقاءات المغلفة بمماجيوس في نفوسهم من كوامن الحسد، وما يتأجج في داخلهم من لوائح الغيظ.

"تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ" (4).

(1) - في ظلا القرآن 3186/5.

(2) - سورة الأنعام: الآية 33.

(3) - تفسير الطبري 181 / 7.

(4) - سورة الملهب: الآية 1-4.

ومن أودى بهم الحسد - أيضا - بنو يهود بصفة عامة، ورؤساؤهم وأحبارهم بصفة خاصة، فقد كانوا على يقين من صدق نبي الله عليه الصلاة والسلام، إذ التوراة تذكرهم لهم وتبشرهم به، ومن ثم فلا شك لديهم في هذه القضية ولا شبهة، ولذا يقول الله عز وجل عنهم: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" (1).

بل كانوا يستنصرون بيعته على أعدائهم من أهل الأوثان، ويحذرونهم قدومه، وأنهم معه سيلحقون بهم الهزيمة. ومع ذلك كله فقد أعلنوا الكفر به عليه الصلاة والسلام، لما شاهدوا النبوة قد أصبحت في غيرهم، وأن الرسالة تجاوزتهم، فنهزم الحسد حينذاك على إعلان العداء والتكذيب، وذلك قول الله سبحانه وتعالى بفضحهم: "جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ" (2).

قال ابن كثير: يقول تعالى: ولما جاءهم يعني اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم يعني من التوراة، وقوله: وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا أى وكانوا قبل مجئ هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبيح نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم (3).

فلما بعث رسول الله ﷺ أنكر الإحبار المعاندون نبوته، وكفروا برسالته، معلنين أن هذا الذي يدعى النبوة ليس هو من كانوا يقصدون، ولا هو بالذي يعرفون، فغفروا في يومهم ما كانوا يثبتونه بالألمس القريب، إذ غفرت كوامن الحسد في الصدور فدفعتهم إلى الكفر الصريح:

"بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ" (4).

(1) - سورة البقرة: الآية 146.

(2) - سورة البقرة: الآية 89-90.

(3) - تفسير ابن كثير 1/124.

(4) - سورة البقرة: الآية 90.

والمراد بالبغى في الآية: الحسد والتعدي⁽¹⁾.

قال الزجاج: "معناه أنهم كفروا بغيا وعداوة للنبي ﷺ لأنهم لا يشكوا في نبوته ﷺ إنما حسدوه على ما أعطاه الله من الفضل"⁽²⁾.

وفي هؤلاء وأمثالهم يقول الله عز وجل:

"أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ..."⁽³⁾.

قال ابن كثير: "يعنى بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من نبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل"⁽⁴⁾.

ويقول الله سبحانه: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَغْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَغْدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ..."⁽⁵⁾.

قال أبو العالية: "من بعد ما تبين لهم الحق من بعد ما تبين أن محمدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس"⁽⁶⁾.

و ممن أودى بهم الحسد والبغض -عبدالله بن أبي بن سلول، والذي دخل في دين الله نفاقاً، وباطنه يمورا حسدا وعداء للإسلام وأهله.

ذلك أنه كان ذا شرف في قومه وسيادة، وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج يستعدون للتوحيه ملكا عليهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، شعر ابن أبي بأن الأوضاع حوله بدأت تتغير وتختلف، حين أخذ قومه يتجهون إلى الإسلام، ويلتفون حول نبي الله عليه الصلاة والسلام، وأحس بأن ما كان ينتظره ويشتاق إليه من

(1) - ينظر: تفسير الطبري 1/ 415، تفسير البغوي 1/ 93.

(2) - معاني القرآن للزجاج 1/ 173.

(3) - سورة النساء: الآية 54.

(4) - تفسير ابن كثير 1/ 513، وينظر: تفسير الطبري 5/ 138-140.

(5) - سورة البقرة: الآية 109.

(6) - تفسير ابن كثير 1/ 153.

الملك والزعامة قد فاتته، فامتلاء قلبه حينذاك حسدا لرسول الله ﷺ، ومن ثم قرر أن يناصبه الأعداء، وأن يسير في طريق القيد للإسلام وأهله⁽¹⁾.

ذلك ما يؤكد سعد بن عبادَةَ رضى الله عنه حين ذكر له رسول الله ﷺ ما لاقاه من ابن أبي من غلظة في الجواب، وذلك في اللقاءات الأولى معه إثر وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة.

يقول سعد رضى الله عنه: "أى رسول الله ﷺ بأبى أنت، أعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذى أنزل عليك ولقد اصطَلَح أهل هذه البحرة⁽²⁾ على أن يتوجه ويعصبوه بالعصاة، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق⁽³⁾ بذلك، فذلك فعل به ما رأيت"⁽⁴⁾.

وهكذا كان الحسد عائقا نفسيا حجز ابن أبي وأمثاله من أئمة الكفر عن الاستجابة لدعوة الله جل وعلا، فقرروا التكذيب بالرسالات، ومواجهة الرسل عليهم السلام.

(1) - موقف الملاء من الرسل 135.

(2) - هذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية. فتح الباري 294/8، والمقصود أنهم اتفقوا على أن يجعلوه ملكهم وكان من عادتهم إذا ملكوا إنسانا أن يتوجهوه... شرح النووي على صحيح مسلم 158/12 - 159.

(3) - شرق: بفتح الشين وكسر الراء: أى غص، وهو كناية عن الحسد. ينظر فتح الباري 294/8.

(4) - من حديث رواه البخارى في كتاب الأدب، باب كنية للمشرك 2292-2293، ومسلم في كتاب الجهاد، باب ما لقي النبی ﷺ من أذى للمشركين والمنافقين 157/12-159.

المبحث السابع: الملأ والتقليد الأعمى

من المعلوم أن التقليد له جانبان جانب إيجابي وجانب سلبي، فالسلي الذي قرر القرآن الكريم هو طريق الملأ المكذبين المترفين، ونجد في كثير من المواضع كما قال الله تعالى: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَكُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ"⁽¹⁾.

تبين الآية الكريمة أن المترفين من الملأ في كل أمة من أمم لرسول عليهم السلام كان من دواعيهم إلى الكفر والتكذيب سلوك مسلك التقليد الأعمى، واتباع من سبق من الآباء، دون نظر في صحة المنهج، أو تفكير في سلامة الطريق إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

ومعنى (على أمة) على طريقة ومذهب، قال أبو عبيدة: هي الطريقة والدين، وبه قال قتادة وغيره⁽²⁾.

فأقاموا بنياً تكذيبهم وعداوتهم على محض التقليد، بلا تدبر، وبمجرد الاقتداء دون تأمل، ومطلق الاتباع بلا تمحيص، كما قال الله عز وجل عن هذا الصنف من الناس: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا..."⁽³⁾. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ"⁽⁴⁾. إِنَّهُمْ أَلَفُوا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ. فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ"⁽⁵⁾.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ"⁽⁶⁾.

هذا الجمود والتعصب للمناهج الباطلة كان ديدن المترفين المكذبين، ففي كل قصة من قصص الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم نجد هذا الأسلوب في رد دعوة الإيمان، فيدفعون الحجج الظاهرة بمجرد التمسك بالتقليد السلبي العقيم.

(1) - سورة الزخرف: الآية 23.

(2) - تفسير فتح القدير 4 / 551.

(3) - سورة لقمان: الآية 21.

(4) - سورة البقرة: الآية 170.

(5) - سورة الصفات: الآية 69-70.

(6) - سورة المائدة: الآية 104.

إنهم ليسوا على قصد استجابة دعوة الرسل عليهم السلام، أو التأمل فيما جاؤوا به من الحجج والبراهين، بعد أن قرروا، عدم الخروج من دائرة التقليد، أو الانفكاك من أسر التطرف والتعصب، والتبعد من الحشو والغلو، ومن ثم فإن قضية الإيمان لا تهمهم، مادام الحق في رأيهم هو ما جاءت به الآباء، وما عداه هو الضلا المبين.

ومن ذلك ما ذكره الله تعالى على لسان الملأ من قوم سيدنا نوح عليه السلام: مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِكَ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ⁽¹⁾.

وعلى لسان الملأ من قوم سيدنا هود عليه السلام: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا..."⁽²⁾.

وفي قصة سيدنا صالح عليه السلام: قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...⁽³⁾.

وفي قصة شعيب عليه السلام: "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا..."⁽⁴⁾.

وفي قصة إبراهيم الخليل عليه السلام: "قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"⁽⁵⁾.

وفي قصة موسى الكليم عليه السلام: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاؤُنَا..."⁶.

في ظل هذه الآيات الكريمة يتضح أن التقليد والتعصب والتطرف والغلو للملأ من أسباب انجاء الكفر والتكذيب والضلال، ومقاومة عنيفة ماجاء به الرسل عليهم السلام ومن تبعهم من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، ولا يزال هذه المقاومة والاستبداد للملأ مستمرة، يخلف الملأ من بعدهم خلف أضاعوا الحياة وابتعوا الشهوات فسوف يعلمون من هو على الحق ومن هو على الباطل.

(1) - سورة المؤمنون: الآية 24.

(2) - سورة الأعراف: الآية 70.

(3) - سورة هود عليه السلام: الآية 62.

(4) - سورة هود عليه السلام: الآية 87.

(5) - سورة الشعراء: الآية 72-74.

(6) - سورة يونس عليه السلام: الآية 78.

على الداعية أن يكون على المنهج الصحيح والطريق المستقيم ويدافع عن الإسلام بكل استقامة وإخلاص، ولا يتأثر من ترهيب الملأ وترغيبهم أيا كان.

المبحث الثامن: انهماك الملا المترف في الشهوات

جاء ذكر الترف والمترفين في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، كلها تشنع على هذه الظاهرة أو على هذا المرض الاجتماعي الذي تقع فيه فئة من الناس، حين يعيشون حالة من الرفاهية التي تجعلهم يصدون عن أي دعوة إصلاحية تريد خير الإنسان، إنهم يفضلون بقاء الوضع السياسي الذي يناسبهم مهما كان ظالماً أو فاسداً ويتحالفون مع الفئة السياسية التي تحقق لهم أغراضهم.

أما حين تبطر تلك النعمة ذويها، وتغير السعة المادية من نفسيات أصحابها ومفاهيمهم ونظرتهم للحياة، فيتحولون إلى مترفين قد أبطرتهم النعمة، وأطغاهم المال، وأثر على نفسياتهم الغنى والمتاع، فأصابهم ذلك بالكبر والغطرسة والخيلاء، وري فيهم الانغماس في الشهوات المحرمة بكل أشكالها، والذائد الفاسدة بشتى مظاهرها، دون اعتبار لأي ضوابط أو قيود.

حينئذ يصبح الترف بهذه الصورة ظاهرة مرضية، ومعمل هدم في الأمة، يوشك أن يقضى عليها، ويأذن بأغيارها وزوا لها، وينذر بهلاكها واستحقاقها العقوبة الإلهية على اختلاف صورها.

تلك سنة الله تبارك وتعالى: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" (1).

أما المترفون فهم المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش (2) والمعنى أمرهم بالطاعة فعصوا (3).

وفي قصص القرآن الكريم وصف الملا من قوم هود عليه السلام بالترف، وذلك في قول الله تعالى:

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... (4)"

قال القرطبي: "أى وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا" (5).

(1) - سورة الإسراء: الآية 16

(2) - زادالمسیر 15/ 5.

(3) - تفسير البغوى 109/ 3، وينظر تفسير الطبرى 57/ 15.

(4) - سورة المؤمنون: الآية 33.

(5) - تفسير القرطبي 82/ 12.

فالآية الكريمة تبين أن من أسباب التكذيب هؤلاء الملأ وعداوتهم هو الانغماس في الشهوات، والانشغال بزخارف الحياة الفانية والتقلب في متاعها ولذائذها الهابطة. ذلك أن المترفين أصحاب المال والنعمة إن لم يعمر قلوبهم الإيمان، وحب الحق، فإنهم يكرهون بطبيعتهم دعوات الرسل عليهم السلام لأنها تحكم طريقهم بضوابط شرع الله سبحانه، وتقيد شهواتهم ضمن دوائر محددة، وهم لا يحبون ذلك، ويجدون فيه العسر والضيق، والتعكير على ما يرغبون من انطلاق دون ضوابط أوقود.

ومن ثم كانوا - في الغالب - أو المكذبين كما ينطق بذلك قول الله سبحانه وتعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ" (1).

قال النسفي: إلا قال متنعموها، وهم الذين أترفهم النعمة، أي أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملأه، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه (2).

وقال الآلوسی: وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غلب على قلوبهم منها، فهم منهمكون في الشهوات (3).

ومن ثم يتضح لنا هذا الدافع إلى التكذيب والعداء للرسل عليهم السلام، ذلك أن الطباع المشروفة بالدنيا، الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات، قوية الكراهة للسمع ذكر الموت، والتقيح صورة الدنيا، ومن كان كذلك فإنه يستقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر (4).

وبالتالي يصبح المال والغنى والسعة لدى هؤلاء المكذبين من الملأ سببا لخسارتهم كما يعبر القرآن الكريم عن الطغاة من قوم نوح عليه السلام: "قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا" (5).

(1) - سورة السبا: 34.

(2) - تفسير النسفي 310/3.

(3) - تفسير روح المعاني 147/22.

(4) - التفسير الكبير 136/17.

(5) - سورة نوح عليه السلام: الآية 21.

فهؤلاء الرؤساء المترفون المتنعمون، أبطرتهم أموالهم وغرهم شهواتهم، فوقعوا في الكفر والضلال، وفي المكر والإضلال: "وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا. وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ آلَ هَارُونَ وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا وَلَا شِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعْقُوبَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا..." (1).

ومن دعاء سيدنا موسى عليه السلام على فرعون وملئه: "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ" (2).

قال السعدى: أى: إن أموالهم يستعنون بها على الإضلال عن سبيلك، فيضلون ويضلون (3).

فبدلاً من أن يندفع أولئك الملا المكذبون إلى الإيمان بالله تعالى الذى وهبهم المال الجزيل، والنعمة الوفيرة، والمتاع الواسع كان الاتجاه إلى عكس ذلك من الكفر، والضلال، والإضلال، والحرب لله جل وعلا، ولرسله عليهم السلام. (4).

يقول تبارك وتعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ... (5)".

قال صاحب الظلال: إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذى كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويشكر، هذا السبب هو (أن آتاه الله الملك) وجعل في يده السلطان: لقد كان ينبغى أن يشكر ويعترف لولا أن الملك يطفى ويبطر من لا يقدرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام، ومن ثم يضعون الكفر موضع الشكر، ويضلون بالسبب الذى كان ينبغى أن يكونوا به مهتدين (6).

ومن مشاهير هؤلاء المترفين المكذابين قارون، والذى أبطرت النعمة، وأفسده الترف، وأطفاه المال، حتى كفر واستكبر، وكان من المناهضين لدعوة موسى عليه السلام.

(1) - سورة نوح عليه السلام: الآية 22-24.

(2) - سورة يونس عليه السلام: الآية 88.

(3) - تيسر الكريم الرحمن 2/ 339، وينظر زاد المسير 4/ 48-49.

(4) - موقف الملا من دعوة الرسل ص 143.

(5) - سورة البقرة: الآية 258.

(6) - في ظلال القرآن 1/ 291.

يقول الله تعالى مينا ما أنعم عليه من المال وما وهبه من النعم: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاحِهُ لَتَتَوَّى بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ" (1).

وبدلاً من أن يشكر تلك النعمة، يجعلها سبيلاً للإيمان والهداية، اتجه إلى البطر والتكبر، وقابل نصيح الناصحين بالغرور والاستهتار، ونسب الغنى إلى إمكانياته وعلمه وقدرته، متناسياً ربه عز وجل

"... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي..." (2).

وسار على منهج فرعون في الجحود والعناد والعداوة كما قال سبحانه وتعالى: "وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ" (3).

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ" (4).

ومما سبق يمكن القول بأن الترف كان سبباً مهماً من أسباب اتجاه الملا في الغالب إلى التكذيب بالآيات، وعداوة الرسل عليهم السلام، والوقوف لهم للدعوة بكل طريق.

وإذا كانت الآيات تتحدث في الغالب عن المشركين الذين بطروا معيشتهم وترفوا في الحياة الدنيا، ولكن هذه الظاهرة نجدها عند فئات أخرى من الناس، وقد يصاب بها بعض المسلمين الذين يحرصون اشد الحرص على الرفاهية الزائدة، فهذا صنف من الناس يشترون بضاعة باهظة الثمن ليرصدوا الاعجاب في أعين الشعب والمجتمع، انهم بذلك يجمدون دورة المال الذي يجب ان ينتفع به أكثر الناس.

المترفون تدفعهم ثروتهم للعيش في نمط مختلف من الحياة، نمط له طبائعه ولغته وطرائقه الخاصة لإضفاء بعض الفضائل على المال وبذلك يندرج المترف مع (علية القوم) ويحسب على طبقتهم.

(1) - سورة القصص: الآية 76.

(2) - سورة القصص: الآية 76-78.

(3) - سورة العنكبوت: الآية 39.

(4) - سورة غافر: الآية 23-24.

فالتترف يجفف ينابيع البطولة والسخاء وتتحول عند المتترف قيم الشجاعة إلى قيم البذخ ويحل حب السهولة عنده محل حبه للأخطار والمغامرة، وكل الكمالات الزائدة تصبح ضرورية، ويتوهم أنه لو تخلص منها فسوف يحل به الموت الزؤام، هذا ما استفاد الباحث.

نعم إنكار البعث مناقض للإيمان، وأنه من أهم العوامل التي أودت بالملأ إلى مجاهدة الدعوات، والاستمرار في طريق الشرك والتكذيب وإثارة الشبهات، مهما تنوعت صوره وأمثلته، فقد يكون إنكارا لبعث الأرواح والأجساد، وقد يكون إنكارا لمعاد الأجساد مع الاعتراف بمعاد الأرواح، وتارة يكون إنكار البعث بالقول بتناسخ الأرواح، ونقلها إلى أجسام أخرى، وتارة أخرى يكون هذا الإنكار بإنكار معاد النفوس الجاهلة دون العالمة.

لذلك أن الكفر بالآخرة يجعل الإنسان يتحرك في الأرض بلا قيد أو رقيب، ويتصرف في مصالحه ومتاعه دون حسيب، فالدنيا عنده هي بداية المطاف، وهي نهايته، لا ينتظر حياة أخرى ولا يتوقع بعثاً ولا حساباً ولا جزاءاً وبالتالي فلا همّ له إلا أن يقضى وطره في الدنيا، وينفذ رغباته في الحياة قبل أن يفجأ بالممات، دون أن يكون لذلك ضوابط أو قيود، إلا ما يراه مصلحة له في أمد الحياة القريب

يقول الله تعالى عن الملأ المكذبين بنى الله هود عليه السلا و منكرى البعث والجزاء: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ أَتَرْفُفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ..."¹

عندما قست قلوبهم، وخلت من الإيمان بالله والرسول واليوم الآخرة، وكذبوا بمافيهِ من الحساب والجزاء، لم يجدوا بأساً في مواجهة هود عليه السلام بإلقاء التهم وإثارة الشبهات.

ويقول الله عز وجل عن فرعون: "وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَخُضُوذُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَطَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ" ²

قال ابن جرير: حسبوا أنهم بعد مماثهم لا يعثون ولا ثواب ولا عشقاب فركبوا أهواءهم³.

ومن كانت حاله كذلك فلا غرايت أن يسلك سبيل الرفض للحق، والتشكيل بالمؤمنين، والمجاهدة للرسل عليهم السلام.

ولما رفض كفار قريش ما جاء به رسول الله ﷺ من المنهاج الصحيح وصفهم الله تعالى بقوله: "وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ"¹

(1) سورة المؤمنون: الآية 33.

(2) سورة القصص: الآية 39.

(3) تفسير الطبري 20/ 78.

قال الألوسي: وصفوا بذلك تشبيها لهم مما هم عليه من الانحماك في الدنيا، وزعمهم أن لا حياة بعدها، وإشعارا بعلّة الحكم، فإن الإيمان بالآخرة وخوف ما فيها من الدواهي من أقوى الدواعي إلى طلب الحق وسلوك سبيله² ومادام هؤلاء غير موقنين بالآخرة أصلا فلن يتأثروا بالمواعظ والآيات كما وصفهم الله تعالى بقوله: "وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُنْظِرْت مَطَرُ السُّوءِ فَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا"³

فقلوبهم لا تعتبر ولا تتأثر لأنهم لا ينتظرون البعث ولا يرجون لقاء الله فذلك سبب قساوة تلك القلوب وانطماسها، ومن هذا المعين تنبع تصرفاتهم واعتراضاتهم وسخرتهم من القرآن، ومن الرسول ﷺ⁴

يقول الله جل وعلا: "وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِبِهُرْ هَذَا أَوْ يَدَّبْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"⁵ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا"⁶

هذا التعنّت في المطالب والاقتراحات، وهذه الإثارة للشبهات، إنما هو نتيجة لاستبعاد البعث والجزاء.

قال الألوسي: وضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما في حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم في الشناعة بحيث لا يصدر عنهم يرجو لقاء الله عز وجل⁷ ويقول سيد قطب: إن المشركين لا يرجون لقاء الله أى لا ينتظرون هذا اللقاء، ولا يحسبون حسابه ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله، فتنتقل ألسنتهم بكلمات وتصورات لاتصدر عن قلب يرجو لقاء الله⁸

- (1) سورة المؤمنون: 74.
- (2) تفسير روح المعاني 54/18.
- (3) سورة الفرقان: الآية 40. والمراد بالقرية في الآية الكريمة ديار قوم لوط عليه السلام، والذين نزلت بهم العقوبة الإلهية فأهلكتهم، وكان رجال قريش يمرون عليها في أسفارهم إلى الشام ينظر تفسير البغوي 3/370.
- (4) في ظلال القرآن 5/2564.
- (5) سورة يونس عليه السلام: الآية 15.
- (6) سورة الفرقان: الآية 21.
- (7) تفسير روح المعاني 2/19.
- (8) في ظلال القرآن 5/2558.

ولذلك لما ذكر القرآن الكريم في أول سورة الفرقان ما أثاره كبراء قريش من الشبهات حول الرسالة والرسول ﷺ باعتبارها موانع ترر لهم الكفر والتكذيب، بين القرآن بعد ذلك السبب الحقيقي فيما هم فيه من الإعراض وذلك في قول الله سبحانه: "بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا"¹

فليس السبب في عداوتهم ومعارضتهم أنهم يشكون حقاً في صدق النبي ﷺ، أو أنهم

يظنون عن رسولنا عليه الصلاة والسلام يفتر القرآن ويتلقاه عن غيره، أو أن الذي يمنعهم من الاستجابة هو شخص الرسول ﷺ كبشر يأكل الطعام مثلهم ويمشي في الأسواق.

ليس السبب هذا ولا ذلك، وإنما الباعث الحقيقي هو إنكارهم للقيامة، وتكذيبهم للبعث والجزاء.

قال ابن كثير: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعنادا، لأنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على ما يقولون من هذه الأقوال².

ويتساءل القرآن الكريم في موضع آخر عن سبب إعراضهم عن التذكرة، وابتعادهم عن التدبر والاتعاظ:

"فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُغْرِضِينَ"³.

ثم يذكر بعد ذلك السبب والعلّة: "كَأَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ"⁴.

إن قسوة قلوبهم، ونفورهم عن الحق، وامتناعهم عن تدبر ما يسمعون من كلام الله سبحانه، والاتعاظ والتأثر به واستعمال وسائل الإدراك لديهم بصدق ورغبة في الوصول إلى الحق وقبوله، كل ذلك إنما هو نتيجة طبيعية لأطمئنائهم للحياة الدنيا، واستبعادهم يوم القيامة، وإنكارهم للبعث: "كَأَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ".

قال ابن جرير: يقول: لكنهم لا يخافون عقاب الله، ولا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب، فذلك الذي دعاهم إلى الإعراض عن تذكرة الله وهون عليهم ترك الاستماع لوحيه وتنزيله⁵.

(1) سورة الفرقان: الآية 11.

(2) تفسير ابن كثير 3/ 3310.

(3) سورة المدثر: الآية 49.

(4) سورة المدثر: الآية 53. ع

(5) تفسير الطبري 171/29.

ويقول صاحب الظلال: عدم خوفهم من الآخرة هو الذى ينأى بهم عن التذكرة، وينفرهم عن الدعوة هذه النفرة، ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب¹.

نعم تميل نفس الباحث إلى ما قال السيد رحمه الله حيث أن مطمح نظر حياتهم إلى زهرة الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

يقول ربنا سبحانه وتعالى عنهم: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ"².

(1) في ظلال القرآن 63763.

(2) سورة العنكبوت: الآية 4-5.

المبحث العاشر: اتباع الباطل وكراهية الحق

إن اتباع الأهواء صفة حيوانية مشتركة وليس محصورا على الإنسان، بل هناك اتباع للهوى عند المجتمعات والأمم والشعوب والحكومات، لكن يبقى الداء واحداً، والخطر يختلف من آحاد المجتمع إلى مجموعهم من الدولة والمجتمع.

ومن الأسباب التي دفعت الملأ إلى التكذيب بالدعوات ترك الحق واتباع الهوى والباطل اتباع الباطل وأهواء النفوس وإشباع رغباتها.

ومن ثم فقد كانت الأهواء هي الباعثة لهؤلاء إلى اتخاذ موقف سلبي من الرسل عليهم السلام.

فليست المسألة في الواقع نقصا في الحجة أو ضعفا في الدليل، بل تكمن المشكلة في تقديم أهواء النفوس على شرائع الله المنزلة على رسوله عليهم السلام.

ومن كانت حاله كذلك فماذا يمكن أن يقدم له الرسول وقد عبدا للهوى من دون الله تعالى كما قال عز وجل: "أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" ¹ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ²

أى مهما استحسنت من شئ ورأه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه ³

واتباع هؤلاء هواهم كما يقرر القرآن يؤكد أن العلة فيهم، وليست في البرهان أول الدليل، وبالتالي فإن طلبهم المتتابع للآيات، وتنعتهم في الافتراحات، وما يثرونه من الشبهات، ليس إلارغبة في إيجاد المبرر للعداء والتكذيب، أما السبب الحقيقي فهو اتباع الهوى وتقديمه على الحق: "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" ⁴ وَلَا تُطِيعُ مَنْ أَغْوَيْنَا فَلَبِئْسَ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ⁵

(1) سورة الجاثية: الآية 23.

(2) سورة الفرقان: الآية 43.

(3) تفسير ابن كثير 320/3.

(4) سورة القصص: الآية 50.

(5) سورة الكهف: الآية 28.

"لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ¹ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ {2/54} وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ...²"

يقول صاحب الظلال: إنما العلة فيهم أنفسهم، فهم يجعلون هواهم إلها يعبدونه، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان، وما يملك الرسول لمن يتخذ إلهه هواه "أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا"³

وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة، والمقاييس المعلومة، والموازين المضبوطة، وتخضع لهواها، وتحكم شهواتها، وتعبد ذاتها فلا تخضع لميزان، ولا تعترف بحج، ولا تقتنع بمنطق، متى اعترض هواها الطاغى الذى جعلت منه إلها يعبد و يطاع⁴

هذا هو حال الملأ المكذبين في تاريخ الرسل عليهم السلام، يصرون على ماقلية أهواؤهم، ويسيروا على المنهج الذى تضعه نفوسهم ورغباتهم، ففسدت بالتالى فطرتهم، وانتكست أفئدتهم، فلا مجال بعد ذلك للتفكير والتدبر، ولا فائدة من الإنذار والتذكير، لأن القلوب قد عميت، كما وصف الله عزوجل

من حققت عليهم عقوبته من قوم نوح عليه السلام: "... وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ"⁵

عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد⁶ وفسدت بصائرهم لما غطى الهوى على أبصارهم، فلم يعودوا يصرون الحق ولا يهتدون به، كما وصف الله تبارك وتعالى أمثالهم من المكذبين بقوله سبحانه:

"... إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى"⁷

قال في الظلال: فلاحجة ولا علم ولا يقين، إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة، والهوى يستمدون منه الدليل، والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى، ولا بد فيها من اليقين القاطع، والتجرد من الهوى والغرض.

وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولم عذر أو علة "وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى" فانقطع العذر وبطل التعلل.

(1) سورة المائدة: الآية 70.

(2) سورة القمر: الآية 2-3.

(3) سورة الفرقان: الآية 43.

(4) في ظلال القرآن 5/ 2566.

(5) سورة الأعراف: الآية 64.

(6) التفسير الكبير 14/ 153، تفسير البحر المحيط 4/ 323 من قول ابن عباس رضى الله عنهما.

(7) سورة النجم: الآية 23.

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدى هدى، لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل، إنما هي الهوى الجامح الذى يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد، وهى شر حالة تصاب بها النفس، فلا ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل¹

ومن البديهي والحالة هذه أن يكره الملأ المكذبون الحق، ويناصبوا من جاء به من الرسل عليهم السلام العداء والجفاء، لأن أهواء نفوسهم لا ترغب الحق، بل تبغضه وتكرهه وهم متبعون لأهوائهم القائمة على الزيف والباطل.

بل يصل الأمر بالمكذابين بنوح عليه السلام أن يجعلوا أصابعهم في آذانهم، ويستغشوا ثيابهم، وأصروا واستكبروا استكبارا كما نطق القرآن الكريم على لسان نبي الله نوح عليه السلام:

"وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"²

أى بالغوا في التغطى بما، كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشاهم لئلا يروه كراهة النظر إليه من فرط كره الدعوة³ إنهم يكرهون دين الله سبحانه وما يحويه من الحق والهدى، ويعلنون ذلك بكل وسيلة حسية أو معنوية، ولذا تضمن رده سيدنا نوح عليه السلام عليهم ما يشير إلى ذلك كما وضع ربنا عزوعلا في كتابه الكريم.

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ"⁴

فلا يتيسر لنوح عليه السلام أن يلزمهم الدعوة، في الوقت الذى تكره نفوسهم فيه الحق، وتبغض الهدى، وهوى الباطل والضلال.

وقد بين الله عزوجل في سورة المومنون بعض الشبهات التى يثيرها الملأ من قريش حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته، ثم يبين سبحانه أن الحاجز الذى حال بينهم وبين الإيمان ليس هو الشبهة، وإنما ترك الهدى وكراهية الحق وخوف الإظهار على الباطل.

(1) في ظلال القرآن 3408/6 - 3409.

(2) سورة نوح عليه السلام: الآية 7.

(3) تفسير روح المعاني 89/29.

(4) سورة هود عليه السلام: الآية 82.

يقول الله عز وجل: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ. أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ"¹

إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل إنما هي كراهية أكثرهم للحق لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، ويصدم أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزون²

وإن ما يظهرون من أسباب ودعاوى، إنما هو مجرد مبررات يرفعونها ليعطلوا بها دفعهم للهدى، وتكذيبهم بالحق، ورفضهم لدعوته ﷺ ومجاهداتهم لها، وليبقى موقفهم أمام العامة موقفاً يحيطه العدل والبحث عن التميز بين الحق والباطل

أما السبب المباشر الذي يمنعه من الاتباع، والاستجابة لدين الله سبحانه، فهو كراهية الحق الذي جاءهم به نبي الله عليه الصلاة والسلام، لا لأنهم يجهلونه، أو يشكون في صدق من جاءهم به، ولكن لأنه يصادم أهواءهم، ويقف في طريق شهواتهم، وهم أضعف من أن يغالوا أهواءهم والشهوات يستمدون القوة على الحق، والاجترأ على الدعاة³

الهوى مرض يدخل على جميع الناس، ليس مختصاً بالجهال، أو بالصغار، بل يدخل قلوب العلماء، ويدخل قلوب أصحاب العقل والرأي والمشورة، ويدخل قلوب الكبار من الرجال والنساء. قال بعض الحكماء: "إنما يحتاج اللبيب ذو الرأي والتجربة إلى المشاورة ليتجرد له رأيه من هواه". فليس لأحد أن يقول: إن النهي عن اتباع الهوى لا ينالني؛ لأنني لا أتبع هواي..

(1) سورة المؤمنون: الآية 68-70.

(2) في ظلال القرآن 42474.

(3) المرجع السابق 5 / 3202 - 3203.

الفصل الثالث:

آثار المأ على الفرد والمجتمع

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: معاملة الناس مع الدعوة إلى الله

المبحث الثاني: أثر الترغيب والإغراء

المبحث الثالث: أثر التخويف والترهيب

المبحث الرابع: أثر التضليل والتلبيس

المبحث الخامس: أثر غلبة جهل المأ

المبحث السادس: أثر المأ على الحاكم وأتباعه

المبحث السابع: أثر المأ على الفرد والمجتمع

المبحث الثامن: أثر علاقة المأ بالمنافقين على الدعوة

المبحث الأول: معاملة الناس مع الدعوة إلى الله تعالى

من البديهيات أن العوام تكون ظروفهم العلمية ضعيفة، وحين يكون الاتصال بالدعوة إلى الله ويصلون إلى مقاصدها يكونون أنهم أقرب استجابة للدين الحق والصراط المستقيم، والاتباع بالسنة الغراء، وأسرع قبولاً للدعوة الإلهية، وأكثر حماساً تجاه نشرها.

وعند التأمل عن أحوال المؤمنين بالرسول عليهم السلام وجدنا أنهم في الغالب من العامة، و فقرائهم ومستضعفيهم.

ويوضح القرآن مثلاً في خطاب الملة من قوم نوح عليهم السلام يعترضون فيه على دعوة نبي الله نوح عليه السلام: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ¹".

وقال عز وجل: "قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ²".

أى الأقلون جاهاً ومالاً³. وهم الذين آمنوا في الواقع واستجابوا لنوح عليه السلام.

فجعل الملة هذا الواقع شبهة يؤسسون عليها رفضهم للإيمان.

وبين الله عز وجل الحوار الذي دار بين الملة المستكبرين وبين المؤمنين بدعوة صالح عليه السلام واصفاً سبحانه أولئك المؤمنين بأنهم مستضعفون ومظلومون.

قال سبحانه وتعالى: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ⁴".

تقرر هذه الآية الكريمة أن المؤمنين المتبعين لسيدنا صالح عليه السلام كانوا من العامة المستضعفين.

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 27.

(2) سورة الشعراء الآية 111.

(3) تفسير أبي سعود 6/ 254.

(4) سورة الأعراف: الآية 75.

كما كان الحال أيضا مع خاتم الرسل عليهم السلام فقد كان معظم المؤمنين به - خاصة في بداية الدعوة - العامة والمستضعفين من المدعوين.

يقول ابن كثير: الواقع غالبا أن من يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفتهم.

وهذا ما أشار إليه هرقل عظيم الروم في حوارته مع إبي سفيان حول رسول الله ﷺ إذ سأله: أتبعة أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ فقال أبي سفيان: بل ضعفاؤهم. وفي نهاية الحوار علق هرقل على ماسمعه عن نبي الله عليه الصلاة والسلام، فكان مما قال: وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم. وهم أتباع الرسل¹.

ولعل السبب في ذلك أن العامة لا يعرض لهمما يعرض للملأ والأكابر من العوامل النفسية والاجتماعية التي ينزع لهم الشيطان من خلالها لتصبح حواجز تحول بينهم وبين الاستجابة للحق والصراط المستقيم.

فليس لدى العامة والفقراء والمستضعفين ما يخشون ضياعه من منصب أو جاه، ولا ما يخافون فقدانه من ترف أو شهوة أو ثراء، ولا ما يفزعهم زواله من مصالح مادية أو معنوية قائمة على التسلط والاستغلال، وليس لديهم من المال أو القوة أو الجاه ما يدفعهم إلى الاستكبار أو الحسد أو الطغيان. وبالتالي فليس هناك موانع شخصية تحول بينهم وبين قبول الدعوات التي يأتي بها الرسل والدعاة.

قال النووي في شرح حديث هرقل: أما قوله إن الضعفاء هم أتباع الرسل² فلكون الأشراف يأنفون من تقدم مثلهم عليهم والضعفاء لا يأنفون فيسعون إلى الانقياد وأتباع الحق³.

ويقول القرطبي: "قال علمائنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير، والفقير خلى عن تلك الموانع فهو سريع الإجابة والانقياد⁴."

ويذكر صاحب الظلال أن الفقراء والذين لم يؤثروا المال والسلطان هم أتباع الرسل السابقون غالبا، لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء، وتصل القلوب بإله واحد قاهر

(1) سبق ترجمته ص 83

(2) هذا الكلام محمول على الحال (محمول على الأكثر الأغلب). فتح الباري 148.

(3) شرح النووي على صحيح مسلم 105/12.

(4) تفسير القرطبي 17/9.

عال على الأعلباء، ولأن فطرهم لم يفسدها البطر والترف، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة، ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها، وأول صور الوثنية الديونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة، بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك¹.

نظرا مما ذكر من أن الأصل في العامة القرب من الاستجابة للدعوة، وسلوك طريق الإيمان والهداية، إلا أن الواقع أيضا يؤكد أن للملأ المكذبين تأثير لا يمكن إغفاله في عامة الناس.

فالملأ بما يملكونه من الإمكانيات الضخمة، ووسائل الضغط المتعددة، والقدرات المادية والمعنوية، يستطيعون أن يؤثروا في قطاع عريض من جماهير الناس، وقد يصل هذا التأثير إلى أن يصبح الحق عند العامة هو ما يراه لهم الملأ حقا والباطل في تصورهم هو ما يواجهه الملأ ويحاربه، فيردون المورد الذي يختاره لهم الأكابر المعاندون، ويصدرون في مواقفهم عن آرائهم، ويتنظرون رأيهم ليروه هم، ويتابعون إشارتهم ليسيروا على ضوئها².

ومن ثم يمكن أن يصبح الملأ المكذبون موانع وحواجز تصد الناس عن سلوك طريق الهداية، والاستجابة لداعى الإيمان.

ويصدم الرسل عليهم السلام، وهم يحاولون استنبات بذور الخير والهدى في أرض الجماهير الخصبة للمهياة للنبات بالملأ المعاندين المستبدين الذين يحاولون بالمقابل بذل جهودهم في تجريد هذه الأرض من خصوبتها، لئلا يجنى الرسل عليهم السلام الحصاد، وليظل الأمر بأيديهم يصرفونه بالطريقة التي يشاؤون ويرغبون.

ويمكن أن نتأمل هنا قول الله عز وجل عن فرعون وما فعله في عامة الناس: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"³.

إن القرآن الكريم يعرض في أكثر من موضع الحوار بين المستكبرين والمستضعفين يوم القيامة، وبالتأمل في هذا الحوار يتضح جليا أثر الملأ المكذبين على عامة الناس.

(1) في ظلال القرآن 4 / 1872.

(2) موقف الملأ من الرسل ص 160.

(3) سورة القصص: الآية 4.

يقول الله تعالى: "وَتَرْزُقُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...¹"

قال النسفي: فقال الضعفاء في الرأي وهم السفلة والاتباع للذين استكبروا وهم السادة والرؤساء الذين استغفروهم وصدوهم عن الاستمتاع إلى الأنبياء واتباعهم.²

ويقول عز وجل: "وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ...³"

قال ابن كثير: فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء إنا كنا لكم أى أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال.⁴

ويقول الله سبحانه: "... وَلَوْ نَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ."

"قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْخُصِدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا...⁵"

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: يقول الذين استضعفوا وهم الأتباع للذين استكبروا منهم، وهم قادتهم ومساعدتهم لولا أنتم لكننا مؤمنين أى لولا أنتم تصدوننا لكننا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به، فقال لهم القادة والسادة، وهم الذين استكبروا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان، وخالفتم الأدلة والبراهين التي جاءت بها الرسل بشهوتكم واختياركم لذلك، ولهذا قالوا بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار أى

(1) سورة إبراهيم عليه السلام: الآية 21.

(2) تفسير النسفي 2/ 164.

(3) سورة غافر: الآية 47.

(4) تفسير ابن كثير 4/ 83.

(5) سورة السباء: الآية 31 - 32.

بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغفروننا، وتمنونا، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شئ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ومين¹.

ونفس المعنى كذلك نجده في قول الله عزوجل عن حال الكفار يوم القيامة: "يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ"².

قال الشوكاني: والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم فأضلونا السبيل أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله ورسوله، والسبيل هو التوحيد³.

ومن خلال هذه التي تعرضت للحوار بين المستكبرين والمستضعفين في الآخرة، يبين مدى تأثير الملأ المكذبين من الأشراف والكبراء، والقادة والرؤساء، في عموم الناس، فهم يصدونهم عن الإيمان بكل السبل، ويضغطون عليهم بكل الوسائل، ويمكرون بهم بالليل والنهار يتقلبون في المكر من حال إلى حال، ومن أسلوب إلى أسلوب، بهدف إضلالهم عن الهدى، وإغوائهم عن الحق، وضماناً لسيروهم على نهج الملأ المكذبين، وطاعتهم لهم في الكفر والضلال والخروج عن شريعة الله سبحانه حتى لا يكثر في النهاية سواد الرسل عليهم السلام بالمؤمنين بالدعوة فتنتهى حثث سطورة الطغاة المتجبرين⁴.

وفي القرآن الكريم إشارات عديدة إلى أن تأثير الملأ المكذبين على عامة الناس من أقوام الأنبياء والرسل عليهم السلام.

فالقرآن الكريم يصف الملأ في قصة سيدنا نوح عليه السلام:

"وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا"⁵.

أى أضل كراؤهم كثيراً من أتباعهم⁶.

(1) تفسير ابن كثير 3/ 539.

(2) سورة الأحزاب: الآية 66 - 67.

(3) تفسير فتح القدير 4/ 306.

(4) موقف الملأ من دعوة الرسل من 162.

(5) سورة نوح عليه السلام: الآية 24.

(6) تفسير القرطبي 18/ 200.

وبعده يصف العامة الذين استمروا ويقوا على الضلالة والكفر بأنهم كانوا متبعين في الضلال لأكابريهم، متأثرين بأعمالهم.

"قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا¹."

أى عصوا الرسل الناصح الدال على الخير واتبعوا الملائكة والأشراف الذين لم تزد لهم أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً².

تقرر الآتيان الكريمتان أن الكثير من عامة قوم نوح عليه السلام تأثروا بالرؤساء المكذبين، والأكابر الضالين، الذين صدوا عن الحق، ومكروا بنوح عليه السلام، فاستجاب لهم عامة الناس، واستقبلوا هذا التأثير، وانتهجوا ما أراده لهم الملائكة من طرق الكفر والشهوات.

ويقول الله عن قوم هود: "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ³."

قال القاسمي: أى أطاعوا في الشرك أمر كل جبار عنيد لا يستدل بدليل، ولا من غيره يريدون رؤسائهم وكبرائهم ودعائهم إلى تكذيب الرسل عليهم السلام⁴.

وهذه الآية المباركة تشير وتوضح دور الملائكة المكذبين من قوم هود عليهم السلام في التأثير على الناس، وأمرهم لهم بالكفر والتكذيب، فرضخ الكثير من العامة لأمر العلية المضلين، وسلخوا معهم مسلك الجحود والعصيان والضلال.

وفي قصة سيدنا صالح عليه السلام مع قومه يذكر الله سبحانه توجيهه لعامة الناس بأن لا يستجيبوا للطغاة الكافرين إذ يدعونهم إلى النفور من الدعوة، إلى الله كما في قول الله سبحانه وتعالى: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ⁵."

قال أبو حيان: ولا تطيعوا خطاب لجمهور قومه، والمسرّفون هم كبرائهم وأعلامهم في الكفر والإضلال¹.

(1) سورة نوح عليه السلام: الآية 21

(2) تيسير الكريم الرحمن 314/5.

(3) سورة هود عليه السلام: الآية 59.

(4) تفسير القاسمي 9/ 144.

(5) سورة الشعراء: الآية 150 - 152.

فنبى الله صالح يحذر عامة قومه من طاعة رؤسائهم وكبرائهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق². وفي قصة سيدنا شعيب عليه السلام يحكى القرآن الكريم تحرك الملائكة المكذبين ضد شعيب عليه السلام ودعوته، رغبة في الصد عن سبيل دين الله سبحانه، وتخويف الناس من الاستجابة والانضمام لها. ومن ذلك قول الله سبحانه: "وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتِئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ"³. من البدهاء إنهم لا يكتفون بالكفر والضلال في أنفسهم، بل يتجهون إلى الناس لإغوائهم، والتأثير فيهم بما ينفرهم من الحق، ويزين لهم الباطل، كما قال الرازى في تفسيره للآية المباركة:

وعند هذا المقال كمل حالهم في الضلال أولا وفي الإضلال ثانيا⁴.

وفي قصة سيدنا موسى عليه السلام يقول سبحانه وتعالى عن فرعون وأعوانه: "وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ"⁵.

قال القرطبي: "أى وجعلناهم زعماء يتبعون على الكفر"⁶.

فقد ضلوا في أنفسهم بالكفر والجحود والطغيان، وأضلوا غيرهم، وحالوا بينهم وبين الإيمان بموسى عليه السلام، فاستجاب لهذا الإضلال الفئات من العامة والجماهير فاتبعوا أمرهم وأطاعوهم في الجحود والكفر، وسلكوا مسلكهم في الغنى والعناد، كما قال الله عز وجل عنهم: "فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ⁷. فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"⁸.

(1) ينظر: تفسير الطبرى 102/19.

(2) تفسير ابن كثير 3/343.

(3) سورة الأعراف: الآية 90.

(4) التفسير الكبير: 181/14.

(5) سورة القصص: الآية 41.

(6) تفسير القرطبي 191/31.

(7) سورة هود عليه السلام: الآية 97.

(8) سورة الزخرف: الآية 54.

وهناك مواقف كثيرة في عهد رسولنا ﷺ تشير إلى دور الملأ المكذبين من المشركين واليهود وغيرهم، في التأليب ضد الدعوة، ومحاولة صد الناس عنها بشتى الوسائل، والحيلولة بينهم وبين الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فضلا عن الاستجابة له والانضمام لدعوته صلاة الله عليه وسلامه.

نعم كل ذلك يؤكد أن للملأ في العادة قدرة على التأثير إيجابيا كان أو سلبيا في عامة الناس بما يتبوؤونه من منصب ومكانة، وبما يملكون من قدرات وإمكانات مادية أو معنوية.

وبهذا السبب علمنا حرص الرسل عليهم السلام على إيمان هؤلاء الأكابر والأشراف، ورجائهم الشديد في إسلامهم، ولو آمنوا لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ولكان لهم دور في إيمان من ورائهم من العامة والخاص من الفرد والمجتمع.

ومن شأن الدعاة أن يحرصوا كحرص الأنبياء والرسل عليهم السلام ويقوم بمقاومة الملأ المستكبرين المترفين بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن.

المبحث الثاني: الترغيب والإغراء

في العادة يملك المُلأ المال والمنصب والجاه، وهم في الغالب أصحاب الترف والثروة ولديهم الإمكانيات في التمتع بالشهوات، والاستغراق في اللذائذ المادية التي غرقهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وهذا في حد ذاته يمكن أن يؤثر في نفوس الكثير من عامة الناس، إذ يمثل الرسل عليهم السلام وأتباعهم - في نظرهم - الجانب الأضعف والأقل مالا وجاهاً ومتاعاً، بينما تتمثل لهم في المُلأ المكذبين صورة المال والمتعة، والجاه والمكانة، فتغريهم هذه الإمكانيات المادية، وتزعزع قلوبهم، ويزين لهم الشيطان أن التوجه إلى المُلأ المكذبين، وسلوك طريقهم، يضمن لهم الحياة المادية الأفضل، ويهيئ لهم السبيل إلى المعيشة الطيبة، والرغد المادي، أو ما يرجونه من مكانة و منصب، أو أنهم بهذا الخضوع للمُلأ المستكبرين، وسيرهم في المنهج الذي يريده لهم الأكابر المضلون، سيضمنون إلى أوضاعهم المادية، وشهواتهم الدنيوية، مما يمثل عامل إغراء لهم، ويقترب بهم إلى طريق الاتباع للمُلأ المكذبين، وسبيل المخالفة للرسول عليه السلام وما جاء به من الحق واليقين، أملا في هذا الإغراء بالمال أو المكانة أو متاع الدنيا القريب، كما ذكر الله تبارك وتعالى عن الجماهير الكافرة من قوم نوح عليه السلام، والتي أثرت أتباع كبرائها من الطغاة المكذبين، حين رأت بأيديهم المال والمتاع: "قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا¹".

قال أبو سعود: أي واستمروا على اتباع رؤسائهم الذين أبطروهم أموالهم وغرقهم أولادهم وصار ذلك سببا لزيادة خسارهم في الآخرة، فصاروا أسوة لهم في الخسار وفي وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجهاتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد، لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع².

وهنا المُلأ المكذبيوم يستغلون هذا الجانب حين يعلنون أنهم بما يملكون من المال والجاه والمتاع هم أصحاب الحق، وطريقهم هو المنهج الأمثل، لا منهج الرسل عليهم السلام ولا مسلك الدعاة.

يقول الله عز وجل: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرِكُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ³".

(1) سورة نوح عليه السلام: الآية 21.

(2) تفسير أبي سعود 40/9، وينظر تفسير البضاوي 531/2.

(3) سورة سباء: الآية 34-35.

وهذا بعيد من العقل أن يكون بيدهم كل هذا المال والجاه، ثم لا يكونون من السائرين على طريق الحق والرشاد، والفكر والمهدي.

وكما أعلن القرآن الكريم عن حكاية فرعون: "وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ¹".

قال في الظلال: والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق الخادعة القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد، ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب، ويستغفلها البريق القريب أم اناخير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين وهو يعنى بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة² ومال مشهود، وعند الجماهير الساذجة لابد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته خيرا من موسى عليه السلام ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم³.

ولذلك دعا موسى عليه السلام ربه سبحانه أن يطمس على أموال فرعون: "وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ...⁴".

يقول سيد قطب في ظلال الآية المباركة: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيلك، إما بالإغراء الذي تحدته مظهر النعمة في نفوس الآخرين، وإما بالقوة التي يمنح المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إضلال الآخرين أو إغوائهم، ووجود النعمة في أيدي المفسدين لاشك يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك عن هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة، وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهور في عامة الناس، ويطلب لوقف هذا الإضلال ولتجريد القوة الباغية المضلة من وسائل البغى والإغراء، أن يطمس الله على هذه الأموال⁵.

(1) سورة الزخرف: الآية 52-52.

(2) يقال ذوسطوة، والسطوة شدة البطش. ينظر لسان العرب 2010/3.

(3) في ظلال القرآن 3193/5.

(4) سورة يونس عليه السلام: الآية 88.

(5) في ظلال القرآن 1817/3.

وهذا الإغراء المادى من الملأ المكذبين يمكن أن يأخذ أسلوبا مباشرا، وذلك بعرض المقابل المادى من مال أو مكانة على بعض الجماهير كى تقوم بدور معين يسند إليها يساعد ويساهم في الصد عن دين الله سبحانه، ومواجهة الرسل عليهم السلام، ويعمل على تثبيت مراكز الأكابر المضلين، وترسيخ مكائبتهم وجاههم، ويؤكد أحقية منهج الذى يسلكون.

ومن الأمثلة على هذا الأسلوب ما فعله فرعون مع السحرة بادئ الأمر من إغراء وترغيب، لينطلق في نشاط وحماس لإحقاق باطل فرعون، وإبطال الحق مع موسى عليه السلام.

قال تعالى:

"قُلْنَا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَلْأَجْرَاءُ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ¹."

فقد عرض عليهم فرعون الأجر الجزيل، والمال الوفير، ولم يكتف بذلك بل أغراهم ورغبهم بأمر آخر هو المرتبة والجاه والمنصب وإنكم إذا لمن المقربين.

وقد هلك كل من ابتلى بهذا المرض السرطان قديما وحديثا.

المبحث الثالث: الإرهاب والتخويف

التأثير على الناس في قرارهم واجبارهم على اتباع سبيلهم، وسلوك منهجهم، لينأوا بهم عن طريق الدعوات التي جاء بها الرسل عليهم السلام.

وأصحاب القوة والجاه الذين يملكون من وسائل المال والنفوذ ويتمكنون به من تخويف العامة، ليصدوهم عن دين الإسلام، ويضمنوا منهم الاتباع لهم، والسير في طرقهم وركابهم وخطواتهم.

والله أشار الله سبحانه وتعالى عن عاد قوم هود عليه السلام: "وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ¹."

فاتباع قوم هود لأكابرهم المعاندين والمستبدين كابت نتيجة تسلط وتخويف يفهم من وصف الملأ المكذبين بالطغيان والجبروت في قوله عز وجل واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

مما فهمنا من الآية الكريمة أن هذا لتخويف والترهيب يشتمل على طائفتين:

الأولى: عامة الناس، ويكون الغرض من التهديد منعها من التفكير في الاستجابة للهدى مع الرسل عليهم السلام، فهو أسلوب وقائي ضمن منهج الملأ المكذبين في المواجهة.

والثانية: الطائفة التي آمنت بالدعوة، ويكون الغرض حيثئذ إشعارها بالخوف المستمر لوبيقبت على دين الله تعالى، مما يأمل معه الطغاة أن يترد بعض أولئك المؤمنين عن طريق الإيمان خشية أن يلحقهم ما يكرهونه من الأذى والحنة، كما أن ذلك سيكون أيضا عامل تخويف يتعد الآخرين من عامة الناس عن الوقوف في صف الرسول، أو الاقتراب مما يجعله من الحق والهدى خوفا من التعرض لما يصيب المؤمنين من البلاء والوعيد.

قال الله سبحانه على لسان نبيه شعيب عليه السلام ينصح دعاة الضلال في قومه: "وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا²."

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 59.

(2) سورة الأعراف: الآية 86.

قال ابن جرير في تفسير الآية: ولا تجلسوا بكل طريق، وهو الصراط تواعدون المؤمنين بالقتل، وكانوا فيما ذكر يقدعون على طريق من قصد شعيباً، وأراده ليؤمن به، فيتوعدونه ويخوفونه¹.

ومن عادتهم كانوا يخاطبون عامتهم معلنين لهم أن من دخل في دين شعيب عليه السلام فقد حكم على نفسه بالخسران كما قال سبحانه و تعالى: "وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا خَاسِرُونَ"².

وهو تهديد مبطن لمن يفكر في الانضمام إلى دائرة المؤمنين.

وتتضح ظاهرة التخوف والإرهاب للعامة جلية في عهد فرعون، إذ يمتنع الكثيرون من الاستجابة لموسى عليه السلام، خوفاً من بطش فرعون وجبروته، بل حتى المؤمنون يشعرون بالخوف من أن يعلم بهم فرعون فيلحقهم أذاه، وقد يسبب لهم الفتنة بما يتعرضون له من البلاء.

يقول الله سبحانه عز وجل:

"فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَتْهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ"³.

وحينما آمن السحرة برب العالمين عاجلهم فرعون بالتهديد والوعيد.

"...فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَا قِطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"⁴.

وفي عهد رسولنا عليه الصلاة والسلام يعمل الملأ من قريش على تحذير العامة من اتباعه ﷺ والاستجابة لدعوته.

قال الله سبحانه: "وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"⁵.

(1) تفسير الطبري 8/ 238.

(2) سورة الأعراف: الآية 90.

(3) سورة يونس عليه السلام: الآية 83.

(4) سورة الأعراف: الآية 123-124.

(5) سورة الأنعام: الآية 26.

والمراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والانقياد للقرآن وينأون عنه أى ويبعدونهم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، ولا ينتفعون، ولا يدعون أحدا ينتفع بها¹.

وهذا أحد القولين في معنى الآية..، ورجحه ابن كثير فقال: وهذا القول أظهر والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير².

نعم أن عامة الناس على سبيل العموم يتأثرون من تهديد الملاء ووعيدهم، وقد يدفعهم ذلك إلى أن يسبروا في ركايبهم، ويطيعوهم في منهجهم، وينفذوا تعليماتهم، بالابتعاد عن طريق الرسل عليهم السلام، ورفض الاستجابة لما تحمله دعواتهم من الحق والهدى والرشاد ظلما وعدوانا، ترهيبا وتخويفا.

(1) تفسير ابن كثير 2/127.

(2) ينظر تفسير الطبري 7/173-174.

المبحث الرابع: التلبيس والتضليل

من آثار الملأ على الناس التلبيس والتضليل، وذلك لأن المكذبين يحرسون على الصد عن سبيل الله واتباع الرسل عليهم السلام والقاء الشبهات والشكوك.

وقد أعلن الله سبحانه وتعالى على لسان سيدنا شعيب عليه السلام مخاطب المتنفذين من قومه:

"وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...¹"

أى وتطلبون لسبيل الله تعالى عوجاً بإلقاء الشبه، أو بوصفها للناس بما ينقصها وهى أبعد من شائبة الاعوجاج.²

يقول الرازى عند تفسير هذه الآية: "وإذا تأملت علمت أن أحداً لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب أو مقالة إلا بأحد هذه الطرق الثلاثة³. يعنى التهديد والوعد والوعيد إلقاء الشكوك والشبهات ليشأثر الناس منهم."

فالملأ المكذبون بمالهم من مكانة في أقوامهم، وكلمة في أتباعهم، وبما يملكونه من وسائل الدعاية، وبمن يحيط بهم من الأعوان والمنفذين، يتجهون إلى خداع العامة، والتلبيس عليهم، بغية القضاء على الحق والتشكيك في الرسل عليهم السلام، والتزيين للعقائد الضالة التى تأسست عليها مناهجهم ومكانتهم، والترويج لهذه الأفكار الباطلة بين الناس ولذلك يلجأ هؤلاء المضللون والمتلبسون إلى إثارة الشبهات المتلاحقة حول الدعوة والدعاة، مما يلبس على الكثيرين من عوام الناس، فيختلط عليهم الحق بالباطل، وتتشوش أفكارهم، وتضطرب تصوراتهم، فلا يدركون أين الاتجاه الصحيح، بل قد يهاجمون الحق يظنون الباطل، وينافخون عن الباطل بعد أن زين لهم فأروه حقاً وصدقاً.⁴

وحقاً أن الملأ المكذبين يرفضون أن يعرف الناس الحقيقة عن الدعوة والدعاة، وأن يشاهدوا الصورة الصحيحة للرسل عليهم السلام فيعلموا أن الرسالة حق، والرسول حق، وأن طريقهم هو طريق الرشاد والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

(1) سورة الأعراف: الآية 86.

(2) تفسير روح المعاني 8/871.

(3) التفسير الكبير 14/175.

(4) موقف الملأ من دعوة الرسل 176.

إن هذا العمل يخيف الملأ المستبدين ويزعجهم، فيواجهون الأمر بتشويه الدعوات، والتنفير من الدعوة المخلصين، وقلب الحقائق، ونكس الموازين، في أعين الناس، ليصبح الهدى عندهم ضلالا، والحق باطلا، وليبقى الصادق كاذبا والمصلح القائم على دين الله مفسدا ناشرا للفتنة، مثيرا للاضطراب والفساد.

ومقصد الطغاة والبغاة من ذلك إثارة العامة ليشاركوهم مواجهة الرسل عليهم السلام والدعاة، وليضللوا الجماهير في التصورات والمفاهيم، حتى يستقر الأمر لهم، ويضمنوا تبعية الجموع لهم، وسيرها من ورائهم، وهم يصدون عن سبيل الله تعالى ويغفون عنها عوجا.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَّجْرِمِينَ لِيُذَكِّرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"¹.

قال ابن كثير: والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال².

والأمثلة على هذا المكر والتضليل والتشكيك والتليس كثيرة في القرآن الكريم، وسنذكرها بالتفصيل بإذن الله تعالى في الفصول القادمة، ونأتي ببعض النماذج على سبيل الإجمال.

فمنها ما عرضه الله سبحانه وتعالى عن الأكابر المكذبين من قوم نوح عليه السلام.

قال الله تعالى: "وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا. وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَا وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"³. قال صاحب الظلال: "ومكروا مكرا كبيرا مكرا متاهيا في الكبر، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس، ومكروا لترتين الكفر والضلال والجاهلية التي تحبب فيها القوم، وكان من مكرمهم تحريض الناس على الاستمسك بالأصنام التي يسمونها آلهة وقالوا لاتذرن آلهتكم بهذه الإضافة آلهتكم لإثارة النخوة الكاذبة، والحمية الأئمة في قلوبهم، وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصصوها بالذكر ليهيج ذكراها في قلوب العامة المضللين الحمية الاعتزاز"⁴.

(1) سورة الأنعام: الآية 123.

(2) تفسير ابن كثير 172/2.

(3) سورة نوح عليه السلام: الآية 22-23.

(4) في ظلال القرآن 3716/6.

ونلاحظ صورة أخرى لذلك المكر والضلال والتليس للمستبدين والمكذابين في قول الله عز وجل: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ. إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرِيضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ"¹.

ها هي إحدى مقولاتهم يخاطبون بها الناس، تتضمن تصورهم عن نوح عليه السلام، ونظرهم إلى رسالته ودعوته، معتمدين على إلقاء مجموعة من الاتهامات المتتالية، تظهر فيها محاولاتهم الجادة في إثارة العامة ضد نوح عليه السلام، وإشعال غضبهم عليه، وإغرائهم على عداوته والنيل منه، كما يتضح فيها التضليل والتليس على الجمهور، وذلك بقلب الحقائق، وتنكيس المفاهيم.

فسيدنا نوح عليه السلام - حسب أفكارهم ودعائهم - رجل كاذب في دعواه الرسالة، هدفه منها الجاه والرياسة، والتفاضل والتعاضل على الناس، وفي عقله نوع من الخيل والجنون، يدفعه إلى أن يتلفظ بما يقول، وما يأتي به من الغرائب التي لم يسمع بها قبل ذلك، وفي النهاية يطلبون من العامة أن تصير عليه حتى يشفي مما به من المس، أو يموت فيستريح الجميع.

وفي ذلك إيهام للعامة بأن دعوة نوح عليه السلام هي إحدى المصائب التي تحتاج إلى الصبر حتى يزول بلاؤها، وأن وجود نوح عليه السلام خطر على الجميع، وينبغي أن يشترك الكل في مواجهته، وتوقع نهايته وزواله.

وكل ذلك تليس أيما تليس، وإيهام وصد وتضليل، وتشويه للحق والحقائق، وتنفير من الرسول عليه السلام ومن الدعاة المخلصين في كل زمان ومكان.

وقام بهذا العمل من قوم سيدنا شعيب عليه السلام حين يخاطبون عامتهم كما بين القرآن الكريم: "وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ"².

فهم بغية التأثير في الناس وتنفيرهم من شعيب عليه السلام وتثبيطهم عن الإيمان وخوفاً من اتساع دائرة المؤمنين، يصرحون بإعلامهم الفاجر الذي يحكم على من يتبع شعيباً عليه السلام بالخسران والضلال المبين.

(1) سورة المؤمنون: الآية 24/25.

(2) سورة الأعراف: الآية 90.

وهنا يكمن التضليل والتلبس، فهم يوهون الناس أن ما جاء به شعيب عليه السلام من الدين هو الضلال بعينه، وبالتالي فإن الدخول في هذا الدين هو الخسارة بكل معانيها، والنقصان بكل مظاهره، والإنسان بطبيعته لا يرضى أن يتهم باخسارة والنقصان، ومن ثم فإن من تقبل هذا التشويه والتشكيك سينفر دون شك من شعيب عليه السلام، وسيبتعد عن طريق الجعوة خوفا من الوقوع في الخسران، أو خشية أن يوصم بأنه من الجهال.

الملأ المستكبرين حين يلقون التهم تباعا على رسول من الرسل عليهم السلام بأنه ساحر، أو مجنون، سفيه، كاذب، يطلب الزعامة، وغير ذلك كثير فهم في الواقع أول من يعلم بأنها تم باطلا، وأن الرسل عليهم السلام منها براء، وأنها لا تستقيم مع واقع الرسل عليهم السلام وما هو معروف عن شخصياتهم وتصرفاتهم، ولكنهم إنما يخططون لهذه الاتهامات، ويفصلونها سابقا، ليخدعوا بها العوام، ويضللوهم بها، ويصرفوهم عن الاستجابة للحق مع رسل الله عليهم السلام.

ولقد كان هذا هو مقصد الملأ من قريش حين يرمون رسول الله ﷺ ويتهمون به بالسحر - مثلا كما قال عزوعلا: "وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ"¹.

ولا يختلط الحق بالسحر، فهو واضح بين، إنما هي دعوى، كانوا هم أول من يعرف بطلانها، فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق، ولكنهم ككانوا يخدعون الجماهير من خلفهم فيقولون إنه سحر، ويعلمون كفرهم على سبيل التوكيد. يقولون وإنا به كافرون ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون، فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانقياد، شأن الملأ من كل قوم في الغرير بالجماهير، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد التي يسقط معها كل كبير ولا يعبد ويتقى إلا الله العلي الكبير².

وأحيانا يتجه الملأ المعاندون إلى التظاهر بالانصاف والتجرد، وأن همهم هو البحث عن الحقيقة، وهدفهم الوصول إلى الحق والصواب، كما قال الله تبارك سبحانه عن فرعون: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"³. فرعون يصرح بأنه لا يعلم أن هناك إلها غيره، غير أنه لا يجزم بالنتيجة، وسيعمل جاهدا في

(1) سورة الزخرف: الآية 30.

(2) في ظلال القرآن 8531/5-8631.

(3) سورة القصص: الآية 38.

البحث عن الحقيقة، والتواصل إلى الحق، وإن كان الغالب -حسب ادعائه الفاجر- أن دعوى موسى عليه السلام لا تتعدى الكذب، ومجرد الادعاء وإنه من الكاذبين.

وفرعون بهذا يلبس ثوب الانصاف أمام رعيته، نيلا لثقتهم، وتمهيدا لما يقرره لهم بعد ذلك من الجواب، فيتلقوه مطمئنين مسلمين¹.

هذا التدليس في الخطاب، والتظاهر بالانصاف، يخدع كثيرا من الجماهير الغافلة، فيؤسسون عليه استجابتهم لما يمليه المستكبرون من مخالفة الرسل عليهم السلام والعداء للدين.

ومما سلكه فرعون أيضا من وسائل التمويه². والخداع وإظهاره الشفقة على الرعية، وتحذره بلسان العامة، فيجعل موقفه من الدعوة، وحره للدعاة، هو من أجل الناس، رغبة في إيصال الخير لهم، ودرء الشر عنهم، ومن ذلك ما حكى عنه القرآن الكريم: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رِئْهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"³.

فهو يعلن إشفاقه على الرعية، وخوفه على العامة من دعوة موسى عليه السلام، أن تحول عقائدهم، أو أن تؤثر سلبا على حياتهم للعيشية والأمنية، فتفقد لهم الأمن والرخاء والاستقرار، وهو بذلك يحرك حميتهم ويثير عصبيتهم، ويشعل الكراهية في نفوسهم لموسى عليه السلام ولدعوته والإنسان بطبعه حريص على عقيدته وفكره، وعلى أرضه ووطنه، ويأبى أن يسلبها بطريق الانتزاع والشدة.

وبهذا التلليس والتضليل، يضمن فرعون وقوف الناس معه ضد موسى عليه السلام ودعوته، لأن القضية -كما صورناها مقولته- ليست قضية فرعون وحده، وإنما خطرهما يمس الناس جميعا.

ومن تمويه فرعون كذلك وخداعه لرعيته، تصريحه بأن همه الأول والأخير هو سعادة العامة واستقرارهم ورشادهم، وأن هذا هو باعته على مجاهدة موسى عليه السلام، ورغبته في القضاء عليه وعلى دعوته:

(1) ينظر تفسير روح المعاني 80/20.

(2) قال في لسان العرب 4303/5: موه فلان باطله: إذا زينه وأراه في صورة الحق.

(3) سورة الفاطر: الآية 26.

"قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ"¹. فهو لا يقرر إلا ما يرى أن فيه الخير والسعادة والأمن والاستقرار في أوطانهم، والسعة والرخاء في معيشتهم، ومن ذلك ما يقرره في شأن موسى عليه السلام ودعوته.

وعلمنا أن هذا كله تلبس وخداع وتضليل وقلب للحق والحقائق، تعود عليه الملائكة المكذبون في سبيل القضاء على دعوة الرسل عليهم السلام، كما هو دأب الأعداء للدعاة.

(1) سورة المؤمن: الآية،

المبحث الخامس: غلبة الجهل على الملأ

إن غلبة الجهل على الملأ تمتد تأثيره إلى الناس فتصيبهم بالغفلة، والانحراف والاعتقاد التبعية دون رؤية ولا تفكير وتصاب فطرتهم بالفسق والفجور.

ومن كانت هذه حاله فإنه سرعان ما يتأثر بكل ما يلقي عليه دون نظر ولا تأمل ولا تمحيص، وهذا ما دفع بمجاهير فرعون أن تسبج لمزاعمه، وتتقبل تصريحاته الكاذبة، وتصدقوه وهو يعلن ندائه كما أوضح القرآن الكريم عن لسان فرعون: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...¹".

"وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ²".
"فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى³".

فدعوة فرعون هنا إلى الاعتراف له بالإلهية، ويسارعون هم إلى السمع والطاعة والاستجابة له، وماذا فيهم إلا جهل بالله سبحانه، وخواء القلوب من معرفته جل وعلا، وسخافة في الأذهان، وذلة في النفوس، وإلا فكل عاقل يدرك أن فرعون يحيا مثلهم، ويموت مثلهم ويعرض له ما يعرض لهم، ولكنها الغفلة والخفة، كما بين الله سبحانه وتعالى: "فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ⁴".

والمعنى: فاستجهل قومه (فأطاعوه) خفة أحلامهم وقلة عقولهم⁵.

والطغاة المستكبرون يرغبون في تمكين هذا الجهل والغفلة، وخفة الأحلام، وضعف التصور والإدراك لدى الأتباع والعامّة، حتى يسلس قيادتهم، وتيسر السيطرة عليهم.

قال صاحب الظلال: واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه، فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سهل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم

(1) سورة القصص: الآية 38

(2) سورة الزخرف: الآية 51.

(3) سورة النازعات: الآية 23-24.

(4) سورة الزخرف: الآية 54.

(5) تفسير القرطبي 68/81.

فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين، ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الغفلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: "فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"¹ ²

وبالتالي فإن عوامل التأثير يمكن أن تكون ذاتية من داخل النفس، حين يعيش الإنسان في جهالة وخفة، وضحالة فكر، واستقبال لكل ما يعرض دون روية أو تفكير، والتشيع بكل ما يلقى دون تأمل أو نظر، وامتصاص كل شبهة دون نقاش أو تمحيص أو تشخيص.

يقول الله سبحانه وتعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰ وَلَمْ يَلْتَمِزْهُمَا قَوْمٌ مَّا يَفْتُرُونَ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ"³.

قال السعدي: "أى يزين بعضهم لبعض الأمر الذى يدعون إليه من الباطل، ويخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً، والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ولتصغى إليه أى لتميل إلى ذلك الكلام المزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة بحملهم على ذلك وليرضوه بعد أن يصغوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه، ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم يفترون، أى يأتون من الكذب بالقول والفعل ماثو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المفتريين شياطين الأنس والجن، والمستجيبين لدعوتهم"⁴.

نعم هذه العادة القبيحة مستمرة من القرون الماضية إلى الآن، وبكل اعتذار يرى الباحث أن هذا المرض سرى في المسلمين صغاراً وكباراً، اليوم السبت تاريخ 16-9-2019 صباحاً ننشر بضيف الشرف، وقد أعادت

(1) سورة الزخرف: الآية، 54.

(2) في ظلال القرآن 3194/5.

(3) سورة الأنعام: الآية 112-113.

(4) تيسير الكريم الرحمن 59/2-60.

السلطات في باكستان تنظيم جداول رحلات الطيران وأغلقت عمليات الحجز بالفنادق الفاخرة وجمعت 3500 حامية وبالونات ملونة لإطلاقها في مراسم استقبال ولي عهد السعودية محمد بن سلمان في زيارته المزمعة غدا السبت في العاصمة إسلام آباد.

وتتطلع باكستان إلى توقيع حزمة من الاتفاقيات الاستثمارية وغيرها من الصفقات خلال الزيارة التي تستغرق يومين وتشهد محادثات بين ولي العهد السعودي ورئيس الوزراء الباكستاني عمران خان وقائد الجيش القوي الجنرال قمر جاوید باجوہ.

ومن المتوقع أن تصل قيمة الاتفاقيات التي ستفسر عنها زيارة ولي العهد إلى 20 مليار دولار.

إننا نريد نهضة إسلامية، ووحدة فكرية وإيمانية كما قال الراحل ملك فيصل رحمة الله عليه ولم تبق إلا العلاقة المادية حتى بين المسلمين. هذا ما شاهد الباحث.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظ الإسلام والمسلمين من كيد الملأ المستبدين الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، ويحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

المبحث السادس: أثر الملاء على الحاكم وأتباعه

إن للملاء آثار في الفرد والمجتمع، وهي كما سلف عند ذكر أهميتهم التي يتبوءونها حبا للحياه والمنصب، وأثرهم يصيب الحاكم والرعية تحتهم؛ فيديرون دفة الأحداث العامة والخاصة، ويرسمون للأمة منهجا من تصوراتهم وميولاتهم؛ فإن احسنوا جاءت الأحداث على أحسن ما هي كائنة، والنتائج طيبة، وإلا فهو الفساد والكفر والإعراض؛ وبالتالي التعرض لسخط الله وعقوبته في الدنيا والآخرة، حتى لو كان المفسدون هم والملاء، فالعقاب يشمل من رضي بحالهم وأعمالهم: "وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"¹، قال القرطبي: "قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكل. وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعد التغيير، وإذا لم تغير وجب على المؤمن المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والحرب منها. وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم؛ كما في قصة السبت حين هجروا العاصين وقالوا لا نساكنكم. وهذا قال السلف رضي الله عنهم... فإن قليل: فقد قال الله تعالى: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"²، "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ"³، "لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"⁴، وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب. فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيروه؛ فإذا سكت عليه فكلهم عاص. هذا بفعله وهذا برضاه. وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل؛ فانتظم في العقوبة"⁵.

إن أثر الملاء يعم جميع طبقات الأمة، من أعلاها إلى أدناها، وهو الأثر الناجم عن السلطات الممنوحة لهم، وعن تسليم الشعوب رعاياهم لهم. وعادة ما يكون أثرا سلبيا، تميز بصرف الحاكم والناس عن اتباع دين الله تعالى؟

أثر الملاء على الحاكم: يظهر أثرهم على الحاكم من خلال محاربتهم إياه، وتوجيه الخطاب له كمثورة منهم يقدمونها لهذا الحاكم؛ إذ حرضوه على استضعاف الناس قبل أن يدعوهم رسول وبعدها دعاهم، وذلك كما وقع لبني إسرائيل من قبل أن يرسل الله إليهم موسى -عليه السلام-: "إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا

(1) سورة الأنفال: 25

(2) سورة الأنعام: 164

(3) سورة المدثر: 38

(4) سورة البقرة: 286

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 143/7

شَيْعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ¹، "ويقول تعالى: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ"²، "ولا ريب أن الذي أشار على فرعون بهذه المشورة المجحفة هم ملؤه، كما نراها في المحاوراة الدائرة بينه وبينهم، والتي أدت إلى هذا الأثر السلبي على حاكمهم بل وعلى الناس والدعوة الحق: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ آلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَرِّبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"³، "فمن تحريضهم له على الإسرائيليين لجأ إلى استضعافهم وتفريقهم شيعة وأحزابا وإذا قتهم سوء العذاب.

يقول الرازي: "اعلم أن بعد وقوع هذه الواقعة — حادثة قتل السحرة وتقطيعهم بعدما أمنوا وعدم خوفهم منه — لم يتعرض فرعون موسى، ولا أخذه ولا حسبه؛ بل خلى سبيله، فقال قومه له: "أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض"، واعلم أن فرعون كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف؛ فلهذا السبب لم يتعرض له، إلا أن قومه لم يعرفوا ذلك؛ فحملوه على أخذه وحسبه. وقوله: "ليفسدوا في الأرض" أي يفسدوا على الناس دينهم الذي كانوا عليه، وإذا أفسدوا عليهم أديانهم توسلوا بذلك إلى أخذ الملك⁴. "وهذا لأمر مما يظهر ذلك الأثر؛ فإن فرعون أصابه اليأس فترك موسى — عليه السلام —، ولما رأت حاشيته صمته وسكوته عن موسى وخوفه منه حثوه وأزوه أزا إلى ما يجب أن يصنعه أعداء الحق للدفاع عن دينهم الموروث عون مكانتهم. فكان هذا تأثيرا في توجيه أحداث الدعوة، وتأثيرا واضحا على موقف حاكمهم من حيث إيمانه أو عدمه: (وهنا نقول: إن البطانة لكل حاكم دورها مهم خطير جدا أن تكون ناصحة جريئة في قول ما تعتقد أنه الحق ولا تخشى، ولا تقول الذي يرضي عنها الحاكم مؤقتا معجلا ولو جنت على الأمة وعليه وعلى نفسها⁵."

ولنتظر إلى الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسمى محذرا موسى — عليه السلام — "قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"⁶، "فكانهم هم الذين يوجهون وهم الذين يعدون الخطط،

(1) سورة القصص: 4

(2) سورة البقرة: 49

(3) سورة الأعراف: 127

(4) الرازي، مفاتيح الغيب، ج7، مصدر سابق، ص 219

(5) أحمد نوفل، سورة يوسف، دراسة تحليلية، دار الفرقان، الطبعة الأولى، 1989م، عمان، ص 403

(6) سورة القصص: 20

وتصدر عنهم القرارات، وليس لسيدهم إلا التنفيذ ولو كان أطفى الطغاة، وليس له الخروج عن النهج الذي رسموه، وما يظن هو ولا غيره أن الأفكار والأوامر من الملائكة وعليه التنفيذ؛ لكيلا يظهر بمظهر المطيع الذي لا حول له ولا قوة، ويكون مجرد صورة، أو حكم صوري، كل الأمر بيد هذه الطائفة الضالة، وهم-أصلا- لا يظهرون له خلاف ما يظن من أن الأمور بيده.

وقد مر التعليق على قوله تعالى: "قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ حُورُهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ"¹، أن كلمة حوره تدل على إحاطة كاملة للحاكم من الملائكة إحاطة السوار بالمعصم؛ فلا يصل إليه إلا ما يريدون، ولا يتصرف إلا بعلمهم، ولا ينفذ له أمر إلا بعد إطلاعهم عليه، فصاروا كظلاله معه؛ لا يفارقونه حتى في عزله؛ إذ إن كلامهم يقي يدور في راسه ويفكر فيه بعد أن استخدموا معه كافة الوسائل كما سيظهر في المبحث لاحق، فمثلا لما جاءهم موسى-عليه السلام- بالحق ورأوه لم يحرجوا بأمرهم ذلك الأمر؛ فبادروه لقطع التفكير عنده كما في قول الرازي السابق، وهو ما تصوره الآيات: "قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ - فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ - وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ - قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ - يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ - قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ - يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"²، ولذلك هم حريصون على أن يكونوا حوله دائما، خاصة إذا تعلق الأمر بالدعوة؛ حرصا منهم على عدم إيمانه؛ لأنه إذا آمن فالنتيجة على خلاف ما يريدون، وسيبتعه كثيرون. وهو شبيه تماما- بموقف الملائكة على اختلاف أصنافهم من رجال دين وتجار... -حول هرقل الروم لما فكر في الإسلام واتباع رسول الله -عليه السلام-، واللفظ الذي ارتفع عنده كما روى البخاري: "قال إن يك ما تقول فيه حقا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أك أظنه منكم، ولو أي أعلم أي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليلفن ملكه ما تحت قدمي. قال: ثم دعا بكتاب رسول الله -ﷺ- فقرأه، فإذا فيه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فياني ادعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإن عليك الأريسين. (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) إلى قوله: (اشْهَدُوا يَا نَّا مُسْلِمُونَ)³، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللفظ، وأمر بنا فأخرجنا. قال: فقلت لأصحابي

(1) سورة الشعراء: 34

(2) سورة الأعراف: 106-112

(3) سورة آل عمران: 64

حين خرجنا: لقد أمر أمر ابن أبي كبشة¹، إنه ليخافه ملك بني الأصفر. فما زلت موقنا بأمر رسول الله - ﷺ - أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام. قال الزهري: فدعا هرقل عظماء الروم فجمعهم في دار له فقال: يا معشر الروم، هل ملك في الفلاح والرشد آخر الأبد، وأن يثبت لكم ملككم؟ قال: فحاصوا حيصة حمر الوحش² إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت فقال: على هم. فدعا بهم فقال: إني إنما اختبرت شدتكم على دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحببت، فسجدوا له ورضوا عنه³. وتكرر الحادثة مع فرعون يوم أن احتار في أمر موسى - عليه السلام - ولم يعرف ما يفعل، فاختار مشورة الملأ: "قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُفْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَآذَا تَأْمُرُونَ"⁴ لكن إشارتهم جاءت حربا على الحق وحلته: "قَالُوا أَزِجُّهُ وَأَخَاهُ وَابْنَهُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ"⁵ فافلحوا في صد فرعون عن الاستماع للأنبياء والاستجابة لهم، وكان من الممكن أن يؤمن لو تركوه دون التأثير عليه.

إننا نلاحظ تكرار هذا الأثر في قصة يوسف - عليه السلام - عندما فرغ عزيز مصر، ومحاولتهم صرفه عن الاهتمام بالأمر: (وقيل: إنهم لم يقصدوا تفسيراً، وإنما أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله، وعلى هذا أيضا فعندهم علم)⁶؛ لذلك ادعوا أنها مجرد أباطيل وأخلاق أحلام: "قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ"⁷ (ويكون جواب الملأ: إن هذه الرؤيا مجرد أخلاق لا أساس لها من صحة، والضغث هو النبات الضعيف الذي لا ساق له، فكان هذه الرؤيا لعدم استنادها على ساق من الحقيقة كأنها أضغاث ملها من كيان ولا قوام. ولا ندري أكان جواب هؤلاء الملأ عن عجز وجهل؟ لكنهم لجهلهم قالوا: إن هذه الرؤيا لا مصداق لها، وقد سمعوا حلما؛ لأن الحلم هو الذي لا مصداق له، ولا تأويل. وقد يكونون عرفوا تأويلها لكنهم خشوا أن يقولوا الحقيقة، وأرادوا أن يطمئنتوا الملك ولو طمأنة خادعة على حساب

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج1، مصدر سابق: ص 55

(2) قال ابن حجر: (أي نفروا، وشبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسانية، وشبههم بالحر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضل) المصدر ذاته، 60/1

(3) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، مصدر سابق، ك: التفسير، ب: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله) ج: (4553).

(4) سورة الشعراء: 34-35

(5) سورة الشعراء: 36-37

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج9، مصدر سابق، ص 131-132

(7) سورة يوسف: 44

الحقيقة ومصلحة الملك ومصلحة الأمة. وقولهم: ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين، أي أنهم يعلمون تأويل الرؤيا، أما الأحلام فلا يعلمون تأويلها¹.

وينبغي التنبيه إلى أن الحاكم يترصص بالملاء كذلك؛ حتى لا تكون مسؤولية عواقب الأمور عليه وحده، وذلك كما ادعى فرعون أنه لا يريد الخروج على إرادتهم في شأن موسى -عليه السلام- وكأنه خاضع لأمرهم مع أنه سيدهم "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"²، وكذلك الحال مع ملكة سبا لما أظهرت أنها تستشير الملاء في أمر رسالة سليمان -عليه السلام- وأنها لا تخالف لهم أمراً، "قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ"³، فكان الملاء يترصصون بالحاكم والحاكم يترصص بهم، ولعل ذلك عائد إلى أن كلا منهم يخشى من الآخر على الرغم من أن مصالحهم مشتركة.

أثر الملاء على الأمة: وليس المقصود به الأثر الاقتصادي والسياسي الناجم عن فسادهم، أو الحروب التي قد تقوم لتحقيق مرغوباتهم وأهدافهم، إنما هو الأثر الذي حدد مصيرهم في الآخرة، وما إذا كانوا قد أفلحوا في صرفهم عن اتباع الحق كما صرف فرعون؟ فسادهم في حريمهم للدعوة، أم أنهم ساندوا الأنبياء -عليهم السلام- في حريمهم للكفر. وأثرهم هذا يحدد مصيرهم ومصير أمتهم؛ وذلك كما في الحديث عن سمات الملاء، وكان منها الترف: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا"⁴. وهذا أثرهم على الغالب؛ أي الأثر السلبي، وإلا فإذا كان الملاء مؤمناً كمؤمن آل فرعون فإن ذلك يكبح من جماح التهور، وقد سبب في تأخير الهلاك والعذاب: "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ - وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ"⁵. قال الرازي: (وإذا أردنا إمضاء ما سبق من القضاء بإهلاك قوم أمرنا المتنعمين المتميزين - الظانين أن أموالهم وأولادهم وأنصارهم ترد عنهم بأسنا - بالإيمان بي والعمل بشرائع ديني على ما بلغهم عني رسولي، ففسقوا فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق بإهلاكهم؛ لظهور معاصيهم فحينئذ

(1) أحمد نوفل، سورة يوسف، دراسة تحليلية، مرجع سابق: ص 403

(2) سورة غافر: 26

(3) سورة النمل: 32

(4) سورة الإسراء: 16

(5) سورة هود: 116-117

دمرناها.... وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب ظهور المعاصي من أهلها لم نعالجهم بالعذاب في أول ظهور المعاصي منهم، بل أمرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصي. وإنما خص المترفين بذلك الأمر؛ لأن المترف هو المتنعم. ومن كثير نعم الله عليه كان قيامه بالشكر أوجب، فإذا أمرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى - مع أنه تعالى لا يقطع عنهم تلك النعم بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وبعدهم عن الرجوع عن الباطل إلى الحق - فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صبا¹.

وعندما طلب ملا بني إسرائيل من نبيهم ملكا للقتال وقعت تبعة ذلك الطلب على الأمة كلها، ولما وقع القتال تولى الملائكة - وهم القدوة - فتولى أكثر بني إسرائيل إلا قليلا منهم: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ²" وعندما دعا نوح - عليه السلام - قومه جابهه الملائكة أولا؛ وأثاروا حوله الشبهات والتهم وسخروا منه؛ فجاء التكذيب والرد من سائر القوم، وما آمن معه إلا قليل. ومثله هود وصالح وشعيب وكل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -. وأما لوط - عليه السلام - فالقوم كلهم مطبوع على قلوبهم بالأكنة: "وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ - فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ³".

إذن فآثر الملائكة على الأمة يشمل التكذيب والعقوبة في الدنيا والآخرة؛ بمعنى أنه إذا كذب الملائكة اقتدى بهم كثير ممن تحت أيديهم من الأمم والشعوب وبالتالي فالعقوبة لا نصيب الملائكة الذين ظلموا منهم خاصة، بل تتعداهم إلى الرعية والدهماء المتبعون لهم: "قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوْهُمُ أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ - وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْهُمُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُخْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ⁴". "إذن فقد كان الملائكة عقبة صلبة منيعة أما هداية كثير من الناس، ولهذا اهتم الأنبياء بهذه الطائفة، وليس ذلك لمجرد الحرص على هدايتهم وإيمانهم وإنما بهدف (تخطيم سيطرتهم على الأتباع ونزع هؤلاء

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، ج10، مصدر سابق، ص 178

(2) سورة البقرة: 246

(3) سورة الأعراف: 82-82

(4) سورة سبا، 32-33

الأتباع من برائن القادة، ومخالب الزعماء حتى يتاح لهم أن يسمعون كلام الله، وأن يتأملوا هداية في طمأنينة نفس وسكون فؤاد، فإن الإسلام- وكذلك كل الأديان السماوية¹- لا تميز شخصا عن شخص، ولا تحتم بفرد عن مجرد الأوضاع الاجتماعية، وإذا كان لها إثارة لطائفة على طائفة فإن الطائفة الأحب إلى الأيان في الاتجاه إليها إنما هي طائفة عامة الناس لا طائفة الخاصة، وليس ذلك-أيضا- لمعنى دنيوي، وإنما لأن نفوس هؤلاء أكثر استعدادا للهداية، وأقرب ميلا إلى هدى الله؛ لأن دين الله-دائما- مع رغبتها وأمانيتها، أما الخاصة من الناس فغالبا ما ينظرون إلى الأديان على أنها حرب لآمالهم، وقبة في سبيل أمانيتهم الشخصية².

والمقصود من دراسة تأثيرهم كله، سواء أكان على الحاكم أم على الأمة، فالنتيجة معرفة ما يترتب من ذلك كله على الدعوة قديما وحديثا، فلقد وضع الملأ كل ما باستطاعتهم من عراقيل في وجه الدعوة، مستخدمين سلطتهم وجاههم وتأثير الشعوب بهم؛ فأثروا على حاكمهم لحرب الدعوة، وأثروا على الناس والأمم لاستئصال الدعوة واحتوائها ومحاصرتها من كل اتجاه وبالتالي إدارة دفة الحياة على هواهم وبما يحقق المكاسب لهم. وليس المعنى بذلك أنهم تمكنوا من أن يغيروا محتوى الرسالة أو أن يتنازل الرسل عن شيء منها، بل قد تمكنوا من صرف أعداد كثيرة من الدهماء عن الهداية. ولو أحسنوا النوايا لآمن أكثر الناس، إن لم يكونوا كلهم جميعا: "وَلَكِنْ لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ"³.

(1) هذا من الأخطاء الشائعة والمندولة عند العامة والخاصة، فالدين عند الله واحد، والصحيح أن يقال: الرسائل السماوية.

(2) عبد الحلیم حنفی، أسلوب السخرية في القرآن الكريم، ص 199-200

(3) سورة الأنفال: 42

المبحث السابع: أثر الملأ على الفرد والمجتمع

بما أن السلطة بيد الحاكم وهو- كذلك- الذي يدير الأمور اتبع الملأ أساليب متعددة في إخضاعه لمرادهم والتأثير عليه؛ فتحوّلت السلطة الفعلية إليهم منها:

التخويف من اختلال الأمن: ويتضح هذا الأمر والتخويف في عمرد فرعون على الحق، ثم ضعفه أمام موسى- عليه السلام- لذلك يبادر الملأ ويسارعون إلى لفت نظره إلى واجبه في المحافظة على دين الآباء والسير على درهم: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَأَهْلَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"¹. وهي الآلهة الموروثة والتي زعمها آباؤهم، مع العلم أن منصب الفرعونية يجعل من صاحبه إلها لقومه كما في قوله تعالى على لسان فرعون: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ بَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي"²، وهو مما يوقع في التناقض ظاهريا؛ ففرعون يخاطب قومه وملاؤه أنه إلههم؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يعلم بوجود إله غيره، لكن الملأ من حوله يحرضونه على موسى- عليه السلام- والمؤمنين خشية الفساد على حد زعمهم! وترك الآلهة المتوارثة؛ وبناء على فرعون له آلهة أيضا، قال الرازي: (فقد اختلقوا فيه... فقول: إن فرعون كان قد وضع لقومه أصناما صغارا، وأمرهم بعبادتها)، وقال: "أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى"³، ورب هذه الأصنام، فذلك قوله: أنا ربكم الأعلى. وقال الحسن كان فرعون يعبد الأصنام. وأقول: الذي يخطر ببالي إن فرعون إن قلنا: إنه ما كان كامل العقل؛ لم يجز في حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه، وإن كان عاقلا لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالقا للسموات والأرض، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك؛ لأن فساده معلوم بضرورة العقل، بل الأقرب أن يقال: إنه كان دهريا ينكر وجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلي هو الكواكب، وأما المجدي في هذا العالم للخلق وتلك الطائفة والمري لم فهو نفسه. فقلوه: أنا ربكم الأعلى، أي مريكم والمنعم عليكم والمطعم لكم، وقوله: ما علمت لكم من إله غيري، أي لا أعلم أحدا يجب عليكم عبادته إلا أنا. وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن

(1) سورة الأعراف: 127

(2) سورة القصص: 38

(3) سورة النازعات: 24

يقال: قد اتخذ أصناما على صور الكواكب، ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب، وعلى هذا التقدير فلا امتناع في حمل قوله تعالى: "وَيَذَرُكَ وَآلِهَتَكَ"¹ على ظاهره².

والذي يبدو لي أن فرعون لما زعم لنفسه الألوهية أمام الملأ كان هذا عن علم منه ومنهم بخلاف ذلك، لكنه استخفف قومه فأطاعوه. والسبب في صمت الملأ على هذا الزعم ما فيه من تحقيق منافع لهم، يستمدونها من ادعاء ألوهية فرعون، بل كانوا يعملون على ترسيخها في أذهان الناس، لكنهم لما خشوا على هذه الامتيازات من دعوة موسى -عليه السلام- حذروا فرعون من ترك الآلهة، زاعمين أن في ذلك فساد عظيم، وتهديد لأمن البلاد والعباد:

"فالإفساد في الأرض - من وجهة نظرهم - هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده؛ حيث يترتب عليها تلقاها بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله. إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره - أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه - وإذن فهو - بزعمهم - الإفساد في الأرض، بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر مخالف تماما لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله لا للبشر. ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون وآلهته التي يعبدها هو وقومه.. ولقد كان فرعون إنما يستمد هيئته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها هذه الآلهة... بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة! وهي بنوة ليست حسية! فلقد كان الناس يعرفون جيدا أن الفرعون مولود من أب وأم بشريين. إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته. فإذا عبد موسى وقومه رب العالمين. وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون، فمعنى هذا هو تخطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المستخف؛ الذي إنما يطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح... وذلك كما يقول الله سبحانه: "فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"³ فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ... وما كان فرعون بقادر على أن يستخفف قومه فيطيعوه لو لم يكونا فاسقين عن دين الله⁴."

التهم بالأنبياء والدعاة المخلصين: وهم لن يملوا منه ولا التمسك به أو الانتقال لغيره إلا إن يكون التقبيل والتقطيع والتصليب.

(1) سورة الأعراف: 127

(2) الرازي: مفاتيح الغيب: ج 7، مصدر سابق: ص 220

(3) سورة الزخرف، 54

(4) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 3، مصدر سابق، ص 1354

المبحث الثامن: أثر علاقة الملام بالمنافقين على الدعوة

إن الملام - بله البشر كلهم - لا يعرفون ما يجري وراء الجدران، وهم على وجل دائم مما يظنونونه خططا لاستهدافهم؛ لذلك يثنون العيون والجواسيس، وقبل ذلك يعملون على نشر سموم الفرقة من قبيل "فرق تسد"؛ ليسهل عليهم كشف الأمور بعد تفرقهم، فالكل مشغول بخلافاته أو متربص باعدائه لإيصال ما قد يوحون به؛ مما قد يضطرهم إلى التقرب إلى الملام: "إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعِي أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ"¹. قال صاحب التحرير والتنوير: "أنه جعل أهل المملكة شيعة، وفرقهم أقساما، وجعل منهم مقرين منه. ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة؛ لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض؛ فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاوله على الفرق الأخرى، وتكدر الفرق الأخرى لتزحج المحظوظين عن حظوظهم بإلقاء النيممة والشائعات الكاذبة؛ فيحلوا محل الآخرين. وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم ببعض فتنة. وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة... فيكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية"².

وأما بث العيون والاعتماد على هتك أستار الناس، والاستعانة بالمنافقين لحرب الدعوة والأنبياء والمؤمنين فنجد في القرآن الكريم عندما يتكلم عن المؤمنين مع موسى - عليه السلام -: "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ"³. قال صاحب الظلال معلقا على هذه الآية: "وفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بني إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار، لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى، خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوي المصالح عند أصحاب، والأذلاء الذي ليؤذوون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل. وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت، كما كان مسرفا في الطغيان، لا يقف عند حد، ولا يتحرج من إجراء قاس"⁴.

(1) سورة القصص: 4

(2) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 20، مصدر سابق، ص 68

(3) سورة يونس: 83

(4) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج 3، جرجع سابق: ص 1815

إن قلة المؤمنين والذرية اليسيرة التي آمنت تعود إلى بطش الطغاة والملا بالمؤمنين، بعد علمهم بمن آمن عن طريق الجواسيس والمنافقين، بل إنه قد روي في تقبيل فرعون لذكور بني إسرائيل أنه جعل نساء معيناً وكل إليهن مهمة معرفة المواليد ذكورا وإناثا. قال مصطفى المراغي في قوله تعالى: "يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ"¹: "أي يذبح أبناءهم حين أبناءهم حين الولادة، وقد وكل بذلك عيوناً تتجسس، فكلما ولدت امرأة منهم ذكراً ذبحوه، ويستحي إناثهم، لأنه كان يتوجس خيفة من الذكور الذين يتمرسون الصناعات، وبأيديهم زمام المال. فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة، وغلبوا المصريين عليها. والغلب الاقتصادي في بلد ما أشد وقعا وأعظم أثرا في أهلها من الغلب الاستعماري؛ ومن ثم لم يشأ أن يقتل النساء"².

(1) سورة القصص: 4

(2) المراغي، تفسير المراغي، ج7، مرجع سابق: ص 33

الباب الثاني:

أساليب الملاء ضد الدعوة إلى الله

وفيه فصلين:

الفصل الأول: تشكيكات الملاء حول الدعوة إلى الله تعالى

الفصل الثاني: المواجهات والمجابهات من الملاء

الفصل الأول:

تشكيكات الملأ حول الدعوة إلى الله تعالى

وفيه مبحثين:

المبحث الأول: شبهات الملأ حول الدعوة

المبحث الثاني: شبهات الملأ على الدعوة والرسل عليهم السلام.

المبحث الأول: شبهات حول الدعوة إلى الله تعالى

ولقد جمع الملأ المكذبون من الملأ ومن لم جاء وسلطة على إثارة هذه الشبهات، ودفعها للتداول بين الناس، إلا أنهم يختلفون فيما بينهم في الاتهام المناسب - في نظرهم - ويتفقون في الهدف للدعوة والرسالة.

وسأورد بعض ما وردت من التهم التي تثير هذه الشبهات العامة وهي كالتالية:

1- زعمهم أن ما جاء به الرسالة النبوية ﷺ من أساطير الأولين.

ذكر لفظ "أساطير" في تسع أمكنة متفرقة في كتاب الله الكريم، وهو تكرر يستحق استخلاص المعاني المخبوءة فيه.

العنصر المشترك في جميع آيات "أساطير الأولين" أنها وردت على لسان الكافرين لدعوة الحق، ولم ترد على لسان غيرهم من أهل الكتاب، كما أن كل الآيات قيلت في مناسبات الاحتجاج والمدافعة والمجادلة حول قضايا إيمانية عقلية منطقية فكرية، ترغبهم إلى النظر في الدعوة الجديدة نظرة متجردة أبرزها الدعوة للتوحيد وقبول البعث والحساب، وأمام عجزهم عن رد الحجة بالحجة يلجأون إلى إغلاق باب المجادلة بنسبة بنسبة ما يسمعون إلى أساطير الأولين، وفيه إشارة واضحة أن هؤلاء كانوا يعلمون أن هناك تراثا مسطورا وضعه الأولون ويبدو أيضا أنهم كانوا يحتفظون في أذهانهم ببعض معالمه، ودعوة الرسول قد ذكرهم بتلك المعالم، فأقروا بأن ما يعرفونه سابقاً عن أساطير الأولين يتضمن معاني تقترب لما جاء به الرسول وهي تخالف معتقداًهم وما هم عليه، فقد حافظ التراث على مضامينه أو بعضها إلى عهد الرسول (ﷺ) عبر تناقله شفهيًا إذ لم تكن المدونات والرقم متداولة كونها بقيت مطمورة وممسوحة تحت الأرض لآلاف السنين قبل أن تكتشف في العصر الحديث.

يقول الله تعالى في قصة سيدنا هود عليه السلام موضحاً مقولة المكذبين:

"قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأُولَىٰ".¹

ويكرر الملأ من قريش الشبهة ذاتها حول دعوة الرسول ﷺ كما أشار إليه سبحانه وتعالى:

(1) سورة الشعراء: الآية 136-137.

والمراد بالاختلاق: الكذب والافتعال²

يقول الله عز وجل:

أى كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له في الواقع (مفتري) بإسناده إلى الله عز وجل.⁵

وقد أورد القرآن الكريم انهماءهم هذا في أكثر من مواضع، منها قول الله سبحانه وتعالى:

وقوله عز وجل: "وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَعَلَّنَا مِثْلَ هَذَا إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ".⁷

- (1) سورة ص: الآية 6-7.
- (2) ينظر تفسير البغوى 49/4.
- (3) سورة الفرقان: الآية 4.
- (4) سورة السباء: الآية 43.
- (5) تفسير روح المعاني 152/22.
- (6) سورة الأنعام: الآية 25.
- (7) سورة الأنفال: الآية 31.

والمنعنى - كما قال ابن جرير - إن هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد إلا ما سطره الأولون وكتبوه من أخبارهم الأمم¹.

وقوله سبحانه وتعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ"².

أى فسيقولون: هذا القرآن الذى جاء به محمد ﷺ أكاذيب من أخبار الأولين قديمة³.

ومن الآيات التى عرضت شبهتهم هذه أيضا قول الله جل شأنه: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"⁴.

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"⁵.

"وَلَا تُطِيعُ كُلَّ خَلَّافٍ مُهِينٍ. هَكَذَا مَشَاءَ بَنِيهِمْ. مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيهِمْ. عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زُنِيهِمْ. أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"⁶.

"وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيُّومَ الذِّينِ. وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُفْلٌ مُعْتَدٍ أُنِيهِمْ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"⁷.

ومن اشتهر بإثارة هذه الشبهة الهالكة من رؤوس المشركين:

النضر بن الحارث، فقد كان - كما ذكر ابن إسحاق - "إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم

(1) تفسير الطبرى 231/9.

(2) سورة الأحقاف: الآية 11.

(3) تفسير الطبرى 13/26.

(4) سورة الفرقان: الآية 5.

(5) سورة النحل: الآية 24.

(6) سورة الفلم: الآية 10 - 15.

(7) سورة المطففين: الآية 10 - 13.

واسفنديار وملوك فارس، ثم يقول: والله ما نعتقد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتبها كما اكتبها"¹.

ولما جاءهم القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر، وما فيه من البعث والجزاء، ووعظهم رسول الله ﷺ وخوفهم به، اعتبروا ذلك كله أيضاً من أساطير الأولين.

قال تعالى: "بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"².

فما تضمنه كلام الله جل وعلا من الإخبار عن البعث بعد الموت، والقيامة وما فيها من الحساب والجزاء، هو في زعمهم أخبار مفتعلة، دون أن يكون لها بالحقيقة صلة أو نسب

والخلاصة:

- 1- القضية الجوهرية في الرسل والدعاة العقديّة (التوحيد) والأخلاقيّة (القيم) والاجتماعية (العدل والمعروف) موجودة في أساطير الأولين.
- 2- هناك نسبة موجودة بين أساطير الأولين والرسل القبليّين، وقد أبرز تلك النسبة تشابه ما ورد في الأساطير مع رسالات الرسل وأقوال الأنبياء (عليهم السلام) باعتراف الكفار أنفسهم..
- 3- لم تُستعمل "أساطير الأولين" مع أيّ نبيّ آخر غير محمّد (ﷺ)، ما يعني أولاً: أنّ هذا التراث (الأساطير) هو تراث الأنبياء والمصلحين والأحناف قبله. وثانياً: أنّ "الأساطير" كمفردة تاريخية صار لها وجود حاضر في عصر البعثة المحمدية لاشتهار التدوين (التسطير)، ولم تكن متاحة فيما سبق إلا بشكل خاص للخواص. ثالثاً: أنّ ابتعاد الزمن وتشوّع عقائده وتسفل عاداته وترديّ الأخلاق جعل من هذه الكلمة نقيصة يلوّكها الكافرون بالمذمة، في الوقت أنّها في الزمن السابق القديم كانت رمز عقيدة صحيحة ورفي وحضارة وعلم، لا تنذر.
- 4- نفى سبحانه في كتابه عن نبيّه (ﷺ) ما ادّعوه عليه أنّه مجنون أو مفتون أو شاعر أو كاهن أو ساحر، كما نفى عن القرآن أن يكون مفترياً، أو اكتبها من أناس، أو قول شيطان رجيم، أو أيّ شيء، لكنه لم ينف وجود ذلك المضمون ولا مرّة واحدة في أساطير الأولين.

(1) السيرة النبوية لابن هشام 1385، وفي البداية 110/3، تفسير الطبري 182/18.

(2) سورة النمل: الآية 67-68.

5- أثبت سبحانه وجودها بشكل مباشر في أساطير الأولين الصحيحة، وسمّاها (وإنّه لفي زُبر الأولين)⁽¹⁾، (إنّ هذا لفي الصُحفِ الأولى)⁽²⁾، وعدّه هذا التشابه بيّنة على صدق المصدر ووحدته (أولم تأتيم بيّنة ما في الصُحفِ الأولى)⁽³⁾

6- لم يُسمّ سبحانه مصادر الحق (الزُبر والصُحف) "أساطير الأولين" لأنّ تسميتها تنفي نسبتها لله وتجعلها وكأُتاه من اجتهادات أو خيالات الأوائل، وهو أمرٌ صحيح على مستوى الصياغة ففيها من المحسنات والإضافات والرموز والتمثيلات المقدار الكثير، لكنّ مضمونها هو مضمون كتب السماء من توحيد وإيمان بآخرة وبرسل وبملائكة وبالعدل والعمل الصالح والنظام الاجتماعي السوي واحترام الطبيعة، والنظر إلى كلّ الأمور أنّها آيات من الرب، وهل القرآن يقول غير هذا؟ فأساطير الأولين ليست هي الصُحف الأولى ولا الزُبر، بل هي إعادة صياغة لتلك القيم والاعتقادات في قوالب ملحمية محببة لثُحفظ.⁽⁴⁾

2- زعمهم على أن الرسالة النبوية ﷺ إفتراء و أضغاث أحلام.

وضح القرآن الكريم أن بعض مشركي قريش وصفوا ماجاءهم به رسول الله ﷺ من الوحي بأنه أضغاث أحلام، وذلك في قول الله عزوجل:

"بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ".⁽⁵⁾

أى قال بعضهم: هو أقاويل رؤيا رآها في المنام.⁽⁶⁾

ومن زعمهم الباطل أن القرآن الكريم باطل، وليس له أساس صحيح يعتمد عليه، إنّما هو عبارة عن أحلام تختلط عليه في المنام فتخرج على لسانه في البقطة وهكذا تمشي الأمور عنده.

(1) سورة الشعراء، الآية: 196

(2) سورة الأعلى، الآية: 18

(3) سورة طه، الآية: 113

(4) منتدى التوحيد، عنوان: الحوار في الإسلام

(5) سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية 5.

(6) تفسير الطبري 3/17.

3 ماجاء به الرسل عليهم السلام إنما هو من قبيل السحر.

هذا الاتهام أثير حول عدد من دعوات الرسل عليهم السلام.

ففي قصة سيدنا موسى عليه السلام تكررت هذه الشبهة على لسان فرعون وملكه وصفا لما جاءهم به نبي الله موسى عليه السلام من البينات.

قال سبحانه وتعالى: "قَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ¹. قَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ"².

فمع بيان الآيات التي جاء بها سيدنا موسى عليه السلام ساطعة في وظهورها، واضحة في دلائلها على صدقه عليه السلام، إلا أن فرعون وملكه اعتبروا هذه المعجزات من باب السحر، بل قاموا بالغلو في إثارة الشبهات وخلط المعجزة بالسحر.

ويقول الله تعالى عنهم: "قَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَافَهَاءُ"³.

أى سحر تحتلقه، لم يفعل قبله مثله⁴.

وقد بالغوا في تنفير الناس من دعوة سيدنا موسى عليه السلام، وزيادة في إلصاق شبهة السحر بها، يصرح فرعون بأن ماجاء به موسى عليه السلام هو السحر العظيم الذي سينهى وجودهم على أرض مصر: "قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"⁵.

ويحاور فرعون نبي الله موسى عليه السلام مصرحاً له بالشبهة ذاتها وبالأسلوب نفسه: "قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى"⁶.

(1) سورة يونس عليه السلام: الآية 76.

(2) سورة النمل: الآية 13.

(3) سورة القصص: الآية 36.

(4) تفسير روح المعاني 78/20.

(5) سورة الشعراء: الآية 34-35.

(6) سورة طه: الآية 57.

فلما جاءهم به موسى ما اعتقد فرعون أن سيدنا موسى أتى بالمعجزة التي كانوا يعرفونها كما يعرفون أبنائهم، بل أعلن أنه سيعارض موسى عليه السلام بنفس الأسلوب الذي مهر فيه، حين تجتمع جموع السحرة ليقضوا على سحر موسى الذي يدعى أنه بيينة من رب العالمين: "فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوًى"¹.

ولما عرف أولئك السحرة الحق، وتيقنوا أنها المعجزة الإلهية مع موسى عليه السلام، فآمنوا وخروا ساجدين لله رب العالمين وقالوا امنا رب هارون وموسى.

يقول الله سبحانه وتعالى بلسان حالهم: "قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى"².

ومع تتابع الآيات من سيدنا موسى عليه السلام، يستمر فرعون وملؤه في إثارة هذه الشبهة وإشاعتها ونشرها، بل ويجعلون من توالي المعجزات وقوداً يزيدون به الشبهة اشتعالاً وظهوراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق: "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتُشْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"³.

وكذلك فعل الكفار أعداء الحق مع سيدنا عيسى عليه السلام في وصف ما جاء به من دعوة الله سبحانه، كما قال تعالى في معرض الامتنان والاحسان على نبيه عيسى عليه السلام وعلى أمه: "وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"⁴.

ويكرر الملأ من قريش نفس الشبهة مع رسول الله ﷺ.

فهذا الوليد بن المغيرة أحد الملأ لقريش، يفكر ملياً، ويقلب نظره في الشبهة المناسبة التي يمكن أن يتقلبها الرأي العام في مكة وخارجها، وبعد تناول عدد من الشبهات يستقر رأيه الأخير على أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ما هو إلا سحر يؤثر.

(1) سورة طه: الآية 85.

(2) سورة طه: الآية 71.

(3) سورة الأعراف: 132.

(4) سورة المائدة: الآية 110.

يقول الله سبحانه في ذلك: "ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَيْنَ شُهُودًا. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا. إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ. فُقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ"¹.

قال ابن كثير: "فقال إن هذا إلا سحر يؤثر أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره عن قبله ويحكيه عنهم، ولهذا قال إن هذا إلا قول البشر أى ليس بكلام الله، وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش، لعنه الله"².

نعم هذه الشبهات تكررت من طغاة الملأ المكذبين حول دعوته ﷺ كما قال الله في القرآن الكريم: "وَإِذَا تُنْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"³.
 "وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ"⁴.
 "وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"⁵.

"وَإِذَا تُنْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ"⁶.

وهم يتناجون بإثارة هذه الشبهات وأمثالها ويتواصون بعضهم بعضا كما حكى القرآن الكريم عنهم:

"لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ"⁷.

أى إن هذا الذى جاء به محمد ﷺ سحر فكيف تجيئون إليه وتتبعونه؟⁸.

(1) سورة المدثر: الآية 11-25.

(2) تفسير ابن كثير 4/ 442.

(3) سورة الأحقاف: الآية 7.

(4) سورة الزخرف: الآية 30.

(5) سورة الصافات: الآية 15.

(6) سورة السباء: الآية 43.

(7) سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية 3.

(8) تفسير القرطبي 179/11.

وزعمهم القبيح أن كفرهم بدعوتهم ﷺ على أساس من هذه الشبهة كما أشار سبحانه وتعالى: "وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ" ¹.

يقول الباحث: بعد اطلاع كثير من الآيات القرآنية المباركة والتدبر بما فيها وصلت إلى أن الحق لا يختلط بالسحر ولا بالكهانة ولا بالجنون، لا بالسفاهة ولا بالضلالة أبدا فهو واضح بين، لقد كان هذا الاتهام العظيم منذ سيدنا نوح عليه السلام في تاريخ الرسل عليهم السلام سلاحا من أسلحة المتلبسين المضللين يشوهون ويشككون به في صحة النبوات، بالظن في المعجزات التي لا يتأثر بتلك المعجزات من تأصل في ذهنه - نتيجة الشبهة - أن ذلك سحر من عمل البشر، من ثم يرفض المنهج الإلهي الذي يأتي به الرسل عليهم السلام، إذ أن السحر لا بقاء له، وبالتالي فإن هذا الجين القيم القائم على السحر أيضا لا بقاء له، وهوبذلك لا يستحق القبول أو الاستجابة حسب اتهام وزعم المشكك والمضلل لهم.

الثانية: زعمهم بأن أتباع الدعوة من الفقراء والمساكين وعامة الناس

من المعلوم أن الضعفاء ليس عندهم شيء بمنعمهم، الكراء والأشراف وأصحاب الأموال تمنعهم شهواتهم من الاتباع، أما الضعفاء ليس عندهم مانع بمنعمهم، فلذلك هم الأتباع، لكن الزعيم والرئيس والكبير وصاحب المال يمتنع، لأن الإسلام يقيد من شهواته ومعاصيه، وتكبره على الآخرين بمنعه ويقيد الإسلام، فلذلك يكون الضعفاء هم أول المستجيبين، نعم الرسول عليه الصلاة والسلام تبعه من الأشراف ومن الأغنياء أبو بكر رضي الله عنه أول من آمن به، وهذا في واقع الدعوات صحيح في غالب الأمر، ومنها دعوة رسولنا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، إذ استجاب لها - خصوصا في بدايتها - الفقراء والمستضعفون من عامة الناس وخاصتهم عليهم الرضوان.

ولكن الملأ من قريش يشوهون ويغالطون فيجعلون من هذا الأمر الطبعي شبهة يبررون بها رفضهم للدعوة، فيعلنون أن ما جاء به نبينا ﷺ لو كان فيه الخير والحق لما سبقهم إلى الإيمان به والاستجابة له أولئك شرذمة قليلون في نظرهم مالاوجاهها منصبا ورياسة، وهم يحسبون أنهم يحسنون أنهم يحسنو صنعا.

يقول الله سبحانه: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ¹".

أى لو كان الإسلام خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء، والقائلون لهذه المقالة أكابر قريش لما أسلم الضعفاء كبلال وعمار وصهيب².

قال صاحب أضواء البيان: "أظهر أقوال العلماء في هذه الآية الكريمة أن الكافرين الذين قالوا للمؤمنين لو كان خيرا ما سبقونا إليه أنهم كفار مكة، وأن مراجعهم أن فقراء المسلمين وضعفاءهم كبلال وعمار وصهيب وخباب ونحوهم أحقر عند الله من أن يختار لهم الطريق التي فيها الخير، وأنهم هم الذين لهم عند الله عظمة وجاه واستحقاق السبق لكل خير"³.

فهم يحسبون الشرف والرياسة الدينية مبنية على اعتبارهم وزعمهم، وبا لتالى فلو كانت الدعوة قائمة على الحق والصدق والخير لكانوا هم المستحقين لها قبل هؤلاء الفقراء والمساكين والمستضعفين.

وقد نجد هذه القضية قرية على طبيعة الملأ المكذبين من الأكابر، كما قالها من سبقهم لسيدنا نوح عليه السلام وإلى أشار القرآن الكريم: "فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُبَادُوا وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ"⁴.

فالملأ والأكابر من القوم لا يلتفتون إلى دعوة نوح عليه السلام وما تحمله من الدلائل الموحية بصحتها، والبراهين الشاهدة بصدقها، ولكنهم ينظرون إلى السابقين إلى الاستجابة لها من ضعفاء الناس، فيجعلون من ذلك مبررا يسوغ لهم الحكم على دعوة نوح عليه السلام بالضللال والبطلان، إذ لو كانت الدعوة حقا لآمن بها في تصورهم أشراف القوم، وأصحاب الرياسة والثروة والجاه والمنصب فيهم، من هنا يتبين أن عدد الأنبياء

(1) سورة الأحقاف: الآية 11

(2) ينظر تفسير ابن كثير 4/156، وتفسير أبي السعود 81/8.

(3) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطى، ط/عالم الكبير 381/7.

(4) سورة نوح عليه السلام: الآية 27.

والرسل كثير، وقد ذكر القرآن الكريم اسم خمسة وعشرين نبياً ورسولاً فقط، أولهم نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام، وخاتمهم رسول الله محمد ﷺ، حين خطب من رنبا جل وعلا: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"¹

الثالثة: الدعوة، بزعمهم الباطل غريبة لا تقبل الطبيعة ولا يالفها الناس:

أقول: إن الإنسان مخلوق مريب، ولا بد أن يتعرف على خالقه بفطرته وطبيعته، ويعرف ماذا يريد منه، ولماذا خلقه، ولا يستقل الإنسان بمعرفة ذلك، ولا سبيل إليه إلا من خلال الدعوة إلى الله ومعرفة منهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، واستفادة ما جاءوا به من الهدى والنور.

يقول الله تعالى: "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"² ولا بد له من دين يدين به، وهذا الدين لا بد أن يكون صحيحاً، ولا سبيل إلى الدين الصحيح إلا من خلال الإيمان بالأنبياء والمرسلين والإيمان بما جاءوا به وهو بفطرته محتاج إلى الطريق الذي يوصله إلى رضى الله في الدنيا وإلى جنته ونعيمه في الدار الآخرة وهذه طرق لا يرشد إليها، ويدل عليها إلا الأنبياء والمرسلون عليهم السلام.

ومما أوحى الله به الرسل عليهم السلام في نظر الملائكة المكذبين المستبدين أمر لا تستسيغه طبيعة المجتمع، ولا تقبله عادات البلد، وهو وضع غريب على الناس، لم يألفوه ولم يعهدوه، ولم يعرفوه في ماضيهم، ومن ثم فإن ما جاء به الرسل عليهم السلام من الدين والعقيدة قضية مرفوضة من أساسها، لأنها نبذة لا جذور لها في المجتمع.

ولهذه المقولة نماذج في القرآن الكريم، منها:

1- المنهج التقليدي للآباء والأجداد.

وقد اعتاد المترفون المعاندون من الملائكة، يلبسونها ثوب الدليل والحجة، ويدافعون بها عن الاستبداد والضلال الذين يعيشونه، والباطل الذي يحبونه، في مواجهة المنهج الرباني في الدعوة.

(1) سورة الأنبياء: الآية 107.

(2) سورة الروم: الآية 30.

يقول الله سبحانه وتعالى: "كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ"¹.

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة: "إلا قال مترفوها وهم رؤساؤهم وكبراؤهم إنا وجدنا آباءنا على أمة أى على ملة ودين وإنا على آثارهم مقتدون يعنى: وإنا على منهاجهم وطريقهم مقتدون بفعلهم، نفعل كالذى فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون"².

فالاتباع لديهم ليس هو للدليل الصحيح، أو الحجة القاطعة، أو البرهان المبين، ولكنه لطريق الماض السابقين وإن كانوا على الضلال المبين.

"قَالَ أُولُو جِنَّتِكُمْ يَأْهَدِي بِنَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ."

ومن النماذج على هذه الأساليب في التفكير ما واجه المكذبون هودا عليه السلام مما حكاه الله تعالى عنهم: "إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُتَعَدِّينَ"³.

هذا الاتجاه منهم إنما هو اعتماد على مجرد العقلية، يلبسون ثوب الحجة والبرهان أمام العامة من الناس.

وكذلك نجد هذه القضية في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام: "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِيُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا حَافِيِينَ عَلَيْهَا"⁴.

وقال عروجل: "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ مِنْهَا عَافِيِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"⁵.

ولقد اعترفوا بأن هذه الآلهة المزعومة المصنوعة من عندهم لا قدرة ولا وسعة لهم ولا نفع لعابديها، و بالتالى فإن دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام في زعمهم مادامت مخالفة للمنهج الموروث عن الآباء فهي جديرة بأن توصف بالضلال، مهما تضمنت الدلائل.

(1) سورة الزخرف: الآية 23.

(2) تفسير الطبرى 61/25.

(3) سورة الشعراء: الآية 137-138.

(4) سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية 52، 53.

(5) سورة الشعراء: الآية 49-50.

وأعاد هذه الشبهة فرعون في مواجهة دعوة سيدنا موسى عليه السلام ضمن الحاجة التي حكاها كتاب الله سبحانه وتعالى: "قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى." ¹

قال ابن كثير: "أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخيره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى الذى لم يعبدوا الله، أى لما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره" ².

وفي هذا المقام يظهر فرعون التثبيت بالشرك بالله وينكر عن توحيده بل يخاصم بما جاء به سيدنا موسى عليه السلام.

ولقد انتهج الملأ من قريش بما جاء به سيدنا رسول الله ﷺ في الاحتجاج عن آباءهم من أفكار فاسدة، ودين باطل. كما أشار إليه سبحانه وتعالى في كتابه: "وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوكَانَ الشَّيْطَانُ يَذْعُوبُهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ." ³

"وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوكَانَ آتَابُهُمْ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ." ⁴

وقال عز وجل: "بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ." ⁵

وقولهم وجدنا آباءنا على أمة أى على دين وطريقة. ⁶

وهم يصرون على ما هم عليه من الدين الباطل هو تقليد آباءهم وأجدادهم في دينهم وطريقتهم وإن كانوا على جهل.

(1) سورة طه: الآية 49-51.

(2) تفسير ابن كثير 3/155، وينظر: تفسير الطبرى 16/173.

(3) سورة لقمان عليه السلام: الآية 21.

(4) سورة البقرة: الآية 170.

(5) سورة الزخرف 22.

(6) التسهيل لعلوم التنزيل 4/27.

يقول الله عزوجل عن جهالة المتعصبين على دين الآباء: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ".¹

يقول ابن كثير: أى إذا دعوا إلى الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرق والمساالك.²

هذا كان معيار عقولهم، ومقياس الهدى والضلال في تصورهم، وهو النهج الموروث من الآباء والأجداد، ومهما دلت عليه الدلائل، وساندته البراهين والحجج، وشهدت له بأنه الحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزىل من رب العالمين.

والله أشار سبحانه وتعالى: "قَالَ أُولَئِكَ جُنُودُكُمْ بِأَعْدَى يَمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ".³

2 - الاستغراب للملأ من الدعوة وادعائهم على أنها لم تسمع بها من قبل:

ومن قامو بالتصريح من قوم سيدنا نوح عليه السلام كما يشير إليه القرآن الكريم:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ".⁴

والمراد بقولهم ما سمعنا بهذا أى بمثل دعوته.⁵ عليه السلام.

وقد زعم قوم سيدنا نوح عليه السلام أن الدعوة عندهم شئ غريب، لاعلاقة لها بأبائهم ولا أجدادهم ونتيجة ما حصل أن كل ما جاء به سيدنا عليه السلام باطل وضلال.

وقام فرعون ومن معه من الملأ بنفس الشبهة والأسلوب كما ذكر الله سبحانه وتعالى: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ".⁶

(1) سورة المائدة: الآية 104.

(2) تفسير ابن كثير 2/108.

(3) سورة الزخرف: الآية 24.

(4) سورة المؤمنون: الآية 24.

(5) تفسير القرطبي 12/80.

(6) سورة القصص: الآية 36.

قال ابن كثير: "يعنون عبادة الله وحده لا شريك له، يقولون: مارأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى".¹

بينت الآيات أن سيدنا موسى عليه السلام جاءهم بالبراهين الواضحة، فلم يكن للمعاندن من دليل يعارضون به عن الحق، ويهددون الناس عن العلاقة والاستماع والاستجابة له عليه السلام.

هذا ما كان يقصد فرعون أن يوهم به من حوله ويغالطهم به لما دعاه سيدنا موسى عليه السلام في بداية الدعوة، و أشار عزوجل إلى مدار بينهما من النقاش: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُتُم مُّقِينِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ".²

فإن مما قصده فرعون بالاستفهام هنا إظهار التعجب والاستغراب الشديد من مقالة موسى عليه السلام ألا تستمعون: أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أ، لكم إله غيري.³

ونجد مثل هذا الاستغراب والتعجب في ملأ قريش حين يدعوهم النبي ﷺ إلى الوحدة كما قال تعالى عنهم: "أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ".⁴

ومسئلة التعجب ليس ببعيد من هؤلاء لأنهم تعودوا مع الشرك والاستبداد وتعدد الآلهة وإشراكها مع الله في التوحيد والعبادة.

وكما تعجبوا من قضية التوحيد، فقد تعجبوا كذلك من قضية اليوم الآخرة وما يتضمنه من البعث والجزاء، وأظهروا التعجب الشديد من هذه العقيدة التي جاءهم بها رسول الله ﷺ بما يتلوه عليهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويذكهم من وحي رب العالمين.

وفي ذلك يقول الله سبحانه: "انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا. وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا".⁵ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ¹

(1) تفسير ابن كثير 389/3.

(2) سورة الشعراء الآية 23-25.

(3) تفسير ابن كثير 333/3.

(4) سورة ص: الآية 4

(5) سورة الإسراء: الآية 48-49.

اقتباساً مما فهمنا من الآيات، أن احتجاجهم واستدلّاهم واعتمادهم على الفكر الباطل وتقليدهم الأعمى للآباء واستغرابهم من النور والهدى الربانية، أمر يدل على الجهالة والتعصب والتعنّت والعناد، كما نجد اليوم أكثر من الملأ المستبدين من ذوى الشهادات العالية والسياسات الخادعة لعامة الناس يقولون بلسان الحال لدينا الشهادة من الدول النامية، ولدينا السياسة ولدينا المال، ولدينا القوة بجميع الجوانب، والدعاة علاقتهم فقط بدائرة محدودة جغرافيتها من المسجد إلى المدرسة، أو من المدرسة إلى الدعوة فقط، مع أن الحقيقة تنكر بما قالوا فالتاريخ القرآني يطلعنا على أن المكذّبين من الملأ بالدعوة إلى الله ينكرون غاية الإنكار ويقومون بالتعجب والاستغراب من تلك العقيدة التي أثبتّها القرآن الكريم ويؤسسون استغرابهم وتعجبهم على تحول أجسامهم بعد الموت إلى تراب ورفات، وعظام بالية، فكيف تعود أجسامهم بعد ذلك إلى الوضع الذي كانت عليه.

وكانوا قبل أمس القريب بذلك ينكرون قدرة الله تبارك وتعالى حين يجعلون البعث قضية مستبعدة مستغربة، وأمراً مستحيلاً عجيباً في الأعين والأذهان، فحين نقارن القضايا القديمة والحديثة نجد قضية اليوم أصعب وأشد من أمس على الدعاة أن يعرف ويعلن ما يقتضى حال الأمة ويعالج بعد تفحص المرض وتدقيقه كالطبيب الخاذاق.

المبحث الثاني: تشكيكات الملأ حول الأنبياء والرسل عليهم السلام

من الممكن أن تنقسم هذه الشبهات والتشكيكات إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة الأحوال التي مرت عليه صلى الله عليه وسلم

القسم الثاني: التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة استحقاقه لرسالة الدعوة وجدارته بالاتباع.

القسم الثالث: التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة إخلاصه وعلمه وعمله

القسم الرابع: التشكيك في الرسول عليه السلام من جهة أسلوبه ومنهجه في الحياة وتأثيره في الفرد والمجتمع.

القسم الأول: التشكيك في الرسول عليه السلام بطريق الاتهام

من جهة الأحوال التي مرت عليه ﷺ

وهي مشتملة على الشبهات الأربعة التالية:

الأولى: اتهام الرسول عليه السلام بالكذب.

الثانية: اتهام الرسول عليه السلام بالشعر.

الثالثة: اتهام الرسول عليه السلام بالكهانة.

الرابعة: اتهام الرسول عليه السلام بالسحر.

الشبهة الأولى: اتهام الرسول عليه الصلاة والسلام بالإفك والكذب:

من البدييات اختص الله الأنبياء وعصمهم عن الذنوب والمعاصي، وهم الذين تحلوا بالمكارم والفضائل، إلا أن الأعداء سلطوا ألسنتهم على المصطفين الأخيار بالسوء والفحشاء، فما تركوا نبيا من أنبياء الله إلا كذبوه، بل وساموه سوء العذاب، أو نالوه بألسنتهم بقبائح الصفات، فما نجا من سوء أقوالهم وسلوكهم إلا القليل من الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى: "لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ".¹

اتهم الرسل عليهم السلام جميعا بهذه التهمة الغاشمة، وأثيرت حولهم هذه الشبهة.

فهذا نبي الله سيدنا نوح عليه السلام يخاطبه الملأ بما قصه القرآن الكريم: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِهِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ".²

وكذلك قام الملأ من قوم سيدنا هود عليه السلام بهذا العمل السافه:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكََاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".¹

(1) سورة المائدة: الآية 70

(2) سورة هود عليه السلام: الآية 27.

وفي ذكر سيدنا صالح عليه السلام: "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ². ويقول: "أَوَلَيْيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ³."

واتهم أيضا سيدنا شعيب عليه السلام بأنه كاذب: "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ⁴."

ومن جملة اتهامات فرعون وملئه لكليم الله موسى عليه السلام:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ⁵."

وكذلك حكى القرآن الكريم من قول فرعون عن موسى عليه السلام:

"فَأُطِّلِعَ إِلَى آلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا⁶."

وتعرض لنا رسولنا ﷺ لذات الاتهام من أكابر المكذبين كما يشير إليه القرآن الكريم:

"وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ⁷."

يتبين من ماسبق من الآيات أن من جملة شبهات المكذبين حول الرسل عليهم السلام الطعن في صحة نبوتهم، والتشكيك في صدق دعواهم بشأن الرسالة واتهامهم بأنهم كاذبون بهذه الدعوى، كما صرح بذلك أيضا بعض المكذبين في مواجهة من جاءهم من المرسلين.

وبالتالي فإن هذا الرسل عليهم السلام في نظر المستبدين والمعاندين لا يتلقون الوحي حقيقة عن الله سبحانه، وأن ما يسمونه وحيا إلهيا هو في الواقع سبحانه زورا منهم وكذبا وبهتاننا بزعم الملاء المكذبين الضالين.

هذا ماسجله القرآن الكريم من قول المكذبين عن نبي الله نوح عليه السلام:

(1) سورة الاعراف: الآية 66

(2) سورة الشعراء: الآية 154.

(3) سورة القمر: الآية 52.

(4) سورة الشعراء: الآية 185-186.

(5) سورة غافر: الآية 23-14.

(6) سورة غافر: الآية 37.

(7) سورة: ص: الآية 4.

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرَمُونَ".¹

وعن سيدنا هود عليه السلام: "إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ".²

وعن ما قبل عن سيدنا النبي ﷺ من الافتراء والاعتمادات كما نقلها القرآن الكريم:

يقول تعالى: "أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ".³

وذكر عز وجل عن إفرائهم: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ".⁴

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"...⁵

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".⁶

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".⁷

"بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ"...⁸

هذا التكرار في الآيات القرآنية المباركة تدل على أن الشبهة متكررة من أولئك المكذبين، ومتداولون بينهم بشكل دائم.

والملأ المكذبون في هذا الاتهام يحكمون على الرسل عليهم السلام بأنهم مفترون لما جاءوا به من الوحي الإلهي، اختلقوه وافتعلوه من عند أنفسهم ثم نسبوه بعد ذلك، وأسندوه إلى الله تبارك وتعالى افتراء منهم.

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 35.

(2) سورة المؤمنون: الآية 38.

(3) سورة الطور: الآية 33.

(4) سورة السجدة: الآية 3.

(5) سورة الأحقاف: الآية 8.

(6) سورة هود عليه السلام: الآية 13.

(7) سورة يونس عليه السلام: الآية 38.

(8) سورة الأنبياء عليهم السلام الآية 5.

وقد اتهم الرسول ﷺ إضافة إلى ذلك بأن له في هذا الافتراء بزعمهم أعوانا يساعدونه ويساندونه في إبراز الأساطير المختلفة في ثوب الوحي الرباني كما وضع القرآن الكريم:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا".¹

قال ابن جرير: وأعانه عليه قوم آخرون يقول: وأعانه نَحْنُ على هذا الإفك الذي افتراه يهود.²

وحتى يكمل عقد الشبهة هنا، وتكتمل الصورة في الأذهان عن افتراءه ﷺ في زعمهم وتقديم اليهود له، يبينون كيفية هذه الإعانة، يقول تعالى عن حالهم:

"وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا".³

أكدوا على أن النبي ﷺ لما كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فإنه يطلب كتابة هذه الأساطير في زعمهم ممن يعينونه، ثم يقرأ عليه ما جمع وكتب في أوقات مختلفة صباحاً ومساءً، في خفية عن أعين الناس، ليلقيها بعد ذلك بتعبيره على أنها وحي من الله سبحانه.

وتستمر المحاولات الإيمانية للعامة بأن المورد الذي يتلقى عنه ﷺ ليس هو الوحي الرباني، وإنما هو مورد أرضي ومصدر إنساني يتلقى عنه ويتعلم منهما أريد.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِّتَوْنٍ.

وقال سبحانه وتعالى: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...".⁴

ومما يجدر الذكر ويعتينا هنا هو ادعاء هؤلاء المكذبين المجرمين بأن الرسول ﷺ إنما يعلمه ما يأتي به من القرآن الكريم بشر، كما صرحت الآية الكريمة في تأصيل شبهة الكذب على الرسل عليهم السلام أمام العامة في كل فرصة بكل وسيلة.

(1) سورة الفرقان: الآية 4-5.

(2) تفسير الطبري 18/1818.

(3) سورة الفرقان: الآية 5.

(4) سورة النحل: الآية 103.

ومن ذلك طلب الآيات واستعجال العذاب، فهم يقصدون من ذلك ضمن مقاصدهم اتساع دائرة الشبهات التي تشكك في صدق الرسل عليهم السلام، وإظهارهم بمظهر الأدعياء الذين يفتقدون الدليل والبينة على أحقية ما جاؤوا به واعتمدوا عليه.

نذكر بعضاً من الأمثلة القرآنية الكريمة على ماورد في قصة سيدنا نوح عليه السلام:

"قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."¹

ونجد في قصة سيدنا هود عليه السلام: "قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."²

وفي قصة سيدنا صالح عليه السلام: "مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."³

ومن قول الملأ المكذبين في قصة سيدنا شعيب عليه السلام: "فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."⁴

وفي قصة سيدنا موسى الكليم عليه السلام: "قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."⁵

ومن قول المخرمين من الملأ لرسول الله ﷺ: "لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."⁶

"وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ."⁷

بل تجاوز كفار قريش وأنكروا البعث واستعبدوه أرادوا أن يؤكدوا كذب نبي الله ﷺ بزعمهم الباطل في هذه القضية بأن السابقين وعدوا بها مرارا، ولم يتحقق الوعد، ومن ثم فهي أكاذيب متكررة ومزورة: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ."¹

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 32.

(2) سورة الأعراف: الأعراف 70.

(3) سورة الشعراء: الآية 154.

(4) سورة الشعراء: الآية 187.

(5) سورة الأعراف: الآية 106.

(6) سورة الحجر: الآية 7.

(7) سورة يونس عليه السلام: الآية 48.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الله سبحانه وتعالى: "بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ."²

هذه المحاولات كلها في تأكيد اسناد الكذب إلى الرسل عليهم السلام ما فعله فرعون حين أراد بأسلوب جاهل ماكر أن يظهر نبي الله موسى عليه السلام أمام الناس في صورة الكاذب المفترى، قال الله سبحانه:

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى..."³

والهدف المعلن لهذا البناء أن يتمكن فرعون بزعمه من بلوغ أسباب السموات أى طريقها وأبوابها وما يودى إليها.⁴

إن فرعون يريد إيهام العامة بأنه في مشروعه لبناء الصرح بصدده إيجاد دليل مادي يمكنه من كشف خبايا موسى عليه السلام، وتحلية حاله للناس، كما يعلم من هدفه النهائي أنه كان عازماً وقرر في الأذهان أن موسى عليه السلام كاذب فيما يدعيه، وأن لا حقيقة لما جاء به، وسيثبت ذلك إذا تم البناء، خصوصاً وأن فرعون قد قدم لما سيحكم به على موسى عليه السلام، بل قد حكم فعلاً وإني لأظنه كاذباً. وكان يعتقد أنه عليه السلام مرسل من ربه ويعرف الحقائق التي جاء بها سيدنا موسى عليه السلام، فأضله الله على علم وختم على قلبه وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وحاول أن يبقى ملكه وقصوره بعد ما قال أناراكم الأعلى، فلم يبقى الملوك ولا القصور، ولا عاد وثمود.

الشبهة الثانية: اتهام الرسول عليه السلام بالشاعر

هذه الصفات التي وصفه ﷺ بما كفار قريش لما جاءهم بالحق ولم يستطيعوا له رد فجنحوا إلى هذه التهم والأوصاف حتى يصدوا الناس عنه، إذ إنه لا يجلس إليه أحد فيعرض عليه الإسلام ويقرأ القرآن على مسامعه

(1) سورة النمل: الآية 67-68.

(2) سورة المؤمنون: الآية 81-82.

(3) سورة القصص: الآية 38.

(4) تفسير النسفي 251/3.

إلا أخذ بلب جليسه وأسر قلبه فأراد المعاندون بإثارة هذه الشبهة أن يصدوا الناس عن الجلوس إليه وسماعه خاصة في المواسم التي يجتمع فيها الناس من أقطار الأرض، وكان من ضمن هذه الشبهات التي أثرت حول رسول الله ﷺ القول بأنه فيما جاء به شاعر، وأن ما يأتي به من القرآن الكريم المتميز بالبلاغة في النظم والفصاحة في الأسلوب ليس بعيد في حقيقته عن الشعر الذي ينطلق به أمثاله من الشعراء.

وذلك ما ذكره الله سبحانه وتعالى عن طغاة المشركين وتعتديهم على سيد الخلق ﷺ:

"يقول الله تعالى: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ¹."

وما علمناه الشعر وما ينبغي له فيه أربع مسائل:

أخبر تعالى عن حال نبيه - ﷺ -، ورد قول من قال من الكفار إنه شاعر، وإن القرآن شعر، بقوله: وما علمناه الشعر وما ينبغي له وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا يزنه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه.

وقال الله متوعداً إياهم: "بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ²."

وكرر القرآن الكريم نفس الحالة:

"أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ³."

ولقد كانوا يجمعون أحيانا فيما يثيرونه حوله عليه السلام بين الشبهتين: الشعر والجنون ن كما قال ربنا عز وجل:

"وَيَقُولُونَ أَأَنْتَا لَتَأْتِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ⁴."

أى نحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ⁵.

(1) سورة يس: الآية 70.

(2) سورة الأنبياء: الآية 5.

(3) سورة الطور: الآية 30.

(4) الصافات: الآية 30.

(5) تفسيران كثير 6/4.

وقد دفع الله جل وعلا هذه الشبهة عن نبيه ﷺ فقال تبارك وتعالى: "وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ."¹

إن هو إلا ذكر وقرآن مبين هذا الذي يتلوه عليكم إلا ذكر وقرآن مبين، ومما يشير إلى هذه المحاولات والمداولات من الشبهات بينهم حول سيدنا النبي صلى الله عليه وآله ويقول الباحث كما قال القرآن الكريم يارسول الله: أليس الله بكاف عبده، ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك وإن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم.

الشبهة الثالثة: اتهام الرسول عليه السلام بالكهانة

أشار القرآن الكريم إلى أن هذه الشبهة النائرة حول شأن رسول الله ﷺ ضمن الشبهات التي أشاعها عنه كفار قريش.

قال الله تبارك وتعالى:

"فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ. وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ."²

"وقال عز وجل مخاطبا نبيه ﷺ: "فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ."³

هذه الآية الكريمة تشير إلى أن المشركين كانوا قد أشاعوا عنه عليه الصلاة والسلام أنه فيما جاء به كاهن⁴ من الكهان يتلقى عن الجن، لارسول يتلقى عن الله سبحانه، وما جاء به من القرآن إن هو إلا تأليف من مثل أقوال الكهان وافتراءهم.

(1) سورة الحاقة: الآية 41.

(2) سورة الحاقة: الآية 38-43.

(3) سورة الطور: الآية 98.

(4) الكاهن: الذي يتعاطى الخير عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعى معرفة الأسرار... وقد كان في العرب كهنة يزعم بعضهم أن له تابعا من الجن وربما يلقي إليه الأخبار. كما كانوا يروجون أقوالهم الباطلة بأسجاع تروق السامعين فيستميلون بها القلوب ويستصغون إليها الأسماع.

ينظر لسان العرب 3950/5، النهاية 214/4-215.

يعلم من هذا أن سبب إثارة هذه الشبهة أن الكبراء المكذبين من الملأ يلاحظون ما في القرآن يتلوه رسول الله ﷺ من أسلوب معجز لا يروونه في كلام البشر، فكان لابد لهم من علة يؤسسون عليها موقف التكذيب، فوجدوا في وصمه الله بأنه كاهن مررا معقولا — في نظرهم أمام عامة الناس بياء على ماهو متداول لديهم من أن الكاهن له علاقة بالجن يأتون على لسانه بالكلام المعجب والمستغرب.

قال سيد قطب: ولقد كان مما تقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله ﷺ قولهم إنه شاعر، وإنه كاهن، متأثرين في هذا بشبهة سطحية منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر، وأن الشاعر في وهمهم له رثى¹ من الجن يأتيه بالقول الفائق، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع، وهي شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة، وطبيعة الشعر أو الكهانة.²

وهكذا استمرت الأدوار كما رأينا نحن في العصر الحاضر في كل وقت وفي كل مكان.

الشبهة الرابعة: اتهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالسحر

وجدنا هذا الاتهام في تاريخ الأنبياء عليهم السلام مكررا حيث تشير الآيات الكريمة في أكثر من مواضع: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ."³

ونجد هذه الشبهة في قصة سيدنا موسى، ورسولنا محمد ﷺ.

ويقول الله سبحانه وتعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ."⁴

فالآية الكريمة تبين أن نبي الله موسى عليه السلام جاء بما يؤيد نبوته ويؤكد رسالته، من الآية البينة، والمعجزة القاطعة، ومع ذلك فقد سارع فرعون ومن ماله إلى مجادته بالاتهام المباشر له بأنه ساحر كذاب.

(1) قال الأنباري: به رأى من الجن بوزن رعى، وهو الذى يعتاد الإنسان من الجن. لسان العرب 1541/3.

(2) في ظلال القرآن 3686/6.

(3) سورة الذاريات: الآية 52.

(4) سورة غافر: الآية 23-24.

وفي آية أخرى نلاحظ تحرك فرعون ليوسع دائرة المتأثرين بهذه الشبهة فيطرحها أمام الكبراء والقادة من حوله - في ثوب المستشير لهم الراغب في رأيهم - ومقصده التأثير فيهم ليشاركوه رأيه في موسى عليه السلام: "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ".¹

وزعمهم الباطل أن موسى ساحر عليم، وما جاء به من الخوارق في الظاهر إنما هو في الواقع من قبيل السحر، لامن قبيل المعجزات.

"قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ".²

جاء بالسحر ووصل إلى الغاية والنهية من الخوارق وليس من المعجزات، بل واجهوا سيدنا موسى بالكذب وقالوا: "قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى".³

ومن هؤلاء كان جموع السحرة - قبل أن يؤمنوا - والذين استعان بهم فرعون للقضاء على دعوة الحق، إذ أعادوا ما استقر في أذهانهم من الشبهة، وأسروا بها النجوى كما أشار إليه القرآن الكريم:

"فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى".⁴

وعندما أبده الله بنصره وأظهره على يد موسى عليه السلام عليه السلام، وآمن السحرة لما تيقنوا أن ما جاء به عليه السلام ليس هو من قبيل ما يفعلونه من السحر، وإنما هو معجزة خارقة لا يقدر عليها إلا رب العالمين.

ويقول ربنا عزوعلا: "قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُفُّمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ...".⁵

وهكذا فكلما جاء موسى عليه السلام بآية معجزة جعل المكابرون من هذه الآية وقودا يزيدون بها شبهتهم اشتعالا وإثارة، فيجعلون الآية الخارقة صناعة، وأنه ما جاء بها إلا ليزداد لهم سحرا.

(1) سورة الشعراء: الآية 34-35.

(2) سورة الأعراف: الآية 109.

(3) سورة طه: الآية 57.

(4) السورة السابقة: 62-63.

(5) سورة طه: الآية 71.

يقول الله تعالى: "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ..."¹

أى لتسحر بتلك الآية أعيننا وتشبه علينا فما نحن لك بمؤمنين أى بمصدقين لك ومؤمنين بنبوتك أصلاً.²

ومن هؤلاء المضللين الكثيرين لهذه الشبهة: الوليد بن المغيرة، فقد نزل فيه قول الله عز وجل: "إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ."³

قال ابن كثير: هذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش.⁴

ويعلم من هذا أن شبهتهم بهذه الصورة تخيف من يتلقاها من الجموع الجاهلة وتزرع الخوف والفرع في نفوسهم من مجرد الاقتراب منه أو مجالسته عليه الصلاة والسلام، حتى لا يلحقهم شئ من آثار ما يفعله — في زعم الملأ — المستبدون المعاندين من السحر وما يعملون هم هم بضد سيدنا موسى عليه السلام.

(1) سورة الأعراف: الآية 132.

(2) تفسير روح المعاني 33/9.

(3) سورة المدثر: الآية 18-25.

(4) تفسير ابن كثير 442/4، وينظر تفسير روح المعاني 152/29.

القسم الثاني: الشبهات من قبل الملأ في شخصية الرسول عليه السلام

وهذه الشبهات تشتمل على الترتيب التالي:

الأولى: الزعم الباطل، بكون الرسول بشرا مثلهم

الثانية: الاتهام بالجنون على الرسول ﷺ.

الثالثة: الاتهام بالسحر والجنون على الرسول الله ﷺ.

الرابعة: الاتهام بالسفه والضلال على الرسول ﷺ.

الخامسة: كيف يكون الرسول فقيرا،

السادسة: أتباعهم ليسوا كبراء وأصحاب الجاه والمنصب بل فقراء ومساكين.

الشبهة الأولى: بزعمهم الباطل، كيف يمكن أن يكون الرسول بشرا مثلهم:

ومن المخادعة والمغالطة المكررة من الملأ المعاندين المستكبرين، أنهم يصرون بالتكذيب ويدعو الناس إلى عدم الاستجابة لدعوة الرسل عليهم السلام مما جاؤوا به، حيث أنهم لا يتأملون في الحجة والبرهان مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما ينظرون إلى الشخص والصورة، والهيئة والشكل ن أملا منهم في التوصل إلى شبهة تجدد عند الجمهور القبول، وتزرع في نفوسهم النفور من اتباع الرسول، فوجدوا بغيتهم هذه حسب تصورهم في بشرية الرسل عليهم السلام والصلاة.

المهم أن مضمون هذه الشبهة أن الرسول عليه السلام بشر، يحمل نفس الصفات البشرية، فهو يأكل ويشرب، ويعمل ويكدح، ويسعى ويتكسب ويجهد وينصب، ويحتاج كاحتياج غيره من البشر، ومن كان حاله كذلك فليس مستحقا لمرتبة الرسالة، وليس مؤهلا لمصب النبوة.

ولو كان ما جاء به الرسول ﷺ حقا في إرادة الله إرسال الرسل حقا لكان الرسول في زعمهم ملكا من الملائكة يختلف عن طبيعة البشر وصفاتهم واحتياجاتهم، ويتميز عنهم بخصائصه الملائكية التي يؤهله للرسالة والنبوة.

هذه المخالطة المشوهة والمشككة، والمقولة الساذجة، والتي تعتمد على المغالطة أثارها المكذبون طويلا في مواجهة الرسل عليهم السلام كما ينطبق بذلك قول رب العالمين:

"أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ."¹

ويقول الله تعالى مكرراً: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَعْدِيَّهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي إِلَهُ شَكٍّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا..."²

فقد احتج الملأ المكذبون في تاريخ الرسل والأنبياء على كفرهم وتكذيبهم بأن الرسل عليهم السلام بشر وليسوا من الملائكة، وهم ينكرون أن تكون الرسالة، لبشر، ويستبعدون أن يدلهم على طريق الهداية واحد من الجنس البشري مماثلهم في الأكل والشرب وسائر صفات البشر.

هذه الشبهة المضللة، والتشكيك المضل، كانت في مقدمة الشبهات التي أثارها أكابر المجرمين من قوم نوح عليه السلام في خطابهم الذي واجهوا به نوحاً عليه السلام كما في قول الله سبحانه وتعالى:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا..."³

كما كانت في مقدمة الشبهات التي أثاروها أمام غيرهم من عامة الناس: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ."⁴

فسيدنا نوح عليهم السلام لا يختلف عنهم في الجنس، وهو مثلهم في الخصائص البشرية، والمطالب الحيوية، ومن ثم وهنا تبدأ المغالطة فلا يصح أن يكون رسولا، ولا يستحق أن ينال هذه المرتبة، مرتبة النبوة أن يشبوا أن نوحاً عليه السلام كاذب في ادعائه، وأ، الله لم يرسل رسولا أصلا.

ثم يؤكدون شبهتهم من طريق آخر إذ يزعمون أنه لو كانت هناك إرادة الله تعالى في إرسال رسول إلى البشر لكان هذا الرسول من الملائكة لآمن البشر، لأن الملائكة أعظم مكانة وأكبر قدراً، فهم المستحقون لمنصب

(1) سورة التغابن: الآية 5-6.

(2) سورة إبراهيم عليه السلام: الآية 9-10.

(3) سورة هود عليه السلم: الآية 27.

(4) سورة المؤمنون: الآية 24.

النبوة، ومرتبة الرسالة، ولما كان هذا المدعى للرسالة - في زعمهم - ليس من هذا الجنس الملائكي كان ذلك دليلاً على كذبه فيما جاء به.

ويثير الملأ من عاد الشبهة ذاتها عن نبي الله هود عليه السلام كما في قول الله عز وجل: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ".¹

فقوم قرروا المماثلة في البشرية بوصف هود عليه السلام بأنه يأكل مثلهم ويشرب مما تشربون وبالنسبة فهو محتاج كاتياهم، ولذا فلا يرقى - في زعمهم - إلى أن يكون في منصب النبوة والرسالة، والمغبون عندهم من يصدق ادعائه ويسير على نهجه، وقد قطعوا بكذبه مادام بشراً مثلهم عليه السلام.

ويقول الله تعالى عن حال ثمود مع سيدنا صالح عليه السلام:

"مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ".²

أى إنك بشر مثلنا فكيف تكون نبياً.³

ولذا صرحوا البعد وأحيوا استبعاد التفكير في اتباعه كما قال سبحانه وتعالى:

"فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُغْرٍ".⁴

ويكرر الملأ المكذبون من عاد وثمود مقولة السابقين بأن الرسل لا بد أن يكونوا من جنس الملائكة كما قال سبحانه وتعالى عنهم: "جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ".⁵

(1) سورة المؤمنون: الآية 33-34،

(2) سورة الشعراء: الآية 154.

(3) التفسير الكبير 160/24.

(4) سورة القمر: الآية 24.

(5) سورة فصلت: الآية 14.

يقول الرازي: "يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل وقالوا: الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسل إلى البشر لعل رسله من زمرة الملائكة، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون معناه فإذا أنتم بشر ولستم بملائكة فأنتم لستم برسل، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم".¹

ونجد نفس القضية في قصة سيدنا شعيب عليه السلام كما حكى القرآن الكريم عن مقولة المكذبين:

"قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِينَ الْكَاذِبِينَ".²

وكذلك فرعون المستبد يفعل مثلهم يريد أن يخرج من قلوب المؤمنين موسى وهارون عليهما السلام ويملا قلوبهم بالظلم والقلق والغلو. ويقول عزوعلا: "ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ. إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ. فَقَالُوا أَنْتُمْ يُسْخَرُونَ مِنْكُمْ".³

وقصة سيد المرسلين الذين ورد خیرهم في سورة يس تتكرر شبهة المكذبين: "قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ".⁴

وكبار قريش يقتدون خطاهم حين يتناجون مع بعض في أمره ﷺ، ويتناجون بالاثم ومعصية الرسول وبعدم الإيمان به عليه الصلاة والسلام وإصرارهم على كونه بشرا، كما قال تعالى:

"لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ".⁵ فانكروا على أن تكون الرسالة في البشر، وأظهروا لذلك عجبهم واستغرابهم، كما ينطق القرآن الكريم عنهم: "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ..."⁶

"بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ".¹

(1) التفسير الكبير 111/27.

(2) سورة الشعراء: الآية 185-186.

(3) سورة: سورة المؤمنون: 47-47.

(4) سورة يس: الآية 15.

(5) سورة الأنبياء عليهم السلام: الآية 3.

(6) سورة ص: الآية 4.

ويشير إلى ذلك قول الله عزوجل: "أَكَاَنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا..."²

وقد استمرت العادة على الإنكار بالرسالة وكون النبي ﷺ بشرا. يقول سبحانه وتعالى:

"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا..."³

يقول الألوسي: "والمراد أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الإنكار، لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه"⁴

نعم إنهم ينكرون أن تكون النبوة في بشر يحمل الخصائص البشرية، ويشارك غيره من البشر حاجاتهم المختلفة، ويتقلب مثلهم في أحوال الحياة من الصحة والمرض والفقر والغنى ويذهب ويحيى مثلهم ويعيش معهم ويتحول في الأسواق مثلهم.

قال الله عزوجل: "وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ..."⁵

أى أى شئ وأى سبب حصل لهذا الزاعم أنه رسول حال كونه أنه يأكل الطعام كما نأكل ويمشى في الأسواق لا بتغاء الأرزاق كما نفعله⁶

وكان في تخيلهم وتصورهم أمر عجيب أن يكون الرسول بشرا وفي نفس الوقت يأكل ويشرب ويطلب المعاش ويحتاج إلى التجول والتكسب كما هي العادة البشرية مستحيل عندهم.

ومن متطلباتهم أن ينزل عليهم ملك على الأقل يؤيد كلام رسول الله ﷺ ويؤكد ما يدعوا إليه ويصدقها، كما قال الله تعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِّلَ الْأَمْرُ لَكُمْ لَا يَنْظُرُونَ"⁷

(1) سورة ق: الآية 2.

(2) سورة يونس عليه السلام: الآية 2.

(3) سورة الإسراء: الآية 94.

(4) تفسير روح المعاني 166/23.

(5) سورة الفرقان: الآية 7.

(6) تفسير روح المعاني 237/18.

(7) سورة الأنعام: الآية 8.

"وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا".¹

"وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"²

وقال سبحانه وتعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا..."³

والمعنى هلا أنزل الله علينا ملائكة فتخبرنا أن محمدًا ﷺ محق فيما يقول وأن ما جاء به صدق أو نرى ربنا فيخبر بذلك⁴

وهم يريدون أن يكون للنبي ميزات عن البشر ببعض الخصائص، يطلبون أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم كنز يصرف منه على دعوته، وينفق منه على نفسه، كما يطلبون أن يكون له بستان يأكل منه، وكل ذلك حسب شبهاتهم حتى لا يحتاج إلى التجول في الأسواق والتكسب بالتجارة كما يفعل البشر، وغاية مقصدهم أنه لا بد من توفر هذه الأمور، يقول الله سبحانه: "فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ".⁵

وقال تبارك وتعالى: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا..."⁶

قال الألوسي في تفسير الآيات: تنزل عما تقدم، كأنهم قالوا: إن لم توجد المخالفة بيننا وبينه في الأكل والتعيش، فهلا يكون معه من يخالف فيهما يكون ردها له في الإنذار، فإن لم توجد فهلا يخالفنا في أحدهما وهو طلب المعاش بأن يلقي إليه من السماء نز يستظهر به ويرتفع احتياجه إلى التعيش باكلياً، فإن لم يوجد فلا أقل من رفع الاحتياج في الجملة بإتيان بستان يتعيش بريعه⁷

- (1) سورة الفرقان: الآية 7.
- (2) سورة الحجر: الآية 6-7.
- (3) سورة الفرقان: الآية 21.
- (4) تفسير الطبري 1/19.
- (5) سورة هود عليه السلام: 12.
- (6) سورة الفرقان: الآية 7-8.
- (7) تفسير روح المعاني 238/18.

وقد اتسع فرعون دائرة الشبهة حول سيدنا موسى عليه السلام و رسالته. إن سيدنا موسى عليه السلام لا يستحق مرتبة الرسالة في نظر فرعون لكونه بشرا، ويحكى القرآن الكريم عن فرعون: "قُلْ لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَنَا الْمَلِكُ" ¹

قال ابن كثير: "أى يكتفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه" ²

المهم أن فرعون لا يريد ان يصل إلى الحقيقة، وإنما كان قصده كغيره من الطغاة هو أن ينجح في إحكام طوق الشبهات حول سيدنا موسى عليه السلام إطفاء نورالحق في دعوته وتغيير الناس من الالتفات حوله أو الاستجابة له، لو كان رسولا لاحتفت به الملائكة يؤيدون فيما يقول، ويؤكدون صدقه، ويشهدون أنه رسول من عند الله حقا.

الشبهة الثانية: الاتهام على الرسول عليه السلام بالجن

هذه الشبهة والصفات التي وصفه بها الملأ من قريش لما جاءهم بالحق والهدى ولم يستطيعوا له رد فجنحوا إلى التكذيب وهذه التهم والأوصاف الرديئة حتى يصدوا الناس عنه، إذ إنه لا يجلس إليه أحد فيعرض عليه الإسلام ويقرأ القرآن على مسامحه إلا أخذ بلب جليسه وأسر قلبه فأراد المعاندون بإثارة هذه الشبهة أن يصدوا الناس عن الجلوس إليه وسماعه، إذ قالوا ضمن مقالاتهم ما ذكر القرآن الكريم:

"إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتْرِصُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ" ³.

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ" ⁴.

وهي إحدى مبرراتهم التي أسسوا عليها تكذيبهم، فقد اتهموا نبي الله نوحا عليه السلام بأنه مجنون، قد فقد عقله، وأصابه الخبل، فدفعه إلى ما يقوم به من التصرفات، وما يقوله من العبارات، وما يأتي به من غرائب

(1) سورة الزخرف: الآية 53.

(2) تفسير ابن كثير 130/4.

(3) سورة المؤمنون: الآية 25.

(4) سورة القمر: الآية 9.

الأشياء، ومن ثم فهو ليس بحري أن يتبع، أو أن يجارى فيما يقوله ويدعو إليه، وليس جديراً بهذه المرتبة، إذ يتنافى ماهو عليه من حال الجنون مع منصب النبوة ومنزلة الرسالة¹.

قال الرازي: "والجنة الجنون أو الجن، فإن جهال العوام يقولون في الجنون زال عقله بعمل الجن، وهذه

الشبهة من باب الترويج على العوام، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم، فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام: إنه مجنون، ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا"؟²

من هنا تنتقل إلى قصة سيدنا هود عليه السلام لنجد أن المكذبين أثاروا عليه ذات الشبهة ولكن بأسلوب آخر، إذ يجعلون فقدان هود عليه السلام لعقله هو أحد مظاهر العقوبة من الآلهة التي يحاربها بما جاء به من الدعوة إلى الله وحده.

قال الله سبحانه وتعالى: "قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ"³.

قال ابن كثير: "يقولون مانظن إلا أن بعض الآلهة أصابك مجنون وخبل في عقلك بسبب تحريك عن عبادتها وعيبك لها".⁴

وكانو يظنون أنه عليه السلام محتل العقل، فاقد للتفكير السليم، وكل ما يأتي به سيدنا هود عليه السلام لا يصدقه العقل لأجل الجنون.

كذلك أثبتت الشبهة حول سيدنا موسى عليه السلام كم ينطق به القرآم الكريم: "وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ"⁵.

أى إن موسى لا يخلوا إما أن يكون ساحرا وما أتى به شعبية ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنونا لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.¹

(1) موقف الملأ من دعوة الرسل، عبدالرحمن الأنصارى 253.

(2) التفسير الكبير 92/23.

(3) سورة هود عليه السلام: الآية 53-54.

(4) تفسير ابن كثير 449/2.

(5) سورة الذاريات: الآية 38-39.

وهذه المقولة الفرعونية السياسية توهم الناس بأنه رجل فاضل ومنصف يحب الحق ويبحثه، إن فرعون لا يتردد أحيانا في وصف سيدنا موسى عليه السلام بأنه مجنون، وهى شبهة كافية في تنفير من يتقبلها من الناس عن دعوته عليه السلام، إذ كيف يستحق الاتباع من يتصف بالجنون؟ وكيف يصدق بعد ذلك في دعوى الرسالة؟

"قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ".²

قال الآلوسى: "سماه رسولا بطريق الاستهزاء، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا إلى نفسه، وأكد ذلك بالوصف، وفيه إثارة لغضبهم، واستدعاء لإنكارهم رسالته بعد سماع الخير ترفعا بأنفسهم عن أن يكونوا أهلا لأن يرسل إليهم مجنون".³

وحين واجه موسى عليه السلام بالدلائل القاطعة على توحيد الله سبحانه، فخاف فرعون أن يكون من السامعين من تأثر بما سمعه من البينات، وغلبته دلائل الهدى مع نبي الله عليه السلام. فألقى في تلك الحال شبهته متهما موسى عليه السلام بأن به مسا من الجنون وزيادة في استدعاء الإنكار من الملأ حوله لما جاء به موسى عليه السلام، واستشارة غضبهم وأنفتهم، أضاف فرعون الرسول الموصوف بالجنون إليهم:.. إن رسولكم الذى أرسل إليهم لمجنون.

والقرآن الكريم يشير إلى هذا الاتهام من المكذبين حين يرد عليهم في بعض الآيات الكريمة التى يدافع الله عزوجل فيها عن رسوله صلى الله ميرثا له من هذا الاتهام.

قال سبحانه وتعالى: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ".⁴

"قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفَةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ".⁵

"فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ".¹

(1) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدى ص 811.

(2) سورة الشعراء: الآية 27.

(3) تفسير روح المعاني 72/19.

(4) سورة الأعراف: الآية 184.

(5) سورة السباء: الآية 46.

"مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ."²

"وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ."³

هذه الآيات الكريمة التي ترد عليهم شبهتهم تشير إلى أنهم إلى أنهم كانوا يواجهونه ﷺ بهذا الاتهام بشكل متكرر، ويرددونه بين العامة باستمرار. ويصرحون بذلك في وجهه عليه الصلاة والسلام أحيانا كما قال جل وعلا: "وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ"⁴

وهم بهذا التعبير يؤكدون اتصافه ﷺ بالجنون. بل كانوا يتهمون برميهِ ﷺ بهذا الوصف، ويستكبرون فيما بينهم أن يتركوا دينهم وآلهتهم التي يعبدونها من أجل اتباع شخص يحتل العقل، مضطرب التفكير-بزعمهم - كما قال الله تعالى عنهم: "وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ."⁵ ولقد كان هؤلاء الملأ المضللون على يقين بروعة ماجاء به ﷺ من القرآن الكريم، وعلى علم بما فيه من الإعجاز، ولكنهم حين قرروا التكذيب كان لابد من إيجاد مبرر لما يأتي به رسولنا عليه الصلاة والسلام من الكلام العجيب، فكان أن وجدوا في هذا الوصف له ﷺ بالجنون ما يبرر ما يرد على لسانه مما يعجز عنه البشر.

"فَدَّكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ."⁶

وما دام الاتهام منهم له عليه الصلاة والسلام بالجنون في كل مناسبة. يقول سبحانه وتعالى: "وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ."⁷

"ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ."⁸

"أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ."¹

(1) سورة الطور: الآية 2.

(2) سورة القلم: الآية 2.

(3) سورة القلم: الآية 22.

(4) سورة الحجر: الآية 6.

(5) سورة الصافات: الآية 36.

(6) سورة الطور: الآية 29.

(7) سورة القلم: الآية 51.

(8) سورة الدخان: الآية 14.

وأحياناً يأتون بالشبهة بصيغة الاستفهام إشعاراً بترددهم في الوصف المناسب له عليه الصلاة والسلام لإظهار الإنصاف منهم، و الثاني من جهتهم في معرفة الحال الذي عليه ﷺ. فيما يأتي به - في زعمهم - من غريب القول وعجيب الأفعال، ويظهر ذلك فيما يحكى سبحانه وتعالى عنهم:

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ."

"أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ..."²

فهم يقررون أنه عليه الصلاة والسلام فيما جاء به لا يخلوا من حالين، أفترى على الله كذباً، أم به جنة.

"يقول سيد قطب رحمه الله: فما يقول مثل هذا الكلام بزعمهم إلا كاذب يفترى على الله مالم يقله، أو مسسته الجن فهو يهذى أو ينطق بالعجيب الغريب".³

وفي ذلك يقول الله تعالى حكايتهم: "كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنُونَ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ."⁴ وكان هذا الاتهام بالجنون شبهة متكررة للملأ المكذبين في مواجهة الرسل عليهم السلام والدعاة في كل زمان ومكان.

الشبهة الثالثة: الاتهام على الرسول الكريم ﷺ بالسحر

هذه الإثارة والشبهة المضللة على الرسول ﷺ من الملأ معروف أنه مصاب من السحر، أو

هو نتيجة لوضع مضطرب، وعقلية غير متزنة وشخصية غير طبيعية، ومن ثم لا يصدق ولا يطاع من كان على هذا الحال.

لقد أثبتت هذه الشبهة حول نبي الله صالح عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

"قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا..."⁵.

(1) سورة المؤمنون: الآية 70.

(2) سورة السباء: الآية 7-8.

(3) في ظلال القرآن 2895/5.

(4) سورة الذاريات: الآية 52-53.

(5) سورة الشعراء: الآية 153-154.

وحول سيدنا شعيب عليه السلام: "قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُظُنُّكَ لَمِمنَ الْكَاذِبِينَ".¹

قال ابن كثير: "قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين، وروى أبو صالح عن ابن عباس: (من المسحورين) يعنى من المخلوقين.. والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة، أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك".²

ورجحه كذلك أبو حيان فقال: والمسحر الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله، وقيل من السحر، وهو الرقة، أى أنت بشر لا تصلح للرسالة، ويضعف هذا القول قولهم بعد "مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا" إذ تكون هذه الجملة توكيدا لما قبلها، والأصل التأسيس".³

وكذلك واجه فرعون بهذا الاتهام نبي الله موسى عليه السلام لما جاءه بالمعجزات الواضحات كما قال تبارك وتعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْتَأْذِنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا"⁴ أى سحرت فاختل عقلك، ولذلك اختل كلامك وادعيت ما ادعيت.⁵

كما أثار الملأ من قريش هذه الشبهة أيضا حول رسول الله ﷺ كما في قوله سبحانه وتعالى: "نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا"⁶ وقال الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا"⁷

قال أبو حيان: "والظاهر أن مسحورا من السحر، أى خيل عقله السحر".⁸

(1) سورة الشعراء: الآية 185-186.

(2) تفسير ابن كثير 3/343-344.

(3) بنظر تيسير الكريم الرحمن 3/403.

(4) سورة الإسراء: الآية 101.

(5) تفسير روح المعاني 15/184-185.

(6) سورة الإسراء: الآية 47.

(7) سورة الفرقان: الآية 8.

(8) تيسير الكريم الرحمن 3/113.

الشبهة الرابعة: الاتهام على الرسول ﷺ بالسفه والضلال

"ولما جاء الرسل عليهم السلام بالدين القويم المبني على التوحيد في الوقت الجهالة والشرك والفجور، لذا كان منهج الرباني الإلهي مصادما في الواقع للمنهج الجاهلي، والحياة به مخالفة ومتناقضة مع الحياة الجاهلية بشتى مظاهرها وأوضاعها المشوهة بل كانوا يصرحون على-أحيانا-للرسول عليه السلام بأنه يعيش في ضلال والضلال كما في تفسير القرطبي العدول عن طريق الحق والذهاب عنه".¹

والمأمل العادل السوى يتأمل كيف تنعكس الموازين، وتنقلب التصورات والمفاهيم، حين تنعكس الفطرة، فيصبح ما عليه القوم من شرك وفجور وعبادة غير الله تعالى هو الهدى الذى يجب السير عليه، وبالمقابل فإن ما يأتى به الرسول عليه السلام من دين الله سبحانه القائم على توحيده عزوعلا يصبح عند هؤلاء هو الضلال بعينه محل محل الهدى، وهو الشقاء الذى يضيع الناس بسببه، وينحرفون به عن طريق السعادة والخير. وذلك ما أعلنه الملام من قوم نوح عليه السلام حين وصفوا نوحا عليه السلام بأنه ضال، وأن ما جاء به هو الضلال المبين، وجعلوا من هذا الوصف شبهة تهر لهم التكذيب، كما تمنع الناس من الاستجابة لدعوته عليه السلام، إذ كيف يتغنى الخير والهدى ممن يحيا هو نفسه في ضلال.

قال الله سبحانه: "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"²

جاءهم سيدنا نوح عليه السلام ليعلن رسالته من رب العالمين، داعيا إياهم إلى ترك ما هم عليه من عبادة الأصنام، والتوجه بالعبودية إلى الله تعالى وحده دون غيره. والسبب في هذا اتهامهم سيدنا نوح بالضلال والسفاهة.

وقريب من ذلك ما وسم به أكابر عاد الكافرون نبيهم هودا عليه السلام كما عبر في قوله سبحانه:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكََاذِبِينَ"³

نعم كان سيدنا هود عليه السلام في زعم قومه رجل أحق الفكر، خفيف العقل، متمكن في السفه والضلال، بعيد عن التصور الصحيح للحياة السعيدة، وسبب ذلك في تصورهم خروجه عن منهج القوم، ومفارقته لدين

(1) تفسير القرطبي 194/7.

(2) سورة الأعراف: الآية 60

(3) سورة الأعراف: الآية 66

الآباء، ومجيئه بدين من رب العالمين يدعوهم فيه إلى توحيد الله سبحانه، ونبذ ما هم عليه من الأوضاع الجاهلية ومظاهر الشرك والعصيان.

يقول سيد قطب: "وكانما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى، وأن يستنكروهم قلة الهوى، ورأوا فيه سفاهة وحماقة، وتجاوزوا للحد، وسوء تقدير للمقام، فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة والكذب جميعاً في غير نخرج ولا حياء" قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ¹ هكذا جزافاً بلاترو ولا تدبر ولا دليل".²

ويذكر القرآن الكريم مقولة المعاندين ممن رجال قريش في مواجهتهم لرسولنا عليه السلام، وذلك في قوله جل وعلا: "وَإِذَا رَأَوْكَ إِتَّخَذُوكَ إِلاَّ هُزُواً أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً".

إنهم يقولون أن مناهجهم التي تأسس بنياتها على الشرك بالله سبحانه هي الهدى والخير والصلاح، الذي كاد نبينا عليه الصلاة والسلام أن يصرفهم عنها بما جاء به من الدعوة، وبما نقلهم إلى طريق الضلال الناهب عن الحق، الناته عن الصواب.

لكنهم صبروا على آلهتهم، وثبتوا على منهجهم ودينهم ومذهبهم، ولم يمكنوا رسول الله ﷺ من مراده ومقصده.

هكذا يصنع الطغاة المضللون في تنكيس الموازين، وقلب التصورات والمفاهيم، لتأتي النتائج والأحكام بعد ذلك وفق ما يرغبون ويشتنون.

يقول الألوسى: "في تفسير الآية "إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا" أى ليصرفنا عن عبادتها صرفاً كلياً، بحيث يبعدنا عنها، لاعتنا عبادتها فقط، والعدول عليها ثبتنا عليها واستمكننا بعبادتها"³

فنبى الله محمد ﷺ في نظر أبى لب وأبى جهل وأمثاله صاحب غواية، وداعية بدعة وضلالة، ولذا فلا بد من الحذر من التأثير بكلماته، أو التفكير في أتباعه ومقلديه.

(1) سورة الأعراف: الآية 66

(2) في ظلال القرآن 3/1310.

(3) تفسير روح المعاني 19/22

ذلك مبلغهم من العلم، وذلك منطقهم...، لكن الله سبحانه يقول: "وَسَوْفَ يَغْلِبُونَ جِبْنَ يَزُودُ الْعَذَابِ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا"¹

الشبهة الخامسة: كيف يكون الرسول فقيراً أو بعيداً عن الواجهة

من البديهيات أن الأنبياء عليهم السلام هم صفوة البشر، أفضل أقوامهم خلقاً وسيرة، وأشرفهم نسباً وحسباً، ولكنهم مع ذلك لحكمة إلهية لا يكونون من المتفوقين في المال والرياسة والجاه والمنصب.

وقد صرحوا أن الرسل عليهم السلام ليسوا من أصحاب الرياسة في القوم، ولأن ذوى الزعامة المقدمين في المجتمع، ولا يملكون خصائص مادية تميزهم عن غيرهم، وترفع من قدرهم، فتجعلهم مؤهلين لمرتبة الأنبياء، بل هم بشر شأنهم شأن غيرهم من الناس، لا يتميزون في زعمهم الملأ المكذبين بفضيلة ولا يتفوقون بمال أو رئاسة، فكيف يستحقون نيل النبوة دون غيرهم من أصحاب الحظوظ الدنيوية، ومن ثم فإن ادعائهم للرسالة وهم بهذه الهيبة والحال يقجح في رسالتهم، ويشكك في نبوتهم، إذ لو كانت النبوة حقاً لكان الأولى بها هؤلاء الكبراء من الملأ أصحاب السلطة وذوى السيادة والمال والثروة والأثنية منهم.²

نجد هذه الشبهة من قبل الملأ في قصة سيدنا نوح عليه السلام: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ..."³

فالملأ يبررون كفرهم بأن سيدنا نوح عليه السلام بشر مثلهم، لا يتميز عنهم بما يؤهله للرسالة دونهم ويخصه بها من بينهم.

قال الألوسي: "والظاهر أن مقصودهم ليس إلا إثبات أنه عليه السلام مثلهم، وليس فيه ميزة يترتب عليها النبوة، ووجوب الطاعة والاتباع"⁴

وتأكيد شبهتهم وتشكيكهم بنفي الفضل عنه عليه السلام وعن أتباعه وما نرى عليكم علينا من فضل أى لانجد فيكم ما تتفضلون به علينا من مال أو رئاسة أوجاه ومنصب.

(1) سورة الفرقان: الآية 42.

(2) موقف الملأ من دعوة الرسل عليهم السلام 267.

(3) سورة هود عليه السلام: الآية 27.

(4) تفسير الألوسي 37/12.

وفي زعم الملأ الرسالة لاتكون لبشر، فإن كانت فهي لإمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض¹ أما الرسل عليهم السلام فليست لديهم أهلية سيادة ورئاسة من الماضي.

يقول الله عزوعلا: "فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ. أُولَئِكَ الدِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ."²

وهم يكررون نفس التصور، إذ يقولون: كيف نتبع من هو مثلنا في البشرية، ولا يتميز علينا بما يستحق به أن يكون رسولا ينزل عليه الوحي من السماء، ولانلاحظ عليه ما يفضل به على آل ثمود من رئاسة أوجاه، وعلى ذلك فإن أتباعه وهو بهذا الوصف أمر مستبعد، ورأى غير سديد، بل إن أتباعه في هذه الحال هو الضلال بعينه إنا إذا لفي ضلال أى في ذهاب عن الصواب، وسعر. أى في جنون.³ فكفرهم بصالح عليه السلام في رأيهم يحمل الإنقاذ لهم من ربة الضلال والجنون.

وتكرر المقولة من قوم فرعون ومله كما ذكر القرآن الكريم عنهم: "فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"⁴

وهذه الشبهة تعتمد على أساس سيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام ليس لهم من مظاهر الدنيا ما يؤهلهم للتفضل والرفعة، بل إن قومهما من بنى إسرائيل هم خدم لآل فرعون مستضعفون، ومطيعون لهم خاضعون، فكيف تنعكس المسألة في زعمهم فيتبع المخدوم من كان له في السابق خادما؟

وفي ابتداء الدعوة سيدنا موسى عليه السلام كان جواب فرعون يحمل في ثناياه غمطا لشخص موسى عليه السلام، وإشعار له بضعف مكانته وانحطاط مرتبته، وسوء سابقته، مما لا يؤهله لاستحقاق ماديدعيه من أمر الرسالة.

"قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِيْنَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِيْنَا مِن عُمْرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ"⁵

(1) في ظلال القرآن 1872/4.

(2) سورة القمر: الآية 24-25.

(3) تفسير القرطبي 90/17.

(4) سورة المؤمنون: الآية 47.

(5) سورة الشعراء: الآية 81-19.

ولما جمع فرعون الجماهير ليخطب فيهم مذكرا لهم بعظمتهم وخصائصه راح يندد بموسى عليه السلام، ويقلل من شأنه، ويحط من مكانته، ويستبعد أمام الجميع أن يكون موسى عليه السلام مؤهلا لما يدعيه، إذ لا مال له ولا جاه، وليس له سابقة زعامة أو رياسة: "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثِّي وَلَآ يَكَادُ يُمْرُّ"¹

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، قال قتادة: قد كانت لهم جنات وأنهار ماء أفلا تبصرون أى أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء"²

ويأتى الملاء من قريش ليتموا المسيرة في إلقاء هذا النوع من الشبهة وذلك حين ينكرون رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام مبررين ذلك بأنه لا يستحق هذه المنزلة، إذ ليس له فضل من مال أو زعامة تؤهله لذلك. هذا ما ذكره القرآن الكريم من قول الملاء: "أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي..."³

قال الألوسي: "أنزل عليه الذكر أى القرآن من بيننا ونحن رؤساء الناس وأشرافهم"⁴

ويقول جلي وعلا: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ"⁵

أى هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من الفريقين، يعنون مكة والطائف⁶

وبهذا المنطلق يستبعدون عن القرآن ونزوله على رسول الله ﷺ لكونه في نظرهم لا يتمتع بالجدارة والاستحقاق لهذا الأمر، وإ، قضية الوحي لو كانت حقا، وأن القرآن الكريم لو كان صدقا، وأن الرسالة لو كانت ممكنة لبشر، لكان ذلك كله أجدر وأحق بأن يكون من نصيب أحد الكبراء بما يملك من المال، وما يمتاز به من الجاه،

(1) سورة الزخرف: الآية 51-52.

(2) تفسير ابن كثير 4/129.

(3) سورة ص: الآية 8.

(4) تفسير روح المعاني 23/166.

(5) سورة الزخرف: الآية 31.

(6) تفسير ابن كثير 4/126.

ومادام الأمر قد حصل على خلاف هذا المنطق والتصور في نظرهم كان ذلك دلالة قاطعة على كذب الرسول ﷺ في زعمهم وأن ما جاء به مسألة مؤلفة من قبله لعللاقة لها بالحقيقة.

الشبهة السادسة: الاتهام بأن الرسول عليه السلام لم يقلد الأكابر من قومه

إن المتبعين للرسول عليه السلام والمساارعين إلى دعوته والدخول في دينه كانوا هم الضعفاء من عامة الناس، ومن أقلهم مالا وجاهاً، في الوقت الذي خالفه ولم يقتنع بدعوته أشرف القوم ووجهائهم وأصحاب الرياسة.

كانت هذه الشبهة ضمن مخطط الملأ في مواجهة سيدنا نوح عليه السلام كما يقول ربنا سبحانه وتعالى:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ."¹

قال القرطبي: الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء²

وقد صرحوا بذلك بشكل أكثر وضوحاً فيما حكاه القرآن عنهم في موضع آخر: قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ³

وهو استبعاد منهم للإيمان بدعوته في الوقت الذي يرون فيه الجماعة المؤمنة التي سبقت إلى الاستجابة له من الأقلين في المال والشأن والجاه.

وكأنهم يقولون لسيدنا نوح عليه السلام: لو كان ما جئت به حقاً، ولو كنت تستحق الاتباع فعلاً لسارع إلى ذلك الكبراء والسادة والأشراف، ولما كان الحال والواقع هو تخافت الأراذل على الاستجابة، وابتعاد الأكابر، فإن ذلك دليل على فقدانك ما يوهلك للأتباع، ومن ثم فنحن لانؤمن لك ولا نتبعك، ونتأسى في ذلك بمؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا⁴

(1) سورة هود عليه السلام عليه السلام: الآية 27

(2) تفسير القرطبي 17/9

(3) سورة الشعراء: الآية 111

(4) تفسير ابن كثير 340/3.

وسار الملأ من قريش على هذا المنهج أيضا حين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن به من الضعفاء إذا كان راغبا في أن يحثوا موضوع الإيمان بدعوته، ويفكروا في الاستجابة له، فجعلوا من اتباع الفقراء له عليه الصلاة والسلام شبهة يبررون بها امتناعهم من تقبل ما دعاهم إليه من توحيد الله عزوجل.

"عن سعد رضى الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا. قال: كنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميها، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عزوجل: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ" 1. 2.

"وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا يا محمد، أرضيت هؤلاء؟" 3.

فالملأ من قريش يعتبرون اتباع الفقراء والأرقاء له ﷺ حاجزا يربأ بهم عن مجرد التفكير في الاستجابة. إن الرسل عليهم السلام في زعم هؤلاء المضللين ليسوا حديدين بالاتباع وقد التحق بركبهم الأراذل والمستضعفون.

القسم الثالث: مهاجمات وتشكيكات في دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وإخلاصه

وهي تشتمل على الشبهات التالية:

الشبهة الأولى: الاتهام بأن قصده ﷺ من الدعوة الاستيلاء والسيطرة على الناس

الشبهة الثانية: الاتهام بأن غايته ﷺ من الدعوة الهيمنة على الناس

الشبهة الثالثة: الاتهام بأنه ﷺ يريد التغيير في المناهج المألوفة في الشعب والمجتمع

الشبهة الرابعة: الاتهام بأنه ﷺ يرغب إيجاد الفرقة ونشر الفساد في الأرض

(1) سورة الأنعام: الآية 52

(2) تفسير الطبري 200/7 طبعة دارالمعارف.

(3) سبق تخريجه آنفا

الشبهة الأولى: اتهام الرسول عليه السلام بأن قصده من الدعوة حصول الجاه والمنصب

إن الاتهامات المشوهة على الرسل عليهم السلام، وتنفير الناس منهم، بصرح الملة المستبدون بأن الرسل عليهم السلام حين يتحركون في الدعوة يعلنون لدعوتهم هدفا وغاية، بينما هم في الواقع يتحركون من أجل غاية أخرى، بعيدة كل البعد عما يجاهرون به من المقاصد والأهداف التي أمام الداعية.

أما الأهداف الدعوية إلى دين الله سبحانه ونشر المنهج الرباني وتبليغ الوحي الإلهي.

لكن هذا الهدف ماهو إلا غطاء ظاهري، وستار سطحي، لهدف آخر، وغاية أخرى يخفونها عن أعين الناس، ويتحركون في الواقع الفعلي من أجلها الدين والدعوة هنا يكمن الخطر..

إن القصد الأساسي، والغرض الحقيقي، إنما هو مادي بحث منشوء المطامع الذاتية، والمصالح الشخصية.

هؤلاء الرسل عليهم السلام فيما يزعم أولئك الأكابر الفجار لا يتمتعون في مجتمعاتهم برياسة أو سيادة، مما يشعرهم بالنقص في أشخاصهم، فيلجأون إلى ادعاء الرسالة، والدعوة إلى دين جديد، ويلفتوا الأنظار نحوهم، فيقومون بالتغريب بعوام الناس بما يعلنونه ويجهرون به من قضايا الدين والدعوة والإيمان، ويحصلون من خلال ذلك على الأتباع ومن يلتف حولهم من الرعاع، فتتسع دوائهم في المجتمع، ويحصلون بذلك على السيادة التي كانوا يتمنونها، والزعامة التي يحلمون بها.

هذا هو هدفهم العملي، يسعون إليه بكل وسيلة، وفي سبيله يذللون الكثير من جهودهم الجبارة.

ومن المثبتين لهذه المقول، أكابر قوم سيدنا نوح عليه السلام ما ذكره القرآن الكريم في قول الله تعالى:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ"¹

قال الألوسي: وصفوه بقوله سبحانه يريد أن يتفضل عليكم إغضايا للمخاطبين عليه، عليه السلام، وإغراء لهم على معاداته، والتفضل طلب الفضل، وهو كناية عن السيادة، كأنه قيل: يريد أن يسودكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم²

(1) سورة المؤمنون: الآية 24

(2) ينظر روح المعاني 25/81، و تفسير البغوي 307/3.

في زعمهم الباطل كان سيدنا نوح عليه السلام كاذبا في الرياسة، عاشق الزعامة، كان رجل يحب الزعامة، ويهوى اتباع الناس له، فأعلن نفسه أمام العامة نبيا ورسولا، رغبة الشهرة والجاه والمنصب لدى الجمهور.

الشبهة الثانية: الاتهام بأن قصده ﷺ الإستيلاء على الأرض والهيمنة عليها

هذه التهمة بكل وضوح في قصة سيدنا موسى عليه السلام، فقد اتهمه الملام الطغاة بأنه يهدف من خلال دعوته إلى التمكن من البلد، والسيطرة عليها.

ونجد عندئذ تغير الناس منه عليه السلام، وتخريض لهم على مخالفته، إذ أن غاية دعوته وعاقبتها فيما يزعم الملام المستكبر ستكون ضياع البلد والأرض، وخروجهم منها أذلة، وهذا مالا يملكن القبول به.

قال الله عز وجل عن فرعون واتهامه لموسى عليه السلام: "قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"¹

قال ابن كثير: "أى أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه، ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم"²

أما الهدف النهائي من هذه الإثارة الفرعونية لموسى عليه السلام من دعوته هو التغلب والسيطرة على البلاد بأسرها، والتمكن منها، بعد إذلال أهلها.

فلسان الحال للملام يقول: إن موسى ليس بداعية في الحقيقة إلى دين صاف نقي، وإنما هو في الواقع داعية لنفسه ومصلحته ومصلحة قومه من بنى إسرائيل، والغاية لديه هي الوصول إلى طردكم من أرضكم، وإخراجكم من وطنكم، تحت القهر والقوة والإذلال، لتخلو الساحة له ولأبناء جنسه، وليتها الجو لتحقيق ما تحرك من أجله من الهيمنة على الدولة، والحصول على الجاه والمال والمنصب.

وكما وجه فرعون خطابه للملام متضمنا هذه الشبهة، فقد واجه بها أيضا نبي الله سيدنا موسى عليه السلام كما في قوله سبحانه عز وجل: "قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى"³

(1) سورة الشعراء: الآية 34-35

(2) تفسير ابن كثير 3/333

(3) سورة طه: الآية 57

فما جئت به إنما هو سحر تريد أن تصل به إلى الإستيلاء على الأرض وليكون لك فيها الدولة والأتباع والبروتوكولات ومما تريد.

وقد ردد الملأ من حوله تشكيك زعمهم الباطل بهذا الأسلوب: كما في قوله سبحانه وتعالى:

"قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"¹

والخطاب المباشر من قبل الملأ وجه لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام بما حكاه القرآن الكريم:

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا وَنَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"²

قال القرطبي: وتكون لكما الكبرياء أى العظمة والملك والسلطان في الأرض يريد أرض مصر ويقال للملك الكبرياء لأنه أعظم ما يطلب في الدنيا³ ألمهم من غاية ما أرادوا من قصدهم الأخير لسيدنا موسى عليه السلام إنما هو الإستيلاء على الأرض والسيطرة على الناس، كما أن هذه الفكرة موجودة في أذهان كثير من الناس وأصبح قواسم مشتركة بين الملأ من البداية إلى الآن.

الشبهة الثالثة: اتهام الرسول عليه السلام بتغيير المنهج المألوف ونشر الفساد

ولاشك أن الإنسان بطبيعته يكره أن يتهم بالضلال فيما يحياه من الباطل، ويأبى الاعتراف بذلك إلا من وفقه الله عز وجل إلى معرفة الحق واليقين به والاطمئنان إليه.

يتحرك الملأ في هذا الاتجاه ليشيعوا بأن الرسول عليه السلام يحكم على القوم بالضلال، أيضا على آبائهم الذين، وينظر إليهم نظرة دونية باحتقار، وإشعار لهم بالخسران، كما يحكم بالضلال أيضا على آبائهم الذين ورثوا عنهم ما يدينون به من العقائد، وما يحيون به من المناهج والأوضاع.⁴

يحكى القرآن الكريم من خطاب الملأ للمستبدين المكذبين الأمثلة لسيدنا هود عليه السلام: "قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"¹

(1) سورة الأعراف: 109-110

(2) سورة يونس عليه السلام: الآية 78

(3) تفسير القرطبي 8/ 234

(4) موقف الملأ من دعوة الرسل عليهم السلام عبد الرحمن البرادعي 284

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"²

قوم هود عليه السلام ينكرون أن يأ تيهم بهذا المنهج الجديد القائم على عبودية الله سبحانه وتعالى، ونيز ماهم عليه من المناهج الكفرية، والأوضاع الشركية، والتوجه لغير الله سبحانه ن ويعتبرون أن ذلك جريمة بحق ما ورثوا عن آبائهم من مناهج يحبون بها، وأوضاع يسيرون عليها، وما ألفوه وتعودوا عليه، وألفه الأباء والأجداد ومن تبعهم من الخلف.

ونفس القضية نجد ها في قصة سيدنا صالح عليه السلام: "قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَآلِهَةَ شِكِّ بِمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ"³

وكانت مواجهة سيدنا شعيب عليه السلام:

" قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ"⁴ وكانت كذلك مواجهة سيدنا موسى عليه السلام: قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْفِقَ نَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ"⁵

ولما أعلن فرعون فكرته وسياسته بقتل سيدنا موسى عليه السلام برر هذه الفكرة بأمرين أحدهما أن موسى يريد تغيير دين المجتمع بهدف الوصول إلى أغراضه ومقاصده.

يقول الله تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"⁶

قال ابن كثير: "يخشى فرعون أن يضل موسى الناس، ويغير رسومهم وعاداتهم

(1) سورة الأحقاف: الآية 22

(2) سورة الأعراف: الآية 70

(3) سورة هود عليه السلام: الآية 62

(4) سورة هود عليه السلام: الآية 87

(5) سورة يونس عليه السلام: الآية 78

(6) سورة غافر: الآية 26.

يتحدث فرعون بلسان الحال في خطابه لقرمه: إن ما أنتم عليه من مناهج وعقائد وأوضاع قائمة على عبادتكم لي هو الحق الذي لامرية فيه، والهدى الذي لاشك فيه، وإن موسى عليه السلام جاء بدين لم تعرفوه من قبل، وعقيدة لم تألفوها في السابق، ليغير بما جاء به عقائدكم، ويحول دينكم، وهو في ذات الأمر ضال مبطل، أخشى أن يؤثر عليكم بباطله، وأخاف أن يجذبكم إلى ما هو عليه من الضلال بأسلوبه، ليحقق من خلال اتباعكم له ما يصبوا له من الامتيازات والمصالح إلى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد.

والعجب في هذه المقولة أن فرعون ينسب الدين إليهم حمية وتعصبا واستبدادا وكرهية لسيدنا موسى عليه السلام ومن اقتدى بهداه.

وقد كررت هذه المقولة في برلمانهم وندواتهم وموتمراتهم في الصدعن دعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى:

"وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى¹

قال الألوسي: وإضافة الآباء إلى المخاطبين، لا إلى أنفسهم، لتحريك عرق الصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد²

الملأ يصرحون أن النبي ﷺ برعهم الباطل كاذب في دعواه، مفتر فيما جاء به، غرضه

من هذه الدعوة أن يبعدكم عن ما كان عليه آباءكم من العقيدة والمناهج، ومن ثم يجعلكم أتباعا تتحركون لمصاحبه وإرادته.

يقول ربعة "بن عباد رضى الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. قال: ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذ يأمركم أن تتركوا دين آباءكم. فسألت من هذا الرجل؟ فيل أبو هب³

(1) سورة سباء 43

(2) تفسير روح المعاني 152/22

(3) رواه الحاكم في المستدرک 1/ 61، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ورواه عن آخرهم ثقات أثبات، وواقفه الذهبي، وينظر البداية والنهاية 3/ 170

وفي رواية أخرى يأبىها الناس إن هذا قدغوى فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم...¹

نعم إن القرآن الكريم قرر مرارا أن هذه المهاجمة البشعة متكررة، ويثيرها أعداء الدعاة والدعوة في مواجهة الرسل والأنبياء عليهم السلام.

يقول الله سبحانه وتعالى: "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ. قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنِّي اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ"²

وهذا فرعون المستبد يبدى رغبته في قتل سيدنا موسى عليه كما يشير القرآن الكريم: وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ³

ففرعون في مقولته يظهر شففته وخشيته على الناس مما جاء به سيدنا موسى عليه السلام من الدين، وخوفته من تحرك موسى في المجتمع إظهارا للفساد فيه.

وهذا المستبد يقوم بالنفاق والمصانعة بغية الوصول إلى رضاه، والاستئثار بالقرب منه والمحافظة على مراكزهم عنده، وإشعار بدورهم في الحفاظ على مصالحه وأمنه في المستقبل.

يقول ربنا سبحانه: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْحَقُّكَ قَالَ سَنَقْتُلُنَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"⁴

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "أى أئدعهم ليفسدوا في الأرض، أى يفسدوا أهل رعتك، ويدعوهم إلى عبادة رهم دونك. يا لله العجب صار هؤلاء يشفقون من افساد موسى وقومه، ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون"¹

(1) رواه أحمد: الفتح الرباني 20/ 217، قال الساعاتي: سنده جيد، وينظر البداية والنهاية 3/ 170

(2) سورة ابراهيم: الآية 9-10

(3) سورة غافر: الآية 26

(4) سورة الأعراف: الآية 26

وقال صاحب الظلال: "فالإفساد في الأرض من وجهة نظرهم هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده حيث يترتب عليها تلقائيا بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله، إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون لقومه، وإذن فهو يزعمهم الإفساد في الأرض بقلب نظام الحكم، وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر، وإنشاء وضع آخر يخالف تماما لهذه الأوضاع، الربوبية فيه لله لا للبشر، ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلته التي يعبدونها هو وقومه²

وتشبه هذه المقولة من فرعون ومملكه ما كان يصرح به أكابر قريش من المشركين عن رسول الله ﷺ رغبة في تنفير الناس من الاستجابة لدعوته، كما الطفيل بن عمرو الدوسي... والقصة مشهورة³

ما أظن أن الملأ المفسد يزعم أنه يظلم أو يفسد بين الناس، بل يحسن ما يصنع هو كمثل فرعون حين يقول، أن موسى عليه السلام جاء ليظهر في الأرض الفساد، فأراد الله أن يفشل ما صنع فرعون وقومه وما يعرشون، وأفضح كيدهم وجعله آية لمن يتبع ويحيى سنته، على الداعية أن يتعلم ويستفيد من قصة سيدنا موسى عليه السلام وأسلوبه ومنهجه وأخلاقه، بل ويقارن قصته بعصره الذي يمر وبفضية التي تتحدى الدعوة إلى الله تعالى.

الشبهة الرابعة: الاستغراب من الرسالة الدعوية

ومن الاتهامات والمهاجمات التي تقصد التشكيك في الدعوة إلى الله والدعاة وهي الاستغراب بالرسالة السماوية والتعجب منها، ويجعلون ذلك خرجا عن التصور، إذ هو أمر لم يسمع به قبل ولم يتعمده الناس ولم يألفوه، واستمرت هذه الغرائب والعجائب من تلك اللحظات إلى الآن كما أشار إليه القرآن الكريم:

ماسعنا بهذا في آياتنا الأولين⁴

وقد حكى القرآن الكريم من قول فرعون ومملكه: ماسعنا بهذا....¹

(1) تفسير ابن كثير 2/ 239

(2) في ظلال القرآن 3/ 1354

(3) خير إسلام الطفيل بن عمرو رواه ابن اسحاق دون إسناد: السيرة النبوية 1/ 307، وأورده ابن القيم في زاد المعاد نقلا عن ابن اسحاق، ط/ 8، 1405 هـ مؤسسة الرسالة 3/ 624-625.

(4) سورة المؤمنون: الآية 24

يقول ابن كثير: "ماسعنا بهذا أى بيعة البشر في آياتنا الأولين، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية"²

وكذلك حل الملأ من قريش كما قال الله تعالى: وعجبوا أن جاءهم منذر منهم...³ بل عجبوا أن جاءهم...⁴ كما يفهم التعجب الشديد من الملأ المكذبين من أن يكون البشر رسولا كما عبر القرآن الكريم عن حالهم: أكان للناس عجباً أن أوحينا⁵

وقوله تبارك عز وجل: "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم..."⁶

ثم يثر الملأ القضايا التي يدعون إليها، فيفتعلون التعجب منها، ويحيطونها بحالة من الغرابة، ويخاطبون الرسول عليه السلام حين يواجهونه على هذا الأساس.

ومن هذه القضايا، قضية التوحيد نجدها في قصة سيدنا هود عليه السلام حين يدعو قومه إلى التوحيد دون سواه، تغرب الملأ وقالوا بما حكاه القرآن الكريم: قالوا أجتئتنا لنعبد الله وحده...⁷

يقول صاحب الظلال: "فهم يستكرون ويستبعدون أن يأتيهم هود عليه السلام ليحدثهم في هذا الشأن الذى يرونه غريباً عجيباً قالوا أجتئتنا لنعبد الله وحده، لكأنما كان يدعوهم إلى أمر منكر لا يطيقون الاستماع إليه، ولا يصبرون على النظر فيه"⁸

ونجد شبه هذه القضية في قصة سيدنا صالح عليه السلام حين ينكر المكذبون من قومه على نبيهم عليه السلام أن يدعوهم ويتحدث معهم في أمر التوحيد، والعقيدة الصافية والرسالة الطيبة:

قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا...¹

- (1) سورة القصص: الآية 36
- (2) تفسير ابن كثير 244/3
- (3) سورة ص: الآية 4
- (4) سورة ق: الآية 2
- (5) سورة يونس عليه السلام: الآية 2
- (6) سورة الأعراف: الآية 63-69.
- (7) سورة الأعراف: الآية 70
- (8) في ظلال القرآن الكريم 1311/3

وكانت قضية التوحيد في نظرهم وفكرهم شيئا عجيبا شديد الغرابة يتعجبون منها كل التعجب.

"يقول صاحب الظلال في ظل هذه الآية على لسان المكذبين من الملأ، قد كنت فينا مرجوا قبل هذا

لقد كان لنا رجاء فيك، كنت فين مرجوا فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك، أو لهذا جميعه، ولكن هذا الرجاء قد خاب (أنتهانا ما يعبد آباؤنا) إنما للقاصمة، فكل شيء باصالح إلا هذا، ما كنا لتتوقع أن تقولها، فيا لخبية الرجاء فيك، ثم إننا لفي شك مما تدعونا إليه، شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول(وإننا لفي شك مما تدعونا إليه، شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب)، وهكذا يعجب القوم مما لا عجب له فيه، بل يستكرون ماهو واجب وحق، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده،؟ لالحجة والالوهان ولا لتفكير، ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة. وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين، وأن يعللوا العقائد بفعل الآباء"²

ونجد القضية في قصة سيدنا شعيب عليه السلام حيث يصل التعجب والاستغراب من جهة الملأ المكذبين إلى حد التهكم بنبيهم عليه السلام في نصحه ودعوته إلى الله تعالى:

"قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن ترك..."³

وقد اختار الملأ من قريش نفس الأسلوب من رسولنا ﷺ حين دعاهم إلى التوحيد بالعبادة ويتركوا ما هم عليه من الشرك من دون الله سبحانه وتعالى:

"وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون..."⁴

فهم يظهرون التعجب والاستغراب أشد الإظهار من نبي الله عليه السلام، أن يأتيهم بكلمة التوحيد التي تبطل كل ما هم عليه من أوضاع تعدد الآلهة.

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 62

(2) في ظلال القرآن 4 / 1907

(3) سورة هود عليه السلام: الآية 87

(4) سورة ص: الآية 5-5

والمعنى أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الإخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك، أى لانفهمه
ن كما نفهم الأمور الحاضرة المشاهدة¹

وأعجب من ذلك حين قدم النبي ﷺ داعياً إلى العقيدة الصحيحة تعجب المشركون وأشدوا فيه كما يحكى
القرآن الكريم:

"وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم...²"

يقول الباحث: وقد تجاوزوا في التعجب مع فهمهم وعلمهم حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم
الحق، والقضية التاريخية للتعجب والاستغراب بدين الله مازالت تتجدد بتجدد الزمان والمكان.

إن أعداء الدعاة والرسل عليهم السلام يقبلون الموازين من عندهم، فيصبح الهدى ضلالة والضلالة هدى في
مفاهيمهم الباطلة، ويرون الفواحش رفعة وفخراً.

وبالتالى: هذا الاتهام توجه إلى سيدنا لوط عليه السلام، وكان هذا جواب الملأ من قومه حينما دعاهم إلى ترك
الفواحش والشذوذ وترك ما هم عليه من الشرك.

قال الله تعالى: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا...³ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا...⁴

والمعنى: يقول أولئك المستكبرون إن لوطاً ومن تبعه أناس يتنزهون عما نفعله نحن من إتيان الرجال في
الأبواب⁵ تشكك المتشككون في منهج سيدنا لوط عليه السلام في الحياة، وجعله من المكذبين، ومن ثم تعودوا
مع الفواحش والشذوذ ولم يستحق سيدنا لوط أن يعيش معهم، أو أن ينظر إليهم نظرة فكر ونصح.

ومن العادات للملأ المكذبين بالرسل عليهم السلام التشاؤم بالدعاة والرسل عليهم السلام، وهم يعتبرون أن
ما يصيبهم في المجتمع من الأضرار في الأم والاستقرار، أو المكاسب والتجارات، أو السياسة والأخلاق،
ويشيحون بين القوم أن ما أصابهم من ذلك فإنما هو بسبب من وجود الرسول أو الدعاة:

(1) تفسير فتح القدير 2/ 520

(2) سورة السباء: الآية 7-8

(3) سورة النمل: الآية 56

(4) سورة الأعراف: الآية 82

(5) تفسير الطبرى 8/ 235

نجد ذلك في قصة سيدنا موسى عليه السلام كما قال عزوجل: ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم... ولكن أكثرهم لا يعلمون¹

يقول ابن جرير في تفسير الآية الكريمة: يقول الله تعالى ذكره: فإذا جاءت آل فرعون العافية والخصب والرخاء وكثرة الثمار، ورأوا ما يحبون في دنياهم، قالوا لنا هذه، نحن أولى بها، وإن تصبهم سيئة يعني جدوب وقحوط وبلاء يطيروا بموسى ومن معه يقول: يتشاءموا بهم ويقولوا: ذهب حظوظنا وأنصابنا من الرخاء والخصب والعافية، مذجاءنا موسى عليه السلام²

فآل فرعون إذا تأملت بهم الأزمات، ونزلت بهم المصائب، ولحقت بهم الكوارث والنكبات، تشاءموا بموسى عليه السلام ومن معه، واعتبروه السب فيما أصابهم من هذه الملومات، وأعلنوا للناس أن موسى عليه السلام - كما يزعمون - رأس كل مصيبة، وأساس كل بلية، تلحق بهم في أمنهم واستقرارهم، أو في معيشتهم وثمارهم وأرزاقهم.³

ونلاحظ قضية التشاؤم في قصة سيدنا صالح عليه السلام كما أشار إليه القرآن الكريم عنهم: قالوا طيرنا بك وبمن معك... أي تشاءمنا بك، لأن الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وشؤم من معك⁴

فهم يجعلون سيدنا صالحاً مركزاً لما يصيبهم من الشرور والنكبات، وسبباً من الضراء والبلاء، شاهدين على أن كل ما يحل بهم بوجوده بينهم، معتمدين أن ترك الدعوة أمر ضروري يعود الرخاء والوفاء بتركها.

وفي قصة أصحاب القرية يعلن المكذبون من الملائكة أيضاً تشاؤمهم بالرسول عليهم السلام: قالوا إنا تطيرنا بكم لننظرن ما تنتهون... أي إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر في دعوتكم⁵

(1) سورة الأعراف: الآية 130-131

(2) تفسير الطبري 9/ 29

(3) موقف الملائكة من دعوة الرسل عليهم السلام 302

(4) سورة النمل: الآية 47

(5) التفسير الكبير 24/ 203

(6) سورة يس: الآية 18

(7) في ظلال القرآن 5/ 2962

وقد تكرر الحال مع سيدنا النبي ﷺ، إذ يظهر أعداء الدعوة من الملائكة المنافقين تشاؤمهم به عليه الصلاة والسلام، وينتسبون إليه ما يصيبهم من الشدائد والحن والأكزومات والكآبة، كما بينه القرآن الكريم: وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله...¹

يقول ابن كثير: وإن تصبهم حسنة أى خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك يقولو هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة أى قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع ن أو موت أولاد أو نتاج، أو غير ذلك يقولوا هذه من عندك أى من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك²

ثم ذكر ابن كثير بعض النماذج في التطير من خلال آيات أخرى: وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين

دخلوا في الإسلام ظاهرا وهم كارهون له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم

للنبي ﷺ³ فنبينا ﷺ في زعم الملائكة المنافقين مصدر البلاء، وسبب الرزايا، وأساس الحزن والصعوبات.

لا شك أن الملائكة يبحثون بهذه المناهج والأساليب الإيجابية للوقوف بأن خطر الرسول عليهم السلام في ظنهم بمس الجميع، وأن الكل سواء في انتظار لحظة الخلاص، وأن المشاعر السلبية تجاه الرسول

ﷺ مسألة يتفق عليها الجميع، ولا جدال فيها ولا خلاف، وبالتالي رأينا من بداية الدعوة تتسع دائرة المبغضين من الملائكة للرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه، وذلك ما يصبو إليه الملائكة من المجرمين من تاريخ إلى تاريخ من زمن إلى زمن من شخص إلى شخص، وإلى أن تنتهي البشرية.

(1) سورة النساء: الآية 78

(2) تفسير ابن كثير 1/ 527

(3) نفس المصدر السابق والصفحة السابقة.

القسم الرابع: شبهات حول المؤمنين

وفيه:

الشبهة الأولى: الاتهام بالكذب والضلال والبهتان

الشبهة الثانية: الاتهام بالاستعجال والفقر وقليل الشأن

الشبهة الثالثة: الاتهام بإخلاص المؤمنين، وأن الطهارة والعفة مطعن في زعم الأعداء والتشاؤم بهم

الشبهة الأولى: الاتهام بالكذب والضلال والبهتان

يعرف البهتان بأنه الكذب والافتراء الباطل بتحريف منه، والبهتان بأنه كذب الذي يبهت سامعه ويدهشه ويحيره، وذلك بسبب فظاعته، ومما رأينا هذه الصفة البشعة في تاريخ الإنسانية ملأ من قوم سيدنا نوح وهود وصالح وشعيب... إلى النبي ﷺ، اتهموا الفئة المؤمنة بالكذب والضلال والسفاهة وما بذلوا من جهود في اتهام المؤمنين بمجانب شتى، وذلك حين أثاروا بوصف واتهام الجميع بالكذب.

قال الله سبحانه وتعالى: "قال الملأ الذين كفروا من قومه... بل نظنكم كاذبين"¹

والاتهام بالكذب والضلال والسفاهة تشمل جميع الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم المؤمنين.

قال ابن كثير: بل نظنكم كاذبين أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدنيا والآخرة إذ صرتم إليها² فالمؤمنون بالله جل وعز وجل، المستجيبون لدعوة سيدنا نوح عليه السلام متهمون لدى هؤلاء الجبابرة بأنهم يكذبون في ادعاءاتهم ومقولاتهم عن الدعوة وعلاقتهم بها، وما ينتج عنها من الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

ومن ثم تعودت السنة صناديد وملاقرش من المشركين، يتهمون الفئة المؤمنة التي استجابت لدين الله سبحانه وتعالى، واتبعت رسوله عليه السلام كما يوضح لك قول الله عن المستبدين حال مشافهتهم من المؤمنين.

وإذا رأوهم قالوا إن هـ...³

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 27

(2) تفسير ابن كثير 2/ 442

(3) سورة المطففين: الآية 32

اتَّهَمُوا بِالضَّلَالِ بِسَبَبِ خُرُوجِهِمْ عَنْ مِلَّةِ الْقَوْمِ، وَمِنْ أَوْضَاعِ الشَّرْكِ، وَسَبِيلِ الْغَوَايَةِ وَالْفُسُوقِ، مُسْتَجِيبِينَ فِي ذَلِكَ لِدَعْوَةِ اللَّهِ وَمَنْهَجِهِ، وَيَسِيرُونَ فِي طَاعَتِهِ عَلَى نَوْرَمَنْ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلِذَا يُوَضِّحُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ نَهْمَ بِالضَّلَالِ الْمُبِينِ.

وإلى هذا أشار النسفي في تفسير الآية المباركة إذ يقول: "قالوا إن هؤلاء لضالون أى خدع مُخْدَ هؤلاء، فضلوا وتركوا اللذات، لما يرجونه في الآخرة من الكرامات، فقد تركوا الحقيقة بالخيال، وهذا هو عين الضلال"¹

وأما اتِّهَامُ الْمُؤْمِنِينَ بِالسُّفْهِاءِ مِنْ قِبَلِ الْمُلَأِ الْمُجْرِمِينَ يَحْكِي الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهَذَا الْوَصْفِ عَلَى لِسَانِهِمْ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَيْسٍ الْمُنَافِقِينَ وَأَمْثَالِهِ، يَذْكُرُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

"وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس... السفهاء"²

يقول الرازي: "وإنما سُمِّيَ الْمُنَافِقُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالسُّفْهِاءِ، لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْخَطَرِ وَالرِّيَاسَةِ، وَأَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا قُرَّاءَ وَكَانَ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ﷺ بَاطِلٌ، وَالبَاطِلُ لَا يَقْبَلُهُ إِلَّا السُّفْهِاءُ، فَلِهَذَا الْأَسْبَابُ نَسَبُوهُمْ إِلَى السُّفْهِاءَةِ"³

فأصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين في تصور الملأ المنافقين، أهل سفه وجهل، وضعف في الفهم والآراء. وفعلاً أن هذا الدين في نظر أهل النفاق باطل لا يستحق الأتباع، إلى جانب ما يترتب على هذه الدعوة من المضاعف والمشايق، ومن ثم فصاحب العقل الرشيد، والرأي السديد حسب ظنهم ومقولاتهم لا يفكر في التجاوب مع ما جاء به نبي الله عليه الصلاة والسلام.

ويقول صاحب الظلال: "عن المنافقين أيضاً: وواضح أن الدعوة التي كانت موجهة إليهم في المدينة هي أن يؤمنوا بالإيمان الخالص المستقيم المتجرد من الأهواء، إيمان المخلص الذين دخلوا في السلم كافة، وأسلموا وجوههم لله، وفتحوا صدورهم لرسول الله ﷺ، يوجههم فيستجيبون بكليتهم مخلصين متجردين، هؤلاء هم الناس الذين كان المنافقون يدعون ليؤمنوا مثلهم هذا الإيمان الخالص الواضح المستقيم.

(1) تفسير النسفي 6/3 6

(2) سورة البقرة: الآية 13

(3) التفسير الكبير 68/2

وواضح أنهم كانوا يأنفون من هذا الاستسلام للرسول ﷺ، ويرونه خاصا بفقراء الناس غير لائق بالعلمية ذوى المقام، ومن ثم قالوا قولتهم هذه أنؤمن كما آمن السفهاء"¹

الشبهة الثانية: الاتهام بالاستعجال والفقر وقليل الشأن للمؤمنين

من الشبهات المثيرة من قبل الملأ من قوم سيدنا نوح عليه السلام أن أتباعه من المؤمنين لسيدنا نوح عليه السلام كان بادئ الرأي كما أخير القرآن الكريم عنهم:

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه...أرأدنا..²"

قرأ أبو عمرو البصرى رحمه الله بالهمز بعد الدال (بادئ)، وقرأ الباقر بن عمار (بادئ الرأي)³

اقتصر البغوى في تفسير هذه الآية الكريمة على هذا الوجه فقال: قرأ أبو عمرو البصرى رحمه الله (بادئ الرأي) بالهمز، أى أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز أى ظاهر الرأي، من قولهم: بدا الشئ إذا ظهر، معنا اتبعوك ظاهرا من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطنا⁴

قال صاحب الظلال في تعليقه على هذا الاتهام: "وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرأدنا بادئ الرأي: أى دون ترو ولا تفكير. وهذه تحمة كذلك توجد دائما من الملأ العالين لجموع المؤمنين، أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات. ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندعها، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا غمجا ولا أن يسلكوا طرقها"⁵

فهذه إحدى شبهات الملأ المستكبرين من قوم سيدنا نوح عليه السلام حول من آمنوا بدعوته، بأنهم متصفون بالحماقة والتفكير الساذج، لا تدبر عندهم ولا تفكر ولا روية، بل يتعجلون ويتبعون الأهواء، ومن كان هذا حالهم يدل على النقصان في العقل.

(1) في ظلال القرآن الكريم 1/ 38

(2) سورة هود عليه السلام: الآية 27

(3) بنظر: إرباز المعاني شرح الشاطبية ص 513

(4) تفسير البغوى 2/ 380

(5) في ظلال القرآن 4/ 1872

سبحانك هذا بختان عظيم على الأنبياء والرسل والدعاة ومن تبعهم من المؤمنين في كل زمان ومكان عبر التاريخ.

إن الفئة المومنة حسب مقولة المستكبرين من الملأ ليسوا ممن يحسب لهم وزن، أو يعتبر لهم شأن، من الأشراف وأصحاب المال والجاه والقدرة والزعامة في المجتمع، وإنما هم مجموعة فقيرة وضعيفة، ليس لهم نصيب في الدنيا، وهم الأقلون مالا، وبالتالي فإنهم لا يستحقون أن يسلك الأكاير مسلكهم، أو ينهجوا منهجهم، فيؤمنوا بما آمنو به.

ومن أثار بهذه الشبهة أكابر المجرمين من قوم سيدنا نوح عليه السلام كما أشار إليه جل وعلا:

"فقال الملأ الذين كفروا من قومه...أرأدنا¹"

قال القرطبي: "الأرادل هنا هم الفقراء والضعفاء"²

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الملأ اعتبروا قلة المال والجاه والمنصب لدى المؤمنين، ولذا قالوا لسيدنا نوح عليه السلام كما يحكى القرآن الكريم عنهم: "قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون"³

إن هؤلاء الزعماء والساسة المستكبرين من الملأ يرون أن إيمان هؤلاء الضعفاء رضوان الله عليهم لا يوجد للدعوة قيمة أو مكانة، ولا يجعل لها شأنًا أو وزناً، بل إن دخول أمثال هؤلاء في الإسلام دلالة على بطلانه بزعمهم وعلامة على أن منهج هذه الدعوة غير سديد ولا قويم، ولا يقوم على حق أو هدى، إذ لو كان كذلك لاتبعه الكبراء، ولكانوا هم السابقين.

ويذكر الله تبارك وتعالى من قول فرعون وملكه: "فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِمِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ"⁴

فالذين آمنو بسيدنا موسى عليه السلام من بنى إسرائيل كانوا تبعاً لآل فرعون، يقومون بوظائف الخدمة لهم، ويجدون منهم الأجراء والانتقاص.

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 27

(2) تفسير القرطبي 9/ 19

(3) سورة الشعراء: الآية 111

(4) سورة المؤمنون: الآية 47

وحقا أن المألأ الكافرين والمستكبرين لا يرون في المؤمنين بالدعوة فضلا أو خصائص يتميزون بها من مال أو جاه، أو سيادة أو شرف ن تجعلهم أكثر معرفة، أو أشد فهما وإدراكا، وكأن الفضل يقاس بالمال، والفهم يقاس بالجاه، والمعرفة تقاس بالشرف والفضل كما نجد نفس القضية والميزانية في العصر الحاضر، لاقية للإنسانية بأكملها إلا بالمال والمنصب والقدوة.

الشبهة الثالثة: الاتهام بقلة إخلاص المؤمنين، وأن الطهارة والعفة مطعن في زعم الأعداء، والتشاؤم بهم من الهجمات التي تنهمر بها المؤمنين بأنهم مفتقدون الإخلاص وسلامة النية، وأن إيمانهم كان لمقاصد وأهداف ذاتية، كما أن الطهارة والعفة أصبحت مطعنا في ظن المألأ قديما وحديثا، والتشاؤم صفة خاصة بهم.

بل كان الباعث لهم إلى المسارعة بالإيمان، والاستعجال في الالتزام بالدين، إنما هو الرغبة في الحصول على مغام سريعة، ومصالح مادية، فالتفكير لديهم منصب على المطامع الذاتية، والشهوات المادية، والرغبات النفسية، لا الأفكار، ولا المبادئ، والعقائد الإسلامية.

هذا الطعن والاتهام على الفئة المؤمنة كان ضمن اتهامات المألأ المستكبرين من قوم سيدنا نوح عليه السلام كما أشار إليه القرآن الكريم: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا تَرَىٰ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَكَ وَمَا تَرَىٰ أَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُبَادِيَ الرَّأْيِ" ¹

ففي تفسير القرطبي أن معنى (بادى الرأي) أى ظاهر الرأي، وباطنهم على خلاف ذلك ²

فالمألأ المجرمون هنا يهاجمون بالاتهام للمؤمنين بالنفاق، بمعنى أنهم يبتغون ما يظهرون.

ونلاحظ نفس القصة في سيدنا موسى عليه السلام أيضا، يثيرها فرعون حول السحرة حين أعلنوا إيمانهم برب العالمين سبحانه وتعالى. يقول الله عز وجل: "قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِوَيْ قَبْلِ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" ³

"قَالَ ءَأَمِنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَن ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِبْرٌ كُفٍّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ" ¹

(1) سورة هود عليه السلام: الآية 27

(2) تفسير القرطبي 18/9، ونظر: التفسير الكبير 212/17.

(3) سورة الأعراف: الآية 49

علمنا في هذه الآية الكريمة أن فرعون قذف السحرة المؤمنين بمجموعة من الاتهامات المتلاحقة، وأثار حولهم جملة من الشبهات والتشكيكات في اتجاه هؤلاء المؤمنين وفي مقاصدهم، وبالتالي التنفير من سلوك سبيلهم، وصرف العوام عن الاقتداء بهم.²

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وهم يكيدون كيذا ونكيد كيذا، ولا يزالون يقاتلون بسلاح العقل والفكر والتدبير ضد الإسلام والمسلمين إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فالطعن بالطهارة والعفة في المؤمنين بمقولتهم، وطرد المؤمنين بالله عز وجل، واستخدام كلمة الطهارة والعفة ضد سيدنا لوط عليه السلام وأتباعه عمل أهل الفجور المكذبين، كما أشار إليه القرآن الكريم:

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ"³

"وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهَرُونَ"⁴

"قال الشوكاني وجملة (إنهم أناس ينتهرون) تعليل لما أمروا به من الإخراج، ووصفهم بالنتهرون يمكن أن يكون على حقيقته، وأنهم أرادوا أن هؤلاء ينتهرون عن الوقوع في هذه الفاحشة، فلا يساكنوا في قريتنا"⁵

وتلك فطرة تصبغ الرذيلة فضيلة، والضلالة هداية، والدنس رفعة، والفاحشة جمالا، ويصبح الوالغ في الفاحشة شخصا سويا، يحيا حياة طبيعة عادية، بل هي المستحسنة المرغوبة التي يحق لصاحبها الافتخار والمباهاة، ولا يحيا حياة سعيدة وسوية، إذ لا يستطيع مجازاة القوم صنيعهم، ومن ثم ضاقت عليهم الأرض والسماء، بها وصف سيدنا لوط عليه السلام ومن لى دعوته من قومه.

ولا يخفى أن الملأ المكذبين يظهر تشاؤمهم البشعة بسيدنا موسى عليه السلام ومن آمن بدعوته، فيتهمونه بمقولتهم لما يصيبهم من قحط وجذب، أو شر أوفساد، أو فتنة أو محن وصعوبات.

(1) سورة الشعراء: الآية 123

(2) موقف الملأ من دعوة الرسل ص 324

(3) سورة النمل: الآية 56

(4) سورة الأعراف: الآية 82

(5) تفسير فتح القدير 2/ 222، وينظر: تفسير البحر المحيط 4/ 335.

يُخَيِّرُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ آلِ فِرْعَوْنَ: "فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا بِمُؤْمِنِينَ سَرِيحَةً يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ..."¹

هذه الفئة المؤمنة برها، المستجيبة لدعوته، هم في نظر آل فرعون أساس الفتنه والحنه، وهم العلة الأصلية التي ازدادت الأزمات والحن في البلاد، واتسعت التشاؤم من آل فرعون بسيدنا موسى وهارون وبالمؤمنين.

فالسنة المكذبين من قوم نوح وعاد وثمود تكرر في مواجهتهم منهم سيدنا صالح عليه السلام: "قَالُوا أَطِيعُوا بَلَدَكُمْ وَمَنْ مَعَكُمْ قَالَ طَاعُوا اللَّهَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ"²

قال الشوكاني: وإن (تصبيه سيئة) أى خصلة سيئة من الجذب والفحط وكثرة الأمراض ونحوها من البلاء (يطيروا بموسى ومن معه) أى يتشاءموا بموسى ومن معه من المؤمنين به³

هذا دأب الكافرين من الملأ أن الفئة المؤمنة في نظرهم لآخر يرجى من ورائهم، بل هم شوم على الأمة، وهم تأبطوا شرا أينما كانوا، وكلما تأصلوا في المجتمع زاد البلاء لأجلهم، وكثرت الحن والمشقة بوجودهم، وكانوا مصدر عناء وقلق على البشرية جمعاء، بنظر الملأ المستكبرون المستبدون.

(1) سورة الأعراف: الآية 313

(2) سورة النمل: الآية 47

(3) فتح القدير 2/ 237

الفصل الثاني: **العقبات والمواجهات من المأ**

ويشتمل على عشرة مباحث منها:

المبحث الأول: الجحود والتكذيب المتواصل

المبحث الثاني: الاغراء والترغيب

المبحث الثالث: التهديد والوعيد

المبحث الرابع: الإيذاء الروحي والنفسي

المبحث الخامس: الإيذاء البدني والجسمي

المبحث السادس: التحصير والتضييق

المبحث السابع: استعجال الوعيد تعنتا وعنادا

المبحث الثامن: التخطيط والإعداد للمواجهة

المبحث التاسع: الآثار السلبية على عامة الناس

المبحث العاشر: المخادعة

المبحث الأول: الجحود والتكذيب المتواصل

إن دراسة الآيات المكررة تبين لنا أن قضية تكذيب الرسل ثابتة معروفة منذ غابر الأمم و حتى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، و أن أمما كثيرة قد بادت قد كذبت برسل الله عز وجل، و في آية يخاطب الله تعالى فيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتضح لنا السبب وراء ذلك التكذيب، فالتكذيب ليس مقصوداً لذاته، فكل الأقوام الذين كذبوا الرسل ليعلمون في قرار نفوسهم صدق دعوة الرسل، وأنهم لا يكذبون فيما يبلغون عن ربهم، و لكن سبب تكذيبهم لهم هو الحفاظ على مصالحهم الدنيوية التي سوف يهددها الإيمان بالرسل هؤلاء، فالإيمان بالرسول يعني الإيمان بالله تعالى المرسل للرسول، و الإيمان بالله تعالى يستتبع عبادته و طاعته في شريعته و إمتثال الأمر الإلهي و بالتالي تقويض مصالح هؤلاء الكفار المكذبين والتي تقوم على الاستعلاء و الاستبداد و الاستعباد والاستقواء و كل ذميمة أخرى، و هذا كله إن هم آمنوا فسينسف نسفا لتعارضه مع التشريع الإلهي، و هم (الكفار) بذلك عالمون و لكنهم جاحدون، فالكافر يرفض فطرة الإيمان داخل قلبه و يحاول طمسها دائما، وإنما معنى الكفر في أصل اللغة الستر و الجحود، و بذلك فإنه لا سر إلا لموجود و لا جحد إلا لموجود، فالإيمان موجود كفطرة في كل نفوس البشر، و لكن الكافر إختار جحده توها بالإبقاء على مصالحه الدنيوية، ثم إن فريقا من الكفار لجأ للشرك ظانا - بغياء فاحش - أنه سيكون له من دون الله ولي أو نصير.

و حين اختار الملأ المستكبرون طريق الكفر والعداوة للرسل عليهم السلام والدعاة المخلصين كان طبعيا منهم بعد هذا التوجه أن يعلنوا الإنكار والكفر والتكذيب بشكل المستمر لكل ما يأتي به الرسول عليه السلام طيلة مكثه بينهم، كما يقرر ذلك بوضوح قول الله سبحانه: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَقُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ"¹.

وكلما أورد لهم الرسول عليه السلام آية كونية خارقة مقرونة بالتحدي، تحمل في طياتها الدليل القاطع والبرهان الساطع على صحة رسالته وصدق ما يقول، ويقين ما يأتي به، سارعوا كذلك إلى إنكارها جملة وتفصيلا، وحملوها أي حمل آخر تحتمله دائرة البشر، مستبعدين أن تكون تلك المعجزة آية من رب العلمين سبحانه، عازمين على مواجهتها بكل سبيل، مستهدفين ألا تظهر المعجزة شاهد صدق للرسول عليه السلام، ثم

يدعون بعد ذلك أن الرسول عليه السلام ما جاءهم ببينة، وليس بين يديه من الدلائل ما يؤكد صدق ما يدعيه، وأنه كذب متكلف فيما جاء به.

وهكذا يستمر منهم الجحود والتكذيب حتى تأتيهم العقوبات الإلهية التي تستأصلهم، أو ينتهي بهم أجل الله المقدر.

تلك صورة من صور المجاجة للحق من الملأ الضالين في حين أن الرسل عليهم السلام جاؤوا بالبينات القاطعة الكافية في بيان صدقهم، والشهادة لهم بصحة نبوتهم عليهم السلام، وأن ما أتوا به هو الحق من رب العلمين، كما قال الله عز وجل في معرض التسلية لرسوله ﷺ فيما يلاقيه من التكذيب: "وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ"¹

والمقصود أن الرسل عليهم السلام جاؤوا أمهم بالحجج البينات، والمعجزات الواضحات، وبالكتب المنزلة من عند الله سبحانه، وكل ذلك يؤكد للأهم صحة نبوت الرسل عليهم السلام وصدقهم فيما جاؤوا به، وينير لهم بما الحق الساطع.²

ومن ذلك كله فقد كذب أولئك المستكبرون واستبدلوا الضلالة بالهدى واختاروا طريق العمية والعناد والجحود.

فهذا نوح عليه السلام يمحث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما. يأتيهم فيها بشئ الدلائل والبراهين، ويكل الوسائل والأساليب، ومع ذلك يصرون على التكذيب والعصيان، حتى لجأ نوح عليه السلام إلى ربه سبحانه يشه شكواه: "قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا"³

فالدعوة منه عليه السلام متكررة ومتجددة، وفي المقابل يستمر منهم الصدود، ويتكرر التكذيب.

(1) - سورة فاطر: آية 25

(2) - ينظر معنى الآية في تفسير الطبري 22 / 130

(3) - سورة نوح عليه السلام: الآية 5-7

ثم يذكر نوع عليه السلام أنه تنقل في دعوتهم من وسيلة إلى وسيلة ومن أسلوب إلى آخر، ومع هذا يستمر العصيان والجحود. "ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَغْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا"¹

وفي غاية اللطاف: "قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَرًا"²

ولذا وصف الله عز وجل ما تعرض له نبيه عليه السلام بأنه الكرب العظيم كما قال سبحانه:

"وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ"³

وقال تعالى: "وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ"⁴

قال ابن كثير: "أي من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، كانوا يتصدون لأذاه، ويتواصلون قرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل على خلافه."⁵

ولملا منهم يصرحون لنبي الله نوح عليه السلام باستمرار تكذيبهم في كل الأحوال، ويطلبون منه إيقاف الجدل معهم وسرد البراهين، إذ لاجدوى لذلك في نفوسهم، ولا أمل في إيمانهم بدعوته:

"قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"⁶

ويتلاحق الكذب منهم ويتواصل طيلة مكث نبي الله بينهم حتى جاء أمر الله سبحانه بالاستئصال كما قال تعالى:

"فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ"⁷

(1) - سورة نوح عليه السلام: الآية 8-9

(2) - سورة نوح عليه السلام: الآية، 21-22

(3) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 76

(4) - سورة الصافات: آية 75-76

(5) - تفسير ابن كثير 3/ 185

(6) - سورة هود عليه السلام: آية 32

(7) - سورة الأعراف: آية 64

ولم اتجه نوع عليه السلام إلى ربه سبحانه بالدعاء على أولئك الملائكة الظالمين بين أن السبب في دعائه عليهم هو التذيب.

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ¹

وليس المراد بطبيعة الحال التكذيب لأول مرة، بل إنه عليه السلام ما دعا عليهم بالهلاك حتى تتابع منهم الجحود والإجرام، وارتبط التكذيب بهم في مجاهدة كل ما يأتي به نوح عليه السلام.

وفي قصة هود عليه السلام نلاحظ أيضا وقوف المستكبرين منه موقف الجحود والعناد، حين يطلبون منه عليه السلام قطع الأمل في تركهم لدينهم واستجابتهم لدعوته.

قال تعالى: "قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"²

ولا شك أن هود عليه السلام جاءهم بالبيّنات الواضحات التي تشهد له بصحة نبوته وصدق رسالته، ولكنهم هنا يجابهونه بالتكذيب بكل ما أتاهم به من الآيات، وينكرون أن يكون شيء من ذلك يعتد به كحجة تؤيده، وتشهد لما يقول، فيصرحون له في خطابهم بعدم قناعتهم أصلا بكل ما جاءهم به، وهو عندهم رجل مدع خال من الأدلة والبراهين "ما جئتنا ببينة"، ولذل فهم يطلبون منه ألا يتوقع منهم أن يتركوا آلهتهم ويخرجوا عن دينهم ويدخلوا في الدين الذي جاءهم به بمجرد قوله الذي يدعوهم فيه إلى دين الله سبحانه "وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ"، ثم يكررون له بأسلوب آخر فيه تأكيد وإقناعات عدم رغبتهم في الاستجابة مهما كثر الحديث وتكرر القول، ومهما ألح في الدعوة "وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"، فهذه هي رؤيتهم لن تتغير ابدا ولن تتحول.

وكما صرحوا بذلك لهود عليه السلام في مواجهته فقد صرحوا به أيضا أمام الجماهير حين قالو:

"إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ"³

(1) - سورة المؤمنون: آية 26

(2) - سورة هود عليه السلام: الآية 53

(3) - سورة المؤمنون: الآية 38

ويكررون لهود عليه السلام مرة أخرى قرارهم بالجحود ورفض الاستجابة لداعي الإيمان، ولكن بمقولة أخرى فيها استهتار واستهافة: "قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ"¹

فوعظة عليه السلام - في نظرهم - لا يجدي، ولن يجدي في اقتراحهم من الإيمان، ولذلك يطلبون منه عليه السلام أن يتوقف عن الموعظة لأنها لن تفيد.

ويلجأ هود عليه السلام إلى ربه يشتكي إليه سبحانه هذا التكذيب الدائم والجحود المستمر.

"قال رب انصرني بما كذبون"²

ويستجيب الله سبحانه فينزل بأمرهم تأصل فيهم التكذيب، قال تعالى:

"فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ"³

وينهج الملأ المستكبرون من ثمود منهج الجحود أيضاً، إذ يعرضون عن دعوة صالح عليه السلام، ويعلمون تكذيبهم بالآية البينة والمعجزة الخارقة التي أجزاها الله سبحانه على يد نبيه صالح عليه السلام بناء على طلبهم الآية منه: "بِآيَةٍ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَنَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّغْلُومٍ {الشعراء}. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ"⁴

"قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"⁵

ولم يكتف أولئك الملأ بالتكذيب والإعراض، بل اتفق رأيهم على قتل الناقة التي نحاها عن التعرض لها، وشجعوا من باشر ذلك وحضوه وأيدوه، وكأنهم يرون ذلك إضعافاً لدعوة صالح عليه السلام، وتوهيناً من شأنه وتحطيماً لأمره. قال تعالى: "وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا"⁶

(1) - سورة الشعراء: الآية 136

(2) - سورة المؤمنون: آية 39

(3) - سورة الأعراف: آية 72

(4) - سورة الشعراء ك من الآيات 154 -- 156

(5) - سورة الأعراف: من آية 73

(6) - سورة الإسراء: من آية 59

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَرَ مِنْهُمْ أَنْ صَلَاتًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ. فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"¹
 "فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ"²

"كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا"³ وكان ذلك الشقي⁴ ت

الذي تولى عقر الناقة من كبراء ثمود، يشير إلى ذلك ما رواه عبد الله بن زمرة رضي الله عنه "أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا" انبعث لها رجل عزيز عارم⁵ منيع⁶ في رهطه مثل أبي زمعة⁷

وفي قصة موسى عليه السلام يتضح الكذب جلياً متواصلاً، والجحود متجدداً متلاحقاً، من فرعون وملكه لموسى عليه السلام ولما جاء به من الدعوة إلى رب العلمين.

فما إن فاتحه موسى عليه السلام في أمر الدعوة إلى عبادة الله وحده حتى واجهه بالإنكار والرفض وطلب منه ما يثبت دعواه. "قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"⁸

فأجربى الله سبحانه على يديه المعجزتين الخارقتين، معجزة العصا تصبح حية تسعى، واليد يدخلها في جيبه عليه السلام ثم يخرجها بيضاء غير سوء.

(1) - سورة الأعراف: آية 75 - 77

(2) - سورة القمر: آية 29

(3) - سورة الشمس: من الآيات 11-14

(4) - ذكر ان اسمه: قدار بن سالف. ينظر: تفسير ابن كثير 4/ 517، تفسير الطبري 30/ 214، فتح الباري، 6/ 468،

(5) - العارم هو الشرير المفسد الخبيث، ينظر شرح النووي على صحيح مسلم 17/ 188

(6) - أي قوي، ذومعة، أي رهط يمنعونه من الضيم "فتح الباري 8/ 918

(7) - هو الأسود بن مطلب بن أسد، كان أحد المستهزئين، ومات على كفره بمكة ينظر فتح الباري 8/ 915

(8) - سورة الأعراف: آية 106

"قَالَ قُلْتُ غَضَاءٌ فَإِذَا هِيَ تُغَيَّبَانُ مُبَيَّنٌ . وَتَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاطِرِينَ.¹" وبدلاً من أن يستجيب فرعون لللهدي، والحق المؤيد بالبيانات، استكبر عن الإذعان وأصر على الجحود والطغيان كما قال الله جل وعلا: "ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ"²

"فأراه الآية الكبرى، فكذب وعصى"³

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ"⁴

ولا يكتفي فرعون بالتكذيب، واتهام موسى عليه السلام بأنه ساحر بل يتحرك والملأ من حاشيته لمواجهة هذا السحر - في زعمهم - أملاً في القضاء على الدعوة، حين يظهر موسى عليه السلام أمام الناس بمظهر الساحر المبين لا الرسول من رب العلمين.

"قَالَ لِلْمَلَإِ حَؤْلُهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ. قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ. بِأَثْوَكِ كُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"⁵

وهكذا كان الرأي من الملأ يشيرون به على فرعون أن يجمع السحرة المتمكنين من المدائن والأقاليم، ليقوموا بعملية التحدي والمعارضة لما جاء به موسى عليه السلام من المعجزة، ومقصدتهم من ذلك أن يظهر موسى عليه السلام بمظهر من الكاذب المفتري الذي يستغل صنعة السحر للادعاء بما ليس محققاً فيه، وحينئذ تنتهي هذه الدعوة التي أفضت مضاجعهم، وهزت أركانهم، ويكون حينها لتكذيبهم ما يبرره، ولجحودهم وعدائهم لموسى عليه السلام ما يسوغه.

ويصرح فرعون في مواجهته لموسى عليه السلام بما أجمع أمر الملأ عليه: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى"¹

(1) - سورة الأعراف: آية 107 - 108

(2) - سورة يونس عليه السلام: آية 75

(3) - سورة النازعات: آية 20 - 21

(4) - سورة يونس عليه السلام: آية 78

(5) - سورة الشعراء: آية 34 - 37

والمعنى كما يقول ابن كثير: "إن عندنا سحرا مثل سحرك فلا يفرنك ماأنت فيه فاجعل بيننا وبينك موعدا، أي يوما نجتمع نحن وأنت فيه فنعارض ماجئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين".²

وهكذا طلب فرعون إلى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة، وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدي "فاجعل بيننا وبينك موعدا" وشدد عليه في عدم إخلاف الموعد زيادة في التحدي "لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ" وأن يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف "مكانا سوى" مبالغة في التحدي.³

ويستمر فرعون في الإعداد للمعارضة بجمع السحرة، الماهرين السحر التفنين فيه:

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَثْبِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"⁴

ويأتيه السحرة فيعدهم بالمال والجاء.

"وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"⁵

وفي اليوم الموعد يجتمع الناس بتوجيه من فرعون، ويستعد الباطل لمواجهة الحق ومجابهته، ويلقي السحرة عصيهم.

"فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"⁶ ويشاء الله سبحانه أن ينصر الحق مع نبيه موسى عليه السلام: وَأَوْخَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ"⁷

ومع ظهور الحق واستنارته، واندحار الباطل وهزيمته، ومع شهادة البيئة والمعجزة القاطعة لموسى عليه السلام بصحة ماجاء به، مع ذلك كله يستمر فرعون فيما بدأه من نهج الجحود، فيعلن أن ما فعله السحرة أمر

(1) - سورة طه: آية 56 - 58

(2) - تفسير ابن كثير 3/ 156

(3) - تفسير ظلال القرآن 4/ 3340، وينظر تفسير البحر المحيط 6/ 254

(4) - سورة يونس عليه السلام: آية 79

(5) - سورة الأعراف: آية 113 - 114

(6) - سورة الأعراف آية 116

(7) - سورة الأعراف: آية 117 - 122

مخطط له سابقا مع موسى عليه السلام، ولولا ذلك لما كان لموسى شأن ولذا فهو عازم على المواجهة والانتقام.

وتمر الأيام وتتوالى معها الآيات الإلهية على فرعون وملته:

"وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّبْيَيْنِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ"¹ ولكن تلك القلوب الغافلة لا طريق لها إلى التذكر والعظة، فأصحابها سادرون في غيهم، مستمرون في تكذيبهم.

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْحَكُونَ."²

"فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ"³

وتنوع الآيات، وتجدد آية بعد آية كما قال سبحانه: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ"⁴

كل ذلك لعلهم يفقهون من سباتهم، ويستيقظون من غفلتهم، ويعودون مؤمنين بالله سبحانه:

"وَمَا تُرِيدُ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"⁵

ولكن أولئك الطغاة، وفي مقدمتهم فرعون، قد قرروا أن لا رجوع إلى الحق والهدى مهما كانت الدلائل، ومهما تجددت البراهين، ومهما علت منارات الإيمان، فظلوا مستكبرين عن اتباع الحق، مصرين على الإجرام، كما قال سبحانه في بيان حالهم: "فاستكبروا وما كانوا مجرمين"⁶

"فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَخَجَعُوا بِهَا وَاسْتَيْفَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغْلًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"¹

(1) - سورة الأعراف: آية 130

(2) - سورة الأحزاب: آية 46-47

(3) - سورة الأعراف: من آية 131

(4) - سورة الأعراف: آية 133

(5) - سورة الزخرف: آية 48

(6) - سورة الأعراف: آية 133

بل كانوا كلما نزلت بهم آية من تلك الآيات، وعقوبة من تلك العقوبات سارعوا إلى موسى عليه السلام، يناشدونه دعاء ربه أن يزيل عنهم البأس، مقدمين له العهود الموثقة بالإيمان بدعوته، والدخول في دين الله سبحانه، فإذا استجاب الله عز وجل دعاء نبيه عليه السلام، ورفع عنهم ما هم فيه من البلاء أخلفوا ما وعدوا به، واستمروا على جحودهم وتكذيبهم، بل جعلوا ذلك علامة على قوة السحر لدى موسى عليه السلام:

"وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْقُوَّةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ"²

"وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"³

قال ابن كثير: "يقولون أي آية جئتنا بها، ودلالة وحجة أقمتها، رددنا فلا نقبلها منك، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به".⁴

فكلما مرت آية جددوا أعلامهم للتكذيب والجحود، برروا موقفهم، وعللوا ما يرون بأنه من نتائج السحر.

ونتيجة لهذا التكذيب المتجدد المتواصل نزل بهم عقاب الله سبحانه كما قال تعالى: "وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ. كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ"⁵

"كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ"⁶

"فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"⁷

(1) - سورة النمل: من الآيات 13 - 14

(2) - سورة الأعراف: آية 134 - 135

(3) - سورة الأعراف: آية 132

(4) - تفسير ابن كثير 2/ 240

(5) - سورة القمر: آية 41 - 42

(6) - سورة الأنفال: آية 54

(7) - سورة الأعراف: آية 136

وما حال الملأ من قريش كأبي جهل وأمثاله عن أولئك السابقين ببعيد حين قالوا مقولتهم يعلنون فيها دعوة التكذيب منهم، ويقنطون بما رسول الله ﷺ من الأمل في أن يحصل لديهم شيء من الميل إلى الإيمان بالدعوة، والاستجابة للهدى، والانتقال إلى التوحيد.

"وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ"¹

فقد وقفوا من رسول الله ﷺ موقف التكذيب بداية ولم يأس الرسول ﷺ بل استمر يدعوهم إلى الله سبحانه، وهم في ذات الوقت يكررون التكذيب ويستمرئون الجحود، بل ويطلبون منه ﷺ أن يتوقف عن دعوتهم إذا لا أمل في الإذعان لمنهج التوحيد الذي جاء به ﷺ.

قال الألوسي: "وما ذكره من الجمل الثلاث تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله، ومع أسمعهم له، وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ، وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يدعوهم إلى الصراط السمتقيم"².

وقد تكررت الآيات الكريمة تصف موقف هؤلاء المستكبرين في الجحود بنبوته عليه الصلاة والسلام، وإنكار رسالته، والنفور من دعوته، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى: "وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ رَّكَّبْنَا فِي الْقُرْآنِ وَخُذْهُ وَلَوْ أَنَّا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا"³

قال صاحب الظلال: "فهو العناد والإصرار ابتداء على رفض الهدى في كل مصادره، لا القرآن ولا الكتب التي سبقته والتي تدل على صدقه، فلا هذا ولا ذاك هم مستعدون للإيمان به، لا اليوم ولا الغد، ومعنى هذا أنهم يصرون على الكفر، ويجزمون عن قصد بأنهم لن ينظروا في دلائل الهدى كائنة ماكانت، فهو العمد إذن وسبق الإصرار"⁴.

يقول المغيرة بن شعبة رضى الله عنه: "إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِّي كُنْتُ أُمِّشِي أَنَا وَأَبُو جَهْلٍ بَنِي هِشَامٍ فِي بَعْضِ أَرْقَةِ مَكَّةَ، إِذَا لَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(1) - سورة: فصلت: آية 5

(2) - تفسير روح المعاني 96 / 24

(3) - سورة الإسراء: من آية 46

(4) - تفسير في ظلال القرآن 2908 / 5

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَيِّ جَهْلٍ: "يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ، قَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ أَنْتَ مُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا؟ هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَتَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَوَاللَّهِ لَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ مَا تَقُولُ حَقٌّ مَا اتَّبَعْتُكَ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَقْبَلَ عَلَى: فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنَّ بَنِي قُصَيٍّ، قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، فَقَالُوا: فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا اللَّوَاءُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، قَالُوا: فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرِّكَبُ، قَالُوا: مَنَّا نَبِيُّ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ¹"

وكما تلفظ الملأ من قريش بعبارات النقيض من قبولهم للهدى الإلهي فقد ردد أحبار يهود مثل ذلك أيضا ليعبروا عما تحمله نفوسهم من الرفض القاطع للحق الرباني في دعوة رسول الله ﷺ كما قال الله: "وقالوا قلوبنا غلف"²

"أي عليها أغطية"³ فلا تنفذ إليها كلماته عليه الصلاة والسلام، ولا تؤثر فيهم المواعظ والبيانات، ومن ثم فلا جدوي - حسب مرامهم - من الاستمرار في دعوتهم ولا أمل في استجابتهم للحق وإيمانهم برسول الله ﷺ.

إن هؤلاء الأحبار يختارون طريق التكذيب والجحود مع معرفتهم اليقينية بصحة رسالة نبينا ﷺ، إذ أن التوراة تذكرة وتبشر به وتأمر باتباعه، ومع ذلك نبذوا الحق وجانبوا الهدى بغيا وحسدا وعنادا، كما قال الله عز وجل: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"⁴

والمقصود هنا أحبار يهود وعلمائهم⁵ الذين أنكروا معرفتهم به عليه الصلاة والسلام من خلال التوراة، وجحدوا أن يكون فيها إيراد لنبوته ﷺ، أو دعوة إلى تصديقه واتباع أمره.

(1) - رواه البيهقي في الدلائل 2/ 207، وأورده ابن كثير في البداية نغلا عنه 3/ 83

(2) - سورة البقرة: من آية 88

(3) - تفسير القرطبي 2/ 19

(4) - سورة البقرة آية 101

(5) - ينظر تفسير القرطبي 1/ 443

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال ابن سوريا الفطيويني¹ لرسول الله ﷺ: يا نبي الله ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها.²

وعنه رضي الله عنهما أيضا قال: قال مالك بن الصيف³ حين بعث رسول الله ﷺ وذكر لهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد الله إليهم فيه: والله ما عهد إلينا في محمد ﷺ، وما أخذ له علينا من ميثاق، فأنزل الله جل ثناؤه.

"أَوَكَلَّمْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا تُبَدُّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"⁴،⁵

"ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه وهو يحكي قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة: فَلَمَّا جَاءَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّكَ جِئْتَ بِحَقٍّ، وَقَدْ عَلِمْتُ يَهُودَ أَنِّي سَيِّدُهُمْ وَأَبْنُ سَيِّدِهِمْ، وَأَعْلَمُهُمْ وَأَبْنُ أَعْلَمِهِمْ، فَادْعُهُمْ فَاسْأَلْتَهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، قَالُوا يَا مَا لَيْسَ بِهِ، فَأَرْسَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلُوا فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَإِلَيْكُمْ أَتُّوَا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ فَاسْأَلُونِي"، قَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ، قَالُوا: لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: "قَائِي رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟" قَالُوا: ذَلِكَ سَيِّدُنَا وَأَبْنُ سَيِّدِنَا، وَأَعْلَمُنَا وَأَبْنُ أَعْلَمِنَا، قَالَ: "أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟" قَالُوا: حَاشَى اللَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: "أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟" قَالُوا: حَاشَى اللَّهِ مَا كَانَ لِيُسْلِمَ، قَالَ: "يَا ابْنَ سَلَامٍ، اخْرُجْ عَلَيْهِمْ"، فَخَرَجَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَتُّوَا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنْ كُنْتُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَّهُ جَاءَ بِحَقٍّ، فَقَالُوا: كَذَبْتَ، فَأَخْرَجَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"⁶

- (1) - من يهود بين ثعلبة بن الفطيويني، من أخبارهم المشهورين - ينظرون السيرة النبوية لابن هشام 2/ 112
- (2) - رواه ابن جرير: تفسير القرطبي 1/ 441، وابن أبي حاتم كما في باب النقول ص 23، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 2/ 151، تفسير ابن كثير 1/ 133.
- (3) - من أخبار يهود بني قينقاع، ينظر السيرة النبوية لابن هشام 2/ 113
- (4) - سورة البقرة: آية 100،
- (5) - رواه ابن جرير: تفسير الطبري 1/ 442، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 2/ 151، تفسير ابن كثير 1/ 134،
- لباب النقول ص 23
- (6) - رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة 3/ 1424

وهكذا لم يؤمن من أحبار يهود إلى القليل، واختار معظمهم سبيل الجحود مع وضوح دلائل نبوته ﷺ لديهم خاصة بما لا يجتمع في العموم لدى غيرهم.

لقد جمع أولئك الأحبار المستنكفون بين إنكار شواهد رسالة نبينا ﷺ في التوراة، وأوصافه فيها، وكونه عليه الصلاة والسلام هو من بشرت به التوراة، وبين إنكار أن يكون شيء مما جاء به ﷺ من الآيات يمكن أن يمثل بينة تشهد له بصحة النبوة، وصدق القول.

وتلك قمة الجحود، وصدق الله سبحانه إذ يقول: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ"¹

المبحث الثاني: الإغراء والترغيب

من أسلوب المكذبين واستبدادهم، الإغراء والمساومة والترغيب، لاحبا في الرسول عليه السلام وأتباعه المؤمنين، ولا رغبة في التقرب إلى الحق أو قبوله، وإنما أملا في فتنه الرسول عليه السلام والفئة المؤمنة من حوله، وإنهاء موقفهم الصلب، حين يوافقون على التنازل عن مبادئهم، وحينئذ يسهل القضاء على الدعوة بتخلي أهلها عنها، أو على الأقل منع انتشارها، وإنكفاف الناس عنها، لأنها ستظهر أمام الأعين دعوة لامبدأ فيها ولا ثوابت لها.

وهذا ما فعله الملأ من قريش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرضوا عليه مجموعة من العروض يغرونه بها، ويرغبون من خلالها في التنازل عما جاء به من الدين والكف عن دعوة الناس إليه وترك الهجوم على المنه الشركي الذي يعيشونه. قال ابن اسحاق "حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا - قال يوما وهو جالس في نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش: ألا أقوم إلى محمد فأكمله وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثر فقالوا بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمة."

فقال إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة⁽¹⁾ في العشرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به ألفتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آباءهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا هلكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا² تراه

(1) - السطة: بكسر السين وفتح الطاء أي المكانة والخيرة حسبا وشرفا، من قولهم: فلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبا وأرفعهم مجدا.

(2) - كانوا يسمون التابع من الجن رثيا. السيرة النبوية لابن هشام ص 226 - 227

لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه.¹

وفي رواية البغوي وغيره: "إن كنت تريد الرياسة عقدنا لك ألويتنا فكنت رأسا ما بقيت، وإن كنت الباءة زوجناك عشر نسوة نختار من أي بنات قريش، وإن كان بك المال جمعنا لك ما تستغني أنت وعقبك من بعدك. ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" [حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا.....] إلى قوله [فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ] (2) (3).

من خلال ما سبق يمكن للمتاأمل أن يلحظ ما يلي:

أولاً: أن الدافع لهؤلاء الكبراء إلى هذا الترغيب والإغراء، ليس هو المحبة لرسول الله ﷺ والعطف عليه، وليس هو الرقة في قلوبهم، وغلبة الخير على نفوسهم.

إنما الباعث الحقيقي هو المحاولة الجادة في إيقاع رسول الله ﷺ في حبال الفتنة في الدين والدعوة، كما قال الله سبحانه: "وَإِنْ كَاذِبُوا لَيُفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتُفْتَرَىٰ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ خَلِيلًا"⁴

فالقصد إذن هو إزاحة الرسول ﷺ عن الدعوة، وإغراؤه بالتنازل عن العقيدة التي يدعو إليها، والإرتداد عن الدين الذي يحمله، وتركهم وما اختاروه لأنفسهم وللمجتمع من العقيدة والمنهج.

ذلك واضح في تصريح عتبة ابن ربيعة لأقرانه حين قال لهم: "ألا أقوم إلى محمد فأكملة وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا"

فالتمس إذن لهذا العرض هو أن يكف عنهم، ومظهر الكف بطبيعة الحال هو أن يتوقف فوراً عن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى.

(1) - موقف الملة من الرسل، ص، 353.

(2) - سورة فصلت: آية 1-3

(3) - سبق ترجمه ص 4

(4) - سورة الإسراء آية 73

ثانياً: أن هذا الترغيب وذلك الإغراء هو أحد وسائل الملأ في اكليد للدعوة وأهلها، والمكر بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، أملاً في إطفاء جذوته، وتحجيم كيانه، وتضييق دوائرهم، وتخفيف المنيع الأساسي لهم، ألا وهو ما يأتي به الرسول ﷺ عن الله سبحانه، ولذلك جاء في الرواية أنهم تحركوا (حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزدون ويكثرون)

ثالثاً: قدم عتبة لعرضه بمقدمة تتضمن الثناء على رسول الله ﷺ إذ قال له: "إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشير والمكان في النسب".

وهذا الثناء هو جزء من عملية الإغراء، والمقصود من ذلك محاولة التأثير نفسياً على رسول الله ﷺ لعل قناته أن تلين، فيرضخ لمطالبهم بالكف عن الدعوة.

وقريب من ذلك ما قالته ثمود لنبى الله صالح عليه السلام: "قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ"¹

"أي كنا نرجو أن تكون فينا سيذا مطاعاً نتفع برأيك ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من ادعائك النبوة ودعوتك إلى التوحيد".²

رابعاً: عرض أولئك الأكابر اشتمل على مجموعة من الأمور ترك فيها الاختيار لرسول الله ﷺ، ليتخير منها ما يرغبه وتميل إليه نفسه.

فقد عرضوا عليه المال، وعرضوا عليه الملك والسيادة، وعرضوا عليه الإنفاق على علاجه إن كان يشتكي بأساً... وهكذا تعددت الإغراءات له عليه الصلاة والسلام، وكان لسان حالهم يقول: اطلب ماشئت من أمر الدنيا نحققه له مقابل إيقاف الدعوة، والتنازل عن ثوابتها القائمة على توحيد الله سبحانه وعبادته وحده.

خامساً: يتضح كذلك أن هذا الأسلوب في المواجهة هين خفيف على الملأ، ولذا فهم يرجون ويأملون أن يصلوا إلى هدفهم بهذا الطريق، لأنه لا يكلفهم الكثير من العناء، فرضوخ الرسول ﷺ - في نظرهم - لهذه المساومة، وانحناؤه تحت سبل الإغراء سيكون كفيلاً بانتهاء الدعوة، وتفرق المؤمنين بها.

(1) - سورة هود عليه السلام: من آية 62

(2) - تفسير فتح القدير 2/ 507-508

سادسا: ويبدو كذلك أنهم يريدون سحب الرسول ﷺ إلى مستنقع المادة والشهوة، فإذا حصل ذلك حسب تخطيطهم - حاشاه ﷺ - فإن المبدأ سيسقط، وستنتهي قداسة الدين، وستزول مكانة الدعوة نفسها - وسينسى الناس الأمر كله، ویمنحنی أثره في نفوسهم لأنه قائم على الشهوة والمادة، لا على المبدأ والعقيدة، ومتى تأصل هذا المعنى في النفوس هانت الدعوة ولم يعد لها عامل جذب يشد الناس حولها. وهذا هو ما يهدف إليه الطغاة دائما.

وحينذاك سيسهل عليهم أيضا قطع تلك الامتيازات المغرية نفسها بشكل أو بآخر - متى أرادوا إذ لن يكون هناك أمل في بعث الدعوة من جديد، بعد ارتباطها في الأذهان بالمادة والشهوات.

وأسلوب آخر كانوا يساومون به رسول الله ﷺ، يعتمد على مطالبته بالالتقاء معهم في منتصف الطريق، بحيث يتنازل عن قضية التوحيد في دينه الذي يدعو إليه. ويتنازلون هم عن بعض دينهم الباطل.

عن محمد بن اسحاق قال: حدثني سعيد بن مينا¹ قال: "لقى الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف رسول الله ﷺ، فقالوا يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك، كنت قد شركنا في أمرنا، وأخذت منه بحظك، فانزل الله "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ" حتى انقضت السورة²

هذا الخبر بالإضافة إلى بعض آيات القرآن الكريم كقول الله تعالى: "فَلَا تُطِيعِ الْمُشْكِكِينَ. وَذُوا لَوْ تُذْهِرُ قَيْذِهُنُونَ"³

وقوله سبحانه: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"⁴

(1) - سعيد بن مينا: بكسر الميم وسكون الهاء. بمدون يقصر. المغني ص 244، الاكمال 7/ 307

(2) - رواه ابن جرير: تفسير الطبري 30/ 331، وابن أبي حاتم كما في لباب النقول ص 237، قال أكرم العمري: علته الارسال، السيرة النبوية الصحيحة 10/ 163 (الحاشية)، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 1/ 290، فتح القدير 5/ 508، أسباب النزول للواحدي ص 505، البداية 3/ 112، سبل الهدى والرشاد 2/ 559.

(3) - سورة القلم: آية 8-9

(4) - سورة الكافرون: آية 1-6

كل ذلك يشير إلى أن هناك مساومة من هذا النوع نفذها الملأ من قريش كجزء من وسائل المواجهة لرسول الله ﷺ.

وهم يريدون بذلك زحزحته ﷺ عن موقفه الثابت في أمر العقيدة ومسألة الدين، ويودون تحويل القضية برمتها من صورة المبادئ التي يمكن أن تتبدل ما دامت حقا وصدقا إلى الشكل التجاري القائم على المصلحة المتبادلة، وعلى كمية الربح والتمن المقدم، وعلى تنازل الطرفين مقابل الاتفاق، وهذا بلا شك سيفقد الدين كله صورة العقائد الصحيحة الثابتة التي لا تزول ولا تتغير، ويحول إلى مجموعة من الأفكار الأرضية الزائلة القابلة للمساومة والأخذ والعطاء والتحجيم والنقصان حسب الثمن المدفوع والمقابل المقدم.

ومن ثم فقد استهدفوا من محاولتهم هذه وغيرها تبيع قضية الدين والمنهج الشرعي لدى نبي الله عليه الصلاة والسلام، ولا بأس عندهم في المقابل أن يتنازلوا عن جزء من الدين لديهم، ذلك أنهم لا يملكون أصلا ديناً صحيحاً أو منهجاً قائماً على الحق الثابت.

ولذلك خطاب الله سبحانه رسوله ﷺ بقوله عز وجل: "فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَذُوا لَوْ تَذَهَبُوا فَيُذْهِبُونَ"¹

والمعنى "وَذُ هؤلاء المشركون يا محمد لو تدين لهم دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم فيلنوك لك في عبادت إلهك".²

إنهم يرومون فتنه عليه الصلاة والسلام، وتحويل دعوته عن خطها الأصل، ويوم أن تنحرف الدعوة عن مبادئها وثوابتها فيسكون ذلك بداية نهايتها، وهذا ما يرجون ويأملون.

ويتجه الملأ - أيضا - إلى أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم، ليساوموهم في أمر الدين، كلما حانت لهم الفرصة، بغية فتنهم في دينهم، ودفعهم إلى الارتداد عن الإسلام.

يقول خباب بن الارت: "رضى الله عنه: كنت قينا⁴ بمكة فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد"¹

(1) - سورة القلم: آية 8-9

(2) - تفسير الطبري 29 - 21 - 22

(3) - خباب - بتشديد الباء، والأرت: فتح الراء وتشديد التاء.

(4) - بفتح القاف وسكون الياء، أي حدادا. ينظر فتح الباري 8/ 549

فالعاص بن وائل في هذا الموقف يساوم خباباً رضي الله عنه في دينه ويحاول أن يضغط عليه بحقوقه المالية عنده، جاعلاً منها مجالا للمساومة، بأن يكون التسديد العاجل ومن ثم استمرار التعامل معه مقابل للخروج من الفتنة المؤمنة، وإعلان التكذيب بالدعوة، والكفر بالله سبحانه.

وفي قصي كعب بن مالك رضي الله عنه، في تخلفه عن غزوة تبوك، وأم الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم باعتزاله رضي الله عنه، تظهر صورة من صور الإغراء من المملأ المكذبين للفتنة المؤمنة، يقول كعب رضي الله عنه - ضمن روايته - " فيينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام² ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلى كتابا من ملك غسان، فإذا فيه أن أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيفة فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء فتيمنت³ بها التنور⁴ فسجرت⁵

فملك غسان يستغل الأزمة النفسية لكعب رضي الله عنه، وهو في تلك الحالة من الهم والكرب، ليحاول إغرائه بالمال المكانة، وبالغزو والشرف، وبالحياة الرغيدة والعيش في كنف الملوك، ولا شك أن لكل ذلك مقابلا، وهو الابتعاد عن دائرة الدعوة والخروج عن دين رسول الله ﷺ، والحق بالكفر وأهله.

(1) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله [أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا] 4 / 1761

(2) - الأنباط من فلاحوا العجم. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم 93 / 17

(3) - أي قصدت " فتح الباري 8 / 152

(4) - التنور ما يخبز فيه. فتح الباري 8 / 152

(5) - أي أوقدته وأحرته. ينظر فتح الباري 8 / 152

المبحث الثالث: التهديد والوعيد

يجد الملأ المكذبون للرسل عليهم السلام أنفسهم أمام آيات بينات، وبراهين واضحات، وحجج قاطعات، تجعل الحق ظاهراً مبيناً في صف الرسل عليه السلام.

وفي المقابل يجدون أنفسهم خالين من الحجة الحقيقية، فارغين من البرهان الصحيح، إلا من شبهة يلبسوها ثوب الحجة لا تأتي دائماً بما يشتهون ويتمنون، من الصد عن سبيل الله، وإيقاف تيار الدعوة الربانية.

لذلك يلجأ أولئك الملأ المستكبرون إلى أساليب أخرى، يرونها ناجعة في التأثير على الدعاة من الرسل عليهم السلام، والمؤمنين بدعوتهم.

ومن هذه الأساليب أسلوب التخويف والتوعد والتهديد، وهم يقصدون به - بداية - إرهاب الرسول صلى الله عليه وسلم، لعل يتوقف عن الاستمرار في الدعوة، أو على الأقل يخفف من حماسة ونشاطه، ويقف به عند حد معين لا يزعجهم، ولا يؤثر على منهجهم الجاهلي الذي ارتضوه لحياتهم.

وهم في ذات الوقت يهدفون إلى إرهاب من تواتيه فكرة الاستجابة للدعوة، إذ أنه حيثئذ سيفكر مرات قبل أن يستجيب، إذ أن الإيمان بالله سبحانه والاستجابة للدعوة ستكون عاقبته التعرض لأشكال من التهديد في النفس والمال أو الاستقرار، وهذا حسب تخطيطهم - يساعد على تحجيم المؤمنين في المجتمع، وتقليص قواعدهم، كما أن الفئة المؤمنة نفسها قد يصيبها الخوف على أمنها في حياتها أو غذائها أو استقرارها، فيلتجئ البعض أو يتردد، وقد ينسحب من دائرة المؤمنين ليرتد إلى الكفر أملاً في النجاة من تهديد الطغاة وبطشهم كل ذلك يأمله الملأ الكافرون في اتجاههم لهذا النوع من المجاهرة للإيمان وأهله.

وفي قصص الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم غاذج وصور لهذا التهديد والوعيد.

فقد تعرض نوح عليه السلام للتهديد من المتسكرين من قومه، والذين بيدهم من السيادة ما يمكنهم من تنفيذ تهديداتهم. كما قال الله سبحانه وتعالى. "قالوا لئن لم تنته يا نوح...." ¹

ومن خلال هذه الآية وما قبلها في السياق يتضح لنا العقوبة التي هدد بها نوح عليه السلام، والجريمة التي من أجلها استحق - في نظرهم - هذا التهديد، والتمن المطلوب من نوح عليه السلام حتى ينجو من الاحتمالات القائمة لتنفيذ الوعيد.

أما العقوبة التي هدد بها نوح عليه السلام هنا فهي الرجم بالحجارة، ومن ثم فهو توعّد بالقتل¹ بهذه الوسيلة الشديدة الغليظة.

وأما المطلوب منه ليلغى المستكبرون تهديدهم، ويحمدوا تنفيذه، فهو أن يتوقف نبي الله نوح عليه السلام عن الاستمرار في الدعوة وينتهي عن بذل الجهود لاستقطاب الناس ليدخلوا في دين الله سبحانه، وأما جريمته عليه السلام - في زعمهم - فهي دعوته إلى الدين الصحيح المنزل من رب العالمين، وتقديم النصيحة لهم بتقوى الله سبحانه، وعبادته وتوحيده، والتوجه له وحده دون سواه، والبراءة من الحياة الجاهلية القائمة على الشرك والضلال وعبادة تلك الآلهة المزعومة من دون الله، وتخويفهم بعذاب الله تعالى إن هم أصروا على الشرك والكفر.

هذا هو ذنبه الذي يستحق عليه هذا التهديد بالرجم، لما لم يستطع أولئك المستكبرون مواجهة نوح عليه السلام بالجة والبرهان.

قال صاحب الظلال: "فلما أن واجههم نوح عليه السلام بحجته الواضحة، ومنطقة المستقيم وعجزوا عن المضى في الجدل بالحجة والبرهان لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة. وخذله البرهان. لجأوا التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عند ما تعوزهم الحجة، ويعجزهم البرهان".

"قالوا لمن لم تنته..... المرجومين"²

"وأسفر الطغيان عن وجهة الكالح، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة"³

(1) - ينظر تفسير القرطبي 82 / 13

(2) - سورة الشعراء: آية 116

(3) - في ظلال القرآن، 5 / 2608

ويتعرض لوط عليه السلام للتهديد بنوح آخر من البطش والإيذاء يتمثل في النفس من البلد، والإخراج من الوطن الذي يعيش فيه، ولا يتوقف هذا التهديد إلا بتمن ومقابل، هو الانتهاء من جهته عليه السلام عن الدعوة، وتركها بالكلية، إذا كانت له رغبة في الحياة بأرضه.

"قالوا لمن لم تنته..... من المخرجين"¹

فلوط عليه السلام - حسب مقولتهم - يستحق الإخراج والنفي لأنه ارتكب جريمة في حقهم تتمثل في الدعوة - مجرد الدعوة - إلى دين الله سبحانه وتوحيده، ونشر الفضيلة، ومحاربة الفاحشة الشاذة التي انتشرت في محيطهم.

ولكن هذه الدعوة كانت مخالفة لمنهجهم، مضادة لرغباتهم وشهواتهم فكان جوابهم الأخير هو تهديد نبيهم لوط عليه السلام ومن آمن بدعوته، وسار على نهج الإيمان والفضيلة، بالنفي والطراد والإبعاد، كما قال سبحانه وتعالى: "فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْكَرُ بَنَاتِهِمْ"²

قال ابن تيمية: "ثم إن أهل الفاحشة توعدوه وتهددوهم بإخراجهم القرية. وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاتهم طلبوا نفيه وإخراجه"³

ويتلقى نبي الله شعيب عليه السلام ومعه المؤمنون بدعوته المتمسكون بدين ربهم سبحانه تهديد الملأ المستكبرين بالنفي أيضاً، كما قال الله تعالى: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"⁴

فالملأ يرون أن بقاء شعيب عليه السلام والفتة المؤمنة في البلد سيسبب الفتنة، وينشيء لهم الحرج، ويرجعهم بما يدعوا إليه، مما يأبون أن يكون منهجا وعقيدة للبلد وأهلها، ومن ثم فإن الحل القائم - في نظرهم - هو إخراجهم والمؤمنين إيمانهم، ويعود الجميع إلى منهج القوم ودينهم المتمثل في الشرك والكفر وعبادة الآلهة من

(1) - سورة الشعراء: آية 167

(2) - سورة النمل: آية 56

(3) - مجموع الفتاوى ابن تيمية 334/15

(4) - سورة الأعراف ابن تيمية 334/15

دون الله تعالى، وحرية التصرف للمال في المعاملات بالطريقة التي تملو لهم بعيدا عن الانضباط بأي قيود أو ضوابط، وبغض النظر عن حقوق الآخرين.

فإذا هذا وإما ذاك "لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا"

قال صاحب الظلال عند قول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ". قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولُو حُكْمٍ كَارِهِينَ¹

"لقد دعاهم إلى أعدل خطة، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة، نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى وترك كل وما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، ولكن الطواغيث لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثل في جماعة من الناس لا تدين للطواغوت.

إن وجود جماعة مسلمة في الأرض لا تدين إلا الله، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه، ولا تحكم في حياتها شرعا إلا شرعه، ولا تتبع في حياتها منهجا إلا منهجه، إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيث حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها وتركت الطواغيث لحكم الله حين يأتي مواعده.

إن الطواغوت يفرض المعركة فرضا على الجماعة المسلمة حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة، إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل، إنما سنة الله لا بد أن تجري. "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا"، هكذا في تبجح سافر وفي إصرار على المعركة لا يقبل الله المهادنة والتعايش.²

وكما تلقى شعيب عليه السلام منح التهديد بالإبعاد، فقد تلقى كذلك تهديدهم بالقتل بأسلوب غير مباشر، حين قالوا له كما حكى القرآن الكريم: "وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ"³

أي لقتلناك بالرجم¹ والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا له أنه لا حرمة له عندهم، ولا وقع له في صدورهم، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطة²

(1) - سورة الأعراف: من الآيات 87 - 88

(2) - في ظلال القرآن 3/ 1318

(3) - سورة هود عليه السلام: آية 91

وفي ذلك فيما يبدو تهديد مبطن له بالتخلي عن قضية الدعوة والرسالة حتى يتسنى له العيش في هدوء وراحة.

وقد ذكر القرآن الكريم أيضا أنهم كانوا يتهددون المؤمنين ويخوفونهم ويتوعدونهم إن هم استمروا على طريق الإيمان بدعوة شعيب عليه السلام، وذلك في قول الله سبحانه على لسان شعيب عليه السلام مخاطبا المكذبين.

"وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ"³ والمعنى كما قال ابن جرير: "ولا تجلسوا بكل طريق، وهو الصراط توعدون المؤمنين بالقتل".⁴

والقرآن الكريم يخبرنا أن هناك رسلا آخرين عليهم السلام تلقوا التهديد بالنفي والإبعاد إن لم يتنازلوا عما أعلنوه من مبادئ، ويتركوا ما يعايشونه من مناهج، ويتوقفوا عما يتحركون لأجله من الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، واجتناب الطواغيت التي تعبد من دون الله تعالى.

قال الله سبحانه: "لَا يَغْلِبُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ"⁵

وبعد أن ذكر الله عز وجل شيئا مما آثره المكذبون في مواجهة الرسل عليهم السلام قال سبحانه عقب ذلك.

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا"⁶

هذه الآية تقرر أن هذا النوع من الأذى يكاد يكون مجاهدة متكررة، تعرض لها كل رسول.

يقول القرطبي: "خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم. وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده".⁷

(1) - تفسير القرطبي 9 / 61

(2) - التفسير الكبري 18 / 49--50

(3) - سورة الأعراف: من آية 86

(4) - تفسير الطبري 8 / 238

(5) - سورة إبراهيم عليه السلام: من آية 9

(6) - سورة إبراهيم عليه السلام: من آية 13

(7) - تفسير القرطبي 9 / 228 - 229

وموقفان آخريان من مواقف التخويف والوعيد نجدهما في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، أحدهما تهديد فرعون لنبي الله موسى عليه السلام بالسجن، وذلك في مقولته التي حكاها القرآن الكريم في قول الله سبحانه: "قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إمَّا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ"¹

ذلك أن فرعون حاول أن يثنى موسى عليه السلام عن دعوته بالمخاطبة والمجادلة بالباطل في بعض العبارات المتضمنة للشبهات، يصحبها الاستهزاء والتعجب، كل ذلك يلبسه ثوب الحجّة والدليل، قال تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حِوْلُهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَنْجُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"²

ولما وصل الأمر إلى هذا الحد أحس فرعون بجزئته أمام الحجج الصحيحة، والبراهين الساطعة، وأيقن أن المخاطبة والمجادلة لن تجديه نفعا فقرر فرعون حينذاك أن يقطع سبيل الدليل والبرهان، وأن يتخذ أسلوبا آخر لا يعتمد على الحجّة، بل يقوم على البطش والاستعلاء، والقوة والتخويف، فقال مقولته التي تحمل التهديد لموسى عليه السلام.

"قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إمَّا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ"³

وواضح أن فرعون لا يكتفي من موسى عليه السلام أن يرجع عن مسألة الرسالة، أو أن يكف عن الدعوة إلى دين الله سبحانه، أو أن يقف عن الحركة لنشر هذا الدين، بل المطلوب أكبر من ذلك، وهو أن يتجرد موسى عليه السلام في نفسه عن ذلك الدين بالكلية، ما دام يحمل في طياته عقيدة التوحيد لله عزوجل، والتوجه له وحده بالعبادة، وهو ما يرفضه فرعون، إذ كان يدعي أن الرب الذي ينبغي أن يختص وحده بالخضوع، ومن ثم فإن موسى عليه السلام إذا أراد أن ينجو من العقاب — حسب تهديد فرعون — فعليه أن يعلن تنازله عن دين الله سبحانه، وأن يرفع آيات الخضوع والعبودية لفرعون — وحاشاه عليه السلام.

(1) - سورة الشعراء: آية 29

(2) - سورة الشعراء: آية 23 - 28

(3) - سورة الشعراء: آية 29

والموقف الآخر كان من نصيب السحرة الذين عرفوا الحق وتيقنوه، فاعلنوا لإيمانهم، وسجدوا لله رب العلمين: "وَأَوْخَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُتُّوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ"¹

وحقا أن فرعون لم يكن يتوقع أن يرى هذا المشهد للإيمان، والجموع تمنع النظر في نتيجة التحدي، وكان الأمر بالنسبة له مفاجأة أزعجته، وأشعرته بالفزع على سلطانه أن تهتز أركانه وعلى تعاظمه أن يخدش، إذا اقتدت تلك الجماهير بمن آمن من السحرة الأبرار، فكان أن تحرك للقضاء على ما يمكن أن يوجد إيمان هؤلاء من الآثار والنتائج.

وكان مما فعله مواجهة أولئك المؤمنين بالتحذير والوعيد فخاطبهم مهددا لهم بالانتقام وشدة التنكيل. "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنَ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"²

وهو يريد بذلك التأثير عليهم لعلمهم يعودون عن إيمانهم إلى ماكانوا عليه من ملة فرعون، كما أن في التهديد تنفيرا لمن تراوده الفكرة بمتابعة أولئك المؤمنين، والاقتراء بهم في الانضمام إلى قافلة الإيمان.

وقد أجمل فرعون تهديده للسحرة المؤمنين الأبرار ثم فصله، فكان الإجمال في قوله كما حكى القرآن الكريم "فسوف تعلمون" وهو إجمال فيه تهويل وتضخيم، ومبالغة وتعظيم، للعقوبة المنتظرة على الجرم الذي ارتكبه دون أخذ رأي فرعون ومشورته، هذه الجريمة هي الإيمان برب العلمين، والكفر بالوهمية فرعون.

ثم فصل تلك العقوبة التي هددهم بها:

"لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"

وقطع اليد والرجل من خلاف: هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والصليب معلوم، وليس في الإهلاك هددهم أقوى من ذلك.³

(1) - سورة الشعراء: آية 29

(2) - سورة الأعراف: آية 123-124

(3) - التفسير الكبير 24/ 135

فهي تشتمل في الواقع على عقوبتين هددهم بهما أولاها القطع من خلاف، والثانية الصلب بعد ذلك، وفيه زيادة تعذيب وخزي وتنكيل. وكان من مقوله فرعون أيضا في تهديده لأولئك المؤمنين ماحكاه القرآن الكريم على لسانه: "ولتعلمنّ أينما أشدّ عذابا وأبقى"¹

وفيهما إظهار منه للعظمة والجبروت، وإشعار بالقدرة على البطش وإنزال أنواع العذاب بالمخالفين لأمره، والمراد سوف تعلمون من هو صاحب العقاب القوي، والأخذ الأليم، يشير إلى نفسه بطبيعة الحال.

قال ابن جرير "يقول" ولتعلمنّ أينما السحرة أينما أشدّ عذابا لكم وأدون أنا أو موسى.²

ولعله يريد بعبارته تلك أيضا الاستهانة بموسى عليه السلام.

قال الشوكاني: "وهو يريد بكلامه هذا الاستهزاء بموسى لأن موسى لم يكن من التعذيب في شيء"³

وهكذا يوجه فرعون الطاغية تهديده بالتنكيل والبطش الشديد إلى المؤمنين المستندين إلى الحجة والبرهان السديد.

وهذا خاتم الرسل ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم يتلقون صورا من الوعيد والتخويف أيضا، فقد أعلن أبو جهل تهديده بأن يطأ عنقه عليه الصلاة والسلام لو شاهده يصلي.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: "قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: لو فعل لأخذته الملائكة".⁴

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال أبو جهل: هل يعفر⁵

محمدا وجهه بين أظهركم؟ قال: فقل: نعم، فقال: واللوات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب.¹

(1) - سورة طه: من آية 71

(2) - تفسير الطبري 16 / 189

(3) - تفسير فتح القدير 3 / 379

(4) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب [كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة] 4 / 1896

(5) - أي يسجد ويلصق وجهه بالعفر وهو التراب شرح النووي على صحيح مسلم 17 / 139

وفيه نزل قول الله سبحانه وتعالى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْدًا إِذَا صَلَّى"²

قال ابن كثير: "نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت"³

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أخك عن هذا؟ ألم أخك عن هذا؟ فأنصرف النبي ﷺ فزبره"⁴، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بما ناد أكثر مني. فأنزل الله [فليدع ناديه، سندع الزبانية]⁵ فقال"⁶

هذا هو منهج أبي جهل، يتوعد نبي الله ﷺ، وجريته الصلاة بجوار الكعبة، ومن أجلها يستحق التهديد في نظر أبي جهل.

ثم يتهدده مرة أخرى مخوفاً له عليه الصلاة والسلام بكثرة أتباعه وأنصاره.

ولذا قال جل وعلا: فليد ناديه

ولمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه"⁷

ولم ينج المؤمنون أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم من أساليب أبي جهل في التخويف والوعيد، كل حسب وضعه الاجتماعي، فإن كان تاجراً كان التهديد بالتضييق عليه في تجارته، والتأثير عليه مالياً، وإن كان ذا مكانة كان التهديد بتحطيم مكانته بين القوم، وتشويه سمعته، والتأثير على منزلته في المجتمع وهكذا.

روى ابن إسحاق أن أبا جهل كان "إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنه وأخزاه، وقال: تركت دين أليك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنفيلن¹ رأيك، ولنضعن شرفك. وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأعزى به"².

(1) - الحديث رواه مسلم في كتاب صفة القيامة، باب قوله تعالى [إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى] 17/ 139 -

140

(2) - سورة العلق: آية 9-10

(3) - تفسير ابن كثير 4/ 528، وينظر تفسير البغوي 4/ 507

(4) - أي أغلظ له القول. بنظر النابغة 2/ 293

(5) - سورة العلق آية 17-18

(6) - رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة اقرأ باسم ربك 5/ 444، و

(7) - تفسير فتح القدير 5/ 470، وينظر تفسير الطبري 30/ 255

وهو بذلك يعمل على مواجهة الحق بتهديد الرسول ﷺ من جهة، وتهديد أصحابه ﷺ من جهة أخرى، لعل ذلك التهديد يجدي في القضاء على الدعوة، أو التخفيف من شأنها وأثرها، أو على أبعد الأحوال تحجيم دائرة المؤمنين من أن تتسع، وقواعدهم من أن تنمو، فتقتلع الطغاة من الجذور. والأمر معروف أنهم يستخدمون من الوسائل، ضد الدعوة إلى الله حسب الأوضاع لتخويف الداعية والمدعويين.

(1) - أي لنقبحن ونخطآن. ينظر ترتيب القاموس المحيط 544 / 3

(2) - رواه ابن إسحاق دون إسناد: السيرة النبوية لابن هشام 1 / 251، وينظر: البداية 3 / 76، السيرة الحلبية 1 / 378

المبحث الرابع: الإيذاء الروحي والنفسي

يعتبر الإيذاء النفسي من أهم وسائل المجاهدة من الملأ الكاذبين للرسول عليهم السلام، وأتباعهم من المؤمنين بالدعوة، الملتزمين بدين الله سبحانه وتعالى.

والهدف من هذا النوع من الإيذاء هو تدمير نفسيات الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وتخطيم معنوياتهم، وإشعارهم بالإحباط والهوان في نفوسهم، وذلك ليخفف الرسل من توغلهم الدعوي من جهة وليلقل السالكون في دينهم من جهة أخرى خوفاً من التعرض لهذا اللون من الإيذاء، ولتبقى في النهاية صورة المرتبطين بالدعوة وأصحاب العلاقة بها أمام العامة من الناس صورة مشوهة مهزوزة، تتعرض للأزدراء والاحتقار والاستهانة، والسخرية والتهكم والاستهزاء، والإنسان بطبعه لا يميل إلى أن يكون ضمن دائرة هذه شائخا ومصيرها، إلا من وفقه الله تعالى للإيذان والثبات على الحق.

وسأذكرها - إن شاء الله تعالى - صورتين لهذا النوع من الإيذاء وبعض الأمثلة لذلك.

أولاً: الاستهزاء والسخرية والتهكم:

ذلك لون من الإيذاء تعرض له الرسل عليهم السلام جميعاً كما قال الله سبحانه وتعالى: "وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رُّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" ¹ "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رُّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" ²

وقال الله عز وجل في معرض التسلي لرسوله صلى الله عليه وسلم: "وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" ³ "وَلَقَدْ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ" ⁴

فهذه الآيات الكريمة تقرر أن الرسل عليهم السلام تعرضوا جميعاً للسخرية والاستهزاء في أشخاصهم، كما تعرض دين الله الذي يحملونه ويدعون إليه إلى التهكم والاستهزاء منه أيضاً، فالمكذبون يسخرون من الرسول عليه السلام، ومن الدين الذي يأتي به ومن العقاب الذي يحذرهم "واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا"

(1) - سورة الحجر: آية 10-11

(2) - سورة يس: آية 30

(3) - سورة الكهف: آية 56

(4) - سورة الأنعام: آية 10

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يتناول عليه المجرمون بالاستهزاء به عليه السلام وهو يصنع السفينة تنفيذاً لتوجيه ربه سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل:

"وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ"¹ والآية الكريمة تدل على تجدد السخرية منه والاستهزاء به، وتكرر ذلك كلما مر عليه ملاء من قومه، ولعلمهم كانوا يرونه عليه السلام يبني سفينته في البر فكان ذلك باباً لبغيتهم في التهمك به عليه السلام، والادعاء بأنه صار نجاراً بعد أن كان نبياً²

ويستهزئ الملائكة المستكبرون بنبي الله صالح عليه السلام وبرسالته أمام المؤمنين بدعوته، كما قال عز وجل:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ"³

والاستفهام هنا ليس على حقيقته، لأن هؤلاء المستكبرين هم على معرفة بأن أتباعه عليه السلام يعلمون أنه رسول من عند الله سبحانه، ولكن مقالتهم تلك التي حكاها القرآن "أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه" إنما هي على طريق الاستهزاء والسخرية من صالح عليه السلام ورسالته التي يعلنها⁴ وفي قصة لوط عليه السلام يقول الله سبحانه وتعالى: "فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَغُونَ"⁵

فالمستكبرون يصفون لوطاً عليه السلام ومن آمن بدعوته بالتهطر، وهم يقصدون — ضمن مقاصدهم — من هذا الوصف السخرية والاستهزاء بهم، فهم يتهمون من تنزههم عن القذارة، ورغبتهم عن الرجس وترفعهم عن الفاحشة.

فيجعلون من هذا التنزه والرفعة والطهارة من لوط عليه السلام ومن آمن به مجالاً للسخرية والاستهزاء.⁶

(1) - سورة هود عليه السلام: من آية 38

(2) - ينظر تفسير القرطبي 9/ 23، تفسير الطبري 12/ 34

(3) - سورة الأعراف: من آية 75

(4) - ينظر تفسير فتح القدير 2/ 220، تفسير البحر المحيط 4: 330

(5) - سورة النمل: آية 56

(6) - ينظر: تفسير القرطبي 13/ 145، تفسير روح المعاني 8/ 171

وفي قصة شعيب عليه السلام يقول الله تبارك وتعالى عن المكذبين: "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ"¹

وهنا كذلك يظهر الاستهزاء والتهكم بنبي الله شعيب عليه السلام، وبصلاته وعبادته لربه تعالى، وبمنهج الله الذي جاء به.

فكأنهم يصرخون له تحكمًا بأن كل ما جئت به من الغرائب والعجائب هو نتيجة لصلاتك وعبادتك هذه، ثم يصفونه - تحكمًا أيضًا - بأنه فيما جاء به الحليم الرشيد.

قال ابن كثير: "يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتهكم والتنقص أصلاتك هذه التي تصلّيها هي الأمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آبائنا الأقدمون وأسلاننا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترزّضه أنت ونترك المعاملات التي تأبأها وإن كنا نحن نرضاها؟ "إنك لأنت الحليم الرشيد" قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج²

وزيد بن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.³

وقال صاحب الظلال: "ويسخر أهل مدين من شعيب كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق، فيقولون "إنك لأنت الحليم الرشيد" وهم يعنون عكس معناها فالحلّم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير، وأن يفصلوا بني العباداة والتعامل في السوق⁴

ويوجه فرعون وملؤه أيضا سهام سخريتهم وتهكمهم إلى نبي الله موسى عليه السلام.

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ"⁵

(1) - سورة هود عليه السلام: آية 87

(2) - ابن جريج: بضم الجيم وفتح الراء وسكون الياء - ينظر المفني: 59

(3) - قصص الأنبياء لابن كثير 1/ 245، وينظر: تفسير فتح القدير 2/ 519، تفسير البحر المحيط 5/ 253، تفسير الطبري 12/ 103

(4) - في ظلال القرآن 4/ 1920

(5) - سورة الزخرف: آية 46-47

فالآية الكريمة تبين أن هؤلاء المستكبرين جابهوا دعوة موسى عليه السلام بالضحك والاستهزاء دون نظر أو تأمل أو رغبة في معرفة الحق، فالتهمك منهم مصاحب لرؤية الآيات، وكأنهم قدموا هذا الموقف قبل أن يحاولوا التفكير فيما في هذه الدعوة من الحق واليقين.

قال الألوسي: "أي فجأهم الضحك منها، أي استهزؤا بها أول ما رأوها، ولم يتأملوا فيها.¹

وابتدوا السخرية كذلك من فرعون بموسى عليه السلام في الحوار الذي دار بينهما إثر عرض موسى عليه السلام لدعوته.

قال تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ"² فالقصد من قول فرعون لمن حوله "ألا تسمعون" السخرية بموسى عليه السلام، والتهمك بما جاء به

من توحيد الله تعالى، والتقص له والأرداء، خشية أن يتأثر السامعون بمقولته عليه السلام، فأراد فرعون أن يوهم الحاضرين بأن دعوة موسى عليه السلام لا يعتد بها، وليس معها من البراهين والأدلة ما يرفع من قدرها ويؤكد حجتها، بل هي أولى بالتهكم والسخرية.³

قال الألوسي: "بالغ اللعين في الإشارة إلى عدم الاعتداد بالجواب المذكور، حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده وعدم قبوله.⁴

ويستهزئ فرعون بموسى عليه السلام مرة أخرى حينما يسميه رسولا في الوقت الذي ينكر رسالته "قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون"

فهذا الإطلاق إنما هو ضرب من التهكم والسخرية⁵

(1) - تفسير روح المعاني 87 / 25

(2) - سورة الشعراء: آية 23 - 27

(3) - ينظر تفسير ابن كثير 333 / 3

(4) - تفسير روح المعاني 72 / 19

(5) - ينظر تفسير البضاوي 153 / 2

يقول سيد قطب في ظلال الآية الكريمة: "أكان ذلك عن اقتناع منهم بأن شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية، وأ، ماجاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء ؟

كلا. إنما كانت تلك خطة مدبرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة، ومن أثر هذا القرآن الذي لا يقاوم. وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية.

وأوضاعهم الاقتصادية، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع، ولقد كانوا يعقدون المؤتمرات لتدبير المؤامرات المخبوكة ويتفقون فيها على مثل هذه الوسيلة. وهم يعلمون كذبهم فيها عن يقين.

ثم قال بعد أن ذكر بعض الأمثلة على تخطيطهم: "فما كان اتخاذهم إياه هزوا وقولهم ساخرين "أهذا الذي بعث الله رسولا" بصورة الاستغراب والاستنكار والزراية إلا طرفا من تلك المؤامرات المدبرة لا ينبعث عن حقيقة شعرية في نفوسهم، إنما يتخذ وسيلة للحط من قدره في أعين الجماهير التي يحرص سادة قريش على استبقائها تحت وصايتهم الدينية، استبقاء للمراكز الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية التي يتمتعون بها في ظل تلك الوصاية. شأن قريش في هذا شأن أعداء دعوات الحق في كل زمان وفي كل مكان.¹

وهكذا كان أولئك الملأ من قريش يسخرون به ﷺ كما رأوه.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا² جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد. فانبعث أشقى القوم فأخذه فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض".³

(1) - في ظلال القرآن 5/ 2565

(2) - السلا: اللقافة التي يكون فيها لولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الأدمية المشيمة، ينظر شرح النووي على

صحيح مسلم 12/ 151

(3) - الحديث رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته 1/

94-95، ومسلم - واللفظ له - في كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين 12/ 151

"وعن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا كَانُوا يُظْهِرُونَ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ: خَضَرْتُهُمْ، وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَقَمَ أَخْلَاقُنَا، وَشَتَمَ آبَاءُنَا، وَغَابَ دِينُنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا: فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ عَمَرُوهُ بَغَضَ الْقَوْلَ. قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ عَمَرُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَعَمَرُوهُ بِمِثْلِهَا، فَوَقَفَ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَّا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ». قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنْ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةٌ قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفُوهُ بِأَخْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انصَرَفَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا. قَالَ: فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَغَضُهُمْ لِبَغْضِي: ذَكَّرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَاكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرْتَكُمُوهُ. فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ طَلَعَ (عَلَيْهِمْ) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَأَخَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذًا وَكَذًا، لِمَا كَانَ يَقُولُ مِنْ غَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ: أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ. قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمِجْمَعِ رِدَائِهِ. قَالَ: فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَهُ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ؟ ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدِّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا نَالُوا مِنْهُ قَطُّ".

وقال ابن إسحاق: "كأن عظماء المستهزين - كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير - خمسة نفر من قومهم، وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم: من بهي أسد: الأسود بن المطلب، ومن بني زهرة: الأسود بن عبد يغوث، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة، ومن بني سهم العاص بن وال، ومن بني خزاعة: الحارث بن الطلائع. فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى عليه: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِينَ. الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ"¹

هذه الروايات وأمثالها تبين عظم ما كان يلاقه رسولنا ﷺ من السخرية والاستهزاء والنهك والغمز، من أولئك الملأ من قريش، وتكرارهم لذلك اللون من الإيذاء النفسي بمظاهر متعددة، وصور مختلفة.

إن هذا الاستهزاء من الملأ الكافرين، وتلك السخرية منهم كانت تشمل أيضا أصحاب رسول الله ﷺ من المؤمنين بدعوته المتمسكين بدينه ﷺ، كما قال الله سبحانه وتعالى: "رَبِّينَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا"¹

وقال الله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ"²

والآية الكرمة تحكي بعض مظاهر الإحرام من أولئك المستكبرين من قريش، حين ينتهزون فرصة مرور طائفة من المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ وﷺ بأنديتهم ومجالسهم فيتضاحكون فيما بينهم بتلك الفتنة المومنة، ويغمز بعضهم لبعض - إشارة بالعين أو حركة باليد سخرية وتحكما بالمؤمنين.

قال في الظلال: إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم، وسخرية منهم. إما لفقرهم وورثة حالهم. وإما لضعفهم عن رد الأذى. وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء.. فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجروا. وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخرتهم أو فكاهتهم المردولة. وهم يسلطون عليهم الأذى، ثم يضحكون الضحك اللثيم الوضع، مما يصيب الذين آمنوا، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين!

"وإذا مروا بهم يتغامزون" .. يغمز بعضهم لبعض بعينه. أو يشير بيده، أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين. وهي حركة ضعيفة واطية تكشف عن سوء الأدب، والتجرد من التهذيب. بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين، وإصابتهم بالخجل والريبة، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين!

"وإذا انقلبوا إلى أهلهم" بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم..

"انقلبوا فكهين" .. راضين عن أنفسهم، مبتهجين بما فعلوا، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقير.³

(1) - سورة البقرة: من آية 212

(2) - سورة المطففين: آية 29 - 31

(3) - في ظلال القرآن 6/ 3860 - 3861، وينظر تفسير البغوي 4/ 462

ومن الأمثلة على هذا التهكم بالصحابة عليهم السلام ما رواه خناب بن الأرت رضي الله عنه قال: "جثت العاص بن وإيل الشهمي أنقاضه خفا لي عنده فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقلت لا حتى تموت ثم تبعته قال وإني لميت ثم مبعوث قلت نعم قال إن لي هناك مالا وولدا فأفصيكه فنزلت هذه الآية { أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا }¹،²

أورده من الحجج والبراهين قال تعالى: "قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِنَ الْوَاعِظِينَ"³

فهم يشعرونه بعدم اكترائهم لما يقول، فإن وعظهم ونصحهم وأقام لهم الحجة، أو سكنت عن الوعظ والبيان، فالأمر لديهم سيات.

قال الألوسي "قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِنَ الْوَاعِظِينَ" فإننا لا نرعي عما نحن عليه، وعدلوا عن: أم لم تعظ الذي يقتضيه الظاهر للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام.⁴

ويحكي القرآن الكريم أيضا قول المكذبين بنبي الله صالح عليه السلام "فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لُفِّي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ. أَوْلَقِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ"⁵

ويستشف مقولتهم الاستهانة بصالح عليه السلام، والأزدراء له، والتوين من شأنه، والتقليل من مكانته، ومن ثم فهو لا يستحق اختصاصه بالنبوة دون الأكابر والزملاء.

ويسر المستكبرون من أهل مدين على النهج ذاته.

"قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ"⁶

(1) - سورة مريم: آية 77

(2) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب [أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا] 4/ 1760، ومسلم في كتاب صفة القيامة، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح 138/17

(3) - سورة الشعراء: آية 136

(4) - تفسير روح المعاني 19/ 111

(5) - سورة القمر: من الآيات 24-25

(6) - سورة هود عليه السلام: آية 91

هذه المقولة منهم تحوي أربع عبارات تحمل في ثناياها معاني الاستهانة والتقصص، والأزدراء والاحتقار:

الأولى منها قولهم [ما نفقه كثيرا مما تقول] أي لا نفهمه، وهم في الواقع يفهمون ما يقول، ولكنهم يقصدون إشعاره بأنهم ليسوا في حاجة إلى استقبال كلامه، أو التأمل في المنهج الذي يعرضه، أو اتباع الحق الذي يحمله مما يشهد له الدليل والبرهان، وليس له عندهم قيمة أو مكانة تحفزهم للاهتمام بقوله: أو تدبر ما يأتي به عليه السلام.

والثانية قولهم [وإنا لنراك فينا ضعيفا] أي لا قوة لك تقدر بما على أن تمنع نفسك منا وتتمكن بما من مخالفتنا¹

والثالثة قولهم [ولو لا رهطك لرجمناك] وهم بهذه أيضا يؤكدون له تنقصهم لشخصه، واستهانتهم بأمره، وتقليلهم من خطره، ولذا يذكرون له بأن المانع من قتله وإنهاء تحركه ليس هو في شخصه، إذ لا قيمة له عندهم ولا موقع له في صدورهم، وإنما المانع هو عشيرته التي لا زال لها الاحترام عندهم.

والرابعة قولهم [وما أنت علينا بعزير] أي ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع²

ويريدون بها كذلك التأكيد على هوانه وضعته في أعينهم. وفي قصة موسى عليه السلام نلاحظ أيضا أمثلة للاستهانة من عدو الله فرعون بموسى عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين.

ففي اللقاءات الأولى بينهما حين دعاه موسى عليه السلام إلى الله تعالى كان الجواب ما حكاه القرآن الكريم. "قَالَ أَلَمْ تُزِكَرْ فِينَا وَلَيْدًا وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عُمَرِكَ سِينٌ. وَقَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ"³

والتأمل في هذا الجواب من فرعون يلحظ فيه ملامح المن والأزدراء لنبى الله موسى عليه السلام.

فهو بمن عليه باختضانه وتربيته في قصر فرعون، والسنوات التي قضاها من عمره هناك قبل خروجه إلى مدين، ثم يذكره — عل وجه التوبيخ له والقدح فيه والخط من مكانته — بحادثة القتل التي حصلت للقبطي والغرض من ذلك كله الاستهانة بموسى عليه السلام، وإشعاره بأن وضعه بهذا الوصف والخال لا يؤهله لمرتبة النبوة.

(1) - تفسير فتح القدير 9/ 520

(2) - تفسير القرطبي 9/ 61

(3) - سورة الشعراء: آية 18-19

ومثال آخر نلاحظ في مقولة فرعون حين حشد الجموع وخطب فيهم كما قال الله تبارك وتعالى: "وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"¹

ففرعون يصف نفسه بالخيرية وفي المقابل يزدري بموسى عليه السلام ويصفه بأوصاف يقصدها احتقاره والاستهانة به عليه السلام أما الجماهير والخط من مكانته وقدره في أعين الناس.

فقد نعته عليه السلام بأنه (مهين) أي ضعيف حقير أو مبتذل ذليل، فهو المهانة وهي القلة أو الذلة²

ثم ثنى فرعون بوصف آخر (ولا يكاد يبين)

قال الجوزي: "أشار إلى عقدة لسانه التي كانت به ثم أذهبها الله عنه، فكأنه غيره بشيء قد كان وزال، ويدل على زواله قوله تعالى: [قد أوتيت سؤلك يا موسى]³ وكان في سؤاله [واحلل عقدة من لساني]⁴ وقال بعض العلماء: ولا يكاد يبين الحجة ولا يأتي ببيان يفهم⁵

وعلى كل حال فإن مقصد فرعون هو الترويح على العامة بتصوير موسى عليه السلام في أذهانهم رجلاً ضعيفاً حقيراً، لا قيمة له ولا شأن، ومن ثم فهو أولى بالتنقص والازدراء لا التصديق والاتباع.

ويستهين فرعون وملؤه كذلك بالمؤمنين بموسى عليه السلام من بني إسرائيل كما قال عز وجل:

"فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"⁶

فأولئك المؤمنون - في نظر فرعون وملئه - لا عز لهم ولا كرامة ولا شأن لهم ولا قيمة، بل كانوا منقادين لنا خاضعين.⁷

(1) - سورة الزخرف: آية 51 - 52

(2) - تيسير روح المعاني 89/25، وينظر زاد المسير 101/7

(3) - سورة طه: من آية 36

(4) - سورة طه: من آية 37

(5) - زاد المسير 101/7، وينظر تفسير ابن كثير 130/4

(6) - سورة المؤمنون: آية 47

(7) - ينظر تفسير البياضاي 105/2

وكذلك تعرض رسولنا ﷺ للتوهين والتقصيص، سواء لشخصه عليه الصلاة والسلام، أو لما جاء به.

يقول الله عزوجل:

"وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى" ¹

والمعنى بالإشارة الأولى رسول الله ﷺ، وبالأخرى القرآن الكريم، والإشارة في الموضعين دون التصريح من هؤلاء المستكبرين تحقير لشخصه عليه الصلاة والسلام، وحط لما جاء به من القرآن الكريم. ²

وقال عزوجل: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذُكُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّفْتُمْ كُلٌّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ" ³

وهم يعنون بالرجل رسول الله ﷺ، ومن ثم يظهر ما تحويه مقولتهم هذه من الاستهزاء والتهمك به عليه الصلاة والسلام أمام العوام من الناس، وما تحويه كذلك من التجهيل والتقصيص والازدراء حين يعبرون عن رسول الله ﷺ بلفظ (رجل) كأنهم لا يعرفونه.

قال: "والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك من باب التجاهل، كأنهم لم يعرفوا منه ﷺ إلا أنه رجل، وهو عليه الصلاة والسلام عندهم أظهر من الشمس. ⁴

ونلاحظ ذلك أيضا في قول الله سبحانه: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ فَلْيَكُونْ مَعَهُ نَذِيرًا" ⁵ فهم يستهينون به عليه الصلاة والسلام حين يكتفون بالإشارة إليه دون التصريح.

وهم يتهمون به أيضا حين يصفونه بالرسول في الوقت الذي ينكرون رسالته أصلا. ⁶

(1) - سورة سبأ: من آية 43

(2) - ينظر تفسير روح المعاني 22 / 152

(3) - سزرو سبأ: آية 7

(4) - تفسير روح المعاني 22 / 109

(5) - سورة الفرقان: من آية 7

(6) - ينظر تغير روح المعاني 18 / 238

ولقد كان رسول الله ﷺ - إضافة إلى ما سبق - يقابل من الملاء غلظة في الخطاب، وشدة في الجواب، ومن ذلك موقف أبي لُب من رسول الله ﷺ حين جهر بالدعوة وأعلنها أما رجال قريش.

"ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يَنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِيُطَوِّعَ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو هَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَالُوا نَعَمْ مَا جَزَيْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ فَقَالَ أَبُو هَبٍ تَبَا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَهَذَا جَمَعْنَا فَتَنَزَلَتْ {ثَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} ¹ ²

فهي في زعمه - قضية نافهة لا تستحق أن يجمعهم لها بهذه الصورة ويقدر لها بتلك المقدمة. ومن ذلك أيضا ما لاقاه عليه الصلاة والسلام يوم خرج إلى الطائف والتقي زعمائها داعيا إياهم إلى الله تعالى، وإلى نصره سبحانه.

فعن عائشة رضي الله عنها " أنه قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذا عرضت نفسي على ابن عبد ليلى ³ بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مفهوم على وجهي ⁴ فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ⁵.

وفي رواية ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظي زيادة تفصيل للحادثة إذ قال: "قَالَ لَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ، عَمَدَ إِلَى نَعْرِ مِنْ ثَقِيفٍ، هُمْ يُؤَمِّدُ سَادَةَ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافَهُمْ وَهُمْ إِخْوَةُ ثَلَاثَةِ عَبْدٍ بِاللَّيْلِ بَنُو عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمُسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ بَنُو عَوْفٍ بْنِ عُقْدَةَ بْنِ غَيْرَةَ بْنِ عَوْفٍ بْنِ ثَقِيفٍ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جَحْجَحٍ فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَكَلَّمَهُمْ بِمَا جَاءَهُمْ لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ

(1) - سورة المسد: آية 1-2

(2) - سبق تخريجه ص 117

(3) - ابن عبد ليلى " بكسر اللام، وهو من أكابر أهل الطائف من ثقيف، واسمه كنانة، ينظر فتح الباري 6/ 388

(4) - أي على الجهة المواجهة لي " فتح الباري 6/ 388

(5) - أي لم أوطن لنفسي وأنتبه لحال وللوضع الذي أنا ذاهب إليه إلا وأنا عند قرن قال القاضي: قرن الثالث هو قرن

المنازل وهو ميقات أهل نجد" شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 155

قَوْمِهِ فَقَالَ لَهُ أَخَذْتُمْهُ مُوَ يَمْطُرُ ثِيَابَ الْكُفْرِ إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرْسَلَكُمْ، وَقَالَ الْآخَرُ أَمَّا وَجَدَ اللَّهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَكَ وَقَالَ الثَّالِثُ وَاللَّهُ لَا أَكَلَمَكَ أَبَدًا. لَيْنَ كُنْتُ رَسُولًا مِنْ اللَّهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَكْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أُرَدَّ عَلَيْكَ الْكَلَامَ وَلَيْنَ كُنْتُ تَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَكَلَمَكَ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عِنْدِهِمْ وَقَدْ بَيَّنَّ مِنْ خَيْرٍ ثَقِيفٍ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ - فِيمَا ذَكَرَ لِي - : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاتَّكُمُوا عَنِّي، وَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَبْلُغَ قَوْمَهُ عَنْهُ فَيَذَرَهُمْ.¹ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَفْعَلُوا بَلْ أَغْرَا بِهِ سَفَهَاءَهُمْ وَعَبِيدَهُمْ يَسْبُونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَالْجَوَاهِرُ إِلَى حَائِطٍ لَعْنَةُ بَنِ رَيْبَةَ وَشَيْبَةَ بَنِ رَيْبَةَ، وَهَمَا فِيهِ وَرَجَعَ عَنْهُ مِنْ سَفَهَاءٍ ثَقِيفٍ مِنْ كَانَ يَتَّبِعُهُ.²

لقد اجتمع على رسول الله ﷺ في تلك الحادثة ثلاث مجامعات متوالية من رؤساء ثقيف، كلها نخر في نفسية رسول الله ﷺ وتوثر في كيانه، وتصيبه بالهم كما صرح بذلك ﷺ: أولها: عبارات الاستهانة والتنقص، والازدراء والتهكم، والخطو الغمط لشخصه عليه الصلاة والسلام (هو يَمْطُرُ ثِيَابَ الْكُفْرِ إِنْ كَانَ اللَّهُ أَرْسَلَكُمْ، أما وجد الله أحدا يرسله غيرك، والله لا أكلمك أبدا) كما يلحظ فيها الغلظة في الخطاب والشدّة في الجوانب.

وثانيها: رفضهم لكتمان خبر مجيئه ﷺ إليهم، وعدم استجابتهم له في ذلك، وهم يعلمون أن انتشار الخبر في مكة سيزيد من توهين شأنه ﷺ لدى الملأ من قريش، ويجعله في موقف ضعف أمامهم يزيدهم جرأة وشماتة به، ويفرهم بزيادة الضغط عليه أملا في كسر شوكتة عليه الصلاة والسلام.

وذلك أمر يؤثر نفسيا عليه ﷺ. ولا شك أن لذلك أيضا دورة في التأثير النفسي عليه ﷺ.

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولقى من أهلها الاستجابة والقبول، بقي أحد زعمائها وأكابرها: عبد الله بن أبي ابن سلول على كفره وشركه وذلك قبل أن يدخل في الإسلام نفاقا.

(1) - أي يفرهم ويجرؤهم عليه. ينظر ترتيب القاموس المحيط 2/ 246

(2) - رواه ابن إسحاق قال: حدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي. السيرة النبوية لابن هشام 2/ 25-26 (مع اختصار يسير)، والبيهقي في الدلائل من طريق موسى بن عقبة عن الزهري 2/ 415-416 مع اختلاف في بعض الألفاظ وينظر: زاد المعاد 3/ 31-32، 1/ 98-99، السيرة الحلبية 2/ 25، سبل الهدى والرشاد 2/

وقام رسول الله ﷺ حينذاك بدعوته إلى الله تعالى فرفض الاستجابة، ولم يكتف بذلك بل كان جوابه في مواجهة دعوة رسول الله ﷺ يتسم بالاستهانة والغلظة.

"عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فذكية. ¹ وأسامة وراءه، يعود سعد بن عباد بن الحارث. ² بن الحارث قبل وقعة بدر قال حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين وفي المجلس عبد الله بن زواحة فلما غشيت المجلس عجاضة الدابة حمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه ثم قال لا تغبروا علينا فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن فقال عبد الله بن أبي ابن سلول أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا به في مجلسنا ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه. ³"

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "قيل للنبي صلى الله عليه وسلم لو أتيت عبد الله بن أبي فأنطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم وركب حمارا فأنطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سيخة ⁴ فلما أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال إليك عني والله لقد آذاني نثر حمارك ⁵"

ومن خلال هذين الموقفين تتضح المواجهة العنيفة، والجواب الغليظ، والرد الجافي من ابن أبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوته، يظهر ذلك جليا في عباراته (لا تغبروا علينا، لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلتؤذنا به في مجالسنا فمن جاءك فاقصص عليه، لقد آذاني نثر حمارك) كما يظهر فيها الاستهانة والاستهتار والازدراء، والتي نلاحظها أيضا في تغطيته لأنفه بردائه وفي مخاطبته لرسول الله ﷺ بقوله (أيها المرء) وهو تعبير فيه جفاء وغلظ.

(1) - أي كساء غليظ منسوب إلى فذك بفتح الفاء والذال، وهي بلد مشهور على مرحلتين من المدينة، فتح الباري 8/

(2) - "أي منازل بين الحارث، وهم سعد بن عباد رضي الله عنه، فتح الباري 8/ 293

(3) - الحديث بتمامه رواه البخاري في كتاب الأدب، باب كنية المشرك 5/ 2292 - 2293، ومسلم في كتاب الجهاد،

باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين 12- 157 - 159

(4) - بفتح السين والباء، وهي أرض التي لا تثبت للملحة أرضها" شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 159

(5) - الحديث بتمامه رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين والمنافقين 12/ 159

ولما أرسل رسول الله ﷺ كتبه إلى عدد من الملوك كان الرد من بعضهم عنيفا يتضمن معاني الاستهتار والجفوة والاستهانة وكان من أولئك كسرى ملك الفرس.¹

فعن ابن عباس رضي الله عنهما "أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عب الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه مرقه.²

وكسرى إنما يقصد بهذا التصرف أن يعبر عن استهاتته برسول الله ﷺ والخط من شأنه، والازدراء له ولدعوته عليه الصلاة والسلام وفي أسلوبه هذا سفاهة متناهية، وغلظة واستهتار.

إن هذا اللون من الإيذاء النفسي لرسول الله ﷺ لحق كذلك المؤمنين بدعوته من أصحابه رضوان الله عنهم، فقد كان الملأ من قريش ينظرون إليهم نظرة غمط واحتقار واستهانة، وخصوصا الفقراء والضعفاء منهم، إذ طلبوا من رسول الله ﷺ أن يطردهم قائلين له عليه الصلاة "اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا".³

يعنون مجموعة من فقراء الصحابة رضي الله عنهم، ممن يكثرون مجالسته عليه الصلاة والسلام، وفي رواية أخرى "إنا لا نرضى أن نكون اتباعا لهم فاطردهم عنك".⁴

كما كان الملأ من قريش يوبخون من يتجه إلى الإيمان، ويطلقون عليه لفظ (الصابي)، وينشرون عنه الدعاية السلبية بأن فلانا قد صبا، وذلك منهم تنفير عن الإسلام وتأثير على نفسيات المؤمنين.

(1) - كسرى: لقب لملوك الفرس، والمقصود هنا أبرويز بن هرمز بن أنوشروان. ينظر فتح الباري 1/ 106، 8/ 160

(2) - رواه البخاري في كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقصر 4/ 1610، وهو أيضا في كتاب الجهاد، باب دعوة اليهود والنصارى 3/ 1074 بلفظ (فلما قرأه كسرى حرقه)

(3) - سبق تخريجه ص 77

(4) - رواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب مجالسة الفقراء 2/ 1383

المبحث الخامس: الإيذ البدني والجسمي

وحين يضعف الملائة أو يضل الطريق يختار، أو ينتقل من أسلوب إلى أسلوب أخرى ومن وسيلة إلى أخرى ومن نوع إلى آخر، لم يكن في الماضي هذه الوسائل الجديدة، وإيذا البدني نوع من المجاهدة يلجأ إليه الطغاة حين يرون اتساع الدعوة من جهة، وعدم تأثير أساليبهم الأخرى من جهة ثانية، بالإضافة إلى شعورهم بالفشل والهزيمة في ميدان الحجة والبرهان، فيتعرضون لأجساد الدعاة من الرسل -عليهم السلام- وأتباعهم من المؤمنين الصادقين، يضربون عليها ألوان الأذى والاضطهاد والتعذيب، بغية إثناء الرسل -عليهم السلام- عن هذا الطريق؛ طريق الدعوة، ودفع المؤمنين إلى أن ينأوا بأنفسهم عن منهج الرسل -عليهم السلام-، وتغيير الجماهير من مجرد التفكير برؤوسهم في الاقتراب من دائرة الإيمان، أو التعبير بألسنتهم عن الرغبة في الانضمام للفئة المؤمنة، والاختراط في سلك الدعوة.

"إن التعذيب والتنشوية والتكيل وسيلة الطواغيت في مواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان، وعدة الباطل في وجه الحق والصریح" (1).

وسأذكرها هنا - بمشيئة الله تعالى - نماذج مما تعرض له الرسل عليهم السلام من هذا النوع من الإيذاء، ثم نماذج أخرى لما تعرض له المؤمنون من أتباع الأنبياء عليهم السلام.

حاول الملائة من ثمود قتل صالح عليه السلام، وأحكموا خططهم لتنفيذ هدفهم، ولكن الله سبحانه أبطل مكرهم وحفظ نبيه عليه السلام.

قال تعالى: "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَفَاسْتُمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ" (2).

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهما يقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره" (1).

(1) - في ظلال القرآن 3/ 1351

(2) - سورة النمل: آية 48 - 51

وتحركوا للتنفيذ، ولكن الله سبحانه عصم رسوله من كيدهم، وحلت العقوبة التدميرية بهم قبل أن يصلوا عليه السلام كما يدل عليه قول الله سبحانه: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين وفي قصة إبراهيم عليه السلام يتكرر الحال من الملائكة المكذبين، حين تحرك نبي الله فكسر الأصنام في معبدها وترك كبيرها، قاصداً بذلك أن يدفعهم للتفكير والتأمل ليصلوا إلى أنها معبودات لا تملك من خصائص الألوهية شيئاً.

ولكن أكابر القوم تأخذهم العزة والاستكبار فيأمرؤا بالقبض على إبراهيم عليه السلام. "قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ"²

ويأتون إبراهيم عليه السلام معتقلاً أمام العامة (لعلهم يشهدون)

وتبدأ محاكمته، وقرارهم فيه جاهز سلفاً، ولكنهم أرادوا أن يحسنوا الحاكمين بالعدل. ومع أن إبراهيم عليه السلام استعلى عليهم بالحجة والبرهان، وظهر جوابه واضحاً، وانتصر الحق معه، وأصيب الباطل بالخذلان.

"قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِبْرَاهِيمَ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ. أَفَبِ لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"³

ولكنهم - مع ذلك كله - أصروا على الباطل، وتحركوا لهجمة الحجة بالحديد والنار، وقرروا نصر باطلهم بالقهر والتعذيب والقتل لنبي الله إبراهيم عليه السلام:

"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ."⁴

(1) - تفسير ابن كثير 3/ 367

(2) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 59 - 61

(3) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 62 - 67

(4) - سورة العنكبوت: من آية 24

"قَالُوا خَرُّوْهُ وَانصُرُوْهُ اَلْحَقُّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِيْنَ"¹

"قَالُوا اَبْنُوْا لَهُ بُنْيَانًا فَالْقُوْهُ فِي الْجَحِيْمِ"²

ومن هذه الآيات الثلاث نستشف ما يلي:

أولاً: أن هدفهم من هذا الحكم الجائر على إبراهيم عليه السلام مصرح به في حيثيات حكمهم (وانصروا آلهتكم) فهو إذن نصر باطلهم، والحفاظ على ضلالهم الموروث، ومنهجهم السائد، القائم على الشرك وعبادة غير الله سبحانه، ومن ثم الإبقاء على مصالح الكبراء ومراكزهم.

ثانياً: أن المحاكمة كانت جائزة ظالمة باطلة، إذ أن إبراهيم عليه السلام قد أقام عليهم الحجة، وأزهق بطلهم بالبرهان، ولكنهم بدلاً من اتباع الحق معه عليه السلام بعد أن ظهر لهم قرروا الرد عليه بجواب آخر مضمون البطش والتكيل، ولذا قال تعالى: "فَمَا كَانَ بِجَوَابِ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوْهُ أَوْ خَرِّقُوْهُ"

فكانه لم يكن لهم في نهاية المطاف جواب له عليه السلام إذا سطع الحق بقوة البرهان، وانقطعوا وغلبوا في ميدان المناظرة والجدل، ولم يبق لهم دليل ولا حجة، فاخترأوا أن يردوا عليه بالحديد والنار، ويحركوا لمجابهته والقوة والسلطان.

قال القرطبي: "ثم أمر نمرود³ بإبراهيم فألقى في النار، وهكذا عادة الجبابرة فيأثم إذا عورضوا بشيء وعوجزوا عن الحجة اشتغلوا بالعوبة"⁴.

وقال صاحب الظلال: "واندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة" قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم، إن منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل، وحينما تخرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين.⁵

(1) - سورة الأنبياء: آية 68

(2) - سورة الصفات: آية 97

(3) - النمرود بن كنعان هو - كما قيل - ملك بابل بأرض العراق على عهد نبي الله إبراهيم عليه السلام ينظر قصص الأنبياء لابن كثير 1/ 171، مع الأنبياء في القرآن لعفيف طيارة ص 107، 188

(4) - تفسير القرطبي 3/ 185

(5) - في ظلال القرآن 5/ 2993

ثالثا: يظهر أن الآراء بينهم تعددت في كيفية قتله عليه السلام بعدما قرروا ذلك، فمن قائل بتحريقه بالنار، وقائل بقتله بطريقه أخرى، ويبدو أن الرأي استقر أخيرا على رميه في النار عليه السلام.¹

ولعلمهم اختاروا قتله بهذه الوسيلة لشدها وفظاعتها وعظم التنكيل بها.

قال الفخر الرازي: "إنما اختاروا المعاقبة بالنار لأنها أشد العقوبات ولهذا قيل (إن كنتم فاعلون) أي إن كنتم تنصرون آهنتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهي الإحراق."²

رابعا: بين الله عز وجل طريقة تنفيذهم قرار القتل تحريقا بالنار.

"قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"

فالآية تبين أنهم بنوا لتنفيذ الحكم بنيانا، وملأوه خطبا ليتوقد نارا، حتى إذا اشتعل البنيان، واضطربت ناره، وتأجج لهيبه، وعلا شره، قذفوا إبراهيم عليه السلام.

والتعبير القرآني في وصف النار تأجج في ذلك البنيان وتتوقد فيه ب(الجحيم)³

يدل على عظم ما فعلوه، وضخامة ما جهزوه من الوقود في ذلك البنيان لإحراق إبراهيم عليه السلام.

خامسا: لم ينجح أولئك الطغاة في تنفيذ القرار، إذ عصم الله تبارك وتعالى نبيه عليه السلام، وحفظه بمعجزة إلهية بدلت حرارة النار وحرقتها برذا وسلاما على إبراهيم عليه السلام.

"قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ"⁴

"فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ"⁵

وخرج إبراهيم عليه السلام من النار سليما معافي لم يصبه من خطرها شيء، وتلك قدرة الله سبحانه.

(1) - ينظر تفسير البحر المحيط 148 / 7

(2) - التفسير الكبير 188 / 22، وينظر أضواء البيان 4 / 588

(3) - قال ابن جرير: الجحيم عند العرب: حر النار بعضه على بعض، والنار على النار، تفسير الطبري 23 / 75، وينظر

تفسير البضاوي 2 / 298، معاني القرآن للزجاج 4 / 310

(4) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 69-70

(5) - سورة العنكبوت: من آية 24

وهذا فرعون لعنه الله يعرض على الملأ من حوله فكرة قتل موسى عليه السلام كما قال تعالى: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرُوبِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَّبَّهُ إِنَّيْ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"¹

قال ابن كثير: "هذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا (وليدع ربه) أي لا أبالي منه".²

تلك إرادة كانت لفرعون، ولكن الله سبحانه لم يكتب له التمكين حفظا لرسوله عليه السلام.

وبخبرنا القرآ، الكريم أيضا أن عيسى عليه السلام تعرض لمحاولة القتل على يد أعداء الله من يهود، ولكن الله سبحانه نجاه منهم بقدرته، ورفعهم إلى السماء بإرادته عز وجل:

قال سبحانه: "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"³

وقال تعالى: "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسٍ أَغْلَتْ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. وَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْجَمٍ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"⁴

وفي الآيات إشارة كذلك إلى أن هؤلاء اليهود من طبايعهم قتل الأنبياء عليهم السلام (وقتلهم الأنبياء بغير حق)

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الاتجاه لليهود في تعاملهم مع الأنبياء عليهم السلام في أكثر من موضع، كما في قول الله جل وعلا: "وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاوُؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ"⁵

(1) - سورة غافر: آية 26

(2) - تفسير ابن كثير 76 / 4

(3) - سورة آل عمران آية 54

(4) - سورة النساء: آية 155-158

(5) - سورة البقرة: من آية 61

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ"¹

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُؤِمُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَزَّاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"² "إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"³

"وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ"⁴ "لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"⁵

"لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ"⁶

وهذه الآيات تؤكد أن قتل الأنبياء عليهم السلام هو مما اعتاده أعداء الله تعالى من اليهود في مجاباتهم للرسل عليهم السلام وما جاؤوا به من البينات والهدى.

أما رسولنا ﷺ فقد تعرض لأنواع من الأذى.

يقول عليه الصلاة والسلام: "لقد أوديت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد".⁷

أعرض فيما يلي بعض الأمثلة لما تعرض له عليه الصلاة والسلام من ألوان الإيذاء البدني:

(أ) إلقاء الأقدار:

فقد كان بعض المجرمين من قريش ينتهز فرصة صلاته ﷺ ليلقي على ظهره شيئا مما يقتدره الناس في العادة.

(1) - سورة البقرة: آية 87

(2) - سورة البقرة: آية 91

(3) - سورة آل عمران: آية 21

(4) - سورة آل عمران: من آية 112

(5) - سورة آل عمران: من آية 181

(6) - سورة المائدة: آية 70

(7) - الحديث رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه في كتاب صفة القيامة 4 / 645

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "يقولُ يُنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ النَّبِيبِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ وَقَدْ نُحِرَتْ جُزُورٌ بِالْأَمْسِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ أَيْكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلَا جُزُورِ بَنِي فَلَانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَيْفِيٍّ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ بَيْنَ كَيْفِيٍّ قَالَ فَاسْتَضَحُّكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةً فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوزِيَةٌ فَطَرَحْتُهُ عَنْهُ ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتَتُهُمْ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ."¹

وفي إحدى روايات البخاري: "إذ قال قاتل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المراني، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتيفيه؟ فانبعث أشقاهم"²
وفي بعض الروايات تصريح بأشقى القوم الذي تولى تنفيذ المهمة الأثمة، وهو عقبة بن أبي معيط³، أحد الملا من قريش.⁴

(ب) الخنق:

"عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ قُلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِفَنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوَى ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ {أَتَفْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ"⁵

(ج) الضرب

- (1) - سبق تخريجه ص 380
- (2) - صحيح البخاري، ابواب سترة المصلی، باب المرأة تطرح عن المصلی شیاً من الأذى 1 / 194
- (3) - عقبة بن أبي معيط: بضم الميم وفتح العين. الاكمال 74 / 270
- (4) - ينظر صحيح البخاري، أبواب الجزية، باب طرح جيف المشركين في البئر 3 / 1163، صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين 12 / 153
- (5) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب التفسير سورة المؤمن (غافر) 4 / 1814 - 1815

"عن أنس رضي الله عنه قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ يوماً حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويقول: أي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ قالوا: من هذا؟ قالوا: هذا ابن أبي قحافة المجنون"¹

وتقدم إيراد حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما والمشمول على بعض مظاهر الإيذاء م أشرف قريش لرسول الله ﷺ وهو يطوف، وفيه "حتى إذا كان الغد، اجتمعوا في الحبحر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه فبينما هم في ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأخطوا به، يقولون له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بجمع رذائهم، قال: وقام أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، دونه، يقول وهو يتكلم: {أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟} ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قطاً."²

"عن أبي هريرة قال قال أبو جهل هل يُعَفَّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَطْهَرِكُمْ قَالَ فَقِيلَ نَعَمْ فَقَالَ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لَأَعْقِرَنَّ وَجْهَهُ فِي الثَّرَابِ قَالَ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي رَعَمَ لُطْأًا عَلَى رَقَبَتِهِ قَالَ فَمَا فَجَّهْتُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ³ عَلَى عَقَبَتِهِ وَيَتَّقِي يَدَيْهِ قَالَ فَقِيلَ لَهُ مَا لَكَ فَقَالَ إِنَّ بَنِي وَبَيْنَهُ لَحَنَدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوَلاً وَأَجْنَحَةً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ دَنَا مِنِّي لَأَخْطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ غَضَوا غَضَوا."⁴

(1) - رواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، المستدرک 30 / 70-71،

وقال الميمني: رواه أبو يعلى والبيهقي وزاد فقره وأقبلوا على أبي بكر، ورجاله رجال الصحيح، جمع الزوائد 6 / 12،

وصححه إسناده ابن حجر في فتح الباري 7 / 215، وينظر سبل الهدى والرشاد 2 / 674

(2) - سبق تخريجه ص 381

(3) - ينكص " بكسر الكاف: رجع على عقبه يمشي على ورائه. شرح النووي على صحيح مسلم 17 / 140

(4) - سبق تخريجه. ص/367

وتضمنت رواية موسى بن عقبة عن الزهري لخبر خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف أن سفهاءها بحض وإغراء من أشرافها "قعدو له صفين على طريقة. فلما مَرَّ جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوها بالحجارة حتى أدموه، فخلص منهم وهما يسيلان الدماء".¹

ويشبه ذلك صنيع أبي لبب برسول الله ﷺ وهو يتبعه في سوق ذي الحجاز كما حدث طارق المخاري²

ﷺ قال: "رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي الحجاز وأنا في بيعة".³ لي فمر وعليه حلة حمراء فسمعتة يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب".⁴

وضرب عليه الصلاة والسلام وأصابته الجراح يوم أحد.

"عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رِجْلُهُ⁵ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ وَجْهُهُ شَجَّةً فِي خَبْئِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ".⁶

"وَعَنْ أَبِي حَازِمٍ أَنَّهُ سَمِعَ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ وَهُوَ يُسْأَلُ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ كَانَ يَشْكُبُ الْمَاءَ وَمَا دُوِي قَالَ كَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَغْسِلُهُ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَشْكُبُ الْمَاءَ بِالْمِجَنِّ فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَخْرَقَتْهَا وَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ وَكُسِرَتْ رِجْلُهُ يَوْمَئِذٍ وَجُرْحُ وَجْهِهِ وَكُسِرَتْ الْبَيْضَةُ⁷ عَلَى رَأْسِهِ".¹

(1) - رواه البيهقي في الدلائل 2/ 415، وينظر: البداية 3/ 167، زاد المعاد 1/ 98، 3/ 3، الروض الأنف، 2/ 177.

(2) - طارق المخاري: بضم الميم وتخفيف الحاء وكسر الراء، المغنى ص 245.

(3) - بكسر الباء فتح الباء، والجمع بياعات، وهي الأشياء التي يتبايع بها في التجارة بنظر لسان العرب 402/1

(4) - سبق تخريجه ص 224

(5) - المراد بكسر الرباعية، وهي السن التي بين الثانية والثالث، أنها كسرت فذهب منها فلقه ولم تقلع ن أصلها " فتح الباري 464/

(6) - رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب غزوة أحد 464/7

(7) - البيضة: بفتح الباء، وهي ما يلبس في الرأس من آلات السلاح بنظر فتح الباري 120/6

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما "اشتد غضب الله على من دمي² وجه رسول الله ﷺ".³

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "كأنني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"⁴

قال النووي: "هذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا ﷺ مثل هذا يوم أحد."⁵

قال ابن حجر: "يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي ﷺ ذكر لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله، وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شج وجهه وجرى الدم منه، فاستحضر في تلك الحالة قصة ذلك النبي الذي كان قبله فذكر قصته لأصحابه تطيبا لقلوبهم."⁶

(د) محاولة القتل: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: إِنَّ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقَدُوا بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى، وَمِنَاءَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَى، وَنَائِلَةَ وَإِسَافٍ: لَوْ قَدْ رَأَيْنَا مُحَمَّدًا، لَقَدْ قُمْنَا إِلَيْهِ قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَلَمْ نُعَارِفْهُ حَتَّى نَقْتُلَهُ، فَأَقْبَلَتِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَبْكِي، حَتَّى دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: هَؤُلَاءِ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ، قَدْ تَعَاقَدُوا عَلَيْكَ، لَوْ قَدْ رَأَوْكَ، لَقَدْ قَامُوا إِلَيْكَ فَعَتَلُوكَ، فَلَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا قَدْ عَرَفَ نَصِيْبَهُ مِنْ دِمِكَ. فَقَالَ: يَا بِنْتِي، أَرَيْتِ وَضُوءًا فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْمَسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ، قَالُوا: هَا هُوَ ذَا، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ، وَسَقَطَتْ أَذْقَانُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَعَقَرُوا فِي جَنَابِهِمْ، فَلَمْ يَزِفُوا إِلَيْهِ بَصَرًا، وَلَمْ يَنْفُخْ إِلَيْهِ مِنْهُمْ رَجُلٌ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَامَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ، فَأَخَذَ قَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ، فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ ثُمَّ حَصَبَهُمْ بِهَا، فَمَا أَصَابَ رَجُلًا مِنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْخُصَى خَصَاةً إِلَّا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ كَافِرًا."⁷

(1) - رواه البخاري في كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد 4/ 1496، ومسلم في كتاب الجهاد،

باب غزوة أحد 148/12 - 149

(2) - بتشديد الميم، أي جرحه حتى خرج منه الدم، ينظر فتح الباري 474/7

(3) - رواه البخاري في صحيحه كتاب المغازي، باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد 4/ 1496

(4) - رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب [أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم] 3/ 1282، ومسلم في

كتاب الجهاد، باب غزوة أحد 12-1449-150

(5) - شرح النووي على صحيح مسلم 12/ 150

(6) - فتح الباري 6/ 646

(7) - سبق تخريجه ص 6

وعن عمرو بن العاص قال: "ما رأيت قريشا أرادوا قتل رسول الله - صلى الله عليه و سلم - إلا يوم اتسمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله - صلى الله عليه و سلم - يصلي عند المقام فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب¹ لركبتيه وتصايح الناس وظنوا أنه مقتول قال: وأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضبع² رسول الله - صلى الله عليه و سلم - من ورائه وهو يقول: أيقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ! ثم انصرفوا عن النبي - صلى الله عليه و سلم -"³

وحاولوا قتله عليه الصلاة والسلام قبيل هجرته إلى المدينة وذلك حين اجتمع زعماء مكة بدار الندوة، لمناقشة الوضع القائم، والموقف الملأ من رسول الله ﷺ، بعد أن نما إلى علمهم نبا الهجرة.

وكان منهم عتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف وغيرهم من سادة قريش وأشرافها.

تساور الجميع في أمر رسول الله ﷺ، وتبادلوا الآراء، واتفقوا أخيراً على الرأي الذي أبداه أبو جهل إذ قال - فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً⁴ نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل.⁵ ففعلناه لهم.⁶

(1) - أي سقط - ينظر ترتيب القاموس المحيط 574/4

(2) - الضبع بسكون الباء: وسط العضد، وقيل هو ما تحت الابط " النهاية 73 /3

(3) - الحديث أورده الهيثمي في مجمع الزوائد 11-10/6 وقال: رواه أبو يعلى والطبراني وفيه: محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح، ورواه ابن حبان أيضاً كما ذكر ابن حجر، ينظر فتح الباري

214 /7

(4) - الجيد هو القوي الشديد، ينظر ترتيب القاموس المحيط 513/1

(5) - أي الدية ينظر النهاية 287 /3

(6) - الخبر رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية لأن هشام 77-78 /2، وابن حجر من طريق ابن إسحاق: تفسير الطبري

227-228/9

وفعلا بدأوا في تنفيذ خطتهم، ورصدت المجموعة المنفذة حول بيت رسول الله ﷺ لانتهاز اللحظة المناسبة لقتله عليه الصلاة والسلام، ومعهم أبو جهل.¹ يطمئن على الخطة، ويشرف على التنفيذ، ولكن الله سبحانه وتعالى مكر لنبيه ﷺ، فأمر عليه الصلاة والسلام علياً رضي الله عن بأن ينام على فراشه، وخرج عليه الصلاة والسلام من بينهم وهم لا يشعرون.²

وذلك قدر الله سبحانه أن يحفظ رسول الله ﷺ ويعصمه من مكر المشركين كما قال جل وعلا: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"³

"عن ابن عباس في قوله: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ" قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فآتيتوه بالوثاق - يريدون النبي ﷺ - وقال بعضهم: بل اقتلوه. وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله نبيه على ذلك، فبات علي ﷺ على فراش رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله ﷺ (1) حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً بحسونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رَدَّ الله تعالى مكرهم."⁴

ويوم أحد وحين هذا القتال يستغل أبي بن خلف وضع نبي الله عليه الصلاة والسلام، وقد أصابته الجراحات، وناله الجهد والعناء فيحمل عليه محاولاً قتله ﷺ.

قال ابن إسحاق: "فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي نَجْد لا نجوت إن نجوت فقال القوم: يا رسول الله أبعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة يقول بعض القوم فيما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها

(1) - كما في رواية ابن إسحاق عن عُثْمَانَ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ مرسلاً. السيرة النبوية لابن هشام 2/ 79، وينظر زاد المعاد 3/ 51، البداية 3/ 216

(2) - ينظر: دلائل النبوة للبيهقي 2/ 465، 466، السيرة النبوية لابن هشام 2/ 78-79

(3) - سورة الأنفال: آية 30

(4) - تفسير الطبري 228/9، وأورده الغيثي في مجمع الزوائد 7/ 100 وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري، وثقة ابن حبان وضعفه غيره، وبقي رجاله رجال الصحيح، حسن إسناد ابن كثير في البداية 3/ 221.

انتفاضة تطايرنا بها تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها قال ابن هشام: الشعراء: ذباب له لدغ ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ¹ منها عن فرسه مراراً²

وكانت فيها منيته إذ مات في طريق عودة المشركين إلى مكة، ونجى الله رسوله عليه الصلاة والسلام.

ومن محاولات اليهود في هذا الاتجاه ما قام به أعداء الله من يهود بني النضير، حين أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، فغرموا على الغدر به وقتله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق: "فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم فاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيرميها منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم. فأتى رسول الله ﷺ الخير من السماء بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث³ النبي ﷺ أصحابه قاموا طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخل المدينة فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به.⁴

وفي رواية لابن جرير أن الشقي الذي قدم فكرة الاغتيال كان رأس القوم حي بن أخطب⁵

ويقوم اليهود بمحاولة أخرى لقتله عليه الصلاة والسلام إثر غزوة خيبر، وكانت الوسيلة هذه المرة: السم.

(1) - قال ابن هشام " قلب عن فرسه، فجعل يتدحرج " السيرة النبوية 26/3

(2) - رواه ابن إسحاق دون إسناد: السيرة النبوية لابن هشام 25/3، (مع اختصار سير)، والواحد في أسباب النزول ص 229 عن سعيد بن المسيب عن أبيه، يخرجاه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل من طريق أبي الأسود عن عروة بن الزبير 258/3 - 259، ومن طريق موسى بن عقبة عن الزهري 211/3 - 212.

(3) - من اللبث وهم الإبطاء والتأخر. ينظر النهاية 424/4 والمقصود أنهم رضوان الله عليهم استبطأوا عودته عليه الصلاة والسلام وكانوا يظنون أنه قام لحاجة وسيعود إلى مجلسهم.

(4) - رواه ابن إسحاق قال حدثني يزيد بن رومان، السيرة النبوية لابن هشام 121/3 والبيهقي في الدلائل عن موسى بن عقبة 180/3، وابن جرير من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر: تفسير الطبري 144/6 ورواه أيضاً عن يزيد بن أبي زياد 144/6 - 145، وعن عكرمة مختصراً.

(5) - ينظر تفسير الطبري 144/6

فمن أنس ﷺ "أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا فُجِئَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ أَرَدْتُ لِأَقْتُلَكَ قَالَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُصَلِّطَكَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ أَوْ قَالَ عَلَيَّ قَالَ فَلَوْ أَلَا نَقُتْلُهَا قَالَ لَا قَالَ فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"¹

"يقول أبو هريرة رضي الله عنه قَالَ لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرَ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودٍ فَجَمَعُوا لَهُ فَقَالَ إِنِّي سَأَلْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ قَالَ لَهْمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبْوَكُمْ قَالُوا فَلَا فَقَالَ كَذَبْتُمْ بَلْ أَبْوَكُمْ فَلَا قَالُوا صَدَقْتَ قَالَ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتُمْ فِي آيِنَا فَقَالَ لَهْمُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخَلَّفُونَا فِيهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْسَبُوا فِيهَا وَاللَّهِ لَا تَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا ثُمَّ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ فَقَالُوا نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ قَالَ هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا قَالُوا نَعَمْ قَالَ مَا خَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ قَالُوا أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ."²

هذه الرواية تشير إلى أن محاولة الاغتيال هذه لرسول الله ﷺ لم تكن مجرد عمل فردي من زينب بنت الحارث، بل هي مؤامرة دبرها وتواطأ عليها يهود، لكن الله سبحانه حفظ نبيه عليه الصلاة والسلام وعصمه من كيدهم، ونجاه مما أرادوا به من الشر والهلاك.

هذا النوع من الأذى لم يتعرض له الرسل عليهم السلام فحسب، بل تعرض له أتباعهم المؤمنون أيضا.

إذ أن الطغاة حين يرون أن محاولاتهم مع الرسل عليهم السلام لا تجدي، وأن السبل قد استعصمت عليهم في محاولة القضاء على دعوة الله سبحانه مع أنبيائه عليهم السلام، وأن هؤلاء الرسل عازمون على الاستمرار فيما كلفهم الله عز وجل به من الدعوة إلى دينه، حينئذ يتجه أعداء الدعوة إلى المؤمنين بالدعوات، فيسومونهم سوء العذاب، بغية إرهاب الفئة المؤمنة، وإبعادها عن طريق الرسل عليهم السلام. وتخويف من لا زالت الفكرة تراودة بالانضمام إلى ذلك الصف المؤمن، وتحذيره من الاقتراب.

(1) - رواه البخاري في صحيحه كتاب الحية، باب قبول الهدية من المشركين 923/2، ومسلم واللفظ له في كتاب السلام،

باب السم 178/14

(2) - رواه البخاري في كتاب الطب، باب ما يذكر في سم النبي ﷺ 2178/5

يقول صاحب الظلال: "إن الطواغيت يتوجهون أولاً إلى الداعية ليكف عن الدعوة. فإذا استعصم بإيمانه وثقته بربه، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعته، ولم يرهبه التخويف بالذي يملكه الطغاة من الوسائل.. تحولوا إلى الذين اتبعوه يفتنونه عن دينهم بالوعيد والتهديد، ثم بالبطش والعذاب.. إنهم لا يملكون حجة على باطلهم، ولكن يملكون أدوات البطش والإرهاب؛ ولا يستطيعون إقناع القلوب بجاهليتهم - وبخاصة تلك التي عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل - ولكنهم يستطيعون البطش بالمصريين على الإيمان، الذي أخلصوا الدينونة لله فأخلصوا له السلطان.¹

ومن صور هذه الملاحقة لأجساد المؤمنين بالإيذاء والتشكيل ما فعله فرعون مع السحرة الأبرار لما أعلنوا إيمانهم، إذا اصد تحديده لهم بالعقوبة قتلاً وصلباً على جذوع النخل: "لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"² "لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى"³ ويبدو أن فرعون نفذ العقوبة فيهم فعلياً، فقتلهم جميعاً.

قال ابن كثير: "الظاهر من هذه الساقات أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم عليهم السلام، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة، ويؤيد هذا قولهم: [ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين]⁴"

ومن ناله فرعون بالأذى أيضاً امرأته آسية⁵، عليها السلام، والتي ضرب الله بها المثل للمؤمنين فقال سبحانه: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"⁶

(1) - في ظلال القرآن 3/ 1322

(2) - سورة الأعراف: آية 124

(3) - سورة طه: من آية 71

(4) - قصص الأنبياء لابن كثير 2/ 386، وينظر تفسير الطبري 9/ 23-24

(5) - في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وأن فضل عائشة على النساء كفضل السريد على سائر الطعام " رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى [وضرب الله مثلا للذين آمنات فرعون] 1252/3، ومسلم في

كتاب فضائل الصحابة باب فضائل خديجة رضي الله عنها 15-198-199

(6) - آسية: همزة بعنفا ألف، وبكسر السين وفتح الياء، الإكمال 1/ 92

"فعن سلمان رضي الله عنه قال: كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة."²

قال ابن حجر: "اختارت القتل على الملك، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه"³

ومنهم ماشطة ابنة فرعون، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لما كانت الليلة التي أسري لي فيها أتت علي رائحة طيبة فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها

قال: قلت: ما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم إذ سقطت المديرة⁴ من يدها فقالت: بسم الله. فقالت لها ابنة فرعون: أبي؟ قالت: لا ولكن ربي ورب أهلك: الله. قالت: أخبره بذلك؟ قالت: نعم. فأخبرته فدعاها فقال: يا فلانة وإن لك ربا غيبي؟ قالت: نعم ربي وربك الله. فأمر ببقرة⁵ من نحاس فأحيت ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها قالت له: إن لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا"

قال: ذلك لك [لما لك] علينا من الحق قال: فأمر بأولادها فأذلقوا بين يديها واحدا واحدا إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها يرضع وكانها تقاعست من أجله قال: يا أمه اقنعي فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة. فاقنعت

وبخبرنا القرآن الكريم أن فرعون أعلن عزمه على البطش بالمؤمنين كما في قول الله جل شأنه:

- (1) - سورة التحريم: آية 11
- (2) - رواه الحاكم في المستدرک 2/ 538، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وينظر تفسير فتح القدير 5/ 256.
- (3) - فتح الباري 6/ 553
- (4) - المديرة بكسر الميم وسكون الدال وفتح الراء "شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرج به الشعر المتلبد" النهاية 2/ 115، وينظر ترتيب القاموس 2/ 177
- (5) - قال الحافظ أبو موسى الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئا مصوغا على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قدرا كبيرة واسعة، فسمها بقر، مأخوذا من الثبقر، التوسع أوكان شيئا يسع بقره تامة بتوابعها فسميت بذلك" النهاية

"فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ"¹

قال ابن كثير: هذا القتل للغلمان من بع بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل للملأ بني إسرائيل والتملا يكون لهم شوكة يمتنعون بها.²

لقد كان ذلك البلاء والبطش من فرعون وملكه للفتنة المؤمنة عظيما إلى الحد الذي كان يصيب المؤمنين بالخشية من تعرضهم للفتنة كما قال سبحانه "فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ"³

أي يصرفهم عن دينه بالعقوبات"⁴

"ومن صور التعذيب واضطهاد المؤمنين أيضا ما رواه صهيب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاجِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَأَبْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاجِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاجِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاجِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاجِرَ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ السَّاجِرَ أَفْضَلَ أَمْ الرَّاهِبَ أَفْضَلَ فَأَخَذَ حَجْرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاجِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَفَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيُّ بُحَيٍّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلَ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَنَاءَهُ بِمَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَقِيتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَأَمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ قَالَ رَبِّي قَالَ وَلَكَ رَبُّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجَاءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيُّ بُحَيٍّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ

(1) - سورة غافر: من آية 25

(2) - قصص الأنبياء لابن كثير 2/ 388

(3) - سورة يونس عليه السلام: من آية 83

(4) - تفسير القرطبي 8/ 236

وَتَقْعَلُ فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فِدْعَا بِالْمُنْشَارِ فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَوَضَعَ الْمُنْشَارَ فِي مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَاؤُهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْعُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَتَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلٍ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَعَتْ بِهِمُ الْجَبَلَ فَسَقَطُوا وَجَاءَ بَنِيهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاجْلُوهُ فِي فُرْقَةٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْدِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفَيْهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَفَرَّقُوا وَجَاءَ بَنِيهِ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِمَاتِلِي حَتَّى تُفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ يَجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتُصَلِّيُ عَلَى جَذَعٍ ثُمَّ حُذِّ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ ثُمَّ ارْمِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جَذَعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْعُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْعُلَامِ فَأَتَى الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتُ تُحَذِّرُ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ خَذْرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالْأَخْذُودِ فِي أَقْوَاهِ السِّكِّكِ فَحُدِّثْ وَأَضْرِبِ الْيَرَّانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَخْضُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ افْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْعُلَامُ يَا أُمَّةُ اضْبِرِّي فَإِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ.¹

يقول الله جل وعلا: "قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"²

وفي عهد رسولنا ﷺ واجهت الفئة المومنة أيضا أصنافا من الأذى الجسدي على يد الملا من قريش، أملا في قتلهم عن دينهم وعقيدتهم، ومواجهة الدعوة التي غزت مكة وأصبح لها شأن، خصوصا وهم يرون المؤمنين تتسع قاعدتهم كل يوم، ويزيد عددهم كلما مر الوقت.

(1) - رواه مسلم في كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود 18/ 130-131

(2) - سورة الروج: آية 4-8

قال ابن إسحاق: "ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش نجس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين."¹

وكان أصحاب الأمر والنهي في كل قبيلة هم الذين يرفعون رايه الإيذاء والتكيل، والتعذيب والاضطهاد، لمن آمن من قبلهم.

قال ابن إسحاق: "ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحسبونهم، ويعذبونهم بالضرب والجو والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم، ويعصمه الله منهم."²

فكلما كان المؤمن من الطبقة الضعيفة حسب المقياس الاجتماعي السائد كان ذلك أدعى لزيادة نسبة الأذى البت يتعرض لها من أكابر المجرمين كأبي جهل الذي كان يواجه المسلمين بالأذى حسب مستوياتهم الاجتماعية، وأحوالهم المالية.

يقول ابن إسحاق: "كان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفن حلمك، ولنفلن رأيك، ولنضع شرفك، وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به."³

ولقد كان ما يتعرض له الصحابة رضوان الله عليهم من البلاء عظيما عظم ما يحوك في صدور الملأ من قريش من حقد تجاه الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ، ورغبتهم الأكيدة في محوه من الوجود، واجتثاثه من الأصول والجذور، لو تيسرت لهم السبل، ولكن الله حافظ دينه وتمام أمره.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويبيعونه ويعطشونه، حتى ما يقدر على أن مستوى جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سأله من

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 226/1

(2) - السيرة النبوية لابن هشام 248/1، وينظر: البداية 84/3، السيرة النبوية 478/1، سبل الهدى والرشاد 476/2

(3) - تقد ص 371

الفتنة، حتى يقولوا له: آلات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل¹ ليمر بهم، فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتدء منهم مما يبلغون من جهده.²

هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم الذين تحملوا الأذى كثيرين، وأكتفى بذكر نماذج ممن تعرض للإيذاء البدني من صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم:

بلال بن رباح ؓ.

"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَارٌ وَأُمُّ سُمَيْةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَالْمِقْدَادُ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِيهِ أَبِي طَالِبٍ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ وَالْبُسُوفُ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهْرُوفُهُمْ فِي الشَّمْسِ فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَثَقَهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِبِلَالٍ فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطْوُقُونَ بِهِ فِي شِعَابٍ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ أَحَدٌ أَحَدٌ."³

وكان أمية بن خلف يخرج به إذا حيت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء⁴ مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد الآلات والعزى، فيقول وهو في تلك البلاء: أحد أحد.⁵

ولما استنفذه أبو بكر ؓ - بفضل من الله سبحانه - كان بلال ؓ تلك اللحظات يتقلب في جمر الحنة.

عن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالا وهو مدفون في الحجرة بخمس أواق ذهباً.¹

(1) - الجعل بضم الجيم وفتح العين: دابة سوداء من دواب الأرض تشبه الخنفساء، وجمعه جعلان، ينظر لسان العرب 638/1

(2) - رواه ابن إسحاق قال: حدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، السيرة النبوية لابن هشام 251/1، وينظر: البداية 76/3، زاد المعاد 23/3، سبل الهدى والرشاد 376/2

(3) - رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ؓ 53/1، وأحمد، الفتح الرباني 214/20، قال شاکر: إسناده صحيح المسند 319/5

(4) - البطحاء: سبل واسع فيه دقاق الحصى، وبطحاء مكة. اي مسيل وادبها ينظر ترتيب القاموس 285/1، النهاية 134/1

(5) - السيرة النبوية لابن هشام 248/1، وينظر: البداية 74/3

وأشير هنا إلى مقولة أمية "لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتبعد اللات والعزى" والتي تؤكد أن لا جريمة ولا ذنب لبلال رضي الله عنه وإخوانه إلا أنهم رضوا بالإسلام ديناً، وانضموا إلى ركب الهدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن هذا فقط هو الذي أثار حنق الملائكة المستكبرين كامية بن خلف وأمثاله من الطغاة.

"وَمَا تَقْضُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ"²

آل ياسر رضي الله عنه:

مر آنفا حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في ذكر المشركين السابقين إلى الإسلام من الضعفاء رضوان الله عليهم، ومنهم عمار بن ياسر وأمه سمية رضي الله عنهما:

وروى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون، فقال: أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة."³

وزالوا بعمار بن ياسر رضي الله عنهما يذيقونه أصناف العذاب حتى وافقهم - ظاهر - في بعض ما يروون وأنزل الله فيه وفي أمثاله قوله تبارك وتعالى: "مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ"⁴

قال ابن كثير: "وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة."¹

(1) - سورة أعلام النبلاء، ط6، 1409هـ، مؤسسة الرسالة 353/1، من رواية ابن عيينة قال الذهبي: إسناده قوي، ورواه

ابن أبي شيبة بإسناد صحيح كما ذكر ابن حجر ينظر فتح الباري / 125، وينظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 182 / 1

(2) - سورة البروج: آية 8

(3) - رواه الحاكم في المستدرک 438 / 3، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه كذلك البيهقي في الدلائل 282 / 2، والطبراني في الأسط كما في مجمع الزوائد 9 / 480-481

(4) - سورة النحل من آية 106

قال ابن عبد البر: "وهذا مما اجتمع أهل التفسير عليه" ²

وبمر عدو الله أبو جهل بسمية أم عمار، وهيتعذب وزوجها وابنها فيطعننها بحربة في فرجها. ³ تنسقط ⁴ لتكون أول شهيد في الإسلام.

يقول مجاهد: "أول شهيد كان في الإسلام استشهد أم عمار سمية، طعنها أبو جهل بحربة في قبلها." ⁴

خبايا بن الأرت ⁵

عن أبي ليلى الكندي قال: "جاء خبايا إلى عمر، فقال: ادن، فما أجد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خبايا يريه آثارا بظهره مما عذبه المشركون." ⁶

قال ابن إسحاق: "حدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ قال عبد الله بن مسعود: «أنا»، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: «دعوني فإن الله عز وجل سيمعني» قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها فقام عند المقام، ثم قال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» رافعا صوته (الرحمن علم القرآن (1)) قال: ثم استقبلها يقرأ فيها «قال: وتأملوا فجعلوا يقولون: ما يقول ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك

(1) - تفسير ابن كثير 587/2، وقد صح الألباني نزول الآية في عمار ⁷ لمجيء ذلك من طرق ساقها ابن جرير، فقة

السيرة للقراني ص 104 (الحاشية)، وينظر: تفسير الطبري 181/14-182

(2) - الاستيعاب 3/ 1136

(3) - زاد المعاد 23/3، وينظر صفوة الصفوة 2/ 60، سير أعلام النبلاء 409/1، فتح الباري 7/ 29

(4) - رواء البيهقي في الدلائل 282/2، وأحد كما في البداية 3/ 76

(5) - خبايا بتشديد الباء الأولى، والأرت: بفتح الراء وتشديد التاء، تذيب الأسماء 1/ 184، تقريب التهذيب ص

(6) - رواء ابن ماجة في المقدمة، باب فضائل خبايا ⁸ 54/1، وأحد في فضائل الصحابة 2/ 857،

قال: « ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئت لأغادبنهم بمثلها »، قالوا: حسبك فقد أسمعتهم ما يكرهون.¹

أبو ذر الغفاري ؓ.

"روي أبو ذر ؓ خير مجيئه إلى مكة ولقائه برسول الله ﷺ ومن ثم إسلامه ؓ، وقد ذكر أبو ذر ؓ في روايته تعرضه للأذى في جسده آنذاك مرتين من مشركي قريش."

الأولى: كانت لمجرد سؤاله عن رسول الله ﷺ بما يوحى بالرغبة في لقائه والاستماع إليه.

يقول أبو ذر ؓ: "فأتيت مكة فتضعفت رجلاً منهم، فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابي، فأشار إلى فقال: الصابي، فمال على أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً على، قال: فارتفعت حين ارتفعت كأني نصب أحمر²"

قال فأتيت زمزم فغسلت عني الدماء وشربت من مائها.³

وواضح أن هذا الهجوم على أبي ذر ؓ، وضربه هذا الشكل المبرح، كان قبل إسلامه، وجريته هي البحث عن صاحب الدعوة للاستماع إليه، والتأمل فيما جاء به، والتفكير في أمر الإسلام، وذلك ما لا يريد أهل الكفر وحاته.

أما الثانية فقد كانت بعد إسلامه حين جهر ؓ بذلك في جموع قريش.

يقول أبو ذر ؓ حاكياً دخوله على رسول الله ﷺ برفقه على بن أبي طالب ؓ وما حصل إثر ذلك: "فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ فقلت له اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني فقال لي يا أبا ذر اكتم هذا الأمر وارجع إلى بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل فقلت والذي

(1) - رواه ابن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه، السيرة النبوية لابن هشام / 245، وأحمد من طريق ابن إسحاق بتمامه، فضائل الصحابة 837/2

(2) - يعني من كثرة الدماء التي سالت، والنصب بضم النون، وبضم الصاد واسكانها هو الصنم والحجر. كانت الجاهلية تنسبه وتذبح عنده فيحمر بالدم، وجمعه أنصاب ينظر شرح النووي على صحيح مسلم 28/16

(3) - الخبر بطوله رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب فضائل أبي ذر ؓ 31-27/16

بعثك بالحق لأصبرخن¹ بما بين أظهرهم فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ² فقاموا فضربت لأموت³ فأدركني العباس فأكب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومنجركم وممركم على غفار فأقلعوا عني فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس.⁴

شهداء يوم بدر معنونة⁵

وكانوا سبعين من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، بعثهم عليه الصلاة والسلام إلى بعض

قبائل نجد لدعوتهم إلى الإسلام، فغدر بهم عامر بن الطفيل، واستثار عليهم بعض أهل الكفر فهجموا عليهم وأعملوا فيهم السيوف قتلاً، فلم ينج منهم إلا واحد تركوه وبه رمق ﷺ.

وقد روى البخاري القصة في صحيحه مختصرة عن أنس رضي الله عنه قال: "بعث النبي صلى الله عليه وسلم أقواماً من بني سليم⁶ إلى بني عامر في سبعين فلما قديموا قال لهم خالي أتقدمكم فإن أمتوني حتى أبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا كنتم مني قريناً فتقدم فأمئوهم فبينما يجذبهم عن النبي صلى الله عليه وسلم إذ أومئوا إلى رجلٍ منهم فطعنوه فأنفذوه فقال الله أكبر فزئت ورب الكعبة ثم مالوا على بغيته أصحابه فقتلوه ثم لا رجلاً

(1) - أي بكلمة التوحيد، والمراد أنه يرفع صوته جهاراً بين المشركين، وكأنه فهم أن أمر النبي ﷺ له بالكتمان ليس على الإيجاب، بل على سبيل الشفقة عليه، فأعلمه أن به قوة على ذلك، ولهذا أقره النبي ﷺ على ذلك "فتح الباري

223/7

(2) - الصابئ: من صبا يصبوا إذا انتقل من شيء إلى شيء، وكانوا يسمون من أسلم صابياً، ينظر فتح الباري 223/7

(3) - المعنى ضربت ضرباً لا يبالي من ضربني أن لو أموت منه "فتح الباري 482/7

(4) - الحديث بطوله رواه البخاري في كتاب المناقب، باب قصة إسلام أبي ذر رضي الله عنه 3/ 1294 - 1996، ومسلم في

كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه 16/ 32-34

(5) - ير معونة: "موضع في بلاد هذيل بين مكة وعسفان" فتح الباري 7/ 482

(6) - التحقيق كما ذكر ابن حجر أن المبعوث هم الفراء من الأنصار، والمبعوث إليهم هم بنو عامر، وأن بني سليم هم الذين غدروا بالفراء المذكورين رضي الله عنهم في هذا السياق من حفص بن عمر شيخ البخاري، ينظر فتح الباري

أَعْرَجَ صَعِدَ الْجَبَلِ قَالَ هَآءُ فَأَرَاهُ آخَرَ مَعَهُ فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ قَدْ لَقُوا رَبَّهُمْ فَرَضِي عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ¹.

وفي رواية ابن إسحاق زيادة تفصيل إذ قال: قدم أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد، فدعوه إلى أمرك، رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين² رجلا من أصحابه من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، وقالوا لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدا وجوارا، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سليم من عصى³.

ورعل⁴ ودكوان، فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم، فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأواهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوه حتى قتلوا من عند آخرهم إلا كعب بن زيد، تركوه وبه رمق⁵.

(1) - رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب من ينكب في سبيل الله 1031/3، ومسلم بنحوه في كتاب الإمارة، باب

نبوت الجنة للشهيد 46/13-48

(2) - الصحيح أنهم سبعون كما في رواية البخاري.

(3) - عصى: بضم العين وفتح الصاد وتشديد الياء الإكمال 214/6

(4) - رعل: بكسر الراء وسكون العين، الإكمال 77/4، المغني ص 111

(5) - رواه ابن إسحاق قال: حدثني أبي إسحاق بن يسار عن المغيرة بن عبد الرحمن وعبد الله بن أبي بكر وغيره من أهل

العلم قالوا... السيرة النبوية لابن هشام 116/3، (مع اختصار) قال الألباني: صحيح مرسل، فقه السيرة للغزالي ص

277، (الحاشية)، وروى الطبراني نحوه عن كعب بن مالك رضي الله عنه كما في مجمع الزوائد 184/6، قال الهيثمي: رجاله

الصحيح، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي 3/343، زاد المعاد 3/246-247، فتح الباري 492/7

المبحث السادس: التصغير والتضييق

لا يكتفي الملأ المكذبون بإثارة الشبهات حول الدعوة والدعاة، ولا يكتفون بالإيذاء النفسي والبدني للرسول عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين، بل يعملون أيضا على محاولة إثناء الرسل عليهم السلام ومن استجاب لهم عن طريق الإيمان والدعوة بأسلوب آخر هو التضييق عليهم، وحصارهم عباديا، واقتصاديا، لتحجيم دوائرهم، والتقليل من تأثيرهم الخارجي، والتقليل من تحركهم، وجعله في أضيق نطاق، ولاشغالهم كذلك في معاشهم والتفكير في طعامهم وشرابهم، ليكون ذلك أكبر همهم، فلا يشغلهم حينئذ هم آخر من هموم الإيمان والدعوة.

إن الطغاة من الملأ يتجاوزون حدود المكان والبلد، في متابعتهم لأحوال الرسل عليهم السلام والفئات المؤمنة، والتضييق عليهم، فيعملون على تحصيلهم خارج أرضهم، حتى لا يدعوا لهم مجالا للتنفس بحرية، أو التوسع في قواعدهم ودوائرهم، أو إيجاد أرض خصبة للانتشار فيها، وتكوين قاعدة قوية للإسلام، أو تحيئة الظروف والجو المناسب لتربية النفوس على معاني الوحي الإلهي.

ومن الأمثلة على تلك الملاحقة للدعوة في قصص القرآن الكريم، ما حكاها الله تبارك وتعالى عن فرعون وملاحقة لموسى عليه السلام والمؤمنين من بني إسرائيل، حين خرجوا من مصر تنفيذا لأمر الله سبحانه، نجاة بدينهم، وانتقالا إلى أرض أخرى يعبدون الله فيها بأمن واستقرار وطمأنينة.

قال تعالى: "وَأَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ"¹.

ثم قال سبحانه: "فَأَتَّبَعْنَاهُم مُّشْرِقِينَ"²، وقال سبحانه: "فَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا..."³.

لقد خرج موسى عليه السلام من بلاد فرعون هو ومن معه من المؤمنين، وأصبح الجو خاليا لفرعون، إذ لم تعد للدعوة حركة في بلاده، فكان المتوقع حينئذ أن يسر فرعون بخروج أولئك المؤمنين، بالنظر إلى كراهية المتأصلة في نفسه ضد الدعوة وأهلها، لكن فرعون الطاغية وملأه من حوله، لا يرضيهم ذلك ولا يعجبهم، إنهم لا يهدأون حين يرون الدعوة قد وجدت لها مجالا للإنطلاق، والكراهية عندهم لدين الله متأصلة لا ترتبط

(1) -سورة الشعراء: آية 52-56.

(2) -سورة الشعراء: آية 60.

(3) - سورة يونس عليه السلام: من آية 90.

بالموقع والمكان، ولذا فهم لا يسمحون للدعوة بالهدوء والاطمئنان في أى أرض أو بلاد، مادام ذلك في مكتبتهم.

إن خروج موسى عليه السلام والمؤمنين معناه انعتاقهم من بطش فرعون وجيروته، وانفكاكهم من أسرهم وطغيانه، ومن مضايقته وهم تحت سلطانه، ومعناه أيضا أن الفرصة لهم أصبحت كبيرة، والأمل عندهم واسعاً في التوسع بهدوء، والتربية في استقرار، وتعلم دينهم على روية.

ذلك أمر يزعج الطغاة، ويثير الرعب في أفئدتهم، فليس من المعقول عندهم أن يبقى رعاة الدين والحق طلقاء، وليس الأصل لديهم أن لا يجد المؤمنون بالدعوة حرجاً وضيقاً وهم يلتزمون تعاليم دينهم.

ومن ثم فقد قرر فرعون ملاحقة المؤمنين، وأعد للأمر عدته، إذ أمر بجمع الجموع من شتى المدن، وإعداد العدة، وأصدر بيانه للجنود والجموع بأن هؤلاء الفارين شرذمة لا يؤبه لها، ولكنها مع قلة مكانتها وضعف أمرها تعمل أعمالاً تغيظ وتغضب ولذلك فنحن مستعدون لها، متيقضون لهم، متهجزون بالسلح والعدة لملاحقتهم والقضاء عليهم: "فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لِقَائِطُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ"¹.

وبعد هذه التعبئة النفسية والدعاية الجماهيرية تحرك فرعون وملؤه على رأس تلك الجيوش للحاق ببني إسرائيل ومهاجتهم، ومنعهم من النجاة بدينهم "فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ"². أي في وقت شروق الشمس³.

ولكن الله سبحانه كتب نصره للمؤمنين، وأهلك فرعون وجنده:

"فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزَلَّوْنَا تَمَّ الْآخَرِينَ. وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ"⁴.

(1) - سورة الشعراء: آية 53-56

(2) - سورة الشعراء: آية 60

(3) - معاني القرآن للزجاج 92/4

(4) - سورة الشعراء: آية 63-66

إن الملأ المستكبرين يرفضون أن يدعوا المجال للمؤمنين لتطبيق دينهم بحرية، وليتلاقوا فيما بينهم في أمن وطمأنينة، وليأخذوا عن نبيهم عليه السلام ما جاء به عن ربه سبحانه وتعالى، حتى وإن أعلن الرسول والمؤمنون عزمهم على اتخاذ موقف الصبر وعدم المواجهة.

لقد طلب شعيب عليه السلام من حمة الكفر - ماداموا قد أصروا على باطلهم - أن يتركوه ومن معه من المؤمنين وماهم فيه من الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، فلا يتعرضوا لهم، ويسر كل على منهجه حتى يأتي حكم الله سبحانه: "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"¹.

وطلب موسى عليه السلام كذلك من آل فرعون أن يعتزلوه: "وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاَعْتَزَلُونِ"².

أي فلا تعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسألة إلى أن يقضى الله بيننا"³.

إن هذا المطلب مع توسطه وانصافه، وهدوئه ومسألته، وبعده عن الإثارة والتصريح بالمواجهة، لكنه لا يرضى أولئك المتسلطين، ومن ثم كان جواب الملأ من قوم شعيب عليه السلام ما حكاه القرآن في قول الله جل شأنه: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مَلِئْنَا..."⁴

وكان الجواب لموسى عليه السلام استمرارا في مظاهر الإحرام، والبطش والتضييق، والفهر والإيذاء، حتى اتجه نبي الله إلى ربه يشكو الظالمين: "فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ"⁵.

وهذا يشير إشارة واضحة إلى أن هؤلاء المستكبرين لا يرضيهم إلا أن يرضخ الرسول عليه السلام والمؤمنون للمنهج الشرطي والوضع الجاهلي، ويتخلوا عن الدين الحق والدعوة إليه، وإلا فليستمر التضييق، ولتستمر الملاحقة.

(1) - سورة الأعراف: آية 87

(2) - سورة الدخان: آية 21

(3) - تفسير ابن كثير 141/4

(4) - سورة الأعراف: من آية 88

(5) - سورة الدخان: آية 22

الطغيان:

إن "الطغيان قلما يقبل النصفة، فهو يخشى الحق أن يظل طليقا يحاول أن يصل إلى الناس في سلام وهدوء، ومن ثم يحارب الحق بالبطش ولا يسالم أبدا، فمعنى المسألة أن يزحف الحق ويستولي في كل يوم على النفوس والقلوب، ومن ثم يبطش الباطل ويرجم، ولا يعتزل الحق ولا يدعه يسلم أو يستريح"¹.

ولقد كان أسلوب التضييق والحصار للدعوة سمة من السمات البارزة في علاقة المألا من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي تعاملهم مع المؤمنين بالدعوة رضوان الله عليهم.

من صور الحصار والتضييق ما يلي:

(أ) التضييق والحصار للسيد الدعاة من المألا:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أهلك عن هذا؟ ألم أهلك عن هذا؟"²

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب. قال: فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: مالك؟ فقال: إن بي وبينه لهندقان نار وهولا وأجنحة..."³.

وفيه⁴ نزل قول الله تعالى: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى"⁵.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحر جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا

(1) - في ظلال القرآن 3231/5

(2) - رواه مسلم، 139/17 - 140.

(3) - المرجع السابق.

(4) - ينظر: تفسير الطبري 256/30، تفسير ابن كثير 528/4، تفسير البغوي 507/4

(5) - سورة العلق: آية 9-10

سجد فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض...¹.

ويقول عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "بيننا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا"².

تلك بعض الأمثلة للتضييق عليه ﷺ في عبادته. أما أصحابه رضوان الله عليهم فقد كانوا يلاقون من التضييق عنتا كبيرا دفعهم في كثير من الأحيان - خصوصا في فترة الدعوة الأولى - إلى الاتجاه إلى عبادة الله تعالى سرا في خفية عن أعين المشركين، بل إن الكثير منهم لم يكن ليتمكن من إعلان إسلامه والجهار به، إذ أن الكشف عن شيء من ذلك معناه التعرض لأذى رجال الكفر في قريش، كما حصل لأبي ذر رضي الله عنه حين نطق بالشهادتين علنا مجاهرا بإسلامه أمام أعين القوم وسمعهم، وما حصل لابن مسعود رضي الله عنه لما جهر بتلاوة آيات من سورة الرحمن، وما تعرض له آخرون كثير من الصحابة رضوان الله عليهم لما انكشف إسلامهم أو ظهر شيء من شعائر دينهم³.

إن هؤلاء الكبراء المضلين يتجهون هذا النجاه في التضييق على الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم في شعائهم التعبدية رغبة في تحجيم آثار هذا الدين في المجتمع، والحيلولة بينه وبين ظهور معالته، وشيوع شعائره، وانتشار أمره، كما أنهم يقصدون إشعار أئلك المؤمنين بأهم منبذون في أرضهم، لا تلقى تحركاتهم وقيامهم بشعائهم دينهم قبولا من أوساط الكبراء، فقد يدفع ذلك أفرادا منهم إلى الرجوع عن الدين، والارتداد إلى منهج الكفر، خوفا من استمرار التضييق والملاحقة والأذى، وشعورا منهم باليأس من إمكانية الغلبة لهذا الدين.

ويرداد انزعاج هؤلاء المستكبرين إذا كان لتلك الشعائهم أثرها في الجماهير، ودورها في تحريك الفطر السليمة لتفكر في أمر الدين، وما يحمله من الحق والهدى، وإشعال جذوة الخير في النفوس. إن تلك مرحلة أكبر وأعظم لا يتحمل الأكبر المكذبون وجودها، ويحاربونها بشدة.

(1) - سبق تخريجه ص 221

(2) - سبق تخريجه ص 225

(3) - الأمثلة كثيرة في كتب السير والتراجم، وورد شيء من ذلك في المطلب السابق

ذلك أن وجود الشعائر التعبدية على المستوى الفردي الخاص مما لا يطلع عليه الآخرون أمر لا يرضى دائما أولئك الملأ من قريش، وقد يجابهونه بالتضييق إلا أنه على كل حال يبقى مسألة هيئة مادام في هذا المحيط الفردي لكن الأمر يختلف تماما حين يرون هذه الشعائر التعبدية تحولت من المستوى الفردي البحت إلى المستوى الجماعي، والتأثير الجماهيري، وأصبحت تؤثر في العامة بالقُدوة والإيحاء.

إنهم حينئذ لا يهدأون أبدا، ولا يسمحون لذلك الوضع بالاستمرار، لأن ذلك معناه انتشار الدين وتعاليمه على مستوى العامة والجماهير.

وبهذا الشكل فهم يحاربون كل ألوان الدعوة إلى هذا الدين، لأنها تخرج الإسلام من الدائرة الفردية إلى التأثير على الآخرين، وازممامهم بالتالي إلى صف المؤمنين.

ولا يخرج لون من ألوان الدعوة عن هذا التضييق والحصار، حتى تلك الدعوة الصامتة التي لا يتكلم فيها أصحابها بالسنتهم، وإنما تنطق شخصياتهم وتطبيقاتهم العملية بعظمة هذا الدين، وأحقية، وما يحمله من النور والهدى واليقين، والطمأنينة والاستقرار. ذلك الشعور من هؤلاء الملأ من قريش يمكن أن نجد صورة واضحة له فيها حصل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين¹، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشبة، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد² لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة³ فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنأ لك جار⁴، ارجع واعبد ربك ببلدك. فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا

(1) - أي يدينان دين الإسلام "فتح الباري 293/7.

(2) - برك الغماد: بفتح الباء وحكى كسرهما وسكون الراء، وبكسر الفين وحكى ضمها وتخفيف الميم. وهو موضع على مسافة خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن ينظر: المغني ص36، تبصير المنتبه 144/1، فتح الباري 294/7.

(3) - الدغنة: بفتح الدال وكسر الفين وتخفيف النون، وهي أمه، وقيل أم أبيه والقارة بتخفيف الراء اسم قبيلة، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش. ينظر فتح الباري 294/7.

(4) - "أي مجير، أمتع من يؤذك" فتح الباري 295/7.

يخرج مثله ولا يخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ماشاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر¹ فابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينفذ عليه² نساء المشركين وأبنائهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفرغ³ ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إننا كنا أجراً أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلوة والقرأة فيه، وإننا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبنائنا، فأنه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

قالت عائشة: "فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل"⁴.

إن هذا الموقف الذي مر به أبو بكر ﷺ هو نموذج ومثال واضح للتضييق على الدعوة، ومحاولة حصارها في محيط أهلها، وقفل أي ثغرة يمكن أن يتغلل عن طريقها أثر هذا الدين إلى الآخرين.

ومن خلال تلك الحادثة يمكن الإشارة إلى مايلي:

* إن تفكير أبي بكر ﷺ في الهجرة إلى الحبشة في حد ذاته كان نتيجة لهذا التضييق المستمر على الصحابة رضوان الله عليهم، سواء في عملهم بالإسلام وتنفيذهم لشعائره وتعاليمه، أو في عملهم للإسلام دعوة إليه ونشراً لمعالمه.

(1) - "أي ظهر له رأي غير الرأي الأول". فتح الباري 295/7.

(2) - المقصود أنهم يجتمعون ويتدافعون ويذبحون على مشاهدته. ينظر فتح الباري 296/7.

(3) - "أي أخاف الكفار، لما يعلمونه من رقة قلوب النساء والشباب، أن يميلوا إلى دين الإسلام" فتح الباري 296/7.

(4) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة 1417/3-1418.

ولذا جاء في رواية ابن إسحاق أن أبا بكر رضي الله عنه "حين ضافت عليه مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأي من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه مارأي، استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فأذن له"¹.

ولما لقيه ابن الدغنة وسأله عن سبب خروجه قال أبو بكر رضي الله عنه كما في رواية البخاري: "أخرجني قومي أن أسبح في الأرض وأعبد ربي"، وفي رواية ابن إسحاق: "أخرجني قومي وأذوني وضيقوا علي" فسبب الهجرة إذن هو التضيق الشديد على تحرك القوم بالإسلام، وحصارهم في عبادتهم ودينهم، فأراد أبو بكر رضي الله عنه أن يتنقل من هذه الأرض التي يحصار فيها الإسلام، إلى أرض أخرى يجد فيها الحرية في الالتزام بالإسلام وتعاليمه.

ولما كان هذا سبب الخروج كانوا هم في الواقع المخرجين له ولذا قال "أخرجني قومي".

*كان شرط أشرف قريش للقبول بجوار ابن الدغنة لأبي بكر رضي الله عنه هو أن يكتفي أبو بكر رضي الله عنه في مسألة الدين بالشعائر العبادية في خاصة نفسه، وأن يستسر بها ولا يعلنها أمام العامة "مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ماشاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساتنا وأبنائنا".

وذلك يدل على أمرين:

الأول: التضيق الشديد، والحصار المحكم، الذي كان الملأ من قريش يحاولون فرضه على الدعوة، وعلى الملتزمين بها من أصحاب رسول الله ﷺ و رضي الله عنه، حتى في شعائر الدين التي لا تتجلى فيها الدعوة إلى الإسلام.

الثاني: أن الملأ من قريش يمكن أن يقدموا موافقتهم على مضض إذا كان الأمر يتعلق بالشعائر التعبدية الفردية التي لا يطلع عليها الجمهور، وبالتالي فليس لها خارجي (مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ماشاء).

ولكنهم لا يمكن أبدا أن يسمحوا بأن يتحرك الصحابة رضوان الله عليهم من أجل الدين ودعوة الناس إليه، والتأثير في الأفكار، وتصحيح العقائد والتصورات والمفاهيم.

(1) - من رواية ابن إسحاق قال: حدثني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها السيرة النبوية لابن هشام 298/1-300.

إن ذلك أمر مرفوض حتما لدى الملأ من قريش، ويعتبرون ذلك لو حصل قضية شائكة تورقهم وتوزيهم (ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به) ثم بينوا السبب في تحذيرهم من الاستعلان بشعائر الدين فقالوا (فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا).

فهم يخشون من أن يتحول الأمر من مجرد علاقة فردية بالله سبحانه إلى مرحلة أخرى تتم فيها الدعوة إلى هذا الدين والتأثير به في عموم الناس ومحاولة مخاطبة الفطر السليمة فيهم لجذبهم إلى الإسلام والدين الحق.

يبدو أن الملأ من قريش كانوا يحسون بما في هذا الدين من جاذبية وكونه يخاطب الفطرة في الانسان، وأن الحق فيه قريب من النفس لو أتيح لها أن تتأمل فيه بحرية، دون أي مؤثرات أو ضغوط خارجية، وهذا الإدراك منهم هو الذي يدفعهم للخشية من هذا الدين حين يعرض مبادئه، وهو ما يدفعهم كذلك للتضييق عليه، والحصار لرجال القائمين عليه حتى لا تحصل الفتنة - حسب تعبيرهم - (فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبنائنا).

وهذا الذي حصل، فقد فرع الأشراف وأصاهم الرعب لما رأوا نساءهم وأبناءهم وهم يستمعون إلى قراءة أبي بكر رضي الله عنه، ويشاهدون صلاته لما ابتنى له مسجدا في فناء داره، وبدأوا يتأثرون بما يرون.

ومن ثم تحركوا سريعا لتشديد الحصار من جديد، ولزيادة الأذى والتضييق، فكلما ابن الدغنة، وطلبوا منه أن يرفع حمايته عن أبي بكر إذا أراد أن يستمر في الاستعلان بدينه. "إننا كنا أجرا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإننا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبنائنا، فاتمه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن إني إلا إن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان." وكانت هذه وسيلة ضغط على أبي بكر رضي الله عنه، لم يرضخ لها فرد لابن الدغنة جواره.

ومن مظاهر حصار الدعوة والتضييق عليها أيضا محاولات الملأ من قريش في الضغط على رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال عشيرة، والمتمثلة في أبي طالب الذي كان يذب عنه - عصبية - ويحميه.

عن عقيل¹ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في افئيتنا، وفي ناديتنا، فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل، فقال لي: يا عقيل، التمس لي ابن

(1) - عقيل: بفتح العين. تهذيب الأسماء 337/1، تبصير المنتبه 960/3.

عملك، فأخرجته من كبس¹ من أكباس أبي طالب، فأقبل يمشي معي، يطلب الفيء يمشي فيه، فلا يقدر عليه، حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال له أبو طالب: يا ابن أخي، والله ما علمت، ان كنت لي لمطاعا، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في أفنتهم وفي ناديتهم، تسمعهم ما يؤذيتهم، فإن رأيت أن تكف عنهم، فخلق ببصره إلى السماء، فقال: والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار. فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين².

يقول ابن إسحاق: "فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم³ من شئ أنكره عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه، وقام دونه، فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، أبو البختري، والأسود بن المطلب، وأبوجهل، والوليد بن المغيرة، ونبيه⁴ ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، أو من مشى منهم، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه⁵.

ولما لم يروا لمقاتلتهم أثرا في الواقع عادوا إليه ليناقشوه الأمر من جديد.

- (1) - الكبس بكسر الكاف وسكون الباء: بيت صغير. ينظر النهاية 143/4.
- (2) - رواه الطبراني وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد 8/6-9 قال الهيثمي: رجال أبي يعلى رجال الصحيح، ورواه البيهقي في الدلائل 186/2-187، والبخاري في التاريخ كما في البداية 55/3، والدلائل 187/2، وحسنه الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 147/1-148.
- (3) - أي لا يرضيهم بالرجوع عما ينكرونه عليه. ينظر ترتيب القاموس 145/3.
- (4) - نبيه بن الحجاج: بضم النون وفتح الباء وسكون الياء. المغني ص252.
- (5) - السيرة النبوية لابن هشام 199/1-200، وينظر: البداية 62/3-63، السيرة الحلبية 461/1، سبل الهدى والرشاد 436/2.

يقول ابن إسحاق: "ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا، وإنا والله لانصير على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين"¹.

وواضح أنهم يقصدون وضع أبي طالب أمام خيارين اثنين:

أولهما: أن يلزم ابن أخيه مُحمَّدًا عليه الصلاة والسلام بالتوقف عن دعوته، والامتناع عن الحديث فيما جاء به من دين الله سبحانه، والانتفاء عن التعرض لما في منهج القوم من الضلال.

وثانيهما: أن يعلن رفع الحماية عن مُحمَّد ﷺ، ومن ثم يتمكنون من التعامل معه بحرية أكبر للقضاء عليه وعلى دعوته.

(ب) التضييق والحصار المعيشي:

من عداوة أبي جهل للمؤمنين.

فقد كان "إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعه أنه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهم حلمك، ولنفيلن رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به"².

فأبو جهل وأمثاله يتواصلون بالتضييق على المؤمنين في معاشهم وتجاراتهم، وسد أبواب العمل والكسب أمامهم، وإغلاق مجال الربح في وجوههم، حتى تبقى الفئة المؤمنة فقيرة المال، ضعيفة الحال، يشغلها أمر المعيشة والأرزاق عن الدعوة والإسلام.

بل ويتخذون من هذا التضييق وسيلة للضغط على المؤمنين ودفعهم لاختيار طريق الكفر الذي يسير فيه القوم، بالإضافة إلى تحذير الآخرين من سلوك سبيل المؤمنين.

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 200/1، وينظر: البداية 63/3، السيرة الحلبية 462/1 سبل الهدى والرشاد 436/2-

(2) - تقدم ص 371.

ومن أبرز صور هذا التضييق من الملاء المكذبين في قريش تلك الحرب الاقتصادية المعلنة التي تحالفوا فيها وتعاهدوا ضد رسول الله ﷺ والمؤمنين من أصحابه رضوان الله عليهم، والمتعاطفين معهم عصبية من بني هاشم.

وكانت الاتفاقية بينهم تتضمن المقاطعة التامة في الشؤون التجارية، والعلاقات الاجتماعية، فلا يتزوجونهم، ولا يشترون منهم ولا يبيعونهم.

قال ابن إسحاق: "فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفسد في القبائل اجتمعوا واتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبدالمطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئا، ولا يتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا ونوائقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبني المطلب إلى أبي طالب ابن عبدالمطلب، فدخلوا معه في شعبة واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو طالب - عبد العزى بن عبد المطلب - إلى قريش فظاهرهم¹. وقد أشار رسول الله ﷺ - فيما بعد - إلى هذه الحادثة، وذلك فيما رواه أبوهريرة رضي الله عنه قال: "قال النبي ﷺ من الغد يوم النحر، وهو منى: نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر². يعني بذلك المحصب³، وذلك أن قريشا وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني عبدالمطلب، أو بني المطلب، أن لا ينكحوهم، ولا يبيعوهم، حتى يسلموا إليهم النبي ﷺ⁴.

(1) - رواه ابن إسحاق دون اسناد: السيرة النبوية لابن هشام 378/1-379، ورواه البيهقي في الدلائل بنحوه من طريق موسى بن عقبة عن الزهري 311/2-312، وينظر: زاد المعاد 29/3-31، فتح الباري 244/7-245، البداية 105/3-107، السيرة الحلبية 25/2-26، سبل الهدى والرشاد 502/2-504.

(2) - أي "تحالفوا وتعاهدوا عليه" شرح النووي على صحيح مسلم 61/9.

(3) - المحصب "بفتح الحاء والصاد وتشديدها وهو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنى" النهاية 393/1. و"الخيف ما انحدر عن غلط الجبل وارتفع عن مسيل الماء" فتح الباري 18/8.

(4) - رواه البخاري في صحيحه كتاب الحج، باب نزول النبي ﷺ مكة 576/2-577، ومسلم في كتاب الحج، باب استحباب النزول بالمحصب يوم النفر 61/9.

ولقد كان لذلك الحصار أثره البالغ في التضيق على المؤمنين، فأصابهم من الجوع والحاجة مالا يعلمه الله سبحانه، وجهدوا سنوات متتالية لا يجدون فيها من الطعام ما يسدون به الرق "حتى كان يسمع أصوات صبياتهم يتضاعون¹ من وراء الشعب من الجوع"².

ففي رواية الزهري "فلبت بنو هاشم في شعبهم يعني ثلاث سنين³،

واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعاما يقدم مكة ولا يبعوا إلا بادرهم إليه فاشترؤهم"⁴.

قال السهيلي: "وفي الصحيح⁵ أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط⁶ وورق السمر⁷، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص"⁸.

يقول سعد رضي الله عنه: "لقد رأيته مع رسول الله ﷺ بمكة، خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقة شئ تحت بولي فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين، ثم استفتتها وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً"¹.

(1) - يتضاعون: أي يكون ويكون ويصبحون. ينظر لسان العرب 2593/4.

(2) - العبارة من رواية البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق 315/2.

(3) - بدأت المقاطعة في محرم سنة سبع من البعثة، واستمرت حتى نقض الاتفاق إثر تحرك بعض رجال قريش. ينظر: زاد المعاد 98/1، 30/3، السيرة النبوية لابن هشام 103/2، سبل الهدى والرشاد 504/2.

(4) - دلائل النبوة للبيهقي 312/2، وينظر: الروض الأنف 127/2-128، سبل الهدى والرشاد 503/2-504، السيرة النبوية لابن هشام 281/1-282.

(5) - الذي وقفت عليه قول عتبة بن غزوان رضي الله عنه - ضمن خطبة - "ولقد رأيته سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك (هو ابن أبي وقاص رضي الله عنه) فانزرت بنصفها، وأتزر سعد بنصفها..." رواه مسلم في كتاب الزهد 102/18.

(6) - الخبط بفتح الباء: الورق الساقط من الشجر، والخبط بإسكان الحاء: ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها. ينظر النهاية 7/2.

(7) - السمر بفتح السين وضم الميم "هو ضرب من شجر الطلح، الواحدة سمرة" النهاية 399/2، ترتيب القاموس 610/2.

(8) - الروض الأنف 127/2.

(ج) مواجهة الملا للدعوة وأهلها ضواحي مكة المكرمة:

لم يطمئن قلوب الملا من قريش بالاستبداد والتضييق على الدعوة داخل مكة، وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين فيها بشتى أنواع الأذى، بل اتجهوا إلى ملاحقتها خارجها أيضا.

ذلك أن أولئك المشركين لم يكن ليرضيه أن يجد المؤمنين دارا آمنة في بقعة من الأرض، يشعرون فيها بالطمأنينة والاستقرار، في دينهم وأنفسهم وأموالهم، ويجدون فيها الحرية في المجاهرة بدعوتهم وإعلان إسلامهم، وتطبيق شعائر دينهم.

ومن ثم كان هؤلاء المستكبرين من قريش يبذلون الجهود في قطع كل محاولة يقوم بها رسول ﷺ وأصحابه للانتشار خارج مكة، وانتقال الدعوة عن طريقهم إلى بلاد أخرى يمكن أن تكون قواعد آمنة للدعوة وأهلها، يحدهم الأمل في إبقاء الدعوة محاصرة داخل مكة، حتى تتأكل من داخلها، فينتهي أثرها في الداخل بعد حين، في الوقت الذي لا يكون لها فيه أي امتداد في الخارج.

ومن النماذج على هذه الملاحقة ما يأتي:

أولا: ملاحقة المهاجرين إلى الحبشة، من أصحاب رسول الله ﷺ وﷺ:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي، أمنا على ديننا وعبدا الله تعالى، لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشا اتهموا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدتين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف² من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم³، فجمعوا له أدم كثيرا، ولم يتركوا من بطارقه⁴ بطريقا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجنا حتى قدما

(1) - رواه أبو نعيم في الحلية 93/1 من طريق ابن إسحاق قال حدثني صالح بن كيسان عن بعض آل سعد عن سعد رضي الله عنه.

(2) - أي يستحسن من الجديد المستحدث الذي يعجب من يشاهده ينظر لسان العرب 2657/4.

(3) - بضم الهمزة والذال: جمع الدم وهو الجلد. ينظر لسان العرب 45/1.

(4) - جمع بطريق كسر الباء، وهو القائد، الخاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم، وهو صاحب منصب عندهم. ينظر: ترتيب القاموس 287/1، النهاية 135/1.

على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعها إليه هديته قبل أن يكلمها النجاشي، وقال لكل بطريق منهم: إنه ضوي¹ إلى باد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أئمتهم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا² وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما نعم. ثم إنهما قدما هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له أيها الملك، إنه قد ضوي إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي. قالت: فقالت بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم. قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم³ جاوروني، نزلوا بلادني، واختاروني على من سواي حتى أدعوه فأسألم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهن إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهن منهما، وأحسن جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جتمعوه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاء - وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم⁴ حوله - سألم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم

(1) - ضوي: أي لجأ. ينظر ترتيب القاموس 46/3.

(2) - "أي أبصر بهم وأعلم بمآلهم". النهاية 295/3، وينظر الروض الأنف 92/2.

(3) - أي لا يكثر بهم ولا يرادون بسوء. ينظر لسان العرب 3965/5.

(4) - المصاحف جمع مصحف، وهو الجامع للصحف المكتوبة. ينظر لسان العرب 2404/4.

والدماء، ونحانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام-قالت: فعددت عليه أمور الإسلام- فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمتنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجعنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فأقرأه على، قالت: فقرأ عليه صدرا من (كهيعص)، قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته¹، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة² واحدة، انطلقا، فلا والله لأأسلمهم إليكما، ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده قال عرو بن العاص: والله لأتينه غدا عنهم بما أستاصل به خضراءهم³. قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإن لهم أرحاما، وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه. قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه. قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألتم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن. قالت فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، نقول: هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول⁴. قالت: فضرب النجاشي

(1) - اخضلت لحيته: أي ابتلت بالدموع. ينظر النهاية 43/2.

(2) - المشكاة: الكوة غير النافذة-والكوة المحرق في الحائط- وقيل: هي الحديد التي يعلق عليها الفتيل، ومراد النجاشي أن القرآن والإنجيل كلاهما من مصدر واحد، والجميع كلام الله سبحانه. ينظر لسان العرب 4/ 2315، 3964/5.

(3) - أي سوادهم ومعظمهم، والمراد: ما يمكن به من القضاء عليه. ينظر لسان العرب 1183/2.

(4) سميت بذلك لانقطاعها عن الرجال. ينظر النهاية 94/1.

بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت¹ بطارفته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً² من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم، ردوا عليهما هداياهم فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجنا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار³.

إن هذه الحادثة تمثل صورة من صور الملاحقة للدعوة وللمؤمنين بها، ويمكن تحليلها فيما يلي:

*لقد كان الباعث على هجرة المؤمنين إلى الحبشة هو الفرار بالدين من الحواجز والعقبات التي كان الملأ من قريش يضعونها في وجه الإسلام، والدعاة إليه، والمتمسكين به، والبحث عن مكان آمن مستقر يمكن فيه إظهار شعائر دين الله سبحانه، بعيداً عن تلك الحواجز والعقبات، وذلك التضيق من أعداء الدين.

يظهر ذلك في كلمات جعفر عليه السلام "فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الحبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك".

*أزعجت هذه الهجرة سادة قريش وأفزعتهم، إذ أنها تعني نجاة طائفة من المؤمنين بدينها من الفتنة والإيذاء والتضييق الشديد بمكة، وتعني أيضاً حصول المؤمنين على أرض يأمنون فيها ويستقرون، ويتمكنون فيها من توحيد ربهم وعبادته سبحانه في طمأنينة، والنمو بعقيدتهم وإسلامهم في هدوء، والتلقى والعطاء في دوائهم على منهج الله سبحانه دون عنت.

(1) قال في النهاية 32/5: "أي تكلمت، وكأنه كلام مع غضب ونفور".

(2) بفتح الدال وسكون الباء، وهو الجبل. ينظر: ترتيب القاموس 145/2، السيرة النبوية لابن هشام 268/1.

(3) رواه ابن إسحاق: السيرة النبوية لابن هشام 265/1-268، وأحد من طريق ابن إسحاق بتمامه: الفتح الرباني 226/20-228، قال الهيثمي: "رجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع" مجمع الزوائد 28/6، وصححه الساعدي في بلوغ الأماني 229/20، وشاكر: المسند 180/3، والألباني: فقه السيرة للقرطبي ص 115 (الحاشية).

وكلا الأمرين مر على الملأ من قريش، يصيبهم بالقلق والرعب، وتغلى من أجل ذلك الأحقاد في القلوب، وهم يرون المؤمنين قد خرجوا من سلطنتهم، ونجوا من أيديهم، في الوقت الذي كانوا فيه ينفسون في هؤلاء المؤمنين وأمثالهم حقدهم على الإسلام، وبغضهم لعقيدته. ومن ثم تحرك أصحاب النفوذ من قريش لمحاولة تغيير هذا الوضع الجديد، وهدم بنائه، والقضاء على هذه الدائرة الإيمانية البعيدة عن السيطرة والرقابة والتسلط.

وبعد التأمر والتخليط كان قرارهم بإرسال سفيرين إلى النجاشي لمحاولة التأثير عليه ليطرد هؤلاء المؤمنين من بلاده، ويضطرهم إلى العودة إلى مكة ليعيشوا من جديد تحت تسلط أهل الشرك من قريش.

*الغاية عند أولئك الملأ من قريش تبرر الوسيلة، ولذا فلا مانع عندهم من استعمال كل وسيلة في سبيل الضغط على النجاشي، والوصول إلى هدفهم في طرد المؤمنين من الحبشة، ولذا اتفقوا على تقديم الرشاوي في ثوب الهدايا المستطرفة التي تعجب أهل الحبشة للبطارقة، في مقابل أن يقوموا بدورهم في الضغط على النجاشي، وأن يضمنوا صوتهم إلى صوت السفيرين في المطالبة بطرد المؤمنين وتسليمهم، بناء على أن (قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوهم عليه).

وكان من ضمن الخطة الموضوعة أن يحاول السفيران الوصول إلى الهدف قبل أن يحصل التمكين للمؤمنين من قول كلمتهم في القضية، وإبداء رأيهم في أسباب هجرتهم، وموقف القوم منهم.

إن لذلك دلالاته الواضحة على رعب حماة الباطل من الحق الذي يحمله الإسلام، وعلى يقينهم بأن مجاء به رسول الله ﷺ هو الدين الصحيح، الذي يحوي من الأدلة والبراهين ما يؤكد الهدى والحق فيه.

وهم بدلا من الاتجاه إلى الإسلام ليجعلوه عقيدة لهم ودينا، يعملون على هدمه، والتضييق على كلمة أن تظهر، وعلى الحق فيه أن يأخذ طريقه إلى الناس.

ومن ثم فقد اصابهم الخشية من أن يستمع النجاشي إلى كلمة الحق فيتأثر بها- وهذا ما حصل- فكان ترتيبهم أن يعملوا على تحقيق رغبتهم في طرد المؤمنين بناء على حيثياتهم ومطالباتهم، دون الرجوع إلى المؤمنين لسماع دفاعهم ومبرراتهم وأقوالهم "ثم بعثوا بذلك عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وأمروها بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه

أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم"، ولذا قالت أم سلمة رضي الله عنها: "ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي".

وفعلا فقد طلب السفيران من البطارقة بعد تقديم الرشاوي لهم أن يشاركوها في مطالبة النجاشي بتسليم المؤمنين قبل أن يسمع منهم "فلم يبق من بطارقتهم بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمها النجاشي، وقالوا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوي إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فاشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم."

نفذ سفيرا قريش محاولتين للتأثير على النجاشي لإصدار قراره بطرد المؤمنين.

الأولى منهما يتهمان فيها المؤمنين أمام النجاشي بمجموعة من الاتهامات هي:

(1) أنهم أهل سفه وطيش وضالة في التفكير.

(2) أنهم جاءوا ببدعة مستحدثة ودين جديد، ليس هو الوثنية التي يعرفونها، وليس هو النصرانية التي يعرفها الملك - وما بهذا الاتهام يحركان النزعة العصبية الدينية لدى الملك ذي الديانة النصرانية في الأصل.

ولذا فهم يطلبون من الملك تسليمهم لإرجاعهم إلى مكة، والمبرر في هذا المطلب أن أشراف قريش أعلم بهذه الفتن، وما يعالجها، وما يعيدها إلى رشدتها وصوابها.

"أيها الملك إنه قد ضوي إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه".

وتحركت البطارقة لتأييد هذا الرأي فقالوا: "صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهم، فليردهم إلى بلادهم وقومهم".

والحالة الثانية كانت بعد فشل المحاولة الأولى، إذ قال عمرو بن العاص بعد الخروج من مجلس الملك "والله لأتيته غدا بما استأصل به خضرائهم"، "والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد".

وكان اتهاماً في الصميم، إذ أنه يتعلق بدين الملك وعقيدته، والأمر فيها خطير، وكلام عمرو معناه أن هذه الفئة المؤمنة تخالف الملك وتناكفه في عقيدته التي يدين بها، وأنها تخط من قيمة من تقدسه النصاري وتوله عيسى بن مريم عليه السلام.

ومن ثم فإن هذه الفئة - حسب هذا الاتهام - تؤسس للفتنة البنية في بلاد الحبشة، ويمكن أن يصل بها الأمر إلى زرع الفرقة، ونشر الاضطراب، وتأليب الرأي العام ضد النجاشي نفسه.

"أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه".

* خيسب الله عز وجل أمل اللأ من قريش، إذ فشلت محاولتا السفيرين في التأثير على الملك، واستصدار القرار بتسليم المؤمنين.

وكان ذلك بفضل الله وتوفيقه أولاً ثم بجواب جعفر عليه السلام والذي يجمع بين الرد الشرعي الواضح دون مواربة، وبين الهدوء والحكمة والأدب والحنكة¹.

فقد ركز في جوابه في اللقاء الأول على ما يلي:

- وصف الأوضاع السيئة في الجاهلية.

- وصف الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يحمله من الحق والهدى والخير.

- السبب الذي دفعهم إلى الهجرة، وهو مالا قوة من الأذى والتضييق.

- سبب اختيارهم للحبشة خصوصاً، وهو رجاء ما عرف به النجاشي واشتهر عنه من العدل، وكراهية الجور والظلم.

- تلاوة مقدمة سورة مريم بناء على طلب النجاشي.

وكان جوابه في اللقاء الثاني مقتصرًا على البيان في هدوء للقول الحق في عيسى بن مريم عليه السلام، وأنه عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم.

(1) - الحنكة بضم الحاء: السن والتجربة والبصر بالأمور، يقال: حنكت الشيء، أي فهمته وأحكمته. ينظر لسان العرب

وأراد الله سبحانه بالنجاشي وبالمؤمنين خيراً، إذ بكى حين سمع آيات الله تتلى في المجلس الأول، ثم قال قوله "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما"، وقال في المجلس الثاني بعد استماعه لقول جعفر في عيسى بن مريم عليه السلام، وبعد أن أخذ عوداً من الأرض: "والله ماعدا عيسى بن مريم ماقلت هذا العود"، ثم قال: "اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي" أي آمنون، وبهذا كتب الله لهم الأمان في الحبشة، وعاد السفيران إلى مكة دون أن تنجح خطة الملأ من قريش في اللحاق بالمؤمنين.

ثانياً: ملاحقة المهاجرين إلى المدينة.

ومن الأمثلة على ذلك ملاحقة أبي جهل بن هشام لعياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه لما خرج من مكة مهاجراً.

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اتعدت-لما أردنا الهجرة إلى المدينة-أنا وعياش¹ بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التناضب من أضاة بني غفار²، فوق سرف³، وقلنا: أينما لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقاء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام، إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالاه: إن أملك قد نزلت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرق لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أملك القمل لا متشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، قال: فقال أبر قسم أمي، ولي هنالك مال فأخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أي لمن أكثر قريش مالاً، فللك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قال: قلت له: أما إذا قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجبية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب، فأنج عليها.

(1) - عياش: بتشديد الياء الاكمال 64/6.

(2) - التناضب: بكسر الضاد، جمع تنضي، وهو ضرب من الشجر، تألفه الحرياء، وأضاة بني غفار على بعد عشرة أميال من مكة، والأضاة: الغدير. ينظر الروض الأنف 226/2-227.

(3) - سرف: بفتح السين وكسر الراء، موضع يبعد عن مكة نحو عشرة أميال، وفيه بني الرسول ﷺ ميمونة رضي الله عنها. ينظر النهاية 362/2، المغني ص 126.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبوجهل يا ابن أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليهما، فلما استوتوا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه رباطاً، ثم دخلا به مكة...¹.

وكان رسول الله ﷺ يدعو له بالخلاص والنجاة كما روى أبوهريرة رضي الله عنه "أن النبي ﷺ كان يدعو في الصلاة: اللهم انجح المستضعفين من المؤمنين"².

فلك الله جل وعلا أسره ونجاه، إذ تمكن من الخروج من مكة مهاجراً، وكان ذلك قبل فتح مكة³.

ثالثاً: ملاحقة الرسول ﷺ في هجرته إلى المدينة قرر كبراء المشركين ذلك حين نما إلى علمهم خروج رسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر رضي الله عنهما من مكة مهاجرين، إذ ساءهم هذا الخبر وأزعجهم، ورأوا فيه نجاة بالدعوة وانطلاقاً لها من جهة، وخطورة عليهم من جهة أخرى حين يتم الأمر لرسول الله ﷺ بالمدينة، ويكون له فيها النفوذ والسلطان. فتحركوا لملاحقة رسول الله ﷺ واعتقاله، كما أعلنوا عن مكافأة ضخمة لمن يأتي به ﷺ، وبصاحبه أبي بكر رضي الله عنهما، قتيلاً أو أسيراً.

وخرجت بالفعل مجموعات من المشركين للبحث عنه ﷺ، ووصلوا إلى جبل ثور الذي كان يختفي فيه رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنهما، واقتربوا من الغار الذي كانا يختفیان فيه، ولكن الله سبحانه سلم، إذ عاد المشركون دون اكتشاف مكائهما.

يقول أبو بكر رضي الله عنه: "كنت مع النبي ﷺ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال: ما ظنك بآئين الله ثالثهما"⁴.

(1) - رواه ابن اسحاق قال: حدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنه. السيرة النبوية لابن هشام 71/2-72، والبيهقي في الدلائل 461/21-462، والبزار كمال في مجمع الزوائد 76/6-77، قال الهيثمي: رجاله ثقات.
(2) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإكراه 2546/6، ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة 176/5-177.

(3) - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 294/1، دلائل النبوة للبيهقي 460/2.

(4) - رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} 1712/4-1713، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه 149/15.

وكان ممن لحقه أيضا حين اتجه ﷺ إلى المدينة سراقه بن مالك، أملا في الحصول على المكافأة الموعودة.

يقول أبو بكر رضي الله عنه في سياق حكايته خير المعجزة:

"...فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم، غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن إن الله معنا¹."

ويفصل سراقه بن مالك رضي الله عنه خبر لحاقه برسول الله ﷺ فيقول:

"جاءنا رسل كفار فريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دبة كل واحد منهما²، لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُذَلِّج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: ياسراقه، إني قد رأيت أنفا أسود³ بالساحل، أراها مُحمداً وأصحابه، قال سراقه: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانا وفلانا، انطلقوا بأعيننا⁴، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريي أن تخرج بفرسي، وهي من وراء أكمة⁵، فتجسها علي وأخذت رحي، فخرجت به من ظهر البيت، فخططت برُججه⁶ الأرض وخفضت عاليه⁷، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها⁸ تقرب بي⁹ حتى دونت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقامت فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأرزلام

(1) - الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين 1336/3-1337، ومسلم في كتاب الزهد، باب حديث المعجزة 147/18-150.

(2) - "أي مائة من الابل" فتح الباري 305/7.

(3) - "أي أشخاصا" فتح الباري 305/7.

(4) - أي في نظرنا يتغون ضالة لهم. ينظر فتح الباري 305/7.

(5) - الأكمة: الموضع المرتفع عما حوله. ينظر ترتيب القاموس 165/1.

(6) - "فخططت برججه الأرض" أي أمكنت أسفله، والرج بضم الزاي: الحديد التي في أسفل الرمح. ينظر فتح الباري 306/7.

(7) - قال ابن: "أمسكه بيده، وجر رججه على الأرض فخطها به، لئلا يظهر بريقه لمن بعد عنه، لأنه كره أن يتبعه منهم أحد فيشركوه في الجمالة". فتح الباري 306/7.

(8) - "أي أسرع بما السير". فتح الباري 306/7.

(9) - من التقريب: وهونوع من السير، قال في النهاية 35/4 "قرب تقريبا إذا عدا عدوا دون الإسراع".

فاستقسمت بها¹، أضربهم أم لا، فخرج الذي أكره²، فركبت فرسي وعصيت الأزلأم، تُقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت³ يدا فرسي في الأرض، حتى بلغنا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة، إذا لأثر يديها عثان⁴ ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلأم فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جثتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني⁵ لم يسألاني، إلا أن قال: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب في رقعة من أديم، ثم مضى رسول الله ﷺ⁶.

ويشاء الله تعالى أن يعصم نبيه ﷺ ويحفظه من كيد ألك الملأ من قريش، ويفشل محاولاتهم في اللحاق به عليه الصلاة والسلام، واعتقاله أو قتله، وأن يصل عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سالما منصورا غانما.

- (1) - الأزلأم: جمع زلم بفتح الزاي وضمها، وهي الفداح التي كانت في الجاهلية، مكتوب عليها الأمر والنهي، افعل ولا تفعل، كان الرجل منهم يضعها في وعاء له، فإذا أراد أمرا مهما أدخل يده فأخرج منها زلما، فإن خرج الأمر مضى لما يريد، وإن خرج النهي كف عنه ولم يفعله. ينظر النهاية 311/2.
- (2) - "فخرج الذي أكره" أي لا تضرهم. فتح الباري 306/7.
- (3) - "أي غاصت". فتح الباري 306/7.
- (4) - عثان: بضم العين، أي دخان. فتح الباري 307/7.
- (5) - أي لم يأخذوا مما معي، ولم ينقصاني منه شيئا. ينظر فتح الباري 307/7.
- (6) - رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل رضوان الله عليهم، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة 1420/3-1421.

المبحث السابع: استنجال الوعيد تعنتا وعنادا

من كمال عدل الله سبحانه ورحمته وحكمته أن لا يحاسب عباده ولا يعاقب الخارجين عن أمره عز وجل، إلا بعد اقامة الحجة، وذلك بإرسال الرسل، لتبليغ الناس الدين الذي ارتضاه تبارك وتعالى، ودعوتهم إلى التمسك به، وتخديرهم من مخالفته والخروج عنه.

قال سبحانه: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"..¹

وقال جل شأنه: "وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا"².

ومن كمال عدله ورحمته وحكمته جل وعلا أيضا أن أيد رسله عليهم السلام بالآيات البينات التي تشهد بصدقهم، وتؤكد أنهم رسل من عند الله حقا يتلقون عنه الوحي ويلفونه للناس، وتكون لهم حججا واضحة، وبراهين قاطعة على صحة ما جاءوا به، بحيث يظهر للمتأمل المنصف، الباحث عن الحق، المنجرد عن الهوى والغرض، أن من أوتى الآية الخارقة والمعجزة الباهرة، هو رسول من عند الله صدقا، وأن ما جاء به هو الدين الحق من رب العالمين.

هذا هو دأب الرسل جميعا عليهم السلام، وإن تنوعت بينهم صورة المعجزة والآية البينة.

يقول الله تعالى: "بَلِّغْ الرُّسُلَ نَقْصُ عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ..."³.

"ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ"..⁴

"أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ..."⁵.

فهذه الآيات الكريمة تبين أنه مامن رسول إلا وقد أيده الله تعالى بالبينة الدالة على صدقه، الشاهدة بنبوته.

(1) - سورة النساء: الآية، 165.

(2) - سورة الإسراء: الآية، 15.

(3) - سورة الأعراف: من آية 101.

(4) - سورة يونس عليه السلام: من آية 74.

(5) - سورة إبراهيم عليه السلام: من آية 9.

عن إبي هريرة رضي الله عنه "أن رسول الله ﷺ قال: مامن الأنبياء من نبي إلا أعطى من الآيات¹ ما مثله آمن عليه البشر²، وإنما كان الذي أوتيت وحياً³ أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"⁴.

قال ابن حجر: "هذا دال على أن النبي لا بد له من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه، ولا يضره من أصر على المعاندة"⁵.

"والعنى أن كل نبي أعطى آية أو أكثر، من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها"⁶.

ومع ذلك فقد كان المكذبون للرسالات، الكافرون بالرسول عليهم السلام- وفي مقدمتهم أكابر مجرميهم- يتعتنون في مواجهة أنبيائهم بطلب إن هذه الآيات وغيرها بصور بوضوح سوء أدب هؤلاء القوم مع رسول الله ﷺ، حين يقابلون ماجاء به عليه الصلاة والسلام، وما يبشرهم به وينذرهم من الوعد والوعيد، بالتهكم والاستهزاء، وبالتحدي والعناد، فيطالبونه ﷺ بأن يعجل لهم هذا العذاب الذي يحذرهم منه، وأن يأتيهم به سريعا دون تأخير، ولهم في ذلك أمل أن يظهر عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز، ومن ثم يمكنهم أن يستبعدوا صحة نبوته ﷺ.

أما طلب الآيات فقد ظهر كذلك جليا في تعامل هؤلاء المشركين مع رسول الله ﷺ.

والقرآن الكريم يذكر أمثلة كثيرة للاقتراحات التي كانوا يقترحونها، والآيات التي كانوا يطالبونه بها ﷺ تعنتا منهم وعنادا، وتمحلا وتعجيزا.

(1) - "أي المعجزات الخوارق" فتح الباري 7/9.

(2) - أي آمن له، أو به، وعبر بعلي لتضمنها- كما يقول ابن حجر- معنى الغلبة، أي يؤمن بذلك مغلوبا عليه بحيث لا يستطيع دفعه عن نفسه، لكن قد يجحد فيعاند ينظر فتح الباري 7/9.

(3) - المعنى كما يقول ابن حجر "أي أن معجزتي التي تحدت بها: الوحي الذي أنزل على، وهو القرآن، لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولأنه لم يأت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي احتص بها دون غيره..." ينظر فتح الباري 8/9-9، 13/309، شرح النووي على صحيح مسلم 2/188.

(4) - رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي 4/1905، ومسلم- واللفظ له- في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس 2/186.

(5) - فتح الباري 7/9.

(6) - فتح الباري 7/9.

وكانت هذه المطالبة منهم للآيات ترد أحيانا مجملة، دون تفصيل للاقتراح، أو تخصيص للآية.

ومن الأمثلة على ذلك ماوردته الآيات الكريمة التالية: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ..."¹.

"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا..."².

"وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ..."³.

"وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ..."⁴.

"وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِيَنَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ..."⁵.

"بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ"⁶.

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ..."⁷.

فهذه الآيات الكريمة تبين أنهم كانوا يطلبون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بخارقة مادية، كالتي جرت على أيدي الرسل السابقين عليهم السلام، كإحياء الموتى، أو إبراء الأكمه والأبرص، وكناقة صالح عليه السلام، وما أشبه ذلك.

وأحيانا يرد الاقتراح من هؤلاء المشركين مفصلا، ببيان الخارقة المادية التي يطلبون رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذها، والإتيان بها لتكون له آية، ويمكن بالتالي تصديقه على أساسها فيما يزعمون.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي: يقول الله سبحانه وتعالى: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ جَلالًا تَفْجِيرًا. أَوْ تَنْسِفَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ

(1) - سورة الأنعام: من آية 37.

(2) - سورة الأنعام: من آية 109.

(3) - سورة يونس عليه السلام: من آية 20.

(4) - سورة الرعد: من آية 7.

(5) - سورة طه: من آية 133.

(6) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 5.

(7) - سورة العنكبوت: من آية 50.

عَلَيْنَا كَيْسًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ...¹

هذه الآيات الكريمة تذكر مجموعة المطالب التي اقترحها أولئك الملا من قريش على رسول الله ﷺ، ليأتيهم بإحداهم تكون له آية شاهدة بصحة ما جاء به:

وأول هذه الاقتراحات: تفجير العيون بأرضهم وبلادهم يتدفق منها الماء ويفور.

الثاني: أن يحصل له ﷺ بأرضهم بستان من النخيل والعنب، تتفجر الأنهار من خلاله.

الثالث: أن يسقط عليهم السماء قطعاً.

الرابع: أن يأتي لهم بالله سبحانه (تعالى وتنزه عما يقول الظالمون) وبالملائكة يقابلونهم مقابلة ويعاينونهم.

الخامس: أن يحصل له ﷺ بيت من الذهب.

السادس: أن يصعد عليه الصلاة والسلام أمامهم في درج إلى السماء وفي هذه الحالة لا بد-حتى يتم التصديق- أن ينزل عليهم كتاباً منشوراً يقرأونه، خاصاً بهم، فيه الأمر لهم بالإيمان به ﷺ وإتياعه².

إن هذه المطالب المختلفة من هؤلاء الملا يتضح فيها العناد، ويزر فيها التعنت والمماحكة، ويظهر فيها أن مجرد الرغبة في الاقتراح هو الباعث على تلك الاقتراحات والمطالب، لاحبا منهم للحق، ولارغبة منهم في بلوغ الهدى والصواب.

ويقول تبارك وتعالى: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ..."³

ويقول عز وجل: "وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"⁴.

(1) - سورة الإسراء: من الآيات 90-93.

(2) ينظر تفسير الطبري 159/15-164، وغيره.

(3) سورة الأنعام: من آية 8.

(4) سورة الحجر: آية 6-7.

ففي الآيتين الكريمتين بيان لمطلب التي اقترحها للمشركون على رسول الله ﷺ، وهو نزول الملائكة معه عليه الصلاة والسلام، يصاحبونه في تبليغ الدعوة، ويشاركونه في إنزال البشر، ويشهدون له بصحة النبوة، ويؤيدونه في دعوى الرسالة¹.

ويقول عزوجل: "وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا..."².

والآية هنا توضح أنهم يطالبون بتحقيق أحد ثلاثة اقتراحات، حتى يتسنى لهم التفكير في الإيمان بما جاء به ﷺ.

الأول: ما ذكرته الآيتان السابقتان وهو نزول ملك من الملائكة لينذر الناس معه ﷺ، ويكون له مصدقا.

والثاني: أن يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ من السماء، لينفق منه ويستعني به عن التكسب وطلب المعاش.

والثالث: أن يكون له بستان يأكل منه عليه الصلاة والسلام³.

ويقول تبارك وتعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رِئَسًا..."⁴.

وفي هذه الآية الكريمة أيضا بيان لطلبهم المتكرر بنزول الملائكة، بالإضافة إلى مطلب آخر اقترحوه أيضا، هو رؤية الله تبارك وتعالى عيانا، يشهد لنيبه ﷺ ويصدقه فيما جاء به. تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا⁵.

ويقول سبحانه: "وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْنَاهُ..."⁶.

(1) - ينظر تفسير ابن كثير 124/2، 547 وغيره.

(2) - سورة الفرقان: من الآيات 7-8.

(3) - ينظر تفسير البغوي 361/3-362، وغيره.

(4) - سورة الفرقان: من آية 21.

(5) - ينظر زاد المسير 10/6 وغيره.

(6) - سورة يونس عليه السلام: من آية 15.

وهذه صورة أخرى لما يطلبه المضلون من الآيات، فهم هنا يقترحون عليه ﷺ أن يلغى القرآن الذي جاءهم به، ويأتيهم بقرآن آخر يختلف في نمطه وتأليفه ومضمونه عما يتلى عليهم، أو يدل في نفس القرآن الذي بين أيديهم فيغير من مضامينه، ويحول من سياقه وتأليفه¹.

ومن اقتراحاتهم أيضا مارواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: "سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهابا، وأن ينحى عنهم الجبال فيزدرعوا، فقليل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن توتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكك من قبلهم الأمم. قال: لا بل أستأني بهم. فأنزل الله تعالى: "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا..."²ⁿ³.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: "قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهابا ونؤمن بك، قال: وتفعلوا؟ قالوا: نعم. قال: فدعا، فأثاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهابا، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة، قال: بل باب التوبة والرحمة"⁴.

إن هؤلاء الملأ من قريش وهم يطالبون بهذه الآيات المتعددة والاقتراحات المتفاوتة، إنما ينهزمهم إلى ذلك مجرد التعنت والمكبرة، والصلف والمعاندة، والرغبة في المناكفة والمماحكة، والتنويع في خططهم للمواجهة والمجابهة، والأمل الذي يحدوهم في تعجيزه وإفحامه ﷺ أمام العوام، وإلا فهم قد قرروا العدا والتكذيب، والكفر والمخالفة، قبل المطالبة بالآيات، ولن يتغير الحال مهما رأوا من الدلائل والبيانات، مادامت القلوب يفيض بها الاستكبار والعناد، ويدفعها إلى النفور والإعراض.

(1) - ينظر تفسير ابن كثير 410/2 وغيره.

(2) - سورة الإسراء: من آية 59.

(3) - رواه أحمد: الفتح الرباني 193/18، وذكر ابن كثير أن إسناده جيد. ينظر البداية 68/3، ورواه ابن جرير في التفسير 108/15، والواحد في أسباب النزول ص 295-296، والحاكم في المستدرک 394/2 وصححه، ووافقه الذهبي، وينظر: مجمع الزوائد 140/7-141، لباب النقول ص 137.

(4) - رواه أحمد، وصحح شاكر إسناده: المسند 26/4، ونقله ابن كثير بالإضافة إلى الرواية السابقة ثم قال: وهذان إسنادان جيدان. البداية 68/3، وينظر مجمع الزوائد 140/7-141.

فهم- كما يقول ابن كثير- "لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيئوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفروا وعنادا"¹.

ذلك ما يؤكد القرآن الكريم، ويصرح به عن أولئك المستكبرين، كما في قوله تعالى: "وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ"².

"وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"³.

"وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا..."⁴

"وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ"⁵.

"وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُحِرْتُ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ"⁶.

"وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ"⁷.

"اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ"⁸.

"... وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ"⁹.

(1) - تفسير ابن كثير 63/3.

(2) - سورة الأنعام: آية 4.

(3) سورة الأنعام: آية 7.

(4) - سورة الأنعام: من آية 25.

(5) - سورة الأنعام: آية 111.

(6) - سورة الحجر: آية 14-15.

(7) - سورة الطور: آية 44.

(8) - سورة القمر: آية 1-2.

(9) - سورة الروم: من آية 58.

وهناك آيات كثيرة وأحاديث غريزة تتعلق باستعجال العذاب المستبدين والمعاندين من الملأ ومن يواليهم إلى العصر الذي نعيش فيه، ويرفضون الحجة الله البالغة من قبل الدعاة، حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتين لهم الحق، فإنها لانعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

على الداعية أن يواجههم بكل إخلاص واستقامة.

المبحث الثامن: التخطيط والإعداد للمواجهة

لا شك أن أعداء الدعوات يتحركون في المكر بالرسول عليهم السلام وأتباعهم المؤمنين، ويجهلون الدعوة للقضاء عليها، عن سابق تخطيط وإعداد، وبعد تشاور وتأمر.

ومن البدهي القول كذلك بأنهم لا يسيرون في هذا الاتجاه بعفوية وانطلاق عشوائي، بل يسبق الحركة منهم ترتيب وتنظيم، وحض وتأييد، وتفكير متبادل في أنجح الوسائل للصد عن دين الله سبحانه، وموجهة دعوته، والقضاء على الرسل عليهم السلام والسائرين في ركب الإيمان.

ومما يشير إلى هذا الأسلوب في المواجهة في قصص القرآن الكريم، ما حكاه الله تبارك وتعالى عن أكابر الجرمين من ثمود، في محاولتهم قتل نبي الله صالح عليه السلام.

يقول سبحانه: "وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ. وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"¹.

ومن خلال هذه الآيات الكريمة يمكن ملاحظة العناصر التالية:

أولاً: أن أولئك الملام من ثمود كان دأبهم الإفساد والإجرام، ومحاربة الصلاح والإصلاح.

قال ابن كثير: "وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كباراً لهم ورؤساءهم. قال العوفي عن ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم"².

ثانياً: محاولة قتل صالح عليه السلام لم تكن تصرفاً فردياً، وإنما كانت نتاج تحرك جماعي، يستهدف القضاء على الدعوة التي جاء بها صالح عليه السلام.

ثالثاً: هناك تأمر وواضح، وتواطؤ محكم، وتعاون وثيق، بين هؤلاء المفسدين للكيد بصالح عليه السلام، كما أن هناك تأليباً متبادلاً بينهم وتأكيذاً غليظاً على الاستمرار في تنفيذ ما اتفقوا عليه، وعدم النكوص عنه، يدل على ذلك قول الله سبحانه عنهم: "قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ"

(1) - سورة النمل: آية 48-50.

(2) - تفسير ابن كثير: 367/3.

قال أبو حيان: "الظاهر أن قوله (نقاسموا) فعل أمر محكي بالقول، وهو قول الجمهور، أشار بعضهم على بعض بالحلف على تبييت صالح¹ عليه السلام.

وقراءة حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب (لتبيته)².

وهي تؤكد عذا المعنى أيضا.

والمقصود أنهم "تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام"³.

وكان كلا منهم يؤكد على المضي فيما تم الاتفاق عليه، ويزيد الأمر توثيقا بمطالبة الجميع بالحلف وتقديم البيعة على تنفيذ ما أبرموه.

رابعا: واضح كذلك أن هؤلاء اجتمعوا في لقاء سابق على محاولة التنفيذ، دبروا فيه خطة محكمة، ورتبوا فيه أسلوب التنفيذ بدقة، كما فكروا فيما بعد تنفيذ العملية، والاحتمالات القائمة لردود الفعل المتوقعة من آل صالح عليه السلام، وهياؤا لهذه الاحتمالات الحلول المناسبة.

فاختاروا موعد تنفيذ العملية في هدأة الليل (لتبيته) "والبيات مباغته العدو ومفاجأته، بالإيقاع به ليلا وهو غافل"⁴.

وذلك ليتمكنوا من الغدر والفتك به في ظلمة الليل دون أن يرد احتمال فضحهم، وكشف جريمتهم.

كما هياؤا الجواب فيما لو اتهموا بالعملية، وفي ذلك إشارة إلى أنه قد تمكنت منهم خصومة صالح عليه السلام، وعرف عنهم العداء له، والرغبة في القضاء على دعوته، ويبدو أن هذا هو الذي جعلهم يضعون الاحتمال بتوجه الاتهام إليهم، ومن ثم فقد فكروا في الرد المناسب (ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون)، فكان تخطيطهم أن يكون جوابهم لآل صالح عليه السلام وعشيرته أنهم لم يشهدوا ما وقع أصلا، فضلا عن أن يقارفوه أو يشاركوا فيه، فهم بعيدون كل البعد عن العملية، تنفيذها ومشاركة أو حتى حضورا في المكان، ثم يعزمون على تأكيد النفي بجزم وشدة (وإنا لصادقون) في كونهم لا يعلمون من الأمر شيئا.

(1) - تفسير البحر المحيط 83/7، وينظر تفسير الطبري 172/19.

(2) - ينظر سراج القاري البتدي ص 313.

(3) - تفسير ابن كثير 367/3.

(4) - تفسير روح المعاني 213/19.

قال الألويسي: "واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصدا للمبالغة كأنهم قالوا ماشهدنا ذلك، فضلا عن أن نتولى إهلاكهم"¹.

ولما حصل منهم من التخطيط والتدبير، والاحتيايل والتأمر، وصف الله في الآيات صنعهم بالمكر (ومكروا مكرا).

وفي قصة موسى عليه السلام نلاحظ كذلك تأمر فرعون وملئه، وتخطيطهم للقضاء على الدعوة، وإعدادهم لمواجهة المؤمنين.

قال سبحانه:

"قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"².

ففرعون يستشير الملأ من حوله في الموقف المناسب من موسى عليه السلام، وينتج هذا التشاور رأيا من الملأ يقول بتأخير أمر موسى عليه السلام والتصرف المناسب حياله، حتى يتم بعث الرسل والعاملين إلى المدائن والأقاليم، لجمع السحرة المهرة ليقوموا بمهمة المعارضة لما جاء به موسى عليه السلام، أملا في إظهار المعجزة مع موسى عليه السلام بمظهر السحر فتسقط الدعوى، وينقضي الأمر بهزيمة موسى عليه السلام:

"قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ"³.

ويبدو أن فرعون اضطر لهذا التشاور وهذه المبادلة للأراء مع جيروته وطغيانه وتألهه، وذلك لضخامة الأمر لديه، وعظم المسألة في نفسه، وخشيته على قضية الربوبية التي يدعيها، وبالتالي فقد آثر أن يشرك من حوله في القضية تألفا واستجلابا ليقفوا معه، ويحاربوا تلك الدعوة الجديدة بممة وحماس.

وتحرك أصحاب الأمر والنهي، وبذلوا جهودهم في إعداد العدة، وتجميع السحرة من شتى أرجاء البلاد:

"فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ"⁴.

(1) - تفسير روح المعاني 213/19.

(2) - سورة الشعراء: آية 34-35.

(3) - سورة الشعراء: آية 36-37.

(4) - سورة الشعراء: آية 38.

وتم ترتيب أمر المواجهة، وتحية الجو المناسب للنتيجة الأفضل والأثر الأكبر، وذلك بتجميع الناس، وحثهم على حضور المعارضة التي ستبطل أمر موسى عليه السلام، إضافة إلى نشر الدعاية المؤثرة في الجماهير:

"وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ"¹.

كما تم شحذ هم السحرة بإغرائهم بالمال والجاه: "فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لُمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"².

كل ذلك يدل على التخطيط السابق والتدبير المحكم، لعناصر المقاومة كلها، حتى يتم الأمر بدقة، وينتهي بإبطال دعوة موسى عليه السلام، ومن هنا كان التعبير القرآني دقيقاً في قوله سبحانه:

"فَقَتَلُوا فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى"³.

وقوله تعالى: "ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى"⁴.

ولكن الله عز وجل أبطل مكرهم، وأنشل سعيهم وكيدهم.

كما نلاحظ التأليب والتحريض على المجاهدة في قول الملأ لفرعون كما حكى القرآن:

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرِكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"⁵.

فالملأ يحاولون تأليب فرعون، وإشعاره بأنهم مهتمون مثله بأمر القضاء على موسى عليه السلام وإبطال دعوته، وأن القضية تحتاج إلى تحرك أكبر، وأنه ليس من التصرف المناسب أن يترك موسى والمؤمنون معه بهذه الصورة.

(1) - سورة الشعراء: آية 39-40.

(2) - سورة الشعراء: آية 41-42.

(3) - سورة طه: آية 60.

(4) - سورة النازعات: آية 22.

(5) - سورة الأعراف: آية 127.

ويأتى جواب فرعون ليطمئنهم بأنه سيبدل ما يراه مناسباً في هذه المرحلة تجاه المؤمنين "قَالَ سَتَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ".

قال في الظلال: "إنه مشهد التآمر والتناجى بالإثم والتحريض، بعد الهزيمة والخذلان في معركة الإيمان والطغيان. مشهد الملأ من قوم فرعون يكبر عليهم أن يذهب موسى ناجياً والذين آمنوا معه... فإذا الملأ يتناجون بالشر والإثم، وهم يهيجون فرعون على موسى ومن معه، ويخوفون عاقبة التهاون في أمرهم من ضياع الهيبة والسلطان، باستشراء العقيدة الجديدة في ربوبية الله رب العالمين، فإذا هو هائج مائج مهدد متوعد، مستعز بالقوة الغاشمة التي بين يديه، وبالسلطان المادي الذي يرتكن إليه"¹.

ولما جاء الوحي إلى موسى عليه السلام من ربه سبحانه، بالخروج من مصر بمن آمن معه من بني إسرائيل، وعلم فرعون بخروجهم، تحرك مباشرة للإعداد لملاحقتهم ومواجهتهم، فأرسل عماله لتجميع الجموع، وتنظيم مجي الجنود من أقاليم مصر، وتحية ما يلزم للمواجهة القادمة مع المؤمنين الهاربين: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ. فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ"².

وتخطيط فرعون هنا يشمل نوعين من التعبئة: التعبئة العددية: "فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ". والتعبئة النفسية والاعلامية للجيش وللجماهير "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ".

ويقصد فرعون بذلك التهوين من شأن المؤمنين، وأن أمر القضاء عليهم هين وميسور، وأن الاستعداد لهم بمضي على أفضل حال.

وسار الملأ من قريش على نفس الخطأ، إذ كانوا يتآمرون ضد دعوة رسول الله ﷺ، ويتشاورون ويتبادلون الآراء في الوسائل المناسبة لمواجهته عليه الصلاة والسلام.

وكثيراً ما كانوا يخططون بينهم، للاتفاق على أسلوب معين للتعامل معه ﷺ والفئة المؤمنة من حوله.

(1) - في ظلال القرآن 1353/3 (مع اختصار يسير)

(2) - سورة الشعراء: آية 52-56.

ومن ملامح مجاهدتهم للدعوة كذلك التآليب والتحريض المتبادل فيما بينهم على حماية باطلهم في مواجهة ما جاء به ﷺ، كما قال عز وجل: "وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ..."¹.

هؤلاء الظالمون يتناجون بالكيد والمكر يرسل الله ﷺ ودعوته، وإثارة الشبهة حولها، كما قال تعالى: "لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا التَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ"².

قال الألوسي: "وإنما أسروا ذلك لأنه كان على طريق توثيق العهد، وترتيب مبادئ الشر والفساد، وتمهيد مقدمات المكر والكيد، في هدم أمر النبوة، وإطفاء نور الدين"³.

وحينما أراد الملأ من قريش مواجهته عليه الصلاة والسلام باستخدام أسلوب المساومة والإغراء، كان ذلك أيضا عن اتفاق بينهم وتشاور وتخطيط.

عن ابن عباس رضي الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجتمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيا نقوم به، فقال: بل أنتم فقولوا أسمع فقالوا: نقول كاهن، فقال: ماهو بكاهن، لقد رأيت الكهان هو بزمزة⁴ الكهان، ففقالوا: نقول: مجنون، فقال: ماهو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه⁵ ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ماهو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه⁶، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفته ولا عقده، فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة⁷، فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر، فنقولوا: هو

(1) - سورة ص: من آية 6.

(2) - سورة الأنبياء عليهم السلام: آية 3.

(3) - تفسير روح المعاني 9/17.

(4) - "الزيمزة: صوت خفي لا يكاد يفهم". لسان العرب 1866/3.

(5) - أي تمايله في مشيته، ونعاذبه يمينا وشمالا. ينظر ترتيب القاموس 1223/2.

(6) - من أنواع الشعر وبحوره المعروفة عند أهله. وينظر ترتيب القاموس 306/2، 507/4، 273/1، 593/3.

(7) - قال السهيلي: "قول الوليد: إن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة. استعارة من النخلة التي ثبت أصلها، وقوي وطاب فرعها إذا جنى، والنخلة هي العذق بفتح العين". الروض الأنف 21/2.

ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم من أمره¹.

إن هذا الاجتماع يمثل صورة واضحة لتخطيط أهل الكفر من قريش، وتشاورهم حول أنجح الأساليب في مقاومة الدعوة، وتشويه صورتها.

واجتماعهم هذا كان قبيل الموسم الذي يقصد الناس فيه مكة من شتى الجهات، والهدف منه أمران:

أولهما دراسة وضعهم مع رسول الله ﷺ أمام القادمين إلى مكة، والبحث عن أفضل الطرق للحيلولة بين القادمين وبين رسول الله ﷺ والاستجابة له.

والثاني: الحذر من التناقض في مقولاتهم، والاختلاف في طعنهم الذي يطعنون به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاءهم به من الدين ومحاولة الاتفاق على مقولة واحدة يعتمدونها الجميع في التعامل مع القادمين إلى مكة.

ولذا فهم يتبادلون الآراء في ذلك الاجتماع، ويناقشون كل رأي، ويرده عليهم الوليد مبينا عدم ملاءمته كجواب عن حقيقته حاله عليه الصلاة والسلام، وسقوطه كشبهة في الميزان العقلي السليم، ومن ثم يخشى من عدم حصول القبول له في قلوب العامة من الناس.

ومع أن كل الشبه والأقوال التي طرحت في هذا الاجتماع لم تكن مناسبة في نظر الوليد: كاهن، مجنون، شاعر، ساحر، ومع هذا فإن الوليد ارتأى لهم في النهاية أن القول الأخير مع ما عليه من ملاحظات يبدو أنه هو الأقرب للقبول والتصديق لدى العوام، وعليه فإن اللحظة التي أقرت في نهاية الاجتماع هي أن يشيعوا عن الرسول ﷺ الاتهام بأنه ساحر.

وزيادة في الإيهام وحجبا من الوليد للمؤامرة أمام الجمع من قريش يذكر لهم بعض الشواهد التي يمكن أن يستخدموها كأدلة تؤكد للناس سحر نبي الله ﷺ، إذ هو في نظر الوليد "ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته".

(1) - رواه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق 200/2، ونقله عنه ابن كثير في البداية 79/3، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 203/1-204، سبل الهدى والرشاد 472/2-473.

وهذا أمر يمكن أن يتخذ به الجاهلون.

وهكذا خرجوا من هذا الاجتماع بهذه الخطة والمكيدة، لتكون إحدى طرق المقاومة للدعوة التي لا بد أن يتسامع بها القادمون في الموسم، فتكون تلك الخطة-حال تنفيذها-كالحصانة للجماهير من التأثير بالدعوة، والداعية رسول الله ﷺ.

وكثيرة هي المواقف التي يمكن من خلالها استشفاف ملامح التخطيط والتآمر، والإعداد والتشاور، في مواجهة أولئك الملاء من قريش لرسول الله ﷺ والفتنة المؤمنة.

ومن ذلك - إضافة إلى ما سبق - ما فعله رجال قريش من المشركين، حين هاجر بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة ووجدوا فيها الأمن والاستقرار، إذ أزعج هذا الخبر الملاء من قريش، وساء لهم ذلك الوضع الجديد، وهذه النقطة المتقدمة للفتنة المؤمنة، فاجتمعوا لحبك المؤامرة المناسبة لهذه المرحلة الجديدة، وهذا الظرف المستجد.

قال ابن إسحاق: "فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدتين إلى النجاشي، فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها، وأمنوا فيها، فبعثوا عبدالله بن أبي ربيعة، وعمر بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة، ثم بعثوها إليه فيهم"¹.

والتخطيط والتآمر هنا واضح، والمكر والدهاء ظاهر، فقد علم هؤلاء المتنفذون في قريش بخروج هذه المجموعة المؤمنة إلى الحبشة، فأحسوا بالخطر والترقب والانزعاج، وهم يروغم يعيشون في الحبشة أوضاعاً طيبة نبيا، يحسون فيها بالأمن والاطمئنان، ورأوا أن ذلك خطراً عليهم على المدى البعيد أو القريب، وأنه لا بد من مقاومة هذا الامتداد للمؤمنين، وعدم الاستسلام للوضع الجديد، والعمل على بقاء المؤمنين في قلق دائم ومستمر، ومن ثم فقد اجتمعوا لتدارس الأمر، وإعداد التدابير الملائمة، والاتفاق على التصرف المناسب حيال هذا الأمر الواقع، وكان أن خرجوا من اجتماعهم بخطة مكونة من عنصرين:

الأول: إرسال رجلين مناسبين اختاروهما فيما يبدوا بدقة، ليمتلا أكابر قريش عند النجاشي، وليطلبوا منه طرد الفتنة المؤمنة التي استقرت بأرضه.

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 264/1، وينظر رواية أم سلمة رضي الله عنها ص 447.

والثاني: اختيار مجموعة من الهدايا المناسبة، لتكون عامل تأثير على النجاشي وبطارقته، فيلبوا للوفد طلبه الذي جاء من أجله. ولكن الله سبحانه أفضّل خطتهم وأبطل مكرهم.

وتمر الأيام، ويهاجر المؤمنون بأمر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ويعزم الرسول ﷺ نفسه على الهجرة، ويعلم رجال قريش بذلك، فيؤلمهم هذا الخبر أيضا، إذ أحسوا أن هجرته ﷺ قد تكون البداية لتحول بطيء، ولكنه مؤثر في موازين القوى، وبعد أن كان ييدهم استضعاف المؤمنين واضطهادهم، سينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم والعصبة المؤمنة من مرحلة الضعف، وسيصبحون في مركز قوة، قد يؤهلهم لإمساك زمام المبادرة، والتحول من الدفاع على الهجوم، بعد أن كان زعماء مكة ممسكين بزمام المبادرة في مواجهة الرسول ﷺ والمؤمنين في المكان والزمان الذي يريدون.

يبدو أن هذا التفكير وهذا الإحساس بالخطر هو الذي دفع الملاء من حماة الكفر إلى أن يجتمعوا من جديد- كما يجتمعون دائما لكيد الإسلام وأهله- لمناقشة هذا الوضع، والخروج بالقرار المناسب في هذه التطورات الحساسة في نظرهم، وترتيب التصرف الملائم مع رسول الله ﷺ بشكل سريع، قبل أن يخرج من أرضهم مهاجرا عليه الصلاة والسلام.

يقول ابن القيم: "فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعه، وأن القوم أهل حلقه¹ وشوكة وبأس، فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحقه بهم، فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحج² منهم ليتشاوروا في أمره³."

كان الهدف من الاجتماع إذن هو وضع الخطة المناسبة لمواجهة رسول الله ﷺ، بالنظر إلى التطورات الأخيرة التي حصلت بهجرة المؤمنين إلى المدينة، وتوقع لحوق الرسول ﷺ بهم.

تشاور هؤلاء وتبادلوا الرأي في الموقف المناسب مقدمين لذلك بأن الخطر داهم، والاحتمال قائم بتحريك الرسول ﷺ- لو تيسر له سبيل الهجرة- مع من اتبعه خارج مكة لمبادأة المشركين بالهجوم إذا قال بعضهم

(1) - بسكون الهمزة، أي سلاح. ينظر لسان العرب 969/2.

(2) - الحجاء بكسر الحاء: العقل. ينظر ترتيب القاموس 598/1.

(3) - زاد المعاد 50/3.

لبعض "إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد رأيتم، فإنا والله مانأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجتمعوا فيه رأيا."

وكانت الآراء المعروضة ثلاثة، أولها: حبسه عليه الصلاة والسلام حتى يأتيه الموت، وثانيها: نفيه وإخراجه من مكة، ولا يضر بعد ذلك استقراره في أي مكان، وثالثها: قتله عليه الصلاة والسلام بعملية ذات تخطيط وتنفيذ جماعي.

تبدلت هذه الآراء وبعد مناقشتها رجعت كفة الرأي الثالث، وتقبله المجتمعون ومالوا إليه، وكان الذي اقترحه أبو جهل، إذ قال في الاجتماع "والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل فمقلناه لهم"¹.

خرج الملأ وهم متفقون على هذه الخطة، وتحركوا بعد ذلك لوضعها موضع التنفيذ.

والملاحظ في تلك الخطة أنها أخذت بالحسم في القضية، إذ أن حبسه عليه الصلاة والسلام أو نفيه لن يكون -حسب مقولتهم في الاجتماع- حلا جذريا، بل سيظل أمد المشكلة، وسيشير المتعاطفين معه صلى الله عليه وسلم ليلتفوا حول الفكرة، ويتحركوا لمناهضة قريش، ولذا قرر الملأ اتخاذ إجراء القتل المباشر.

كما أن الخطة وضعت في الحسبان موقف عشيرته ﷺ والذين سيثأرون له -عصيبة- ولأريب، ولذلك كان الرأي أن يعملوا على تفريق دمه في القبائل، بحيث لا تكون مهمة التنفيذ فردية، وإنما يقوم بها مجموعة من كل القبائل ولن تستطيع بنو عبد مناف حينها أن تثار من القبائل جميعا، وسترضخ لما هو دون ذلك من الدية، وبذلك سينتهي الموضوع -في نظرهم- بأقل الخسائر.

ذلك مكرهم، ولكنه مكر البشر على كل حال.

قال الله سبحانه: "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"¹.

هذا التخطيط منهم لضرب الإسلام ومواجهة الدعوة يحتاج-إضافة إلى الجهد الفكري والبدني- إلى امداد مادي لتهيئة العدة ووسائل المجاهدة، والملأ من قريش- كأمنائهم من خصوم الإسلام وأعدائه- مستعدون لذلك، ولا بأس لديهم بالتضحية الآنية بالمال من أجل التخطيط والإعداد، ويتحركون في أكثر من اتجاه لضمان التمويل المادي الذي يسمح لهم بتجهيز أكبر قدر ممكن من عدة المواجهة، بغية القضاء على دين تعالى والصد عن سبيله.

ذلك ما يقرره الله سبحانه في قوله عز وجل: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ..."².
والآية عامة في كفار قريش كما رجح ابن جرير³.

وصورة أخرى من صور التآمر تلحظها في تحركات الملأ من يهود، الذين يفرقهم عن كفار قريش الفكر والعقيدة، ويجمعهم بهم مناضة الإسلام، والعداء لرسول الله ﷺ والفتنة المؤمنة.

ومن ثم فإن الملأ من يهود لا يتورعون عن مد الجسور مع مشركي قريش واستقبالهم، وشد الرحال إليهم، مادام المقصود من هذا التواصل هو العدو المشترك رسول الله ﷺ، والإسلام الذي يدعو إليه.

إن دور الملأ من يهود واضح ومكشوف في إيجاد الأرضية المشتركة مع أعداء الله من قريش، وتأليبهم وتحريضهم للتخطيط ضد الدعوة، وضربها مشثوم، إني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا، قال: وبحك، افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال والله إن أغلقت دوبي إلا تخوفت على جيشيتك⁴ أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل⁵، ففتح له، فقال يا كعب، جئت بك بعز الدهر، ويبحر

(1) - سورة الأنفال: آية 30.

(2) - سورة الأنفال: من آية 36.

(3) - ينظر تفسير الطبري 246/9، وقال ابن كثير في تفسير الآية: "وعلى كل تقدير فهي عامة وإن كان سبب نزولها خاصاً" 307/2.

(4) - هي الحنطة تطحن ثم يلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ. ينظر النهاية 273/1.

(5) - أي أغضبه. ينظر لسان العرب 930/2.

طام¹، جنتك بقرش على قادتها وساداتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة²، وغطفان على قادتها ساداتها، حتى أنزلتهم بذنب نقي³ إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يرحوا حتى يستأصلوا محمدًا من معه، فقال له كعب بن أسد: جنتي والله بذل الدهر، وبجهام⁴ قد هراق ماء، يرعد ويرق ليس فيه شيء، فدعني ومحمدًا وما أنا عليه، فلم أر من محمد إلا صدقًا ووفاء، فلم يزل حي بكعب يقتله في الذرة والغارب⁵، حتى سمع له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لن رجعت قرش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان عليه فيما بينه وبين رسول الله ﷺ⁶. وبذلك اجتمعت الجموع، وتحزبت الأحزاب، مختلفة مشاربهم، متعددة أفكارهم ومصالحهم، متفرقة أديانهم وعقائدهم، ويجمعهم هدف واحد هو القضاء على الدعوة وأهلها.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا"⁷.

قال الألويسي: "المراد بالجنود الأحزاب، وهم قرش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة، وبنو عامر يقودهم عامر بن طفيل، وبنو سلم يقودهم أبو الأعور السلمي، وبنو النضير رؤسائهم حتى بن أخطب وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريضة سيدهم كعب بن أسد"⁸. ويمكن من خلال هذا

(1) - أي علا ماؤه وغمر وكثر، من طم الماء إذا كثر. ينظر لسان العرب 2705/4.

(2) - رومة بضم الراء وسكون الواو: بئر بالمدينة، بالشمال الغربي من الحرم النبوي وتعرف أيضا ببئر عثمان. ينظر ترتيب القاموس 416/2.

(3) - نقي يفتح النون والقاف والميم: اسم موضع بالمدينة. ينظر ترتيب القاموس 433/4.

(4) - الجهم بفتح الجيم "السحاب لا ماء فيه، أو قد هراق ماء". ترتيب القاموس 549/1.

(5) - قال السهيلي: "هذا مثل، وأصله في البعير، يستصعب عليك، فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنمه، وتقتل هناك، فيجد البعير لذة فيأنس عند ذلك، فضرِب هذا الكلام مثلا في المروغة والمخاتلة". الروض الأنف 277/3.

(6) - من رواية ابن إسحاق عن عروة وغيره كما في تفسير الطبري 130/21، وينظر: أسيرة النبوة لابن هشام 154/3-155، دلائل النبوة للبيهقي 400/3-401، البداية 118/4، زاد المعاد 271/3-272، تفسير البغوي 511/3، المغازي للواقدي 454/2-457.

(7) - سورة الأحزاب: آية 9-11.

(8) - تفسير روح المعاني 155/21.

العرض لما قام به اليهود من الإعداد للمواجهة العسكرية للمسلمين في غزوة الأحزاب أن نقف على الحقائق التالية:

أولاً: الحقد الدفين، والكراهة المتأصلة، لدى الملأ المكذبين من يهود تحاه الإسلام وأهله، حتى وإن لم يجاهرُوا بذلك في مرحلة معينة، حفاظاً على مصالحهم، وتربحاً لأمد قريب يعدون فيه ويستعدون، ولذلك فإنهم مهما أبرموا من العقود، ووثقوا من العهود، فإن الكره للرسول ﷺ ودعوته يظل يمزق أفئدتهم ويجري في عروقهم، ومن ثم فإنهم يثبونها لتصيب الإسلام وأهله، ويتحركون في هذا الإطار على كل مستوى يوقف امتداد دعوتهم، أو يجمدها عن التأثير والاتساع.

ثانياً: وانطلاقاً من هذا الشعور الممتلئ غيظاً وحنقاً على الإسلام، فإنهم لا يتورعون عن رفع راية الغدر، ولا يتخرجون عن نكت العهود ونقض المواثيق المبرمة بينهم وبين رجال الإسلام، بمجرد أن يستأنسوا من أنفسهم قوة، أو يلحظوا في الفئة المؤمنة موقف ضعف، أو يجدوا المرحلة مناسبة، والفرصة متحينة، والجو مهيأ، بتبدل في موازين القوى، أو بتحالفات يمكن أن تنشئ قوة بحسب حسابها، وتكون في نظرهم أداة قادرة على مجاهدة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، حينذاك لن يتردد الملأ من يهود في التحرك للمواجهة، واستغلال نقاط القوة التي يأنسونها لمصلحتهم، وكل ذلك مبني على تخطيطهم وتقديرهم للمصالح.

ثالثاً: ليس لدى الملأ من يهود - كذلك - أية غضاضة في التحالف مع أي قوة تستطيع أن تؤثر سلباً في وضع المسلمين، وانتشار دعوتهم، وليس لهم في ذلك أية ضوابط تحكمهم، أو مبادئ يوجبون على أنفسهم مراعاتها.

إن الميزان الذي يقيسون به المسألة هي المصلحة التي توصلهم - حسب تصورهم - إلى هدفهم وبغيتهم.

ومن أجل ذلك لا يمانعون في الارتباط مع أعدائهم بالأمس، أعدائهم في الفكرة، وأعدائهم في العقيدة، مادامت المصلحة تجيز لهم ذلك في مرحلتهم التي يعيشونها بغض النظر عن الماضي، وبغض النظر أيضاً عن أي اختلافات في الفكر أو العقيدة، ومهما كانت سبباً للعداء في السابق، فإن المصلحة الآتية يمكن أن تجمعهم.

من هذا التصور، وبحسب هذا الميزان، يتحرك حبي بن أخطب في مجموعة من أكابر يهود إلى مكة ليلتقوا بقریش، أعداء الأُمس في العقيدة والمنهج، ليطلبوا منهم أن تتشابه الأيدي، وأن تجتمع القوى ضد العدو المشترك.

رابعاً: من الواضح أن الهدف المشترك لهذا التحالف والتآمر، وهذا التلاقي بين قوتين متباينتين فكرياً وعقدياً هو هدم الإسلام الذي بعث به رسول الله ﷺ، فالذي يجمعهم هو العداء لهذا الدين، والهم المتبادل بين كل تلك القوى المتحالفة المتآمرة هو استئصال شأفة الإسلام، وإيقاف امتداد الدعوة واتساعها، والقضاء على الرسول ﷺ والطائفة المؤمنة في عقر دارها.

هذا هو ما صرح به حبي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق وغيرهم من ملأ يهود للمتنفذين من قریش (إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله) وأخبروا غطفان (أنهم سيكونون معهم عليه) ﷺ، ثم يعود حبي فيقول لكعب بن أسد (جئتكم بقؤيش على قادتها وساداتها... وبغطفان على قادتها وساداتها... قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يرحوا حتى يستأصلوا نَجْدًا ومن معه).

هذا هو هدفهم، وهذه هي بغيتهم، التي تحالفوا من أجلها، وعقدوا لها لقاءات التآمر، وقلبوا الأمور، وأعدوا العدة، وهبأوا الخطة.

خامساً: في سبيل هذا الهدف، ومن أجل إغراء قریش، وتعميسها للمشاركة تهنون المبادئ لدى حبي بن أخطب وأشباهه، وتتغير الأفكار، وتقلب المفاهيم، وتصبح عقيدة قریش التي كانوا يخطونها بالأُمس صواباً في هذه المرحلة الجديدة، يثنون عليها ويصححونها ويعملون الحق مع أهلها، ومن ثم فالوثنية والشرك أهدي وأولى وأفضل من دين الله جل وعلا - في زعم الملاح من يهود - (بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه).

وكل ذلك منهم إغراء لقریش، وتنشيط لأصحاب الأمر والنهي فيها ليوافقوا على فكرة التحالف، بغية المناهضة للدعوة ومواجهة أهلها.

وكان هناك لون آخر من الإغراء لدى حبي بن أخطب ورفاقه، لتأييد خطتهم التي تحركوا من أجل تحويلها إلى واقع ينفذ.

فقد وعدوا قريشا بأنهم سيهيئون كل امكانياتهم وقواتهم لصالح هذا التحالف الشرطي اليهودي التأمري (إنا سنكون معكم).

وحينما انتقل الملأ من يهود إلى غطفان أغروهم بالتعاون الوثيق (سيكونون معهم عليه) ومنوهم بمردود سخى في مقابل المشاركة الفعلية في القتال، يتمثل في نصف ثمار خير¹، كما أغروهم بأن هناك قوى أخرى أعطت موافقتها، وهي جاهزة للتحرك (وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك) وبالتالي فالقوى المشاركة لها وزنها وقوتها، وهذا ما يوحى للآخرين بأن لهذه الأحزاب فرصتها الكبيرة في النصر، وهو أمر يغري بالمشاركة، وقد فعلت غطفان.

وكذلك فعل حبي في إغرائه لكعب بن أسد زعيم بني قريضة، حين أخبره بتجهز قوى الشرك، وإحاطة جيوشها بالمدينة.. "جئتكم بعز الدهر وبحر طام، جئتكم بقريش على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسياال من رومة، وبغطفان على قاداتها وساداتها حتى أنزلتهم بذنب نَقَمَى إلى جانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى يأسأصلوا ثمناً ومن معه."

فالعلمية إذن جاهزة، ونجاحها مضمون، والقوى المشتركة المتآمرة ضخمة وكبيرة، وقد تحركت فعلا، واقتربت لحظة النصر.

والمقصد من هذا الطرح هو إغراء بني قريضة للمشاركة في التنفيذ، إذ أن موقعها في المدينة يهيئ لها المشاركة الفعالة في المجاهدة، واشتراكها مع أحزاب الكفر سيكون ضربة معنوية قاصمة للمؤمنين.

وعلى كل حال فالتحريض والأليب، والتأمر والتخطيط، واضح فيما حصل من التحركات التي أشرت إليها، سواء في دائرة الملأ من يهود أنفسهم، أو في العلاقة بينهم وبين الملأ من قريش وغيرهم، وكان الهدف من هذا التأليب توسيع قاعدة الأحزاب المشاركة في العملية والتي تروم مواجهة الإسلام في حرب فاصلة.

ويشاء الله سبحانه أن يحفظ دينه "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا".

(1) - ورد ذلك في رواية موسى بن عقبة. ينظر الدلائل النبوة للبيهقي 398/3-399.

وأختم بصورة أخرى من صور التآمر من الملأ المكذبين ضد الدعوة، تتمثل في شخصية أبي عامر الفاسق¹، أحد سادة الأوس في الجاهلية.

قال ابن إسحاق: "قدم رسول الله ﷺ المدينة - كما حدثني عاصم بن عمر بن قتادة - وسيد أهلها عبد الله ابن أبي سلول، لا يختلف عليه في شرفه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره، ومعه في الأوس، رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع: أبو عامر عبد عمرو بن صفيي بن النعمان"².

ولما ظهرت دعوة الإسلام بالمدينة أصر أبو عامر هذا على الكفر وصرح به، ورفض الاستجابة لرسول الله ﷺ، بل وقرر المجاهمة ليشفي ما اشتعل في نفسه من الغل والحسد، والحقد والغيط.

بدأ أبو عامر رحلته في المؤمرات ضد الدعوة، بخروجه إلى مكة مباعدا عن الإسلام وأهله، ومتحالفا مع عصابة الكفر من قريش متآمرا معها في مواجهة رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: "أما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلا، مفارقا للإسلام، ولرسول الله ﷺ"³.

وهناك التقى مع قريش على خط العداء والمواجهة، وكان يقدم الوعود والأمانى لسادة قريش بأنه لا زال يحمل المكانة التي يعرفها في قومه من الأوس، وسيكون لذلك أثره في التثييط والتخذيل إذا حانت ساعة المواجهة مع رسول الله ﷺ.

(1) - هو عبد عمرو بن صفيي، كان يسمى أبو عامر الراهب، لتصره في الجاهلية وترهبه، فسماه رسول الله ﷺ - فيما روى عنه - الفاسق. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 192/2، 10/3، زاد المعاد 196/3، البداية 18/4، 27/5، تفسير ابن كثير 387/2.

(2) - السيرة النبوية لابن هشام 192/2 (مع اختصار يسري)، وينظر: زاد المعاد 196/3، السيرة الحلبية 524/2، سبل الهدى والرشاد 611/3-612.

(3) - السيرة النبوية لابن هشام 193/2 ضمن رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة. وينظر: زاد المعاد 196/3، السيرة الحلبية 524/2، المغازي للواقدي 205/1-206، تفسير ابن كثير 387/2.

ولذلك شارك أبو عامر قريشا حريمهم لرسول الله ﷺ في أحد وكان في مقدمة الجيش، متوقعا أن يجد من الأوس إقبالا عليه، وتأخذا من أجله عن رسول الله ﷺ، ولكن الواقع كان غيبيا لآماله بتقدير من الله سبحانه.

قال ابن إسحاق في معرض "يعد قريشا أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجالان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم...¹."

يأس أبو عامر من استجابة قومه من الأوس أو تأثرهم به، ولكن الرجل لم ييأس من المواجهة، وقرر لنفسه دورا تأمر ضد الإسلام لا بد من المضى فيه.

واستمر يؤلب المشركين ضد رسول الله ﷺ، ويشارك في المواجهات العسكرية ضد المسلمين من جهة، ويجري اتصالاته التأثرية مع أعداء الله في المدينة من المنافقين من جهة أخرى، ويتواصل معهم، ويتلقى منهم الأخبار ويعرف من خلالها ما يجري في المدينة من الوقائع، وما يمر بها من الأحداث، ولا شك أنه يستفيد من كل ذلك في المكر بالمؤمنين والكيد للإسلام.

ويبدو أنه لما وجد الأمور تجري على غير ما يجب، والمواجهات العسكرية لرسول الله ﷺ تبوء بالخسائر والهزيمة، بل ويأخذ نبي الله ﷺ زمام المبادرة، فتفتح مكة، ويعلو دين الله فيها.

لما رأى ذلك كله، وتيقن أن مشركي قريش ومن حولهم قد كسرت شوكتهم، ولم يعد لهم كبير خطر وقوة، أثر أن يلجأ إلى قوة أخرى لازال لها كيانها، ويحسب لها خسباها، ولا زالت تحمل من القوة والعدة ما يمكنها من البطش والقهر، لعله أن يجد هناك مجالا جديدا للتأمر ضد الدعوة، فخرج إلى هرقل ملك الروم طالبا منه النصرة على رسول الله ﷺ²، ويبدو أنه وجد منه وعودا في هذا الاتجاه، ومكث عنده يؤلب ويخطط للتنفيذ، واتصل أثناء ذلك بعملائه في داخل المدينة من المنافقين، طالبا منهم التجهز، وإعداد العدة للمواجهة آمنة،

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 10/3 من رواية ابن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة (وفيه اختصار يسير). وينظر: زاد المعاد 196/3، البداية 18/4، السيرة الحلبية 524/2، المغازي للواقدي 206/2، 223، تفسير ابن كثير 387/2-388.

(2) - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 193/2، البداية 27/5، تفسير البغوي 326/2 تفسير القرطبي 163/8، تفسير الطبري 23/11.

يمكن من خلالها الاتصال بهم، ويستطيع إرسال كتبه إليهم فيها، فبنى أتباعه من المنافقين مسجد الضرار، والذي نزل فيه قول الله سبحانه: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ..."¹.

والمقصود بمن حارب الله ورسوله في الآية هو أبو عامر هذا²، والذي كان قد بعث إلى المنافقين - كما في رواية ابن عباس رضي الله عنهما - أن "ابنوا مسجدكم، واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فلإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتى بجند من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه"³.

ولكن الله سبحانه وتعالى نصر دينه، وحفظ نبيه ﷺ إذ جاءه الوحي من الله تعالى بما يراد من الكيد، فأمر بهدم المسجد وإحراقه، أما أبو عامر فقد مات هناك في غريته، وانتهت بموته صورة من صور الكيد والتأمر.

(1) - سورة التوبة: من آية 107.

(2) - ينظر: تفسير الطبري 23/11، تفسير القرطبي 163/8، زاد المسير 339/3-340، تفسير البغوي 326/2.

(3) - رواه ابن جرير في التفسير 24/11، والبيهقي في الدلائل 262/5-263، وينظر: لباب القول ص 125، زاد

المعاد 550/3، تفسير ابن كثير 388/2، البداية 27/5، تفسير البغوي 326/2، تفسير فتح القدير 404/2.

المبحث التاسع: الآثار السلبية على عامة الناس

أقول بكل صراحة أن الجماهير والناس فردا وجماعة، هم وعاء الدعوة ودائرتها التي يتحرك فيها الرسل عليهم السلام، لجذب الناس إلى العقيدة الصحيحة والمنهج الإلهي، عن طريق الإقناع بالدليل وإقامة الحجة، والتبشير بالهناء الدنيوي والسعادة الآخروية لمن ارتضى دين الله تعالى، والإنذار بعقاب الله سبحانه لمن خالف أمره.

إن الجماهير هم الحقل الذي يبذر فيه الرسل عليهم السلام بذور الحق والخير والهدى، يرجون ثمارها، ويعملون على الاعتناء بها، ليكون الحصاد فئات مؤمنة موحدة لربها عزوجل، متبرئة من عبادة الطواغيت.

والملأ المكذبون-عادة-يخشون هذه العاقبة، فيعملون على تفجير هذا الحقل، قبل أن يجد الرسل عليهم السلام المجال للبذر فيه، ويبدلون جهودهم، مستهدفين الحيلولة بين الرسل عليهم السلام، وتأليب العوام ضدهم، وتحذيرهم منهم، واستمالتهم إلى صف الكفر ومواجهة الدعوة، والتأثير عليهم بكل وسيلة، بغية قطع الأمل لدى الرسل عليهم السلام في إمكانية الاستجابة لهم، أو-على أقل تقدير-التقليل من أعداد المؤمنين المستجيبين لدعوة الله سبحانه، وتحجيم هذه الفئة المؤمنة، والعمل على أن لا تتسع قاعدتها، أو يعظم صفها، أو تكبر دائرتها ولهم في ذلك وسائل وأساليب، يؤثرون بها على العامة والجماهير، ويقللون من المناصرين والمتعاطفين مع الدعوة أو من آمن بها.

كما أنهم يبذلون جهودا في التهيئة النفسية للجماهير لتتقبل رأي الملأ في الدعوة والرسول والمؤمنين، ولتوفق على كل أنواع المواجهة ضدهم، وذلك بنشر الدعاية السيئة المغرضة حول الرسول والمؤمنين، حتى تسوء سمعتهم، وتندق مكانتهم، في أعين الناس، فيتمكن الملأ حينئذ من ضرب الدعوة دون أي اعتراض.

وما دُكر سابقا في المبحث بإثارة الشبهات ضد الناس عن سبيل الله سبحانه، بنشر دعاية سيئة، وصورة مشوهة، عن وضع الرسل عليهم السلام، والتلبيس على العامة، والحيلولة بينها وبين الإدراك الصحيح لأهداف الدعوة، ومفاهيم الدين.

وكذلك فإن ما ذكر آنفا من أنواع المخاطبات يهدف الملأ المكذبون منه-ضمن أهدافهم وأغراضهم-إلى التأثير بطريقة أو بأخرى على العامة، حتى لا يفكروا في قبول الدعوة، أو الاستجابة للرسل عليهم السلام، أو الانضمام للفئة المؤمنة.

وأذكر هنا بعض النماذج من قصص الرسل عليهم السلام تظهر فيها المحاولات الجادة للتأثير على عامة الناس واستمالتهم، أو تألييهم وتحريضهم، أو وضع الحواجز للحيلولة بينهم وبين الرسل عليهم السلام.

ففي قصة نوح عليه السلام يشتكي نبي الله إلى ربه مكر الأكابر والرؤساء:

"وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا"¹.

وأحد مظاهر هذا المكر والكيد يتمثل في تحذيرهم للعامة من اتباع نوح عليه السلام، ونهيهم عن السير على منهجه الداعي إلى عبادة الله وتوحيده، وترك عبادة الآلهة المدعاة من دونه سبحانه:

"وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا"². فالأكابر المجرمون في مقولتهم هذه يحضون الناس على الثبات على منهج الشرك، والاستمرار في عبادة الآلهة التي يقدسونها.

وهم ينسبون هذه الآلهة إلى الجمهور الذي يخاطبونه (آلهتكم) رغبة في تحميسهم، وإثارة نخوتهم وحميتهم، وتألييهم ضد نوح عليه السلام الذي يقف أمام هذه الآلهة، يحط من شأنها، ويقلل من قيمتها، وهي آلهتهم التي مازالت من عهود آبائهم لها القداسة والعبادة.

هذا التحذير صورة من صور الحيلولة بين الجماهير وبين اتباع نوح عليه السلام، بغية إبقاء الناس على ما هم عليه من منهج الضلال، ولذلك قال الله سبحانه عن أئلك الرؤساء:

"وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا..."³.

وكذلك يفعل الملأ من عاد، حين يحذرون عامتهم من اتباع هود عليه السلام وطاعته فيما جاء به من الدين، وينفرونهم من التفكير في الاستجابة له عليه السلام: "وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ"⁴.

فقرروا أمام العامة أن طاعة هود عليه السلام سبيل إلى الغبن والنقص والخسران، أو الدخول في دينه.

(1) - سورة نوح عليه السلام: آية 22.

(2) - سورة نوح عليه السلام: آية 23.

(3) - سورة نوح عليه السلام: من آية 24.

(4) - سورة المؤمنون: آية 34.

وتلك أيضا صورة من صور التأثير على الناس بغية تحجيم التوجه إلى الدين الصحيح، وتقليل المناصرين لهود والمتعاطفين معه عليه السلام.

وفي قصة شعيب عليه السلام يخبرنا القرآن الكريم أن الملائكة المستكبرين كانوا يذبلون المحاولات في وضع الحواجز والعوائق بين الجمهور والعوام وبين نبي الله شعيب عليه السلام.

يظهر ذلك القصد من الملائكة في الحيلولة بين الناس وبين دعوة الله سبحانه في مقولة شعيب عليه السلام ناصحا لهم، كما حكي القرآن الكريم: "وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا..."¹.

فالآية الكريمة تشير إلى أنهم كانوا يقفون في وجه القادمين لملاقاة شعيب عليه السلام، القاصدين الاستماع إليه، ومعرفة معالم دعوته²، ويذبلون جهودهم في الحيلولة بين هؤلاء وبين اللقاء بشعيب عليه السلام، خشية أن يلحظوا ما فيها من الحق والهدى، فتخالط بشاشته قلوبهم، وحينذاك تتسع دائرة المؤمنين، وهذا ما يزعج الطغاة من أهل مدين، ويؤزمهم إلى وضع العقبات التي تحول بين نبي الله عليه السلام وبين عموم الناس.

ذلك أن اللقاء الهادئ الخالي من المؤثرات الخارجية والضغط المختلفة سيؤدي-بعد توفيق الله سبحانه-إلى القناعة بالدعوة والإيمان بها واختراق العقيدة الحقة أعماق القلوب.

ومن ثم يعمل الملائكة المكذبون ويحاولون في خطوطهم الأولى أن لا يحصل ذلك أصلا.

كما كان المستطيرين من قوم شعيب عليه السلام يخذرون الناس من اتباع نبي الله والإيمان بدعوته، ويطلقون صفة الخسران على من يستجيب لتلك الدعوة: "وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا خَاسِرُونَ"³.

ويبدو أن هذا الصنيع منهم هو إجراء وقائي-في نظرهم-وتحصين للجماهير من التأثير بالفكر والعقيدة في منهج الله الذي جاء به شعيب عليه السلام، فيؤلبون تلك الجماهير ضد الدعوة، ويستميلونهم إلى صفهم في

(1) - سورة الأعراف: من آية 86.

(2) - ينظر تفسير الآية في: تفسير القرطبي 159/7، تفسير روح المعاني 178/8، تفسير البغوي 181/2، تفسير فتح القدير 224/2.

(3) - سورة الأعراف: آية 90.

الإصرار على الكفر والتكذيب، ويحذرونهم بشكل غير مباشر من الاحتكاك والاقتراب من الفئة المؤمنة، إذ أن الدخول في دين شعيب عليه السلام - في زعمهم - دلالة على غبن صاحبه وجهالته¹، وأولى بالجماهير أن تنأى بنفسها عن هذا المصير السيئ والعاقبة الخاسرة، وأن تحرس على سلامتها ونجاتها، وذلك بالابتعاد عن طريق الإيمان، ومخالفة اتجاه شعيب عليه السلام.

وفي قصة موسى عليه السلام نجد فرعون يتحرك أيضا في هذا الاتجاه، ليمنع الناس من الاستجابة للهدى، كما قال تعالى: "... وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ"².

قال الشوكاني "(وصد عن السبيل) أي سبيل الرشاد، قرأ الجمهور (وصد) بفتح الصاد والذال، أي صد فرعون الناس عن السبيل"³.

فهو يصد عامة الناس عن الإيمان، ويستميلهم ضد موسى عليه السلام بشتى الوسائل، وهو في كل ذلك يوهمهم بأنه يختار لهم من المناهج ما يختار لنفسه، ويدلهم على أحسن الطرق وأفضل السبل الموصلة إلى الخير والسعادة، "... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ"⁴.

وهو يقصد بذلك طريقه ومنهجه الذي يركز على طاعته والخضوع للطلق له، واتخاذها إلها يعبد من دون الله جل وعلا.

هذا هو طريق السعادة الذي يدل الجماهير عليه، وغير ذلك نهايته - في زعم فرعون - الدمار والتعاسة والشقاء.

ولكن الواقع ما قرره الله سبحانه: "وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى"⁵.

(1) - روي عن ابن عباس في تفسير (الخاسرون) قال: (مغبونون) وعن عطاء (جاهلون). ينظر: تفسير البحر المحيط 345/4، تفسير روح المعاني 6/9.

(2) - سورة غافر: من آية 37.

(3) - تفسير فتح القدير 492/4، وفي زاد المسير 44/7 "قرأ عاصم وحمة والكسائي (وصد) بضم الصاد، والباقر بن بفتحها". وينظر غيث النفع في القراءات السبع لعلي النوي الصفاقي ص 341، ط/دار الفكر (بهاشم سراج القارئ المبتدئ لأبي القاسم البغدادى).

(4) - سورة غافر: من آية 29.

(5) - سورة طه: آية 79.

ونلاحظ كذلك محاولات فرعون في التأثير على رعيته، واستقطابهم ضد الدعوة، فيما فعله إثر قراره بمعارضة ما جاء به موسى عليه السلام: "فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا"¹.

فرعون بداية جمع السحرة من أوساط رعيته في مختلف المدائن والأقاليم: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ انْزُوبِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"².

وكون منهم فرقة معارضة لا يستهان بها في مواجهة ما جاء به موسى عليه السلام، واستمالمهم بأكثر من إغراء: "فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"³.

فأغراهم بالمال والسعة، وبالمنصب والشهرة، وبالغ في ترغيبهم وتأليفهم وشحذ همهم للوقوف بعزم وحماس ضد موسى عليه السلام حتى أوصى بعضهم بعضاً: "قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكَ الْمُتَنَلَّى. فَأَجِوهَا كَيْدَكُمْ ثُمَّ انْزُوهَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى"⁴.

ثم حاول فرعون -كذلك- أن يستفيد من خطبة بخصوص معارضة موسى عليه السلام في استهداف عامة الناس أيضاً وكسبهم إلى جانبه، من خلال إثارتهم وتحييجهم ضد دعوة موسى عليه السلام، ولتستقر في أذهانهم -من خلال مشاهدة المعارضة الحاسمة- الشبهة القائمة بأن موسى الجموع وبين موسى عليه السلام ودعوته.

قال سيد قطب: "وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر، وأرادوا -في أغلب الظن- أن يفرقوا الجماهير بها، بأن يعقدوا حلقة للسحر يتحدثون بها موسى ومأمعه من آيات تشبه السحر في ظاهرها، ليخرجوا منها في النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً، وبذلك ينتهي الخطر الذي يخشونه على معتقداتهم الموروثة، وعلى سلطاتهم

(1) - سورة طه: آية 58.

(2) - سورة يونس: آية 79.

(3) - سورة الشعراء: آية 41-42.

(4) - سورة طه: آية 63-64.

في الأرض وهو الأساس، ونرجح أن هذه كانت الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة، بعدما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقي الذي يتوقعونه¹.

وأمر فرعون من أجل هذا الهدف بجمع الجماهير وحثهم واستعجالهم لحضور المشهد العظيم: "وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ"².

ويظهر من خلال هذه الدعوة للاجتماع محاولة تحريك الناس، وإشغال حماسهم ضد موسى عليه السلام، وتقديم الغلبة والانتصار عليه في حسهم وشعورهم.

"لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ"³.

وعن طريق هذا الإيحاء وهذه الدعاية تشحن نفوسهم بالكراهية لما جاء به موسى عليه السلام، ويتهيئون نفسياً للرضا بالوقوف في الصف المناهض للدعوة.

ولما خرج موسى عليه السلام وأتباعه المؤمنون من مصر بوحى من الله سبحانه، وقرر فرعون ملاحقتهم، وجيش من أجل ذلك الجيوش سريعاً، اتجه فرعون إلى تهينة العامة نفسياً، والتأثير عليهم معنوياً للوقوف معه بقوة.

قال تعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ. فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنْ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَادِرُونَ"⁴.

فقد وصف فرعون موسى عليه السلام وأتباعه بأنهم شرذمة "والشرذمة الجمع القليل المحتقر"⁵، وبالتالي فإننا لا نأبه لهم، وليس لهم من القوة والعدة ما يخيفنا، وهزيمتهم سهلة ميسورة، كما وصفهم بأنهم يفعلون أموراً ويتصرفون تصرفات تصيبنا بالحق والغيظ والغضب، ولذا لا بد من مواجهتهم للقضاء عليهم، ونحن على كل حال مستعدون لهم، متيقظون لأمرهم، جاهزون لإلحاق الهزيمة بهم.

(1) - في خلال القرآن 1814/3.

(2) - سورة الشعراء: آية 39-40.

(3) - ينظر تيسير الكريم الرحمن 464/3.

(4) - سورة الشعراء: آية 52-56.

(5) - تفسير القرطبي 69/13.

وفرعون في كل ذلك يريد رفع معنويات تلك الجموع حوله، واستمالتها لجانيه، وتعبثها نفسيا ومعنويا ضد قافلة الإيمان، ومن ثم يرتبط القوم به، ويتهينون للتصرف بأمره وإرادته، ولا يبقى مجال في نفوسهم للتعاطف مع المؤمنين الذين خرجوا بدينهم من طغيان فرعون وجبروته.

وحين بعث خاتم الأنبياء رسولنا ﷺ، وقام بمكة ينذر الناس، وينشر دين الله تعالى، كان الملأ من قريش أيضا يذلولون المحاولات المتوالية في صد الناس عن الدعوة، والحيلولة بينهم وبين رسول الله ﷺ، والتأثير عليهم بشتى الأساليب.

إن الملأ من قريش يهتمهم أمر الجماهير بما يحقق مقاصدهم، ويقوي موقفهم تجاه الدعوة، ولذا فهم يعملون جاهدين على إبعاد العامة عن دوائر التأثير بمفاهيم الدين، ومناهج الدعوة.

ومن وسائلهم في هذا الاتجاه ما ذكره الله تبارك وتعالى عنهم في قوله عز وجل: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ"¹.

فهم يهون الناس عن الاستماع لرسول الله ﷺ وهو يتلو كلام الله سبحانه، خشية أن يتأثروا بإعجازه وبيانه، ولذلك يحاولون ألا يتم الاستماع أصلا، لأن نتيجة ذلك- في نظرهم- غير مضمونه، وقد تكون النهاية- فيما لو أتيح المجال وأزيلت العقبات- تأثر الكثيرين بالحق واقتناعهم به، ودخولهم في دين الله أفواجا، وهذا مالا يريدون أن يحصل بل إنهم لا يكتفون بنهي عامتهم عن الاستماع، ولكنهم يضيفون إلى ذلك التحريض والتأليب على رسول الله ﷺ، وذلك بأمر العامة باللغو عند سماع القرآن (والغوا فيه) قال مجاهد: "بالمكاء والتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ"².

ويبدو أن مقصدهم من هذا الأسلوب أمران:

الأول: إبعاد العامة عن رسول الله ﷺ، عن طريق هذا التحذير لهم، والحيلولة بينهم وبين الاستماع إلى ما يتلوه عليه الصلاة والسلام من الآيات البينات، والتي كانوا يخشون من تأثيرها في النفوس، خصوصا وأنهم يدركون هذا التأثير حتما، بما يحسونه في ذات نفوسهم مما يقاومون جواذبه في قلوبهم مقاومة عنيفة، نتيجة ما يملكهم من العناد والاستكبار.

(1) - سورة فصلت: آية 26.

(2) - رواه ابن جرير ينظر تفسير الطبري 112/24.

والثاني: استغلال هؤلاء العامة كسلاح لهم يحاربون به رسول الله ﷺ، حين يطلبون منهم عدم السماح له عليه الصلاة والسلام بالقراءة في حرية وهدوء وأمان، وذلك بإثارة الوضع حوله، ورفع الأصوات، والتخطيط في الكلمات، والصفير، والإتيان بما لا معنى له من العبارات.

كل ذلك بغية التأثير على نفسيته ﷺ، وإشعاره بالإحباط، وسد الطرق أمام انطلاقه عليه الصلاة والسلام بدعوة الله تعالى بالإضافة إلى صد من قصد الاستماع من الناس عن أن يجد فرصة لسمع من رسول الله ﷺ ما جاء به من الحق والهدى.

ويذكر القرآن الكريم أيضاً أنهم كانوا يهون الناس بشكل مباشر عن لقائه ﷺ.

قال تعالى: "وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ..."¹.

قال البغوي: "أي يهون الناس عن اتباع محمد ﷺ (وينأون عنه) أي يتباعدون عنه بأنفسهم"².

كما أنهم يعملون على تنفير عامتهم من الحق، ويحركون من أجل ذلك حميتهم الجاهلية، ويثيرون عصبيتهم لأوضاعهم الشركية، كما قال تعالى: "وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ..."³.

قال الألوسي: "وإضافة الآباء إلى المخاطبين لإلإل أنفسهم لتحريك عرق العصبية فيهم، مبالغة في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد"⁴.

ولقد كان أكابر المشركين يحرصون في اهتمام بالغ على عدم ظهور التأثير بالدعوة الجديدة داخل طبقة الأشراف منهم والسادة، حتى لا يكون ذلك بداية لإقبال العامة على الدعوة، والتأثر بها متابعة واقتداء

(1) - سورة الأنعام: من آية 26.

(2) - تفسير البغوي 91/2، واختار ابن جرير هذا القول في تفسير الآية. ينظر تفسير الطبري 173/7، وكذلك ابن كثير. ينظر ابن كثير 127/2.

(3) - سورة سبأ: من آية 43.

(4) - تفسير روح المعاني 159/22.

وتأسيا ومن ذلك موقفهم حين أظهر الوليد شيئا من التأثير بالقرآن، وأثنى عليه، إذ قال زعماء قريش: "والله لئن صبا الوليد لتصبأن قريش"¹.

فهم يخشون أن يكون تأثير شخص كالوليد بن المغيرة - أحد رؤساء قريش - سببا في إيمان الكثير من العامة، ودخولهم في دين الله تعالى، ولذلك عملوا القضاء السريع على هذا التوجه لدى الوليد من أول خطواته، وإن كان لم يتعد في الواقع دائرة الظاهر والاحتمال.

ولما استمع أبو جهل والأخنس وأبو سفيان إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ القرآن ليلا، وكل منهم لا يعلم عن مجيئ الآخر، كانوا يقولون إذا تلاقوا في الصباح، وجمعهم الطريق، وتفاعا كل منهم بحضور الآخر "لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتمهم في نفسه شيئا"².

فهم يتوحدون بأن لا يسمحوا بموقف ضعف منهم أمام دعوة نبي الله ﷺ، يمكن أن يؤثر سلبا - حسب تفكيرهم - في العامة من دوعهم.

ومن وسائل الملأ أيضا في الحيلولة بين رسول الله ﷺ وبين جمهور الناس، محاولتهم إيجاد نوع من الحصار عليه ﷺ يمنع من التواصل مع القادمين إلى مكة، ويحجب عنه عليه الصلاة والسلام الاستجابة منهم، إذ يخشون أن يحصل التأثير من هؤلاء القادمين بدعوتهم ﷺ، وما تتضمنه من الحق، وما يؤيدها من الحجج والبينة، ومن ثم يمثل ذلك امتدادا للدعوة خارج مكة، يمكن أن يكون - فيما بعد - عامل ضغط على قريش.

ففي رواية ابن عباس رضي الله عنهما "أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا".

وتبادلوا الحديث في الرأي المناسب الذي يواجهون به القادمين إلى مكة عن رسول الله ﷺ، ثم اتفقوا أخيرا على أن يكون الاتهام العام الموحد لرسول الله ﷺ هو أنه ساحر.

(1) - خبر الوليد بن المغيرة وثناؤه على القرآن تقدم ص 105-106. وهذه العبارة من رواية ابن جرير عن ابن عباس رضي

الله عنهما. ينظر تفسير الطبري 156/29، وأورده ابن كثير في التفسير من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله

عنهما 442/4-443، وذكرها البغوي في التفسير 414/4، وينظر سبل الهدى والرشاد 472/2.

(2) - الخبر تقدم 97.

"فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حزره إياه، وذكروا لهم من أمره".¹

فمقصدهم من هذا التأمر أن تجتمع كلمتهم على مقولة واحدة لتكون هي الإشاعة المعتمدة عنه ﷺ، أمام القادمين من خارج مكة، لينفروهم بها، ويحولوا بينهم وبين الاستماع إليه ﷺ، ويحذروهم مخالطته ومجالسته، اعتماداً على الصورة المنفرة، والدعاية السيئة، التي يحيطون بها شخصيته عليه الصلاة والسلام.

وكلما كان القادم ذا شرف وسيادة كان الحرص على تحصينه ضد الدعوة أشد، والاهتمام بتألييه وتحريضه أعظم، وذلك بتحذيره بأسلوب أو بآخر من اللقاء برسول الله ﷺ، أو حضور مجلسه، أو الاستماع إليه، كما فعلوا مع الطفيل بن عمرو الدوسي وكان شريفاً سيداً في قومه، إذ حرصوا على الاجتماع به بمجرد وصوله مكة، لتعبته ضد رسول الله ﷺ، وكان مما قالوا له "يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً..."².

ومن وسائلهم كذلك: ملاحقته عليه الصلاة والسلام في جولاته الدعوية بالدعاية المعرصة، ليهدموا ما بينه في قلوب الناس، وليضعوا الحوائل بين عامة الناس وبين الاستجابة له ﷺ.

عن ربيعة بن عباد رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية بسوق ذي المجاز، وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. قال: يرددها مراراً، والناس مجتمعون عليه يتبعونه، وإذا وراءه رجل أحول ذو غديرتين وضئ الوجه يقول: إنه صائئ كاذب فسألت من هذا؟ فقالوا: عمه أبوطب"³.

وعنه رضي الله عنه أيضاً، قال: "رأيت أبا لبب بعكاظ، وهو يتبع رسول الله ﷺ، وهو يقول: يا أيها الناس، إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم، ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره..."⁴.

(1) - الخبر بطوله تقدم ص

(2) - من خير إسلام الطفيل بن عمرو رضي الله عنه، وقد تقدم ص 61-62.

(3) - سبق تخريجه ص 224.

(4) - سبق تخريجه ص 265.

وعنه ﷺ أيضا قال: "رأيت رسول الله ﷺ يمشي في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. قال: ووراء رجل يقول: يا أيها الناس، إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. فسألت من هذا الرجل؟ قيل: أبو لهب"¹.

وعنه ﷺ أيضا، قال: "إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراء رجل أحول وضئ ذو حمة، يقف رسول الله ﷺ على القبيلة، ويقول: يا بني فلان، إني رسول الله اليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به. فإذا فرغ رسول الله ﷺ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان إن هذا يريد منكم أن تسلموا اللات والعزى وحلفاءكم من الحي من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب"².

وعن طارق المخاريقي، قال: "رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي الحجاز، وأنا في بيعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، فسمعتة يقول: يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه، وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوا هذا فإنه كذاب"³.

وقد كان لهذه الدعاية السيئة الحبيثة، والحملة الإعلامية المنظمة، من رجال قريش ضد رسول الله ﷺ أثرها السلبي في استجابة الناس وإقبالهم على الدعوة.

يشير إلى ذلك ماوراء جابر بن عبد الله رضي الله عنهما "أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومحنة⁴ وعكاظ ومنازلهم من منى: من يؤميني، من ينصرتني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة. فلا يجد

(1) - سبق تخريجه ص 287.

(2) - سبق تخريجه ص 266.

(3) - سبق تخريجه ص 224.

(4) - محنة: "بفتح الميم وكسرها، مع فتح الجيم، والنون مشددة: موضع بأسفل مكة على أميال، وكان يقام بها للعرب سوق، وفتح الميم أكثر من كسرها". بلوغ الأماني 270/20.

أحدا ينصره ولا يؤويه، حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو من اليمن إلى ذي رحمه، فيأتيه قومه، فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله عز وجل وهم يشيرون إليه بالأصابع...¹. ومع كل ذلك فقد وفق الله عز وجل قلوبا تجاوزت تلك العوائق، لتقبل الحق بعد أن عرفته، وتستجيب للإسلام بعد أن أيقنت به، وتتبع نبي الله ﷺ بعد أن صدقته وآمنت برسالته، وتثبت على الإيمان بعد أن ذاق طعمه وحلاوته.

يقول جابر رضي الله عنه في الرواية ذاتها: "...حتى بعثنا الله من يشرب، فيأتيه الرجل منا، فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام، وبعثنا الله إليه، فائتمرنا، واجتمعنا، وقلنا: حتى متى رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم، فواعدنا بيعة العقبة...²".

(1) - الحديث رواه أحمد: الفتح الرباني 269/20-270، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري 282/7، وقال ابن كثير "وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجه"، البداية 195/3، ورواه البيهقي في الدلائل 442/2-443، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد 54/6-56، وقال: رواه أحمد والبخاري... ورجال أحمد الصحيح، ورواه الحاكم، واللفظ له، وصححه، ووافقه الذهبي المستدرک 681/2-682.

(2) - جزء من رواية جابر رضي الله عنه المذكورة آنفا.

المبحث العاشر: المفادعة

ظهر المنافقون في المدينة بشكل جلي بعد غزوة بدر، وكان الرأس فيهم عبد الله بن أبي، صاحب الشرف والسيادة قبل قدوم رسول الله ﷺ، بل كان أهل المدينة يستعدون لتوبيخه ملكا عليهم كما ذكر سعد بن عبادة ¹.

ولما جاء الإسلام، وقدم رسول الله ﷺ المدينة، كان سواد² الأوس والخزرج يتجهون إلى دين الله سبحانه، ويستجيبون لنبيه محمد ﷺ، إلا أن عبد الله بن أبي أثر أن يخالف ويستنكف، إذ اختار طريق الكفر، حين رأى الأمور تسير على غير ما يهوي والملك المنتظر يضيع من بين يديه، وقومه ينفادون طواعية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فتارت كوامن الحسد في نفسه، وغلا الحقد في قلبه، فأعلن في البداية موقفه صريحا بالكفر والتكذيب، لكن غزوة بدر كان لها دور في أن يؤثر ابن أبي تغيير أسلوبه في المواجهة، إذ كانت تلك الغزوة بداية مرحلة جديدة، ظهر فيها أمر الإسلام، وعلا شأنه، وأصبحت له دولة وقوة، حتى "قال ابن أبي ومن معه من المشركين عبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، قبايعوا رسول الله عليه وسلم على الإسلام فأسلموا"³.

وهكذا أثر عبد الله بن أبي وأمثاله أن يتوجهوا هذا التوجه الجديد، فدخلوا في الإسلام ظاهرا، بينما الكفر متمكن في بواطنهم، مستخف في صدورهم.

يقول ابن كثير: "فلما كانت وقعة بدر العظمى، وأظهر الله كلمته، وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن عبد سلول-وكان رأسا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتعلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله-فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه، فأظهر الدخول في السلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ومحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة"⁴.

وقال صاحب الظلال: "كانت غزوة بدر الكبرى قد وقعت، وكتب الله فيها النصر للمسلمين على قريش، وكان هذا النصر بظروفه التي تم فيها والملابسات التي أحاطت به، تبدو فيه رائحة المعجزة المخارقة، ومن ثم

(1) - تقدم ص 135-136.

(2) - "سواد القوم: معظمهم، وسواد الناس: عوامهم، وكل عدد كثير". لسان العرب 2141/3.

(3) - من خير سبق تخريجه ص 55.

(4) - تفسير ابن كثير 47/1.

اضطر رجل كعبد الله بن أبي ابن سلول من عظماء الخزرج أن ينزل عن كبريائه وكراهته لهذا الدين ونيبه صلى الله عليه وسلم، وأن يكبت حقه وحسده للرسول الكريم، وأن ينضم-منافقا-للجماعة المسلمة وهو يقول هذا أمر قد توجه، أي ظهرت له وجهة وهو ماض فيها لا يردده عنها راد¹.

ومن ثم تكونت جماعة المنافقين في المدينة يقود ركبها، ويخط طريقها ويبارك منهجها عبد الله بن أبي ابن سلول.

وأصبحت هذه الفئة بؤرة شر، ومعسكر كفر، داخل المجتمع الإسلامي، وكانت لهم مؤامراتهم ضد الإسلام، ومحاولاتهم في المكر والكيد بالمسلمين.

وسأذكر فيما يلي بعض سمات هؤلاء المنافقين في مواجهتهم للإسلام وأهله:

أولاً: إظهار الانتماء للمجتمع المسلم، كستار لحقدهم وعداوتهم، وغطاء لتحركهم في بذر الشر داخل صفوف المسلمين.

ذلك أن هؤلاء المنافقين يجمعهم مع دوائر الكفر من اليهود والمشركين الكراهية للإسلام وأهله، والعداوة للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، والرغبة العارمة في القضاء عليهم، وكسر شوكتهم، وهدم دينهم وعقيدتهم، واستئصال دولتهم.

ولكنهم يفترون عنهم في الوسيلة فقط، إذ أن أولئك اختاروا المجاهمة الصريحة المعلنة، أما هؤلاء فقد اختاروا لهم طريقاً آخر يجمعون فيه بين إمضاء رغباتهم، وتنفيذ مآربهم، وتحقيق أحلامهم في هدم بنيان الإسلام، وبين الحفاظ على مصالحهم ومواقعهم، والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من أن يتعرض لها المسلمون، فكان أن اختاروا لأنفسهم إظهار الإيمان، وإعلان الإسلام، والجهر بالانتماء لمجتمع المؤمنين على سبيل النفاق، بينما هم في الباطن مصرون على كفرهم وشركهم، يملأ نفوسهم الحقد والبعض لكل مظاهر الإسلام ومكتسباته التي تتسع يوماً بعد يوم، وتثور في صدورهم معالم الكراهية والعداوة للرسول ﷺ.

وفياعتقادهم أن هذه الوسيلة تمكنهم من مواجهة الإسلام داخل مجتمعه وبين أهله في سهولة وهذوء، دون إثارة أو إضاعة للمصالح الخاصة وبشمن أقل وأيسر، ومفعول أشد وأكد.

وعن هذا المسلك لتلك الفئة يقول الله سبحانه وتعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ"¹.

قال ابن جرير: "أجمع أهل التأويل على أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل النفاق، وأن هذه الصفة صفتهم"².

ويقول مجاهد: "هذه الآية إلى ثلاث عشرة في نعت المنافقين"³.

ويقول عزوجل: "وَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِنَكَمٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ"⁴.

ويقول تترك وتعالى: "إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ"⁵.

فهم أمام رسول الله ﷺ يشهدون له بالرسالة في جزم وتأكيد، مصرحين له بالإيمان، معلنين له الولاء.

وهم أمام المؤمنين يجهرون بالانتماء لصفوفهم، والرغبة في الخير والفلاح لهم، غير أنهم في الحقيقة مسرون للكفر، مبطنون للعداوة، كارهون للإسلام أن تقوم له قائمة، أو يكون له عز ومنعة، راغبون في هدمه وإذلال أهله، مهما أظهروا من معسول القول، أو جميل الصورة، كما وصفهم الله سبحانه بقوله: "وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْتَنَدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاقْذِفْهُمْ فَاَقْبَلْهُمْ فَنِفَلَ اللَّهُ أَلَىٰ يُؤْفَكُونَ"⁶.

فهذه الآية الكريمة تؤكد أن مظاهر هؤلاء المنافقين وأشكالهم تختلف عن حقائقهم ومضامينهم، وأن حسن وجوههم، وفصاحة ألسنتهم، وحلاوة كلامهم، وعذوبة الفاظهم، ماهي إلا ستار لما تخفيه صدورهم من كوامن الحقد على دين الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام.

(1) - سورة البقرة: آية 8.

(2) - تفسير الطبري 116/1.

(3) - رواه ابن جرير. ينظر تفسير الطبري 116/1.

(4) - سورة التوبة: آية 56.

(5) - سورة المنافقون: آية 1.

(6) - سورة المنافقون: آية 4.

قال أبو سعود في تفسير الآية: "(وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم) لضخامتها، ووقوفك منظرهم لصاحبه وجوههم (وإن يقولوا تسمع لقولهم) لفصاحتهم، وذلاقة ألسنتهم، وحلاوة كلامهم، وكان ابن أبي جسيما فصيحا يخضر مجلس رسول الله ﷺ في نفر من أمثاله وهم رؤساء المدينة، وكان عليه الصلاة والسلام ومن معه يعجبون بهياكلهم، ويسمعون إلى كلامهم"¹.

وكذلك وصفهم زيد بن أرقم رضي الله عنه فقال: "كانوا رجالا أجمل شيء"².

هذا هو ظاهرهم، أما حقيقتهم فكما قال الله جل وعلا: "كَانَتْهُمْ حُشُبٌ مُسْتَنْدَةً".

ومغالاة في النفاق، وستر الاتجاه الكيدي التأمري، كان عبد الله بن أبي سلول يقف أمام الجموع الملوثة في مسجد رسول الله ﷺ، داعيا لهم في حماس مفتعل أن ينصروا رسول الله ﷺ.

روى ابن إسحاق قال: "كان عبد الله بن أبي سلول - كما حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر، شرفا له في نفسه وفي قومه، وكان فيهم شريفا، إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانتصروه وعزروه³، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، حتى إذا صنع يوم أحد ماصنع⁴ ورجع بالناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بتيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت"⁵.

فهذا الموقف من ابن أبي أمثاله ما هو إلا من أجل حماية مصالحهم، وتشبيث مقامهم في المجتمع المنتمي إلى الإسلام، المطبق لهدية وتعاليمه، وليكون ذلك ستارا يتحركون خلفه بحرية في هدم الإسلام، ويخططون بهدوء للمكر برسول الله ﷺ وبالْمُؤْمِنِينَ، وزرع الفتنة والفرقة في صفوفهم، ولا بأس أن يكون ذلك أحيانا باسم الإسلام والمصلحة.

(1) - تفسير أبي السعود 252/8، وينظر: تفسير البغوي 348/4، تفسير فتح القدير 230/5.

(2) - جزء من حديث رواه البخاري في كتاب التفسير، باب {وإذا رأيتم تعجبك أجسامهم} 1860-1861.

(3) - أي وقروه وعظموه وأعينوه. ينظر لسان العرب 2924/4-2925.

(4) - حين اغتدل باتباعه عائدا إلى المدينة.

(5) - السيرة النبوية لابن هشام 46/3-47، ونقله ابن كثير في التفسير 369/4، وفي البداية 59/4، وينظر: المغازي

للوفاقي 318/1، السيرة الحلبية 549/2.

إن هؤلاء موقنون في قرارة نفوسهم أنه لا يمكن لهم أن يعيشوا في المجتمع المسلم في أمان، في الوقت الذي يعملون فيه على الإجهاز على الإسلام، ومجاهدة المسلمين، إلا بهذا الأسلوب المتلون المتقلب المراء، وصدق الله سبحانه إذ وصفهم بقوله عز وجل: "...وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ..."¹.

قال ابن كثير: "هذا شأن المنافقين، يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه"².

ثانياً: الاستهزاء والتنقص، والطعن والتجريح.

يستغل المنافقون لقاءاتهم الخاصة بأكابرهم، كابن أبي وأضرابه، أو بأحبار اليهود في الاستهزاء بالمؤمنين، وإظهار التنقص لهم والاستخفاف والتهكم بهم.

قال تعالى: "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ"³.

قال ابن كثير: "شياطينهم سادتهم وكبرائهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود ورؤساء المشركين والمنافقين"⁴.

فهم يصرحون بالإيمان إذا قابلوا فئة من المؤمنين، وإذا التقوا بأمثالهم في دوائر الكفر والشرك، أظهروا كفرهم وعداءهم، وولاءهم الكامل لمعسكر الكفر بشتى أصنافه، وصرحوا بأن إعلانهم للإيمان ما هو إلا سخرية بالمؤمنين، وتلاعب بالدين، واستهزاء برسول الله ﷺ (إنما نحن مستهزئون).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أي إنما نحن نستعزى بالقوم ونلعب بهم"⁵.

ومن ذلك ماجاء في قول الله سبحانه: "وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ..."⁶.

(1) - سورة آل عمران: من آية 119.

(2) - تفسير ابن كثير 399/1.

(3) - سورة البقرة: آية 14.

(4) - تفسير ابن كثير 51/1.

(5) - رواه ابن جرير، ينظر: تفسير الطبري 131/1، تفسير البغوي 51/1.

(6) - سورة التوبة: من آية 61.

والآية الكريمة تكشف بعض مواقف المنافقين، فتشير إلى أن من طبيعتهم إيذاء رسول الله ﷺ، طعنا بالقول، وقدحا في شخصه، وذما له عليه الصلاة والسلام، فإذا نبههم البعض باحتمال انكشاف أمرهم، ويلوغ خبرهم إلى رسول الله ﷺ، زادوا موقفهم سوءا وتبجحا، بإظهارهم عدم المبالاة، ووصفهم لرسول الله ﷺ بقولهم (هوأذن).

قال ابن كثير: "يقولون (هوأذن) أي من قال له شيئا صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئنا له صدقنا. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة"¹.

وهم يقصدون الطعن والذم لرسول الله ﷺ، والاستخفاف والنهك به، وذلك بوصفه عليه الصلاة والسلام بأنه سماع لكل ما يلقي عليه، مصدق لكل ما يقال له، دون إدراك أو تمييز، فهو عليه الصلاة والسلام - زعم هؤلاء المنافقين - موسوم بالغفلة والسذاجة - وحاشاه ﷺ².

ولما قال ابن أبي ما قال يوم المريسيع مما ذكره القرآن في قول الله سبحانه: "هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا..."³.

وعرض عليه بعض الصحابة ﷺ أن يأتي رسول الله ﷺ ليستغفر له، كان الجواب من رأس النفاق أن لوى رأسه وحركه استهزاء وسخرية، واستكبارا وإعراضا⁴ كما قال الله تبارك وتعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُؤَا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ"⁵.

إن الاستهزاء والطعن والذم والتنقص الذي يصدر من المنافقين، كان يسع المؤمنين أيضا من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: "قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عن اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن..."¹.

(1) - تفسير ابن كثير 366/2.

(2) - ينظر تفسير فتح القدير 375/2.

(3) - سورة المنافقون: من آية 7.

(4) - ينظر: تفسير الطبري 110-108/28، تفسير القرطبي 83/18، فتح الباري 236/8.

(5) - سورة المنافقون: آية 5.

يقول الله تبارك وتعالى: "يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ. وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نُفْعُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُغْلَبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ"².

ومن أفاعيل عبدالله بن أبي في هذا الباب اتهامه الشنيع لأُم المؤمنين عائشة عليها السلام بالمنكر من الفعل مع صفوان بن المعطل³، وذلك إثر قدومه بها بعد تأخرها عن الجيش في غزوة المريسيع، وكانت تبحث عن عقد لها فقدته، ولما وجدته وعادت كان الجيش قد سار إلى المدينة، وهم يظنونها في هودجها⁴ عليها السلام.⁵

انتهز زعيم المنافقين تلك الحادثة ليطعن في عرض رسول الله ﷺ، بإشاعة ذلك الاتهام

الخبث، وبذاعته ونشره وترديده، أملا في إيجاد الفتنة، وتشويه سمعة بيت النبوة، ورغبة في التأثير على نفسية رسول الله ﷺ، وهدم مكانته ومنزلته، حين يتناقل الناس الاتهام والتشكيك، فيسقط شأنه عليه الصلاة والسلام، وتقل هيئته، ويتردد أتباعه.

لقد كان ابن أبي هو المحرك لتلك الفتنة، وهو البادئ بذلك الاتهام وهو المذيع لتلك الإشاعة، ينقلها من جمع إلى جمع، ومن أذن إلى أذن، فقد وجد الخبيث في تلك الحادثة "متنفسا، فتنفس من مركب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الافك ويستوشيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه"⁶.

(1) - رواه ابن جرير في الفسير 172/10، قال شاکر: صحيح الإسناد 334/14، ورواه ابن أبي حاتم كما في لباب النقول ص 119.

(2) - سورة التوبة: آية 64-66.

(3) - صفوان بن المعطل: بضم الميم وفتح العين وتشديد الطاء المفتوحة. المعني ص 235.

(4) - "المودج بفتح الهاء مركب من مراكب النساء". شرح النووي على صحيح مسلم 104/17.

(5) - ينظر خير الإفك مفصلا من رواية عائشة عليها السلام في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك 1517/4-1522، وفي صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك 102/17-113.

(6) - زاد المعاد 260/3.

يقول الله جل شأنه: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ"¹.

وقد صرحت عائشة رضي الله عنها بالذي تولى كبر الإفك، إذ قالت "فهلك في من هلك، وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول"².

وفي رواية أخرى: "وأما المنافق عبدالله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه³ ويجمعه، وهو الذي تولى كبره"⁴.

لقد كان ذلك الاتهام شديد الوقع على بيت النبوة، وتأثر به رسول الله عليه الصلاة والسلام كثيرا، حتى قام ﷺ فخطب في المسلمين، معلنا ثقته في عائشة رضي الله عنها، وفي صفوان رضي الله عنه ومصرحا بغضبه وتضايقه عليه الصلاة والسلام ممن يشيع الاتهام ويروج له.

تقول عائشة رضي الله عنها: "فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبدالله بن أبي، وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني⁶ من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي"⁷.

ويشاء الله جل وعلا أن ينزل القرآن براءة عائشة رضي الله عنها، وأن تنتهي تلك الفتنة، والتي أراد لها ابن

أبي أن يطول زمنها، ويتسع تأثيرها، ويكون لها دورها، في تحجيم شأن رسول الله ﷺ ودعوته، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ذلك.

ثالثا: التخذيل والإرجاف والتشيط:

- (1) - سورة النور: آية 11.
- (2) - ضمن رواية عائشة رضي الله عنها، ومضي تحججها آنفا.
- (3) "أي يستخرجه بالبحث والمساءلة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخذل". شرح النووي على صحيح مسلم 116/17.
- (4) - بكسر الكاف: أي معظمه. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم 105/17.
- (5) - صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك 115/17.
- (6) - قال النووي: "معني (من يعذرني): من يقوم بعذري إن كافاته على قبيح فعاله ولا يلومني، وقيل معناه: من ينصرتي...". شرح النووي على صحيح مسلم 109/17.
- (7) - ضمن رواية عائشة رضي الله عنها، وسبق تحججها قريبا.

كان من خطة عبد الله بن أبي ابن سلول وأتباعه المنافقين، في مناهضة الإسلام، ومجاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم، بذل المحاولات في زرع بذور الفتنة بين المسلمين، والتأثير السلبي عليهم معنويا، ومحاربتهم نفسيا، بالتخذيل والتشبيط، ونشر الأراجيف، والتشكيك في القدرات والإمكانات، أملا في زعزعة الصفوف، وإضعاف النفوس، وإثارة الفرقة، وإيجاد الاختلاف في الكلمة، والتنازع في الرأي، والملع والإحباط في الأفئدة. والأمثلة على ذلك في تاريخ ابن أبي وأتباعه المنافقين كثيرة، أذكر منها ما أشارت إليه بعض الآيات التي تناولت غزوة أحد، وغزوة الأحزاب وغزوة تبوك.

* ففي يوم أحد اعتمد الرسول ﷺ الرأي القائل بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين¹، وتحرك عليه الصلاة والسلام في جيش يقارب الألف رجل²، وشاركه عبدالله بن أبي رأس النفاق في الخروج أول الأمر، ولكنه كان قد بيت للمؤمنين مكيدة يزعم بها صفوفهم، ويشتر الفرع في قلوبهم، ويقلل من احتمالات نصرهم، إذ ما إن قطعوا مسافة يسيرة من المدينة، حتى انسحب ابن أبي مع مجموعة كبيرة من أتباعه، مستغلا مكانته بين قومه وشرفه فيهم، وعاد إلى المدينة بثلاث الجيش تقريبا خاذلا رسول الله ﷺ.

وحتى يبرر تحركه، ويجعله مسألة طبيعية، فقد صرح بأن قراره يعتمد على المصلحة العامة، وأن تصرفه نابع من حرصه على دماء المسلمين وأمنهم مظهرا نغمته على رسول الله ﷺ، في تجاوزه لرأيه، وأخذه برأي الشباب القائل بالخروج من المدينة لملاقاة العدو.

كما يبرر انسحابه - في مكر وخبت- بأن الغالب عدم حصول القتال فعليا مع المشركين، ومن ثم فلا حاجة لاستمراره في المسير.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجع ناس ممن خرج معه..."³.

قال ابن حجر: "يعني عبدالله بن أبي وأصحابه"⁴.

(1) - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 6/3، دلائل النبوة للبيهقي 207/3-208، زاد المعاد 193/3، السيرة الحلبية 490/2-491، البداية 14/4-15.

(2) - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 7/3، السيرة الحلبية 492/2، البداية 15/4-16.

(3) - رواه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة أحد 1488/4.

(4) - فتح الباري 452/7.

وفي رواية ابن إسحاق: "حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخزل عنه عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، مائدي علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله ألا تأخذلوا قومكم وبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكننا لانرى أن يكون قتال" ¹.

فقال: "الله أكبر، قصور الروم ورب الكعبة، ثم ضرب أخرى، فوقع فلقة، فقال: الله أكبر، قصور فارس ورب الكعبة."

فقال عندما المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا، وهو يعدنا قصور فارس والروم" ².

فللنافقون يجعلون من هذه الأحوال الشديدة للمسلمين يوم الأحزاب وما يعيشونه من الكرب والخوف، دليلاً مادياً ملموساً على وعود الرسول ﷺ للمؤمنين بالنصر والتمكين، ما هي إلا أوهام لا حقائق لها، وأحلام لا أمل في تحقيقها، وأباطيل وخيالات بعيدة عن الواقع. وهم يمثل هذا المنطق بأملون أن يفتوا في عضد المؤمنين، ويفقدوهم الثقة فيما يأتيهم عن رسول الله ﷺ.

ويوضح الله سبحانه أفاعيل أخرى للمنافقين في تلك الغزوة فيقول عز وجل: "وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا" ³.

فالآية الكريمة تكشف الدور الذي كان يقوم به بعض المنافقين في تشييط الناس صراحة، ودعوتهم إلى ترك الجهاد والمريطة مع رسول الله ﷺ في تلك الحال العصبية، وابتغاء السلامة بالفرار من معسكر المؤمنين،

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 7/3 من رواية ابن إسحاق قال: حدثني الزهري، وعبد بن يحيى، وعاصم بن عمر، والحصين بن عبد الرحمن، وغيرهم من علمائنا، كلهم قد حدثت بعض الحديث عن يوم أحد.

(2) - أورده المهيمني بطوله في مجمع الزوائد 190/6-191 وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل ونعيم الميدي وهما ثقات، وأورده ابن كثير في البداية 115/4-116 نقلاً عن الطبراني. وينظر السيرة الخلية 640/2.

(3) - سورة الأحزاب: آية 13.

والعودة إلى منازلهم بالمدينة "لا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا" ويتحرك فريق آخر للانسحاب، ولكن بأسلوب مراوغ، ظاهره النظام والطاعة والمصلحة، وحقيقته الفرار والتخذييل والتشبيط "وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ".

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره ويستأذن بعضهم رسول الله ﷺ في الإذن بالإنصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله ﷺ"¹.

وتضمنت الآية الكريمة العذر الذي أظهره هؤلاء لترك المراقبة "يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ" أي غير حصينه، معرضة للعدو والسراق، فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع إلى العسكر"².

ففي حديث حذيفة رضي الله عليه وسلم "فلقد رأيتنا ليلة الأحزاب، ونحن صافون قاعدون: أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا، وقريضة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحا في أصوات ريحها أمثال الصواعق وهي ظلمة، ما يرى أحد منا أصبعه، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، فيأذن لهم فيتسللون..."³.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "بعثني خالي عثمان بن مظعون لأبيه بلحاف، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فاستأذنته، وهو بالخنندق، فأذن لي، وقال: منلقيت فقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا. وكان ذلك في برد شديد، فخرجت ولقيت الناس، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا، قال: فلا والله ما عطف على منهم اثنان أو واحد"⁴.

وفي رواية ابن جرير "قال: فما يلوي أحد منهم عنقه"⁵.

ومن رواية عروة بن زبير "...وقد كان جاء رسول الله ﷺ الخبر بما أجمعت له قريش وعطفان، فضرب الخندق على المدينة، وعمل فيه ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعما المسلمون فيه، فدأب رسول الله ﷺ وأدأبوا، وأبطأ

(1) - تفسير الطبري 135/21.

(2) - تفسير أبي سعود 94/7.

(3) - الحديث بطوله رواه البيهقي في الدلائل 451/3-453، ونقله ابن كثير في التفسير 471/3-472، البداية 131/4-132.

(4) - أورده المهيمن في مجمع الزوائد 196/6 وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(5) - تفسير الطبري 127/21، ونقله عنه ابن كثير في التفسير 127/21.

عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون¹ بالضعيف من العمل، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن...².

ومن رواية عروة أيضا عن أوس بن قبيط قال لرسول الله ﷺ، وذلك أمام أشرف من

قومه من بني حارثة: "إن بيوتنا عورة، وهي خارجة من المدينة، ائذن لنا، فترجع إلى نساءنا وأبنائنا

وذرائنا"³.

إن ما يظهره هؤلاء المنافقون من الأعذار، وما يستندون إليه من التبريرات، يخالف الحقيقة التي يخفونها، والواقع الذي يسرونه، والمتمثل في رغبتهم في ترك المراقبة، خذلانا لرسول الله ﷺ، وقعودا عن نصرته، وأملا في أن تنكسر شوكته عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين الصادقين، إضافة إلى هلمهم وحرصهم البالغ على السلامة والعافية، وأن تكون لهم عند الأحزاب الكافرة يد تحفظهم وتنجيهم، وتخصهم بالحماية والمكانة، فيما لو حصل ما يرجونه من الهزيمة لرسول الله ﷺ. ولذلك فضحهم الله عز وجل بقوله: "وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا".

* وفي غزوة تبوك يستعلن أمر النفاق من جديد إذ "قام المنافقون بحرب دعائية عند إعلان النفير، فعضوا يشطون الناس، ويقولون (لا تنفروا في الحر) فقد كان الحر شديدا، وكان الناس يفيحون إلى ظلال الأشجار، فكان المنافقون يستغلون ذلك لإشاعة روح التخاذل"⁴.

وإذا كان بعض هؤلاء قد شارك في الغزوة لغرض في نفسه، عله أن يجد مجالا للكيد والتآمر وابتغاء الفتنة، فإن الكثير منهم قرر التخلّف، والقعود عن الجهاد مع المؤمنين، بعد أن أمر رسول الله ﷺ الناس بالتجهز للخروج.

(1) - أي يخفون ويسترون نفاقهم. ينظر ترتيب القاموس 604/4.

(2) - رواه البيهقي من طريق ابن إسحاق قال حدثنا يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، وحدثنا يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي. دلائل النبوة 409/3، وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 149/3، السيرة الحلبية 633/2.

(3) - رواه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق بالإسناد المذكور آنفا 435/3-436 وينظر: السيرة النبوية لابن هشام 156/3، البداية 119/4، تفسير الطبري 135/21، تفسير ابن كثير 473/3.

(4) - السيرة النبوية الصحيحة 526/2.

وفي هذه الفتنة المناقفة يقول الله تبارك وتعالى: "فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ"¹.

فهم يجمعون بين القبائح، إذ تشتعل صدورهم كراهية للجهاد باعتباره سببا لنصر الإسلام وعزة المسلمين، كما يهتزون فرحا لمخالفتهم أمر رسول الله ﷺ، وقعودهم عن نصره الدين الذي يحقدون في دواخلهم عليه، وعلى أهله من المؤمنين، ثم يضيفون إلى ذلك التحرك لتشيط الناس وتخذلهم بالتركيز على ما يتوقع في الخروج إلى تبوك من مظاهر المشقة والعنت، وتضخيم ذلك بغية الإرجاف وإثارة الذعر في النفوس.

وكان على رأس من تخلف من أهل النفاق متعللين بالأعذار الواهية زعيمهم عبدالله بن أبي².

قال ابن إسحاق: "وكان الذين استأذنوه من ذوي الشرف - فيما بلغني - منهم: عبدالله بن أبي ابن سلول، والجد بن قيس³، وكانوا أشرفا في قومهم، فخطبهم الله لعلهم بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم، وطاعة فيما يدعونهم إليه، لشرفهم فيهم"⁴.

وقد هتك الله جل شأنه أستار هؤلاء المنافقين في سورة براءة⁵، وكشف مواقفهم في آيات كثيرة، ومن ذلك - إضافة إلى ماضى - قول الله سبحانه: "وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ"⁶.

(1) - سورة التوبة: من آية 81.

(2) - ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 144/4، البداية 10/5-11، أسباب النزول للواحدي ص246، السيرة الحلبية 102/3.

(3) - الجد بن قيس: بفتح الجيم وتشديد الدال. تكملة الإكمال 82/2.

(4) - السيرة النبوية لابن هشام 185/4، ونقله ابن كثير في التفسير 361/2، وابن جرير في التفسير 144/10.

(5) - هي سورة التوبة وتسمى الفاضحة. قال سعيد بن جبير: سألت ابن عباس عمن عن سورة براءة فقال: تلك الفاضحة، ومنهم ومنهم، حتى خفنا ألا تدع أحدا. تفسير القرطبي 40/8.

(6) - سورة التوبة: آية 46-49.

هذه الآيات الكريمة توضح بعض معالم الكيد والمكر من ابن أبي ومن سار على نهجه من المنافقين.

فهم حين يخرجون مع رسول الله ﷺ يعملون على إفساد أوضاع المؤمنين، ومحاربتهم نفسياً، وزعزعة صفوفهم بكل وسيلة: "لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا" والخبال الفساد والنميمة، وإيقاع الاختلاف والأراجيف¹، وهدفهم من ذلك فتنه المؤمنين: "يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ" أي "يحاولون أن يفتنوكم، بإيقاع الخلاف فيما بينكم، وإلقاء الرعب في قلوبكم، وإفساد نياتكم"².

هذه الرغبة في فتنه المؤمنين ليست أمراً جديداً عند أولئك المنافقين، بل هي ديدن لهم وطبيعة، وهي منهج لهم وخطة يسرون عليها: "لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ".

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: لقد التمس هؤلاء المنافقون الفتنه لأصحابك يا محمد، التمسوا صدهم عن دينهم، وحرصوا على ردهم إلى الكفر بالتخذييل عنه، كفعل عبدالله بن أبي بك وأصحابك يوم أحد، حين إنصرف عنك بمن تبعه من قومه"³.

إن رؤوس النفاق يتحركون عن تدبير وتخطيط، وتأمل وتفكير، وتقلب فيما بينهم للآراء، وبحث في الوسائل المناسبة لكيد الإسلام، والمكر بالمؤمنين، والتخذييل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور" أي اجتهدوا ودبروا لك الخيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك⁴.

وهم في كل الأحوال يحملون في نفوسهم البغض والكراهة لهذا الدين "حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ" إذ يسوءهم، ويثقل كاهلهم، أن يشاهدوا لرسول الله ﷺ فتحاً ونصراً، وللإسلام تقدماً وانتشاراً.

هؤلاء المنافقون كانوا يقدمون بين يدي تخلفهم وقعودهم ميررات سخيفة وأعدارا كاذبة، وقد أوردت الآيات مثالا على ذلك في قول الله سبحانه:

"وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَنْفِي".

(1) - تفسير القرطبي 100/8.

(2) - التفسير القيم ص 294.

(3) - تفسير الطبري 147/10.

(4) - تفسير أبي السعود 72 / 4.

وقد ذكر المفسرون¹ أن الآية نزلت في الجند بن قيس، ووردت بذلك روايات، منها ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك، قال للجند بن قيس: يا جند بن قيس، ما تقول في مجاهدة بني الأصفر؟ قال: يا رسول الله، إني امرؤ صاحب نساء، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتن، أفتأذن لي في الجلوس ولا تفتني؟ فأنزل الله "وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا"².

والمعنى: لا توفعني في الإثم بالخروج معك ومشاهدة بنات الروم، ولم يكن هناك في الحقيقة من عذر إلا النفاق هو الباعث لهم على التخلف، وبه يقعون في الفتنة الحقيقية، وبسببه يتلبسون بالإثم والخسران، المودي بهم إلى عذاب الله جل وعلا³ "أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ".

تلك بعض الأمثلة للإرجاف والتخذيل والتشيط الذي يتقن المنافقون توجيهه كسلاح يحاولون به تمزيق المجتمع الإسلامي من داخله.

ونوع آخر من التشيط ضمن مفردات منهج ابن أبي وهو يستهدف شق صفوف المسلمين، وتشيت وحدتهم، يتمثل في تشييطه للانتصار رضوان الله عليهم من الأوس والخزرج عن الاستمرار في استيعاب المهاجرين رضوان الله عليهم، والدعوة إلى إيقاف الدعم المادي لهم، والنكوص عن فتح سبل المعيشة، وتهيئة أسباب الحياة للمؤمنين القادمين من خارج المدينة.

وهو بهذا الأسلوب يقصد تخذيل رسول الله ﷺ، أملاً في تكوين وسائل ضغط تثمر إضعافاً في موقفه عليه الصلاة والسلام، وتحجيماً لدعوته.

ذلك ما ظهر جلياً في صنع عبدالله بن أبي، في غزوة بني المصطلق، أثناء عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة، وعلى رأسه رسول الله ﷺ.

(1) - قال ابن كثير في التفسير 362/2: "هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت في الجند بن قيس، وقد كان الجند بن قيس هذا من أشرف بني سلمة". وقال ابن جرير: "وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل". تفسير الطبري 148/10، وينظر: أسباب النزول للواحدي ص 246، زادالمعاد 526/3-527، تفسير البغوي 299/2، زادالمسير 304/3-305.

(2) - رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد 106/7 قال الهيثمي: فيه يحيى الحماني وهو ضعيف، ورواه البيهقي من طريق ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبي بكر بن حزم. دلائل النبوة 213/5-362، لباب النقول ص 118، البداية 6/5، دلائل النبوة 225/5، السيرة النبوية لابن هشام 140/4، تفسير فتح القدير 368/2.

(3) - ينظر: تفسير البغوي 299/2، تفسير القرطبي 101/8.

فمن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: "خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبدالله بن أبي لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فأرسل إلى عبدالله بن أبي، فسأله، فاجتهد بمينة ما فعل، قالوا كذب زيد رسول الله ﷺ، فوقع في نفسي مما قالوا شدة، حتى أنزل الله عز وجل تصديقي في "إِذَا جَاءَكَ الْمُتَأَفِّقُونَ" فدعاهم النبي ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم¹.

وفي رواية أخرى بيان للحادثة التي استغلها ابن أبي ليقول مقالته فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: "كنا في غزاة²، فكسع³ رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمعها الله رسوله ﷺ قال: ما هذا، فقالوا كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار⁴، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: دعوها فإنها منتنة⁵. قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبدالله بن أبي: أوقد فعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه⁶.

وفي رواية ابن إسحاق أن هذه الحادثة كانت في غزوة بني المصطلق، على ماء يقال له المريسيع.

قال ابن إسحاق: "...فبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجبر له من بني غفار، يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فزدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرح الجهني: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال: أوقد

(1) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب {وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُ أَحْسَامُهُمْ} 1860/4-1861، ومسلم في كتاب صفات المنافقين 120/17.

(2) - هي غزوة بني المصطلق كما في رواية ابن إسحاق، وتسمى أيضا غزوة المريسيع، وينظر: فتح الباري 678/6.

(3) - أي ضربه على دبره، من الكسع وهو ضرب الدبر باليد أو بالرجل. ينظر فتح الباري 837/8، 839.

(4) - "يفتح الام، وهي للاستعانة، أي أغثوني" فتح الباري 838/8.

(5) - "دعوها" أي دعوة الجاهلية، و"منتنة" من التثنية، أي أنها كلمة قبيحة خبيثة ينظر فتح الباري 838/8.

(6) - رواه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله {يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ} 1863/4، ومسلم في كتاب البر، باب نصر الأخ ظلما أو مظلوما 138/16.

فعلوها¹، وقد تافرونا² وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلايب قريش³ إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتهم بلادكم، وقاسمتهم أموالكم، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم...⁴."

وفي رواية عروة بن الزبير: "فانكفأ كل منافق إلى عبدالله بن أبي، فقالوا: كنت ترجي وتدفع، فصرت لا تضر ولا تنفع، فقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"⁵.

وبشأن هذه الحادثة نزل قول الله سبحانه: "هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ. يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ"⁶.

لقد كشف ذلك الموقف ما يحمله صدر ابن أبي من الغل، وما يمتلى به من الحقد على المؤمنين، وأظهرت تلك الحادثة كيد رأس النفاق ومكره، في ضرب صفوف المسلمين من الداخل، وإضعاف أمرهم، وتفريق جمعهم، ومن أجل ذلك يتابع ما يمكن أن يظهر من ثغرات، ويترب ما يقع من الأحداث، ليجعل من بعض ذلك أساسا يعتمد عليه فيما يريد بثه من الدسائس والأراجيف.

لقد سارع ابن أبي إلى استغلال تلك الحادثة الفردية، والخلاف العرضي، لينشر سموم الفتنة، وهو مطمئن إلى أن ما يتفوه به سيكون- في أعين العامة- منطقيا له مبرراته، وينطلق من الحرص على مصلحة البلد وأهلها الأصليين، والاحتياط لحقوقهم، والمحافظة على مكاسبهم من أن يهضمها الأغراب، وكرامتهم من أن يصيبها الهوان.

(1) - المراد "شركناهم فيما نحن فيه، فأرادوا الاستبداد به علينا" فتح الباري 8/838.

(2) - أي فآخرونا ينظر لسان العرب 6/4499.

(3) - جلايب: جمع جلاب، وهو الإزار والرداء، ويكنى به عن الفقر. ينظر النهاية 1/283.

(4) - رواه ابن إسحاق، قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبدالله بن أبي بكر ومحمد بن يحيى بن حبان، كل قد حدثني بعض حديث بني المصطلق، قالوا... السيرة النبوية لابن هشام 3/233-234، ورواه ابن جرير في التفسير من طريق ابن إسحاق به 115/28، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي 4/52-53، البداية 4/179-180.

(5) - رواه ابن أبي حاتم كما في الفتح 8/837، قال ابن حجر: وهو مرسل جيد.

(6) - سورة المنافقون: آية 7-8.

وكانه في مقولته يطالب القوم بالتحرك، والعمل على إصلاح هذه الأوضاع، وإعادة الأمور إلى نصابها، وأن تكون لحظة العودة إلى المدينة هي البداية للتصرف المناسب، لإعادة الكرامة المهذرة، والحقوق المضيقعة "يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ" وهو يريد بالأعز نفسه ومن يسلك منهجه، وبالأذل مجدا رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين. وواضح أنه يقصد نشر الأراجيف، وإثارة النعرات العصبية، والدعوات الجاهلية، وتحريك النزاع المادية لدى المؤمنين من الأوس والخزرج خاصة، ضد إخوانهم المؤمنين المهاجرين، لتحصل الفرقة والنزاع ولذلك طالب بإزالة الآثار المادية السلبية- في زعمه- على أهل المدينة، والتي يسببها المهاجرون الفقراء، وهو في النهاية يستهدف القضاء على دعوة الإسلام نفسها، بفرق فئات من المؤمنين عنه ﷺ "هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا".

عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: "لا تطعموا مجدا وأصحابه حتى نصيبهم بجاعة فيتركوا تبيهم"¹.

فهي إذن خطة للتجويع، وحصار معيشي، يقترحه ويدعو إليه رأس النفاق عبدالله بن أبي، حتى ينشغل الرسول ﷺ والمهاجرون بمحوم الطعام والمأوى والاستقرار، فيخف الحماس لدعوة الله سبحانه بفرق جماعات من المؤمنين بها، ومن ثم يزول خطرهما، وينتهي أمرها، ولو بعد حين.

رابعا: الولاء لأعداء الله من الكافرين، والتأمر معهم ضد الدعوة وأهلها: كان أمرا طبيعيا أن يجد عبدالله بن أبي وشيعته في اليهود حلفاء لهم، يوالونهم، ويتقربون إليهم، ويشعروهم بالود والحب، ويعدونهم بالنصر والمؤازرة.

ذلك أن المنافقين واليهود تجمعهم روابط الكفر بالله سبحانه، والمخالفة لدينه، والهجامة لرسوله ﷺ، والكراهية والبغض للمؤمنين.

ومن ثم فلا غرابة أن يتخذ المنافقون من اليهود أولياء لهم، يلحقون إليهم بالموودة، ويكاشفونهم بأخبار المؤمنين، وينقلون إليهم أسرارهم وخباياهم، ويحرصون على توثيق العلاقة بهم. ذلك ما قرره الله سبحانه وتعالى في قوله عز وجل: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ..."².

قال ابن جرير: "هم المنافقون تولوا اليهود وناصحوهم"¹.

(1) - تفسير الطبري 111/28.

(2) - سورة المجادلة: من آية 14.

إن هؤلاء المنافقين يرون في بني يهود سندا لهم، ومصدرا للعون والحماية، إذا اشتدت الأمور، وضافت الأحوال، ودارت الدوائر، كما قال عزوجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَغْضُكُم مِّنْهُمْ أَوْلِيَاءَ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْلِكُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ"².

قال في تفسير المنار عند قول الله تعالى: "فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ": "اتفق رواة التفسير المأثور على نزول هذه الآية في المنافقين فهم الذين في قلوبهم مرض، وكان عبدالله بن أبي زعيم المنافقين ذا ضلع مع يهود بني قينقاع، وكان غيره من المنافقين يمتنون إلى اليهود بالولاء والمعهود، ويسارعون في هذه السبيل التي سلكوها، كلما سنحت لهم فرصة لتوثيق ولائهم وتأكيده ابتدروها، فهم يسارعون في أعمال مولاتهم مسارعة الداخل في الشيء، الثابت عليه، الراغب فيما يزيده تمكنا وثباتا، فما عذر هؤلاء الذي يرددونه في أنفسهم، ويقولونه عند الحاجة بالسنتهم؟ "يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ" أي نخشى أن تقع بنا مصيبة كبيرة مما يدور به الزمان، أو من المصائب والدواهي التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها، فحتاج إلى نصرتهم لنا، فنحن نتخذ لنا يدا عندهم في السراء، ننتفع بها إذا مست الضراء"³.

وشتان بين ماأعلنه عبادة بن الصامت رضي الله عنه في هذا الشأن وما صرح به عبدالله بن أبي فقد جاء عبادة بن الصامت رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، "فقال: يا رسول الله، إن لي موالى من يهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر، لأبرأ من ولاية موالى"⁴.

(1) - تفسير الطبري 22/28، وينظر تفسير البغوي 311/4.

(2) - سورة المائدة: آية 51-52.

(3) - تفسير المنار 431/6 (مع اختصار يسير) وينظر: تفسير ابن كثير 68/2، تفسير القرطبي 141/6، تفسير البغوي 44/2.

(4) - رواه ابن جرير عن عطية بن سعد. تفسير الطبري 275/6، ونقله ابن كثير في التفسير 68/2-69. وينظر رواية ابن إسحاق قال حدثني أبي عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، في السيرة النبوية لابن هشام 370/2، وينظر أيضا تفسير فتح القدير 52/2.

لقد أعلن رأس النفاق موالاته لحلفائه من يهود بني قينقاع، بل ونافع عنهم، واشتد في القيام بدورهم، وذلك حين حاصره رسول الله ﷺ - بعد إخلالهم بالأمن ونقضهم للعهد- حتى نزلوا على حكمه.

إقام عبدالله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله ﷺ وتحدث معه في شأنهم، وكان مما قال: "يا محمد، أحسن في موالي أربع مائة حاسر¹ وثلاث مائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدكم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك²".

تلك إحدى صور الولاء من أهل النفاق كابن أبي وأمثاله لأعداء الله سبحانه، والوقوف في حندقهم، والتواصل معهم، والحرص على مصالحهم.

وصورة ثانية يحكيها القرآن الكريم، تكشف طبيعة العلاقة بين حزب النفاق وطائفة أخرى من طوائف اليهود، هم يهود بني النضير³.

يقول الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ..."⁴.

وكان ذلك حين نقض يهود بني النضير عهودهم، وحاولوا الغدر برسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، وأمهلهم لذلك عشرة أيام، فتهيأت تلك الطائفة من اليهود للخروج في بداية الأمر، إلا أنهم تلقوا من أهل النفاق بالمدينة رسالة يمنونهم فيها بالعون والمناصرة، فغيروا حينما من رأيهم، وقرروا التحصن في حصونهم، وأعلنوا رفضهم مغادرة المدينة⁵. قال ابن إسحاق: "...وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عدو الله عبدالله بن أبي ابن سلول، ووديعة ومالك بن أبي قوقل، وشويد وداعس، قد

(1) - الحاسر: الذي لادرع عليه. ينظر النهاية 383/1.

(2) - السيرة النبوية لابن هشام 369/2-370 (مع اختصار) من رواية ابن إسحاق قال حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، ونقله ابن كثير في التفسير 69/2، والبداية 5/4، ورواه البيهقي من طريق ابن إسحاق. دلائل النبوة 174/3.

(3) - ينظر: تفسير الطبري 45/28، تفسير ابن كثير 230/4.

(4) - سورة الحشر: من آية 11.

(5) - ينظر: البداية 86/4، زاد المعاد 128/3، السيرة الحلبية 561/2، تفسير ابن كثير 331/4-332، تفسير فتح القدير 206/5.

بعثوا إلى بني النضير: أن اثبتوا وتمنعوا، فإننا لن نسلمكم، إن قتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم¹."

وفي رواية الواقدي أنهم "أخذوا في الجهاز، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول ابن أبي، أتاهاهم سويد وداعس، فقالا: يقول عبدالله بن أبي: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم، فيموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وتمدكم قريظة فإنهم لن يخذلوكم، ومدكم حلفاءكم من غطفان، وأرسل ابن أبي إلى كعب بن أسد، يكلمه أن يمد أصحابه، فقال: لا ينقض من بني قريضة رجل واحد العهد، فيس ابن أبي قريضة، وأراد أن يلحم الأمر فيما بين بني النضير ورسول الله ﷺ، فلم يزل يرسل إلى حُي: أنا أرسل إلى محمد أعلمه أنا لا نخرج من دارنا وأموالنا، فليصنع ما بدا له، وطمع حي فيما قال ابن أبي²."

وتشير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن هؤلاء المنافقين إلى عمق الصلة بينهم وبين يهود، وأنها بلغت مرتبة الأخوة الحميمة "أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَا غَرَابَةَ، فَإِنَّ الْكَفَرِ يوحد بينهم، والكراهية لهذا الدين تضمهم وتجمع شملهم.

كما وضحت الآيات العهد الذي قدمه المنافقون، والذي يتضمن وعودا ثلاثة لإخوانهم من يهود بني النضير. أول تلك الوعود مناصرهم إذا تحرك المسلمون لقتالهم، وذلك بالمشاركة الفعلية معهم، والقتال في صفوفهم، وتقديم ما يمكنهم من العون لهم.

وثانيهما: عدم السماع لأحد بالتأثير على قرارهم في نصر اليهود والوقوف معهم، وعدم الاستجابة لمن يدعواهم إلى خذلان اليهود أو قطع العلاقة معهم.

وثالثها: ربط المصير بهم، وعدم التخلي عنهم بأي حال، ومشاركتهم الخروج من المدينة لو اضطهرهم المسلمون إلى هذا المصير. "لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ".

(1) - السيرة النبوية لابن هشام 122/3.

(2) - المغازي 368/1.

وأهل النفاق يريدون بذلك إشعال الحرب، بتأليب اليهود على المجاهدة، ودعوتهم إلى الثبات وعدم التفكير في التنازل أو الاستسلام، وبث الحماس في نفوسهم، ورفع معنوياتهم، بتقديم الوعود المؤكدة بنصرتهم والوقوف معهم.

كل ذلك من أرياب النفاق ينطلق من أملهم الدائم في كسر شوكة المسلمين، وتكثير أعدائهم، وزيادة فرض المواجهة لرسول الله ﷺ، لعل إحداها أن تثمر في تعويق دولة الإسلام، وتصديق بنيائهم.

ولكن الرعب في القلوب، والذلة في النفوس، منعت المنافقين من تحقيق الوعود: "وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلُواْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ"¹.

واستلم يهود بني النضير دون أن يجدوا النصرة الفعلية الموعود بها من المنافقين، وتم إجلالهم عن المدينة.

ومن المؤامرات أيضا ذات العلاقة بالعمالة لأعداء الله من الكافرين خارج المدينة، ما قام به جمع من ركب المنافقين بالتنسيق مع عدو الله أبي عامر الفاسق، من بناء مسجد لهم ليكون غطاء وستارا لمكرهم وكيدهم بالمؤمنين، استعدادا للتصدي لرسول الله ﷺ ولتتولى الأمر في المدينة أرياب الكفر، وعلى رأسهم عدو الله أبو عامر الفاسق.

وفضح الله تبارك وتعالى تلك الخطة الأتمة من المنافقين، وكشفها لنبيه عليه الصلاة والسلام بقوله عز وجل: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"².

وقد أورد ابن كثير في تفسير هذه الآية خير أبي عامر الفاسق، ومشاركته كفار قريش في قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه "لما رأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب، يعدمهم ويمنعهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه، ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخللوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدا له معقلا يقدم عليهم يعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرعوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك وجاءوا فسألوا

(1) - سورة الحشر: من الآيات 11-12.

(2) - سورة التوبة: آية 107.

رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه¹ إذ كان عليه الصلاة والسلام حينها يستعد للخروج إلى تبوك، وبعد عودته منها كان الوحي الإلهي قد تنزل عليه ﷺ يكشف هدف المنافقين الحقيقي من بناء المسجد، وينهاه عليه الصلاة والسلام من الصلاة فيه، وعلى إثر ذلك أمر صلى الله عليه وسلم بدم ذلك المسجد وتحريقه، ونفذ المهمة مالك بن الدخشم²

ومع بن عدي رضي الله عنهما بأمر رسول الله ﷺ³.

وكان أبو عامر قد بعث إلى عملائه وأعوانه من المنافقين- كما في رواية ابن عباس رضي الله عنهما- أن "ابنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأني بجند من الروم، فأخرج محمدًا وأصحابه"⁴.

ومن خلال ما ذكر بشأن تلك المؤامرة يمكن ملاحظة المعالم التالية:

*العلاقة الوثيقة بين معسكر النفاق داخل المدينة ومعسكر الكفر خارجها، وعمالة هؤلاء المنافقين لأعداء الله، ومنهجهم في المكر بالمؤمنين بأساليب تعتمد الخداع والتدليس، وبذل المحاولات المستمرة لتهيئة الأوضاع بما يتناسب مع مخططات الكفر التي تستهدف القضاء على دولة الإسلام.

*أراد المنافقون-بتوجيه من عدو الله أبي عامر- أن يوجدوا لهم مكانا يتسنى لهم فيه التحرك بحرية، والتخطيط بمدهء، ويتمكنون فيه من التلاقي والاجتماع لتدبير أمورهم، وترتيب أوضاعهم، وتجميع كيدهم، بلا ضجيج أو إثارة أو لفت للانتظار، ليطمئنوا بذلك على استمرار المؤامرة دون انكشاف، فكان أن وقع اختيارهم على بناء المسجد، والاعتبار الأول في هذا الاختيار هو كون المسجد في مجتمع المؤمنين واجهة بعيدة كل البعد عن احتمال الشك والريب، بل إن المسجد هو شعار وحدانية الله سبحانه، ومحل لذكره وعبادته، وبالتالي فإن

(1) - تفسير ابن كثير 388/2، وينظر أسباب النزول ص 260-262.

(2) - مالك بن الدخشم: يضم الدال وسكون الحاء وضم الشين. تهذيب الأسماء 81/2، المغني ص 100.

(3) - بنظر: السيرة النبوية لابن هشام 156/4-157، تفسير الطبري 23/11، دلائل النبوة للبيهقي 259/5-260،

البداية 27/5، زادالمعاد 549/3، المغازي للواقدي 1046/3، تفسير البغوي 326/2.

(4) - تقدم ص 504.

ظاهر ذلك البناء هو الخير للمسلمين، وإشهار لمعالم الإسلام وشعائره، كما أنه يمثل وعاء للدعوة إلى دين الله تعالى.

ومن ثم فقد رأوا في هذا الاختيار وسيلة ملائمة تمتع من انكشاف أمرهم، وظهور تأمرهم، وتسمح لهم بالعمل في دقة وروية.

وكانت خطواتهم التالية لبناء المسجد أن ينالوا من رسول الله ﷺ اعترافا بصنيعهم، وتشجيعا له وتأيدا، ليصبح الأمر بعد ذلك طبعيا في أعين الناظرين، لا مجال فيه لريبة، خصوصا وأنه في ذات المنطقة التي أنشأ فيها رسول الله ﷺ مسجدا أول وصوله المدينة: منطقة قباء، فاتحه ممثلون لهم إلى رسول الله ﷺ وحادثوه في أمرين يتعلقان بذلك المسجد.

الأول منهما بيان الهدف من بنائه إذ ادعوا أنهم إنما بنوه لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وهو في ظاهر الأمر هدف شرعي لاغراضة فيه، إذ يتضمن تقديم الخير للمؤمنين في تلك المنطقة، وتحصيل منفعة لهم، ومراعاة ظروفهم، وتهيئة الوضع الذي يعينهم في عبادة ربهم سبحانه، وذلك ما يؤكدونه بالاستسهم "وَلْيَخْلَفَنَّ إِنَّا أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى". هذا هو الظاهر، أما في الحقيقة والواقع فما ذاك إلا ستار لما تخفيه صدورهم من غايات يغنون تحقيقها "وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ".

والثاني: دعوته عليه الصلاة والسلام للصلاة فيه.

وغوضهم من ذلك في حقيقة الأمر أن يتم اعتماده أمام المؤمنين، وتثبيت وضعه، ومن ثم تكون صلاته عليه الصلاة والسلام فيه حجة في وجه كل من يرد على خاطره شك في الأمر أوروية.

*فضحت الآية الكريمة أهداف المنافقين الحقيقية من هذا البناء، وذكرت لهم أغراضا أربعة تضمنها قول الله سبحانه: "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ"¹.

فالأول من هذه الأعراض هو الإضرار بالمجتمع الإسلامي بالمدينة، وتلك كلمة جامعة تشمل ضرب الإسلام في معقله، والتهوين من شأنه، وتشمل المكر بالمؤمنين وبقيادتهم المتمثلة في رسول الله ﷺ أملا في انتزاع

مقائيد الأمر في المدينة لصالحهم، كما تشمل كذلك الإضرار بالمؤمنين في منطقة قباء ذاتها والتي بنى فيها ذلك المسجد.

والثاني: إعلاء رايه الكفر، والعمل الدائب-من خلال واجهة المسجد-على الصد عن دعوة رسول الله ﷺ، وتحية الأوضاع وإعداد الخطة، لانتصار مناهج الكفر، وتأسيس بنيانه من جديد، بأساليب الكيد الغالية في التخفي التي اعتادها وأتقنها المنافقون.

والثالث: تشتيت كلمة المؤمنين في تلك الجهة التي أقيم بها المسجد، إذ أن المنافقين يزعمهم ويغيطهم أن يلتزم صف المسلمين، وأن تجتمع كلمتهم، ويتوحد أمرهم، ومن ثم فقد استهدفوا من بناء ذلك المسجد-ضمن أهدافهم-التفريق بين المؤمنين، وتفتيت وحدتهم، وإفساد ذات بينهم، إذ كان المسلمون في تلك الجهة يصلون في مسجد قباء، ويأنشاء مسجد الضرار سيتفرقون بينهما، فتشتت جماعتهم، وتزول ألفتهم، ومن ثم يمكن الانفراد ببعضهم من خلال مسجد الضرار، والعمل على جذبهم إلى معسكر النفاق.

أما الغرض الرابع فهو إيجاد المعقل الآمن للاجتماع والتلاقي، والتخطيط والتدبير، واستقبال ما يبعثه أبو عامر من الرسائل والتوجيهات، والتنسيق معه فيما يمكن عمله، وكل ذلك منهم استعدادا وترقبا وانتظارا¹ لأبي عامر الفاسق، المحارب لله سبحانه من حين خروجه من المدينة قبيل غزوة بدر مفارقا للإسلام وأهله "وَأَرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ" حتى يقدم بما وعدهم به من الجنود والرجال، تنفيذًا للخطة الموضوعة في القضاء على رسول الله ﷺ، وإنهاء أمره.

ولكن الله تعالى حفظ دينه، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام، فأحرق مسجد الضرار وهدم، ومات أبو عامر في الشام غريبا طريدا.

وهذا من صنع الله تعالى يكيد الملا ضد الدعوة، وقد مكروا من زمن، مكرا ومكرنا مكرا، فأصبحت عاقبة مكروهم أنا دمرنا هم وقومهم أجمعين.
سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

الباب الثالث:

عقبات الملاء في المجتمع الباكستاني،

ودور الدعاة في معالجته

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أثر الملاء في المجتمع الباكستاني

الفصل الثاني: مشكلة الملاء في المجتمع الباكستاني

الفصل الثالث: دور الدعاة في معالجة الملاء في المجتمع الباكستاني

الفصل الأول:

أثر المأ في المجتمع الباكستاني وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول: الدولة الباكستانية الإسلامية والدعوة إلى الله تعالى

المبحث الثاني: إيجابيات المأ في المجتمع الباكستان وفيه ثلاثة فروع:

الأول: دور المأ في استقلال باكستان والدعوة إلى الله تعالى

الثاني: تضامن المأ الباكستاني مع مسلمي فلسطين

الثالث: مشروع مسجد في الجامعة الإسلامية العالمية (سلام آباد

المبحث الثالث: سلبيات المأ في المجتمع الباكستاني، وفيه ثلاثة فروع:

الأول: تعطيل مشروع الحسبة في المحكمة العليا الباكستانية

الثاني: الانحلال الخلقي للمأ في المجتمع الباكستان

الثالث: الفهم الخاطئ في الحقوق والحريات في المجتمع

الفصل الثاني: عقبات الملة في المجتمع الباكستاني

المبحث الأول: جهل الملة

المبحث الثاني: غلوو تطرف الملة

المبحث الثالث: عصبية الملة

المبحث الرابع: استمرار الملة على المعاصي

الفصل الثالث: دور الدعوة إلى الله في معالجة الملة ، وفيه: ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص والإستقامة في طريق الدعوة إلى الله تعالى.

المبحث الثاني: المحاجة والمحاورة،

المبحث الثالث: الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى

المبحث الأول: الإستقامة في طريق الدعوة وفيه الفروع التالية:

الفرع الأول: الصبر والثبات على الدعوة إلى الله تعالى.

الفرع الثاني: التركيز على التربية الإيمانية.

الفرع الثالث: التبرؤ من الكفر وأهله.

الفرع الرابع: التأكيد على نزاهة الدعوة وتجردها.

الفرع الخامس: الاتصال بالملة بغية دعوتهم إلى الله تعالى.

الفرع السادس: الأصل في الدعوة اللين والتلطف والرحمة

المبحث الثاني: الحوار والمحااجة والمجادلة بين الأنبياء والملة. وفيه الفروع التالية:

الفرع الأول: دعوة سيدنا نوح عليه السلام وحواره مع الملة

الفرع الثاني: دعوة سيدنا هود عليه السلام وحواره مع الملة

الفرع الثالث: دعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام وحواره مع الملة

الفرع الرابع: دعوة سيدنا موسى عليه السلام وحواره مع الملة

الفرع الخامس: حوار سيدنا رسول الله ﷺ ودعوته

المبحث الثالث: الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى

الفصل الأول:

أثر الملة في المجتمع الباكستاني، وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : حكومة باكستان الإسلامية والدعوة إلى الله تعالى

من المعلوم أن جمهورية باكستان الإسلامية تعد سادس أكبر دولة من حيث عدد السكان، ويعود تاريخها لألفين وخمسة سنة قبل الميلاد، وكلمة باكستان بحسب لغة الأردو تعني الأرض الطاهرة والنقية، وكما أنه تعرف بالمركز العظيم للدعوة إلى الله تعالى في العالم وملجأ للأمة الإسلامية.

تتألف الحكومة الإسلامية الباكستانية من ثلاث سلطات من الملة: التنفيذية وتشريعية وقضائية. تتألف السلطة التنفيذية من مجلس الوزراء برئاسة رئيس الوزراء. وهي مستقلة تمامًا عن السلطة التشريعية التي تتألف من برلمان ذي مجلسين. يمثل مجلس الشيوخ الباكستاني الملة الأعلى بينما يمثل المجلس الوطني المجلس الملة الأدنى. تشكل السلطة القضائية بتشكيل المحكمة العليا الباكستانية بصفتها أعلى محكمة في الدولة، إلى جانب المحاكم العليا وغيرها من المحاكم الأدنى درجة. تتمثل وظيفة القضاء بتفسير الدستور والقوانين والأنظمة الاتحادية، وللأسف الشديد: إن هذه الأمة أمة الإسلام أهملت في جانب الإسلام وغفلت عن أداء واجبها نحو نشر الدعوة الإسلامية والسعي لتطبيق الشريعة الغراء وغيرت ما بنفسها فغير الله ما بها: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يُقَرِّمُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ¹ فتسلط أعداء الإسلام والمسلمين على بلادهم وأراضيهم وجعلوهم مقهورين مضطهدين تحت وطأة ظلمهم واعتداءاتهم البشعة بعد ما كانوا حكاما وملوكا، ملأ وساسة، وصار المسلمون في واقع من التخلف والتفرق قد أوهنتهم عوامل كثيرة مثل: العداء فيما بينهم والطمع والأثرة والمعجب وحب الذات والجاه والمنصب من الملة وغيرهم، وحب الدنيا والانغماس في الشهوات والإخلاص إلى الأرض والبخل بالأموال والأنفس وفقد الثقة بالنفس وضعف اليقين بالله وعدم الاعتماد عليه. وفي مثل هذه الظروف الحرجة تمكن الأعداء من أن يجدوا لأنفسهم في نفوس المسلمين ينفذون منها إلى أسباب قوتهم ليعملوا على توهينها وتجزئتها، وتبديد ما يستطيعون منها بكل وسيلة من وسائل القوة والخديعة والمكر والغدر.

وقد نحس لنشر الدعاية الإلحادية المادية بين المسلمين جميع القوى المعادية للإسلام والمسلمين من: العلمانية والاستشراق والتبشير، والتتصير والأفكار الاقتصادية الحديثة الإلحادية.

¹ سورة الرعد: الآية: 11

ومن البديهيات أن أهل الباطل أجمعوا على استئصال الإسلام وتنفر المسلمين واستنصروا لتحقيق أهدافهم المنكرة تلك أفراد من المنتسبين إلى الإسلام ليعلموا على تحقيق مآربهم منسترين وراء إسم الإسلام، وفي وسط معشر المسلمين، وتلاشت قوتهم وانعدمت وحدتهم ولم يعد لأمرهم قامة ولا نفوذ، وهكذا تعددت البلايا وتنوعت المحن والفتن وظهر الفساد، وقال تعالى: **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**¹

وفي هذه الظروف الحرجة التي يمر الإسلام فيها بمنعطف خطير ومفترق وهو يتلقى الضربات تلوى الأخرى من الداخل والخارج، تنبه المخلصون من العلماء والدعاة المسلمين إلى هذا الخطر الداهم، فشمروا عن مساعد الجد، وهتموا بنشر الدعوة الإسلامية وهبوا يدعون الناس إلى الاتحاد والاتفاق فيما بينهم، والاعتصام بحبل الله وكتابه المتين ويدعونهم إلى مادعاهم الله إليه حيث قال: **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...**²

وحملوا على عواتقهم اعباء مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقصدوا لنشر الدعوة الإسلامية وأحكام الدين الحنيف واختاروا لذلك رقا عيدة وأساليب متنوعة صارت بمثابة مصادر الدعوة الإسلامية.

وقد واجه العلماء والدعاة ويواجهون في انجاز أعمالهم الإسلامية والدعوية كثيرا من المشاكل وضروبا من البلاء والمحن والعنت، ويعترض طريق عدوان الطغاة والملحدين ومكرهم وغدرهم وتلفيقهم وتغييرهم المعاني الإسلامية بطريق مختلفة وبأشكال متعددة كثيرة. واليوم في مثل هذه الظروف المهلكة يجب على المسلمين في باكستان وفي العالم الإسلامي أن يعيدوا أنفسهم ماديا ومعنويا لنشر الدعوة الإسلامية ولتحقيق سيادة الإسلام وظهوره على الأديان كلها في الأرض، وعليهم أن يخططوا لنجاح الدعوة الإسلامية المباركة بصدق وأمانة وإتقان وإخلاص وقد قال تعالى: **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**³

1 سورة الروم: الآية، 41

2 سورة آل عمران: الآية، 102

3 سورة التوبة: الآية، 33

المبحث الثاني: إيجابيات الملا في المجتمع الباكستاني

1 - دور الملا في استقلال باكستان والدعوة إلى الله تعالى 1947

أصبحت راية التوحيد والدعوة إلى الله تعالى، في باكستان في 14 أغسطس من عام 1947 م دولة مستقلة من دول رابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث)، كما حصلت الهند على استقلالها في اليوم التالي لهذا التاريخ، وقد أصبح محمد علي جناح الذي يعتبر مؤسس دولة باكستان أول رئيس حكومة في باكستان. يرى الكثير من مؤيدي فكرة استقلال باكستان عن الهند أنها خلّصت المسلمين الهنود من تعصب الهندوس الأعمى وتحكمهم في رقاب المسلمين ويأتي في مقدمة هؤلاء شاعر الإسلام محمد إقبال الذي كان يحلم بإنشاء وطن للمسلمين في شبه القارة الهندية، ولكنه لم يعيش حتى يرى ما كان يتمناه ويعلم به حقيقة، إذ توفي سنة (1357 هـ = 1938 م) قبل أن تظهر دولة باكستان، لكن في المقابل نجد بعض المفكرين يرون الموضوع من جوانب أخرى فيها هو المفكر الجزائري مالك بن نبي يعتقد - في كتابه في مهب المعركة - بأن باكستان صنيعة المحتل الإنكليزي قائلاً: " إنَّ باكستان في حقيقة الأشياء، لم تكفهنك أيضاً المفكر الإسلامي مولانا أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية باكستان ولكن معارضته كانت مبنية على أسباب مختلفة حيث كان المودودي من أشد المعارضين لفكرة الدولة القومية كما أنَّ آراءه تقضي بعدم جواز التعامل معها أو لعب أي دور فيها وبناءً على ذلك كان معارضاً لحزب المؤتمر القومي الهندي لأنّه حزب قومي كما أنّه عارض قيام دولة باكستان في البداية خوفاً منه من تحوّل الهوية الإسلامية إلى هوية قومية، ولكن بعد أن صارت حقيقة واقعة عاد إلى لاهور ليعاود نشاط الجماعة الإسلامية هناك. كان تأسيس الجماعة الإسلامية في لاهور في العام 1941 م بمبادرة من عدد من علماء الهند حينها كان منهم أبو الحسن الندوي وطفيل محمد وأبو الأعلى المودودي الذي أصبح أول أمير للجماعة فيما بعد، كان تأسيس هذه الجماعة نقطة فاصلة في تاريخ الهند لأنها كانت أول من دعا إلى أسلمة المجتمع بل كانت من أشد المتحمسين لإحياء الخلافة الإسلامية، كانت أهداف الرابطة الإسلامية آنذاك منصبية على المطالبة بوطن لمسلمي الهند بينما وسّعت الجماعة الإسلامية اهتماماتها لتشمل العالم الإسلامي بأسره وبالذات قضية فلسطين التي كسبت وناضلت كثيراً من أجلها. وبانقسام شبه القارة الهندية انقسمت الجماعة الإسلامية فاختار المودودي الانتقال إلى باكستان التي كانت بنظره دولة للمسلمين وليس للإسلام، وبناءً على ذلك أصبحت أسلمة هذه الدولة وتطبيق الشريعة الإسلامية فيها الشغل الشاغل للمودودي وللجماعة الإسلامية عموماً في كل الفترات التاريخية

اللاحقة، كثرت خطب المودودي عن الحاكمية ومطالباته بإقامة النظام الإسلامي حتى قبض عليه في العام 1953 م وحُكم عليه بالإعدام وتحت ضغط الغضب الشديد من الشعب تم تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد، ثم تم إصدار حكم بالعفو عنه في العام 1955 م بعد ضغوطات كبيرة ن إلا الوسيلة التي أعدتها السياسة المعادية للإسلام التي تمتاز¹ من هنا درس عظيم لدعاة اليوم أن كبار الدعاة من الملا قد بذلوا جهودهم وأفنوا أعمارهم وتركوا لمن خلفهم آثارا ليفتدى بهم كما أن دعاة العصر في أمس حاجة إلى اختيار مناهجهم وأسلوبهم.²

2 - تضامن الملا المسلم الباكستاني مع مسلمي فلسطين

ضية فلسطين هي قضية جميع المسلمين، هي قضية تجمعت فيها كل المصائب، قضية أرتنا كل عيوبنا، ووضحت خللتنا وتناقضنا، قضية مصيرية ارتبطت بها كل القضايا.

فلسطين هي الأرض المقدسة، أرض الأنبياء الذين نحن المسلمين أحق بهم من كل من يدعي اتباعهم، فنحن أحق بموسى من اليهود المغضوب عليهم، وأحق بعيسى من النصارى الضالين.

فيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وهو مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم كما قال الله سبحانه مبينا الارتباط بين المسجدين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾³

حبا وعقيدة لمسجد الأقصى المبارك وأرض الفلسطينيين المحتلة يرمان باكستان الإسلامي يقر بالإجماع قرار الحكومة اعتبار يوم التضامن مع فلسطين واتفقت كافة الأحزاب الإسلامية والحكومة على تسيير مسيرات مليونية في كافة المقاطعات والمدن الباكستانية بعد صلاة الجمعة وبمشاركات كبيرة تأييدا لفلسطين، وفعاليات كبرى رسمية وشعبية، وستبدأ بزيارة سفارة فلسطين من قبل البرلمان والحكومة والأحزاب تأييدا وتضامنا مع فلسطين وتنديدا بالعدوان الهمجى التي تقوم به قوات الاحتلال تجاه الشعب الفلسطيني، وجددت الأحزاب مطالبتها مجلس الأمن والأمم المتحدة بتنفيذ قراراتها⁴.

¹ أنظر ويكيديا الموسوعة الحرة المشهورة عن باكستان الإسلامية، مقال بعنوان استقلال باكستان

² نفس المرجع.

³ سورة الإسراء: الآية، 1

⁴ أنظر إسلام آباد 20-5-2021 وفا- أقر البرلمان الباكستاني بالإجماع قرار الحكومة اعتبار يوم عد الجمعة "يوم التضامن مع فلسطين".

أقول: هذا التضامن والتساعد مع المستضعفين سواء كانوا في فلسطين أو في كشمير أو في سوريا وعراق وغيرها... من أسمى أهداف الدعوة إلى الله تعالى سبحانه بما تصل الأمة إلى مجدها وشأنها ولا بد أن يدرس الشباب كمادة أحوال الأمة في العصر الحاضر بمجانب مختلفة.

3 - الملأ المسلم الباكستاني وقضية الإساءة لرسول صلى الله عليه وسلم.

إن إساءة الرسول ﷺ قضية الأمة والإنسانية قدم به وأرجأ البرلمان الباكستاني الجمعة مناقشة مسألة طرد السفير الفرنسي على خلفية احتجاجات لأنصار حزب "ليك باكستان" الإسلامي المتشدد، إلى أجل غير مسمى بعدما جرت الجلسة في الفوضى، إذ اختلف النواب حول طريقة المضي قدم أرجأ الباكستاني الجمعة، ولأجل غير مسمى، مسألة طرد السفير الفرنسي على خلفية احتجاجات تحولت الأسبوع الماضي إلى اشتباكات عنيفة مع الشرطة.

وجرت جلسة الجمعية الوطنية الباكستانية الجمعة في الفوضى، إذ اختلف النواب حول طريقة المضي قدماً. وفي وقت كان البعض يهتف بشعارات مناهضة لفرنسا، رفع آخرون لافتة تدعو إلى طرد السفير الفرنسي. وأرجأ رئيس البرلمان أخيراً الجلسة لأجل غير مسمى كما شارك عشرات الآلاف في مختلف أنحاء باكستان الجمعة في احتجاجات على إعادة نشر رسوم تسخر من النبي محمد عليه السلام في مجلة شارلي إيبدو الفرنسية، وهاجموا "الموت لفرنسا" ودعوا لمقاطعة السلع الفرنسية.

وفي إندونيسيا، اعتبرت وزارة الخارجية أن ما قامت به المجلة الفرنسية عمل استفزازي يقوض التسامح في العالم.

وكتبت على إحدى اللافتات التي رفعها المحتجون عبارة تقول "قطع الرأس عقوبة المجدفين".

وأثارت الرسوم التي تسخر من النبي الغضب والاضطراب بين المسلمين في العالم عام 2005، عند نشرها للمرة الأولى في صحيفة يولاندس بوسن الدانماركية.

4 - مشروع مسجد في الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

قال رئيس مجلس الفكر الإسلامي الحكومي الباكستاني الشيخ الدكتور قبله أياز: إن قرار بناء جامع الملك سلمان في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد يعد هدية قيمة من جانب قيادة المملكة العربية السعودية للجامعة الإسلامية وللشعب الباكستاني، وقد جاء هذا المشروع ليلبي الحاجة المتزايدة في المدينة الجامعية،

حيث كان أعضاء الجامعة والطلبة يواجهون صعوبة في أداء الصلاة خاصة صلاة الجمعة نظراً لعدم وجود مسجد كبير يحوي الأعداد الكبيرة للمصلين داخل الجامعة. وأضاف أن بناء مسجد كبير بمعايير دولية سيعزز من مكانة الجامعة الإسلامية العالمية، ويعكس في الوقت ذاته حرص قيادة المملكة بالمساجد واهتمامها بالإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم¹

إن المساجد هي بيوت الله تعالى على الأرض، وهي أحب الأماكن والمواضع إليه سبحانه، فيها يذكر اسمه، وفيها يستبح بحمده، وفيها يعبد المسلمون ربهم فينصبون أقدامهم ويتراصون صفوفًا لا خلل فيها أو اعوجاج؛ فتحلّ عليهم السكنية من رب العالمين، وتحققهم الملائكة بأجنحتها، ويفاخر الله تعالى بهم ملائكته. والمساجد هي الأماكن التي يجتمع فيها المسلمون من أجل تدارس العلم الشرعي، وهي الأماكن التي كانت تجتمع فيها الوفود، وهي مقرّ لإرسال البعث وتجهيز الجيوش والزبائن، وهي الأماكن التي يبذل فيها المال ليصرف في مصارفه الشرعية على الفقراء والمساكين وغيرهم. قد أمر ديننا الإسلامي باحترام المساجد لأنها بيوت الله تعالى، فحثّ المسلمين على أخذ زيتهم عند الذهاب إليها والتطيب، كما نهى عن رفع الصوت فيها واللهو والخلاف، فهي مكان للذكر والصلاة والتسبيح.

وهذا من أعظم الخدمات من قبل الملة المسلم للجيل المستقبل إن اتفقوا وقاموا به وسيكون رمزاً للحب والإخاء الإسلامي وسبباً للتوحد بين المسلمين عاماً وسبب التآلف بأبناء الجامعة خاصاً. أسأل الله أن يوفق الجميع بما فيه خير في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: سلبيات الملأ وأثارها على المجتمع الباكستاني

1 - تعطيل مشروع الحسبة في المحكمة الباكستانية العليا

تنظر المحكمة الدستورية العليا في باكستان اليوم الاثنين في خطوة قام بها إسلاميون لطرح نظام الحسبة في الإسلام، وهو ما وصفه منتقدون بأنه نظام قضائي يشبه نظام حركة طالبان الأفغانية.

وتأتي خطوة المحكمة بعد أن أحال الرئيس برويز مشرف تلك القضية عقب مصادقة برلمان إقليم بيشاور على القانون في وقت سابق هذا الشهر كما ينص القانون على تشكيل إدارة حسبة يرأسها علماء شريعة للتعامل مع شؤون المجتمع "المعاملاتية" ويقول منتقدون إن هذه الإدارة تقتدي بمهية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي شكلتها طالبان. وكان الائتلاف الحاكم في الإقليم الحدودي الشمالي الغربي المحاذي للحدود الأفغانية، وعد في حملته الانتخابية بتطبيق أحكام الشريعة وإصلاح المجتمع عبر اعتماد نظام الحسبة لمواجهة الفساد وترسيخ قيم الفضيلة وفقاً لتعاليم الإسلام.

وسيضطر حاكم الإقليم إلى الانتظار حتى تبت المحكمة في القانون، تحديدا بشأن ما إذا كان القانون يشكل انتهاكا لدستور باكستان. والخلاف بشأن قانون الحسبة، هو أحدث حلقة في سلسلة طويلة من الصراع بين المعتدلين والمحافظين من أجل السيطرة على مستقبل باكستان.¹

أقول إن الدين لله ليس لأي بشر ولا لأي جماعة ينتمى إليها بل من حق دين الله أن ينفذ ويعلم الناس حقيقة دين الله والدعوة إليه ومافيه من الحكمة والأسرار.

2 - الانحلال العقلي وتمكين المرأة في المجتمع الباكستاني:

يقول الرئيس الباكستاني: تمكين المرأة اقتصادياً واجتماعياً وقانونياً أمر ضروري للمجتمع إسلام آباد (يونا). قال الرئيس الباكستاني الدكتور عارف علوي بأن تمكين المرأة اقتصادياً واجتماعياً وقانونياً أمر ضروري للمجتمع. وأضاف الدكتور عارف علوي في مؤتمر عقد أمس في العاصمة إسلام آباد حول حقوق النساء: "إنه لا يوجد هناك غموض في الدستور والقوانين فيما يتعلق بحقوق المرأة في باكستان."

¹ أنظر الجريدة: بعنوان قصايا وأحكام وقد نشر المقال في تاريخ: 1/8/2005

وشدد على ضرورة بذل الجهود اللازمة لضمان حقوق المرأة في الميراث والصحة والتعليم والبيئة الحالية من العنف، ودعا إلى اتخاذ الخطوات لخلق الوعي في المجتمع حول أهمية هذه الحقوق¹.

لا يكاد يمر أسبوع إلا وتشهد لباكستان حوادث انتحار أبطالها نساء. ولكثرتها، أصبحت قضايا انتحار النساء أمراً روتينياً لا يلقى الاهتمام اللازم، في ظل تدخل القوى السياسية والمحاكم. ثم يطلق المسؤولون الوعود التي تبقى حبراً على ورق.

أخيراً، تناولت وسائل الإعلام والناشطون على وسائل التواصل الاجتماعي قضية انتحار الطيبة ماها علي في مدينة كراتشي، وقضية انتحار طالبة الدكتوراه في جامعة كراتشي، نادية أشرف شودري. وتبحث الحكومة المحلية في إقليم السند، جنوبي البلاد، قضية زيادة نسبة الانتحار في منطقة نهر باركر النائية والفقيرة، إذ إن معظم اللواتي يُقدمن على الانتحار، من نساء الأقلية الهندوسية².

والذي فهمنا عن القضية هي البعد عن دين الله تعالى وعدم دعوتهم إلى الله تعالى وجهلهم عنه، وإطلاقهم دون الزمام، وتشجيعهم بحرية المطلقة وباسم المساواة بين المرأة والرجل كما أسس قانوننا جديداً عن الحقوق أن الطفل لا يضرب والده ولا يئبه ولا الزوج زوجته، فإن حدث شيئاً فيعاقب الزوج مثل أوروبا. الحفاظ والأمان

3 - الملا وأزمة المسجد الأحمر في اسلام آباد

شكل اقتحام قوات الأمن الباكستانية للمسجد الأحمر أزمة حقيقية في تاريخ باكستان نتيجة سقوط عدد كبير من القتلى، ما رفع من حدة سخط أنصار الجماعات الإسلامية وطلاب المدارس الدينية على رئيس السلطة الجنرال برويز مشرف المتحالف مع الولايات المتحدة في حربها على ما يسمى الإرهاب وتعود فصول المواجهة الدامية التي انتهت إليها أزمة "لال مسجد" - ويعني بالعربية المسجد الأحمر - في العاصمة الباكستانية إسلام آباد إلى مطلع عام 2007، عقب إعلان الحكومة الباكستانية عن خطط لهدم مساجد في العاصمة من بينها المسجد الأحمر، بدعوى بنائها بطريقة غير قانونية على أراض مملوكة للدولة³.

¹ اتحاد وكالات أنباء دول منظمة لتعاون الإسلامي الخميس 09 جمادى الأولى 1442 - 13:21 بتوقيت مكة المكرمة الموافق 2020-12-24

² العربي الجديد: المقال المنشور بعنوان: نساء ينتحرن في باكستان، صيغة الله صابر. سبتمبر 2021

³ الجزيرة: نشر المقال بعنوان: أزمة المسجد الأحمر في تاريخ: 11/4/2011

الفصل الثاني:

مشكلة الملة في المجتمع الباكستاني وفيه

من المعلوم أنَّ طبيعة الدعوة إلى الله تعالى الصحيحة ودعاة الحق، تواجه العقبات والمشكلات من الملة الجاهل والمستبد في كلِّ زمان ومكان.. أمَّا العقبات والمشكلات التي تواجهها الدعوة والدعاة في باكستان من الملة الداخلي والخارجي، داخلية كانت أو خارجية فهي كثيرة، والدعوة إلى الله كُلِّما اتَّسَعَتْ دائرة تأثيرها كَثُرَتْ بلاياها وعظُمَتْ مِحْنَتُهَا ومصائبُها بسببِ أشكا من الأذى مِنْ كدر الاختلاقات وضبابية التشكيكات والشبهات، التي تحجب النظر إلى الحق في حق ضعف البصر والبصيرة، والتي من ورائها قوة تواجه الدعوة إلى الله تعالى، ويعلنون عداوتهم، وهُمْ - في الغالب - يتمتعون من القياد، ويريدون العلو والفساد في أرض الله تعالى، وكذا جملة تابعيهم ممن آثروا الأسفل الأدنى على أصحاب الجاه والشرف الأعلى، وأخلدوا في الأرض والتبعوا أهواءهم، سواء ممن كان لهم جاه أو منصب يريدون بها السيطرة والتسلط على الناس، أو لهم دين ومذهب وفكر يريدون به العُلُو والتكبر والاستبداد على الناس ومحسبون أنهم يحسنون صنعا

وأصحاب هذه المواصفات أيا كانوا قديما وحديثا، يعتهم القرآن الكريم بها، ويُطْلَق عليهم تسمية: «الملة» توضيحا لما يمر لا لأنهم يستحقون السيادة والشرف والجاه، وقد كان أصحاب هذه النعوت العالية - مِنْ قَبْلُ - الافتراء والكذب والتضليل على الدعاة و على أنبياء الله الكرام، وفي العصر الحاضر نرى نفس النعوت في المجتمعات المسلمة منها المجتمع الباكستاني مع كونه مركزا ومرجعا للأمة الإسلامية، يرمون بعضهم بعضا ما لا يليق بشأن المؤمن والمسلم بل لا يستحق للإنسان أن يقول ما لا يليق بشأن إنسان ويحتقره¹.

وقد جاء التعبير القرآني يبيِّن - بوضوح - ما مَضَتْ عليه سُنَّة الله في عبادته فقال تعالى عنهم:

"وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ² وَقَالَ تَعَالَى: وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ³."

(1) الأمثلة كثيرة، كرمي العلماء و السياسيين والمذهبيين والدعاة إلى الله، بكلمات شنيعة غير، كلمات الكفر والارتداد، والفسق والفجور والسب والشتن ومازالت المضاربة مستمرة.

(2) سورة السباء: الآية، 34

(3) سورة ص: الآية، 4

وغيرها من الآيات . وهي كثيرةٌ تُجَلِّى توارث هذه الشنشة بين أهل الباطل منذ القديم إلى اليوم وقصدهم إثارة الشبهات واحتقار الدين الإسلام، وبذر الارتباك في صدق الرسول، وصحة رسالته، وأحقية ما يدعوا إلى دين الإسلام، ونزاهة أتباعهم وسلامة غاياتهم، فيشبه الأمر على الناس، مما ينتج عنه حجبه عن الرؤية الصحيحة للحق ويؤدى إلى منعهم من الاستجابة، أو تأخير تلك الاستجابة.

والمراد بإثارة الشبهات نشرها وتزيينها وإشاعتها بين الناس، والعمل على تكرارها على المسامع والأذان، لتأخذ طريقها إلى القلوب والأذهان، فيتأثر بها ويألفها من استقبلها وصدقها وارتضاها، ويحصل له بها الالتباس والاشتباه في قضايا الدعوة، ومن ثم تصبح تلك الشبهات والاتهامات لدى هؤلاء حقائق يأخذون هم أيضا في ترديدتها، وتبنيها، والدفاع عنها، واتخاذ الموقف السلبي من الدعوة على أساسها.

والهدف الأصلي العام لدى هؤلاء هو صد الناس عن دين الإسلام والدعوة إلى الله تعالى، والقضاء على دعوته سبحانه، وما تتضمنه من الهدى والحق القائم على توحيد الله ﷻ كما يقول عز وجل:

"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ¹... وفي موضع آخر من القرآن الكريم: يقول الله سبحانه وتعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ".²

من عادات الأعداء للوطن المسلم والإسلام وجهودهم المتواصلة أنهم يودون ويدعون الناس إلى الكفر والارتداد حسدا من عند أنفسهم مع أنهم يعرفون الحق والإسلام كما يعرفون أبناءهم، كما عبر الله بلسان حالهم: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ³... وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ".⁴

(1) سورة الصف: الآية، 8

(2) سورة لأنعام: الآية، 112

(3) سورة البقرة: الآية 109

(4) سورة العمران: الآية، 69.

"يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ"¹.

هذا هو دأب الأعداء المستبدين من الملأ المتقدمين والمتأخرين مع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ومع الدعوة المخلصين يريدون أن يطفئوا الإسلام بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره، الإسلام يعلو ولا يعلى عليه.

ومن هنا عرفنا أن للعقبات أنواع مختلفة، تتجدد يوماً بعد يوم من أول صباح البشرية إلى آخرها، وفي العصر الحاضر تواجه المشكلات الدعوية إلى الله تعالى وهي في المباحث التالية:

(1) سورة التوبة: الآية 32.

المبحث الأول: الجهل

إن القرآن الكريم هو الشفاء وعمدة الملة، وكلية الشريعة الإسلامية، وينبوع الحكمة، ولا طريق إلى الله - عزوجل - سواه ولا نجاة لأحد بغيره. وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه، لأنه معلو من دين الأمة بالضرورة وإذا كان كذلك لزم من رام الاطلاع على كليات الإسلامية ومقاصدها الدعوية أن يتخذة أنيسه على مر الليالي والأيام، حتى يمكن الاستفادة من الكتاب الكريم، وإليه أشار سبحانه وتعالى: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"¹

إن أول آية نزلت في القرآن الكريم الخالد: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"²

وفي آية أخرى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"³ لم يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه عليه السلام بالاستزادة من شيء إلا من العلم.

وقد بين السلف والعلماء والدعاة المخلصين وأصحاب الفكرة النيرة عن الأحوال الأمم في العصر الحاضر وقبله بعض أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم، كما بينوا أيضًا وسائل العلاج الناجع، ونتائجه وعاقبته إذا أحسن استعمال الدواء بصدق وإخلاص، وترجع أسباب الضعف التأخر وتسلط الملأ والأعداء ترجع إلى سبب واحد نشأت عنه أسباب ترجع إلى سبب واحد هو الجهل بالله وبدينه القويم، وبالعواقب الذي استولى على الأكثرين، وصار العلم قليلًا، والجهل غالبًا، وعن هذا الجهل نشأت أسباب وعوامل وآثار ونتائج سيئة منها: حب الدنيا وكراهية الموت، واتباع الشهوات، وعد الاهتمام بالدعوة إلى الله تعالى، فمن هذه الأسباب الخطيرة وثمراتها وموجباتها حصل ما حصل من الضعف بين المسلمين وأمام الأعداء، والتأخر في كل شيء إلا ما شاء الله، والآيات كلها تدل على خيب الجهل وخيب عواقبه ونهائيه وما يترتب عليه، فالقرآن الكريم مملوء من التنديد بالجهل وأهله والتحذير منه كما قال عزوجل: "...وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ"⁴ فعن الجهل بالله والجهل بدينه والجهل بما يجب ضد العدو من الإعداد والاتحاد والتعاون عن الجهل نشأت هذه الأشياء التي

(1) سورة النساء: الآية، 81.

(2) سور العلق: الآية 1-5.

(3) سورة طه: الآية 114.

(4) سورة الأنعام: الآية 111.

سمعت سابقاً من فرقة واختلاف وإقبال على الشهوات وإضاعة لما أوجب الله وعدم إثبات للآخرة وعدم الالتفات إليها وقد نبه الله سبحانه وتعالى: "كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ"¹

وكما في قوله جل وعلا: "فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى"² عن الجهل نشأت هذه العوامل الخبيثة و الشهوات وإضاعة الواجبات والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن من علامات الخير والسعادة للعبد وللدولة وللشعب أن يفقه في الدين ويتعلم ويعلم، فإن العلم يدعو إلى العمل، العلم النافع الحقيقي الصحيح يدعو أهله إلى العمل والتكاتف والتناصح والتعاون على الخير، ويعطيهم أيضاً الحرص الكامل على أداء الفرائض، وحاجات المدعوين، والبعد عن المحارم، والشوق إلى الآخرة.

والباحث يقول: إن لكل أمة مجتهاتها ومتخلفوها سواء كانوا من العوام أو من الخواص من الملأ والأفراد... ونسبتهم إلى أهل العلم في أي مجتمع من المجتمعات عالية جداً مهما كان تصنيف هذا المجتمع وترتيبه، لذا تركز الدول في هذا العصر وكذلك المجتمع الباكستاني إلى تقليل هذه النسبة وانتشال هؤلاء من هذا المستنقع المميت، فتنشأ وتعد لهم الجامعات والمعاهد والمدارس ودور العلم...، لأن الأمة الجاهلة لا يعاب لها بين الأمم.. بل يصنفها العلماء تصنيفاً في ذيل الأمم، وكل هذه تعود إلى كبار القوم من الملأ وأصحاب الجاه والمكانة.

والجاهل هالك، لأنه لا يضع الشيء في محله، وكثيراً ما تصدر منه حماقة، وسوء التصرف، والحماقة لا يتولد منها إلا العداوة والضعف وسرعة الغضب وسوء السلوك، وأنه لا يعالج الأمور بالتأني والروية والحكمة والصبر، وإنما يسعى إلى التغيير بحماقته ولكنه سرعان ما يقع في الخطأ والتردي والسقوط، فيؤذي نفسه ويؤذي غيره.

فتحذير الأنبياء من مغبة الجهل من أكد ما جاءوا به إلى أقوامهم، وقد بين القرآن الكريم في كثير من المواضع كسورة الشعراء وغيرها من السور أقوال الأنبياء لأقوامهم، ثم ختمت الرسالات بالنبى محمد ﷺ الذي بين لأمته أن طلب العلم مطلوب من المهدي إلى اللحد.

(1) سورة القيامة: الآية 20-21

(2) سورة النازعات: الآية 37-41

ومعلوم لدى كل مسلم أن أول ما نزل من القرآن على المختار ﷺ قول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾¹ ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الإسلام يحث المسلمين على طلب القراءة والتعلم والتربية والبحث، لأجل الوصول إلى كل ما هو نافع، وهذا من أهم ما يسعى إليه ديننا الحنيف، فليحرص كل مسلم على ذلك، بل إن من واجب أهل العلم والدعوة الأخذ على أيدي الجهلة والأُميين في التعلم وطلب القراءة والكتابة، وانتشالهم من مهاوى الجهل والتخلف.

وذهاب العلم وانتشار الجهل في الأمة كما أخبر رسول الله ﷺ لا يكون إلا بموت العلماء، فيضطر الناس إلى أن يتخذوا رؤوساً جهالاً لسؤالهم وطلب الفتيا منهم، فيفتونهم بغير علم فيكون سبباً في ضلالهم، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً أخذ الناس رؤوساً جهالاً، فاستلوا، فأقتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"²

من هنا عرفنا أن للجهل آثار سلبية على الفرد والمجتمع والدعوة إلى الله ونبه عنها بتنبهات عديدة منها:

أولاً: أثر عدم العمل بالعلم: ولقد ذم الله سبحانه علماء السوء الذين يقولون ما لا يعملون فقال سبحانه وتعالى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"³

لذلك كان الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومن اتبع خطاهم حريصين على العمل الذي علموه يخافون من السؤال يوم القيامة وعن مسؤوليتهم أمام الله سبحانه وتعالى كما أن مخالفة عمل العالم لقوله الذي يدعو إليه قد يصد الناس عن دين الله تعالى خاصة إذا كان عمله ظاهراً لهم، ثم إنه قد يوقعهم في الفتنة من حيث هو عالم فيقتدي بعمله الناس قد يتلبس عليهم من عمله ما هو صحيح موافق للحق بما هو باطل، ويمثل الله الذين يعلمون ولا يعملون مثال الحمار: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا"⁴...

(1) سورة العلق: الآية 1.

(2) رواه البخاري في كتاب العلم

(3) سورة البقرة: 44

(4) سورة الجمعة: الآية 6

ثانياً: أثر عدم فهم الدليل ووضعه في غير موضعه: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ" ¹...

سيدنا إبراهيم يأتي بدليل قاطع في الآية والباطل يحاول أن لا يفهم ويأتي بدليل لاعلاقة له بالعقل ولا بالنقل. فالداعية دائماً يختار الأدلة من جهات مختلفة ليكون للمدعو نموذجاً له وللآخرين كسيدنا إبراهيم علي نبينا عليه السلام.

ثالثاً: أثر المنازعة في المسائل العشوائية: يظن المسلم أنه بقرائه للقرآن قد استكمل العلم فيذهب للمنازعة والمجادلة وإنكار ما يجمله ولقد جربنا في مجتمعنا مراراً في أكثر من مواضع أن عديداً من المتخرجين شهرياً بعد قيام الدورة لشهر الله الحرام يقومون بتفسير القرآن الكريم يضربون بآيات الله بعضهم بعضاً وهذا جهل ليس فوقه جهل يقول تعالى معالجا:

... "وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" ². لذلك أرشدنا رسول الله ﷺ إلى ما يفعله المسلم عند الجهل ببعض العلم فقال: ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه، ولم يقل نازعوا فيه أو اعملوا برأيكم أو ردوا ما جهلتم.

رابعاً: أثر إنكار الإنسان ما يجمله: خاصة إذا كان حديثه مع المخالف فيقع منه المراءى والثروة والتكذيب ببعض الحق ومن الجهل أن يرد بعض الحق الذي يكون مع مخالفه إذا كان مختلطاً بالباطل فيؤدي هذا الرد إلى الاختلاف والنزاع.

خامساً: أثر الاهتمام بالعلوم الدنيوية التي يتحصل المسلم بها على وظيفة ودخل ويكون انشغاله على حساب تعلمه أمور دينه الأساسية فكثيراً ما نجد من المسلمين من بلغ مراتب عالية في العلوم الدنيوية ولكنه قليل العلم في أمور دينه حتى لا يكاد يفرق بين أركان الصلاة وواجباتها فضلاً عن مستحباتها فيكون بذلك لقمة سائغة وبيعة خصبة لتقبل البدع ونشرها إذ لا حصانة لديه من العلم الشرعي الصحيح.

(1) سورة البقرة: الآية 258

(2) سورة الحشر: الآية 7

لهذا يجب على المربين من الأساتذة الحرص على تزويد التربية والمناهج الدراسية الدعوية الكفيلة بتزويد المسلم كفايته وحاجته مع تعليمهم العلوم الدنيوية فلا تعارض البتة بين هذين الأمرين⁽⁴⁴⁾.

سادسا: أثر تجزئة الشريعة والأخذ ببعض النصوص ورفض بعضه: ينبغي للمسلم الداعي أن يتنبه إلى قصد أعداء الدين الموجهة للمسلمين من محاولتهم وجهودهم الباذلة، تجزئة الشريعة الإسلامية والحد من العمل بها وتعطيل بعض أحكامها لإضعاف المجتمع المسلم ومحاولتهم الدائمة لتشكيك الناس في النصوص القرآنية و السنة النبوية يقولون بخارية الإسلام وإضعاف المسلمين والسيطرة عليهم

سابعا: أثر الجهل على التربية: ولقد مدح الله سبحانه وتعالى العلم والعمل ورغب البشرية أن يقرأ ويعلموا ويتربوا بتربية إسلامية ويتخلقوا بأخلاق حسنة، كما ذم الجهل في كثير من المواضع لأن بذرة الجهل سواء كان من الوالدين أو من الأساتذة أو أي مرب، لا تأتي إلا بجاهل، الأستاذ الجاهل لا يربي إلا تربية الجهالة، والعالم المربي لا يأتي إلا بطالب عالم مرب يربي الأجيال المستقبلية، ويقاوم الأعداء مثل سلفنا الصالح.

ولم يقتصر أعداء الله ورسوله، من نشر الجهل الذميمة بالدين الإسلامي وتعزيز وجوده بل عمدوا أيضا إلى محاولة تجهيل المسلمين بلغة دينهم لغة القرآن الكريم: " اللغة العربية" والجهل بها يؤدي إلى سوء فهم نصوص الشريعة ومن ثم تعدد الآراء وتفرقها هو الجهل باللغة العربية لذا عد تعلم اللغة العربية من العلوم الواجب على المجتهد والعلماء والدعاة معرفتها بقدر ما يستطيع

يقول الباحث: علمنا من الآيات القرآنية المباركة والتاريخ البشرية أن الجهل داء عظيم، داء يمتد بالقلوب، ويمتد بالشعور، ويضعف الأبدان والقوى، ويجعل أهله أشباه الأنعام لا يهمهم إلا الشهوات شهوات الفروج وشهوات البطون، وما زاد على ذلك فهو تابع له من شهوات المساكن وشهوات الملابس إلى غير ذلك، قد ضعف قلبه وضعف شعوره وقلت بصيرته فليس وراء شهوته وحاجته العاجلة ليس وراءها شيء يطمح إليه ولا يريده وينظر إليه. وقد ذم الله عز وجل في القرآن الكريم: "كَمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَغْنَىٰ لَّهَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"¹

نص قرآني يوضح حقيقة الجهالة ماضيا ومستقبلا، ويمثل كل من لا يعقل ولا يستفيد من الدعوة إلى الله تعالى، بالأنعام لكون أعمالهم مثل الجهال مرة، مع كون الأعضاء سليمة ظاهرة، مرضى باطنة روحيا، لاتعمى

الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وبالكلب مرة أخرى، ولذلك سمي أبوجهل لجهالته عن الدين وعن الرسالة السماوية وعناده بالرسول ﷺ.

أقول: إن الجهل أعظم مصيبة من المصائب وآفة كبيرة من الآفات في الفرد والمجتمعات، فإذا حلّ الجهل في أمة من الأمم، لا يكون مصيرها إلاّ الهلاك والوبار والقتل وسفك الدماء، لأنها لا تستطيع على شيء، وعندما لا تستطيع على شيء، فإنها ستكون عرضة دائماً وأبداً لبغي الأعداء، كما أن ضرر الجاهل أشد وأنكى على خاصة الناس وعامتهم، وقد قيل: "عداوة العاقل أقل ضرراً من مودة الجاهل"، لماذا؟ لأن الجاهل الأحق ربما ضر وهو يقدر أن ينفع، والعاقل الواعي لا يتجاوز عن الحد في مضرتة، فمضرتة لها حد يقف عليه العقل، ومضرة الجاهل ليست بذات الحد، والمحدود أقل ضرراً ما هو غير المحدود، وهكذا الحقيقة.

المبحث الثاني: الغلو والتطرف في المجتمع الباكستاني

وقد نعلم أن الغلو في الدين قضية على هذه الأرض قدم الأديان. أبتلى به كثير من البشرية، إما بدافع الحرص على تحقيق العبودية الخالصة لله الواحد؛ فيندبهم حرصهم عن الطريق المستقيم المرضي. وإما بسبب التقليد الأعمى للأشياخ الضالين عن الصراط الإلهي السوي؛ أصحاب الأهواء والمصالح الدنيوية، الذين استغلوا جهل العامة وأشباههم بدينهم، وبعدهم عن تعاليمه، كما استغلوا ثقة هؤلاء فيهم باعتبارهم قائمين على شرع الله، أمناء على تبليغه - في ظنهم - فأساءوا القوامة، وخانوا الأمانة في الدعوة والتبليغ لدين الله تعالى، وزينوا لأتباعهم أباطيل زعموها من الدين، والدين منها براء، فصدق في الأتباع قول الله سبحانه: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ..."¹

دون أن ندخل في التفصيل اللغوي نأخذ مفهوم الغلو والتطرف بصورة عامة، "فالغلو في الدين غُلُوًّا من باب قعد وتصلب وتطرف وتشدد حتى جاوز الحد وفي التنزيل: لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ² وغالى في أمره مغالاة بالغ 3 اهـ."

"وقال ابن فارس في المعجم: غلوى: الغين واللام المعتل أصل صحيح في الأمر يدل على ارتفاع ومجاورة قدر، يُقال: غلا السعر يغلو غلاً وذلك ارتفاعه، وغلا الرجل في الأمر غُلُوًّا إذا جاوز حدّه اهـ. وكذا نحوه في المجمل"⁴.

فمما سبق يتبين أن الغلو في سائر استعمالاته يدل على الارتفاع والزيادة ومجاورة الأصل الطبيعي أو الحد المعتاد.

ومنه قول النبي ﷺ في حديث أبي ذر: "أي الرقاب أفضل قال: أغلاها ثمنًا وأنفعها عند أهلها"⁵ متفق عليه.

(1) سورة التوبة: الآية، 31

(2) جزء من آيتي النساء 171 والمائدة 77.

((3)) كلهم في مادة غلا.

((4)) في المجمل مادة غلا والمعجم مادة غلوى.

(5) رواه البخاري في كتاب العتق - باب أي الرقاب أفضل، ورواه مسلم في كتاب الإيمان - باب كون الإيمان بالله أفضل

الأعمال رقم 84.

وحديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلي منه دماغه كما يغلي المرحل" 1 متفق عليه.

هو: الزيادة ومجاوزة الحد الشرعي الواجب.

قال تعالى: "لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ" 2

وقال سبحانه: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" 3

وقال سبحانه في آيات عديدة جاءت في النهي عن الطغيان وهو غلو في الغي كما قال تعالى في آخر سورة طه لبني إسرائيل: "وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي" 4، وقوله عن فرعون وملكه في غير ما آية: "اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ" 5، وقال عن الخاسر صاحب الجحيم: "فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)" 6، وقال في آخر سورة هود: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" 7

* وما ورد في السنة أيضاً: ما رواه أحمد بإسناده عن عبد الرحمن بن شبل قال سمعت رسول الله صلى الله وسلم، يقول: "اقرأوا القرآن ولا تغلوا فيه ، ولا تحفوا عنه ، ولا تأكلوا به...8"

وفي حديث ابن عباس قال: "قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: القبط لي حصي ، فلقطت له سبع حصيات من حصي القذف ، فجعل ينفذهن في كفه ويقول: "

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق . باب صفة الجنة والنار ، ومسلم في كتاب الإيمان . باب أهون أهل النار عذاباً رقم

213

(2) سورة النساء الآية: 171

(3) سورة المائدة: الآية 77

(4) سورة طه: الآية، 81

(5) سورة النازعات الآية: 17

(6) سورة النازعات: الآية، 37 ، 38

(7) سورة هود: الآية 112.

(8) الفتح الرباني " 28/18.

"أمثال هؤلاء فارموا ، ثم قال: يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين¹."

والتطرف قريب المعنى إلى الغلو هو الوقوف في الطرف، بعيداً عن الوسط، وأصله في الحسيات، ثم انتقل إلى المعنويات، كالتطرف في الدين أو الفكر أو السياسة أو السلوك. ومعلوم أن الإسلام دين الوسطية "وَكُنْ لَكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ"²

والمقصود بالوسطية هو التزام العدل والحق، وليس اختيار أوسط الأمور دوماً، فهذا قد يصبح تفريطاً. أما الغلو، فهو المصطلح الشرعي الذي جاءت به النصوص. ويقصد به تجاوز الحد والحق في الشريعة، قال تعالى "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ"³ وفي السنة، ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين".

وللغلو أسماء أخرى وردت في النصوص الشرعية، مثل التنطع والتشدد. ويقابل الغلو الجفاء والتساهل. والغلو في الدين يقع في كل جوانبه؛ العقدي والفكري والعبادية والسلوكية.

ومما تتعلق من الأسباب للغلو: الجهل بكتاب الله وسنة رسوله، والجهل بالسنن الربانية وبمنهج السلف الصالح ومقاصد الشريعة، والجهل بمراتب الأحكام ومراتب الناس، والجهل باللغة العربية والتاريخ، والجهل عن أحوال الناس وما يدور حولهم.

الخلاصة: الغلو والتطرف في الدين من الآفات ونتيجة الجهل، التي تظهر في المجتمعات والأفراد بصورة وملامح مختلفة، فهو من أخطر الظواهر الدينية التي نشأت في الساحة الإسلامية والبشرية قديماً وحديثاً، لاسيما في أوساط بعض الأفراد من العامة والخاصة، لهذا كان من الضروري الكتابة والاهتمام به، كما أن المرض المستمر يهلك المريض هكذا الغلو والتطرف يهلك الفرد والمجتمع، وبالاخص يوصل تأثيره على أصحاب الدعوة إلى، على الدعاة أن يكونوا في وعى وفكر لوقاية الأمة وحمايتها.

وياحبذا لو علم الدعاة عن آثاره السلبية على الأمة الإسلامية والإنسانية لما توقف من الدعوة إلى الله.

(1) . رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وغيرهم

(2) سورة البقرة: الآية، 143.

(3) سورة المائدة: الآية، 77.

المبحث الثالث: العصبية المذهبية للملأ

قبل البدء في الكلام حول الموضوع، وما يتعلق به لابد من مفهوم العصبية وتوضيح ذلك كالتالي: تعريف العصبية لغة⁽¹⁾: مشتقة من العصب (ع، ص، ب) وهو: الطي، والشد، وعصب الشيء يعصبه عصباً: طواه ولواه، وقيل: شده، والتعصب: المحاماة والمدافعة.

والعصبية: الأقارب من جهة الأب، وعصبه الرجل: أولياؤه الذكور من ورثته، سموا عصبه لأنهم عصبوا بنسبه، أي: أحاطوا به، فالأب طرف، والابن طرف، والعم جانب، والأخ جانب، والجمع عصبات، والعرب تسمى قرابات الرجل: أطرافه، ولما أحاطت به هذه القرابات، وعصبت بنفسه سموا عصبه، وكل استدار بشيء فقد عصب به.

والعصبية (بضم الفاء وسكون العين) والعصابة بكسر الفاء وفتح العين: الجماعة؛ ومنه قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ..."² وقال أيضاً: مَنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ³ وفي حديث النبي -ﷺ-: "اللهم إِنْ تَهْلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض".⁽⁴⁾

وعصيب: بفتح الفاء وكسر العين... شديد؛ ومنه قوله تعالى: وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ⁽⁵⁾

العصبية في الاصطلاح:

روى أبو داود، وابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: "قلت يا رسول الله ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم".⁽⁶⁾

(1) انظر: مادة (ع، ص، ب) في المعجم الوسيط، ص: 603، 504، وتحذيب اللغة للأزهري (45-51) والصحاح للجوهري (182/1-183)، ولسان العرب لابن منظور ج4 ص2964-2966، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ص: 148، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي (964).

2 النور: 11.

(3) يوسف: 13.

(4) صحيح مسلم رقم (1763) من حديث عمر رضي الله عنه.

(5) هود: 77.

(6) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب العصبية، حديث رقم (5119) وسنن ابن ماجه، باب العصبية رقم الحديث (3949).

وهناك من الباحثين من فسرها بأنها " رابطة الدم " أو تكاتف اجتماعي " أو " تضامن قبلي " أو " تضامن سياسي " إلى غير ذلك من تعريفات وتفسيرات للعصبية؛ تدور في مجملها حول معنيين رئيسين " الاجتماع " و"النصرة" فهما يمثلان في صلب العصبية ومع أن العلماء والكتاب قد ذكروا للعصبية تعريفات متنوعة، إلا أن لا تخرج في مجملها عن هذين المعنيين، سواء كان ذلك الاجتماع والتناصر حقاً أم باطلاً.⁽¹⁾

وعرف بعض العلماء العصبية: إنها " التفكير السيئ عن الآخرين دون وجود دلائل كافية.⁽²⁾

وعرف العصبية بالمعنى العام بأنها: " شيمة من شيم الضعف وخلة من خلل الجهل يتلى الجهل يتلى بها الإنسان فتعشى بصره، وتغشى على عقله فلا حسناً إلا ما حسن في رأيه، ولا صواباً إلا ما ذهب إليه أو من تعصب له.⁽³⁾

ومما أعجبني من هذه التعريفات هو الأول فإنه جامع وشامل في مجمل هذين المعنيين، ولذا قدمته على التعريفات الأخرى التي ذكرناها.

تعريف التعصب المذهبي: من ذهب " المذهب " وهو في اللغة: هو محل الذهاب وزمانه والحدث (أي المصدر) قال المناوي في التوقيف: ثم استعمل فيما يصار إليه من الأحكام.

وفي الإصطلاح: ذكر الدسوقي في حاشيته على الشرح الكبير: أن مذهب مالك عبارة عما ذهب إليه من الأحكام الإجتهدية التي بذل وسعه في تحصيلها.

وقيل: المذهب لغة: الطريق، ومكان الذهاب، ثم صار عند الفقهاء حقيقة عرفية فيما ذهب إليه إمام من الأئمة من الأحكام الإجتهدية، فمذهب مالك إذن هو: مجموعة من الأقوال والأحكام الفقهية الإجتهدية التي رويت عنه.⁽⁴⁾

(1) العصبية القبلية، د/ خالد عبد الرحمن ص 25-27

(2) الإنجماوات التعصبية د/ معز سيد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1409، ص: 49

(3) أسباب إختلاف المسلمين وتفرقهم، محمد طارق عبدالحليم، دار الأرقم للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الثامنة،

1406 هـ ص:

(4) معجم الوسيط

إن التعصب المذهبي بمعنى الخاص وهو: أن تجعل ما يصدر عن الإمام المتبع من الرأي، ويروى له من الإجتهد حجة عليك، وعلى سائر العباد... فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعا لا متشرعا، ومكلفا لا مكلفا.⁽¹⁾

يرى الباحث أن ظهور العصبية المذهبية من الأساتذة وعلى طلبة العلم آثار لأساتذتهم ومعلميهم فإن الأستاذ المتعصب لا يأتي إلا بالطالب المتعصب، الطالب سرأساتذته كما وجدنا عكف المقلدون الذين جاءوا بعد الأئمة على دراسة مذاهبهم ونشرها فقط بدلا من السير على منهاجها، والاجتهاد كما اجتهد السابقون، حيث كان الخلاف بين طلبة العلم من المتعصبين للمذاهب الفقهية مقصودا لذاته، ولم يكن الهدف منه كشف الحق وإجلاء الحقيقة كما فعل الأئمة المجتهدون حيث إذا وقف أحدهم على صحيح من الكتاب والسنة يدع رأيه ويتحول إلى الصواب في هذه المسألة وكان شعارهم إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا رأيت في كتاب الله وسنة رسوله خلافا ما أقول فاضربوا به عرض الحائط وخذوا بكتاب الله ورسوله.⁽²⁾

ولهذا فرق بعض الفقهاء بين الخلاف ولاختلاف، فالخلاف يكون فيما هو مذموم ويؤدي إلى النزاع والمشاحنة، أما الاختلاف فهو محمود، ويعد رحمة للناس لتيسر الأمور عليهم⁽³⁾

وبالجملة فإن الاختلاف الفقهي شجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها متعددة، تمتد أصوله البحر الزاخر من أصول التشريع من النصوص وما أخذ منها من القواعد التي عرفت فيما بعد بطرائق الأئمة في الاستنباط، وكيفية تخرج الفروع الفقهية على أصولها، من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى عصر الأئمة وإلى كل العصور ولهذا كان الاجتهاد (بذل الوسع في استنباط الحكم الشرعي من الأدلة التفصيلية).⁽⁴⁾

وقد أدى التعصب المذهبي الذي ساد إلى التباغض والتفرق والعداوة لدرجة أن الواحد فيهم كان لا يصلي خلف من يخالفه في المذهب في، وكان الحنفي لا يتزوج بالشافعية، والشافعية لا تتزوج الحنفي، وقد طالب

(1) مقدمة في أسباب إختلاف المسلمين وتفرقهم (لعبده) ص: 82

(2) انظر: المدخل الفقهي العام، ج 1، ص 177.

(3) انظر مناهج الاجتهاد في الإسلام، د. محمد سلام جامعة الكويت ط 1، 1393 هـ، 1973 م

(4) الموافقات ج 4 ص 47، للإمام الشاطبي دار الفكر.

بعض المتعصبين في نهاية القرن الثالث عشر الهجري إلى تقسيم المساجد بين الحنفية والشافعية لشدة الخلاف والتعصب المذهبي في ذلك الوقت.¹

حيث يظهر الفتاوى من كل فريق من المتعصبين لمذاهبهم يصدر فتاوى منكراً ضد المذاهب الأخرى ما أنزل الله من سلطان ن وليس لها أصل في الدين.²

ونحن في زمن تشدد العصبية المذهبية يوماً بعد يوم، ونجد في السياسة والأفكار والثقافة حتى في التأليفات اكتشفنا بعض عبارات يستحى القلم عن التسجيل، فأصبحت الأمة الإسلامية أمام العالم لعبة.

أنواع التعصب، وخصائص المتعصب: إن تعصب بوصفه مغالاة وأحادية في التعاطي مع بيئة المتعصب ومحيطه، يتحول إلى كونه مرضاً يعيق النمو النفسي للإنسان فيثير اضطراباً كلياً عنده بخاصة في طابع إدارة العلاقات مع الآخر. وهنا يترسخ الاتجاه السلبي المتضمن نظرة عدائية تجاه الجماعة الإنسانية ووجودها وحقوقها.. إن الاحتقان والعدائية والاضطراب العام في المشاعر التي تسيطر على المتعصب هي التي تخلق أرضية التفكير غير المنطقي وحال العناد أو الجمود في مواقفه، وكذلك تخلق أرضية الإفراط في التعميم وتحويل النسبي إلى المطلق، واستسهال ممارسة الظلم وتبريره، وسطوة الصيغ النمطية الأحادية في التعاملات، كما بحالات التعامل مع فئة أو مجموعة دينية أو قومية فيؤخذ الكل بجزء الجزء حيث صراع التعصب والكراهية ينتشر بين المجموعات ولا يظل حصراً بأفراد

كما أن للتعصب ظاهرة جذورها وحالات تظهرها في تاريخ البشرية. وقد ارتبطت الظاهرة بمفاهيم كالتمييز العنصري والقومي والديني والطائفي والجنسي ولعل كثيراً من الحروب والصراعات في تاريخنا نجمت عن واحد من أشكال التعصب للدين أو القومية أو غيرها؛ وما زالت هذه الظاهرة تحتر تأثيراتها الخطيرة لتشكيل آفة تنخر في وجودنا الإنساني وعلاقاتنا.

فنتيجة للتعصب تنبذ أماننا ظواهر التمييز من مثل حالات: إحياء التطرف والتعصب، والغلو والاستبداد كما تفعل أمريكا وأعوانه مع الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها بصورة عامة، وفي فلسطين و أفغانستان وكشمير وبورما وسوريا بشكل خاص، وباكستان في هدفها.

(1) مدخل إلى الفقه الإسلامي ص 103، منشورات جامعة القدس المفتوحة 1996.

(2) المرجع السابق، ص 104.

إنّ هذا يحيلنا إلى قراءة أنواع التعصب كي يسهل علينا الانتقال إلى المعالجات التي سنقترحها. فهناك أشكال وألوان من التمييز والعنصرية المستمدة من التعصب مثلما التعصب الجنسي، الجيلي أو العمري، الديني، وهناك تعصب يقوم على التمييز أو الرهاب المثلي أو القديري أو الشكلي كالحجمي والطولي والعمرى المنسحب من التقدم بالعمر والتخوي وأية حالات أخرى معروفة أو قد تستجد فالأسباب مفتوحة للتمييز واختلاق أوهام التعصب. ولعلّ أبرز حالات التعصب وعنصريته البارزة في الميدان الإنساني بعامة والعراقي بخاصة هي الأشكال والحالات الآتية:

التعصب الحزبي/أو الطائفي:

نعم إن العنصرية المذمومة الحزبية بدأت من الشيطان كما أشار إليه القرآن الكريم: "اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ..."¹

من الآيات الكريمة عرفنا أن التعصب أساساً على قسمين: 1- التعصب الديني الإلهي المحمود، 2- التعصب الشيطاني المذموم، فالأصل أن الإنسانية نظرت إلى جوهر الديانات والمذاهب من بوابة قيم التسامح والتعايش إلا أن الإكراه فيها وحالات العداء والصراع مع الآخر يعود لخطاب التعصب القائم على منطق التشدد والتطرف ومركزية الأنانية التي تلغي الآخر وتأتي بالتكبر والغطرسة وهنا تتخلق حالات التخندق والعداء وصراعاتهما. وإليه أشار سبحانه وتعالى:...

"قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ"² إن عرض رؤى دين أو مذهب ليست مجد ذاتها مشكلة تستدعي الصراع عندما توضع بصيغة حوار مع الآخر ولكنها تتحول إلى (غطاء) للتستر على دافع سياسي أو ثقافي مرضي

متخفٍ لغاية بعينها.

التعصب الفكري:

وهو الانغلاق على تفكير أحادي يزدري الرأي الآخر ويفرض الاعتراف بصاحبه أو القبول بالحوار معه ومناقشته. وفي جوهر الأمر فإنّ هذا الشكل من التعصب يمثل إلغاء للعقل ومنطقه الذي يدعو للاعتدال

(1) سورة المجادلة: الآية 19. إلى آخر السورة

(2) سورة الأعراف: الآية 11-26

وللتفاعل بين التجارب ومنجزها الفكري الذي يقر بالتنوع والتعددية ولا يقبل بالاستعلاء والفوقية ومصادرة الآخر ومن الحركات السياسية التي تعبر عن هذا.

وتجدر الإشارة إلى أن التعصب السياسي يدفع صاحبه للتمسك برأي حزبه من دون مراجعة وتدبر معتقداً بصواب رؤية حزبه على وجه المطلق فيما باقي الأطراف والقوى السياسية عملاء لصالح أعداء الوطن والشعب أو الطائفة ولعل هذا في الغالب يحصل في بلدان التخلف ضعيفة التطور والبعيدة عن المدنية وغالباً ما يترافق الأمر بتغليفه بالدين كما هو الحال مع أحزاب الطائفية السياسية.

التعصب السياسي:

إن التعصب السياسي يبدأ بالألفاظ البذيئة بين السياسيين، ثم إلى اعتداء المشجعين على الجماهير، ثم إلى شجار المشجعين أنفسهم داخل ميدان السياسة، ثم نقلها إلى خارج الميدان، والتي بلغت المئات من القتلى في بعض المواجهة السياسية !

ولقد وصل التعصب السياسي خصوصاً في العصر الحاضر إلى مستويات خطيرة جداً تهدد تماسك المجتمع، ووحدة الأسرة بل الوطن!! فهذا يقذف ذاك، والمتعصب السياسي الفلاني يحتقر الآخر، ووصل إلى الاتهام بالكبائر -كالرشوة، والكذب والخيانة-! بل انتقلت العدوى إلى المحاضن التربوية (الجامعات والمعاهد والمدارس)!! فصار بعض المدرسين يلقن الطلاب هذا المبدأ الرديء!

التعصب القومي أو القبلي:

ومن صور التعصب المنتشرة المذمومة في غالب أحوالها: التعصب للقبائل، أو الدول والمناطق، أو الأجناس والأعراق: ولن أجد تعليقاً على هذا النوع من التعصب خيراً مارواه الشيخان عن جابر -رضي الله عنه- قال: "غزونا مع رسول الله -ﷺ-، وقد ثاب معه -أي رجع- ناس من المهاجرين حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لقاب -أي: يلعب بالحرايب كما تصنع الحبشة- فكسح أنصارياً (أي: ضربه من جهة مؤخرته)، فغضب الأنصاري غضباً شديداً حتى تداعوا، وقال الأنصاري: يا لأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فخرج

النبي - ﷺ - فقال: "ما بال دعوى الجاهلية؟" ثم قال: "ما شأنهم؟" فأخبر بكسعة المهاجري للأنصاري قال: فقال النبي - ﷺ -: "دعوها فإنها خبيثة¹."

وهو التعصب الذي يسوق لمنطقه على أساس عرقية أو قبلية بالدفاع عمن ينتسب لعرق أو قومية أو قبيلة، وهو يتوهم أمراً ويضلّل به أتباعه عبر التخندق الذي يعزل عصبته عن محيطها ويضعها في تعارض وتناقض وصراع مع هذا المحيط وما فيه من أبناء مجموعات قومية أو قبلية أخرى. ويمكن هنا ضرب الأمثلة على ما افتعلته قوى عروبية متشددة متطرفة من عدا لأبناء القوميات المحيطة مثلاً ضد الفرس أو الترك أو الكورد أو البشتون والبنان والبنجاب والسند. ومثلما يحصل من محاولات إشعال الفتن بين الشعوب السامية مثل الباكستانيين والأفغانين وغيرها من احتقانات يحاول المتعصبون إشعالها بين أبناء تلك القوميات المتعايشة إنسانياً والمتجاورة جغرافياً ونجد اليوم التعصب المذموم على أهل الهند أنهم حاصروا كشمير بكاملها.

فمن حكمة الله تعالى أن وضع بين الناس اختلافاً في أمور شتى، ألوانهم وأشكالهم وأعرافهم وعاداتهم وأعرافهم، ليعمروا الأرض ويستفيدوا من بعضهم البعض، ولكن الله تعالى وضع قواعد وقوانين تمنع أن يعتدي فرد أو جماعة على فرد آخر أو جماعة أخرى بالقول وبالفعل.

وبعثة النبي ﷺ إلى الناس جميعاً أيضهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم رجالهم ونسائهم سيدهم وخادهم، انتشر الإسلام في كل الأنحاء تحت لواء وراية التوحيد والعدالة والسماحة والأخوة، ولكن بالبعد عما كان عليه الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ من توحيد وأخوة عدم عصبية عادت العصبية بشق الصور.

وصارت حقيقة التمدد والتمترس حول العصبية المذهبية أقوى الحقائق وأرسخها في عالم اليوم، وصار الحق شهيداً على مسرح الرؤية الضيقة والمظلمة لهذه العصبية أو تلك، وبالتالي لم يعد أي أمل في الظاهر للجمع أو الحديث عن قواسم مشتركة في ظل استعمار نار المذهبية التي عمّقت الفواصل والحوازر بين الناس، بل دفعتهم إلى حد الفتنة وإعمال السيف في الرقاب باسم الله والدين، حيث قدمت العصبية عليهما.

وبدل التعصب للحق والخير وحكمة الإسلام، وتجلياتها الأخلاقية والعملية في حياة الفرد والجماعة، أصبح التعصب لكثير من طروحات التجهيل والتهميش لعقل الإنسان وروحه، بل العمل على استغلالهما بشكل يشع لمصالح ذاتية وجهوية لا تخدم إلا أصحابها، ونسيء إلى الحياة عموماً.

(1) " (مسلم رقم الحديث (2584).

إن العصبية الإيجابية هي التمسك والالتفاف القوي حول مفردات التضامن والتعاون والوحدة، هذه المفردات المغيبة عن واقعنا، والتي تعيش في غربة موحشة، ولا تتجاوز الألسن التي تستخدمها كلافنة في بعض المناسبات متى ما يحلو لها ذلك.

إن إذكاء روح العصبية المذهبية، وتكريسها سلوكاً مدمراً للإنسان والحياة، لا يخدم أحدًا، ولا حتى من يحملها، لأنه الجهل بعينه، فحتى أصحاب الشعارات المذهبية لو تأملوا قليلاً، وانفتحوا على روح مذهبهم وطرقهم، لوجدوا لغة التلاقي أكثر من لغة التكفير وتحليل القتل والعنف، لأن المذاهب التي لا تعتمد التلاقي والانفتاح على روح الشريعة الإسلامية، غير قابلة للحياة بذاتها، ولغيرها

لقد ذم القرآن الكريم التعصب ونهى عنه سواء أكان التعصب لشخص أو قبيلة أو مال أو جاه أو غيره، بل ونسب الإسلام العصبية إلى الجاهلية ووصفها بالمتنة؛ تقيحاً لها وتنفيراً من شأها. والعصبية لها صور شتى؛ فمنها العصبية من أجل الدنيا كعصبية الرجل لذاته ومبالغته في ترجسيته، وكعصبية الرجل لولده وأهله وقبيلته، وكعصبية الرجل لبلده وجنسيته وازدراءه من دونه من الجنسيات ولو كانوا مسلمين، ومن أدهى صور العصبية الحديثة التعصب لناد أو فريق رياضي تعصباً قد يودي بحياة صاحبه في حماة الانفعال، وقد حدث وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين - أي ضرب - رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال رسول الله: « ما بال دعوى الجاهلية؟ » قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: « دعوها فإنها متنة ». إن الافتخار بالآباء والاعتزاز بالانتماء القبلي قد يدفع المرء إلى النار التي حذرنا الله منها؛ ذلك أنه قد يفتخر بالكفرة من آباءه وأجداده، وما دفعه لذلك إلا العصبية الجاهلية، وتعالوا بنا نسمع هذا الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أم لك. فقال رسول الله: « انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان حتى تسعة، فمن أنت لا أم لك؟ قال: أنا فلان ابن فلان ابن الإسلام، قال: فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن هذين المنتسبين، أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة من النار، فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة ». فياله من مرض فتاك قد يودي بالهبة ويذهب الألفة ويفري العداوة بين

الأحباب ويفرق بين الأقرباء ويثير الحروب بين القبائل والعشائر، ويزرع الضغائن بين من يفترض أنهم بنيان مرصوص. وأما التعصب للمال والدنيا والإخلاص إليها فقد سماها الشرع عبادة عياداً بالله، فقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الحميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماء إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع».

ومن صور العصبية أيضاً التعصب الديني، ومنه المذهبية المذمومة التي يقدم فيها الأتباع قول المذهب على قول الله ورسوله، والصورة الأضيق من صور هذا النوع هي صورة التعصب للشيخ حتى لو خالف الدليل الصحيح من الكتاب والسنة. ومن صور التعصب الحديثة التعصب لجماعة أو حزب، فتجد المنتمي إليه يدين بالولاء لأصحاب جماعته دون غيرهم من المسلمين، وهذا مذموم لا محالة قال: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»¹ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «أي الجميع إخوة في الدين كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»، وفي الصحيح: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وفي الصحيح أيضاً: «أُمُّ الدُّرْدَاءِ، قَالَتْ: حَدَّثَنِي سَيِّدِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُؤَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِ"»²

فالتعصب لعالم أو شيخ حال مخالفته للكتاب والسنة تعصب مذموم قد يورد صاحبه المهالك. ومما تنفطر منه القلوب في عصرنا الحاضر تقليد بعض صغار الأسنان لبعض الدعاة الذين يلتصقون بهم في سب وتجريح دعاة آخرين قد يكونوا من الربانيين العاملين. فليعلم هؤلاء أن لحوم العلماء مسمومة وليعدوا للسؤال أمام الله عز وجل جواباً من الآن على خوضهم فيما لا يحسنون وتعاليمهم على من بذلوا أوقاتهم وأموالهم وأبدانهم في الدعوة إلى الله عز وجل، وقد يكونوا من أوليائه سبحانه الذين توعد الله بالمحاربة من بارزهم بالعداوة. روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله قال: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى

(1) سورة الحجرات: الآية 10.

2 رواه مسلم في صحيحه باب فضل الدعاء للمسلمين بظهور الغيب رقم الحديث 27

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»¹.

وقد تواترت الآثار عن أئمة السلف الدالة على ضرورة ووجوب اتباع الدليل وترك التقليد الأعمى والتعصب المذموم لكون التأثير السلبي على الفرد والمجتمع وعلى الدعوة إلى الله تعالى بصور خاصة. وفي يومنا الذي نعيش أصبح التعصب للملأ مذهباً يقتدى به.

وعلمنا أن هذا الملخص جزء من رسالتي التي كتبت في الما جستير بعنوان: العصبية المذهبية وآثارها على الدعوة إلى الله تعالى.

(1) أخرجه صحيح البخاري رقم الحديث 6502 باب التواضع.

المبحث الرابع: استثمار الملأ على المعاصي

وقد نجد أنواعاً من الملأ في العصر الحاضر يواجهون الدعوة بشتى أساليب بالسياسة والاقتصاد والمكر ويوجد لها آثار سيئة ومؤلمة كذلك، فهي سبب حدوث الأضرار والشرور، ونزول العقوبات السماوية، وما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، قال تعالى:

"وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ"¹

وآثار المعاصي متعددة تشمل المصائب البدنية: كالأمراض، والعاهات، والحوادث السيئة، والموت، والفتن، وتسلط الأعداء، وتشمل العقوبات السماوية: كالقحط والجذب، وغور المياه، وبيس الأشجار، وقلة الثمار، أو فسادها، والغرق، والصواعق، والرجفة، والآفات السماوية، كعقوبة قوم هود بالريح العقيم، وقوم صالح بالصيحة الطاغية، وقوم نوح بالغرق، وفرعون وقومه بالغرق، ونحوهم، كما أن عدم قبول الدعوة للملأ المستبد عبارة عن دعوة عذاب الله سبحانه وتعالى وقد حدثت على الأقوام السابقة.

ومن أخطر آثار الذنوب والمعاصي ما يتعلق بالقلوب مثل:

فسوسة القلوب، وعدم تأثرها بالمواعظ والآيات والأدلة والتخويف والتحذير والإنذار، فلا تسمع ولا تفقه ولا تقبل ولا قبول الدعوة إلى الله تعالى.

وقد ذكر الإمام "ابن القيم" - رحمه الله - عقوبات الذنوب في كتابه الجواب الكافي:

- 1- "حرمان عن العلم النافع: فإن هذا العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئه، ولهذا كان السلف يرشدون تلاميذهم إلى ترك المعاصي؛ لكي يورثهم الله حقيقة العلم، ومن حرم العلم تحبط في دنياه، وسار على غير هدى مولاه".
- 2- الوحشة والبعد بين العبد وربه سبحانه: "وهي وحشة لو اجتمعت لأصحابها ملذات الدنيا كلها لم تذهبها، ومن علاماتها وفروعها: الوحشة بينه وبين أهل التقوى والإيمان".
- 3- الظلمة التي يجدها العبد العاصي في قلبه ونفسه: "فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات".

قال ابن عباس: "إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وسعة في الرزق وقوة في البدن وعجة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق"

4- **مرض وهن القلب:** "فلا تزال المعاصي توهنه حتى تزيل حياته بالكلية، وهذا الوهن يظهر أثره على البدن، فتأمل قوة أيدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم".

5- **تخسير العمر وتقصيره ومحق بركته:** "بمقدار ما غمرض القلب وتذهب حياته، فإن حقيقة الحياة هي حياة القلب وعمر الإنسان هو مدة حياته، فكلما كثرت الطاعة زادت حياته فزاد عمره الحقيقي، وكلما كثرت المعاصي أضاعت حياته وعمره".

6- **تخفف المعاصي على العبد المعاصي لمداومته وعصيانته:** "يفقد عمل القلب بالكلية، حتى يصبح من المجاهرين بها المفاهرين بارتكابها، وأقل ذلك أن يستصغرها في قلبه ويهون عليه إتيانها، حتى لا يبالي بذلك وهو باب الخطر".

روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا فطار" 1

7- **المعصية ذل وهوان:** "فالمعصية تورث الذل ولا بد، فالعز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا أَي: فيطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلي بمعصيتك.

8- **الصدى والران والطبع والقفل والختم:** "وذلك أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب عليه الصدأ حتى يصير راناً، كما قال تعالى: "كَأَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" 3 ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس، فصار أعلاه أسفله؛ فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد، ويمثل هذا اتخذ الشيطان من البشر دعاة وجنوداً".

(1)

(2) سورة فاطر: الآية 10

(3) سورة المطففين: الآية 14

- 9- إطفاء الغيرة من القلب: "وهي الغيرة على محارم الله أن تنتهك، وعلى حدوده أو تفتحهم، وعلى دينه أن يضعف أو يضيع، وعلى إخوانه المسلمين أن يهانوا أو يبادوا، بل على أهله ونفسه أن يقعوا في المعصية والهلاك، ولهذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغير الناس، كما ثبت في الصحيح: (أتعجبون من غيرة سعد، لأننا أغير منه والله أغير مني) متفق عليه".
- 10- إذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب: "وهو أصل كل خير، وزهابه ذهاب كل خير بأجمعه. والذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية، فلا يستحيي لا من الله ولا من العباد، والتلازم بين ارتكاب المحرمات وقلة الحياء لا يخفي على أحد".
- 11- إذهاب تعظيم الله ووقاره من القلب: "فكما أن تعظيم الله وتوقيره يحجز عن المعصية، فإن ارتكاب المعصية يضعف التعظيم والتوقير - حتى يستخف العبد بربه ويستتهين بأمره ولا يقدره حق قدر".
- 12- مرض القلب وإعاقته عن الترقى في مراتب الكمال ودرجاته - وقد سبق بيان تفاضل الناس في أعمال القلوب - فالذنوب تخرج صاحبها من دائرة اليقين وتنزله من درجة الإحسان، بل تخرجه من دائرة الإيمان، كما في الحديث الصحيح: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن" متفق عليه، فلا يبقى له إلا اسم الإسلام وربما أخرجه منه؛ فإن المعاصي يريد الكفر.
- 13- إضعاف همة القلب وإرادته وتثيبله عن الطاعة وتكسيله عنها، حتى يؤول به الأمر من الاستئصال إلى الكراهية والتفور، فلا ينشرح صدره لطاعة ولا يتخرج ويضيق من معصية ويصير جسوراً مقدماً على الخطايا جباناً رعديداً على الحسنات.
- 14- الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به - بسبب ارتكاب الرذائل - إلى أسفل سافلين وصاحبه لا يشعر، وعلامة ذلك الخسف أن يكون القلب جوالاً حول السفليات والقاذورات، متعلقاً بالمحقرات والأمور التافهة، عكس القلب الذي تركى بالطاعات، فصار جوالاً في معالي الأمور ومكارم الأخلاق، كما قال بعض السلف: إن هذه القلوب جوالّة، فمنها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحش أي: مكان قضاء الحاجة.
- 15- مسخ القلب: فإن المعاصي والقبائح ما تزال تتكاثر عليه حتى تمسخه كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسح على قلب خنزير، كقلب الديوث.

ومنها ما يمسح على قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب... بحسب عمله، وقد شبه الله تعالى أهل الجهل والغي بالحر تارة وبالكلب تارة وبالأنعام تارة وربما وصل الأمر إلى المسخ التام؛ وهو مسخ الصورة مع القلب، كما حصل لبني إسرائيل حين جعل الله منهم القردة والخنازير.

16- **نكد القلب وقلقه وضنكه:** وهذا ملازم للمعصية ملازمة الظل لأصله، كما قال تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى" 1 فالمرعش عن ذكر الله متعرض لذلك، لكن قد يتوارى داؤه بسكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك الخمر، كالمشاهد في عصرنا الحاضر من إدمان المسكرات والمخدرات، تخلصاً من ضيق الحياة ونكد العيش. فهذه بعض آثار معاصي الجوارح على القلب وعمله، فهي تذهب رضاه ويقينه وصدقه وإخلاصه وتوكله ومحبه، بل تذهب قوته وحياته وصحته وراحته وتجمع له بين ذهاب حقائق الإيمان وبين عقوبات آجلة وعاجلة كما رأينا في هذه الآثار.

يقول تعالى عنهم: "ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" 2

أقول: ولا شك أن الذنوب والمعاصي لها نتائج خاسرة، وآثار سيئة على الفرد والمجتمع، بل إن الحيوانات والجمادات تتضرر بسبب ذنوب ومعاصي بني آدم، فمن آثارها على الفرد؛ أنها سبب لحرمان العلم وقبول الدعوة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: "إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً يُوَافِقُ" 3 وَتَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ 4

ومن آثار الذنوب والمعاصي على الفرد؛ حرمان الرزق، ففي الحديث: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه" 5. ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها سبب لتعسير الأمور عليه؛ فلا يكاد يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه. ومن آثارها تلك الظلمة التي يجدها العاصي في قلبه حقيقة، ويحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما ملخصاً لتلك الآثار: "إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في

(1) سورة طه: الآية 124

(2) سورة البقرة: الآية، 74

(3) سورة الأنفال: الآية، 29

(4) سورة البقرة: الآية، 282

(5) رواه أحمد (22386)، وابن حبان (872)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق"12. ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز على العاصي مفارقتها؛ وأنها كذلك تضعف القلب عن إرادته، وتقوي فيه حب وإرادة المعصية، وتضعف إرادته وحبه للتوبة شيئاً فشيئاً إلى أن تسليخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، قال الله تعالى: "وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا"

قال بعض السلف: "إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها"3. ومن عقوباتها: أن كل معصية من المعاصي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عز وجل؛ فاللوطية على سبيل المثال ميراث عن قوم لوط، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون. و.. إلخ. أيها الأخوة في الله: ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها سبب لهوان العبد على ربه، وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري رحمه الله: "هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم"4. ومن آثارها: أنها تورث الذل ولا بد، ذلك أن العز كل العز في طاعة الله، وقد كان من دعاء بعض السلف: "اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلي بمعصيتك"5.

وقال الحسن البصري رحمه الله: "إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين؛ فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبي الله إلا أن يذل من عصاه"6.

ومن آثارها السيئة أنها إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى تعلق قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل»:

"كَأَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"7.

- (1) الوابل الصيب (ص: 43).
- (2) سورة الشورى: الآية 40.
- (3) الجواب الكافي (ص: 36).
- (4) روضة المحبين لابن القيم (ص: 441).
- (5) الجواب الكافي لابن القيم الجوزية (ص: 38).
- (6) إغاثة اللهفان لابن القيم (1/ 48).
- (7) سورة المطففين: الآية 14.

نعم ومن آثار الذنوب والمعاصي على الفرد والمجتمع؛ أنها تُدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ؛ "فإنه لعن الواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمصة، ولعن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده، ولعن الراشي والمرتشي، ولعن العاق لوالديه، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من غير منار الأرض، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة. ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تتعدى إلى غير مرتكبها، فليست مقصورة على العاصي فقط، بل إن آثارها متعددة إلى غيره من جيرانه، ومن يعيشون معه، بل وحتى لها تأثير على الأرض التي يعيش عليها، وحتى لها تأثير على الحيوانات والجمادات، فمن آثارها على المجتمع عامة؛ أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء، والزرع والثمار، والمساكن، قال تعالى:

"ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ¹."

وذلك لأنه كان سبباً لكثير من المحن كمنع القطر من السماء، وما أشبه ذلك. ومن أثرها على المجتمع أنها سبب للتمزق والتفريق والاختلاف، وهذا ما نراه ونلاحظه اليوم في أمتنا، قال تعالى:

"وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ²"

ولكن للعجب إن كثيراً من الناس اليوم يعزون ما حلَّ بالأمّة من تمزق وتشردم واختلاف إلى أسباب مادية بحتة، أو إلى أسباب سياسية، أو إلى أسباب مالية، أو إلى أسباب حدودية، أو ما أشبه ذلك، وهذا مما لاشك فيه أنه من قصور فهمهم، وضعف إيمانهم، وغفلتهم عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله. أو لا يعلم أولئك أن وراء تلك النكبات والمصائب أسباباً غير تلك الأسباب المادية البحتة أسباباً شرعية، وهي الذنوب والمعاصي، أولم يسمعوا إلى الله وهو يقول:

"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَنُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ³"

والله نسأل أن يوفقنا لطاعته، وأن يبيننا معصيته، وأن يحفظنا بحفظه، وأن يكلأنا برعايته، إنه جواد كريم.

(1) سورة الروم: الآية 41

2 سورة الشورى: الآية، 30.

3 سورة الأعراف: 96-99.

الفصل الثالث:

دور الدعوة في معالجة المأ في المجتمع الباكستاني

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص والإستقامة في طريق الدعوة إلى الله تعالى

المبحث الثاني: المحاجة والمخاطبة، وتوضيح الحقائق، والرد على الشبهات

المبحث الثالث: التفكير و التخطيط لنجاح الدعوة وسلامتها

المبحث الأول: الإخلاص والاستقامة في طريق الدعوة إلى الله تعالى

إن الماضي في طريق الدعوة إلى دين الله سبحانه وهو أول ما ينهج الرسل عليهم السلام في مواجهة كيد الطغاة وبطشهم هو الإخلاص والاستقامة.

وإليه أشار عزوجل: فادعوا الله مخلصين له الدين، ألا الله الدين الخالص،

وكذلك عن الاستقامة: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك....سورة الهود عليه السلام

ذلك أن هدف الملأ المستكبرين من أعداء الرسل عليهم السلام تخفيف منابع الدعوة، وإطفاء جذوتها، وإيقاف الحركة بها، ومحو أثرها وإنهاء وجودها.

والرسل عليهم السلام يدركون ذلك فيقاومونه بالاستقامة على الحق والصبر على أنواع الأذى، والثبات في وجه العوائق والتحديات، ومضائق الجهود في طريق الدعوة، في حكمة وروية، وبذل وتضحية، ونزاهة وتجربة وطمأنينة ويقين، مستهدفين تبليغ الناس من أكابر والعامة دين الله عز وجل، وجذب النفوس إلى توحيد الله عز وجل وعبادته، ومن أجل ذلك الهدف يذلون الجهد والوقت، ويسلكون السبل المختلفة، والأساليب المتنوعة، أملا في انتشار الدعوة الإلهية، وامتداد قاعدتها، واتساع دائرتها المؤمنين بها.

ويمكن التفصيل في هذه الجوانب من منهج الرسل عليهم السلام في النقاط التالية:

الأول: الصبر والثبات على الدعوة إلى الله تعالى.

الثاني: التركيز على التربية الإيمانية.

الثالث: التبرؤ من الكفر وأهله.

الرابع: التأكيد على نزاهة الدعوة وتجردها.

الخامس: الاتصال بالملأ بغية دعوتهم إلى الله تعالى.

السادس: الأصل في الدعوة اللين والتلطف والرفق.

الأول : الثبات على الدعوة وعدم التأثر بالمساومة أو الوعيد

إن النجاء الرسل عليهم السلام في مواجهة الظالمين إلى رحم تبارك وتعالى، وتوكلهم عليه، واستعانتهم به، وصلتهم الوثيقة به سبحانه، وبقينهم بالعاقبة الطيبة في الدنيا، والسعادة في الآخرة، في جنات ونعين، وقرب من الله تعالى ورضوان، كل ذلك أورثهم عليهم السلام ثباتاً على الطريق، وصبراً على الأذى، في مواجهة الطواغيت المترصين، كما أورثهم ثقة واطمئناناً، وبذلاً وتضحية في سبيل الدعوة ونشرها.

كما قال الله سبحانه على لسان الرسل عليهم السلام في مواجهة المعاندين: "وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ"¹.

وقال تعالى مخاطباً خاتم الرسل - ﷺ: "وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ"².

والمأمل في قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم يلحظ بوضوح ثبات الرسل عليهم السلام أمام التهديد والوعيد، وأمام المساومة والترغيب، وأمام الشبهة والتشكيك، وأما البطش والتشكيل، وأما السخرية والازدراء، وأمام التضييق والملاحقة.

أمام كل تلك العوائق والعقبات يقف الرسل عليهم السلام ثابتين على مبادئهم، متحمسين لدعوتهم، متوكلين على رحم سبحانه، واثقين بعونه وتأييده، ولسان حالهم يعلن أن الدعوة ماضية في دربها، لا تبالي بالتهديد والوعيد، ولا يؤثر في طريقها ألوان المساومات وأنواع الأذى والتشكيك.

بل إن نبي الله نوحاً عليه السلام يتحدى المعاندين المستكبرين من قومه، مصرحاً باستمراره في دعوته، وعدم مبالاته بمركهم وتهديدهم، ثقة منه عليه السلام بربه، وتوكلاً عليه سبحانه.

قال تعالى: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ"³.

(1) سورة إبراهيم: 12

(2) سورة الأنعام: 34

(3) سورة يونس: 71

يقول ابن كثير في تفسير الآية: "(يا قوم إن كان كبير عليكم) أي عظم عليكم (مقامي) أي فيكم بين أظهركم (وتذكيري) إياكم (بآيات الله) أي بحججه وبراهينه (فعلى الله توكلت) فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا (فاجمعوا أمركم وشركاءكم) أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن (ثم لا يكن أمركم عليكم غمة) أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليذ ولا تنظرون: أي لا تتأخرون ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أبالكم، ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء".¹

فنوح عليه السلام يعلن للجاحدين أنه لن يتوقف عن الدعوة، ولن يثنيه تهديدهم، ولن يبالي بوعيدهم، ولن يتأثر بمكرهم وكيدهم، بل هو ماضٍ في طريقة مهما كانت العقبات، توكلًا على ربه تعالى، وثقة بتأييده، وإيمانًا بوعده، وشعورًا بمعيته عز وجل.

ويقف هود عليه السلام نفس الموقف كما قال سبحانه: "قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ".

"إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".²

وقالها رسولنا ﷺ كما أمره ربه: "قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ. إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ".³

وكذلك يفعل إبراهيم عليه السلام من قبل: "وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالُوا أُنْجَاؤِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ".⁴

(1) تفسير ابن كثير، 425/2

(2) سورة هود: 53-56

(3) سورة الأعراف: 195-196

(4) سورة الأنعام: 80

ويثبت شعيب عليه السلام كذلك أمام تهديد الملاء: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ. قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَاءَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا. ¹"

والاستفهام في مقولة شعيب عليه اسلام: "للتعجب من صنيعهم، واستنكار طلبهم ورفضه بدون مبالاة". ²

وتنزل الآيات على رسولنا ﷺ توصيه بالصبر على إيذاء المكذبين، واستهزاء المستهزئين، وما يثيره الطغاة حول الدّعوة والمؤمنين: "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. ³"

"فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا. ⁴"

"فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى. ⁵"

"وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلٰىلٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ. ⁶"

وتنزل آيات آخر تأمره عليه الصلاة والسلام بأن لا يتأثر بوعيدهم وأن لا يستجيب لهم في مساومتهم وإغرائهم، وأن يثبت على دينه ودعوته إلى ربه سبحانه:

"فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًّا أَوْ كَافِرًا. ⁷"

"فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ⁸"

(1) سورة الأعراف: 88-89

(2) تفسير المنار 3/9

(3) سورة الأحقاف: 35

(4) سورة المعارج: 5

(5) سورة طه: 130

(6) سورة النحل: 127

(7) سورة الدهر: 24

(8) سورة القلم: الآية 48

"فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَذُؤُوا لَوْ تَذَهَرُ فَيُذْهِبُونَ¹ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا...² وَلَا تُطِيعِ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا³

"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مِمَّا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ⁴ قُلْ أَفَعَتَرِ اللَّهُ ثَمُورِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ⁵ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ⁶ فَلِللَّهِ فَادُغُ وَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ...⁷ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...⁸

"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ...⁹

أقول: إن قضية الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ من القضايا المهمة في حياة كل مسلم داع، كما امتثل عليه الصلاة والسلام توجيه ربه فصر على الأذى، وصر على المكر والكيد، وصر على التشكيك والتشويه، وصر على التهديد والوعيد، وصر على اللزم والسخرية والاستهزاء والاحتقار.

واستمر الرسول ﷺ رغم كل ذلك في دعوته ثابتاً ومستقيماً في مواجهة العقبات والتحديات، لا يدهن ولا يساوم في قضية التوحيد وأداء الأمانة، ولا يقبل التفاوض أو التنازل في دين الله تعالى، أو يرضى باليسر من مظاهر الشرك لينتقى به المشركون في منتصف الطريق.

لقد باءت محاولات الكبراء من قريش معه ﷺ بالفشل. فقد جربوا معه الإغراء بالمال والمنصب والمتاع فلم يفلحوا. وجربوا معه التهديد والوعيد فلم ينجحوا.

وآثاروا حوله الشبهة فلم يصلوا إلى النتيجة التي يأملون.

(1) سورة القلم: 8-9

(2) سورة الأحزاب: 1

(3) سورة الكهف: 28

(4) سورة الكافرون: 1-6

(5) سورة الزمر: 64

(6) سورة الحجر: 94

(7) سورة الشورى: 15

(8) سورة يوسف: 108

(9) سورة القصص: 87

وهو في كل ذلك ماض في طريقه، يدعو إلى ربه في قوة ووضوح، وفي ثقة ويقين.

وكانت تلك الآيات الكريمة هي الرد البليغ على ذلك الإغراء وتلك العروض، فلا المال هو الهدف، ولا الجاه هو المقصود، ولا طلب المتاع الدنيوي هو المراد إنما هو وحي الله ودينه، يبلغه ﷺ للناس. هذا هو هدفه ومراده، وتلك هي مهمته ووظيفته عليه الصلاة والسلام.

الثاني: التركيز على التربية العقديّة

المقصود بالتربية العقديّة هو: ربط قلوب الإنسانية بأصول الإيمان بالله جل وعز والرسول ﷺ وجميع الأمور الغيبية الأخرى.

ولقد يتضح للمتأمل بكتاب الله عزوجل، بجلاء أن منهج الرسل عليهم السلام يرتكز على دعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وتوحيده سبحانه، وهجر كل أنواع الشرك، واتخاذ الأنداد من دون الله عزوجل، كما قال تبارك وتعالى: "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ..."¹

وقال عزوجل: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ..."²

فتربية الناس، وتوجيههم إلى عبادة الله تعالى وحده، واجتناب الطواغيت المعبودة من دونه سبحانه، هو منهج جميع الرسل عليهم السلام. ففي قصة نوح عليه السلام يقول الله تعالى:

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ..."³، "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ..."⁴

"إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ..."⁵ وفي قصة هود عليه السلام:

"وَأَلِيَّ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ..."⁶

(1) سورة النحل: 36

(2) سورة الأنبياء: 25

(3) سورة الأعراف: 59

(4) سورة المؤمنون: 23

(5) سورة نوح: 1-3

(6) سورة هود: 50

"وإلى عاد أخاهم هودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ."¹

"فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ."²

"إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ..."³

وفي قصة صالح عليه السلام: "وإلى ثمود أخاهم صالحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ..."⁴

"وإلى ثمود أخاهم صالحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ."⁵ "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ."⁶

وفي قصة إبراهيم عليه السلام: "وإبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ."⁷

"وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ."⁸

وفي قصة شعيب عليه السلام: "وإلى مدين أخاهم شعيبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ."⁹ "وإلى مدين أخاهم شعيبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ..."¹⁰

(1) سورة المؤمنون: 32

(2) سورة فصلت: 14

(3) سورة الأحقاف: 21

(4) سورة الأعراف: 73

(5) سورة هود: 61

(6) سورة النمل: 45

(7) سورة العنكبوت: 36

(8) سورة الصافات: 85-87

(9) سورة الأعراف: 85

(10) سورة هود: 84

"وَأِلْ مَذِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ. وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"¹

"وَأِلْ مَذِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"²

وفي قصة عيسى عليه السلام: "وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"³، "وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ..."⁴

"مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَلَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عُيَاذُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"⁵

"...وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"⁶

وفي دعوة رسولنا ﷺ:

"الرِّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ"⁷

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ"⁸

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"⁹

(2) سورة العنكبوت: 36

(3) سورة الزخرف: 63-64

(4) سورة المائدة: 72-76

(5) سورة المائدة: 117-118

(6) سورة آل عمران، 50-51

(7) سورة هود: 1-2

(8) سورة فصلت: 6

(9) سورة البقرة: 21

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا".¹

"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ".²

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعِنْدَ اللَّهِ حَقُّهُ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ شَرَّابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ".³

يركز القرآن الكريم بصفة عامة، والمكي منه بصفة خاصة، على قضية الإيمان والتوحيد.

ورسولنا ﷺ مكث بمكة قبل هجرته ثلاثة عشر عاماً،⁴ أمضاها في تربية الناس على العقيدة، وتعميق معاني الإيمان، وإقناعهم بقضايا التوحيد والرسالة، والبعث والجزاء.

والنصوص القرآنية في هذه المجال كثيرة جداً.

ويؤكد أن الرسل عليهم السلام جميعاً كان قصدهم وهمهم الأول مما علمهم الله من عنده، هو هدم الجاهلية، واقتلاع جذور الشرك، وبناء النفوس على معاني الإيمان والتوحيد لله عز وجل، والعبودية له وحده سبحانه، وكانوا يسلكون لبلوغ هذا الغرض وسائل عديدة، وأساليب متنوعة، أذكر بعضها - على سبيل المثال - في النقاط التالية:

الأولى: التذكير بدلائل وحدانية الله وعظمته وقدرته سبحانه.

الثانية: التذكير بنعم الله عز وجل.

الثالثة: التذكير بإيام الله سبحانه وتعالى

الرابعة: الترغيب والترهيب.

(1) سورة الكهف: 110

(2) سورة الأنعام: 102

(3) سورة يونس: 3-4

(4) روى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما كما في صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مبعث النبي ﷺ 1398/3، وينظر فتح الباري 291/7.

وسأورد فيما يأتي - بمشيئة الله تعالى - مجموعة من النماذج والأمثلة لذلك من دعوات الرسل عليهم السلام في قصص القرآن الكريم.

المسألة الأولى: التذكير بدلائل وحدانية الله وعظمته وقدرته سبحانه

يقول الله تعالى: "ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم... والأرض.."¹

توضح الآيات الكريمة أن الرسل عليهم السلام أجابوا المكذبين من أقوامهم، حين صرحوا بالشك في دعوتهم إلى توحيد الله، بقولهم (أي الله شك) وهو "استفهام معناه الإنكار، أي لا شك في الله، أي في توحيدة قاله قتادة".²

فقضية توحيد الله عزوجل قضية واضحة لكل متأمل جليلة لكل متفكر، والشك فيها غير وارد أصلاً، ولذا ذكر الرسل عليهم السلام أقوامهم ببعض الدلائل التي يشاهدونها بين أيديهم، والتي تدل على عظمة الله سبحانه وقدرته (فاطر السموات والأرض) أي "خالقها ومنشئها وموجدتها بعد العدم".³

فخلق السموات والأرض، وما فيها من العظم والإبداع، والنظام المتسق، دليل واضح، وشاهد جلي، على وجود الله سبحانه وإلهيته وقدرته، وأنه المستحق وحده للعبادة.

ويقول الله تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام يخاطب قومه (مالكم لا ترجون... فجاجا).⁴

إن نوحاً عليه السلام ينكر على قومه عدم تعظيمهم لله سبحانه وتوحيدة وطاعته عزوجل (مالكم لا ترجون الله وقارا).

"قال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمتة، أي لا تخافون من بأسه ونقمتة".⁵

مع أن الدلائل والشواهد على وحدانية الله وعظمته كثيرة متوالية، توجب لمن يتدبر فيها أن يؤمن بالله سبحانه، ويعبده وحده.

(1) سورة إبراهيم: 9-10

(2) تفسير القرطبي: 227/9

(3) تفسير القرطبي: 227/9

(4) سورة نوح: 13-20

(5) تفسير ابن كثير: 425/4

قال في التفسير الكبير: "(وقد خلقكم أطوارا) في موضع الحال، كأنه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه هي حال موجبة للإيمان".¹

هذا هو أول الأدلة التي أوردها لهم نوح عليه السلام، ولفت أنظارهم إليها، وأثارهم ليتأملوا ويتفكروا فيها (وقد خلقكم أطوارا) وهو دليل من خلق الإنسان نفسه، فهو يكون نقطة، ثم علقه، ثم مضغه، وهكذا ينتقل من حال إلى حال، حتى يتم خلقه وتكوينه).²

تلك آية على ألوهية الله وقدرته سبحانه، ومن ثم فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

ثم يذكر لهم نوح عليهم السلام آيات ودلائل أخرى من الآفاق حولهم، مما يرون ويشاهدون (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا).

فمن الخجج الساطعات على وحدانية الله سبحانه خلق السموات السبع طباقا "بعضها فوق بعض"،³ وفيها القمر يضيء ظلمة الليل، والشمس تؤذن بزواله، وتضيء للعباد، وهم يتصرفون في معاشهم، ويتجولون في مناشطهم، والقادر على ذلك كله هو المستحق لأن يوحد العباد سبحانه (والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا). فالخالق عز وجل هو الذي أنشأ البشر من تراب الأرض، فخلقهم منها أحياء يتحركون على وجهها، وعندما يأذن الله عز وجل بالموت وانتهاء الأجل، يعودون مرة أخرى إلى الأرض ليدفنوا فيها، ثم إذا شاء الله سبحانه أحيائهم، كما خلقهم أول مرة، ويعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء.⁴ (والله جعل لكم الأرض بساطا) أي بسطها، ومهداها، وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشاخات (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) أي خلقها لكم لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أي شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها.

(1) التفسير الكبير 138/30

(2) ينظر التفسير الطبري: 95/29

(3) زاد المسير: 58/8

(4) ينظر تفسير الطبري 97/29

وكل هذا مما ينبتهم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء، والأرض مهادا، وأوسع على خلقه من رزقه، فهو ال يجب أن يعبد ويوحده، ولا يشرك به أحد".¹

وقال عزوجل في قصة صالح عليه السلام:

"وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ".²

فسيدنا صالح عليه السلام يأمر قومه بتوحيد الله تعالى، ثم يذكرهم بأمرين، يشهد أن هذا التوحيد لله سبحانه، ويدلان عليه:

أولهما يتعلق بخلقهم وإنشاءهم من الأرض وإيجادهم بعد العدم (هو أنشأكم من الأرض).

والثاني يتعلق بالرزق (واستعمركم فيها) فهو سبحانه الذي هيا لهم الأرض بما عليها، وسخرها لهم، ووهبهم القدرة على الانتفاع بخيراتها. قال ابن كثير في الآية: "أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرازق وهو الذي يستحق العبادة وحده".³

ويعلم أن الأساس لدى الرسل عليهم السلام هي نقطة التوحيد لله والدعوة إليه ليلا ونهارا وفيه درس وعبر لجميع ورثة الأنبياء إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

وقال تبارك وتعالى في قصة إبراهيم عليه السلام:

"فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ. وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَخُلُفُونَ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ لَا تَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ".⁴

(1) تفسير ابن كثير 426/4

(2) سورة هود: 61

(3) قصص الأنبياء لابن كثير 142/1، وينظر تفسير البغوي 390/2

(4) سورة العنكبوت: 16-17

فخليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ماسواه، مبينا لهم أن الإله لا يلد أن يتصف بصفات الربوبية والألوهية، من الخلق والإيجاد، والملك والقدرة، والنفع والضرر، والواقع يثبت أن ما يعبدونه من دون الله لا يملك من خصائص الألوهية شيئا، ومن ثم فإن الذي يستحق أن يعبد وحده في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، الذي يملك خصائص الألوهية حقا، وتدل الدلائل على وحدانية عز وجل.

إن إبراهيم عليه السلام يؤكد لهم أن تلك الأصنام التي يعبدونها لا يمكن أن تكون آلهة، إذ أنها مصنوعة لهم مخلوقة، يصنعونها بأيديهم، فكيف يمكن أن تكون خالقة وهي مخلوقة؟ وكيف يمكن أن تكون مالكة وهي مملوكة، بل لا تملك من أمر نفسها شيئا (إنما تعبدون من دون الله أو ثانا وتخلقون افكا) فهي مجرد أصنام لا شرف لها ولا قيمة أنتم صنعتموها بأيديكم وجعلتموها أصناما واختلقتم لها أسماء وسميتموها لكم آلهة.¹

كما بين لهم أيضا أنها لا تملك لهم الرزق والنفع، لأنها مصنوعة محتاجة في نفسها، فكيف تفيض على غيرها؟ (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا).

ثم وضع لهم أن الله سبحانه هو المختص بخصائص الألوهية والمتصف بصفاتها، فهو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يستحق العبادة وحده (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له).

قال في الظلال: "بين لهم فساد ما هم عليه من العقيدة من عدة وجوه:

أولها: أنهم يعبدون من دون الله أو ثانا والوثن التمثال من الخشب² وهي عبادة سخيطة، وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عن عبادة الله.

وثانيها: أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل، وإنما يخلقون إفكا، وينشئون باطلا، يخلقونه خلقا بلا سابقة أو مقدمة، وينشئون إنشاء من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة.

(1) ينظر تفسير ابن كثير 407/3، تفسير البغوي 463/3

(2) قال في فتح المجيد، ط / دار الكتب العلمية، بيروت ص 73-74: الصنم: ما كانت مجاهد. قلت: وقد يسمى

الصنم وثنا كما قال الخليل عليه السلام (إنما تعبدون من دون الله أو ثانا وتخلقون إفكا..) ويقال: إن الوثن أعم، وهو

قوى فالأصنام أو ثان، كما أن القبور أو ثان.

وثالثها: أن هذه الأوثان لا تقدم لهم نفعاً، ولا ترزقهم شيئاً "إن الذي تعبّدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً".

وفي الخطوة الرابعة يوجههم إل الله ليطلبوا منه الرزق، الأمر الذي يهمهم، ويمس حاجتهم "فابتغوا عند الله الرزق".

وفي النهاية يهتف بهم إلى واهب الأرزاق، المتفضل بالنعم، ليعبدون ويشكروه "واعبدوه واشكروا له".

وأخيراً يكشف لهم أنه لا مفر من الله، فمن الخير أن يشوبوا إليه مؤمنين عابدين شاكرين "إليه ترجعون".¹

وقال تبارك وتعالى في قصة إبراهيم عليه السلام أيضاً:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ..."²

تبين هذه الآيات إحدى محاولات إبراهيم عليه السلام في هداية قومه وهو يدعوهم إلى توحيد الله تعالى.

وفي هذا الموقف يريد إبراهيم عليه السلام أن يهز قناعاتهم للمبينة على الباطل في مسألة العبادة، وأن يوقفهم على حقيقة أن آلهتهم لا تملك من خصائص الألوهية شيئاً، فهي لا تسمع ولا تبصر، ولا تفكر ولا تهتدي، كما قال لأبيه في موقف آخر:

"وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا..."³

وهنا أراد أن يقرر هذه الحقيقة على سبيل الاستفهام "قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون".

فهل تسمع هذه الآلهة دعاء الداعين؟ وهل تستجيب للطالبيين؟ وهل تملك أن تقدم أنواع المنافع للعابدين؟ أو أن ترسل الضر وألوان الشرور إلى من يعاديها، أو يتواني عن التقرب إليها؟

(1) في ظلال القرآن 2728/5.

(2) سورة الشعراء: 69-82-90.

(3) سورة مريم: 42-50.

ويبدو أن أسئلته عليه السلام أربكت السامعين من قومه، إذ أن القضية عند التأمل والتدبر واضحة، فأهنتهم لا تسمع ولا تبصر، ولا تعي ولا تعلم، ولا تضر ولا تنفع، بل لا تملك أن تمنح نفسها نفعاً، أو أن تمنع عنها الضر.

ولما كانوا ممن ركبهم العناد، فقد قابلوا الحجة القاهرة بشبهة التقليد "قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون".¹ وعندها أعلن إبراهيم عليه السلام براءته من آلهتهم، وإيمانه بالله وحده: "فإنهم عدو لي إلا رب العالمين" مبيناً لقومه أن عبوديته لربه تبارك وتعالى قائمة على علم ويقين بأن الدلائل تدل على وحدانيته سبحانه، والبراهين تؤكد قدرته وعظمته، وأنه مالك الكون ومصرفه، ومن ثم فإنه المستحق للعبادة وحده، إذ قال عليه السلام واصفاً ربه سبحانه كما سجل القرآن الكريم "الذي خلقتني فهو يهدين" أي أن الله تعالى هو الذي خلقتني وأوجدني من العدم، وهو الذي يهديني ويرشدني لما فيه النفع والخير والصواب،¹ "والذي هو يطعمني ويسقيني" فرب تبارك وتعالى هو الذي يرزقني بأنواع الرزق، مما سخره ويسره من الأسباب، إذ لا يرزق العباد إلا هو سبحانه (وإذا مرضت فهو يشفين) أي هو الذي ينزل البرء والعافية، ويذهب البأس إذا أصابني المرض والأسقام، فلا يجلب النفع، ولا يزيل الضر إلا هو سبحانه.

قال ابن كثير: "أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً".² "والذي يميتني ثم يحييني" إذ بيده وحده سبحانه الإحياء والإماتة، لا يبد أحد سواه "والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين" يظهر بذلك إبراهيم عليه السلام عبوديته لربه سبحانه، وحاجته إليه، وطمعه في رحمته ومغفرته، فهو الذي له الدنيا والآخرة سبحانه⁸.

إن هذه الصفات التي وصف بها إبراهيم عليه السلام ربه سبحانه، إنما يريد بها إقامة الحجة على قومه، وتذكيرهم بدلائل وحدانية الله سبحانه، والبيان لهم بأن الذي يخلق ويهدي، ويحي ويميت، ويرزق ويتفضل، وينفع ويضر، ويقدر ويملك، ويرحم ويطش، ويبدى ويعيد، وله الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن تكون له الألوهية والعبودية وحده دون سواه.

(1) ينظر تفسير الطبري 85/19

(2) تفسير ابن كثير 338/3

أما منهج رسولنا ﷺ في هذا الجانب فإن القرآن الكريم الذي يمثل منهجه عليه الصلاة والسلام مليء بالآيات التي تثير الفكر وتلفت الأنظار، وتذكر بالدلائل في الأنفس والآفاق، والتي توحى لمن يتأمل فيها ويتدبرها بوحداية الله عز وجل وعظمته وقدرته سبحانه، وأنه المستحق وحده للعبادة تبارك وتعالى.

وأكتفي هنا بإيراد بعض المناذج من ذلك فيما يلي: يقول الله سبحانه:

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ."¹

نعم هذه الآيات الكريمة تبين بعض عجائب صنع الله تعالى، وغرائب قدرته عز وجل في خلق الإنسان، حين ينتقل في بطن أمه من طور إلى طور ومن حال إلى حال، حتى يصبح إنسانا سويا يتحرك على وجه الأرض. فالله تبارك وتعالى خلق آدم عليه السلام، وهو أصل النوع الإنساني من سلالة من طين "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" "والسلالة مائل من الشيء واستخرج منه".²

واقضت مشيئته سبحانه أن يتكاثر النوع الإنساني بعد ذلك عن طريق التزاوج بين الرجل والمرأة، حين يلقي الرجل نطفته³ في رحم المرأة "ثم جعلناه في قرار مكين" ووصف المكان الذي تستقر فيه نطفة الرجل من رحم المرأة "بأنه مكين لأنه مكن لذلك وهيء له ليستقر فيه إلى بلوغ أمره"،⁴ وتتحول تلك النطفة حين يشاء الله إلى علقه "وهي القطعة من الدم"،⁵ ثم تتحول بعد ذلك إلى مضغة "وهي القطعة من اللحم"⁶ تنتقل بعدها إلى مرحلة تكون عظام الجسم كله، ثم ينشأ اللحم ساترا - بأمر الله - تلك هي الأطوار التي يمر فيها الإنسان، ويتقلب في تكوينه داخل رحم أمه، نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظاما، ثم يتكون اللحم على تلك العظام،

(1) سورة المؤمنون: 12-14

(2) تفسير أبي السعود 126/6

(3) النطفة: القطرة من الماء، ويعبر بها عن ماء الرجل

(4) تفسير الطبري 9/18

(5) نفس المصدر والصفحة

(6) نفس المصدر والصفحة

حتى بأذن الله سبحانه ينفع الروح فيه، ليصبح إنساناً حياً، يخرج من بطن أمه ليشارك الأحياء حياتهم التي قدرها الله سبحانه.

وذلك كله يحمل في ثناياه إشارة الواضحة، والحجة البالغة، والدليل الساطع، على قدرة الله تعالى وعظمته، واستحقاقه أن يعبد وحده سبحانه، وأن يوصف وحده بالعلو والكمال، وأن ينزه عن العيب النقصان، "فتبارك الله أحسن الخالقين".¹

ويقول عزوجل: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آلَٰهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ. أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَظِيمٍ".²

هناك آيات كثيرة تتحدث عن بدائع صنع الله منها هذه الآيات الكريمة تذكر مجموعة قدرات الله سبحانه في الآفاق، تدل على وحدانيته تعالى، وقدرته وعظمته عزوجل. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد لا شريك له.

ويمكن عرضها كما وردت في الآيات الكريمة فيما يلي: خلق الله السموات والأرض بهذا النظام المحكم الذي لا تفاوت فيه، والإبداع المتسق الذي لا تصدع فيه، وبهذه السنن المنضبطة التي لا اختلال فيها ولا تغيير.

إنزال الماء من السماء بصورته المعهودة العجيبة، ترتوى منه الأرض، وتتكون منه النبات، لسقيا الإنسان والحيوان، وتنبت به الحدائق والبساتين الياقة، ذات الزروع والشجار، يتهيج الناظر لحسنها، ويستمتع الراغب بقطوفها، وبأكل الناس من ثمارها "ما كان لكم أن تنبتوا شجرها".

"أي ما كان للبشر، ولا ينهيأ لهم، ولا يقع تحت قدرهم، أن ينبتوا شجرها، إذ هم عجزة عن مثلها، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود".³

لكن الله سبحانه لا يعجزه شيء.

(1) ينظر تفسير الطبري 11/18، تفسير البغوي 304/3، زاد المسير 316/5-317

(2) سورة النمل: 59-64

(3) تفسير القرطبي 147/13

تهيئة الأرض لتتناسب مع خلق الإنسان، وذلك يجعلها مستقرة، لا تتمد ولا تتحرك ولا تضطرب، وترسيها وتثبيتها بالجبال، فهي مهمة لتمكن الناس عليها من السعي، والتصرف في معاشهم.

وكذلك جريان الأنهار فيها، ينتفع الناس من مائها العذب، دون أن يختلط النهر بالبحر "وجعل بين البحرين حاجزا".

"أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا، أي مانعا يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا".¹

- إجابة المضطر الذي تحيط به المصائب، وتشتد به الأزمات، وتغلق أمامه الأبواب، فينجه إلى الله تعالى، فيستجيب السؤال سبحانه، ويزيل سوء وأنواع الضر برحمته عز وجل.
- إسكان البشر في هذه الأرض، يخلف بعضهم بعضا، جيلا بعد جيل وأمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن.
- هداية الناس في أسفارهم بما هيا الله من أسباب، وبما أو جد من علامات، وبما علم عباده ووهبهم من وسائل الإدراك "أمن يهديكم ظلمات البر والبحر".
- قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير أم الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتكم فيهما الطريق، فأظلمت عليكم السبل فيهما".²
- جريان الرياح قبل نزول المطر تبشر بالرحمة الإلهية، وتحرك السحب إلى حيث يشاء الله سبحانه.
- بث الحياة في الخلق ابتداء، ليتحرك ويتصرف على الأرض ضمن أجله المحدود الذي لا يحيد عنه، ثم إعادته بعد الموت حين يشاء الله يبعث من في القبور، والقادر على البدء قادر على الإعادة سبحانه.

- الرزق بأنواعه المختلفة، وسبله المتعددة، وأسبابه الوفيرة.
- كل ذلك دلائل واضحة، وبراهين قاهرة، تنشئ لدى المتأمل المتجرد يقينا بأن الله سبحانه وهو المنفرد بالملك والقدرة والتدبير، ومن ثم فإنه المستحق وحده للعبادة سبحانه.

والملاحظ في الآيات ابتداؤها بالاستفهام:

"أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ... أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي... أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

(1) تفسير ابن كثير 370/3

(2) تفسير الطبري 4/20

الْأَرْضِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَسَ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَةِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ... أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ..."

يقول ابن كثير: "أمن في هذه الآيات كلها تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟"¹

وفي ذلك ما فيه من التوبيخ للمشركون، والتنبيه على قدرة الله عز وجل، وعجز تلك الآلهة المدعاة من دونه تبارك وتعالى.²

كما يلاحظ اختتام كل آية منها بقوله تعالى: "إله من الله".

والمعنى: "إله من الله يعبد؟"³

فإن ما تضمنته الآيات من الدلائل ينطق بأنه سبحانه المتفرد بالخلق والرزق، وبالمملك والقدرة والتدبير، وعليه فإنه تبارك وتعالى هو المستحق لأن يفرد عز وجل بالعبادة، وأن ينزه تعالى عن أن يكون له في الربوبية أو الألوهية شريك أو نظير.

ويقول تبارك وتعالى: "وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ"⁴

تحكى هذه الآيات إلى مجموعة من أنواع الدلائل الكونية، بدء كل منها بقوله سبحانه: (وآية لهم) أي أن كلا من هذه الأنواع يمثل آية عظيمة، وعلامة واضحة، وبرهانا ساطعا، وشاهدا قاطعا، على وجود الخالق المنفرد بالخلق والمملك، والقدرة والتدبير، وعلى توحيدة سبحانه، لو أراد المشركون أن يتدبروا قضية التوحيد بإنصاف وتجرد في البحث عن الخلق والهدى.

الأول من هذه الأنواع يتمثل في الأرض، تكون ميتة جرداء لا حياة فيها ولا نبات، فيتنزل عليها الماء من السماء، وتتفجر العيون خلالها، فتحيا بعد موت، وتثمر بعد أن كانت هامدة، وذلك بما ينبت فيها من

(1) تفسير ابن كثير 369/3

(2) ينظر تفسير القرطبي 147/13

(3) تفسير ابن كثير 369/3

(4) سورة يس: 44/33

الزروع والجنات، وما يخضر فيها ويشمر من الأشجار، فيتعيش الخلق مما تنتج الأرض من الحبوب والنخيل والأعنان وسائر الثمار.

ومن دلائل تلك القدرة الإلهية أيضا وجود الأنواع والأصناف المختلفة ففي النبات أحجام وأشكال متميزة، وألوان وطعوم متعددة، وفي الإنسان ذكورة وأنوثة، وهكذا في سائر مخلوقات الله سبحانه مما لا يعلمه إلا هو عز وجل¹ "سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون".

والثاني من أنواع تلك الدلائل تعاقب الليل والنهار، والشمس والقمر ضمن نظام متسق منضبط، وحسب سنن لا تغيير فيها ولا اختلال ولا اختلاف ولا اضطراب.

"والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم".

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: "سألت النبي ﷺ عن قوله "والشمس تجري لمستقر لها" قال مستقرها تحت العرش".²

تجري الشمس من مشرقها إلى مغربها، ضمن خط سيرها المقدر لها، ثم تعود لتشرق من جديد بأمر ربها.

والقمر يسير كذلك في منازل التي قدرها الله له، فهو يكون في أول الشهر قليل الضوء، ثم يزداد نوره حتى يكتمل بدرا، ثم يعود فيتناقص نوره، حتى يتضاءل في نهاية الشهر "والقمر قدرناه منازل حتى عاد العرجون القديم".

"أي سار في منازل، فإذا كان في آخرها دق واستقوس وصغر، حتى صار كالعرجون القديم. قال قتادة: وهو العذق اليابس المنحني من النخلة".³

وبحركة الشمس تعرف الأيام، ويسير القمر تعرف الشهور والأعوال، وكل يسير كما قدر له، فلا يمكن أن يحتل النظام، أو يحصل التداخل والاضطراب "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار".

(1) ينظر تفسير الطبري 5/23

(2) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب (والشمس تجري لمستقر لها) 1806/4، وسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان 196/2.

(3) تفسير فتح القدير 370/4 (مع اختصار يسير).

والنوع الثالث مما أوردت الآيات من الدلائل فهو السفن فمخر عباب الماء، بما عليها من حمل الناس وثقل المتاع، سخرها الله عزوجل من قبل لنبى نوح عليه السلام، وسخرها من بعده للعباد "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون".

قال ابن كثير: "يقول تبارك وتعالى: ودلالة لهم أيضا على قدرته تبارك وتعالى، تسخير البحر ليحمل السفن، فمن ذلك، بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، التي أنجاه الله تعالى فيها من معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ولهذا قال عزوجل: "وآية لهم أنا حملنا ذريتهم" أي أبائهم "في الفلك المشحون" أي في السفينة المملوئة من الأمتعة والحيوانات التي أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين".¹

"وخلقنا لهم من مثله ما يركبون" يعني من السفن في البحر²، وهي إنما تجري على الماء بتسخير من الله تعالى وتقدير، وليس للبشر في ذلك قصد أو إرادة أو تدبير "وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقلدون. إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين".

(1) تفسير ابن كثير 573/3

(2) قاله ابن جرير، ينظر تفسير الطبري 11/23

الثانية: التذكير بنعم الله عز وجل.

يقول الله سبحانه على لسان هود عليه السلام مخاطب قومه:

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ."¹

يذكر هود عليه السلام هنا قومه بنعم الله سبحانه عليهم تخصيصاً وتعميماً، فقد ذكرهم بداية بنوعين من النعم:

الأول: أن الله تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح في سكني الأرض والتمتع فيها.

والثاني: أنه تعالى حباهم عظماً وضخامة في الأجسام، وهبهم قوة ومتانة في الأبدان.

ثم ذكرهم هود عليه السلام بنعم الله عليهم إجمالاً "فاذكروا آلَاءَ اللَّهِ لعلكم تفلحون".

والله تعالى المنعم عليهم بذلك خرياً بأن تَوَجَّهَ إليه العبادة وحده، دون المعبودات العاجزة عن نفع نفسها، فضلاً عن الإنعام على غيرها.

قال في التفسير الكبير: "أعلم أن هوداً عليه السلام دعا قومه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالدليل القاطع.

وذلك لأنه بين أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة، وصريح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق، لأنها جمادات والجماد لاقدرة له على شيء أصلاً، وظاهر أن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه غاية الإنعام، وذلك يدل على أنهم يجب أن يعبدوا الله وأن لا يعبدوا شيئاً من الأصنام."²

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام أيضاً ضمن خطابه لقومه:

"وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. إِنْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ."³

(1) سورة الأعراف 69

(2) التفسير الكبير 159/14

(3) سورة الشعراء: 134/132

يذكرهم هود عليه السلام بما وهبهم الله تعالى وأعطاهم، من أصناف النعم وأنواع العطايا، مما يعلمونه ويشاهدونه ويتمتعون به "واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون".

ثم فصل ذلك الإنعام الإلهي "أمدكم بأنعام وبنين. وجنات وعيون" فهو سبحانه الذي خلق الأنعام والمواشي يتفجع بها العباد، وهو الذي منح الأولاد والدرية، وهو الذي أنبت الزرع وفجر العيون. والمنعم بذلك المنفرد به عز وجل حريٌّ بأن يُشكر سبحانه، بتوحيد العبادة له تبارك وتعالى وامتنال أمره واجتناب معاصيه.

ويقول سبحانه على لسان نبي الله صالح عليه السلام يخاطب قومه:

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ..."¹

"أتركون فيما هنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتحتون من الجبال بيوتا فارهين. فاتقوا الله وأطيعون."²

تذكير سيدنا صالح عليه السلام قومه بنعم الله سبحانه وتعالى عليهم التي لاتعد، إذ أورقهم الأرض، وأسكنهم فيها من بعد عاد، يعيشون الأمن والاستقرار والاطمئنان، وفجر فيها العيون، وأنبت لهم الجنات ذات الزروع والثمار البانعات.

قال ابن جرير فيه قوله سبحانه: "وزروع ونخل طلعها هضيم" "الهضيم: هو المنكسر من لينه ورطوبته"³ والطلع هو الثمر.⁴

كما ذكرهم نبيهم عليه السلام بنعمة أخرى من الله سبحانه عليهم، إذ مكّنهم ووهبهم القوة، وسخر لهم الأسباب ويسر السبل، وفتفتوا في بناء المساكن والمنازل، يقيمون القصور في السهول، وينحتون في الجبال البيوت، في مهارة وجودة وإتقان "وتحتون من الجبال بيوتا فارهين".

قال ابن كثير: "أي حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها".¹

(1) سورة الأعراف 74

(2) سورة الشعراء: 150/146

(3) تفسير الطبري 100/19

(4) ينظر زاد المسير 47/6 .

ثم أعاد عليهم صالح عليه السلام تذكيرهم بنعم الله تميمًا وإجمالاً "فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين".

فإن من حق هذه النعم التي انفرد بها الله سبحانه أن تُقابل بالشكر، وذلك بعبادته وحده لا شريك له، وبطاعته سبحانه، والحذر من الإفساد في الأرض بالشرك والظلم والعصيان.

ويقول تعالى على لسان شعيب عليه السلام ضمن خطابه لقومه: "وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" قال ابن جرير: "يذكّرهم شعيب نعمة الله عندهم، بأن كثّر جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم، وأن رفعهم من الذلة والخساسة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية".²

من النماذج على هذا الاتجاه أيضاً في المنهج القرآني قول الله سبحانه:

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ".³

تذكر هذه الآيات القرآنية المباركة بنعم الله تعالى العظيمة، وآلائه الجسيمة التي تستوجب شكر المنعم بها بتوحيده وطاعته سبحانه.

فمن تلك النعم خلق السموات والأرض وما بينهما، والماء النازل من السماء، فتحضر به الأرض بإذن ربها، وتنبت بأنواع الزروع والثمار. مختلفة الطعوم والأشكال يسقى بماء واحد، فيكون ذلك مورداً للرزق، يأكل منه الناس ويتنفعون. ومن تلك النعم أيضاً تسخير السفن لتجري على البحر بمشيئته وتقديره تعالى، يركبونها للانتقال والارتحال، وكذلك الأنهار، يشربون منها ويتنفعون، ويسقون دوابهم وما يزرعونه من أنواع النبات.

ومما أنعم الله سبحانه على العباد تسخير الشمس والقمر، والليل والنهار في حركة دائمة وتعاقب مستمر، لكي يكتمل انتفاع الناس، فالليل للسكون والراحة، والنهار للحركة والنشاط.

(1) قصص الأنبياء لابن كثير 142/1

(2) تفسير الطبري 239/8

(3) سورة إبراهيم: 32-34

بعد ذلك تذكر الآيات مرة أخرى بنعم الله تعالى لعلى التعميم والإجمال، وأنها نعم متوالية على الأحياء لا تنقطع "وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا".

والمراد "لا تطبقوا حصرتها ولو إجمالاً فإنها غير متناهية".¹

أقول: إن جميع هذه النعم توجب وتذكر توحيد المنعم بها عزوجل بالأولية والطاعة وأنه واحد لا شريك له إن تعدوها لن تحصوها.

قال الألوسي: "وفي إبراز كل من هذه النعم في جملة مستقلة تنويه لشأنها، وتنبيه على رفعة مكانها، وتنصيب على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر".²

وقال سبحانه: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَصُبُّونَ فِيهِ أَفْلاً تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"³

تكرر الآيات الربانية تذكير نعم الله سبحانه، تتمثل في ظاهرة الليل والنهار وسرمدتها، وتعاقبهما بما يتناسب مع طبيعة الإنسان، في نشاطه ونصبه، وحاجته من بعد ذلك إلى الهدوء والراحة، كما تتحدى بعدم.

إذ لو كان الليل دائماً على الأرض لما وجد الناس الضياء الذي يبصرون فيه، ويستأنسون به، ويتحركون في أعمالهم وأسفارهم ونشاطهم ولتضررت الحياة باستمرار الليل على وتيرة واحدة، دون فخر تشرق فيه الشمس على الأحياء.

ولو كان النهار دائماً لحصلت السامة والملل، من كثرة الحركة والعمل والنشاط، ولكن الله سبحانه أراد راحة عبادته أن يتعاقب الليل والنهار، ليكون النهار بضياءه وعاء للحركة والتنقل، وتبادل المنافع مجالا للسكون بعد الحركة، الراحة بعد العناء، والهدوء بعد الجهد والعمل والاستقرار بعد الذهاب والمجيء، يخلد الإنسان فيه إلى النوم، فيقطع بالراحة والارتخاء نشاط النهار المنصرم وجهده وعنائه، ليستعد لنهار جديد مليء بالحياة والنشاط.

(1) تفسير روح المعاني 226/13

(2) تفسير روح المعاني 225/13

(3) سورة القصص 73/71

إن ذلك نعمة من الله عظيمة تقتضي من عباده الشكر ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون.

وأول علامات شكره سبحانه أن يعبد وحده عزوجل، فكما أنه تعالى لا شريك له في ذلك الإنعام على العباد وجب أن لا يعبد في الأرض سواء تبارك وتعالى.

ويقول سبحانه: "أولم يروا أنا خلقنا لهم.... أفلا يشكرون".¹

تنكر الآيات الكريمة على المشركين، وتعجب من عدم النظر في اعتبار إلى نعمة الله تبارك وتعالى عليهم، في تسخير المواشي لهم من الإبل والبقر والغنم، ينتفعون منها منافع شتى.

فهو سبحانه الذي خلقها لهم، وجعلها تحت أيديهم منقادة مقهورة وذليلة طيعة، يتخذون بعضها كالإبل ركائب لهم، تحملهم في أسفارهم وتنقلاتهم، ويتمتعون بالأكل منها حين يشاؤون، ويشربون من الألبان ويستخلصون الدهون والأسمان، ويستفيدون من الجلود والأصواف، إلى غير ذلك من أصناف المنافع.

تلك النعمة عظيمة لمن تأملها، وأزال دواعي الغفلة عنها، وهي نعمة كفرها م النعم الإلهية تستوجب شكر المنعم بها سبحانه (أفلا يشكرون) ويتحقق الشكر بالإيمان به عزوجل، وتوحيده في عبادته وطاعته وتقواه تبارك وتعالى.

الثالثة: الترغيب والترهيب:

يقول الله سبحانه وتعالى على لسان رسله عليهم السلام في الرد على تكذيب أقوامهم:

"قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَيُّ إِلَهِ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ".²

فالرسل عليهم السلام يرغبون أقوامهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده سبحانه، ويعدونهم على ذلك بغفران الذنوب، والعفو عن الخطايا، وستر الآثام، وبالأمان في الدنيا، والنجاة من عذاب الاستئصال.³

(1) سورة يس: 71/73

(2) سورة إبراهيم: 10

(3) ينظر تفسير البغوي 27/3

وفي قصة نوح عليه السلام يقول تعالى:

"إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ."¹

"أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ."²

"فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا."³

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ."⁴

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ..."⁵

هذه الآيات تبين أن نوحا عليه السلام دعا قومه إلى الله الواحد وأنذرهم ب، وخوفهم من العقاب الأليم والعذاب العظيم من الله سبحانه، إذا استمروا على شركهم وتكذيبهم. كما وعدهم نوح عليه السلام في حال إيمانهم بالله تعالى بغفران الذنوب، ومحو الآثام، وتنزل الرحمة الإلهية عليهم، ونجاتهم من الهلاك والعقاب الدنيوي ذلك أن الله تبارك وتعالى (غفار) يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات لمن تاب إليه وأناب وندم.

فسيدنا نوح -عليه السلام- هو أحد أنبياء الله الذين أرسلهم لهداية أقوامهم، حيث أنه كان في قوم نوح قبل ولادته بزمان رجال صالحون فلما ماتوا قرر الناس أن يصنعوا لهم تماثيل لكي تبقى ذكراهم خالدة، وبعد مدة من الزمن اندثرت القصة الحقيقية، فعبد الناس الأصنام واتخذوها آلهة، فقام سيدنا نوح فيهم ودعاهم إلى نبذ عبادة الأصنام، واستخدم معهم كل أساليب الدعوة من تهديد ووعيد، إلا أنهم قد استمروا على كفرهم، ولذلك فإن النبي نوح من الرسل أولو العزم وذلك لما قاساه من أصناف العذاب في دعوته، ولكن الله -عز وجل- بأي إلا أن ينصر عباده المؤمنين.

(1) سورة نوح: 1-4

(2) سورة الأعراف: 63

(3) سورة نوح: 10-12

(4) سورة الأعراف: 59

(5) سورة هود: 25-26

كما وعدهم عليه السلام، وهو يرغبهم في توحيد الله سبحانه والتوبة إليه، بالهناء في الدنيا، والسعادة في الحياة، وذلك بتيسير أسبابها، وتهيئة سبلها، متى ما آمنوا برههم، واتجهوا إليه بالعبادة والإنابة والاستغفار (قلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا) أي متواصلة الأمطار (ويعدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتهم وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسفاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين: أي أعطاكم الأموال والأولاد، وجعلكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها. هذا مقام الدعوة بالترغيب".¹

"قال قتادة: كانوا أهل حب للدنيا، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها".²

"وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَخْفَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ".³

"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ".⁴
 "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ خَفِيفٌ".⁵

"وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".⁶

"وَمَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَرْزُقْكُمْ فَرَقًا إِلَى قَوْمِكُمْ وَلَا تَقُولُوا مَجْرِمِينَ".⁷

(1) تفسير ابن كثير 4/425 (مع اختصار يسر).

(2) تفسير روح المعاني 90/29

(3) سورة الأحقاف: 21

(4) سورة الشعراء، الآية: 132-135

(5) سورة هود، الآية: 57

(6) سورة الأعراف 29

(7) سورة هود: 52

سيدنا هود عليه السلام أنذر قومه، وحذّرهم عذاب الله تعالى في الآخرة، إن هم أصروا واستمروا على السخرية والتكذيب، والمخالفة لأمر الله تعالى، والاستكفاف عن طاعته سبحانه، كما أنذرهم العقاب العاجل في الدنيا (ويستخلف ربي قوما غيركم).

سيأتى الله بقوم يعرفون الله بإطاعته ونواحيه حق معرفته ويستبدل قوما غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم، وقد فعل الله سبحانه، حين قال قوم هود عليه السلام، من أشد منا قوة، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون.

قال الألوسي: "هذا كما قال غير واحد: استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم، ويستخلف قوما آخرين في ديارهم وأموالهم".¹

وبالمقابل فقد رغبهم هود عليه السلام في توحيد الله وطاعته، والتوبة إليه، وترك عصيانه، بالفلاح يوم القيامة بنعيم الله ورضوانه، والفلاح في الدنيا بالاستمتاع بنعمة الله تعالى، فيما ينزله من السماء من الأمطار المتتابعة التي تخضر بها الأرض، وتنبت بها الزروع والثمار، وفيما يفيض به عليهم سبحانه من القوة والشدة، يمكنهم بها عزوجل من الانتفاع بما أنعم عليهم، وسخره لهم في الأرض.

ويقول الله عزوجل على لسان نبيه صالح عليه السلام يخاطب قومه:

"وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ".²

"قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ".³

"وَأِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ".⁴

"وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ رَبِّ".⁵

(1) تفسير روح المعاني 84/12

(2) سورة هود: 61

(3) سورة النمل: 46

(4) سورة الأعراف: 73

(5) سورة هود: 64

"قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ."¹

أقول: يركز في هذه الآيات المباركة دعوة سيدنا صالح عليه السلام وترغيبه قومه إلى الإيمان بالله، وتوحيده وطاعته، والتوبة إليه سبحانه، وذلك بذكر النتيجة الطيبة المترتبة على ذلك، من تنزل رحمت الله تعالى عليهم، ومغفرته لما سبق منهم من الشرك والعصيان، فهو سبحانه قريب من الموحدين، مجيب لدعاء المؤمنين ومعذب للعاصين المستمرين على عدوانهم.

وكما يلاحظ في قصته أن الناقة كانت بلاء عظيم من الله، وتحذيره عليه السلام لقومه عدم عقرها، ومن عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، إن هم خالفوا أمره، وتعرضوا للناقة التي نحا عنها بسوء منهم.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام يقول تبارك وتعالى:

"وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ."²

"وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ."³

في هذه الآية الكريمة ترغيب سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه في عبادة الله وتقواه، ويدعوهم إلى الله تعالى، إن هم استجابوا لذلك، فأمنوا بالله سبحانه، ووحده في العبادة، بأن يحصل لهم الخير العميم في الدنيا والآخرة وسيكون لهم عقي الدار.

كما حذرهم عليه الصلاة والسلام إن هم استمروا على ما هم عليه من عبادة الأصنام والشرك بعقاب الله تعالى، وعذابه في نار الآخرة، حين نزول مودتهم، وتنتهي صداقتهم، وتتراهم معبوداتهم، وحينها لا يجدون وهم في ذل العذاب وليا لهم، ولا ناصرا ينجيهم، ويدفع عنهم العذاب.⁴

ويقول سبحانه في قصة لوط عليه السلام:

(1) سورة الشعراء: 155-156

(2) سورة العنكبوت: 16

(3) سورة العنكبوت: 25

(4) ينظر: تفسير البضاوي 207/2، زاد المسير 128/6

"وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ. وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي."¹

منهج سيدنا لوط عليه السلام في دعوتهم إلى الله تعالى كان تخويف قومهم بعذاب الله وبأسه، وترهيبهم من عقابه سبحانه وانتقامه بكل إخلاص وحب.

ويقول عز وجل على لسان نبيه شعيب عليه السلام يخاطب قومه: "وَأِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ."² واستغفروا ربَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَىٰ إِلَهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ"³

"يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ"⁴

"وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"⁵

"وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ بِئْسَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ بِنَتْنِكُمْ بَعْجِدٍ"⁶

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أُعْزِّي عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ"⁷

بشارة من سيدنا شعيب عليه السلام إلى قومه بالخيرية والنصح والفلاح، والفوز في الدنيا والآخرة، إن هم استجابوا لدعوته، فآمنوا بالله ووجدوه، واستقاموا على نهجه، وتباعدوا عن معصيته تعالى.

(1) سورة القمر: 36

(2) سورة الأعراف: 85

(3) سورة هود: 90

(4) سورة هود: 84

(5) سورة الأعراف: 86

(6) سورة هود: 89

(7) سورة هود: 92-93

كما يرغبهم ويحببهم في العودة إلى رحمهم، والإنابة إليه مستغفرين تائبين، ويعددهم على ذلك برحمة الله سبحانه ومغفرته، وبغفوه ورضاه فإن الله تعالى هو الرحيم الودود، يرحم عباده التائبين المنيبين، ويحبهم ويودهم تبارك وتعالى.

وفي المقابل حذّره شعيب عليه السلام من زوال نعم الله التي يتقلبون فيها، ومن عقاب الله سبحانه في الدنيا، وعذابه في الآخرة إن استمروا على تكذيبهم وكفرهم (إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محبط).

كما دعاهم وذكرهم بأيام الله تعالى إلى التأمل والاعتبار بالنهاية والعاقبة التي آل إليها حال المكذبين من الأمم السابقة (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين)، ويخوفهم السابقين من العذاب، ماداموا على التكذيب والشرك والمخالفة والعصيان (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصبىكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) كما يهددهم عليه السلام ويتوعددهم بأن الله سبحانه عليهم بأحوالهم، نحيط بأعمالهم، وإذا أصرروا على ما هم فيه فإن النكال والعقاب الإلهي لا حق بهم، وبأسه سبحانه نازل بهم (إن ربي بما تعملون محيط. ويا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارنقبوا إني معكم رقيب).

ويقول الله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام:

"فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآئِنًا مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى¹"

وفي ذلك ترغيب وترهيب: أما الترغيب ففي قوله: (والسلام على من اتبع الهدى).

قال ابن جرير: "يقول والسلام لمن اتبع هدى الله".²

وفي تفسير القرطبي: "قال الزجاج: أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه".³

(1) سورة طه: 47-48

(2) تفسير الطبري 171/16

(3) تفسير القرطبي 136/11، معاني القرآن 358/3

وأما التهيب ففي قوله: (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) فإنه يتضمن الإنذار والتخويف بعذاب الله سبحانه، وعقابه في الدنيا والآخرة، لمن كذب رسل الله تعالى، وأعرض عن الإيمان بالله وتوحيده وطاعته جل وعلا.

أما الترغيب والتهيب في دعوة رسولنا ﷺ المنهج القرآني يحوى من ذلك كما كبيرا، أكتفي منه بإيراد بعض الأمثلة اليسيرة فيما يلي:

يقول الله تبارك وتعالى: "الرَّكَّتَابُ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".¹

نعم في هذه الآيات الكريمة توجيه رباني لرسول الله ﷺ أن يدعو الناس إلى الله وحده ويأمر الناس بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينذرهم عقاب الله سبحانه يوم القيامة، إن خالفوا أمره، وأشركوا في عبادته غيره، وأن يشرهم بثواب الله تعالى، إن لبوا بدعوته وأخلصوا دينهم لله سبحانه.

و تبين الآيات النتيجة الطيبة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، للإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار من الشرك والذنوب والآثام.

أما العاقبة الدنيوية فذلك في قوله (يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى) والمعنى "استغفروا ربكم ثم توبوا إليه، فإنكم إذا فعلتم ذلك بسط عليكم من الدنيا، ورزقكم من زينتها وأنسا لكم في آجالكم إلى الوقت الذي قضى فيه عليكم الموت".²

وأما العاقبة الأخروية ففي قوله: (ويؤت كل ذي فضل فضله فصاحب الفضل بالطاعات إنفاقا أو قولا أو عملا يريد بذلك وجهه سبحانه فإن جزيل الثواب وعظيم الأجر ينتظره في الآخرة".³

وتنذر الآيات بعد الترغيب إلى التهيب والتخويف بالعذاب يوم القيامة لمن أعرض عن توحيد الله وطاعته سبحانه "وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير".

ويقول الله تعالى: "وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ رُمًّا..."⁴

(1) سورة هود: 1-4

(2) تفسير الطبري 181/11

(3) ينظر تفسير الطبري 181/11-182

هذه الآيات الكريمة تثير في الإيمان بالله وتوحيده، وتحذر من الكفر والإشراك به سبحانه، وذلك ببيان حال الكفار، وحال المؤمنين يوم القيامة.

أم الكافرون فإنهم لشقائهم بساقون إلى نار جهنم أفواجا وجماعات، فتفتح لهم أبوابها، ويخاطبهم خزنتها من الملائكة تبكيها لهم وتقريعا وتوبيخا: "ألم يأتكم رسل منكم..... مثوى المتكبرين".

وأما المؤمنون المتقون فإنهم لسعادتهم يحشرون إلى الجنان، وتفتح لهم الأبواب، وتستقبلهم الملائكة تحيهم "سلام عليكم طبتهم فادخلوها خالدين" يتقبلون في نعيم الجنات، ويحمدون ربهم أن صدقهم الوعد فأنزلهم دار كرامته، يعيشون فيها اللذة والحبور "وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الرض نتبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين".

ويقول تبارك وتعالى: "إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا. لِلطَّاغِينَ مَأْبًا. لَا يَخْرُجُ فِيهَا آخْفَاءًا."²

وهذه الآيات، إلى آخر السورة النبأ أيضا توضح مصير الكافرين والمؤمنين في الدار الآخرة ترغيبا في الإيمان وترهيبا من الكفر. كما أن الجنة للمتقين والجهنم للطاغين مأباً..

تلك العقوبات إنما هي وفق أعمال هؤلاء الكافرين الطاغين في الدنيا فقد كانوا ينكرون توحيد الله وإطاعة رسوله يوم البعث والجزاء، ويكذبون بحجج الله ودلائله التي جاء بها الرسل عليهم السلام، ولذا يقال لهم وهم في النار: ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذابا، جزاءا وفاقا....

وفي المقابل يخبر الله تعالى عن حال السعداء المؤمنين المتقين، فيبين عز وجل أن مصيرهم إلى الجنان، يجدون فيها النزهة والبهجة والسرور ويستمتعون بالحدائق وما تحويه من أنواع الثمار، ويتلذذون بالخور النواهد الأبيكار، وبأكواب الشراف المملوءة الصافية، وهم في كل ذلك يعيشون في دار السلام، لانقص فيها ولا لغو ولا كذب.

ذلك الجزاء للمؤمنين في جنات النعيم إنما هو من ربهم سبحانه، أعاهم إياه برحمته عطاء كافيا وافيا كثيرا، وجازاهم بذلك سبحانه تفضلا منه وإحسانا بسبب إيمانهم وتوحيدهم وطاعتهم له عز وجل.³

(1) سورة الزمر: آية 71-74

(2) سورة النبأ: 21-36

(3) ينظر تفسير ابن كثير 463/4-465

ومن نماذج الترغيب والترهيب أيضا ما عرضه القرآن الكريم في سورة كثيرة من قصص الأنبياء كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليه السلام، وأحوال الأمم معهم، وعاقبة المؤمنين المتقين، ونهاية المكذبين المخالفين.

إن ذلك كله يحمل في ثناياه الترغيب لمن بعث إليهم نبينا - ﷺ - في الإيمان بالله، وإخلاص العبادة له، والاستقامة على منهجه، وطاعة رسوله ﷺ.

كما أن فيها ترهيبا من الشرك بالله، ومخالفة أمر، وتكذيب رسوله ﷺ، فإن عاقبة ذلك سيئة وخيمة، وتتضح لكل من تدبر في قصص السابقين.

ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك في إيجاز قول الله تعالى: "كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ..."¹

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ. وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ..."²

"كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِيهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالنَّبِاطِ لِيُذِخُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ"³

يوضح أن هذه الآيات الكريمة وأمثالها تحذر المشركين من نفس المصير إذ أن الله تبارك وتعالى سنته الماضية في عقاب المكذبين والمخالفين وكثيرا ما يدعو القرآن الكريم إلى تأمل أخبار السابقين، والنظر في أحوالهم، والاعتبار بما آل إليه أمرهم، والانتعاظ بمصيرهم وعاقبتهم ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

"أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بَيْنَ قَرْنٍ مَكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ قِطْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ."⁴

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ."⁵

(1) سورة ق: 12-14

(2) سورة ص: الآية 11-14

(3) سورة غافر: 5

(4) سورة الأنعام: 6

(5) سورة الأنعام: 11

"أَقْلَمَ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى."¹

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ."²

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ..."³

"أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ."⁴

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ. ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ."⁵

أقول: في ظل هذه الآيات الكريمة أن من علم وأخلص وتيقن بآكام الله -تعالى- وتاريخ الأولين، عليم أن للطغاة المجرمين المستبدين من الملأ في الأرض الذين انزلوا بالمسلمين الفساد والشرور، وشردوا الشعوب وقاموا من الجرائم ما يعز على الحصر، واستباحوا من الحرمات وسفك الدماء يفوق الوصف... علم أن لهم من أيام الله -تعالى- يكتب فيها ذلهم، "وَتَمَرَّقُوا فِيهَا ذُؤُلُمًا، وَلَوْ عَزَّوْهُمْ قُوَّتُهُمْ وَجَمْعُهُمْ، وَتَحَالَفُوا عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ لِإِفْنَائِهِمْ. وَإِنَّ لِلْمُظَلِّمِينَ يَوْمًا يَنْتَصِرُونَ فِيهِ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُمْ، وَمَا نَفَعُ فِرْعَوْنَ جَمْعُهُ وَقُوَّتُهُ لَمَّا أَغْرَقَهُ اللَّهُ -" -تعالى- و تحدى عاد استكبروا في الأرض وقالوا من أشد منا قوة، كما نجد اليوم أن بعض الدول النامية المستبدة من الملأ الخاص لحزب الشيطان قالو بلسان الحال من أشد مناقرة، فأجاب الله اليوم بكرونا قائلا: وما يعلم جنود ربك إلا هو، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة.

سبحانك ما أعظم شأنك توت الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل بيدك الخير إنك على كل شئ قدير.

(1) سورة طه: 128

(2) سورة النمل: 69

(3) سورة الروم: 9

(4) سورة السجدة: 26

(5) سورة غافر: 21-22

الثالث: الولاء لله ورسوله، والبراء من الكفار والمشركين

إن من أساسيات منهج الرسل عليهم السلام الولاء والبراء.

الولاء لله سبحانه، وإسلام الوجه له عز وجل، والتوحيد المطلق تبارك وتعالى، والبراء من مظاهر الشرك وصور الكفر، وقطع الصلة والمودة القلبية بالكافرين والمشركين.

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يعلن في مواجهة المذكبين توجهه لربه تعالى وحده، وموالاته له عز وجل:

"فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ".¹

"أي وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل".²

و يعلن سيدنا هود عليه السلام، وهو يرد على مقولات الكاذبة لقومه، ببراءته الشرك الذي جعلوه منهجا لهم، واتخذوه سبيلا: "قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُون. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".³

فسيدنا هود عليه السلام يعلن للمشركين مفاصلته لعقائدهم الزائفة والكاذبة، ودينهم الباطل، وبراءته من الآلهة المدعاة التي جعلوا منها أندادا لله رب العالمين وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم، وقد اتخذوا غير طريق الله طريق وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على ويشجة، وقد انبتت بينهم وشيجة العقيدة.

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين، وانعزاله عنهم، وانفصاله منهم، ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم كي لا تبقي في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم.⁴

أما خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام فقد صرح بالولاء لربه سبحانه والبراءة من الشرك والمشركين، في قوة ووضوح وتأکید، دون مجاملة ولا مواربة، وبأساليب متعددة، وفي مواقف مختلفة.

(1) سورة يونس: 72

(2) تفسير ابن كثير 425/2

(3) سورة هود: 54-56

(4) في ظلال القرآن: 1898/4-1899

فحين ناظر قومه، وبين لهم بطلان عبادة الكواكب من دون الله تعالى أعلن لهم براءته الحاسمة من شركهم وضلالهم وكفرهم: "قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ."¹

وبعد البراء مباشرة أعلن الخليل ولأنه المطلق لله سبحانه الذي بيده مقاليد الأمور، وأوضح أن توجهه إنما هو لفاطر السموات والأرض، يخلص له الدين، ويفرد له العبادة، متباعدا عن كل العقائد الضالة والمناهج الشريكة، مسلما وجهه لله خالقه وبارئه: "إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَائِفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ."²

وهكذا أعلن الخليل عليه السلام قواعد منهجه، فصرح بمفارقة للشرك، ومفاصلته للشركين، وتبرئه من كل الآلهة الزائفة والمعبودات المدعاة، وأن علاقته بها عداوة بارزة واضحة، لا غش فيها ولا التواء.

"قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ."³

"والاستثناء في قوله (إلا رب العالمين) منقطع: أي لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو ولي في الدنيا الآخرة."⁴

ذلك الموقف من إبراهيم عليه السلام يحكيه أيضا قول الله سبحانه (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون. إلا الذي فطرنى فإنه سيهدى).⁵

إن إبراهيم علي السلام يؤكد في مواجهتهم أن الوشيجة الوحيدة التي يلتزم بها هي وشيجة الإيمان بالله تعالى، وماعدا ذلك من الروابط والوشائج، فإن حياها مقطوعة، وصلاتها مبتورة، وهو برىء منها على كل حال.

فلا صلة بينه وبين قومه ماداموا على الكفر، ولا ولاء ولا مودة وهم على الشرك عاكفون: (قد كانت لكم أسوة... بالله وحده).⁶

(1) سورة الأنعام: 79

(2) سورة الأنعام: 79

(3) سورة الشعراء: 75-77

(4) تفسير فتح القدير: 105/4

(5) سورة الزخرف: 26-27

(6) سورة الممتحنة: 4

قال ابن كثير: "(كفرنا بكم) أي بدينكم وطريقتكم (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، مادمت على كفركم، فنحن أبدا نتبرأ منكم وبغضكم (حتى تؤمنوا بالله وحده) أي إلى أن توحيدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما عبدون معه من الأوثان والأنداد".¹

إنه عليه السلام يفصلهم في الدين والعقيدة، ويتبرأ منهم ومن معبوداتهم، ويعلن كفره بمنهجهم ودينهم، ويصارعهم بما يحمله لهم من العداوة والكراهية، مبينا لهم أن السبب في ذلك هو إصرارهم على الكفر بالله تعالى، ومخالفة أمره سبحانه، وحين تزول هذه الأسباب بالعودة إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده، فإن تلك المعاداة مستحولة إلى موالاة، والبغضاء تستبدل بحبة ومودة.

ويسير لوط عليه السلام على نهج سلفه إبراهيم عليه السلام، فيتبرأ من قومه الكافرين المفسدين، ومن عملهم وصنيعهم كفرا بالله تعالى وانغماسا في الفاحشة والرديلة:

قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ. رَبِّ نَجِّنِي وَأَقِلِّي يَمًّا يَغْمَلُونَ...²

"أي المبغضين، لا أحبه ولا أرضى به وإني برىء منكم".³

ولنبينا ورسولنا محمد ﷺ علاقة مع ربه سبحانه بأن يفصل الكافرين في قضية الألوهية، وأن يعلن توحيده الله تعالى، وولاءه لربه عز وجل في قوة ووضوح، وأن يجاهر بالبراءة من المشركين، والعداوة لمظاهر الشرك وعبادة الأنداد من دون الله تبارك وتعالى، ومن تلك التوجيهات الإلهية لرسول الله ﷺ: "قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَكْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".⁴

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ".⁵

(1) تفسير ابن كثير 348/4

(2) سورة الشعراء: 168

(3) تفسير ابن كثير 345/3

(4) سورة الأنعام: 14

(5) سورة يونس: 104-105

"...قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ."¹

"قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ...."²

"إِنِّ عَصَاكَ قُلٌّ لِيَّ بَرِيءٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ."³

"...أَتُنَبِّئُكُمْ لَتَشْهَدُنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ بِمَا تُشْرِكُونَ."⁴

ولا ريب فيه أن نبينا عليه الصلاة والسلام تبرا من الكافرين، وأعلن بالعداوة والبغض لجميع أنواع الشرك والكفر ومناهجهم، وما يعبدونه من دون الله عز وجل، وتوجه إلى ربه تبارك وتعالى، معلنا أنه لا إله إلا الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وهو خير حافظا وهو أرحم الراحمين.

الرابع: التأكيد على نزاهة الدعوة وتجردها

أعداء الإسلام يبذل جهودهم ضد الرسائل الإلهية. لذا كان من منهج الرسل عليهم السلام الحرص على وضوح الدعوة، وجلاء مرادها، وتقديمها إلى الناس تقية صافية مجردة من الأغراض الشخصية، بعيدة عن المصالح والغايات الأرضية الخاسرة، منزهة عن الشهوات المادية والمطامع الدنيوية الدنية التي لا تأتى بخير.

ومع أن شخصيات الرسل عليهم السلام بعيدة عن حب الثناء، والرغبة في المديح، وعرض المزاي الذاتية، وذكر الصفات الشخصية إلا أن أهمية هذه المسألة - أي تجرد الدعوة ونزاهتها - كانت تدفعهم عليهم السلام إلى أن يقدموا لأقوامهم بيانا واضحا، يكشفون فيه أنهم لا يستهدفون من وراء الدعوة أغراضا مادية، أيا كانت، وهدف تحركهم، وغاية دعوتهم.

والأمثلة على هذا الاتجاه في القرآن الكريم كثيرة منها:

ففي قصة نوح عليه السلام يقول الله تعالى: "كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ."¹

(1) سورة الأعراف: 195-196

(2) سورة الكافرون: 1-6

(3) سورة الشعراء: 216-217

(4) سورة الأنعام: 19

"وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ."²

"فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ."³

وفي قصة هود عليه السلام يقول الله تعالى: "كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ."⁴

"يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ."⁵

وفي قصة صالح عليه السلام يقول سبحانه: "كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ."⁶

وفي قصة لوط عليه السلام يقول عز وجل: "كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ."⁷

وفي قصة شعيب عليه السلام يقول تبارك وتعالى: "كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ."⁸

وأعلنها كذلك خاتم الرسل نبينا ﷺ لقومه، كما أمره ربه سبحانه.

قال تعالى: "قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجَرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْدٌ لِلْعَالَمِينَ..."⁹

(1) سورة الشعراء: 105-109

(2) سورة هود: 29

(3) سورة يونس: 72

(4) سورة الشعراء: 123-127

(5) سورة هود: 51

(6) سورة الشعراء: 141-145

(7) سورة الشعراء: 160-164

(8) سورة الشعراء: 176-180

(9) سورة ص: 86

"قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"¹

"...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"²

يستفاد من هذه الآيات المباركات: من قواسم المشتركة بين الأنبياء والرسل عليهم السلام والدعاة المخلصين أنهم يستهدفون من هذه الدعوة أن يعلموا أقوامهم على حقيقة ما يحملونه من الرسالة السماوية الربانية، وأن يطمئنوهم على أنهم عليهم السلام ليس لهم غرض في أموالهم ومتاعهم، وأنهم لا يريدون من وراء هذه الدعوة أغراضا خاصة، أو أطماعا ذاتية، أو مطالب دنيوية، أو مقابلا ماديا على الدعوة والنصيحة وثمنا عاجلا للإيمان والهداية، وإنما كان الغرض للجميع هداية البشرية إلى الطريق المستقيم.

والتفكير في هذا الجانب لا يسمنهم ولا يغنيهم من جوع، لا يهمهم ولا يعينهم، وليس هو مما يبحثون ويستهدفون.

إن الحقيقة أنهم عليهم السلام ينتظرون جزيل الأجر وعظيم الثوبة من ربهم سبحانه، ولا يتطلعون إلى غيره تبارك وتعالى، إذا وجدنا الله فماذا فقدنا لم نفقدوا شيئا، وإذا فقدنا الله فقدنا كل شيء لم نجد شيئا، هذا دأب الدعاة والمرسلين عليهم السلام.

قال الألوسي عند قول الله تعالى: (يا قوم لا أسئلكم عليه أجرا): "خاطب كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه، وتمحيضا للنصيحة، فإنها مادامت مشوبة بالمطامع بمنزل عن التأثير"³.

ومن هنا عرفنا أن مهمة الرسل عليهم السلام ووظيفتهم إنما هي النصيحة والبلاغ، وأن الذي يعينهم ويهمهم، ويبدلون من أجله الجهد والعناء، إنما هو الدعوة إلى الله تعالى في إخلاص وصفاء وتجرد، وإصلاح العباد وهدايتهم إلى طريق الهدى والإيمان، وإلى توحيد ربهم وعبوديته سبحانه، لينالوا بها رضى الله سبحانه في حياتهم الدنيوية والأخروية.

(1) سورة سبأ: 47

(2) سورة الأنعام: 90

(3) تفسير روح المعاني: 80/12

هذا ما تشهد به دعوات الرسل عليهم السلام: فهذا نبي الله نوح عليه السلام يقرر ذلك وهو يرد على اتهام المكذبين: "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ".¹

"وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ".²

وكذلك يدعو سيدنا هود عليه السلام: "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ".³

"قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَّجَاهِلُونَ".⁴

ويؤكد سيدنا شعيب عليه السلام تلك الحقيقة: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَакُمْ عَنْهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ".⁵

ويقوم سيدنا موسى عليه السلام دعوته: "وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ".⁶

ويكمل رسولنا ﷺ غايته: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ".⁷

"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ".⁸

"قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ".⁹

(1) سورة الأعراف: 61-62

(2) سورة الشعراء: 114-115

(3) سورة الأعراف: 67-68

(4) سورة الأحقاف: 23

(5) سورة هود: 88

(6) سورة الأعراف: 104-105

(7) سورة الأنعام: 159

(8) سورة الحج: 49

"وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"²

"قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا رَبِّ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ"³

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَذًا. إِلَّا بَلَغَا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ...⁴

تلخيص مهمتهم يعبرها القرآن الكريم: "إني لكم رسول أمين".⁵

انطلاقاً من الآيات الشريفة: ها هي الدعوة الخالصة لله رب العالمين، أمنياتهم منها فقط تحقيق ما أوكله الله عزوجل إليهم من أداء الأمانة وهي الرسالة الإلهية، عسى أن يعلموا الناس الخير ويرشدوهم إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات والأرض، ليسعدوا في الدنيا والآخرة.

ومما يجرب في عصرنا الحاضر أن الدعوة إلى الله تعالى أصبحت مطامع دنيوية ومصالح ذاتية، حيث أن المادية أصبحت جبلة الإنسان لكثرة ممارساتهم بها، بل يوجد كثير من المنتسبين من الدعاة المتعلقين للملأ المفسد الساسة وغيرهم يدافعون عنهم بكل قوة، ولا يزالون يواجهون حتى يردون المسلمين عن عقيدتهم وأخلاقهم وثقافتهم وأفكارهم، إن استطاعوا.

الخامس: التقريب بالملأ حرصاً على الدعوة إلى الله تعالى

يمهد الطرق للمتأمل والمتدبر في الحركة الدعوية في القرآن الكريم حرص الرسل عليهم السلام على أن تصل الدعوة إلى الملأ من السادة والأشراف، وذوى الجاه والمنصب، وأن تحصل لهم النصيحة، ويبلغهم أمر الدين والرسالة النبوية.

(1) سورة فصلت: 6

(2) سورة الأنعام: 19

(3) سورة الأحقاف: 9

(4) سورة الجن: 22-23

(5) سورة الشعراء: 107، 125، 143، 162، 178. سورة الدخان: 18

وهذه هي السنة الإلهية أخذنا من الأنبياء والرسل عليهم السلام أنهم كانوا حريصين للجميع بالخير والفلاح، كبارا كانوا أو صغارا، ملائكة كانوا أو غيرهم.

ونجد في قصة نوح عليه السلام - استبداد الملائكة للدعوة: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ. إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَّا تَتَرَفَّصُوا بِهِ خَتَّىٰ جِينًا).¹

"قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ."²

كما نلاحظ رد نوح عليه السلام، موضحا للحقائق، ومحجبا على مقولاتهم، وباذلا محاولاته المتنوعة في التأثير عليهم، وترغيبهم في الإيمان. والأمر ذاته نلاحظ في قصة هود عليه السلام:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ. وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ."³

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيعَادِهِ لَئِن لَّمْ يَهِتُمْ فِي الْآخِرَةِ أَذُنًا حَاتِثَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ."⁴

ويستمر نبيهم عليه السلام جهده في إقناعهم، وهدايتهم، وإزاحتهم عن موقفهم المناهض للرسالة، مع أن المواجهة السيئة من الملائكة موجودة.

لم يكن سيدنا نوحا وهودا عليهما السلام لم بعيدين عن أولئك الملائكة، بل كانت لهما معهم علاقة و اتصالات ولقاءات، لدعوتهم إلى الله تعالى، ومحاربتهم، والتأثير عليهم، وتوضيح حقائق الدين لهم.

ونلاحظ في قصة صالح عليه السلام ذلك الحوار بين الملائكة المستكبرين وبين المستضعفين من المؤمنين في شأن صالح عليه السلام ودعوته: "قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ."¹

(1) سورة المؤمنون: 24-25

(2) سورة الأعراف: 60

(3) سورة الأعراف: 66

(4) سورة المؤمنون: 33

وفيه دليل عظيم على أن العلاقة والتواصل كان بينهم و أن دعوة الله كانت قد بلغت أولئك الملأ، وعلموا عنها لاشيء الكثير، ولم يكن ذلك إلا عن طريق نبي الله صالح عليه السلام الذي بين لهم الدين الحق، وبشر وأنذر، ولكنهم مكروا به وبدعوه (فَعَقَرُوا النَّاقَةَ... من المرسلين).²

ونلاحظ حديث القرآن الكريم عن حوار سيدنا إبراهيم عليه السلام لقومه وسادتهم في شأن عبادة الأصنام، ولما انتصر عليهم في ميدان الحجة واجهت الملأ و السادة بأسلوب سئ: "قَالُوا خَرَّبُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ..."³

كما يحدثنا القرآن عن لقاءه بالنمرود، ومحاورته ومحاجته له: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ..."⁴

والأمر في قصة موسى عليه السلام واضح، إذ كانت لنبي الله عليه السلام لقاءاته الطويلة وتواصله المديدة بفرعون وملئه، يقرر لهم قضية عقيدة التوحيد، ويقوم لهم بالحجج والبراهين، ويشرح لهم بلين وترفق في دعوتهم إلى الله تعالى كما أمر سبحانه.

فيه إشارة عظيمة إلى أن الرسل عليهم السلام لم يقتصرُوا في دعوتهم على عوام الناس، بل كان من منهجهم الاتصال بأكابر القوم وذوى التأثير فيهم، وتبليغهم دعوة الله سبحانه، وبذل الجهود معهم في حكمة وروية، لإقناعهم بالحق، وهدايتهم إلى ربهم سبحانه وتعالى.

أقول: ولقد اختار وسار رسولنا ﷺ على المنهج السابق للأنبياء عليهم السلام، فالتقى بسادة قريش وكبرائها، يدعوه إلى الله تعالى، ومحاورهم في شأن الدين، راجيا هدايتهم وإيمانهم، ومن ثم نصره الدين والدعوة إلى الله عز وجل.

ولم يكن عليه الصلاة والسلام ينتظر قدومهم، بل كان يبادر إليهم في مجالسهم، ويتنهر فرصة اللقاء بهم، ليدعوه إلى دين الله سبحانه في لين وحكمة وأناة.

(1) سورة الأعراف: 75-76

(2) سورة الأعراف: 77

(3) سورة الأنبياء: 68

(4) سورة البقرة: 258

كما كان يفعل ذلك مع القادمين إلى مكة في المواسم وغيرها، "يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع يقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى¹ له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده"².

ذلك أنه عليه الصلاة والسلام يدرك أن هؤلاء الكبراء دورا في التأثير على أقوامهم وأتباعهم، والنتيجة المتوقعة لإسلامهم عظيمة وكبيرة.

ويؤكد أن كبار القوم وأشرافهم هم جزء من الأمة التي كلف الرسل عليهم السلام بإيصال الدعوة إليهم، بالإضافة إلى أن هؤلاء تأثيرا في عموم الناس في العادة، واستجابة أحدهم لدعوة الله تعالى له أثره في العدد الوفير من جمهور الناس وعامتهم.

وفي الواقع لكل قبيلة أشراف وكبار لهم شرف في المجتمع وفي عامة الناس، يسمع ويطاع، يؤمن ويسلم، بل لهم صيت في الحضارة والبداءة، حين يسمع أن فلانا (خان، اوملكا، أو جودهرى، أو وديره...) يخاف الناس من جلالهم وعلو شأنهم في الشعب والفرد والمجتمع.

وأكرر: وبناء على هذا ركز بعض الوعاظ والدعاة على المنهج الرسل عليهم السلام، وساروا عليه، لكن المشكلة التي نخدها من زمن أن كل داع يدعو إلى المذهب الذى يسير عليه هو، على سبيل المثال:

لجميع جماعات الإسلامية دعاة خاص ينتمى إليها، منها: أهل السنة والجماعة وهى على أنواع عديدة منها الديوبندية، والسلفية، والبريلوية... الداعية الديوبندية يدعو إلى الديوبندية قبل أن يدعو إلى الله تعالى، والداعية السلفي كذلك، والبريلوية، على هذا القياس، فهذه المشكلة فرقت كلمة الأمة ومزقت وحدة العقيدة، وأصبحت لقمة العيش للماديين، وسخرية لمن يريد المنازعة بين المسلمين.

وين الأمة، وين الوحدة، وين الأخوة الإسلامية، وين الرسالة، وين الدعوة إلى التوحيد؟

إذا كنا الدعاة مرضى بأنفسهم فكيف يعالجون المرضى من الملأ والأشراف والكبار والصغار ومحسنون التواصل والعلاقة بينهم.

(1) تصدى له: أي تعرض له. ينظر ترتيب القاموس 810/2

(2) السيرة النبوية لابن هشام 30/2

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول: ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي".¹

قال الزهري: "كان رسول الله ﷺ في تلك السنن يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم كل شريف قوم لا يسألهم إلا أن يؤوه ويمنعوه...".²

وبعد أن أرسى رسول الله ﷺ دعائم دولة الإسلامية بالمدينة، وعقد صلح الحديبية مع قريش، وجد عليه الصلاة والسلام الفرصة ليكتب رسائله إلى ملوك فارس والروم وغيرها، يدعوهم إلى الله جل وعلا.

فمن أنس ﷺ "أن النبي ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي،³ وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ".⁴

وأخير ابن عباس رضي الله عنهما: "أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى...".⁵

وحدث أبو سفيان ﷺ، قال: "انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ،⁶ قال: فيينا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، قال: وكان دحية⁷ الكلبي جاء به، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل - ثم ذكر أبو سفيان لآحوار الذي دار بينه وبين هرقل حول رسول الله ﷺ - قال: ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم،

- (1) رواه أبو داود ي كتاب السنة، باب في القرآن 103/5، ط/2، 1413هـ، دار سنون، والترمذي في كتاب فضائل القرآن 184/5 وقال: هذا حديث غريب صحيح، وابن ماجه، اللفظ له، في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية 73/1، وأحمد، الفتح الرباني 267/20، والبيهقي في الدلائل 413/2، والدرامي في كتاب فضائل القرآن 715/2، والحاكم في المستدرک 669/2 وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه النعمي، وصححه الألباني. صحيح سنن أبي داود 897/3، صحيح سنن ابن ماجه 40/1
- (2) رواه البيهقي في الدلائل من طريق موسى بن عقبة عن الزهري 414/2، وذكره ابن حجر في الفتح 278/7
- (3) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم 113/12: "أما كسرى فبفتح الكاف وكسرهما، وهو لقب لكل من ملك الفرس، وقيصر لقب من ملك الروم والنجاشي لكل من ملك الحبشة...".
- (4) رواه مسلم في كتاب الجهاد، باب كتب النبي ﷺ 112/12
- (5) سبق تخريجه ص 39
- (6) يعني الفترة التي تلت صلح الحديبية سنة ست من الهجرة. ينظر شرح النووي على صحيح مسلم 103/12
- (7) دحية: بكسر الدال وفتحها لغتان مشهورتان. تهذيب الأسماء 185/1.

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام¹، أسلم تسلم، وأسلم يوثك الله أجرك مرتين²، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين³ و(يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا

الله) إلى قومه (اشهدوا بأنا مسلمون)⁴ 5.

كما كتب عليه الصلاة والسلام إلى غير هؤلاء من الملوك والسادة⁶ كما أخبر أنس رضي الله عنه في الحديث الآنف الذكر.

هذا الانجاء من رسول الله ﷺ إلى أشراف الناس لدعوتهم إلى الله تعالى لا يتناقض مع ماورد في سبب نزول قول الله جل شأنه: (عبس وتولى... عنه تلهى)⁷.

عن عروة بن الزبير قال: "أنزلت (عبس وتولى) في عبد الله بن أم مكتوب. جاء إلى رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل النبي ﷺ يعرض عنه، ويقبل على الآخر ويقول يا أبا فلان، هل ترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا والدماء⁸، ما أرى بما تقول بأساً. فأنزلت (عبس وتولى. أن جاءه الأعمى)⁹.

- (1) "بدعاية الإسلام": بكسر الدال أي بدعوته، وهي كلمة التوحيد". شرح النووي على صحيح مسلم: 110/12
- (2) تضعيف الأجر له لو أسلم باعتبار أنه سيجمع بين الإيمان بنبية والإيمان برسولنا ﷺ، ويحتمل أن يكون ذلك باعتبار أن إسلامه سيكون سبباً لدخول أتباعه. ينظر فتح الباري 53/1
- (3) الأريسيين: بفتح الهمة وكسر الراء وسكون الياء الأولى وتشديد الثانية، أي الفلاحين، والمعنى أن عليك إثم رعاياك الذي يتبعونك وينقادون بانقيادك ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم 109/12، فتح الباري 53/1، المغني ص 20

- (4) سورة آل عمران: 64
- (5) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير، باب (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء...) 1657/4-1659، ومسلم في كتاب الجهاد، باب كتب النبي ﷺ 103/12-111
- (6) ينظر زاد المعاد 119/1-124، 688/3-697
- (7) سورة عبس: 1-10
- (8) "أي دماء الهدايا التي كانوا يذبحونها بمعى لأهلهم". الموطأ 203/1 (الحاشية من تعليق محمد فؤاد عبد الباقي).
- (9) رواه مالك في الموطأ مرسلًا 203/1، ورواه الترمذي موصولاً عن عائشة رضي الله عنها 432/5 وقال: هذا حديث غريب، وابن جرير: تفسير الطبري 50/30 وأبو يعلى كما في تفسير ابن كثير 470/4، والحاكم في المستدرک 558/2-559 وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصوب الذهبي إرساله، وروى أبو يعلى نحوه عن أنس رضي الله عنه

فبينما هو يخاطبه ويناجيه، إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، ويلح عليه، وود النبي ﷺ لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعا ورغبة في هدايته...¹

ثم قال: "وهكذا ذكر عروة بن الزبير، ومجاهد، وأبو مالك، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وغير واحد من السلف والخلف، أنها نزلت في ابن أم مكتوم".²

وقال القرطبي: "روى أهل التفسير أجمع أن قوماً من أشرف قريش كانوا عند النبي ﷺ،

وقد طمع في إسلامهم، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت هذه الآية: "³

وقد يتبين من ماضى، أن العتاب الرباني لرسول الله ﷺ في هذه الآيات إنما ينصب على الإعراض عن ضعفاء الناس، تجاوزاً لهم، وانشغالاً عنهم بدعوة الكبراء والتعامل معهم، كما أن هذا العتاب الإلهي الكريم يتناول تخصيص الدعوة بعلمة القوم، والتجاني عن الفقراء والضعفاء..

وعلى هذا فإن الرسول ﷺ - بطبيعة الحال - لم يعاتب من أجل تبليغ العلية دعوة الله سبحانه، فذلك ضمن ما أنيط به عليه الصلاة والسلام، ولكن العتاب كان من أجل ما صاحب الأمر في ذلك الموقف من إعراض عن عبد الله بن أم مكتوم ﷺ، وإقبال على ذلك الكافر بعد أن بلغت الدعوة فأبى أن يستجيب. (أما من استغنى... عنه تلهي).⁴

كما في تفسير ابن كثير 4/470، ولباب النقول ص 227، وينظر تفسير فتح القدير 5/386، وفتح الباري

8/895

(1) تفسير ابن كثير 4/470

(2) تفسير ابن كثير: 4/471

(3) تفسير القرطبي 19/138، وينظر: تفسير فتح القدير 5/382، أضواء البيان 9/47

(4) سورة عبس: 5-10

قال ابن كثير "ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالإنذار أحدا، بل يساوى فيه بين الشريف والصغير، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة".¹

وحقا إذا كان الفقراء والعامة جزءا من الأمم التي أرسل الرسل عليهم السلام لتبليغها دعوة ربها جل وعلا، فإن الملأ وأشرف القوم، وعلية المجتمع هم كذلك شريحة أخرى في الأمم والمجتمعات، ولذلك كان من مهج الأنبياء عليهم السلام الاتجاه بالدعوة إلى كل طوائف الأمة، ومنهم الأشراف والعلية والأكابر، وهكذا فعل رسلو الله ﷺ، وبعد هذا العتاب الرباني لم يفرق الرسول عليه السلام بين المدعوين.

إن هذا الاتجاه من الرسل عليهم السلام في إيصال الدعوة إلى الملأ ينضبط - دون شك - بقواعد منهجهم المتميز، والمحتكم إلى شريعة الله التي يتلقونها وحيا عن رحم سبحانه، بحيث لا يكون ذلك التوجه منهم عليهم السلام سبيلا إلى التخلي عن مبادئ الشريعة، أو تجاوز قواعدها، أو الرضا بمنهج الكفر، أو المشاركة في طرق الضلال.

وموارد في السابقة من الأمثلة والمواقف على ثبات الرسل عليهم السلام، وتجردهم ونزاهتهم، وتبرئهم من الكفر وأهله، كل ذلك يؤكد ويشهد لهذا المنهج المتميز في دعوة الرسل عليهم السلام.

السادس: التلطف والرفق في دعوة الملأ إلى الله

إن اللين والرحمة، والتلطف والرفق، والأدب، من مناهج الدعوة، وصفات واضحة في شخصيات الرسل عليهم السلام والدعاة المخلصين.

وذلك أن النفس البشرية تركز بطبيعتها إلى من يتعامل معها في لين، ويقابلها في أدب، ويتلطف في الحوار معها وبيان زللها وانحرافها. ومن ثم كان الأصل في الحركة الدعوية للرسل عليهم السلام هو الرفق واللين، وبعيدا عن الغلظة والشدة والانتقام للنفس والتسامح مع الآخرين.

ذلك ما يظهر للم تأمل في الآيات القرآنية و قصص الرسل عليهم السلام.

ففي دعوة نوح عليه السلام إلى توحيد الله تعالى يتجلى الرفق واللين والرحمة لقومه:

"... فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ."¹

فسيدنا نوح عليه السلام في ندائه وخطابه يظهر حبة لخير وعافية قومه، ورغبته في مصلحتهم، وحرصه على عاقبتهم، وشفقته من أن يصيبهم الله تعالى بعذاب عظيم.

قال الألوسي: "إنما قال عليه السلام (أخاف) ولم يقطع حنوا عليهم واستجلابا لهم بلطف."²

ولما قام القوم بجملة من الاتهامات، من الكذب والضلال، حافظ عليه السلام على هدوئه، وترفق عليهم، ولم يشأ أن ينتقم لنفسه، فكان جوابه لهم جواب الناصح المشفق عليهم، الحريص على صمايحهم، المتلطف في دعوتهم: "قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ..."³

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِبْدِهِ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ هُمْ كَارِهُونَ"⁴

قبلا من أن يواجه مهاجنتهم منتقما مثله، واتهامهم وتجريرهم لهم، لم يزد عليه السلام على اتهاماتهم الكاذبة ولا يدافع عن نفسه بكلمات التي ألقيت، بل بين حقيقة الدعوة، وأن مقصده النصيح لهم، وتبليغ ما أرسله الله به، وهو في كل ذلك يتلطف في الخطاب، ويحترم بكل هدوء في ما قالوا له.

ويمكن ملاحظة جانب الرفق واللين والوضوح أيضا في دعوة هود عليه السلام، وهو يخاطب قومه خطاب الناصح لهم المشفق عليهم: "أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ."⁵

"وَأَنْشُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْفَامٍ وَبَيِّنٍ. وَجَنَابٍ وَعُيُونٍ. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ."⁶

(1) سورة الأعراف 59

(2) تفسير روح المعاني 150/8

(3) سورة الأعراف 61-62

(4) سورة هود: 28

(5) سورة الأحقاف: 21

(6) سورة الشعراء: 132-135

وحينما تتوالى على سيدنا هود عليه السلام الشبهات تتوالى لم يواجه بأسلوب لا يتناسب بشأن، ولم يقابلهم بسيئة، وإنما قابلهم في حلم وأناة ونصح، واطمئنان لقلوبهم القاسية، ليكون لهم سكون وراحة ومطمئنا بالله سبحانه وتعالى.

"أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ".¹

ولقد دافع عن رسالته بكل صدق وإخلاص، ونصح واستقامة. كما قاوم سيدنا نوح عليه السلام عن الرسالة التي جاء بها - وقد علموا علم اليقين - كما علم قوم نوح من قبل - عن مصدر دعوته وهدفها وعن نصحه لهم فيها وأمانته في تبليغها والتفكير لما فيه من الخير للجميع.

وقال لهم ذلك كله في مودة الناصح وفي صدق الأمين".²

ونجد الرفق والتلطف في نداء صالح عليه السلام وهو يرد المشككين في دعوته: "قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَايَ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَصْطُرِّي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ".³

كما نلاحظ إجابة سيدنا شعيب على مقولة المكذبين التي سخروا فيها من دعوته إلى التوحيد:

"قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنِ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ".⁴

قال ابن كثير: "هذا تلطف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة".⁵

وذلك أنه عليه السلام يقابل ذلك التشكيك، وتلك السخرية، بالإعراض والتجاوز، ويكتفي ببيان الحق في حلم وأناة، وفي رفق واللين. أما نبي الله إبراهيم عليه السلام فتكفيه شهادة ربه تبارك وتعالى له:

"... فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ".⁶

(1) سورة الأعراف: 67-68

(2) في ظلال القرآن 1311/3

(3) سورة هود: 63

(4) سورة هود: 88

(5) قصص الأنبياء لابن كثير 245/1

(6) سورة التوبة: 114

"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ".¹

فلاشك أنه كان عليه السلام في دعوته رحيما شقيقا، بطيء، صبوراً على الأذى، بعيداً عن الانتقام لشخصه، أو الانتصار لنفسه، محباً لأبيه.

ويبالغ في الرفق والتلطف، في دعوته عليه السلام لأبيه: "واذكر في الكتاب إبراهيم... عنك شيئاً".²

وهو يكرر بنداء الأبوة (يأبى) تذكيراً له بأواصر الأبوة، توددا واستعطافاً واستمالة له إلى الهدى، واستجلاً إلى الحق والإيمان.

"وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا...".³

وهكذا دعاه إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله في تواضع ولطف، وبين له بطلان منهج الشرك في رفق، وبذل المحاولات في هدايته في رحمة ولين، ولم ينادى أبوه بالابن ولومرة.

وهو في كل ذلك يشعره بالشفقة عليه، والرغبة في نجاته وفلاحه والخوف عليه من أن يلحقه عذاب الله سبحانه.

وحين واجهه أبوه بعد كل أنواع اللطف واللين بالعرف والغلظة والتهديد والترهيب: قَالَ أَزَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.⁴

لم يتجاوز خليل الله إبراهيم عليه السلام عن حالة اللطف، واستمر في حلمه ورفقه بل دعاه بالمغفرة والتوفيق: "وَأَعْتَرُكُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شُعِيًّا".⁵

ويلقى كلم الله سيدنا موسى عليه السلام توجيه ربه تبارك وتعالى بأن يدعو فرعون - وهو المستبد الطاغية المستكبر - في رفق ولين، وأن يخاطبه في أدب ولطف ورحمة مع كونه عدواً له ولرب العالمين:

(1) سورة هود: 75

(2) سورة مريم: 41-42

(3) سورة مريم: 43-45

(4) سورة مريم: 46

(5) سورة مريم: 47-48

"أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ..."¹

"أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَىٰ. وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ..."²

فقد بين الله سبحانه لنبيه عليه السلام "كيفية الخطاب والأسلوب، كان لنا ولطيفاً، وأشدّه جاذبية للقلوب، لعله يتذكر أو يخشى، فأخذه (فقل هل لك إلى أن تزكى) هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان وذنس العصيان؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة؟ "وأهديك إلى ربك فتخشى" هل لك أن أعرفك طريق ربك؟ فإذا عرفته وقعت في قلبك خشيته".³

قال الأولسي: "وفي الاستفهام مالا يخفي من التلطف في الدعوة والاستئصال عن العتو".⁴

فقد انتهج سيدنا موسى عليه السلام على هذا النهج في دعوته، وتعامل مع فرعون بما علمه ربه سبحانه، وعرض عليه مسألة التوحيد في هدوء ورفق ولين، وأقام بالحجج والبراهين، إلا أن فرعون الطاغية قابله بالاستخفاف والاستهزاء، واتهمه أمام الملأ المستبد بالجنون، ولكن موسى عليه السلام لم يواجهه بالجهل والشدّة. وهو الذي أدبه ربه - فلم يجب فرعون بطريقته، وأسلوبه في السفاهة، بل عاد عليه السلام في هدوء ليستمر في التذكير بدلائل توحيد الله عز وعلا، يقول الله عن فرعون:

"قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ..."⁵

ولما ضل فرعون الطريق بالأدلة العقلية والنقلية قام بالوعيد والترعيد.

"قَالَ لِّئِنْ اتَّخَذْتُ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ..."⁶

(1) سورة طه: 43-44

(2) سورة النازعات: 17-19

(3) في ظلال القرآن 3814/6

(4) تفسير روح المعاني 37/30

(5) سورة الشعراء: 25-28

(6) سورة الشعراء: 29

كان جواب موسى عليه السلام هادئا، يحمل في ثناياه الطمع في إيمان فرعون، والرجاء في هدايته، ولذا تلطف في الكلام: "قَالَ أُولَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ".¹

والأسلوب الوسط المتميز للرحمة وللين، والرفق والحلم، فهي في شخصية مثالية للعالم خاتم الرسل نبينا صلى الله عليه وسلم، نالها بتوفيق من ربه ورحمته.

"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبْتَ هُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ..."²
وتطبيقا لما أنزل الله سبحانه تبارك وتعالى:

"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..."³

أقول صلى الله عليك وسلم يارسول الله: ولما كان نبينا عليه الصلاة والسلام بمكة يتعرض لأنواع العقبات والعراقيل وألوان من الأذى، ويتلقى سهام الشبهات والتشكيكات تتوالى عليه من أعداء الرسالة ذلك كله لم يغير من حرصه ﷺ على دعوتهم، ورجائه إيمانهم، وطمعه في هدايتهم، فلم ينتقم لنفسه عليه الصلاة والسلام، ولم يقابلهم بمثل صنيعهم، بل استمر ﷺ على طبعه، لينا في التعامل، وأدبا في الخطاب، ورفقا في البيان والإنذار، وحلما وأناة، بعيدا عن العنف والغلظة، أو الشتم والشدة، أو السب والتجريح، وكان حريصا عليهم بالمؤمنين رؤوف الرحيم.

وحينئذ ينزل عليه ملك الجبال بأمر الله تعالى فيقول له "يا محمد، إن الله سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثي ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين."⁴ فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا."⁵

قال ابن حجر: "في هذا الحديث بيان شفقة النبي ﷺ على قومه ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالى "فبما رحمة من الله لنت لهم..."¹ وقوله: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين."² ³

(1) سورة الشعراء: 30

(2) سورة آل عمران: 159

(3) سورة النحل: 125

(4) "ها جيلا مكة أبو قبيس والذي يقابله". شرح النووي على صحيح مسلم 155/12، وينظر فتح الباري 389/6

(5) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين 1180/3-1181، ومسلم، واللفظ له، في كتاب

الجهاد، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين 155/12

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقال: إن دؤسا قد هلك، عصت وأبت، فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوساً وأت بهم." ⁴

قال النووي: "فيه ما كانوا عليه صلوات الله وسلامه عليهم من الحلم والصبر، والعفو والشفقة على قومهم، ودعائهم لهم بالهداية والغفران وعذرهم في جنائتهم على أنفسهم بأنهم لا يعلمون، وهذا النبي المشار إليه من المتقدمين، وقد جرى لنبينا ﷺ مثل هذا يوم أحد." ⁵

لقد كان عليه الصلاة والسلام يغزو بالرفق واللين القلوب، ويأس باللطف والحلم النفوس.

يروى أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكرك، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد، فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكرك، وإن تقتل تقتل ذادماً، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ، وإن خليك أخذتني وأنا أريد العمرة

(1) سورة آل عمران: 159

(2) سورة الأنبياء: 107

(3) فتح الباري 389/6

(4) باب البخاري للحديث بابا بعنوان (باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم). قال ابن حجر: "قوله (ليتألفهم) من تفقه المصنف، إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنه ﷺ كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم. والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم". فتح الباري 134/6 (مع اختصار يسير)، وينظر 234/11

(5) شرح النووي على صحيح مسلم 150/12، وينظر فتح الباري 647-646/6

فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتصر، فلما قدم مكة قال له فائل: أصبوت؟ فقال لا، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ".¹

لقد أسلم ثمانية ﷺ، وانقلبت مشاعره رأساً على عقب، وتحولت أحاسيسه، وتبدلت نظراته نحو الإسلام، وبلاد الإسلام، ورسول الإسلام ﷺ.

ولم يكتف ثمانية بمجرد الإسلام في شخصه، بل تحول داعية من دعاة الإسلام ينافع عنه، ويحارب مناوئة وأعدائه، ويخطط وهو سيد أهل اليمامة لحرب اقتصادية ضدهم.²

إن السبب المباشر في هذا التوجه لثمانية ﷺ بعد فضل الله تعالى وتوفيقه هو ما عايشه من الرفق والتعامل اللطيف الذي ما كان يتوقعه من رسول الله ﷺ.

قال النووي في قوله عليه الصلاة والسلام (ما عندك يا ثمانية): "هذا من تأليف القلوب، وملاطفة لمن يرجي إسلامه من الأشراف، الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير".³

وجانب آخر برز في دعوته عليه الصلاة والسلام يتمثل في الأدب الخطاب والأدب في الموعظة، والأدب في الجدل والمحاورة.

فهو ﷺ لا يثير في القوم العناد وردود الأفعال وإنما يأخذ يدهم في أدب ورفق، ليفكروا بأنفسهم، ويبحثوا عما فيه هداهم ونجاتهم.

يقول لهم ما تلقاه عن ربه سبحانه: "... وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين".⁴

يقول سيد قطب: "هذه غاية النصفة والاعتدال، والأدب في الجدل أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين أن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدع تحديد المهتدى منهما والضال، ليثير التدبر والتفكير، في هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم والرغبة في الجدل والمحال، فإنما هو هاد ومعلم، يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم، مجرد الإذلال والإفحام.

(1) سبق تخريجه ص 68

(2) ينظر: زاد المعاد 277/3، الإصابة 411/1، الاستيعاب 215/1

(3) شرح النووي على صحيح مسلم 89/12

(4) سورة سبا 24

الجدال على هذا النحو المهذب للموحى أقرب إلى لمس قلوب المستكرين المعاندين، المتطاولين بالجاء والمقام، المستكرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادى والإقناع العميق".¹

وكان ﷺ ذا أدب جم، حتى مع صناديد المشركين وكبراء المعاندين.

وحين جاءه عتبة بن ربيعة ليساومه فى أمر الدعوة، وقال له "فاسمع منى، أعرض عليك أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضهما" كان جوابه ﷺ "قل يا أبا الوليد أسمع" وتلك غاية فى الأدب أن يكنى "قل يا أبا الوليد" وأن يعده بالاستماع والانصات "قل يا أبا الوليد أسمع" وقدم عتبة عرضه، فإذا هى عروض سخيفة جوفاء، تثير الحمىة فى النفس، إذ تحمل الاتهام له ﷺ بأنه طالب دنيا، يبحث عن المتعة فى المال أو غيره، بل ويضع احتمالا بأنه عليه الصلاة والسلام به مس من الجن.

ومع ذلك فقد حافظ ﷺ على هدوئه، فلم يقاطعه، ولم يشتتمه ومن خلفه من قرش، بل انتظر حتى انتهى من عرضه، وسأله: "أقد فرغت يا أبا الوليد؟" ويكنىه أيضا، م يواجهه ﷺ فى هدوء بالحق الذى لاساومة فيه، إذ قرأ عليه من سورة فصلت، ثم قال له "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك".²

إنه الحلم والأناة، والأدب والرفق، والخلق العظيم.

ولما كتب عليه الصلاة والسلام كتابه إلى هرقل، خاطبه بمنزلة التى يعرف بها بين الناس، إذ قال فيه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسين، و (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله) إلى قوله: (فقولوا شهدوا بأننا مسلمون)³4.

وفى الكلمات مافيه من الأدب والرفق، والتلطف والتألف، استمالة للقلوب، واستعطافا للنفس، لتقبل على الحق، وتسلك طريق الهداية.

(1) فى ظلال القرآن 2905/5

(2) سبق تخريجه ص 104

(3) سورة آل عمران: 64

(4) سبق تخريجه: 646

قال النووي في شرحه لكتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل "أتى بنوع من الملا طفة فقال: عظيم الروم، أي الذي يعظمونه ويقدمونه، وقد أمر الله تعالى بالإنه القول لمن يدعى إلى الإسلام...".¹ وكيفيه عليه الصلاة والسلام شرفا وصف الله تعالى له بقوله: (وانك لعلى خلق عظيم).²

إن الرفق هو الأصل في منهج الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله تعالى.

أما ما ورد في القصص القرآني من دعاء الرسل عليهم السلام على الجاحدين، والرد عليهم بأسلوب يتضمن معاني الشدة والغلظة والتهديد، بيان حقائق دين الله سبحانه، وبعد ازدياد أذى المستكبرين، واشتداد شوكتهم، واتضح عنادهم، وبحسب المصالح المترتبة للدعوة، وأحوال المكذبين ومواقفهم من الدعوة، وقبل ذلك وبعده ما ينزل على الرسل عليهم السلام من الوحي الإلهي الذي يرسم لهم معالم الطريق.

(1) شرح النووي على صحيح مسلم 108/12

(2) سورة القلم 4

المبحث الثاني: الحوار والمحااجة والمجادلة

الأول: دعوة نوح عليه السلام

قال الله سبحانه وتعالى في قصة نوح عليه السلام: "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ...¹"

"فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا...² قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ...³"

لم يردده سيدنا نوح عليه السلام على الملائكة المكذبين اتهامهم له بالضلال: "قال يا قوم ليس بي ضلالة".

ماي من ما أثبت به إليكم من أي جزء أو نوع من الضلال عن الدعوة، وذلك منه عليه السلام مبالغة في الدفاع عن نفسه وعن رسالة التوحيد الإلهية.

قال الألوسي: "إنما بالغ عليه السلام في النفي لمبالغتهم في الإثبات حيث جعلوه - وحاشاه - مستفرا في الضلال الواضح كونه ضلالاً".⁴

ولما نفي عليه السلام عن نفسه الاتهام كر حقيقة مهمته الشريفة، وحين أبطل تصورهم أثبت التصور الصحيح لطبيعة دعوة:

"قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

فوضح عليه السلام أنه حين جاءهم بالدعوة إلى توحيد الله سبحانه وطاعته، واجتناب ما يعبد من دونه من الأنداد، إنما هو في ذلك كله رسول مبلغ. كما بين أن مصدر هذه الرسالة هو رب العالمين ومالكهم، والمتصرف فيهم سبحانه وتعالى.

أما وظيفته ومهمته فهي أن يبلغهم ما أرسله به ربه عزوجل من الدين وما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي. وهو عليه السلام حين يبلغهم رسالات ربه، ويحذرهم عقوبته. يفعل ذلك نصحا لهم ورغبة في الخير لهم:

(1) سورة الأعراف: 60-63

(2) سورة هود: 27-34

(3) سورة الشعراء: 111-115

(4) تفسير روح المعاني 151/8

"قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ." أي أغمرى ما فيه صلاحكم.¹

"يقال نصحته ونصحت له، وفي زيادة اللام دلالة على المبالغة إمعاض النصح".²

ثم كشف عليه السلام لقومه أنه يعلم من ربه تبارك وتعالى عن طريق الوحي ما لا يعلمونه من الأمور:

"وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ".

ومن ذلك سنته سبحانه في عقاب المكذبين المعاندين.³

وفيه تحذير وإنذار رباني لقوم هود عليه السلام من عذاب الله تعالى وعقابه الذي لا يرد عن الذين يريدون علواً في فسادا وقالوا من أشد منا قوة.

ولما كان القوم قد أنكروا رسالته عليه السلام، وتظاهروا لذلك بالعجب والاستغراب، فقد أنكر عليه السلام عليهم ذلك، مبينا أن لا عجب ولا غرابة في الأمر، بل هي الحكمة والرحمة الإلهية، في أن يكون الرسول من جنس البشر، يعلمون صفته ونسبه وحاله، ويعرفون لغته وكلامه، ويتمكنون من التعامل معه، والاقتداء به، والتلقى والأخذ عنه.

ومن ثم فقد كان المتوقع أن يحمداوا الله سبحانه على حكمته ورحمته وأن يستجيبوا لنبيه عليه السلام، لا أن يختاروا طريق التكذيب والعناد.

"أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ".

"أي كيف تعجبون م حالة لا ينبغي العجب منها، وهو: أن جاءكم التذكير والموعظة والنصحية، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله".⁴

"ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة: "لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ".

(1) تفسير روح المعاني 152/8

(2) تفسير فتح القدير 216/2

(3) ينظر تفسير الطبري 214/8

(4) تفسير الكريم الرحمن 123/2

فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى، ليظفروا في النهاية برحمة الله، ولا شيء وراء ذلك لنوح ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامي النبيل.¹

وأكد لهم نوح عليه السلام في جوابه أيضا أنه لا مشكلة لديه، ولا يتردد في صدره شك أو ريبة، فهو على يقين وثقة في أمره، إذ هو عليه السلام متصل بربه تعالى، يتلقى عنه الوحي الذي يبين له مهمته وواجبه، وما هو مكلف به من الدعوة والتبليغ. فهو عليه السلام وإن كان في البشرية مثلهم لا يفضلهم فيها بشيء، لكن هذا لا يمنع أن يتميز عنهم بصفة النبوة والرسالة، التي توهله لتلقى الوحي عن ربه تبارك وتعالى.

إن المشكلة تكمن في المكذبين أنفسهم، وكراهيئهم للحق، وعدم تأملهم وتدبرهم ببصرة واتعاظ في دلائل الحق وبراهين الهدى:

" قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِي فَقَعَيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مِّمَّهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ." ²

"يقول تعالى مخبرا عما رد به نوح على قومه في ذلك (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وهم (فعميت عليكم) أي خفيت عليكم، فلم تحتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتهم إلى تكذيبها وردّها، (أنزلكم منها) أي نفضيكم قبولها (وأنتم لها كارهون)."²

"أي ليس لي فيكم حيلة والحالة هذه."³

والاستفهام في (أنزلكم منها) بمعنى الإنكار، أي لا يمكنني أن أضطرركم إلى المعرفة بها.

وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول أن يرد عليهم.⁴

(1) في ظلال القرآن 1309/3

(2) تفسر ابن كثير 443/2

(3) قصص الأنبياء لابن كثير 96/1

(4) تفسر القرطبي 19/9

ويؤكد لهم نوح عليه السلام أنه لا يطلب من وراء دعوته لهم أجرا ولا يرجو بنصيحته إياهم مالا أو متاعا، إنما يطلب الأجر على ما يبذله في هذه المهمة الشاقة من ربه سبحانه وتعالى، فهو الذي يجازيه ويثيبه عز وجل على الدعوة والتبليغ. "وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ".

ومن ثم فإن اتهامهم له في إخلاصه ونيته هو اتهام باطل، ليس له ما يبرره ولا يستند إلى حقيقة أو واقع. وأيضا فإن الاستجابة للدعوة لا تكلفهم أن يتنازلوا عن شيء من مالهم أو متاعهم، فأحرى بهم والحالة هذه أن يقبلوا على دعو الله رب العالمين.

ولما كان الأكابر المكذبون قد أثاروا حول أتباعه الشبهة، بأنهم أراذل لم يتبعوه إلا لمصالح ومطامع، وأن وجودهم يمنع من الاتباع وطالبوه تصريحا أو تلميحا بطردهم، فقد رفض لهم عليه السلام ذلك المطلب، مبينا أنه يحاسب الناس بحسب ظواهرهم، ويحكم عليهم بهذا الاعتبار، أما حساب السرائر والبواطن فذلك أمر يتولاه الله سبحانه وتعالى الذي يعلم ما في الصدور: "قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ".

إن مهمته عليه السلام إنما هي الإنذار والبيان للجميع دون تخصيص، ومن ثم فإنه عليه السلام لا يميز بين الأغنياء، والفقراء، ولا يفرق بين الأشراف والضعفاء، بل يبلغ الكل دين الله سبحانه، ويبشر من آمن بالخير والثواب، وينذر من كذب بالعذاب والعقاب.

وهؤلاء الأنبياء قد آمنوا بالله، وأفروا بوحديته تعالى، وأقبلوا على دينه سبحانه، فكيف يصح أن يطردوا وهم على هذه الحال من الإيمان والإقبال.

"وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ".

"إن هؤلاء الذين تسألوني طردهم صاترون إلى الله، والله سائلهم عما كانوا في الدنيا يعملون، لا عن شرفهم وحسبهم".¹

ثم بين عليه السلام أن الدافع لهم إلى هذا المطلب الغريب هو ما يعيشونه من الجهل بالله سبحانه، وبالقِيم والموازن الربانية التي يقاس بها الناس، ولذا فهم يطلبون طرد هؤلاء المؤمنين بحجة أنهم أراذل.

"وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ".

"أي من يصونني منه تعالى، ويدفع عني حلول سخطه، والاستفهام للإنكار أي لا ينصرتني أحد من ذلك (إن طردتهم) وأبعدتهم عني، وهم بتلك المثابة والزلفي منه تعالى، وفي الكلام مالا يخفي من تحويل أمر طردهم (أفلا تذكرون) أي أستمرون على ما أنتم عليه من الجهل، فلا تذكرون ما كر من حالهم، حتى تعرفوا أن ما تأتون به معزل من الصواب".¹

بعد ذلك ينفي نبي الله نوح عليه السلام رغبته في الترفع على الناس والتعظيم عليهم كما يدعون، أو ادعاء مقام أو مرتبة ليست له.

إنه عليه السلام لم يدع قدرته على التصرف في خزائن الله عز وجل.

وهو لا يعلم الغيب، إلا أن يطلعه الله سبحانه على شيء منه، ولا يتظاهر بأن ملك يتصف بصفات الملائكة، إنما هو بشر مثلهم ومن جنسهم، لا يدعى ما ليس له من الخصائص، غير أن الله تعالى أكرمه بالرسالة، وأيده بالبينه وكلفه بالدعوة إلى توحيد الله سبحانه، وقد فعل ذلك عليه السلام.

ثم يؤكد لهم عليه السلام ثانية أنه لا يستجيز لنفسه أن يتهم من اتبعه من المؤمنين، الذين يزدريهم أولئك الأكابر، بأن سرايرهم تخالف ظواهرهم، وبالتالي فليس لهم عند الله ثواب ولا خير.

إن الذي يعلم السرائر هو الله سبحانه، أما نوح عليه السلام وقد أبدوا له الإيمان، وأقبلوا على التوحيد، فلا يمكن أن يحكم عليهم بغري علانيتهم، ولا يستحل بالتالي أن يطردهم، فإن ذلك ظلم يتورع عنه نبي الله نوح عليه السلام:

"لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ كُنْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ".

ذكر صاحب الظلال عند هذه الآية أن نبي الله نوحا عليه السلام في رده هذا على الملأ "يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء، وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة، يقدمها لهم في معرض التذكير، ليقرر لهم القيم الحقيقية، ويزدري أمامهم القيم الظاهرية، بتخليه عنها وتجرده منها، فمن شاء الرسالة

كما هي بقيمتها بدون زخرف، بدون ادعاء، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله (ولا أقول لكم عندي خزائن الله) فأدعى الثراء أو القدرة على الإثراء (ولا أعلم الغيب) فأدعى قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة (ولا أقول إني ملك) فأدعى صفة أعلى من صفة الإنسانية في ظنكم، لأرتفع في أعينكم، وأفضل نفسي بذاتي عليكم (ولا أقول للذين تردري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا) إرضاء لكبريائكم، أو مسايمة لتقديركم الأرضي وقيمكم الغرضية (الله أعلم بما في أنفسهم) فليس لي إلا ظاهرهم، وظاهرهم يدعو إلى التكريم وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيرا (إني إذا لمن الظالمين) إن ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى، الظالمين للحق وقد جئت أبلاغه، والظالمين لنفسى فأعرضها لغضب الله، والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله.

وهكذا ينفي نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة، يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة، ويتقدم إليهم بما مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأغراض السطحية، ويردهم في نصاعة الحق وقوته مع سماحة القول وودده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها، بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة".¹

وحجج جايجه الملأ مطالبين له بالتوقف عن الموعظة والجدال، والتعجيل بما يعدهم من العذاب تعنتا وعنادا، كان جوابه عليه السلام بأن هذا الأمر موكل إلى الله سبحانه، وليس ذلك ضمن مهمته ووظيفته.

إن وظيفته هي تبليغ رسالة ربه، أما الوعيد والعذاب فهو مرهون بمشيئة الله تعالى، وإذا أراد سبحانه أن يعذبهم فلن يعجزوه ولن يفوتوه، فالكل تحت قدرته وحكمه تبارك وتعالى:

"قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ."

"أي أي شيء يجديه إبلاغي ونصحي، بدعوتكم إلى التوحيد، والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغوائكم ليدمركم (هو ربكم) أي مالك أمركم (وإليه ترجعون) أي بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم".²

(1) في ظلال القرآن 4/1874-1875

(2) ينظر تفسير البغوي 2/381، زاد المسير 4/81

قال ذلك نبي الله عليه السلام "إظهارا للعجز عن ردهم عما هم عليه من الضلال بالحجج والبيانات، لفرط تماديهم في العناد، وإيدانا بأن ما سبق منه إنما كان بطريق النصيحة لهم، والشفقة عليهم، وأنه لم يأتل جهدا في إرشادهم إلى الحق، وهدايتهم إلى سبيله المستبين، ولكن لا ينفعهم ذلك عنه إرادته سبحانه لإغوائهم".¹

الثاني: دعوة سيدنا هود عليه السلام

إنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل العديد من الرسل والأنبياء عليهم السلام لهداية قومهم وتذكيرهم بوجود الله وحده لا شريك له، وأنزل عليهم العديد من الكتب السماوية كمعجزات وكطريق لتعليمهم أسس دينهم والطرق الصحيحة في تطبيقه، فكان أكثرهم يكفرون، ولا يؤمنون في ذلك، ومنهم قوم عاد الذي أرسل الله تعالى لهم سيدنا هود عليه السلام منهم الملأ الكفار، قال الله تعالى في قصة هود عليه السلام عنهم:

"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ."²

"قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ."³

"قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ."⁴

قام سيدنا هود عليه السلام بالرد على مقولة الملأ المكذبين بالنفي البالغ لاثام السفاهة والكذب من قبل الملأ: "قال يا قوم ليس بي سفاهة".

أي لست سفيها إذ جئتكم بالدعوة إلى توحيد الله تعالى، ونبذ ما أنتم عليه من الشرك، ولا يعتريني في ذلك لك أي مظهر من مظاهر سفه السفهاء.

ثم أثبت عليه السلام التصور الصحيح، والحقيقة الواقعة، والوصف الصادق لوضعه وحاله عليه السلام السلام فيما جاء به: وَلِكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ.

فالدفاع عن نفسه والدعوة إلى توحيد الله وحده إنما هي رب العالمين بعثت به إليكم، فكان على البلاغ، وأداء تلك الأمانة التي كلفت بها: "أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ."

(1) تفسير روح المعاني 46/12-47

(2) سورة الأعراف: 66-71

(3) سورة الأحقاف 22-23

(4) سورة هود: 53-57

فبين عليه السلام أنه رسول من الله سبحانه، وذلك يستلزم براءته من السفاهة والكذب، ويتقضى كونه في الغاية القصوى من الهداية والرجاحة في العقل، والصدق في المنطق، والرشد في التصرف.¹

لقد أثنى نبي الله عليه السلام على نفسه لاحبا في الثناء، ولكن ليقرر لهم سلامته وبعده عن شوائب الاتهام الموجه إليه، وليؤكد لهم أيضا حرصه على سعادتهم، وصدقه في التعامل معهم، فوصف نفسه عليه السلام بوصفين:

الوصف الأول: أنه إذ يأتيهم بهذا البيان والبلاغ ليس بعدو لهم، ولا راغب في الإساءة إليهم، بل هو ناصح يتحرى صلاحهم، ويحب الخير لهم ويرجو هدايتهم، ويرغب في فلاحهم ونجاحهم، ويريد لهم المسار الأمن الذي يصل بهم إلى الفوز في الدنيا والآخرة.

والوصف الثاني: أنه عليه السلام أمين في تبليغ المنهج الإلهي الذي أرسل به، لا يخون ولا يفترى، ولا يكذب ولا يبدل، ولا يزيد ولا ينقص ولا يدعى لنفسه ما ليس له، بل يبلغ عن ربه سبحانه في أمانة وصدق.

ثم يرد نبي الله هود عليه السلام على شبه البشرية التي أثارها المكذبون كمبرر لإنكار رسالته عليه السلام: "أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم".

إنه عليه السلام يقرر لهم أن البشرية لا تتناقى مع الرسالة، فليس بعجيب أن يكون رسولهم بشرا مثلهم، ينتزل عليه الوحي من ربهم فيبلغهم دينه سبحانه، وينذرهم بأسه وعقابه، إن أشركوا به وخالفوا أمره.

بل إن ذلك مما تتضح فيه حكمة الله تعالى ورحمته بهم سبحانه، في أن يكون المبعوث المبلغ واحدا من جنسهم، يعرفون حاله ولغته، ويتمكنون من رؤيته والتعايش معه، ويعلمون أنه مثلهم في الصفات البشرية من الأكل والشرب وغيره، ومن ثم فإنه يمكن أن يكون أمودجا لهم، يقتدرون به في الالتزام بدين الله تعالى ومنهجه سبحانه.

ثم ذكّرهم عليه السلام بنعمة الله تعالى عليهم، إذ أورثهم الأرض، يسكنونها ويعمرونها ويتقلبون في أرجائها، من بعد إهلاك قوم نوح عليه السلام، ومن ثمّ فعلهم أن يحذروا ذلك المصير وتلك العاقبة:

"وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

أي "زاد في أجسامكم طولا وعظما على أجسام قوم نوح وفي قوامكم على قوامهم نعمة منه بذلك عليكم".¹ وبعد أن ذكّرهم بهذه النعمة الإلهية تخصيصا، عاد عليه السلام فذكّرهم بنعم الله عموما، في ذواتهم وأنفسهم، وفي أموالهم وأولادهم، وفي زروعهم وثمارهم، وغير لك مما يشاهدونه ويدركونه.

إن الله سبحانه الذي أنعم عليهم بهذه النعم الجزيلة يستحق أن يُشكر سبحانه، وذلك بعبادته وحده، واجتناب الأنداد والآله من دونه، وحينئذ تنزل الرحمة الإلهية، وينحقق الفوز والفلاح:

"فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ".

ولما أنكر الملائكة رسالته عليه السلام، مستكبرين بالعجب والاستغراب من دعوته إلى منهج التوحيد، وترك ما عليه الآباء من عبادة الآلهة والأنداد وتعتوا معه عليه السلام، حين استعجلوا ما أنذرهم به من العذاب، أجابهم عليه السلام مفندا منهجهم في التفكير: "قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ".

أي استحققتهم واستوجبتم هذه المقالة التي صدرت عنكم عذاب ربكم سبحانه وغضبه.²

قال الأولسي: "والتعبير بالماضي لتنزيل المتوقع منزلة الواقع".³

وأنكر نبي الله عليه السلام عليهم مجادلته بالباطل دون استناد إلى دليل أو برهان:

"أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ". أي كيف تجادلوني في ما تعبدون من الأصنام التي تسمونها آلهة، وهي في الواقع مجرد أسماء بدون حقائق ولا مسميات، أنتم تنحتونها بأنفسكم وتصنعونها بأيديكم، ثم تجعلون منها أوثانا تُعبد، وآلهة يخضع لها من دون الله تعالى، فكيف تعبدونها وتجادلون

(1) تفسير الطبري 216/8

(2) ينظر تفسير البغوي 170/2.

(3) تفسير روح المعاني 159/8

عن عبادتها وتخاصمون عن اتخاذها أندادا لله رب العالمين؟ وهي لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع ولا تملك من الأمر شيء، ولم يجعل الله لكم في عبادتها حجة ولا دليلاً.¹

“فانتظروا إني معكم من المنتظرين”

أي “فانتظروا حكم الله فينا وفيكم، إني معكم من المنتظرين حكمه وفصل قضائه فينا وفيكم”.²

وفي ذلك تهديد لهم بما ينتظروهم، مقابل إصرارهم على الشرك والضلال، من العذاب الذي يتعتنون بأسعجاله وطلبه.

كما بين لهم هود عليه السلام في رده على مطلبهم بنزول العذاب عنادا منهم، أن مسألة العذاب والعقاب موكولة إلى الله سبحانه، فهو العليم بمن يستحقه، وهو العليم بوقت نزوله، ومرد ذلك الأمر كله إلى مشيئة الله وإرادته تعالى: “قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ”.

فليست وظيفته ومهمته عليه السلام الإخبار بموعد العذاب وكيفيته، وإنما هي تبليغ رسالة الله سبحانه، والدعوة إلى توحيده وطاعته، وإنذار من كذب بأس الله وعقوبته.

وحين قابله القوم بالصلف والتعنت والعناد، وأعلنوا له إصرارهم على تكذيبه عليه السلام، معتبرين أن آلهتهم قد أصابته بجنون فصار يأتي بالعجائب، حينها كان جواب هود عليه السلام التصريح الواضح القوي بالبراءة من تلك الآلهة المزعومة، وعدم مبالاته بالمشركين وما يعبدونه من دون الله: “قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ”.

وإذا كان المكذبون يعتقدون أن الآلهة قد أصابته بالسوء، وأنها قادرة على النفع والضرر، فهذا هو عليه السلام يعلن في صراحة وتأكيد معاداته لها، وتبرأه منها، واستهانتها بها، وتحديه لها ولن يشرك بها من دون الله سبحانه، فلتجتمع تلك الآلهة ومن يعبدها، وليتعاون الجميع في التعرض له بأنواع الكيد، وأصابته بأصناف الضرر دون انتظار ولا إمهال.

وهذا من كمال ثقته عليه السلام بحفظ ربه ونصره سبحانه.

(1) بنظر تفسير ابن كثير 225/2

(2) تفسير الطبري 223/8

ولما تبرأ من الشرك والمشركين أظهر هود عليه السلام نهاية توكله على ربه تبارك وتعالى الذي يلوذ به ويستعين من كيد المشركين المضلين: "إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا".

أي "إني على الله الذي هو مالكي ومالككم والقيم على جميع خلقه توكلت، من أن تصيبوني أنتم وغيركم من الخلق بسوء، فإنه ليس من شيء يدب على الأرض إلا والله مالكة، وهو في قبضته وسلطانه ذليل له خاضع".¹

إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" أي: "إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدا منهم شيئا".²

وفيما صدر عن هود عليه السلام في جوابه هذا إقامة للحجة عليهم بأن تلك الآلهة التي يعبدونها ليست جديرة بالآلوهية، ولا مستحقة للعبودية إذ هي جماد لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر، ولا تملك من أمر نفسها شيئا فضلا عن أن تصيب غيرها بسوء، فكيف يتوجهون لها بالعبادة ويتركون رب العالمين سبحانه، الملك القادر، المدبر المتصرف، لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، ولا يعطي ولا يمنع إلا هو سبحانه، وكل شيء تحت فهره وقدرته وسلطانه، فهو المستحق لأن يُعبد في الأرض وحده تبارك وتعالى.

بعد ذلك انتقل هود عليه السلام إلى تخويفهم وتوعدهم بالعقاب الإلهي، إن هم أصروا على الكفر والتكذيب: "فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ".

لقد قامت عليكم الحجة، وبلغتكم رسالات ربي، وأدبت الأمانة التي أنيطت بي.

"وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا".

قال القرطبي: "أي يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم، يوحدهونه ويعبدونه".³

"إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ".

هو الحافظ لكل شيء سبحانه، وهو الذي يحفظني جل وعلا من أن تنالوني بسوء.⁴

(1) تفسير الطبري 60/12

(2) نفس المصدر والصفحة.

(3) تفسير القرطبي 37/9

(4) ينظر: تفسير البغوي 389/2، زاد المسير 96/4

الثالث: دعوة إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام في حوار مع قومه: "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ".¹

"إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ".²

قاوم سيدنا نبي الله إبراهيم عليه السلام قومه عبادتهم للأصنام من دون الله سبحانه وأنكرهم فكان مما قال عن الأوثان: "مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ".

و"العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له"،³ وهذا الاستفهام ليس على حقيقته من نبي الله عليه السلام، بل هو للإنتكار عليهم وتوبيخهم على ما اعتادوا ملازمته والإقامة عليه من عبادة غير الله تعالى ومراده عليه السلام أن يثبتهم، ليبطل بالدليل والبرهان ما في أذهانهم من الشبه الفاسدة التي يحتجون بها على عبادة تلك التماثيل، واتخاذها آلهة من دون الله تعالى: "... إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ. أَفَبِكُلِّ أَلْهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ".

فهو عليه السلام إذ ينكر عليهم عبادة غير الله سبحانه يقرر لهم أن هذا الشرك الذ يعيشونه منهج مضطرب، قائم على الكذب والإفك، يخالف للحقيقة ومناقض للواقع، إذ كيف تستحق تلك الآلهة أن تعبد، وهي لا تملك من خصائص الألوهية شيئاً؟ ولذا فقد أنذرهم عليه السلام عاقبة هذا الاتجاه المنحرف المتناقض مع الحق والصواب "فما ظنكم برب العالمين".

"قال قتادة: "يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره".⁴

ولما لم يجد القوم لطريقتهم دليلاً صحيحاً تشبثوا بالتقليد، وجعلوه لهم حجة.

"قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ".

(1) سورة الأنبياء: 52-80

(2) سورة الصافات: 85-98

(3) تفسير روح المعاني 59/17

(4) تفسير ابن كثير 12/4، وينظر تفسير الطي 70/23

حيث قد قرر لهم عليه السلام أن ما تشبثوا به من التقليد لأبائهم في عبادة غير الله تعالى لاحجة فيه ولا دليل ولا برهان.

إذ أ، التقليد لا يكون إلا لمن سلك الطريق الصائب المستقيم، والاتباع لا يكون إلا للمنهج الحق الواضح، والتأسي لا يكون إلا بمن سار على الهدى المؤيد بالدليل، أما الشرك الذي كان عليه الآباء فقد بأن ضلاله وظهر بطلانه، ومادمت مصرين على نفس النهج فإنكم تشتركون معهم في الضلال ذلك لأنكم جميعا لا تستندون إلى دليل أو برهان، ومن ثم فإن الحكم واحد على طريقتكم وطريقة آبائكم من قبل:

"قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ."

فلما سمع أولئك المكذوبون هذا المنطق الذي لم يعهدوه، وكأنهم لم يتوقعوا أن يسمعه: "قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ."

"يقولون هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أو محقا فيه، فإننا لم نسمع به قبلك".¹

وكانهم يحاولون إيهام نبيهم عليه السلام، إذ ليس من المعقول - في نظرهم - أن يخاطبهم بهذا القول على سبيل الجدل "فلاستفهام ليس على ظاهره بل هو استفهام مستبعد متعجب".²

وعندها قرر لهم الخليل عليه السلام قضية التوحيد، مبينا لهم أن المسألة لا هزل فيها ولا لعب، وأنه جاد في دعوته إلى توحيد ربه عز وجل: "قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن".

إن المستحق للألوهية، والجدير بالعبودية هو الله سبحانه، لا ما تعبدونه من التماثيل والأصنام.

ذلك أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق السموات والأرض وأنشأهما على هذا النسق المحكم، وبهذا الإنقان البديع، وذلك دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الوحدانية لا تليق إلا به عز وجل.

"وأنا على ذكركم من الشاهدين".

(1) تفسير ابن كثير 182/3

(2) تفسير روح المعاني 59/17

قال الألوسي: "المعنى وأنا على ذلكم الذي ذكرته من العالمين به على سبيل الحقيقة، المبرهنين عليه، ولست من اللاعبين، فإن الشاهد على الشيء من تحققه وحققه، وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه وإثباته بها".¹

وحين وجد إبراهيم عليه السلام أن يواجههم بنوع آخر من الحجّة، يعتمد وسيلة عملية، وطريقة فعلية، تثبت لهم أن ما يعبدونه من الأصنام بمعزل عن الألوهية في الحقيقة، فعزم نبي الله عليه السلام على الفتك بتلك الأصنام، وتكسيها حين ينطلق القوم إلى عيدهم: "وثالله لاكيدين أصنامكم بعد أن تولو مدبرين".

وكانت فرصته عليه السلام لتنفيذ ما عزم عليه حين أراد القوم الخروج إلى عيدهم، فاعتذر لهم معرّضاً في كلامه بأنه مريض، وبالتالي فلن يتمكن من مشاركتهم.

"فنظر نظرة في النجوم، فقال إني سقيم، فتولوا عنه مدبرين".

وللمفسرين أقوال في المراد بقوله سبحانه: "فنظر نظرة في النجوم" أشهرها القولان التاليان:

القول الأول:

أن القوم كانوا أهل تنجيم، فسار معهم إبراهيم عليه السلام في الظاهر على نفس طريقتهم على وجه التورية والإيهام لهم.

واقصر ابن جرير عليه فقال: "ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم، فرأى نجماً قد طلع فعصب رأسه وقال: إني مطعون، وكان قومه يهرون من الطاعون، فأراد أن يتركوه في بيت ألفتهم ويخرجوا عنه، ليخالفهم إليها فيكسرهما".²

"قال الواحدي: قال المفسرون: كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بذلك لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكأيدهم في أصنامهم لتلزمهم الحجّة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه، وأراد

(1) تفسير روح المعاني 60/17

(2) تفسير الطبري 70/23، وينظر: تفسير القرطبي 62/15، تفسير أبي السعود 197/7، تفسير السفي 167/3،

تفسير البغوي 30/4.

أن يتخلف عنهم، فاعتل بالسقم، وذلك أنهم كلفوه أن يخرج معهم إلى عيدهم، فنظر إلى النجوم يريهم أنه مستدل بما على حاله، فلما نظر إليها قال إني سقيم".¹

وقال الألويسي: "هذا من معارضض الأفعال، نظير ماوقع في قصة يوسف عليه السلام من تفتيش أوعية إخوته بني علاته قبل وعاء شقيقه".²

والقول الثاني:

أن المقصود بقوله تعالى (فنظر نظرة في النجوم) أي فكر في التدبير المناسب الذي يتمكن به عليه السلام من القعود عنهم، والبقاء في البلد لينفرد ببيت آلهتهم.

قال ابن كثير: "قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر نظر في النجوم، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهمهم به فقال (إني سقيم)".³

"قال الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم".⁴

"وقال الحسن: المعنى أنهم لما كلفوه الخروج معهم تفكر فيما يعمل، فالمعنى على هذا أنه نظر فيما نجم له من الرأي: أي فيما طلع له منه".⁵

والذي يترجح في نظري هو القول الثاني، مادام لسان العرب يحتمله ويستعمله كما ذكر الخليل وغيره، إذ يعد أن يسر إبراهيم عليه السلام على طريقتهم في التكهن بالنجوم، وهو الرسول القدوة عليه السلام، وإن كان ذلك على سبيل الظاهر والإيهام، والله أعلم.

وأما قوله (إني سقيم) فهو من باب التورية والتعريض في القول.

(1) تفسير فتح القدير 401/4، وينظر تفسير القاسمي 114/14

(2) تفسير روح المعاني 101/23

(3) "قال الخليل والمبرد: يقال للرجل إذا فكر في الشيء يدبره: نظر في النجوم".

(4) تفسير القرطبي 62/15، تفسير فتح القدير 401/4

(5) نفس المصادر والصفحات

قال ابن كثير: "إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزعج خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يحتل بآلتهم ليكسرهما، فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه".¹

وقد ورد في هذا الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله: قوله إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم هذا، ووحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غري وغيرك".²

قال ابن كثير: "ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلاهما، وإنما أطلق الكذب لي هذا تجوز، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني".³

وقال ابن حجر: "أما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة لفلكونه قال قولاً يعتقد السامع كذبا، لكنه إذا حُقق لم يكن كذبا، لأنه من باب المعارض المحتملة للأمرين فليس بكذب محض".⁴

وقال النووي: "أما قوله ﷺ 'ثنتين في ذات الله تعالى وواحدة في شأن سارة' فمعناه أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذبا مذموما".⁵

وقال الألوسي: "وتسمية ذلك كذبا كما ورد في الحديث الصحيح من باب المجاز، لما أن المعارض تشبه صورتها صورته".⁶

وقد رد ابن جرير هذا القول بنص الحديث الصحيح الوارد في هذا الباب، وقال: "وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك، ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم..".¹

(1) تفسير ابن كثير 13/4

(2) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلاً 1225/3، وسلم، واللفظ له، في كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم الخليل ﷺ 123/15-125

(3) تفسير ابن كثير 13/4

(4) فتح الباري 482/6

(5) شرح النووي على صحيح مسلم 124/15، وينظر فتح الباري 133/13

(6) تفسير روح المعاني 65/17

ورد في موضع آخر على من قال بأن قول إبراهيم عليه السلام (إني سقيم) من المعارض، إذ قال: "والخير عن رسول الله ﷺ بخلاف هذا القول، وقول رسول الله ﷺ هو الحق دون غيره".²

والأقرب في نظري هو قول ابن كثير وغيره بأن الكذبات الواردة في الحديث هي تورية ومعارض صورها وظاهرها الكذب، وليس في ذلك رد للحديث الصحيح، بل إن في الحديث نفسه ما يدل على ذلك، فقد قال إبراهيم عليه السلام لسارة كما في رواية مسلم "فإن سألك فأخبره أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام..". فقول إبراهيم عليه السلام "فإنك أختي في الإسلام" يدل على أن مقصده عليه السلام التورية بلفظ ظاهره الكذب، وهو في حقيقة الأمر ليس كذلك، والله أعلم.

وقد أورد المفسرون أقوالاً في مقصود إبراهيم عليه السلام من قوله (إني سقيم).

فذكر بعضهم أن المراد من قول نبي الله (إني سقيم): أي سأسقم.

"قال الضحاك: معنى (إني سقيم): سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت. وهذا تورية وتعريض".³

وقال الأولسي: "أراد أنه سيسقم، ولقد صدق عليه السلام، فإن كل إنسان لابد أن يسقم، وكفي باعتلال المزاج أول سريان الموت في البدن سقاماً".⁴

وقال ابن حجر: "فقوله: إني سقيم، يحتمل أن يكون أراد إني سقيم: أي سأسقم، واسم الفاعل يستعمل بمعنى المستقبل كثيراً".⁵

ومال إله القرطبي في تفسيره فقال: "فالمعنى إني سقيم فيما أستقبل فتوهوا هم أنه سقيم الساعة، وهذا من معارض الكلام".⁶

(1) تفسير الطبري 41/17، وينظر تفسير البغوي 249/3

(2) تفسير الطبري 71/23

(3) تفسير القرطبي 62/15، وينظر تفسير فتح القدير 401/4

(4) تفسير روح المعاني 101/23، وينظر تفسير ابن كثير 13/4، تفسير النسفي 167/3

(5) فتح الباري 482/6

(6) تفسير القرطبي 63/15، وينظر: تفسير البحر المحيط 366/7، معاني القرآن للزجاج 309-308/4

وقيل: إن المراد بالسقم هنا سقم القلب والنفس، مما يعانیه عليه السلام من كفرهم وشركهم وعنادهم.

قال ابن كثير: "وقيل: أراد سقيم: أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى".¹

وقال القرطبي: "وقيل: أراد سقيم النفس لكفرهم".²

وهذا القول هو الأقرب في نظري إذ ورى عليه السلام بقوله (إني سقيم) ففهموا منه أنه مريض البدن، ولذا لن يتمكن من الخروج معهم وهو عليه السلام يقصد أنه مريض النفس مما يلاحظه بينهم من مظاهر الشرك بالله جل وعلا.

ولما قال لهم إبراهيم عليه السلام (إني سقيم) تركوه وانطلقوا إلى عيدهم ولعلمهم أسرعوا إلى مفارقتة مخافة العدوى.

قال سعيد بن جبير: "أشار لهم إلى مرض يسقم ويعدى وهو الطاعون وكانوا يهربون من ذلك، ولهذا قال (فتولوا عنه مدبرين) أي تركوه وذهبوا مخافة العدوى".³

وبعد أن خرج القوم أسرع إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة لينفذ فكرته:

"فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون. ما لكم لا تنطقون".

"أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء" فقال ألا تأكلون" وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبارك لهم فيه".⁴

وخطاب إبراهيم عليه السلام إنما هو استهزاء منه واحتقار لتلك الأصنام التي يعبدونها القوم، ويحيطونها بالعظيم والتقدیس، أعقبه نبي الله بالضرب والتكسير والتعطيم:

"فراغ عليهم ضرباً باليمين".

"فجعلهم جذاً إذا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون".

(1) تفسير ابن كثير 13/4، وينظر: تفسير البضاوي 297/2، معاني القرآن للزجاج 397/3

(2) تفسير القرطبي 63/15، وينظر: تفسير أبي السعود 197/7، تفسير روح المعاني 101/23

(3) تفسير فتح القدير 401/4، وينظر: تفسير الطبري 70/23-71، تفسير القرطبي 62/15

(4) تفسير ابن كثير 13/4

قال ابن جرير: "فعل ذلك إبراهيم بآلتهن ليعتبروا، ويعلموا أنها إذا لم تدفع عن نفسها ما فعل بها إبراهيم فهي من أن تدفع عن غيرها من أراد به سوء أبعد، فيرجعوا عما هم عليه مقيمون من عبادتها إلى ما هو عليه من دينه وتوحيد الله والبراءة من الأوثان".¹

ولما عاد القوم من عيدهم ورأوا ما حل بآلتهن تنادوا وتساءلوا: "قالوا من فعل هذا بآلتهن إنه لمن الظالمين. قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له إبراهيم".

"أي يعيهم ويسبهم فلعله الذي صنع هذا".²

"وكان الرأي أن يوتى إبراهيم عليه السلام للمسألة: (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون".

"أي في الملة الأكبر على رؤوس الأشهاد، لعلهم يشهدون مقالته، ويسمعون كلامه، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه".³

"وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه".⁴

وأسرع الاتباع لإحضار نبي الله عليه السلام.

"فأقبلوا إليه يزفون".

"قال مجاهد وغير واحد: أي يسرعون".⁵

وبدأت المحاكمة: "قالوا أنت فعلت هذا بآلتهن يا إبراهيم".

وكانت تلك فرصة ينتظرها إبراهيم عليه السلام ليقوم بالحجة على بطلان المنهج الشرقي وضلالة، فاستغل عليه السلام سؤالهم ليحرك عقولهم ويثير تفكيرهم، ليتأملوا ما هم فيه من الجهل والسذاجة والسخافة:

(1) تفسير الطبري 39/17، وينظر: تفسير القرطبي 11/197، تفسير فتح القدير 3/413

(2) تفسير القرطبي 11/11997، وينظر: معاني القرآن للزجاج 3/396

(3) قصص الأنبياء لابن كثير 1/165، وينظر تفسير الطبري 17/40

(4) قصص الأنبياء لابن كثير 1/165

(5) تفسير ابن كثير 4/13، وينظر معاني القرآن للزجاج 4/309

"قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون".

وللمفسرين أقوال في توجيه جوابه عليه السلام.

فذكر بعضهم أن إبراهيم عليه السلام قصد تعليق فعل الكبير بنطق تلك الأصنام.

والمعنى: إن كانت الأصنام قادرة على النطق فقد فعل ذلك كبيرهم "قال ابن قتيبة: هذا من المعارض،

ومعناه: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم".¹

وقال القرطبي: "أي إنه غار وغضب من أن يعبد هو ويعبد الصغار معه، ففعل هذا بما لذلك إن كانوا ينطقون فاسألوهم، فعلق فعل الكبير بنطق الآخرين تنبيها لهم على فساد اعتقادهم، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء".²

ومن المفسرين من ذكر أن إبراهيم عليه السلام أسند الفعل إلى كبيرهم باعتباره السبب الباعث له عليه السلام على تكسير تلك الأصنام.

وقد جمع ابن حجر هذين القولين في توجيه قوله (بل فعله كبيرهم)، فقال بعد أن ذكر كلاما للقرطبي وابن قتيبة: "فالحاصل أنه مشترط بقوله (إن كانوا ينطقون) أو أنه أسند إليه ذلك لكونه السبب".³

وقال ابن كثير في قصص الأنبياء: "قيل: معناه هو الحامل لي على تكسيرهم، وإنما عَرَّضَ لهم في القول".⁴

وقال النسفي: "يمكن أن يقال: غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة وكان غيظ كبيرها أشد، لما رأي من زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه، لأن الفعل كما يسند إلى مباشرة يسند إلى الحامل عليه".⁵

ومال إليه أبو السعود في تفسيره فقال: "سلك عليه السلام مسلكا تعريضا، يؤديه إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، بحملهم على التأمل في شأن آلهتهم، مع مافيه من التوقى من الكذب، حيث أبرز الكبير قولا في معرض المباشر للفعل بإسناده إليه، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلا بجعل

(1) زاد المسير 250/5، وينظر معاني القرآن للزجاج 309/4

(2) تفسير القرطبي 198/11

(3) فتح الباري 133/13

(4) قصص الأنبياء لابن كثير 165/1، وينظر: تفسير البحر المحيط 324/6-325

(5) تفسير النسفي 408/2

الفسأ في عنقه، وقد قصد إسناده إليه بطريق التسبيب، حيث كانت تلك الأصنام غاظته عليه السلام حين أبصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه، وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له، فأسند الفعل إليه باعتبار أنه الحامل عليه.¹

وعلى كل حال فإن مراد إبراهيم عليه السلام ومقصده إنما هو دفع القوم وتحريك عقولهم نحو التأمل والتفكير في حال تلك الأصنام، وهل تملك النفع والضرر؟ وهل بيدها القوة والقدرة؟ وهل تسمع أو تبصر أو تنطق؟ ومن ثم فهل تستحق أن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى؟

يقول ابن كثير: "وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم. فيعرفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد".²

هذه المواجهة من إبراهيم عليه السلام اهتز لها القوم، وتقدم بنيانهم وانقطعت حججهم، وظهر الحق بالدليل في منطق نبيهم، فراجعوا أنفسهم وتلاوموا فيما بينهم وأدركتهم الحيرة والاضطراب: "فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون".

أي تبادلوا فيما بينهم الاتهام بظلم أنفسهم بعبادة من لا ينطق من الجمادات.³

ولكن لحظات التفكير الصحيح لم تدم طويلا، إذ غلب عليهم الكبرياء وانتصرت عليهم الأهواء، فانتهوا عن الملاومة، وانقلبوا عن التأثير بالدليل والحجة، وعادوا إلى جهلهم وعنادهم، وقرروا العودة إلى الجدل بالباطل من جديد "ثم نكسوا على رؤوسهم".

"أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة، شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه".⁴

وكانت حججهم التي عادوا ليواجهوا بها إبراهيم عليه السلام حجة عليهم:

"لقد علمت ما هؤلاء ينطقون".

(1) تفسير أبي السعود 74/6-75، وينظر تفسير روح المعاني 65/17

(2) تفسير ابن كثير 183/3

(3) ينظر: تفسير النسفي 408/2، تفسير فتح القدير 414/3، تفسير روح المعاني 66/17، تفسير البغوي 249/3

(4) تفسير أبي السعود 75/6، وينظر تفسير البغوي 249/3

قال النسفي: "قال أهل التفسير: "أجرى الله تعالى الحق على لسانهم في القول الأول ثم أدركتهم الشقاوة. أي ردوا إلى الكفر بعد أن أقروا على أنفسهم بالظلم، يقال: نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه، أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤوا بالفكرة الصالحة، ثم انقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة وقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف تأمرنا بسواها؟ والمعنى: لقد علمت عجزهم عن النطق فكيف نسألهم؟"¹

ولما أقر القوم بأن آلهتهم عاجزة عن النطق والكلام جابههم إبراهيم عليه السلام بتوبيخهم على عبادة تلك الأصنام التي ليس لها من خصائص الألوهية شيء، بل هي مجرد جمادات عاجزة عن النطق والتصرف، والتدبير والإرادة، لا تملك لنفسها نفعا فضلا عن أن تصون غيرها أو تمنع عنه أنواع الشرور، وليس بمقدورها أن تنفع عابديها، ولا في مكنتها أن تجلب الضرر والإهانة لمن يمتنع عن عبادتها.

"قال أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم".

ثم أظهر لهم عليه السلام وللآلهة التي تعبدون من دون الله؟ أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع؟ فتركوا عبادته وتعبدوا الله الذي فطر السموات والأرض، والذي بيده النفع والضرر.²

ولقد بين لهم عليه السلام أيضا أن الإله الحق لا بد أن يكون خالقا رازقا قادرا مدبرا، وما تعبدونه من الأصنام هو جماد مخلوق من صنع أيديكم فكيف يصح أن يكون إلهًا يعبد؟

"قال أتعبدون ما تحتون. والله خلقكم وما تعملون".

قال ابن كثير: "أي كيف تعبدون أصناما أنتم تحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون (والله خلقكم وما تعملون)".

وسواء كانت (ما) مصدرية أو بمعنى الذي، فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة، فكيف يتعبد مخلوق لمخلوق مثله؟"³

إن الذي يستحق وينبغي أن يعبد وحده هو الله الخالق المنشئ المبدع سبحانه وتعالى.

(1) تفسير النسفي 408/2، ينظر تفسير القرطبي 200/11

(2) تفسير الطبري 43/17

(3) قصص الأنبياء لابن كثير 166/1، وينظر تفسير الطبري 75/23

وقال تعالى في مناظرة إبراهيم عليه السلام للملك:¹

"ألم تر إلى الذي حاج... الظالمين".²

توضح الآية الكريمة ما حصل من الحاجة بين انبي الله إبراهيم عليه السلام وذلك الملك الذي جحد ربوبية الله تعالى وألوهيته، وادعى الأمن لنفسه غرورا واستكبارا.

فقد استدلل نبي الله عليه السلام على ربوبية ربه الذي يدعو إليه وألوهيته سبحانه، بقدرته على الإحياء والإماتة، فإن الرب الواحد والإله الحق هو الذي يوجد الحياة وينشئها من العدم، ويميت من شاء ممن وهبهم وأمدهم بالحياة، فيقطع تلك الحياة ويزيلها عنهم.

وظاهرة الموت والحياة واضحة لكل من تأمل وتفكر، تدل على فاعل مريد، ومدير حكيم، هو الذي خلق وأنشأ، وكون وأبدع، وذلك من الله سبحانه وتعالى: "قال ربي الذي يحيي ويميت".

قال ابن كثير: "أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له".³

ولكن الملك لم يشأ أن يسلم للحجة الواضحة والدليل القاطع، وإنما اتجه إلى المغالطة والمكابرة، فادعى أنه قادر هو كذلك على الإحياء والإماتة، وأن بإمكانه أن يأمر بقتل من يشاء من رعيته فيكون قد أماته، أو أن يعفو عنه فيكون قد أحياه.

وهو ادعاء في معزل عن الحجة والبرهان، بل هو قائم على السخافة والسذاجة والغباء، إذ أن مقصد إبراهيم عليه السلام إنما هو الإحياء الحقيقي الذي هو خلق وإنشاء من العدم، والإماتة الحقيقية التي هي نزع الحياة وسلبها ممن أنشأ فيه الحياة بالموت لا بالقتل.

(1) ذكر الله النمرود بن كنعان ملك بابل. ينظر: تفسير الطبري 23/3-24، تفسير القرطبي 184/3، قصص الأنبياء

لابن كثير 171/1، تاريخ الأنبياء، ط 2 1403هـ، مكتبة المعارف ص 100

(2) سورة البقرة: 258

(3) تفسير ابن كثير 313/1

قال في تفسير المنار: "والكلام في الإنشاء والتكوين، لافي اتخاذ الأسباب والتوسل في الشيء المكون، فالمراد بالذي يحيي ويميت الذي ينشأ الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت".¹ ولذا فإن إبراهيم عليه السلام لما رأى خصمه يغالط ويشاغب، ويكابر ويروغ، لم يرد أن يسترسل معه في جدل عقيم حول مسألة الإحياء والإماتة بل فضل عليه السلام أن ينتقل إلى أثر آخر من آيات القدرة الإلهية الموحية بانفراده سبحانه بالخلق والإرادة، والحكمة والتدبير:

"قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب".

تلك ظاهرة بديعة ذات نظام متسق لا يتغير ولا يتبدل إلا أن يشاء الله سبحانه، وإبراهيم عليه السلام يتحدث ذلك المدعى أن يقلب هذا النظام، فيأمر الشمس أن تطلع من مغربها.

قال في تفسير المنار: "الغنى إن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته هو الذي يطلع الشمس من المشرق، أي هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس واثبت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى بظهورها منه".² ذلك أمر لا يمكنه للملك في الادعاء فيه أو المراوغة، ومن ثم فقد انقطعت حجته، وتوقف عن الجدال، وتغير في الجواب: "فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين".

الرابع: دعوة سيدنا موسى عليه السلام

قال الله تعالى في قصة نبيه موسى عليه السلام قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.³

تغيرنا ههذه الآيات الكريمة أن فرعون سأل موسى عليه السلام عن ربه تبارك وتعالى سؤال المنكر لربوبيته، الجاحد لألوهيته، المتظاهر بعدم معرفته سبحانه، عنادا منه وغرورا ومكابرة:

"قال فمن ربكما يا موسى".

(1) تفسير المنار 46/3

(2) تفسير المنار 46/3-47، وينظر تفسير ابن كثير 313/1

(3) سورة طه: 49-52

"أي الذي بعثك من هو؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري".¹

وكان جواب موسى عليه السلام بأن ربه الذي بعثه تبارك وتعالى هو الإله المتفرد بالخلق والتكوين، والهداية والتقدير، والحكمة والتدبير، وهو سبحانه معروف بآياته المبثوثة في خلقه، فمن تأمل آثار الصنع البديع والنظام المتسق الحكيم، وصل بلاشك إلى معرفة ربه القادر العظيم، واهتدى إلى وحدانيته في ربوبيته وألوهيته عز وجل: "قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى".

وفي معنى هذه الآية أقوال للمفسرين جمع أكثرها صاحب أضواء البيان فقال: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة "قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق ولا مانع من شمول الآية لجميعها.

منها: أن معنى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أنه أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكر من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوج بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق علي بن أبي طلحة، وعن الشَّيْخِ وسعيد بن جبیر.²

وقال بعض أهل العلم "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" أي أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه، وهذا مروى عن الحسن وقادة.

وقال بعض أهل العلم "أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" أي أعطى كل شيء صورته المناسبة له، فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له فقدره تقديراً وهذا القول مروى عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبیر (ثم هدى) كل صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

(1) تفسير ابن كثير 155/3

(2) واختاره ابن جرير، ينظر تفسير الطبري 171/16

وقال بعض أهل العلم "أعطى كل شيء خلقه" أي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف والرجل واللسان وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة على ناب عنه. وهذا القول روى عن الضحاك.

وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى (كل شيء) هو المفعول الأول لـ (أعطى) و (خلق) هو المفعول الثاني.

وقال بعض أهل العلم: إن (خلق) هو المفعول الأول، و(كل شيء) هو المفعول الثاني.

وعلى هذا القول فالمعنى: أنه تعالى أعطى الخلاق كل شيء يحتاجون إليه، ثم هداهم إلى طريق استعماله.

ولا مانع من شمول الآية الكريمة لجميع الأقوال المذكورة، لأنه لا شك أنه الله أعطى الخلاق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به، ولا شك أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنتى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسبحانه جل وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته.

وفي هذه الأشياء المذكورة في معنى هذه الآية الكريمة براهين قاطعة على أنه جل وعلا رب كل شيء، وهو المعبود وحده جل وعلا.¹

ومع ذلك فإن فرعون لم يسلم للدليل والبرهان، بل عارض الحجة بمجرد التقليد "قال فما بال القرون الأولى".

"أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره".²

فأجابه موسى عليه السلام بأن التقليد ليس بحجة، إذ لا تقليد في الباطل ولا اتباع للمنهج الخاطيء، بل المعتمد هو منهج الحق والهدى والصواب.

(1) أضواء البيان 417/4-419 (مع اختصار) وينظر: تفسير القرطبي 137/11، تفسير البغوي 220/3، زاد المسير

203/5

(2) تفسير ابن كثير 155/3

أما من سبق من المشركين برهم، المستكبرين عن توحيده وطاعته فإن الله عزوجل يعلمهم، وأعمالهم مسطورة محصية عليهم، وسيجازي سبحانه عليها:

"قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى".

فإنه تبارك وتعالى محيط بأعمال العباد، لا يخفي عليه شيء، ولا يفوته منها شيء، إذ هو جل وعلا منزه عن السهو والنسيان.¹

وقال سبحانه وتعالى: "قال فرعون وما رب... المسجونين".²

وهذه الآيات كذلك تذكر سؤال فرعون لموسى عليه السلام عن رب العالمين الذي يدعو إليه تبارك وتعالى: "قال فرعون وما رب العالمين".

إذ أن موسى عليه السلام كان قد أعلن لفرعون أنه رسول من رب العالمين: "وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين".³

والسؤال هنا أيضا من فرعون هو سؤال منكر جاحد، ومعااند مستكبر.

قال ابن تيمية: "إن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد، يسأل عن ماهية رب أقر بشيئته، بل كان منكرا له جاحدا، ولهذا قال في تمام الكلام (لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين) وقال "... وإني لأظنه كاذبا..."⁴ فاستفهامه كان إنكارا وجحدا، يقول: ليس للعالمين رب يرسلك، فمن هو هذا؟ إنكارا له".⁵

ولذلك كانت إجابة موسى عليه السلام تتضمن أن الله تبارك وتعالى الذي يدعو إلى عبادته معروف بآثار صنعه، ودلائل قدرته، وآياته الظاهرة في خلقه، فهو أوضح من أن ينكر، وأظهر من أن يشك فيه، وأعرف من أن يجهل سبحانه: "قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين".

(1) ينظر تفسير ابن كثير 155/3

(2) سورة الشعراء: 23-29

(3) سورة الأعراف: 104

(4) سورة غافر 37

(5) مجموع الفتاوى 334/16

"يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة وما بينهما من مخلوقات متعددة من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات، التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولابد لها من موجد ومحدث وخالق، هو الله الذي لا إله إلا هو".¹

قال ابن تيمية: "لم يقل موقنين بكذا وكذا، بل أطلق، فأني يقين كان لكم بشيء من الأيضاء، فأول اليقين اليقين بهذا الرب".²

ولكن فرعون استقبل هذا الجواب المتضمن للحجة والبرهان بالتنقص والاستهزاء: "قال لمن حوله ألا تستمعون"

فآثر موسى عليه السلام أن يستمر في عرض الدلائل والبراهين على ربوبية الله تعالى ووحدانيته سبحانه. وإذا كان الدليل السابق من الآفاق المشاهدة، فإن الدليل اللاحق يبرز آية من آيات الله في الأنفس: "قال ربكم ورب آبائكم الأولين".

إن الذي أدعو إليه هو ربكم الذي خلقكم وخلق آبائكم، فإن آبائكم قد فنوا وبادوا، فمن الذي أنفاهم وغيرهم؟ وأنتم وجدتم من العدم وصرتم أحياء تعيشون على الأرض فمن الذي أحدثكم وأنشأكم وكونكم؟ لاشك أنه إله قادر مريد، وقاهر مدبر عظيم، وهو الله سبحانه وتعالى الذي أدعوكم إلى إخلاص العبادة له سبحانه).³

إلا أن فرعون كان قد قرر الجحود فسارع إلى وصم نبي الله بالجنون "قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون".

فلم يقف موسى عليه السلام عند هذا الاتهام، ولم ينشغل به أو يرد عليه، بل واصل دعوته إلى ربه بالحجة والبرهان.

"قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون".

(1) قصص الأنبياء لابن كثير 373/2

(2) مجموع الفتاوى 335/16

(3) ينظر تفسير القرطبي 67/13

"أي هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة، للسير للأفلاك الدائرة خالق الظلام والضياء، ورب الأرض والسماء، رب الأولين والآخرين خالق الشمس والقمر والكواكب السائرة والثوابت الحائرة، خالق الليل بظلامه والنهار بضياءه، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون، وفي فلك يسبحون، يتعاقبون في سائر الأوقات ويدورون، فهو تعالى الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء".¹

قال الشوكاني: "بين عليه السلام لفرعون شمول ربوبية الله سبحانه للمشرق والمغرب وما بينها، لكن فيه تصريح بإسناد حركات المسوات وما فيها، وتغيير أحوالها وأوضاعها، تارة بالنور وتارة بالظلمة، إلى الله سبحانه".² إن سير الكواكب في حركتها وشرقها وغروبها بهذا الانضباط العجيب وهذا النظام المنسق البديع، يفترق إلى محدث قادر، ومدير حكيم، سخر ذلك وأنشأ بأمره، ونظمه وأبدعه بمشيئته وأرادته.

ذلك هو الله رب العالمين جل وعلا.

ولما ضاقت على فرعون حجته، وتلجلج منطقته، اتجه إلى التهديد بالقوة:

"قال لمن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين".

الخامس: دعوة سيدنا رسول الله ﷺ الملا وحواشيهم

إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي توضح حقائق الرسالة والدعوة وتبين منهجها وغايتها، وترد على شبهات المعاندين، واتهامات المضلين وتكشف أغراضهم، وتفضح افتراءاتهم، وتبطل كيدهم. وذلك وعد الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، إذ يقول عز وجل: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا".³

"قال سعيد بن جبير عن ابن عباس "ولا يأتونك بمثل" أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول "إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً" أي غلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم".⁴

وأكتفي هنا بذكر بعض الأمثلة في هذا الاتجاه:

(1) قصص الأنبياء لابن كثير 373/2

(2) تفسير فتح القدير 98/4

(3) سورة الفرقان 33

(4) تفسير ابن كثير 318/3

"قال الله تعالى: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا.¹

"أَتَكْفُرُ لِلَّذِينَ هَمَزْنَاهُ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَيِّنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ...²

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ.³

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.⁴

"مَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ.⁵

"وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا...⁶

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَكُمْ لَا يُظْهَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ.⁷

"وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ.⁸

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا...⁹

هذه جملة من الآيات الكريمة تناقش قضية أثارها أعداء رسول الله ﷺ، ويقررون على أساسها كذبه واقتراه ﷺ. ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بشر يأكل ويشرب ويسعى في طلب المعاش، وهذا في زعمهم يتنافض

(1) سورة الإسراء: 94-95

(2) سورة يونس: 2

(3) سورة يوسف: 109

(4) سورة النحل: 43

(5) سورة الأنبياء: 7-8

(6) سورة الفرقان: 20

(7) سورة الأنعام: 8-9

(8) سورة الحجر: 6-8

(9) سورة الفرقان: 21-22

مع كونه ﷺ رسولا، إذ لا تجتمع البشرية والرسالة، ومن ثم فلا يمكن أن يكون عليه الصلاة والسلام - في زعمهم - صادقا فيما جاء به:

"وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا.."

وجواب هذه الشبهة أن اختيار الله تبارك وتعالى للرسول من البشر إنما هو حكمة إلهية، ورحمة ربانية، ليتمكن الناس من تلقي منهج الله تعالى عن رسول من جنسهم، يناسب طبيعتهم، ويتجانس مع تكوينهم، ويحصل لهم التمكن من رؤيته، ومخاطبته، والاستماع إليه، والتلقي عنه والاقتداء به.

ولو كان الذين يعيشون على الأرض ملائكة يمشون في أرجائها، ويستقرون في جوانبها كما يستقر البشر لأرسل الله سبحانه إليهم رسولا من جنسهم، يحمل صفاتهم وطبيعتهم، ومن ثم يتمكن من هدايتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الخير:

"قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا."

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء الذي أبوا الإيمان بك، وتصديقك فيما جنتهم به من عندي، استنكارا لأن يبعث الله رسولا من البشر: لو كان أيها الناس في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا، لأن الملائكة إنما تراهم أمثالهم من الملائكة ومن خصه الله من بني آدم برؤيتها، فأما غيرهم فلا يقدرون على رؤيتها، فكيف يبعث إليهم من الملائكة الرسل وهم لا يقدرون على رؤيتهم وهم بميئتهم التي خلقهم الله بها، وإنما يرسل إلى البشر الرسول منهم، كما لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين ثم أرسلنا إليهم رسولا أرسلناه منهم ملكا مثلهم".¹

ومن ثم يصبح كون الرسول بشرا مسألة عادية لا تستحق التعجب، وليس فيها ما يقتضي الاستغراب:

"أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هُمْ قَدْ مَرَّ صِدْقِي عِنْدَ رَبِّهِمْ."

فالآية تنكر على المشركين هذا التعجب من أن يتنزل وحى الله تعالى على واحد من الجنس البشري ليبلغ الناس وينذرهم.

قال الألوسي: "الهمزة لإنكار تعجبهم، ولتعجب السامعين منه لوقوعه في غير محله".¹

فمن أظهر من المعاندين استغرابه من بشرته ﷺ فهو أخرى بأن يتعجب منه ويستغرب.

فلقد كان إرسال الرسل من البشر سنة ماضية في الأمم السابقة، قدرها الله تبارك وتعالى، وقضى بها حكمة منه سبحانه، ورحمة ولطفًا بالعباد.

فنوح وهود وصالح وغيرهم من الرسل عليهم السلام كلهم بشر، بعثهم الله عز وجل، وأنزل عليهم وحيه، ليلفوا أقوامهم الدعوة على توحيده وطاعته سبحانه: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى...".

قال ابن جرير: "يقول تعالى ذكره لنبيه: وما أرسلنا يا محمد قبلك رسولا إلى أمة من الأمم التي خلت قبل أمتك إلا رجلا مثلهم، نوحى إليهم ما نريد أن نوحيه من أمرنا ونهيها، لا ملائكة، فماذا أنكروا من إرسالنا لك إليهم، وأنت رجل كسائر الرسل الذين قبلك إلى أممهم؟".²

فالرسل عليهم السلام جميعا بشر يأكلون الطعام كما يأكل البشر، ويفنون كما يفنى البشر: "وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ". "أي لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر، لا يحتاجون طعام وشراب (وما كانوا خالدين) يريد: لا يموتون".³

وبالتالي فإن نبينا عليه الصلاة والسلام ليس يبدع من الرسل، وليس يختلف عنهم في الصفات البشرية: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ..".

فإذا كان رسول الله ﷺ يأكل الطعام، فإن الرسل السابقين عليهم السلام كانوا كذلك، وإذا كان عليه الصلاة والسلام يسعى في التكسب وطلب المعاش، فإن إخوانه من الرسل السابقين عليهم السلام كانوا كذلك، فهم جميعا لا يخرجون عن دائرة البشرية، ومن ثم فليس لأولئك المتعنتين المعاندين فيما أثاروه حجة ولا برهان، واعتراضهم في مستكر مردود.

(1) تفسير روح المعاني 59/11، وينظر التفسير الكبير 6/17

(2) تفسير الطبري 5-4/17

(3) تفسير القرطبي 6/17

ولما اقترح المستكبرون أن ينزل عليه ﷺ ملك يصدق به ويشهد له، ويشاركه الدعوة الإنذار (وقالوا لو لا أنزل عليه ملك). لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ تَنْذِيرًا.¹

كان رد القرآن الكريم عليهم من جهتين:

الأولى: في قوله تعالى: "وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الَأْمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ.":

"أي لو أنزلنا ملكا على هذه الصفة التي اقترحوها، بحيث يشاهدونه ويخاطبونه ويخاطبهم (لقضى الأمر) أي لأهلكناهم إذا لم يؤمنوا عند نزوله ورؤيتهم له، لأن مثل هذه الآية البينة، وهي نزول الملك على تلك الصفة إذا لم يقع الإيمان بعدها فقد استحقوا الإهلاك والمعالجة بالعقوبة (ثم لا ينظرون) أي لا يمهلون بعد نزوله ومشاهدتهم له".²

عن قتادة قال: "لو أنزل الله ملكا ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب".³

فنزول الملائمة مؤذن بعذاب الاستئصال لهم ماداموا مصرين على التكذيب: "مَا تُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ."

والمعنى "ما تنزل ملائكتنا إلا بالحق، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه، ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسلهم معك آية، فكفروا، لم ينظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به، كما فعلنا ذلك بمن قبلهم ثم الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين أتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة".⁴

وحين يصيبهم العذاب، ويلحقهم الموت، لن يكون في رؤية الملائكة بشرى لهم: "يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا".

والثانية: في قوله تعالى: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ".

(1) سورة الفرقان 7

(2) تفسير فتح القدير 101/2

(3) رواه ابن جرير، بنظر تفسير الطبري 152/7

(4) تفسير الطبري 7/14

فلو أراد الله تبارك وتعالى أن يكون مع رسوله ملك يصدقه كما طلبوا، فلن يكون ظهوره لهم على صورته الحقيقية، ذلك أنه لو واجههم بهيئته الملائكية التي خلقه الله عليها لما تمكنوا من النظر إليه، واللقاء به، والتفاهم والتخاطب معه، والتلقى عنه، ولفزعوا من سؤاله والاقترب منه.

بل سيظهر لهم الملك وقتها على صورة رجل ليتمكنهم محادثته والاستماع إليه، وحينئذ سيبقى ما افتعلوه من الإشكال قائما، وما اعترضوا، من الشبهة وأرادا، إذ كيف يمكنهم التأكد من كونه ملكا في حقيقته وليس ببشر كما يشاهدون، ومن ثم سيستمر التكذيب والتشكيك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: "ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا" يقول: ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة.¹

"وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُونَ".

يقول ابن القيم في تفسير الآية: "إن المشركين قالوا تعنتا في كفرهم (لو لا أنزل عليه ملك) يعنون ملكا نشاهده ونراه، يشهد له ويصدق، وإلا فللملك كان ينزل عليه بالوحي من الله، فأجاب الله تعالى عن هذا، وبين الحكمة في عدم إنزال الملك على الوجه الذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا ولم يؤمنوا به ويصدقوه، لعوجلوا بالعذاب كما استمرت به سته تعالى مع الكفار في آيات الاقتراح إذا جاءهم ولم يؤمنوا بها. فقال "ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون" ثم بين سبحانه أنه لو أنزل ملكا كما اقترحوا لما حصل به مقصودهم، لأنه إن أنزله في صورته لم يقدر على التلقى عنه، إذ البشر لا يقدر على مخاطبة للملك ومباشرة، وإن جعله في صورة رجل حصل لهم لبس: هل هو رجل أم ملك؟ فقال تعالى: "ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم" في هذه الحال "ما يلبسون" على أنفسهم حينئذ، فإنهم إذا رأوا الملك في صورة الإنسان قالوا: هذا إنسان وليس بملك. هذا معنى الآية.²

وقال الله سبحانه: "أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ. فَلْيُحَدِّثْ يُثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ".³

(1) رواه ابن جرير. تفسير الطبري 152/7

(2) التفسير القيم ص 233 (مع اختصار يسير).

(3) سورة الطور 33-34

"قُلْ لِّبَنِي إِجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا.¹"

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.²"

"وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.³"

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.⁴"

"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا.⁵"

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.⁶"

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.⁷"

"وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.....⁸"

"وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا أَرَاتَ الْمُبْطِلُونَ.⁹"

هذه الآيات كلها تتحدى وتحجب بحجب على شبهة أخرى مما يثيره أهل الكفر والعناد، وترد على لاغاثام الموجه منهم إلى رسول الله ﷺ بأنه كاذب فيما جاء هب، مفتر على الله جل وعلا، إذ ينسب القرآن إليه

(1) سورة الإسراء: 88

(2) سورة هود: 13

(3) سورة البقرة: 23

(4) سورة يونس: 38

(5) سورة الفرقان: 4-6

(6) سورة السجدة: 3

(7) سورة الأحقاف: 8

(8) سورة النحل: 101-105

(9) سورة العنكبوت: 48

عزوجل، في حين أنه عليه الصلاة والسلام - حسب مقولتهم - قد اختلقه وتقلده وافتعله من ذات نفسه: "أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ".

ويرد القرآن الكريم ويبيهم بالتحدي، ويلزمهم بالبرهان فبهتوا: "فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ".

فإذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام قد تمكن من اختلاق هذا القرآن وتأليفه، فإن أولئك المعاندين من مشركي قريش وأمثالهم يشتركون معه ﷺ في البشرية، ويشتركون معه في اللسان العربي، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقول والبيان، ممارسون النظم، ويزاولون النثر ولهم شأن في حسن الأسلوب وبديع الكلام، ومن ثم فعليهم أن يثبتوا صحة ادعائهم، وذلك بأن يولفوا قرآنا مثله، خصوصا وأنه عليه الصلاة والسلام واحد وهم جموع كبيرة، فليتكاتفوا وليعاونوا ولتجتمع جهودهم ليصلوا على غرضهم وبغيتهم في تأليف ما يشبه القرآن في نظمه وبيانه، ويطلوا بذلك حجته ﷺ.

لقد تكرر ذلك الأسلوب في التحدي، ومطالبة المثيرين للشبهة بأن يعارضوا القرآن، ويأتوا بمثله إن كان ذلك في مكنيتهم.

كان التحدي بداية أي أتوا بمثل القرآن بمجموعة:

"قُلْ لِّمَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا".

إعجاز القرآن الكريم في الفصاحة والبلاغة، ظاهر، سواء في نظمه ولفظه، أو في مضمونه ومعناه، والمخاليق عاجزون عن معارضته بأي صورة وعلى أي حال، مهما اجتمعت الجموع، وتوحدت الجهود، وتعاون الإنس والجن، واستعانوا بكل مخلوق، فإن كلام الله تعالى يستحيل أن يشبه كلام مخلوق.

وكان التحدي مرة أخرى بأن يأتوا بمثل عشر سور من القرآن الكريم.

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ ... صَادِقِينَ".

وتحداهم نالته بأن يأتوا بمثل سورة واحدة منه، وهو في كل مرة يطالبهم - تعجيزا وإفحاما - بالاستعانة بمن يؤازرهم ويعينهم من أهل الفصاحة والبيان، وبآلهتهم التي يدعون أنها تقف معهم وتنفعهم وتحميهم: "افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

"وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

لقد بلغ معهم النهاية في التحدى والتعجيز، إذ كان من المستحيل أن يتمكن عليه الصلاة والسلام من تأليف هذا القرآن كله - حسب زعمهم - ثم لا يتمكنون هم بجمعهم وأعوأهم من الفصحاء والبلغاء أن يؤلفوا مثل ذلك، أو عشر سور منه، أو حتى سورة واحدة منه.

إنهم إذ لم يفعلوا فقد دل ذلك على كذبهم وبهتانهم فيما أثاروه من الشبهة، ومارموا به من التهمة له صلى الله عليه وسلم.

كما يدل ذلك على أن القرآن معجزة بينة، وحجة دامغة، تشهد أن كلام الله تبارك وتعالى حقاً وصدقاً، أنزله على لسان أمين وحيه جبريل عليه السلام، فبلغه الصادق الأمين رسولنا عليه الصلاة والسلام:

"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ".

ورد آخر على المثيرين لهذه الشبهة نلاحظه في قول الله سبحانه: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا".

فلو فرضت جدلاً أنني مدع للرسالة، مفتر للقرآن - كما تزعمون - فإن ذلك سيعرضني لعاجل العذاب وأليم العقاب من الله تعالى، ولن يدفع أحد منكم حينئذ عني ذلك العذاب، ولن يجربني منه كثرة الأتباع والأعوان وإذا كان الأمر كذلك فكيف تتصورون وتتوقعون أن يصدق اتهامكم لي بالكذب والافتراء مع علمي بنتيجة ذلك.

"هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ".

إن عزائي فيما تثيرونه على من الشبه، أن ربي تبارك وتعالى محيط علمه بما تفعون فيه وتخوضون، من الطعن في قضايا الوحي والرسالة وما تقذفونني به من الاتهامات، وسيجازيكم على ذلك سبحانه بما تستحقون وتكفيني شهادته عز وجل لي بالأداء والبلاغ، وعليكم بالبحود والاستكبار ومع ذلك فإن الطريق لا زال أمامكم مفتوحاً للإجابة إلى ربكم، والعودة إلى توحيد وطاعته، فإنه الغفور الرحيم سبحانه لمن أقبل عليه مؤمناً تائباً منيباً.¹

(1) ينظر: تفسير القرطبي 123/16، تفسير فتح القدير 14/5-15

ولما وصف المستكبرون القرآن الكريم بأنه مجرد أساطير: "وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"

أنزل الله عليهم الرد الفاحم مباشرة: "قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا".

"أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً وصدقاً مطابقاً للواقع في الخارج ماضياً ومستقبلاً (الذي يعلم السر) أي الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر".¹

إن ماورد في القرآن من أخبار السابقين يشهد بصدق رسول الله ﷺ فيما جاء عن ربه سبحانه.

إذ لم يعرف عنه عليه الصلاة والسلام مخالطة لأهل الكتاب، أو تلمذ على أحد منهم، فلم يبق لتلك الأخبار المطابقة للواقع من مصدر وطريق إلا أن يكون عليه الصلاة والسلام قد تلقاها عن ربه علام الغيوب سبحانه.

يقول عز وجل: "وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْنَابِ الْمُضْطَلُّونَ".

"أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة، أو من الكتب المدونة في أخبار الأمم، فلما كنت أمياً لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للرؤية ولا محل للشك أبداً، بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرد عناد وجحود بلا شبهة".²

ولقد كان المعاندون ينتهزون فرصة النسخ في القرآن الكريم ليثيروا شبهة الافتراء من جديد، فنزل القرآن بالرد عليه مفي قوله سبحانه: "وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

فالآيات الكريمة تبين أن الجهل هو سمة هؤلاء الطاعنين، ولذا فهم لا يدركون حكمة الله تبارك وتعالى في نسخ الأحكام وتبديل الآيات، وثمرة ذلك من الفوائد والمصالح.

إن القرآن الكريم بناسخه ومنسوخه منزل من رب العالمين سبحانه أنزله روح القدس جبريل عليه السلام على نبي الله ﷺ متلبساً بالحق الثابت والحكمة البالغة، قائماً على الصدق والعدل، يحمل في ثناياه التثبيت والهداية

(1) تفسير ابن كثير 309/3

(2) تفسير فتح القدير 207/4

والبشارة لعباد الله المؤمنين، يثبت قلوبهم فيؤمنون بما نزل من القرآن ناسخة ومنسوخه، ويوقنوا بأنه حق كله من ربه تبارك وتعالى، ويهيبهم الهداية التي تنجيهم من الضلال وتوفقهم للصواب ويشرهم بالفوز العظيم والعاقبة الطيبة للمؤمنين.¹

ورد القرآن كذلك شبهة المكذبين من قريش بأنه عليه الصلاة والسلام يتلقى ما يأتي به عن رجل أعجمي معروف بمكة: "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يِقُولُونَ إِنْ مَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ".

إن هذه المقولة منهم تجمع بين النقيضين، فمن يقصدونه أعجمي اللسان، لا يفصح بالعربية، فكيف يتفق ذلك مع القرآن ذي الفصاحة التامة والبيان الواضح، والنظم العجيب.

قال أبو السعود في قوله تعالى: "لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين".

"الجملةتان مستأنفتان لإبطال طعنهم، وتقريره أنه القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بشرا يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز أهل الدنيا؟"²

ثم ترد الآيات الكريمات الطعن وتقلبه على من أثاروا شبهة فتصممهم بأنهم هم الكاذبون في حقيقة الأمر، حين يتهمونه ﷺ بالكذب والافتراء: "إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ".

وقال جل وعلا: "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا... وَلَنْ نُؤْمِنَ لِوَعْدِكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤهُ فَلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا".³

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ".⁴

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ فُلْ إِنْ مَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ...."⁵

(1) ينظر: تفسير ابن كثير 194/3، تفسير فتح القدير 586/2

(2) تفسير أبي السعود 142/5

(3) سورة الإسراء 90-93

(4) سورة الرعد 38

(5) سورة العنكبوت 50-52

"وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ."¹

"قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ..."²

"وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا."³

"بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلُ الْأَوَّلُونَ."⁴

"وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ فَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ."⁵

"وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى."⁶

"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَلُومُ عَظِيمٌ. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"⁷

هذه مجموعة من الآيات الكريمة التي تناقش قضية الاقتراحات، التي كان المكذبون يوالون تقديمها إلى رسول الله ﷺ، بغية تعجيزه وإظهاره بمظهر الكاذب، الذي لا يملك لما يدعيه دليلاً ولا برهاناً ولا شك أن الذي يجعلهم على ذلك هو مجرد التعنت والجحود والعناد ورسول الله ﷺ يرد عليهم بما علمه رهب سبحانه وأمره به في هذه الآيات وغيرها.

ويمكن شرح هذا الجواب القرآني في العناصر التالية:

- (1) سورة يونس: 20
- (2) سورة الأنعام: 50
- (3) سورة الإسراء: 59
- (4) سورة الأنبياء: 5-6
- (5) سورة الأنعام: 37
- (6) سورة طه: الآية، 133
- 8 سورة يونس: 15-16

أولاً: مسألة المحيىء بالآيات، وتنفيذ المطالب والافتراضات، ليست هي وظيفته ولا تدخل في نطاق مهمته عليه الصلاة والسلام.

فهو ﷺ بشر من البشر، غير أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه، وشرفه بالنبوة، وكلفه بالدعوة إلى توحيده وطاعته، وأرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً.

أما غير ذلك مما يقترحه المعاندون فهو خارج عن مكنته وقدرته البشرية، والأمر فيه ليس إليه ولا منوطاً به. وعجيب شأن هؤلاء المشركين، حين يتعنون ويسبون الأدب، فيتحكمون على الله تعالى بطلب هذه المطالب الغريبة، واقترح هذه الآيات المتوالية: "قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا".¹

"أي تنزيها لربي جل وعلا عن كل ما لا يليق به، ويدخل فيه تنزيه عن العجز عن فعل ما اقترحتهم، فهو قادر على كل شيء لا يعجزه شيء، وأنا بشر أتبع ما يوحيه إليّ ربي".²

قال الرازي: "تقرير هذا الجواب أن يقال: إما أن يكون مرادكم من هذا الاقتراح أنكم طلبتم الإتيان من عند نفسي بهذه الأشياء، أو طلبتم مني أن أطلب من الله تعالى إظهارها على يدي لتدل على كوني رسولا حقا من عند الله، والأول باطل لأني بشر، والبشر لاقدرة له على هذه الأشياء، والثاني أيضا باطل، لأني قد أتيتكم بمعجزة واحدة وهي القرآن، والدلالة على كونها معجزة، فطلب هذه المعجزات طلب لما لا حاجة إليه ولا ضرورة، فكان طلبه يجري مجرى التعنت والتحكم، وأنا عبد مأمور ليس لي أن أتحكم على الله فسقط هذا السؤال".³

وهو عليه الصلاة والسلام يتأدب مع ربه سبحانه، ويلتزم بحدود وظيفته وما أنيط به من الإنذار والبيان، فلا يتجاوز ذلك بحال: "وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ..."

"ولن يوجد في مكنيته أن يتصرف فيما أنزل عليه من وحي ربه، فيغير أو يبدل كلما اشتهد القوم ذلك، بل يضبط عليه الصلاة والسلام تصرفه بما يأتيه من وحي ربه عز وجل، فهو عبد له تعالى، لا يخرج عن طوعه

(1) قرأ ابن كثير وابن عامر "قال سبحانه ربي" وقرأ الباقون "قل سبحانه ربي". ينظر إبراز المعاني ص 565

(2) أضواء البيان 628/3-629، وينظر تفسير القرطبي 214/10

(3) التفسير الكبير 59/21، وينظر تفسير فتح القدير 258/3

وأمره: (وَإِذَا تَنَزَّلْنَا بَيْنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّمَا يَفْزَعُ الْغَائِبُونَ لَوْ أَنَّ لَهُمْ أَفْئِدَةً يَأْخُذُونَ فِيهَا أَفْئِدَةً كَأَفْئِدَتِ النَّاسِ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ رَكْعَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الأنبياء: 21). وَأَنْ أُنْذِرَ مَنِ اتَّبَعَ بِإِذْنِ اللَّهِ آلَ عَادَ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُذِيبٍ. (الأنبياء: 22).

وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدعى لنفسه قدرة خارقة خارجة عن مكنة البشر واستطاعتهم، حتى يطالبوه ويقترحوا عليه ما ليس من شأنه ولا يتعلق بوظيفته: "قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّمَا اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ".

ثانيا: لا شك في قدرة الله تبارك وتعالى على ما يطلبه هؤلاء المعاندون من الآيات، وما يقترحونه من الاقتراحات، إذ الأمر كله منوط بمشيئته وإرادته جل وعلا: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ".

"وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ".

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ".

قال ابن كثير: "أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تمهدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك".¹

ولذا قال عليه الصلاة والسلام ضمن جوابه على اقتراح المعاندين بتدليل القرآن ماوجه به ربه سبحانه:

"قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".

"أي لو شاء الله ما أرسلني إليكم فتلوت عليكم القرآن، ولا أعلمكم الله ولا أخبركم به".²

فالأمر كله بيد الله سبحانه:

ثالثا: اقتضت حكمة الله عز وجل ورحمته أن لا يورد سبحانه على يد رسوله عليه الصلاة والسلام ما اقترحه أولئك المعاندون من الآيات.

(1) تفسير ابن كثير 418/3

(2) تفسير القرطبي 204/8

ذلك أن سنة الله تعالى في عباده جرت بتعجيل العذاب للمكذبين، إذا جاءهم الرسول بالآية بناء على اقتراحهم، ثم لم يؤمنوا بها: "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...".

أي "ما منعنا أن نرسل بالآيات التي اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا، كما فعل بمن كان قبلهم. قال معناه قتادة وابن جريج وغيرهما".¹

قال الشوكاني: "والحاصل أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستتصال".²

إن العناد والتعنت هو الباعث لكفار قريش إلى طلب الآيات، وهم في ذلك ليسوا بأقل من سبقهم من المكذبين في الأمم السابقة ممن جاءهم الآية كما طلبوا فأصروا على التكذيب، فأهلكهم الله سبحانه:

"مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ".

"أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على يدي نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا فأهلكناهم بذلك، أفهلؤاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا".³

قال صاحب تفسير المنار عند قول الله تعالى "قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ":

"أي قل أيها الرسول: إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا وإنما ينزلها إذا اقتضت حكمته تنزيلها، لا إذا تعلقت شهوتهم بتعجيز الرسول بطلبها، فإن أجابة المعاندين إلى الآيات المقترحة لم يكن في أمة من الأمم سبباً للهداية، وقد مضت سنته تعالى في أوام بأن يعاقب المعجزين للرسل بذلك بعذاب الاستتصال، فتتزيل آية مقترحة لا يكون خيراً لهم، بل هو شرك لهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئاً من حكم الله تعالى في أفعاله، ولا من سنته في خلقه، ولا أنك أرسلت رحمة للعالمين فلا يأتي على يدك سبب استتصال أمتك بإجابة المعاندين منها إلى ما اقترحوا عليك لإظهار عجزك ولا يعلمون أيضاً أن إجابة اقتراح واحد يؤدي إلى

(1) تفسير القرطبي 182/10، وينظر تفسير البغوي 121/3

(2) تفسير فتح القدير 237/3-238

(3) تفسير ابن كثير 173/3، وينظر تفسير الطبري 4/17

اقتراحات كثيرة لاحد لها ولا فائدة منها. وقد يعلم أفراد منهم بعض ذلك علما ناقصا لا يدعي إلى الاعتبار، ولا يصد صاحبه عن مثل هذا الاقتراح".¹

رابعا: أن القرآن الكريم كاف في حد ذاته لإثبات صدق رسول الله ﷺ وأنه رسول من عند الله تعالى حقا:

"وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا".

"أي أولم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحدتهم بأن يأتوا بمثله أوب سورة منه فعجزوا، ولو أتيتهم بآيات موسى وآيات غيره من الأنبياء لما آمنوا، كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ومكان".²

فالآية الكريمة ترد على المعاندين اقتراحاتهم، وتنكر عليهم طلب الآيات، في حين أن القرآن مائل أمامهم، يتلى عليهم في كل حين، دون أن يرتبط بزمان، أو يتقيد بمكان، فهو المعجزة المستمرة، والبيئة الدائمة، في فصاحته وبلاغته، وفي معانيه ومضمونه، وفيما جاء به من الأخبار الصادقة المصدقة لما جاءت به الكتب السابقة: "وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى".

والمراد بالبيئة القرآن الكريم، وبالصحف الأولى التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب المتقدمة.³

قال في أضواء البيان: "أظهر الأقوال عندي في معنى هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على عادتهم في التعتن آية على النبوة كالمصا واليد من آيات موسى وكناقة صالح، فأجابهم الله بقوله (أولم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى) وهي هذا القرآن العظيم، لأنه آية هي أعظم الآيات وأدلها على الإعجاز، وإنما عبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بينة ما في الصحف الأولى، لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع الكتب المنزلة من الله تعالى فهو بينة واضحة على صدقها وصحتها".⁴

وقال ابن كثير في الآية "أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى": "يعني القرآن الذي أنزل عليه، وهو أمي لا يحسن الكتابة، ولم يدرس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقهم

(1) تفسير المنار 386/7-387

(2) تفسير فتح القدير 208/4

(3) ينظر: تفسير القرطبي 175/11، تفسير أبي السعود 51/6، تفسير البغوي 237/3

(4) أضواء البيان 552-551/4

عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها".¹

ولقد عاش نبي الله ﷺ قبل بعثته بين ظهراي قومه من قريش، ونشأ فيهم زمنا طويلا، يسمعون قوله، ويعلمون حاله، ويعرفونه بالصدق والأمانة والعفة، لم يعلن لهم في ذلك الحين رسالة، ولم يأثم فيه بآية.

و ذلك حجة واضحة ودلالة فاطعة على أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام بعد ذلك حين بعث من القرآن الذي بمر الألباب بفصاحته، لم يصدر عن شخصه ﷺ، وإنما هو معجزة من عند الله تعالى حقا وصدقا، ذلك ما أمر أن يواجههم به عليه الصلاة والسلام: "قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".²

(1) تفسير ابن كثير 171/3

(2) ينظر: تفسير القرطبي 205/8، تفسير روح المعاني 86/11-87، تفسير فتح القدير 431/2

المبحث الثالث: التخطيط لنجاح الدعوة وسلامتها

ويشتمل على أربعة فروع منها:

الفرع الأول: العمل على نجاح الدعوة وامتدادها

الفرع الثاني: العمل على سلامة الدعوة وأمنها

الفرع الثالث: الاعداد للدفاع عن الدعوة الى الله

الفرع الأول: العمل على نجاح الدعوة وامتدادها

يبدل الرسل عليهم السلام غاية جهدهم، ونهاية مكنتهم، في إيصال الدعوة، وتبليغ الرسالة، فينوعون في الوسائل، ويجددون في الأساليب، أملاً في استجابة الناس لدعوة الله تعالى، واهتدائهم إلى دينه وشرعه. ذلك أمر يلحظه المتأمل فيما أورده القصص القرآني من سير الأنبياء عليهم السلام.

ويمكن اعتبار ما ورد في القرآن الكريم ضمن مقالة نوح عليه السلام وهو يشتكي حاله إلى ربه سبحانه أنموذجاً لمنهج الأنبياء عليهم السلام في هذا الاتجاه: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا.¹

"قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَغْلَسْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَبَعَثْنَا فِي نَفْسِكُمْ إِحْشَاءً وَجَعَلْنَا لَكُم بُرْهَانًا وَمَا لَكُم لَا تَرْجِعُونَ إِلَهُ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَنَعِ سَمَواتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَتَيْنَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا".²

إن الرسل عليهم السلام يعملون على انتشار الدعوة في كل الأوقات، سالكين لذلك مختلف الطرق والأساليب والوسائل الشرعية.

فهم تارة يبينون التصور الصحيح للدعوة التي يحملونها، ويوضحون للناس حقائقها، وتارة يردون على شبهات المعاندين، وتارة يذكرون القوم بدلائل الوجدانية لله رب العالمين، أو يذكروهم بنعمه تبارك وتعالى السابغة عليهم في كل حين، وهم عليهم السلام في كل ذلك يتنقلون بين أساليب الوعظ والترغيب والترهيب.

كما أنهم عليهم السلام يتحركون في دعوتهم حسب مقتضى الظروف والأحوال، فيتجهون إلى الدعوة السرية أو العلنية، الدعوة الفردية أو الجماعية، الدعوة الخاصة أو العامة، كل ذلك حسب ما يترتب من المصلحة الراجحة للدعوة في الزمان أو المكان.

(1) سورة نوح 5

(2) سورة نوح: 8-20

ويتهز الرسل عليهم السلام الفرص فلا يضيعون مناسبة دون استغلالها لمصلحة الدعوة وانتشارها، كما فعل نبي الله إبراهيم عليه السلام، وذلك حين دُعي الناس وجمعوا لمشاهدة من قام بتكسير آلهتهم:

"قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ".¹

وتلك فرصة كان ينتظرها إبراهيم عليه السلام، ومقصد كان يروم تحقيقه، لينظر الجموع بالحجة والبرهان، ويخاطب الجماهير بما يهز قناعاتهم وجهالاتهم في تلك الألهة المدعاة، ويصحح عقائدهم، ويعيدهم إلى توحيد ربهم سبحانه.

قال ابن كثير: "وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام، أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه".²

وهذا ما تحقق له عليه السلام: "قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْئَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ. فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ تُكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَتَقْبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أَفَبِ لَكُمْ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".³

وكذلك صنع موسى عليه السلام لما طلب منه فرعون موعدا لمعارض ما جاء به من المعجزة:

"قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ غَرٌّ وَلَا أَنْتَ مَكَاثِرٌ سَوَىٰ".⁴

فحدد له نبي الله موسى عليه السلام موعدا معينا كان له فيه مقصد وحكمة: "قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُخًى".⁵

(1) سورة الأنبياء 61

(2) قصص الأنبياء لابن كثير 165/1

(3) سورة الأنبياء: 62-67

(4) سورة طه: 57-58

(5) سورة طه: 59

فقد أراد عليه السلام أن يستغل ذلك العيد الذي يجتمع عامة الناس فيه، فجعله موعداً لما أرادوا من المعارضة، ومن ثمّ يمكنه أن يبلغ الدعوة ويحق الحق ويبطل الباطل بتوفيق من ربه سبحانه، أمام ذلك الجمع الغفير من الناس.

قال ابن كثير: "وكان هذا أكبر مقاصد موسى عليه السلام، أن يظهر آيات الله وجعله وبراهينه جهرية بحضرة الناس، ولهذا (قال موعدكم يوم الزينة) وكان يوم عيد من أعيادهم واجتمع لهم (وأن يحشر الناس ضحى) أي في أول النهار وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر وأجلى".¹

وأكمل رسولنا ﷺ مسيرة النبوة والرسالة، وشعر عن ساعد الجد في الدعوة، وعمل على تبليغها، واتساع دوائر المؤمنين بها وامتداد قواعدها في مكة وخارجها، وطرق كل الأبواب، وسلك العديد من الأساليب والوسائل.

إذ "استمر يدعو إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصدّه عنه صاد، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، يدعو من لقيه من حر وعبد، وضعيف وقوى، وغني وفقير...".²

وقد كانت دعوته عليه الصلاة والسلام في بادئ الأمر سرية، يخص بها من ينق من أصحابه ومعارفه، كزوجه خديجة رضي الله عنها، وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واستمر على هذا الوضع حتى جاءه الأمر الإلهي بالإعلان العام فجهر بالدعوة في جموع قريش، وكانت البداية يوم أن صعد على الصفا، ونادى في أهل مكة، فلما اجتمعوا قال لهم: "أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد".³

وانطلق بعدها عليه الصلاة والسلام في نوادي قريش ومجالسها، يقف مع أشرافها وعامتها، فرادى وجماعات، يدعوهم إلى دين الله سبحانه.

(1) قصص الأنبياء لابن كثير 379/2، وينظر تفسير ابن كثير 156/3

(2) البداية 54/3

(3) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب وأنذر عشيرتكم الأقربين، 1787/4

كما كان ﷺ يدفع من آمن من أصحابه ﷺ إلى الدعوة إلى الله عزوجل، ويحثهم على بذلك الجهود فيها، سواء في داخل مكة أو خارجها، أملا في امتداد الدعوة وانتشارها.

ومن هؤلاء كان أبو بكر الصديق ﷺ، الذي أسلم على يديه في بداية الدعوة عدد من كبار الصحابة، كعثمان بن عفان، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ﷺ.¹

ومنهم الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ، والذي قدم إلى مكة فأسلم، ثم عرض على رسول الله ﷺ أن يعود إلى قومه فيدعوهم إلى دين الله سبحانه.

يقول الطفيل في قصة إسلامه: "فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام".²

فوافقه عليه الصلاة والسلام على ذلك وأيده وفعلا عاد ﷺ، ومكث يدعو دوسا إلى الإسلام حتى قدم على رسول الله ﷺ وهو بخير، يقول الطفيل: "فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخير، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس".³ ويقول أبو ذر ﷺ ضمن حكايته قصة إسلامه: "ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إنه قد وجهت لي أرض⁴ ذات نخل لا أراها إلا يرب، فهل أنت مبلغ عني قومك، عسى الله أن ينفعهم بك، وبأجرك فيهم، فأتيت أنيسا، فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني قد أسلمت وصدقت، قال: ما بي رغبة عن دينك، فإني قد أسلمت وصدقت، فأتينا أمنا، فقالت: ما بي رغبة عن دينكما، فإني قد أسلمت وصدقت، فاحتملنا⁵ حتى أتينا قومنا غفارا، فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم إمام بن رخصة الغفاري⁶، وكان سيدهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلمنا، قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم نصفهم الباقي، وجاءت أسلم، فقالوا يارسول

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 1/193، البداية 3/39-40، السيرة الحلبية 1/446-449

(2) من خير إسلام الطفيل ﷺ، وتقدم ص 53-54

(3) من خير إسلام الطفيل ﷺ، وتقدم ص 53-54

(4) "أي أريت جهتها". شرح النووي على صحيح مسلم 16/31

(5) "بمعنى حملنا أنفسنا ومتاعنا على إبلنا وسرنا". شرح النووي على صحيح مسلم 16/31

(6) إمام بن رخصة: إمام: بكسر الهمزة على المشهور ويسكون الياء وبالمد، ورخصة بفتح الراء والضاد. المغني ص 29،

الله، إخواننا نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: غفار غفر الله لها، وأسلم سلمها الله".¹ وحين آمن عدد من أهل المدينة، وبايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة، وكانوا اثني عشر رجلاً، بعث عليه الصلاة والسلام معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، فكان له دور في إقامة صرح الإسلام بالمدينة، وأسلم على يديه - بتوفيق من الله جل وعلا - عدد من سادة أهلها ممن آمن بالماخض الجمع من العامة والاتباع، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وغيرهم، رضي الله تعالى عنهم.² ولم يقتصر عليه الصلاة والسلام في تحركه الدعوي على مكة، بل حاول أن يهيء لدعوته مجالاً للامتداد والانتشار خارج مكة، عسى أن يجد للدعوة موطئ قدم ومقراً آناً تنطلق منه، خصوصاً بعد أن ساءت الأمور بمكة، وزادت العقبات، واشتدت الأزمات في وجه الدعوة، وعظم التضيق عليها.

ومن ثم خرج ﷺ إلى الطائف، يدعو أهلها إلى الله سبحانه، ويعرض على سادة ثقيف

إيوائه ونصرة ما جاء به من دين الله تعالى.³ عن خالد العدواني رضي الله عنه أنه أبصر رسول الله صلى الله

عليه وسلم في مشرق⁴ ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصا، حين أتاهم يتنفي عندهم النصر، قال: فسمعتهم يقرأ (والسماء والطارق) حتى ختمها، قال: فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك، ثم قرأتها في الإسلام، قال فدعيتني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل؟ فقرأتها عليهم، فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لتبعناه".⁵ واستمر عليه الصلاة والسلام في هذا الاتجاه يعرض دعوته على القبائل في المواسم كلما سنحت الفرصة. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول: ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي".⁶

(1) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه 31-30/166

(2) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 38/2، زاد المعاد 46/3-47، البداية 184/3-185، السيرة الحلبية 163/2-164، دلائل النبوة للبيهقي 431/2.

(3) ينظر ص...

(4) في مشرق ثقيف: "أي في الجانب الشرقي منها". بلوغ الأمان 243/20

(5) رواه أحمد: الفتح الرباني 242/20-243، قال الساعدي: سنده جيد، ورواه الطبراني كما في مجمع الزوائد 287/7، وينظر أسد الغابة، ط/ دار الشعب، مص 92-91/2

(6) سبق تخريجه ص 412

وكان من نتائج ذلك التحرك من رسول الله ﷺ - بعد إرادة الله تعالى وتوفيقه جل شأنه - لقاءه عليه الصلاة والسلام بستة من الخزرج عند عقبة منى، إذ عرض عليهم الإسلام، ودعاهم إلى الل جل وعلا، وتلا عليهم من القرآن، فأجابوه، وآمنوا به وصدقوا، ووعدوا بأن يعرضوا الإسلام على قومهم، ويدعوهم إلى دين الله تعالى.. ويشاء الله تقدسست أسماؤه أن تتكون من

هؤلاء النفر النواة الأولى للقاعدة الإسلامية بالمدينة.¹

إضافة إلى ما سبق فقد كان عليه الصلاة والسلام الذي يلاون أنواع الأذى موطناً آمناً، يعبدون الله تعالى فيه بحرية، ويربون أنفسهم في هدوء، ويفكرون في مصالح دعوتهم في أمن واستقرار. ولذا لما رأى عليه الصلاة والسلام الأوضاع السيئة التي يعيشها المؤمنون بمكة أذن لهم ﷺ بالمهجرة إلى الحبشة باعتبار ما يعرف به ملكها من العدل ومجانبة الظلم.²

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن ثمانون رجلاً ومعنا جعفر بن أبي طالب وعثمان بن مظعون..³ هذه الهجرة وفرت لتلك الفئة المؤمنة جواً آمناً، وهيات لهم متنفساً خففت عليهم ما كانوا يعانونه من شدة الأذى والفتنة في الدين، كما أنها في ذات الوقت أو جدت للإسلام قاعدة مطمئنة، وموطن انتشار واتساع، بحيث لا يبقى مصير الدعوة محصوراً ومرتبكاً بالأوضاع في مكة. ولذا بقي عدد من أولئك المؤمنين بالحبشة زمناً طويلاً بتوجيه من رسول الله ﷺ، حتى قدموا عليه بعد ذلك حين فتحت خيبر. يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: "بلغنا مخرج النبي ﷺ، ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أن أوأخوان لي، أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة، والآخر أبو زهم، إما قال: في بضع، وإما قال: في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، قال فركبنا سفينة، فألقينا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 33/2-34، زاد المعاد 100/1، 45/3، السيرة الحلبية 158/2-159، البداية

181/3-183، دلائل النبوة للبيهقي 430/2-431، فتح الباري 279/7

(2) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي 285/2، زاد المعاد 97/1-98، السيرة النبوية لابن هشام 252/1.

(3) رواه البيهقي في الدلائل 298/2، وأحمد بإسناد حسن كما قال ابن حجر في الفتح 240/7، والطبراني كما في

مجمع الزوائد 23/6-24

أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خير".¹

ولما أسلم الأنصار، وانتشر الإسلام في المدينة، وتكونت له قاعدة فعلية، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إليها بناء على توجيه الله تعالى، وقال لهم عليه الصلاة والسلام: "إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين".² والتزام المسلمون الأمر، فخرجوا مهاجرين، ثم لحقهم رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنهما، واستقر الأمر بالمدينة لأهل الإيمان من المهاجرين والأنصار، وتأسست لهم بها دولة، وكانت تلك الهجرة إيذاناً ببداية مرحلة جديدة للدعوة الإسلامية.

(1) رواه البخاري في الجامع الصحيح، أبواب الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين 1142/3، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه 64/16

(2) رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة 1418/3

الفرع الثاني: العمل على سلامة الدعوة وأمنها

لقد تكفل الله عز وجل بإعلاء دينه، ونصرة رسله عليهم السلام، قال تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَتَقَفْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ"¹
 "إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمِ يَوْمِ الْأَشْهَادِ"².

ولو شاء الله تبارك وتعالى أن يحقق تلك السنة الإلهية بمعزل عن الأسباب الظاهرة لفعل سبحانه:

"إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"³.

ولكن اقتضت مشيئته تبارك وتعالى لحكمة يعلمها أن يكون لجهد البشر دور في نصرة الدين، وتبليغ الدعوة وحمايتها، ضمن قدره جل وعلا. ولذا أمر سبحانه بالعمل بالأسباب، واتخاذ الاحتياطات، لنصرة الدين وإعلائه، وسلامة الدعوة وأمنها، بعد التوكل عليه تبارك وتعالى وتفويض الأمور إليه.

وفي قصص الرسل عليهم السلام في القرآن الكريم بعض الإشارات إلى ذلك.

فقد أمر الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام أن يصنع الفلك، تمهيد لنجاته ومن آمن معه فيها، بإذن من الله سبحانه وتقدير، حين ينزل عذاب الاستتصال بالكافرين:

"وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ"⁴

"فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنْوِيرُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ"⁵

(1) سورة الروم: 47

(2) سورة غافر 51

(3) سورة يس 82

(4) سورة هود 37

(5) سورة المؤمنون 27

ولا شك أن الله تعالى قادر على أن ينجيهم دون سبب حسي، ولكنه أراد سبحانه أن يكون لنوح عليه السلام دور، يتمثل في القيام بأسباب النجاة، فألهمه الله تعالى وعلمه بوحى منه كيفية صنعائها، كما قال ابن جرير في قوله تعالى: (ووحينا): "يقول: وتعليمنا إياك صنعها".¹

ونفذ عليه السلام أمر ربه فصنع الفلك والقوم ينظرون: "وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ".²

حتى إذا جاء أمر الله بالطوفان، وجهه عليه السلام من آمن معه إلى ركوب السفينة: "وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجِّرُهَا وَمُزْسَاها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ".³

لتكون فيها نجاتهم بمشيئة ربه ورحمته سبحانه.

ولما أذن الله عز وجل بهلاك المكذبين ونجاة نبي الله لوط عليه السلام ومن آمن به، جاءه الأمر الإلهي بالخروج كما قال تعالى: "إِنَّكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ".⁴

قال ابن جرير: "يقول فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل، يقال منه: أسرى وسرى، وذلك إذا سار بليل".⁵

وقال تعالى: "فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْيَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ".⁶

أي "سر خلفهم لتكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم".⁷

هذه التوجيهات الربانية لنبي الله لوط عليه السلام يتضح فيها نوع تدبير، وتحية لوسائل النجاة وأسباب السلامة، كما أن فيها إجماع بجو السرية والتخفي عن أعين القوم أثناء الخروج، وكل ذلك عمل بالأسباب واتخاذ للاحتياطات.

(1) تفسير الطبري 17/18

(2) سورة هود: 38

(3) سورة هود: 41

(4) سورة هود: 81

(5) تفسير الطبري 89/12

(6) سورة الحجر 65

(7) تفسير النسفي 188/2

وفي قصة موسى عليه السلام إشارة إلى أسلوب الاستخفاء والسرية والكنمان، اتجه إليه المؤمنون لما ضاق الأمر بهم، واشتدت المحنة.

يقول سبحانه: "وَأَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُنَا مِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ..."¹

قال ابن كثير: "اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة) فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمروا أن يتخذوها مساجد، وعن إبراهيم قال: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكذا قال مجاهد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبو زيد بن أسلم".²

واختار ابن جرير هذا القول من بين الأقوال الواردة في الآية فقال "يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها".³

ويتضح الكتمان والتخطيط أيضا في خروج موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين من مصر بوحى من الله تعالى وتوجيه:

"وَلَقَدْ أَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَشْرَٰ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَىٰ..."⁴

"وَأَوْخَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ أَشْرَٰ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ"⁵

"فَأَشْرَٰ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ"⁶

أي "يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم، فالجملة مستأنفة لتعليل الأمر بالشرى ليلا ليتأخر العلم به فلا يُدركون".⁷

(1) سورة يونس 87

(2) تفسير ابن كثير 428/2

(3) تفسير الطبري 153/11.

(4) سورة طه 77

(5) سورة الشعراء 52

(6) سورة الدخان: 23

(7) تفسير روح المعاني 122/25

قال صاحب الظلال: "لقد أوحى الله إلى موسى اذن أن يسرى بعباده، وأن يرحل بهم ليلا بعد تدبير وتنظيم، وبناءه أن فرعون سيتبعهم بجنده".¹

والشئى لا يكون إلا ليلا فالنص عليه يعيد تصوير المشهد، مشهد السرى بعباد الله وهم بنو إسرائيل ثم للإيجاء نحو الخفية لأن سراهم كانخفية عن عيون فرعون ومن وراء علمه".²

وفي خروج جموع المؤمنين ليلا فلا يعلم بهم فرعون إلا بعد حين إشارة إلى دقة في التخطيط والتدبير، وأخذ بالأسباب والاحتياطات، بعد فضل الله تعالى وتوفيقه.

ولما بعث خاتم الرسل نبينا ﷺ، وبدأ يبلغ دعوة ربه سبحانه، اهتم بأمن الدعوة وسلامتها، فكان عليه الصلاة والسلام يعمل بالأسباب في هذا الاتجاه، ويتخذ الاحتياطات المناسبة، حفاظا على الدعوة من محاولات أعدائها، وجهودهم في إيقافها والقضاء عليها، خصوصا في مرحلتها الأولى بمكة، مرحلة الضعف والقلة.

ومن ثم فقد اتجه عليه الصلاة والسلام بدعوته في بادئ الأمر إلى الكتمان والسرية، مستخفيا بها عن عامة قريش وكبرائها، إذ كان يختص بدعوته من يثق به من معارفه، خوفا من أن يطلع المشركون عليها، وعلى القلة المؤمنة بها، مما يمكنهم من الانقضاء عليها في مهدها، وتجميدها في حدودها الضيقة، قبل أن تتمكن من التوسع، وتهيأ لها الانتشار.

واستمر عليه الصلاة والسلام في هذا الاتجاه حتى نزل عليه قول الله تعالى: "فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ".³

فجهر بدعوته حينئذ ﷺ.⁴

(1) في ظلال القرآن 2597/5

(2) في ظلال القرآن 3213/5

(3) سورة الحجر 94

(4) يقول ابن إسحاق: "كان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين فيما بلغني من مبعثه". السيرة النبوية لابن هشام 197/1، وقاله ابن القيم في زاد المعاد 86/1، وينظر: البداية

50/3، السيرة الحلبية 456/1-457

وذكر ابن إسحاق أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا أرادوا الصلاة "ذهبوا في الشعب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم".¹

بل كان الكثير منهم يضطر إلى أن يكتم إيمانه، ويستخفي بإسلامه كما كانوا - في تلك المرحلة الأولى للدعوة - يتلاقون في بين الأرقم بن أبي الأرقم ؓ، يعبدون الله تعالى، ويتلقون عن رسول الله ﷺ تعاليم دينهم، في خفية عن أعين رجال الكفر من قريش.²

وهناك روايات تشير إلى تلك السرية والكتمان في فترة الدعوة الأولى.

من ذلك ما روى عن عائشة ؓ قالت: "لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبوبكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبوبكر في الناس خطيباً، ورسول ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر، وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه، وجاء بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد، وقالوا: والله لئن مات أبوبكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ، فمسوا منه بالسنتهم وعذلوه، ثم قاموا، وقالوا لأمه أم الخير: أنظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فسأليها عنه. فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم. فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوما نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أملك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين

(1) السيرة النبوية لابن هشام 1/198، وينظر البداية 3/50

(2) ينظر: سير أعلام النبلاء 2/479، السيرة النبوية لأبي شهبة، ط/1، 1409هـ، دار القلم 1/289

هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن الله على أن لا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمهلتا، حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتنا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتنا على رسول الله ﷺ...¹

وفي قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه تتضح أيضا بعض ملامح الكتمان خوفا من أعداء الإسلام من مشركي قريش.

يقول أبو ذر رضي الله عنه: "أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، قال: فمر بي علي، فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، قال فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء، قال فمر بي علي، فقال: أما نا للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا، قال: انطلق معي، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت على أخبرتكم، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه، فرجع ولم يشفني من الخير، فأردت أن ألقاه، فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه فاتبعني، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحدا أخافه عليك فمت إلى الخائط كأني أصلح نعلي وامض أنت، فمضى ومضيت معه، حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض علي الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني...²

هذا الصنيع من من علي رضي الله عنه يظهر فيه الحرص على التخفي، والتدبير لعملية الوصول إلى رسول الله ﷺ بنوع من الحذر مخافة أن يطلع المشركون على الأمر، فيعرضوا لأبي ذر رضي الله عنه، وقد يفسدوا عليه اتجاهه إلى دين الله تعالى.

وكان التوجيه بادئ الأمر من رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه أن يكتم ما صحل:

"يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل".³

(1) ذكره ابن كثير في البداية 40/3-41 من رواية عبد الله بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن عمران، عن القاسم بن

محمد، عن عائشة رضي الله عنها، وبمنظر الإصابة 201/8

(2) من خير إسلام أبي ذر رضي الله عنه، وسبق تحريجه ص 3.

(3) من خير إسلام أبي ذر رضي الله عنه، وسبق تحريجه ص 4.

وقريب من ذلك توجيهه عليه الصلاة والسلام لعمر بن عبسة السلمي رضي الله عنه لما قدم مكة وأسلم.

يقول عمرو بن عبسة رضي الله عنه: "سمعت برجل بمكة يخبر أخبارا فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا جراء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: أنا نبي، فقلت: وما نبي؟ قال: أرسلني الله فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يؤخذ الله لا يُشرك به شيء، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: حر عبد، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي ظهرت فأتني، قال: فذهبت إلى أهلي.."¹

قال النووي في شرح عبارة عمرو رضي الله عنه وجواب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"معناه قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا وإقامتي معك فقال لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين، وخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك، فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك واستمر على الإسلام في موضعك، حتى تعلمني ظهرت فأتني."²

ومن مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم البارزة، التي اتضحت فيها معالم التخطيط والإعداد والتدبير المحكم، تحركه عليه الصلاة والسلام يوم الهجرة، فقد اتخذ صلى الله عليه وسلم كافة الاحتياطات المستطاعة، وعمل بالأسباب المشروعة، بغية حماية الإسلام، والمحافظة على الدعو المتمثلة في شخصه الكريم صلى الله عليه وسلم.

تقول عائشة رضي الله عنها: "بينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنما في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هو أهلك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: فإني قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر الصحابة³ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهما سفرة

(1) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها 115/6

(2) شرح النووي على صحيح مسلم 115/6-116، وهو ما جاء في رواية الحاكم في المستدرک 714/3-715..

فأسلمت، ثم قلت: أتبعك يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن الحق بأرض قومك، فإذا ظهرت فأتني.

(3) الصحابة: أي أريد المصاحبة. ينظر فتح الباري 298/7

في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكنّا فيه ثلاث ليل، بيّت عندهما عبد الله بن أبي كر وهو غلام شاب ثَقِفَ لَقِن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهم بخير ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريهما عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر في فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدّيل، وهو من بني عبيد بن عديّ، هاديا خزيّتا، والخزيت الماهر بالهداية، قد غمس حلّفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليل، فأتاها براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل...¹

ومن خلال هذه الرواية يمكن ملاحظة الآتي:

بذل الرسول ﷺ جهده في بقاء خير الهجرة سرا، بعيدا عن آذان القوم وأعينهم، ولذا جاء إلى بيت أبي بكر ﷺ متقنعا، وفي غير الوقت الذي اعتاد أن يجيء فيه، ومبالغة في التخفي والكمّان طلب عليه الصلاة والسلام من أبي بكر ﷺ أن يُخرج من عنده، احتياطا من أن يوجد في بيته من لا يؤمن على ما ريد أن يتحدث به ﷺ من أمر الهجرة، فيصل إلى سمع المشركين.

أثر رسول الله ﷺ أن لا يبدأ التحرك الفعلي إلى المدينة إلا بعد أن يهدأ البحث والسؤال عنه من رجال قريش، فاتجه عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبي بكر ﷺ على جبل ثور، أسفل مكة، في الاتجاه المقابل لاتجاه المدينة، واختفيا هناك متواريين في غار بالجبل ثلاث ليل.

كان عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما مكلفا بأن يأتيهم بما يستطيع الاطلاع عليه من أخبار المشركين، وما يدبرونه من الكيد، يأتيهم بذلك إذا اشتد الظلام، في خفية عن الأعين، ثم يعود إلى مكة بسحر، حتى يظهر أمام قريش باثنا بمكة لم يغادرها.

(1) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة 1418/3-1419

ويتحرك عامر بن فهيرة رضي الله عنه بنفس الأسلوب، فيأتيهم بالغنم في الليل، لينالا حاجتهما منها، ثم يعود بها قبل أن يصبح الصباح فيرعى مع رعاة أهل مكة، دون أن يشعر بحركته أحد، كما في إحدى روايات البخاري "ثم يسرح فلا يفطن به أحد من الرعاء".¹

كما أن مجيئه ورواحه رضي الله عنه بالغنم يزيل آثار السير لعبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما. وبعد ثلاث ليال يتحرك رسول الله ﷺ، وصاحبه أبوبكر رضي الله عنه، وعامر بن فهيرة رضي الله عنه، ومعهم دليل الطريق متجهين إلى المدينة عن طريق الساحل، بعيدا عن الطريق المعتاد.

ذلك كله يدل على أن رسول الله ﷺ خطط للهجرة بدقة، وأحكم التدبير لخطواتها، واستعمل الحذر في حركته عليه الصلاة والسلام، في مواجهة المتربصين بالدعوة من كفار قريش، والذين اتضح حرصهم الشديد على قطع طريق الهجرة عليه ﷺ، لشعورهم بأنها تمثل بداية التحول في موازين المعركة. ومع ذلك وقبله وبعده فقد كان عليه الصلاة والسلام متوكلا على الله وحده سبحانه.

هذا التخطيط لأمن الدعوة - حتى تصل إلى هدفها في إعلاء كلمة الله سبحانه - ظل ملازما لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعد هجرته إلى المدينة، إلى أن لقى ربه عليه الصلاة والسلام، وكتب السيرة مليئة بما يشير إلى هذا الجانب، وما ذكر هنا ما هو إلا مثل على ذلك.

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورغل ودكوان وبئر معونة 1502/4

الفرع الثالث: الجهاد في سبيل الدعوة إلى الله تعالى

ولاشك أن الجهاد نوع من الدعوة إلى الله والمقصود بالجهاد هنا: قتال أعداء الله الذين كانوا حرباً على الإسلام والعقيدة وهو يمثل ركيزة من الركائز الأساسية التي اعتمدها رسول الله ﷺ بتوجيه من ربه في مقاومة أئمة الكفر وأعداء الإسلام وتبليغ دين الله جل وعلا، وذلك بإزالة العوائق، وتحطيم الحواجز، التي تصد الناس عن تلقي الدعوة الإلهية.

ولقد كان من مظاهر انتصار الرسل عليهم السلام، وأتباعهم المؤمنين في عهود الرسالات السابقة، نزول العقاب الإلهي، باستئصال المكذبين.

"قَدْ عَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ. وَخَلَقْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ. يُخْرِجُ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا".¹

"فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ".²

"فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَحَابٍ مَّنُضُودٍ".³

"وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَبَيْنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ".⁴

"فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ".⁵

ولما بعث رسول الله ﷺ كانت إرادة الله تعالى لهذه الأمة رحمة منه سبحانه بها أن لا ينزل بالكافرين عذاب الاستئصال والهلاك العام، كما اقتضت مشيئته تبارك وتعالى أن يكون لرسوله عليه الصلاة والسلام وأتباعه

(1) سورة القمر: 10-14

(2) سورة الأعراف: 64

(3) سورة هود: 82

(4) سورة هود: 94

(5) سورة الأعراف: 136-137

من المؤمنين دور ضمن قدر الله وإرادته جل شأنه في نشر دينه، ونصر دعوته، إعلاء كلمته، بقتال الكافرين الجاحدين، من أعداء الرسالة، والمناوئين للدعوة، الذي يتربصون بها وبأهلها الدوائر ويضعون في طريقها الحواجز والعراقيل، وخصوصا وأن هذه الدعوة دعوة رسولنا عليه الصلاة والسلام ليست مختصة بقوم، ولا مستقلة بزم بل هي دعوة شاملة للناس جميعا، عامة في جميع الأزمان.

ولاشك أن ذلك التكليف الإلهي يحمل في ثناياه الابتلاء والتمحيص والاختبار للمؤمنين.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ".¹

"أي تمو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته".²

ويشهد لذلك قوله سبحانه: "...وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ".³

قال ابن كثير: "أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده (ولكن ليلو بعضهم ببعض) أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليختبركم وليلو أخباركم".⁴

ويقول سبحانه: "فَاتَّبَعُوا مَا يَتَّبِعُهُمُ اللَّهُ بَأْيُكُمْ يُخْزِرُهُمْ وَيَتَّخِذُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ".⁵

فقد جعل الله عز وجل جهاد المؤمنين سببا - ضمن إرادته ومشيتته - لإنزال نعمته وعذابه بالمعاندین المضلين.

ولم يكن الجهاد بالمعنى المقصود هنا، وهو القتال، سمة لتحركة ﷺ منذ بعثته بمكة، فلم يعهد عنه عليه الصلاة والسلام أنه عمل في هذا الاتجاه أثناء العهد المكّي، ولم يأذن بذلك لأصحابه رضوان الله عليهم، ذلك أنه ﷺ ملتزم في سائر أفعاله وتصرفاته بوحى ربه سبحانه تعالى.⁶

(1) سورة الحج 39

(2) تفسير ابن كثير 225/3

(3) سورة محمد 4

(4) تفسير ابن كثير 174/4

(5) سورة التوبة 14

(6) ينظر أحكام القرآن لأبي بكر الحنبل، ط/ دار إحياء التراث العربي، 1405هـ، 319/1

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عبد الرحمن بن عوف وأحسابا له أتوا النبي ﷺ بمكة، قالوا: "يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا".¹

ولما بايع الأنصار رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية، وانتهى الاجتماع، وتحقق الهدف منه "قال رسول الله ﷺ ارفضوا إلى رجالكم. قال أي راوي الحديث كعب بن مالك رضي الله عنه فقال له العبار بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنمعلن على أهل منى غدا

بأسيا فانا؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رجالكم".²

إن تلك المرحلة المكية في دعوته ﷺ، والتي سبقت مرحلة الجهاد، كانت مرحلة البناء الإيماني، والإعداد العقدي التربوي.

فقد مكث عليه الصلاة والسلام بمكة منذ بعثته ثلاثة عشر عاما يسير في خطين متوازيين:

أولهما دعوة عموم الناس إلى دين الله تعالى، وتبليغهم وحيه ورسالته، وأمرهم بتوحيده وطاعته، وتحذيرهم من الشرك به ومعصيته، وكان ذلك هو طبيعة جهاده عليه الصلاة والسلام بمكة، حسب توجيهه به تبارك وتعالى له في مثل قوله سبحانه:

"فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا".³

:عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بالقرآن.⁴

(1) رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب وجوب الجهاد 3/6، ط/ 2، 1413هـ، دار سحنون، ورواه الحاكم في

المستدرک 336/2 وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحح الألباني

إسناده صحيح، سننه النسائي 646/2

(2) رواه ابن إسحاق بسنده عن كعب بن مالك رضي الله عنه السيرة النبوية لابن هشام 49/2-50، وصححه ابن حبان كما

ذكر ابن حجر في الفتح 279/7، ورواه أحمد: الفتح الرباني 273/20، والطبراني بنحوه كما في مجمع الزوائد

54/6 قال الميمني: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، ورواه البيهقي في الدلائل

من طريق ابن إسحاق أيضا 448/2-449، ورواه أحمد كذلك في فضائل الصحابة مختصرا 923/2، ط/ 1،

1403هـ، دار العلم، قال محققه وصي الله: إسناده صحيح.

(3) سورة الفرقان 52

(4) رواه ابن جرير: ينظر تفسير الطبري 23/19، وينظر أيضا تفسير ابن كثير 321/3

وقال ابن القيم في هذه الآية: "فهذه سورة مكبة أمر فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن".¹

وثانيهما: تربية أصحابه رضوان الله عليهم، وإعدادهم، وتكوينهم فهما للإسلام، وعلمًا بمعاني ما ينزل ومن وحي الله تعالى، وعملاً به في سلوكهم وواقع حياتهم، وصلة برحم جل شأنه وتوكلاً عليه، وثقة به وشعوراً بمعيتة عزوجل، وعملاً للإسلام ودعوة إليه، وثباتاً على الحق وبقينا به، وصبراً على ما يعتريهم ويلحقهم من الأذى فيه، ومن ثم تتأسس القاعدة الصلبة التي تحمل هذا الدين، وترتضيه عن إيمان واقتناع ويقين، فتضحي من أجله، وتسترخص ما تبدله من الجهد في سبيل إعلائه وتبليغه والقيام دونه.

وقد استمرت هذه التربية حتى بعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة فقد كان من أول ما بدأ به صلى الله عليه وسلم حين وصل المدينة بناء المسجد والمواخاة بين المؤمنين،² وكل ذلك يصب في وعاء الإعداد والبناء.

لقد كانت تلك المرحلة المكية في عمومها مرحلة ضعف وقلة، ولم يكن المؤمنين فيها قوة وشوكة، فكان الوحي الإلهي ينزل على رسول الله ﷺ يأمر بالصبر على الأذى، والإعراض والصفح والكف عن المشركين، وتحاول مضايقاتهم وتعتهم، وعدم الرد بالمثل، ودفع السيئة بالتي هي أحسن، والتمهل والانتظار حتى يأتي أمر الله تعالى.

كان ذلك هو قاعدة التعامل مع أنواع الأذى من حماة الكفر في تلك المرحلة.

يقول ابن القيم: "أقام يعني رسول الله ﷺ بضع عشرة سنة بعد نبوته، ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح".³

والآيات في هذا الباب كثيرة منها قول الله تعالى: "وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَا لَهُمْ نَصْرًا"....⁴

(1) زاد المعاد 5/3

(2) ينظر: زاد المعاد 62/3-63، فتح الباري 344/7-345، السيرة النبوية لأبي شعبة 17/2 وما بعدها، ص 49 وما بعدها.

(3) زاد المعاد 159/3

(4) سورة الأنعام 34

"اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ".¹

"فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ".²

"فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ".³

"ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِّحَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ".⁴

"فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ".⁵

"فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ".⁶

"فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ قَهْلٍ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ".⁷

"وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا. وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا".⁸

قال ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ: "فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ".⁹

"ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له، وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون"،¹⁰ وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قال، فإن هذه مكة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة".¹¹

(1) سورة الأنعام: 106

(2) سورة الحجر 85

(3) سورة الحجر 94

(4) سورة المؤمنون 96

(5) سورة السجدة 30

(6) سورة الزخرف 89

(7) سورة الأحقاف 35

(8) سورة المزمل 10-11

(9) سورة الحجر 85

(10) سورة الزخرف 89

(11) تفسير ابن كثير 556/2

وقال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: (ادفع بالتي هي أحسن السيئة...) ¹

"يقول تعالى ذكره لنبيه: ادفع يا محمد بالخلعة التي هي أحسن، وذلك الإغضاء والصفح عن جهلة المشركين، والصبر على أذاهم، وذلك أمره إياه قبل أمره بحربهم، وعني بالسيئة أذى المشركين إياه، وتكذيبهم له فيما أتاهم به من عند الله، يقول له تعالى ذكره: اصبر على ما تلقى منهم في ذات الله". ²

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصبحت للمؤمنين شوكة ومنعة وقوة، وتكونت لهم قاعدة مستقرة، واستشد العود وصلب البناء، نزل الوحي على رسول الله ﷺ، يأمر بقتال الكافرين الجاحدين، إعلاء لكلمة الله تعالى، ونصرا لدينه، وردعا للمعتدين، وحماية للمؤمنين المستضعفين، وقطعا للطريق على المتآمرين المتربصين بالإسلام وأهله.

قال ابن العربي: "إن الله سبحانه بعث نبيه ﷺ بالبيان والحجة، وأوعز إلى عباده على لسانه بالمعجزة والتذكرة، وفسح لهم في المهل، وأرخص لهم في الطل ³ ماشاء من المدة بما اقتضته المقادير التي أنفذها، واستمرت به الحمة، والكفار يقابلونه بالجحود والإنكار، ويعتمدونه وأصحابه بالعداوة والإذابة، والباري سبحانه يأمر نبيه عليه السلام وأصحابه باحتمال الأذى والصبر على المكروه، ويأمرهم بالإعراض تارة، وبالعضو والصفح أخرى، حتى يأتي الله بأمره، إلى أن أذن الله تعالى لهم في القتال". ⁴

وقال في موضع آخر: "قال علماؤنا رحمهم الله: كان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تحل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، مدة عشرة أعوام، لإقامة حجة الله تعالى عليهم، ووفاء بوعده الذي امتن به بفضله في قوله: "...وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا"⁵ فاستمر الطغيان، وما استدلوا بواضح البرهان.

(1) تفسير الطبري 51/18

(2) تفسير الطبري 51/18

(3) الطل: بكسر الطاء وفتح الباء وهو الحبل الطويل يشد أحد طرفيه في وتد أو غيره والآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى. ينظر لسان العرب 2728/4

(4) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي 143/1-144

(5) سورة الإسراء 15

وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنهم عن دينهم، ونفوهم عن بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومعذب، وبين هارب في البلاد مغرب، فمنهم من فر إلى أرض الحبشة، ومنهم من خرج إلى المدينة، ومنهم من صبر على الأذى، فلما عنت قريش على الله وردوا أمره وكرامته، وكذبوا نبيه، وعذبوا من آمن به، وعبدوه ووحده، وصدق نبيه، واعصم بدينه، أذن له لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم...¹

قال ابن القيم: "فلما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبدلوا نفوسهم دونه، وقدموا محبة على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشتموا لهم عن ساق العداوة والحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ"².

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ"³.

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً، ثم مآذونا به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين"⁴.

وهكذا تتابع نزول الآيات على رسول الله ﷺ في شأن الجهاد، تصرحاً بوجوبه وفرضيته، وإعلاء من قدره ومكانته، وتحذيراً من تركه والنكوص عنه.

ومن ذلك قول الله تقدست أسماؤه: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُم وَالَّذِينَ أَقْبَلُوا مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ

(1) أحكام القرآن لابن العربي 301/3

(2) سورة الحج 39

(3) سورة البقرة 190

(4) زاد المعاد 69/3-71، وينظر كذلك 158/3-160، مجموع فتاوى ابن تيمية 349/28-350، تفسير ابن

كثير 225/3، أضواء البيان 699/5-700

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".¹

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ".²

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ".³

"فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسُكَ وَخَرِصِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِيَ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا".⁴

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَفِيهَا الْمَصِيرُ".⁵

"فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْلَعُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".⁶

"وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُخَارِجُ الرُّسُولَ وَهُمْ بَدُّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتُمْ خَشِيتُوهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ".⁷

(1) سورة البقرة 190-194

(2) سورة البقرة 216

(3) سورة الأنفال 39-40

(4) سورة النساء 84

(5) سورة التحريم 9، سورة التوبة: 73

(6) سورة التوبة 5

(7) سورة التوبة 12-13

"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ".¹

"...أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".²

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".³

تلك بعض الأمثلة لآيات الجهاد التي تنزل بها الوحي الإلهي، ونحوت في حياة رسول الله ﷺ إلى واقع ملموس يعيشه المؤمنون.

إذ تحرك عليه الصلاة والسلام ورفع راية الجهاد في سبيل الله، وكانت له جولاته مع أعداء الله تعالى.

وإذا كان من غير المتيسر الإحاطة بها هنا، إلا أنه يمكن الإشارة إلى بعض ذلك بشكل موجز فيما يلي:

أولاً: قتال المشركين بعد الدعوة إلى التوحيد

كان من الطبيعي أن تكون الجولة الأولى مع مشركي قريش، ذلك أنهم كانوا أول من واجه الدعوة واعتدى على المؤمنين، وكانت لهم أهدافهم المعلنة في القضاء على الإسلام.

وبداية من العام الأول للهجرة حصلت مناقشات بين سرايا رسول الله ﷺ وبعثة وبين بعض رجال قريش، إلا أن غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة كانت هي المعركة الفاصلة، والموقعة الحاسمة بين الإيمان والشرك، إذ أعز الله فيها الإسلام، ونصر المؤمنين، وأهان الشرك والمشركين، وانكسر فيها كبرياؤهم وغرورهم، وقتل منهم سبعون على رأسهم بعض صناديد قريش وسادتها، كآبي جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأسر سبعون آخرون، كان منهم النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، اللذان قتلهما رسول الله ﷺ بعد ذلك في طريقة إلى المدينة، إذ كانا من زعماء قريش في التصدي لرسول الله ﷺ، والاستهزاء به، وإيذائه عليه الصلاة والسلام، وفتنة أصحابه رضوان الله عليهم.⁴

(1) سورة التوبة 29

(2) سورة التوبة 36

(3) سورة التوبة 123

(4) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 216/2 وما بعدها، زاد المعاد ص 171 وما بعدها البداية ص 313 وما بعدها.

واستمرت المواجهة الجهادية بعد ذلك بين المعسكر الإسلامي والمعسكر الشرقي فكانت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة¹، وغزوة الخندق في السنة الخامسة والتي تحزب فيها أحزاب الكفر من المشركين واليهود وثمرت محاصرة المدينة، ولكن الله تعالى هزمهم ففرقوا خائفين خائبين دون أن يتمكنوا من تحقيق شيء من أطماعهم ومآرهم.²

وتحول موازين المعركة بعد ذلك لصالح المؤمنين بقدر من الله سبحانه³، ليصبح زمام المبادرة بأيديهم، والمبادأة في مكنتهم حتى فتح الله جل شأنه لنبيه عليه الصلاة والسلام مكة بعد نقض مشركي قريش ما كان بينهم وبينه من الاتفاق والعهد والميثاق يوم الحديبية، فتحرك عليه الصلاة والسلام بالجيش الإسلامي في السنة الثامنة للهجرة في عشرة آلاف من أصحابه من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم حتى دخل مكة عليه الصلاة والسلام، واستتب الأمر له فيها، وتحولت دار إسلام⁴، وأصبحت الدولة للمؤمنين.⁵

ثانيا: قتال اليهود:

وإدع رسول الله ﷺ يهود حين هاجر إلى المدينة، وكانت له عليه الصلاة والسلام معهم عهود ومواثيق.⁶ ولكن بني يهود وقد تأصل ف طبعته الغدر ونكث العهد لم يتمكنوا من إخفاء ماتكنه صدورهم من الحق على الإسلام، والكراهية لرسول الله ﷺ، فنقضوا ما أرموه من المواثيق، وحاولوا الغدر برسول الله ﷺ، وتحالفوا مع أعداء الإسلام من أهل الشرك ضد دولة الإسلام بالمدينة، كما كانت لهم أساليبهم في إيذاء المسلمين والتأثير على معنوياتهم.

- (1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/3 وما بعدها، زاد المعاد 192/3 وما بعدها، البداية 11/4 وما بعدها.
- (2) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 147/3 وما بعدها، زاد المعاد 269/3 وما بعدها.
- (3) روى البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق 1509/4 عن سليمان بن صرد ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه "الآن نفرزهم ولا يفروننا، نحن نسير إليهم".
- (4) عن عبد الله ؓ قال: "دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعن بها يعود في يده ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل)، جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد)، رواه البخاري في كتاب المغازي، باب أين ركن النبي ﷺ الراية يوم الفتح 1561/4، ومسلم في كتاب الجهاد، باب فتح مكة 133/12.
- (5) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 3/4 وما بعدها، زاد المعاد 394/3 وما بعدها، البداية 317/4 وما بعدها.
- (6) ينظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري، ط/ 4، 1413هـ، مكتبة العلوم والحكم 272/1.

كل ذلك وغيره دفع رسول الله ﷺ لمقاتلتهم ومنازلتهم في مواجهات عسكرية متعددة، كانت أولها بعد غزوة بدر مع يهود بني قينقاع، إذ حاصروهم ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، وكانوا حلفاء عبد الله بن أبي، فكلّم رسول الله ﷺ فيهم، وألح عليه، فوهمهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام.¹

وبعدا أمر رسول الله ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وكان شاعرا من أشرف يهود وطواغيتهم، وذلك أنه خرج بعد غزوة بدر إلى مكة يخفف على قريش مصيبتهم، وينشد الأشعار، ويحرض على رسول الله ﷺ ويؤلب عليه، ولما رجع إلى المدينة أخذ أيضا يشبب بنساء المسلمين ويهجو رسول الله ﷺ ناقضا بذلك العهد فأرسل عليه الصلاة والسلام إليه من يقتله.²

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: "أن النبي ﷺ قال: من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، قال محمد بن مسلمة: أحب أن أقتله بأمر رسول الله؟ قال: نعم. قال فأتاه فقال: إن هذا - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - قد عثانا وسألنا الصدقة، قال: وأيضا، والله لتملئنه، قال: فإننا قد اتبعناه فنكره أن ندعه حتى ننظر إلى ما يصير أمره، قال: فلم يزل يكلمه حتى استمكن منه فقتله".³

وكان لذلك أثره في بث الرعب في نفوس بني يهود.

تلا ذلك قتال رسول الله ﷺ لليهود بني النضير لما أرادوا الغدر برسول الله ﷺ، فسار إليهم عليه الصلاة والسلام، وحاصروهم ست ليال، وقذف الله الرعب في قلوبهم، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فوافق ﷺ، وأجلاهم من المدينة، فخرجوا إلى خير، ومنهم من اتجه إلى الشام.⁴

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 368/2-370، زاد المعاد 126/3-127، 190

(2) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 372/2-378، زاد المعاد 191/3-192، البداية 6/4-9، فتح الباري 428/7

(3) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الكذب في الحرب 1102/3-1103، ومسلم في كتاب الجهاد، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود 161/12-1663

(4) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 121/3-122، زاد المعاد 127/3-129، البداية ص 85-87

أما الطائفة الثالث من طوائف اليهود حول المدينة، وهم بنو قريضة، فقد كانوا أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظم كفراً، غدروا بالعهد وخانوا الموائيق، وتحالفوا مع المشركين في غزوة الخندق ضد رسول الله ﷺ، فاتجه إليهم عليه الصلاة والسلام بعد هزيمة الأحزاب، وحاصره خمساً وعشرين ليلة، حتى أجهدهم الحصار، فاستسلموا لرسول الله ﷺ، على أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكانوا حلفائه في الجاهلية، فحكم سعد رضي الله عنه فيهم بأن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسي الذراري والنساء.

وثقّد حكم الله تعالى¹ في يهود بني قريظة وعلى رأسهم كعب بن أسد زعيمهم، وكذلك حي بن أخطب من زعماء يهود بني النضير وكان قد دخل حصن بني قريظة بعد رجوع قريش وغطفان إثر هزيمة الأحزاب، فحفر الخنادق، وضربت الأعاق، وكانوا بين الستمائة والسبعمئة.²

ثالثاً: قتال النصارى.

وكانت البداية في غزوة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة، إذ بعث رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف أميرهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، التقوا بجموع هرقل من الروم والعرب في مائتي ألف، وحصلت المواجهة في مؤتة من أرض الشام، وقتل فيها قادة الجيش الثلاثة: زيد بن حارثة رضي الله عنه، ثم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ثم استلم القيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه فانحاز بالجيش، وانحاز الروم كذلك.³

وفي السنة التاسعة أمر عليه الصلاة والسلام أصحابه بالتهيو لغزو الروم، وسار ﷺ حتى وصل إلى تبوك، وأقام بها بضع عشرة ليلة، وهناك صالح بعض سادة تلك النواحي من النصارى على الجزية كصاحب أيلة وصاحب كندة، ثم عاد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة دون أن تحصل مواجهة مباشرة بينه وبين الروم.⁴

(1) في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: "فضيت بحكم الله"، رواه البخاري في كتاب المغازي باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب 1511/4، ومسلم في كتاب الجهاد باب جواز قتال من نقض العهد 93/12

(2) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 169/3 وما بعدها، زاد المعاد 129/3 وما بعدها، البداية 133/4 وما بعدها.

(3) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 333/3 وما بعدها، زاد المعاد 381/3-385، البداية 275/4 وما بعدها

(4) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 139/4 وما بعدها، زاد المعاد 526/3 وما بعدها، البداية 5/5 وما بعدها

وآخر ذلك في حياته ﷺ كان بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما إلى أرض فلسطين، إلا أنه عليه الصلاة والسلام توفي قبل ذلك، وأنفذ البعث بعده خليفته أبوبكر رضي الله عنه.¹

ولم يكن ذلك الجهاد تنفيذاً لأمر الله، وإعلاء لكلمته سبحانه، ونشرا لدينه، وتبليغا لدعوته، وإزالة للحواجز عن طريقها، وحفظا لمن آمن بها من الفتنة والأذى، وردا لعدوان الظالمين، وتأمر المستكبرين، وذودا عن حياض الدعوة وحمى الدين.

وذلك هو توجيه الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ولمن ابتعته من المؤمنين:

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ".²

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ بَصِيرٌ".³

قال ابن كثير: "أمر الله تعالى بقتال الكفار (حتى لا تكون فتنة) أي شرك، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم (ويكون الدين لله) أي يكون دين الله هو الظاهر العالمي على سائر الأديان".⁴

وعن عروة بن الزبير قال: "(حتى لا تكون فتنة): حتى لا يُفْتَنَ مسلم عن دينه".⁵

ويقول ابن جرير: "قاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض وهو الفتنة (ويكون الدين كله لله) يقول: حتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره".⁶

وفي تفسير المنار: "حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها، ويؤذونكم لأجل الدين، ويمنعونكم من إظهاره أو الدعوة إليه".¹

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام 293/4، البداية 241/5-242، 335/6

(2) سورة البقرة 193

(3) سورة الأنفال 39

(4) تفسير ابن كثير 227/1، وينظر تفسير الطبري 194/2-195

(5) تفسير ابن كثير 309/2، وينظر: تفسير القرطبي 236/2، تفسير البغوي 248/2

(6) تفسير الطبري 248/9

ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله".²
وقال ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"³

-
- (1) تفسير المنار 211/2
(2) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام 1077/3-1078، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله 206/1
(3) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا 1035/3، ومسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله 49/13



الفصل الرابع:
موقف الرسل عليهم السلام من المؤمنين
بالدعوة فيما يثبته المأ ضدّهم

التمهيد

لا شك أن الرسل عليهم السلام بذلوا جهودهم في تربية أتباعهم من المؤمنين على مواجهة كيد الطغاة ومكر المستكبرين بالاستعانة بالله تعالى، والتوكل عليه، والصبر والثبات على دين الله سبحانه، والعمل على نصرته دعوته جل وعلا، وتحمل ما يلحقهم في سبيل ذلك من العنت والأذى.

ومن أول وسائل الرسل عليهم السلام في ذلك التربية بالأسوة.

فلقد كانوا عليهم السلام في حياتهم وحركتهم ودعوتهم قدوات تضيء الطريق للمؤمنين في دعواتهم من المؤمنين، يقتبسون من ثباتهم ويقينهم، ويتأسسون بصبرهم وتضحياتهم، ووقوفهم في مواجهة شبهات المضلين ومجاهدات المجرمين.

ولا شك أن لهذه التربية بالفدوة أثرها العظيم في توجيه أولئك المؤمنين بالدعوات، وتقوية عودهم، وزرع الأمل في نفوسهم، وساتارة الحماس الإيجابي فيهم، وبناء قاعدة صلبة منهم تحمل دين الله في نفسها، وتبذل الجهود في دعوة الآخرين إليه.

وما جاء في قصص القرآن الكريم عن أحوال الرسل عليهم السلام، وثباتهم على ما كلفوا به من الدعوة إلى دين الله تعالى، مما سبق إيراد بعض النماذج له، كل ذلك يعتبر أمثلة من سيرتهم عليهم السلام لهذا النوع من التربية.

أما تربية المؤمنين على الصبر والثبات بالقول والكلمة فقد تضمنت قصة موسى عليه السلام بعض النماذج في هذا المجال، ومن ذلك ما جاء في قول الله تعالى:

"وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ".¹

فهذه دعوة من نبي الله موسى عليه السلام للمؤمنين بدعوته أن يقابلوا بطش فرعون وكيدته بالتوكل على ربه سبحانه، والاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه تبارك وتعالى.

وقوله (فعليه توكّلوا) يفيد الحصر، أي لا تتوكلوا على أحد سوى الله سبحانه، جاعلين اعتمادكم عليه وحده، فإنه كافيكم وناصركم وحافظكم من مكر عدوكم، إذ الكل تحت ملكه وسلطانه جل وعلا.

إن موسى عليه السلام يريد أن يصل قلوب المؤمنين بمالك الملك وصاحب القدرة المطلقة سبحانه، ومن ثم يحصل لهم الثبات والسكينة، وتقوى نفوسهم، ويشعرون بالعزة والقوة، ماداموا متوكلين على من له الخلق والأمر عزوجل.

واستجاب المؤمنون لوصية نبيهم عليه السلام، فلجأوا إلى ربحهم بخصونه بالدعاء، ويطلبون منه العافية والنجاة:

"قَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ".¹

ولما اتسع بطش فرعون، وهدد بزيادة التكيل للمؤمنين كما قال سبحانه:

"وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرِكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْتُلُنَّ أَبْنَاءَهُمْ وَتَسْتَخْبِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ".²

أوصى موسى عليه السلام حينها من آمن بدعوته أن يلجأوا إلى ربحهم سبحانه، مستعينين به عزوجل، صابرين على ما يصيبهم من البلايا والمحن: "قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا".³

ثم بشرهم عليه السلام بأن سنة الله تعالى جارية بتحقيق التأيد والتمكين، والعاقبة الحسنة، والنهاية الطيبة، للمؤمنين الصادقين مهما طال المكر وعظم البلاء: "...إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ".⁴

وبيث عليه السلام الأمل في نفوسهم مرة أخرى حين شكوا إليه ما يلقونه من الأذى قبل أن يأتيهم بدعوته عليه السلام وبعد مجيئه إليهم:

"قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا".⁵

فاكد لهم الوعد الإلهي بالنصر وخلافة الأرض بعد هلاك أعدائهم من الكافرين، ووعد الله آت لا محالة:

(1) سورة يونس 85-86

(2) سورة الأعراف 127

(3) سورة الأعراف: 128

(4) سورة الأعراف 128

(5) سورة الأعراف 129

"قَالَ عَسَىٰ رُبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ".¹

وفي ثانيا هذه الكلمات دعوة للمؤمنين إلى تحمل أعباء الإيمان والدعوة والصبر على الحق، والثبات على الهدى، حتى ينزل نصر الله تعالى.

كما أن فيها تربية لهم على الالتزام بشرع الله تعالى، وشكر نعمته وتحقيق العبودية له على كل حال، قبل النصر أو بعده:

"قَالَ عَسَىٰ رُبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَذُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ".

وصورة أخرى للتربية الإيمانية المعنية على الصبر والثبات في وجه الطغيان نلاحظها في قول الله تعالى:

"وَأَوْخِيتَنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخْبِهِ أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكُمْ مَا يَمْصُرُ بِيُونَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَيِّرِ الْمُؤْمِنِينَ".²

فالآية الكريمة تبين أن الله تعالى أوحى لنبيه موسى عليه السلام آرما له بتربية المؤمنين على إقامة الصلاة، والتعاون على تلك الصلة بالله سبحانه وهيئة الجو المناسب لها، تحقيقا لمعاني العبودية لله رب العالمين، واستعانة بالصلاة على مواجهة أعداء الله جل وعلا، والتهوين مما يلاقونه من التضيق والبلاء من فرعون وملئه، واستنزالا للسكينة والمطأنية لقلوبهم.

يقول ابن جرير في قوله سبحانه: "واجعلوا بيوتكم قبلة": "يقول: واجعلوا بيوتكم مساجد تصلون فيها".³

قال ابن كثير: "وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة".⁴

كما يأمر الله سبحانه نبيه عليه السلام بأن ييشر من معه من المؤمنين بنصر الله وتأييده في الدنيا، وبثوابه ونعيمه في الآخرة: (وبشر المؤمنين).

(1) سورة الأعراف 129

(2) سورة يونس 87

(3) تفسر الطبري 153/11

(4) تفسر ابن كثير: 428/2، وينظر تفسر القرطبي 238/8، تفسر فتح القدير 467/2

قال ابن كثير: "أي بالثواب والنصر القريب".¹

وكذلك كان رسولنا ﷺ يرى أصحابه رضوان الله عليهم، وهم يتعرضون لأنواع الأذى من الملاء في قريش، على الصبر والثبات حتى يأتي أمر الله تعالى، فعن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال "شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، قال: كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بالثنتين، وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون".²

ولكن رسول الله ﷺ يستغل الموقف لتربية أصحابه رضي الله عنهم، فيذكرهم بأمرين:

الأول: الاقتداء بمن سلف من الأمم ممن صبر وثبت على دين الله سبحانه، رغم اشتداد المحنة وضخامة الأذى.

الثاني: سنة الله تبارك وتعالى في نصر أهل الإيمان بعد التمحيص والابتلاء، يريد بذلك ﷺ أن يحمي في قلوبهم الأمل بقيام الحق وانتصاره، وهزيمة الباطل وخذلانه، وأن يشعروهم بأهمية الصبر على البلاء، وأن يحذروهم من اليأس واستعجال العواقب والنتائج.

لقد أثر في ذلك المقام أن يعودهم على معاني الصبر والثبات، والتضحية والفداء، وأن يهون عليهم ما يلقونه من الأذى وأن يقوى نفوسهم ويرتفع بها عن الضعف والخذلان في مواجهة ما يتعرضون له من الابتلاء في سبيل دينهم ودعوتهم.

كما كان عليه الصلاة والسلام يذكرهم - وهم يتعرضون لأنواع الأذى - بثواب الآخرة، ويشيرهم بما ينظرهم من نعيم الجنة الذي أعده الله جل وعلا للمؤمنين الصابرين.

(1) تفسير ابن كثير 428/2-429

(2) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام 1322/3

وعن سالم بن أبي الجعد أن عثمان بن عفان ؓ قال لطلحة والزبير رضي الله عنهما "ألا أحدثكما عنه - يعني: عماراً؟ - أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي تمشي بالبحاء، حتى أتى على أبيه وأمه وعليه يعذبون فقال أبو عمار: يا رسول الله، الدهر هكذا؟ فقال له النبي ﷺ: اصبر".¹

وفي رواية "صبرا آل ياسر فإن مصيركم إلى الجنة".²

وإذ كان رسول الله ﷺ دائم التذكير للمؤمنين بالجزاء الآخروي، فقد كان من منهجه عليه الصلاة والسلام أن يشرهم أيضاً بالنصر والتمكين في الدنيا، وأن يبعث الأمل في نفوسهم بأن المستقبل لهذا الدين، وأن العاقبة لأهل المتقين.

وعن ثوبان ؓ قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارفها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ ملكها مازوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض".³

وعن جابر بن سمرة ؓ قال: "قال رسول الله ﷺ: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزها في سبيل الله".⁴

وعن عدي بن حاتم ؓ قال: "بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة، قلت: لم أرها، وقد أثبتت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي: فأبي دُعَاار

- (1) رواه أحمد، الفتح الرباني 220/20، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد 480/9، قال الساعدي: لكنه منقطع، بلوغ الأمان 220/20، وكذلك قال شاكراً: إسناده ضعيف لانقطاعه. المسند 349/1
- (2) رواه أبو نعيم في الحلية 140/1، وعند الطبراني من رواية عمار ؓ "اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة" قال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد 480/9، وفي رواية ابن إسحاق بلاغا "صبرا آل ياسر موعدكم الجنة، السيرة النبوية لابن هشام 250/1، قال الألباني: حديث حسن صحيح، وبعد أن ذكره له عدة طرق قال: فهذه طرق تشهد لصحة الحديث. ينظر فقه السيرة للقرطبي ص 103 (الحاشية)، وينظر الإصابة 936/6
- (3) رواه مسلم في كتاب الفتن 13/18
- (4) رواه البخاري في أبواب الخمس، باب قول النبي ﷺ "أحلت لكم الفنائم" 1135/3، ومسلم في كتاب الفتن 42/18

طيء الذي قد سقروا لابلاد . ولئن طالبت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز...¹

ويوم الأحزاب حين اجتمعت جيوش الكفر وأحاطت بالمدينة، وبدأ الصحابة حفر الخندق في جهد ومشقة وعنت، ويرد وجوع ونصب، في تلك اللحظات تأتيهم بشارة الرسول ﷺ بأن النصر آت بقدر من الله سبحانه.

عن البراء بن عازب ؓ قال: "أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ وأحسبه قال: وضع ثوبه - ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة أخرى فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا".²

وآيات القرآن الكريم فيما نحن بصدده كثيرة جدا تنزل على رسول الله ﷺ فيرى بها أصحابه رضوان الله عليهم.

وذلك مثل قوله سبحانه في الأمر بالتوكل عليه وحده، وبيان أجر المتوكلين على ربه تعالى:

"..وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَحْمِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".³

"..وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ".⁴

- (1) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام 1316/3
- (2) رواه أحمد، الفتح الرباني 78/21، وحسن ابن حجر إسناده، الفتح 505/7، ورواه النسائي بنحوه 43/6-44، وحسنه الألباني، صحيح سنن النسائي 669/2، وروى الطبراني نحوه أيضا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وابن عباس رضي الله عنهما. ينظر مجمع الزوائد 189/6-191
- (3) سورة الشورى: 36
- (4) في مواضع كثيرة منها سورة التغابن 13

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنَجْزِيَنَّهُمْ مِن الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِغَمٍّ أَجْرُ الْعَامِلِينَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".¹

ومثل قوله تعالى في توجيه المؤمنين إلى الصبر:

"وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَجْزِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ جَزَا لَآخِرَةً أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ".²

"..إِنَّمَا يُؤَيِّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ".³

"..وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ".⁴

ومثل قوله تعالى في التذكير بسنة الله جل وعلا في ابتلاء المؤمنين

"إِنَّمَا أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ي".⁵

"أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ".⁶

"لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ".⁷

ومثل قوله تعالى في التذكير بسنته جل وعلا في نصر المؤمنين والتمكين لهم:

(1) سورة العنكبوت 58-59

(2) سورة النحل 41-42

(3) سورة الزمر 10

(4) سورة آل عمران 120

(5) سورة العنكبوت 1-3

(6) سورة البقرة 214

(7) سورة آل عمران 186

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاذْنَبْنَا عَلَيْهِمُ الْكُفْرَ الَّذِي كَفَرُوا بِالنَّبِيِّينَ".¹

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُخْلِفَ اللَّهُ بِكُمُ الْإِيمَانَ".²

"وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ".³

وكالآيات الواردة في قصص الأنبياء، فإنها تؤكد كذلك للمؤمنين هذه السنة الإلهية.

ومثل قوله سبحانه في مجال ربط النفوس المؤمنة بالآخرة، والتعلق بما فيها من النعيم والرضوان:

"هَذَا ذِكْرٌ وَإِنْ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَآبٍ. جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَعَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ. مُمْسِكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ. وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثَرًا. هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ. إِنَّ هَذَا لَرْزُقُنَا مِنْهُ لَئِنْ شَاءَ اللَّهُ".⁴

والآيات في هذا الجانب لا تكاد تخلو منها سورة، خصوصا في القرآن المكي، حين كانت الآيات تربط المؤمنين بالجزاء في الآخرة أكثر مما تربطهم بالنصر في الدنيا، حتى تتجرد النفوس لدعوة الله تعالى والالتزام بدينه ومنهجه.

ولما حانت مرحلة الجهاد نزلت الآيات ترغّب في قتال الطغاة المستكبرين، حماية للدعوة، واستنقاذا للمستضعفين، وذلك مثل قول الله تبارك وتعالى:

"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَرِّصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ".⁵

"وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ".¹

(1) سورة الروم 47

(2) سورة محمد 7

(3) سورة النور 55

(4) سورة ص 49-54

(5) سورة الأنفال 65

"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيُكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ".²

"قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ".³

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".⁴

"إِذَا لَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْقِوَامِ أَحَدٌ فَإِذَا أُتْبِعْتُمْوهُمْ فَنُكِّلُوا الْوَتَاقَ قِيمًا مَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ....".⁵

"وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ وَآلَهُ لَآ يُضِيعَ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ".⁶

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى بَحَارَةٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ....".⁷

"إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ".⁸

(1) سورة البقرة 190

(2) سورة الأنفال 39

(3) سورة التوبة 29

(4) سورة التوبة 123

(5) سورة نوح 4-6

(6) سورة آل عمران 169-171

(7) سورة الصف 10-13

(8) سورة التوبة 111

ويؤكد سيدنا رسول الله ﷺ لأصحابه رضوان الله عليهم هذه الفضيلة للجهاد في سبيل الله جل وعلا في مثل قوله عليه الصلاة والسلام:

"الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها".¹

"غدوة في سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس وغربت".²

"من قاتل في سبيل الله فؤاق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقا ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد".³

"تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرج من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع مانال من أجر أو غنيمة".⁴

"مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم".⁵

"لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثقب، اللون لون دم، والريح ريح مسك".⁶

- (1) رواه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الجهاد، باب الغدوة والروحة في سبيل الله 1028/3-1029، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله 26/13
- (2) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الغدوة والروحة في سبيل الله 1029/3، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله تعالى 27/13
- (3) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب فيمن سأل الله تعالى الشهادة 46/3، والنسائي في كتاب الجهاد، باب ثواب من قاتل في سبيل الله فؤاق ناقة 25/6-26، وروى الترمذي بعضه في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء فيمن يكلم في سبيل الله 185/4، وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى 933/2-934، والدارمي في كتاب الجهاد 519/2، وأحمد: الفتح الرباني 12/14، وصححه الألباني: صحيح سنن أبي داود 483/2، صحيح سنن النسائي 659/2.
- (4) رواه البخاري في أبواب الخمس، باب قول النبي ﷺ "أحلت لكم الغنائم" 1136/3، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد 20/13-21
- (5) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله 1027/3، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى 25/13
- (6) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب من يخرج في سبيل الله عزوجل 1032/3، ومسلم، واللفظ له، في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد 21/13

"ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ماعلى الأرض من شيء غير الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة".¹

"إن أبواب الجنة تحت ظل السيوف".²

بهذه النصوص من القرآن والسنة - وغيرها كثير لا يكاد يحصى وبالقدوة العملية في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم تربي الصحابة رضوان الله عليهم، وعاشوا في ضوء ذلك حياة الصبر والاستقامة، والتضحية والثبات، في مواجهة ما يثيره صناديد الكفر وحماة الباطل وتابعي الملأ وحواسبيهم.

الحمد لله حمدا كثيرا، وصلى الله على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

-
- (1) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب تمى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا 1037/3، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد 24/13
- (2) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب الجنة تحت بارقة السيوف 1037/3، ومسلم واللفظ له، في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد 46/13

خاتمة البحث

أ - أهم النتائج:

من أهم النتائج التي وصلت إليها خلال هذا البحث:

- 1- إن القرآن الكريم يؤكد أن الإسلام الحنيف دين الوسطية والاعتدال، وهو بعيد كل البعد عن الشرك والكفر والاستكبار والغلو والارهاب والتطرف، ويحذر البشرية من التشديد على النفس لما يفضي إلى الضلال والتفرق وعن كل مايؤدى الانحراف والفشل والخروج عن طريق الدعوة إلى الله ومنهج الأنبياء في مسير الحياة.
- 2- أكد القرآن العظيم على أهمية ووجوب احترام حقوق الإنسان المعنوية والمادية، وعدم جواز الاعتداء والظلم والاستبداد، أو سلب حقوق الآخرين حبا للدعاء والمنصب.
- 3- أرى أن مشكلة الملأ من جوانب مختلفة، داخلية كانت او خارجية، من أهم الأمور التي تحتاج إلى المعالجة، فأما المشكلة الداخلية للملأ أشد خطرا من المشكلة الخارجية.
- 4- إن استبداد الملأ وظلمهم وآثارهم على الفرد والمجتمع عامة، وعلى الدعوة إلى الله تعالى بصورة خاصة، كثيرة، إلى أن وصلت النتيجة إلى القتل والدمار وسفك الدماء كما كانت في زمن الرسل عليهم السلام.
- 5- إن خروج الملأ وحواشيهم عن الوسطية والاعتدال، يوقع في التفريط و الإفراط، وكلاهما مرفوض ومبغوض عند الله سبحانه وتعالى، ومبغوض لدى فطرة الإنسانية وجبلتها.
- 6- إن للملأ أنواع فلكل نوع أسباب وهذه الأنواع متعددة ومتنوعة تعود إلى جوانب علمية، وفكرية، وسياسة، واجتماعية، واقتصادية، وتربوية.
- 7- اختلاف أسباب وأساليب ووسائل ومظاهره من عصر لآخر، ومن بيئة لأخرى فقد يكون مؤثرا في بيئة أو بلد أو فرد وغير مؤثر في آخرين، وموجودا هنا وغير موجودهنا، ففي العصر الماضي وفي العصر النبوي نجد نفس القضية أسبابا وأساليب وآثار ونتيجة، كما نجد في العصر الحاضر..
- 8- كما أن أسباب واستكبار واستبداد وكفر الملأ متعددة، كذلك العلاج متعددة ومتنوعة، فمنه العلاج العلمى، والتربوى، والاجتماعى، والسياسى، وقد يكون العلاج ناجحا إذا كان مبنيا على الضوابط والأساس العلمية والفكرية.

- 9- الحوار الجاد والنصيحة الصادقة، والفهم السليم لمقاصد الشريعة، أساس في علاج الأمراض للملأ، وأعظمه معالجة مظاهر الملأ بالحكمة والموعظة الحسنة، والتعامل مع المستكبرين من الملأ على معرفة دوافعهم ودراسة نفسياتهم، فأقتهم في رؤوسهم وأفكارهم ، فيقابل الفكر بالفكر بتصحيح أفكارهم الضالة، ولا يقاوم ظلم بظلم مضاد إلا بمقدار ما تمليه الضرورة وتسمع به الحكمة الإسلامية.
- 10- القرآن الكريم والسنة النبوية أساس أساليب الناجحة في معالجة ظاهرة الغلو والظلم والاستكبار في دين الإسلام. وقد عالج النبي ﷺ كثيرا وعلم الصحابة أسلوب المعالجة فأرشدتهم إلى صراط الله، صراط الذي له ما في السماوات وما في الأرض، ووجههم إلى سبيل الدعوة الذي لا يأتيه الباطل أبدا من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ب- التوصيات والاقتراحات

بعد رحلة علمية ممتعة في إلقاء الضوء على دراسة هذا الموضوع الملأ في ضوء القرآن الكريم من الجوانب المختلفة فيه فبرى الباحث أن يوصى المتخصصين والباحثين والدعاة بالبحث في الجوانب الأخرى الهامة، كل عاحدة، مثل الملأ في القرآن الكريم وعلاقاتهم بالدعوة إلى الله تعالى، إيجابا وسلبا.

وعلى الباحثين والمتخصصين والقراء، قراءة العنوان وما يتعلق به من الأبواب والفصول والمباحث بالدقة والعمق، ليتضح لهم أساس قصد الباحث وما وصل إليه من النتائج أثناء ممارسته معه، خاصة النكات والنتائج التي واجه الملأ الذي قام ضد الدعوة إلى الله تعالى

باختيار الأساليب والوسائل التي تتجدد كل زمان ومكان، ولذلك يوصى الباحث ببعض التوصيات والمقترحات الهامة في معالجة هذه الظاهرة الخطرة من قبل الملأ الظالم المستبد المستكبر المنافق. وذلك على النحو التالي:

- 1- توصى الدراسة معرفة أحوال الملأ، وأنواعهم ، و أسباب استبداد الملأ وظلمهم، واختيار الأساليب والوسائل، وآثارهم السلبية على الفرد والمجتمع، و تفكيرهم وتخطيطهم لعداوة دين الإسلام وضد الدعوة إلى الله سبحانه والثقافة الإسلامية.

- 2- تقوية المؤسسات التعليمية والتربوية، من الجامعات الإسلامية والمدارس الدينية في مواجهة ومحاربة الأعداء من الملأ المتطرف والمتكبر، للدعوة إلى الله، ويتم ذلك من خلال توضيحها لأفراد المجتمع المسلم.
- 3- إقامة الدورات والندوات والمؤتمرات المحلية والدولية الدعوية والثقافية والتربوية، وخاصة التي تتعلق بقضايا المسلمين من المساواة والعدالة والحرية والتسامح الإسلامي، وتنقية أفكار العوام من عبودية الملأ الداخلي والخارجي بأفكار الحرية وعبودية الله سبحانه وتعالى.
- 4- نشر الكتب والدراسات التي توضح صورة الإسلام بحقيقته، عن التربية والثقافة الإسلامية التي تدعو إلى التراحم والتسامح والمحبة والتعايش والإخاء، عبر وسائل التواصل الإجتماعي وغيرها..
- 5- مواجهة كافة مظاهر الغلو والتطرف والغلو والعنف والأفكار الدينية المنحرفة التي تحاول استفزاز الشباب المسلم وانحرافه نحو التطرف والعنف والاستبداد، وبذل الجهود على تحصين الشباب المسلم بالفكر القرآني الإسلامي النير الذي ينمي فيهم الخير ويزرع في نفوسهم المحبة والولاء وفق القيم الإسلامية السليمة، ونشر الوعي الإسلامي البعيد عن التمدذهب والغلو بينهم في المستقبل.
- 6- التوجه إلى العلم النافع الصحيح ونشره بين الأفراد والمجتمع فيما يتعلق بقضايا الولاء والبراء والتكفير كما يركز الشباب المسلم على البحث نحو مصادر الحقيقة الدينية، ويتم ذلك خلال توجيه الأساتذة إلى تربية أبنائهم الطلاب، والاطلاع على قراءة الكتب الدينية المعتدلة الحنيفة.
- 7- تشجيع الشباب المسلم على الإطلاع والبحث والمشاركة والحضور في المؤتمرات والندوات التي تبحث في أصول الدين من العقائد السليمة الطاهرة من أدران أفكار المذاهب وأديان الأخرى.
- 8- تربية أسلوب الحوار والنقاش والدعوة إلى الله تعالى مع الملأ وحواشيهم، ودحض شبهاتهم وتشكيكاتهم والرد البالغ بالأدلة على استفساراتهم الفكرية والعقلية.
- 9- قيام العلماء والأئمة والدعاة بواجبهم في ميدانهم الدعوي، وبدورهم المطلوب من قضايا الأمة اليوم ومايجول حولها من العراقيل والعقبات في المجتمع وخاصة في باكستان.
- 10- استخدام كتاب الله وسنة رسوله في الدعوة إلى الله لأنهما سلاح المؤمن المسلم والداعي الذي ليس عنده شيء من القرآن كمثّل رجل يمشي ليلاً دون سلاح.

أرجو الله أن يرزقنا الإخلاص في النية والقول والعمل، وينفع بنا الإسلام والمسلمين. وصلى الله على النبي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

الطالب: عبد الرحمن البازي

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين

الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

الفهارس الفنية

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الأحاديث النبوية
- 3- فهرس الأعلام من الصحابة والتابعين ومن بعدهم...
- 4- فهرس المصادر والمراجع
- 5- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات الكريمة حسب ترتيب المصحف

م	الآيات المباركة	اسم السورة	رقم الآية	الصفحة
1	وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ	سورة البقرة	8	381
2	وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ... السّفهاء	سورة البقرة	13	239
3	وَإِذَا نَقَّوُا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ	سورة البقرة	14	383
4	أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَسِّيُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ	سورة البقرة	44	422
5	وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ يُسَوِّغُونَ لَكُمُ الْعَذَابَ بِدَعْوَتِهِمْ أَتَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَفْخِوْنَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ	سورة البقرة	49	167
6	وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَتَالَوُا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ	سورة البقرة	61	396
7	ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً..	سورة البقرة	74	442
8	وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا	سورة البقرة	170	119
9	وقالوا قلوبنا غلف	سورة البقرة	88	257
10	وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ	سورة البقرة	87	297
11	إِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُرِيسُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَزَّاهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ	سورة البقرة	91	297
12	أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ	سورة البقرة	100	258
13	وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ	سورة البقرة	101	257
14	جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ....	سورة البقرة	89	123
15	بِفَسْمَا اسْتَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ نَبْغًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ	سورة البقرة	90	123
16	من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله	سورة البقرة:	97	76

17	وَذَكِّرْ بِهِ مَنِ أَهْلَ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا	سورة البقرة	109	124
18	وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ	سورة البقرة	118	118
19	وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ...	سورة البقرة	120	46
20	إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتَ قَالَ أَسْلَمْتُ لرب العالمين	سورة البقرة	131	38
21	وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ	سورة البقرة	143	428
22	الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ	سورة البقرة	146	123
23	ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحببهم كحب الله ...	سورة البقرة	-165 167	32
24	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ..	سورة البقرة	208	53
25	زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا	سورة البقرة	212	283
26	ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى	سورة البقرة	246	27
27	ألم تر إلى الذي خاف إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك	سورة البقرة	258	131
28	وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ	سورة البقرة	282	442
29	لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ	سورة البقرة	286	166
30	يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ	سورة آل عمران	64	168
31	ذلك من أبناء الغيب نوحه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون	سورة عمران	44	40
32	وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَلَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ	سورة عمران	54	292
33	وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي رُبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ	سورة عمران	50	253
34	بِآيَاهِا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا بِالْوَكَافِرِينَ خِيَالًا ..	سورة عمران	118	34
35	وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَى كُفْرِهِمُ الْأَنَامِلِ مِنَ الْعَيْظِ	سورة عمران	119	383
36	مَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْغَافِقِينَ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا ..	سورة آل عمران	159	51

37	398	21	سورة آل عمران	إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
38	297	112	سورة آل عمران	وَبَاؤُوا بَعْضَ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَتَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
39	297	181	سورة آل عمران	لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَعِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
40	418	69	سورة آل عمران	وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
41	52	122	سورة النساء	وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا
42	46	103	سورة النساء	وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتِكُمْ.....
43	427	171	سورة النساء	لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
44	237	78	سورة النساء	وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله..
45	125	54	سورة النساء	أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.
46	420	81	سورة النساء	أَقَلَّامٌ يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا
47	305	155	سورة النساء	فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ.....
48	305	165	سورة النساء	رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلَّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
49	56	2	سورة المائدة	وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
50	38	48	سورة المائدة	"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا
51	39	44	سورة المائدة	إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا
52	397	51-51	سورة المائدة	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.
53	139	70	سورة المائدة	لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ
54	427	77	سورة المائدة	قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ

55	ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ.....	سورة المائدة	117	453
56	وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ...	سورة المائدة	72	453
57	وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ	سورة المائدة	110	185
58	وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا	سورة المائدة	111	39
59	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا	سورة المائدة	104	126
60	لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا	سورة المائدة	83	82
61	وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ	سورة الأنعام	8	211
62	قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنْ مَلِكٌ.	سورة الأنعام	50	545
63	فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَخْتَدُونَ	سورة الأنعام	33	97
64	كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَجْرُمِينَ لِيُذَكِّرُوا فِيهَا	سورة الأنعام	123	158
65	فَدُ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ	سورة الأنعام	10	97
66	وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ ...	سورة الأنعام	111	114
67	وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ .	سورة الأنعام	37	118
68	إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَي وَحَيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ	سورة الأنعام	162	39
69	وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا نَعُشْرَ الْجِنِّ...إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ	سورة الأنعام	128	67
70	لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ	سورة الأنعام	179	119
71	وَلَا تَرَى وَارِدًا وَرَدَّ أُخْرَى	سورة الأنعام:	164	166
72	وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي فَرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا	سورة الأنعام	7	347
73	وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا	سورة الأنعام	25	180
74	وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً	سورة الأنعام	37	545

			وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ	
75		سورة الأنعام	أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَفْتَدِهْ	90 43
76		سورة الأنعام	وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِّرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا...	34 43
77		سورة الأنعام	وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمسكروا فيها..	123 80
78		سورة الأنعام	وَأَنفُسُكُمْ بِاللَّهِ جَهْدُ أَيْمَانِكُمْ لَئِنْ جَاءَتْكُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا	109 343
79		سورة الأنعام	كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ	112 418
80		سورة الأنعام	قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذبونك....	33 90
81		سورة الأنعام	وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ....	52 93
82		سورة الأنعام	وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ	4 347
83		سورة الأنعام	وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ	26 164
84		سورة الأنعام	وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ	80 448
85		سورة الأنعام	كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا جَرِمِهَا لِيَسْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْلِكُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ	123 80
86		سورة الأعراف	قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تُشْجِدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ	26-11 433
87		سورة الأعراف	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ.....	75 91
88		سورة الأعراف	فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ. لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ	123-124 155
89		سورة الأعراف	وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعْبَاً إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ	90 159
90		سورة الأعراف	وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذُرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَنبَاءَهُمْ.....	26 167
91		سورة الأعراف	وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا...	86 369

92	فَلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ. إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ.....	سورة الأعراف	195-196	448
93	إِلَ فِرْعَوْنُ عَامِسْتُمْ بِهِ. قَبْلَ أَنْ عَادَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومُهُ فِي السَّنِينَ لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ..	سورة الأعراف	49	242
94	فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاوِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ	سورة الأعراف	72	250
95	فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْبُدُنَا....	سورة الأعراف	77	251
96	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ.....	سورة الأعراف	88	268
97	وَالِي مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ.....	سورة الأعراف	85	452
98	قَالَ إِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ - فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ	سورة الأعراف	106	168
99	رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ	سورة الأعراف	126	306
100	وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ	سورة الأعراف	64	568
101	وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ	سورة الأعراف	127	584
102	اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ	سورة الأعراف	23	102
103	وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ	سورة الأعراف	128	584
104	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ	سورة الأعراف	66	19
105	فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ	سورة الأعراف	176	36
106	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ سَكَّبرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ	سورة الأعراف	73	21
107	وَقَارِئُونَ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ	سورة الأعراف	133	95
108	وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ	سورة الأعراف	134-135	255
109	فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي النَّبِيِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ	سورة الأعراف	136	255

110	لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره	سورة الأعراف	59	38
111	وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره	سورة الأعراف	45	451
112	وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِمَّنْ قُرَيْبِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنطَهُرُونَ - فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ	سورة الأعراف	82	171
113	قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم	سورة الأعراف	109	205
114	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَكُونُنَّ فِي مِلَّتِنَا	سورة الأعراف	87	21
115	وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا	سورة الأعراف	179	119
116	وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَالْهَتَكَ...	سورة الأعراف	127	167
117	فَإِذَا جَاءَهُمْ الْحُسْنَىٰ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ	سورة الأعراف	-130 131	119
118	قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ...	سورة الأعراف	75	143
119	قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَذُّهُ وَتَذَرَهُ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَنَا فَأَنَّا بِيَهُم...	سورة الأعراف	70	200
120	وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ	سورة الأعراف	127	231
121	قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..	سورة الأعراف	158	488
122	بَلِّغْ الْقُرْآنَ النَّقْصُ عَلَىٰكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ	سورة الأعراف	101	341
123	وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ	سورة الأعراف	103	488
124	وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ	سورة الأعراف	104	95
125	وقال للملأ الذين كفروا من قومه لن اتبعن شعيبا إنكم إذا لخاسرون	سورة الأعراف	88	149
126	قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين	سورة الأعراف	60	219
127	ثم بعثنا من بعده موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه	سورة الأعراف	90	19

128	وقال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر	سورة الأعراف	107	22
129	وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض	سورة الأعراف	109-110	167
130	ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه	سورة الأعراف	127	19
131	وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْخَرَنَ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ	سورة الأعراف	132	185
132	قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسلًا من ربه	سورة الأعراف	75	28
133	وَلَا تُفْعَدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتُغْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ	سورة الأعراف	86	154
134	وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شِعْبًا مِنْكُمْ إِذَا لَمَّا يَرْجُونَ	سورة الأعراف	90	155
135	وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.....	سورة الأعراف	99-96	444
136	وَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ	سورة الأعراف،	184	215
137	فَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا قَالُوا لَنَا هَذَا وَمَا وَدَّعُوا أَنْ نَنْصِبَهُمْ سَبِيحَةً يَلْعَبُونَ... بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ...	سورة الأعراف،	113	243
138	فَلَمَّا أَتَوْا سَخِرُوا مِنْهُمْ فَأَعْيَنَ النَّاسُ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ	سورة الأعراف،	116	253
139	وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ.	سورة الأعراف،	117	253
140	وَإِذَا ثُنِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ	سورة الأنفال	31	180
141	وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ	سورة الأنفال	42	172
142	وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَغْضٍ إِلَّا تَعْمَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ....	سورة الأنفال	73	56
143	وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ	سورة الأنفال	39	56
144	وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ...	سورة الأنفال	60	57
145	إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا	سورة الأنفال	29	442
146	وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ	سورة الأنفال	30	303

			وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ	
147		سورة الأنفال	انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقْفُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصْنُوهَا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُنَّهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ.	359
148		سورة الأنفال	وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ	166
149		سورة الأنفال	عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَمْلَكْنَاهُمْ بُدْنُوهُمْ وَأَعَزَّوْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ كَانُوا ظَالِمِينَ	255
150		سورة التوبة	وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...	56
151		سورة التوبة	اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَزُهْنَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ	102
152		سورة التوبة	يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمْ نُورُهُ...	46
153		سورة التوبة:	يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمْ نُورُهُ...	47
154		سورة التوبة:	وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ. لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِلْأَكْثَرِ بَيْنَهُمْ الْفِتْنَةُ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ	391
155		سورة التوبة	وَيُغْلِبُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ	381
156		سورة التوبة	وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ.	384
157		سورة التوبة	يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَخْذَرُونَ.	385
158		سورة التوبة	فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ	391
159		سورة التوبة:	وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَازًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ	400
160		سورة يونس	أَكُنْ لِلنَّاسِ عَاجِبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا.	535
161		سورة يونس	يا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين	583
162		سورة يونس	وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي.....	447
163		سورة يونس	وأمرت أن أكون من المسلمين	482

			غَيْرُهُ.....	
183	50	سورة هود	وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ أفلا تتقون	451
184	13	سورة هود	"أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بعشر سور مثله مفترئات وادعوا من استطعنتم من دون الله إن كنتم صادقين	540
185	35	سورة هود	إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين	198
186	87	سورة هود	قالوا يا شُعَيْبُ أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا	229
187	27	سورة هود	فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَكِ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا	506
188	28	سورة هود	فَقَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةٌ....	
189	29	سورة هود	وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ..	93
190	53	سورة هود	قالوا يا هود ما جئنا ببيته وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك...	111
191	112	سورة هود:	فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ	427
192	116	سورة هود:	فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ	170
193	100	سورة هود	ذلك من أنباء القرى نقصه عليك	41
194	58	سورة هود	وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ ..	42
195	66	سورة هود	فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا	42
196	94	سورة هود	وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا	42
197	29	سورة هود	وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ.....	93
198	82	سورة هود	قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عَيْنِي	117
199	97	سورة هود	فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ	149
200	59	سورة هود	وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ.	154

201	وَأَنَّا لَنُرَاكَ فِيَنَّا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَحْمَتُكَ لَرَجَعْنَاكَ	سورة هود	91	269
202	يَصْنَعُ الْفُلُكُ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ	سورة هود	38	19
203	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ	سورة هود	96-97	20
204	وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرِّسَالِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فَوَادَكَ	سورة هود	120	37
205	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت...	سورة هود	49	40
206	وَنَحْنُ عُصْبَةٌ	سورة يوسف	13	429
207	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا ..	سورة يوسف	112	40
208	لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الباب	سورة يوسف	111	36
209	يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ	سورة يوسف	43	20
210	قَالُوا أَضْغَاتٌ أْخْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ	سورة يوسف	44	169
211	يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون	سورة يوسف	43	20
212	قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ	سورة يوسف	108	51
213	قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ	سورة يوسف	108	51
214	رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة	سورة يوسف	101	39
215	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ	سورة الرعد	38	39
216	وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ	سورة الرعد	7	343
217	وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ	سورة الحجر	10-11	276
218	وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَخْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أُنْثَىٰ زَانَا تُلْقِي مُسْحُورُونَ	سورة الحجر	14-15	347
219	أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ	سورة إبراهيم	9-13	208

220	وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ	سورة إبراهيم	21	146
221	وَمَا تَأْتِيَنَا بِالْمَلَأِيكَةِ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ	سورة الحجر	6-7	200
222	وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ	سورة الحجر	14	347
223	فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يُعْمَلُونَ	سورة الحجر	96-94	282
224	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ لَكُمْ فَاذْكُوا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ	سورة النحل	24	181
225	وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ	سورة النحل	36	451
226	فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ	سورة النحل	38	268
227	وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ..	سورة النحل	103	544
228	مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ	سورة النحل	106	312
229	ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَخَاطِبِهِم بِالْحَقِّ...	سورة النحل	125	501
230	وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِّمَّا يَتَكَبَّرُونَ	سورة النحل	127	449
231	وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا	سورة الإسراء	59	545
232	وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا... وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرَبِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا تُفْرُغُهُ فُلٌ مُّبْنِيانِ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا	سورة الإسراء	90	544
233	وَإِذَا دَخَلْتَ رَبَّنَا فِي الْقُرْآنِ وَخَذَهُ وَلَوْ عَلَى أَذْبَانِهِمْ نُفُورًا	سورة الإسراء	46	256
234	وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا	سورة الإسراء	94	535
235	وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تُغْنِيكَ خَلِيلًا	سورة الإسراء	73	261
236	نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّشْخُورًا	سورة الإسراء	47	218
237	وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى نِشَاجَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاذْهَبْ بِهَا مُوسَى مَسْخُورًا جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْخُورًا	سورة الإسراء	101	218

238	انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا. وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا.	سورة الإسراء	48	193
239	وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا	سورة الإسراء	59	250
240	وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا	سورة الإسراء	16	170
241	قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ....	سورة الإسراء	102	90
242	وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ	سورة الكهف	29	69
243	وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِ بَنِي إِسْرَءِيلَ فَخَاقَ الَّذِينَ سَفَرُوا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ	سورة الكهف	56	276
244	فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ...	سورة الكهف	110	454
245	وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ دِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا	سورة الكهف	28	138
246	قَدْ أَوْتَيْتَ سُلُوكَ بَا مَوْسَى	سورة طه	36	286
247	وَاحْلِلْ عَقْدَةَ مِنْ لِسَانِي	سورة طه	37	286
248	قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى.	سورة طه	49	191
249	قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى.	سورة طه	57	205
250	"فَقُولْ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى	سورة طه	60	352
251	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَقْبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى.	سورة طه	58-56	252
252	قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثُلَى	سورة طه	64-63	371
253	وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَبَجَلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي	سورة طه	81	427
254	فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى	سورة طه	85	553
255	قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطِعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ...	سورة طه	71	185
125 6	وَأَصْلُ فِرْعَوْنُ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى	سورة طه	79	371
257	وَإِذَا تُثْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ	سورة طه	133	545

			بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا.....	
258	183	113	أَوَّلُ نَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى	سورة طه
259	420	114	وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا	سورة طه
260	442	124	وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْنَى	سورة طه
261	449	130	فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.....	سورة طه
262	386	11	إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ	سورة النور
263	188	3	لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّخْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّيْحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ	سورة الأنبياء
264	202	6-5	بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَخْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ	سورة الأنبياء
265	451	25	وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ.....	سورة الأنبياء
266	280	36	وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْجَحِدُونَكَ إِلَّا هَرَّوْا أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ	سورة الأنبياء
267	190	52	"إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ	سورة الأنبياء
268	294	68	قَالُوا خَرُّوْهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ	سورة الأنبياء
269	295	69-70	فُلْنَا يَا نَارُ كُوبِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ	سورة الأنبياء
270	248	76	وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ	سورة الأنبياء
271	53	107	وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ	سورة الأنبياء
272	96	8	وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ	سورة الحج
273	451	23	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ	سورة المؤمنون
274	490	24	فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ	سورة المؤمنون

			يُرِيدُ....	
275	25	سورة المؤمنون	إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتْرِتْصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ	490
276	26	سورة المؤمنون	قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي	249
277	55	سورة المؤمنون	وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ....	590
278	45	سورة المؤمنون	فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ	94
279	38	سورة المؤمنون	إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ	198
280	39	سورة المؤمنون	قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتَنِي	249
281	47	سورة المؤمنون	فَمَ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ.	94
282	68	سورة المؤمنون	أَقْلَمَ يَذَّبُرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ.	141
283	81	سورة المؤمنون	لَقَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَأَبْدًا مِثْنًا وَكُنَّا ثَرْبًا وَعِظَانًا أَتَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ.	182
284	70	سورة المؤمنون	"أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ	216
285	34-33	سورة المؤمنون	وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلفاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم	490
286	74	سورة المؤمنون	وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ	135
287	46-45	سورة المؤمنون	فَمَ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ	21
288	4	سورة الفرقان	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ	180
289	5	سورة الفرقان	وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا	181
290	7	سورة الفرقان	وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ	212
291	8	سورة الفرقان	وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا	218
292	31	سورة الفرقان	كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ....	46
293	21	سورة الفرقان:	وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا	96

294	أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تُكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا	سورة الفرقان	43	138
295	أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ	سورة الفرقان	42	138
296	وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُوءْنَهَا	سورة الفرقان	18	135
297	وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا	سورة الفرقان	21	135
298	بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا	سورة الفرقان	11	136
299	قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ. قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ.	سورة الشعراء	23	193
300	"قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ	سورة الشعراء	18-19	222
301	قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ	سورة الشعراء	27	271
302	قَالَ لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ	سورة الشعراء	29	271
304	قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ	سورة الشعراء	111	506
305	قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه من المخرجين	سورة الشعراء	167	268
306	قَالَ ءَامَنْتُمْ لَعَنَ قَبْلُ أَنْ ءَادَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُم الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّخْرَ ..	سورة الشعراء	123	242
307	قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ	سورة الشعراء	-154 153	197
308	وَأَوْخَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي مِنْكُمْ مُتَّبِعُونَ. فَارْتَلْ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ	سورة الشعراء	54-52	317
309	فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ	سورة الشعراء	60	317
310	فَأَوْخَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْيَمِينَ فَانْقَلَبَ فَكُنَّ كِلَافًا	سورة الشعراء	66-63	318
311	قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْصَرُّونَكُمْ أَوْ يَكْفُرُونَ	سورة الشعراء	74	127
312	فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَعْنُ الْعَالِيِينَ	سورة الشعراء	42-41	153
313	فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ	سورة الشعراء	32	106
314	إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ	سورة الشعراء	137	190
315	إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُنُّهَا عَاجِفِينَ.	سورة الشعراء	49	190

316	وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ. لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّخِرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ	سورة الشعراء	40-39	352
317	إِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ،.....	سورة الشعراء	192	63
318	كُنُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ. وَجَنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ	سورة الشعراء	94	67
319	قَالَ لِمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.	سورة الشعراء	34-35	106
320	قَالُوا أَزْجِيهِ وَأَخَاهُ وَأَبْنَاهُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ	سورة الشعراء	38	252
321	فَجَمِيعُ السَّخِرَةِ لِمِيقَاتٍ يُؤْمَرُ مَغْلُومٌ	سورة الشعراء	37-36	351
322	وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ	سورة الشعراء	114	488
323	قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَا نوح.....	سورة الشعراء	116	266
324	فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.	سورة الشعراء	87	200
325	قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تُكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ	سورة الشعراء	136	250
326	فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ ..	سورة الشعراء	150	148
327	قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطَّلُكَ لَئِنْ الْكَافِرِينَ.	سورة الشعراء	185-186	197
328	وَأِنَّهُ لَهِيَ زُبُرُ الْأَوَّلِينَ	سورة الشعراء	196	183
329	فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ	سورة النمل	13	184
330	وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ	سورة النمل	48	292
331	أَتَيْتُكُمْ لَتَأْتِيَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِخَفَلُونَ	سورة النمل	55	116
332	فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ ۖ إِنَّا مُرْسِلُونَ	سورة النمل	56	243
333	قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ..	سورة النمل	38	20
334	وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِبِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ	سورة النمل	17	67
335	وَأَنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ	سورة النمل	35	71
336	قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ وَمَنْ مَعَكُمْ...	سورة النمل	47	236
337	رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ	سورة النمل	44	39
338	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ	سورة النمل	45	452
339	قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ	سورة النمل	29	20
340	قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ ضَالَّةً أَمْراً خَفِيٍّ	سورة النمل	32	20

تَشْهَدُونَ				
341	قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بعرشها قبل أن يأتي مسلمان	سورة النمل	38	27
342	بَلْ قَالُوا مِثْلُ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ.	سورة النمل	67	182
343	إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَفْلَهَا شَيْعًا يَسْتَضِيعُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعْ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ	سورة القصص	4	95
344	قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ	سورة القصص	20	167
345	وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ	سورة القصص	38	201
346	"فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سِيفِنَا	سورة القصص	36	184
347	إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ...	سورة القصص	76	84
348	إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ.	سورة القصص	78	85
349	وَأَسْتَخْرِجُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا ...	سورة القصص	39	94
350	فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ	سورة القصص	50	139
351	وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِي	سورة القصص	20	20
352	اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ	سورة القصص	32	20
353	وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَذْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ	سورة القصص	41	149
354	وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر	سورة القصص	44	40
355	وما كنت ثاويا في أهل مدين	سورة القصص	45	40
356	وما كنت بجانب الطور إذ نادينا	سورة القصص	46	40
357	قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ	سورة القصص	87	51
358	فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وماله	سورة القصص	32	24
359	ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ	سورة القصص	39	94
360	وَلَقَدْ جَاءَتْكَ نَجِيَّةٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ	سورة القصص	4	95
361	وَإِسْرَافِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ	سورة النعكبو	36	452

ت	ت	ت	تَعْلَمُونَ
95	39	سورة النعكبو	362 وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ
42	40	سورة النعكبو	363 فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
293	24	سورة النعكبو	364 فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ
42	14	سورة النعكبو	365 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا
137	4	سورة النعكبو	366 إِنَّ الدِّينَ لَا يُلْمُنُونَ إِلَّا خَيْرَ رَبِّنَا لَمَّا أَخَذْنَا لَهُم مِّنْ مَّوَدَّةٍ
83	39	سورة النعكبو	367 وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا
544	50	سورة النعكبو	368 وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
452	16	سورة النعكبو	369 وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ
52	4	سورة الروم	370 وَيُؤْمِنُوا بِفَرِيحِ الْمُؤْمِنِينَ . يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ
410	41	سورة الروم	371 ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
559	47	سورة الروم	372 وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ
119	6	سورة الروم	373 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
189	30	سورة الروم	374 فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَرِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
347	58	سورة الروم	375 وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ
51	17	سورة لقمان:	376 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
126	21	سورة لقمان	377 وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا
540	3	سورة السجدة	378 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.
162	20	سورة المؤمن	379 قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ
44	21	سورة الأحزاب	380 "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ...."

381	وَأَذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ	سورة الأحزاب	13	388
382	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا	سورة الأحزاب	9-11	360
383	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ	سورة الأحزاب	46-47	254
384	يَوْمَ تَقُفُّ يَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا...	سورة الأحزاب	66	147
385	وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَا دَنَا وَكَرَاهْنَا...	سورة الأحزاب	67	34
386	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذْلُكُم عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْتَحِمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلٌّ مِّمَّنِّي إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ	سورة السباء	8-7	217
387	وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ...	سورة السباء	34	246
388	وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى	سورة سبا	43	287
389	قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنُحْنُ صَادِقُونَ عَنْ أَهْدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ	سورة سبا	32	146
390	وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ....	سورة سبا	35	151
391	قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنُحْنُ صَادِقُونَ عَنْ أَهْدَىٰ	سورة السباء	31	171
392	فُلْنِ إِنَّمَا أَعْظَمَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِثْلٍ خَفًى وَفَرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ	سورة السباء	46	215
393	وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ	سورة فاطر:	25	247
394	مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا	سورة فاطر:	10	440
395	قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ	سورة يس	15	210
396	قَالُوا إِنَّا تَطِيرُوا بِكُم لَّن لَّمْ نَنْتَه...	سورة يس	18	236
397	يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ	سورة يس	30	276
398	وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ	سورة يس	70	202
399	إِنَّهُمْ أَتَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّجْرِعُونَ	سورة الصافات	69	126
400	وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ	سورة الصافات	15	186

401	لا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّبُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ	سورة الصفافات:	8	62
402	وَيَقُولُونَ آيْنَا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ	سورة الصفافات:	36	202
403	وَيَقُولُونَ آيْنَا لَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ	سورة الصفافات:	30	2016
404	وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ. إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تُعْبُدُونَ	سورة الصفافات:	87-85	452
405	قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ	سورة الصفافات:	97	294
406	وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَخَلَقْنَا لَهُ أَهْلَهُ مِنَ النَّارِ الْعَظِيمِ	سورة الصفافات:	76-75	248
407	وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ	سورة الصفافات	171	52
408	مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ	سورة ص	69	62
409	أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ	سورة ص	4	103
410	وَانْطَلِقِ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا.....	سورة ص	6	106
411	بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ	سورة ص	2	114
412	أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ	سورة ص	5	193
413	مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ	سورة ص	69	25
415	أَنْزِلْ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ	سورة ص	8	121
416	قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ. مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ	سورة ص	69-67	21
417	"بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ	سورة ص	2	96
418	قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ ثَأْمُورِي أَعْبُدْ أَتُهَا الْجَاهِلُونَ	سورة الزمر	64	116
419	فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ	سورة الغافر	14	50
420	الَّذِينَ يَخْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ	سورة غافر	7	63
421	وقال رجل من آل فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ	سورة غافر	28	70
422	قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ	سورة غافر	29	370

423	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ	سورة غافر	24	83
425	فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ	سورة غافر	25	308
426	وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبِّي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ	سورة الغافر	26	70
427	إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ	سورة غافر	56	96
428	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ.....	سورة غافر	23	83
429	وَإِذْ يَتَحَاوَجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا	سورة غافر	47	146
430	فَأَطِيعُوا إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا	سورة غافر	37	197
431	وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا بِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا.....	سورة فصلت	33	49
432	وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا	سورة فصلت	3-1	114
433	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ	سورة فصلت	26	373
434	وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُ غَايِلُونَ	سورة فصلت	5	114
435	فَإِذَا عَادَ فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة	سورة فصلت	15	92
436	جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَنِي أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ	سورة فصلت	14	209
437	شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك....	سورة الشورى	13	37
438	فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ.	سورة الشورى	15	450
439	وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ	سورة الشورى	30	439
440	وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا	سورة الشورى	40	443
441	وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي....	سورة الزخرف	51	95
442	"بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى آثِمَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ	سورة الزخرف	22	192
443	وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا	سورة الزخرف	23	79
444	لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ	سورة الزخرف	31	121
445	وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَعَلَيْهِ فَكَأَلَّا إِلَى رَسُولٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ يَنْصَبُونَ	سورة الزخرف	47-46	254
446	وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ.....	سورة الزخرف	52	286
447	فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ أَسْوَدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ	سورة الزخرف	53	213

448	وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون	سورة الزخرف	48	254
449	ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بفضل الذي تتكفلون فيه.....	سورة الزخرف	64-63	453
450	ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإننا به كافرين	سورة الزخرف	30	160
451	فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين	سورة الزخرف	54	163
452	ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون ومليه فقال إني رسول رب العالمين	سورة الزخرف	4	21
453	وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها	سورة الزخرف	23	79
454	وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم	سورة الزخرف	31	101
455	فيها يفرق كل أمر حكيم	سورة الدخان	4	65
456	ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون	سورة الدخان	14	216
457	فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات ..	سورة الدخان	30	254
458	وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون	سورة الدخان	21	319
459	قدعنا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون	سورة الدخان	22	319
460	وبل لكل أمك أليم. يسمع آيات الله تثنى عليه	سورة الجاثية	7	96
461	أرايت من اتخذ إلهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا	سورة الجاثية	23	138
462	وإذا تثنى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للبحر لئن جاءهم هذا إلا ساحر مبين	سورة الأحقاف	7	186
463	وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم	سورة الأحقاف	11	181
465	أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا	سورة الأحقاف	8	198
466	فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم..	سورة الأحقاف	35	449
467	قالوا أجهنمتنا لتأبكتنا عن آلهتنا فأتينا بما نعبدا إن كنا من الصادقين	سورة الأحقاف	22	512
468	قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكي أراكم قوما..	سورة الأحقاف	23	515
469	قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكي أراكم قوما..	سورة الأحقاف	21	515

		الأحزاب		
470	115	32	سورة محمد	إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ....
471	50	19	سورة محمد	فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
472	437	10	سورة الحجرات	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
473	211	2	سورة ق	بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ
474	233	4	سورة ق	وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرُهُمْ.
475	214	38-39	سورة الذاريات	وَرَىٰ مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ. فَتَوَلَّىٰ بِرُكْبَيْهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.
476	92	44	سورة الذاريات	فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ
477	204	52	سورة الذاريات	وَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ
478	347	2	سورة الطور	وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ
479	203	29	سورة الطور	فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ
480	540	33	سورة الطور	أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ لَهُ بَلْ لَا يُلَاحِظُونَ
481	115	44	سورة الطور	وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ
482	203	30	سورة الطور	أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنَاهُ بِرَبِّهِ الْمَوْنِ
483	204	98	سورة الطور	ذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ
484	140	23	سورة النجم	إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ....
485	348	2	سورة القمر	افْتَرَيْنِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا....
486	213	9	سورة القمر	كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ
487	222	25	سورة القمر	أُولَئِكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ.
488	94	23	سورة القمر	كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهُمْ
489	100	24	سورة القمر	فَقَالُوا أَتَشْرَانَا وَاجِدَا نَجِيَّتَهُ إِنَّا إِذْ لَمِىَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ
490	252	29	سورة القمر	فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ
491	348	3	سورة القمر	وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ
492	255	42-41	سورة القمر	وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ. كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ

عزیز مقلد				
493	50	11	سورة المجادلة	يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ.
494	397	14	سورة المجادلة	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.
495	433	19	سورة المجادلة	اسْتَعِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ...
496	396	11	سورة الحشر	أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.
497	423	7	سورة الحشر	وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
498	43	4	سورة الممتحنة	فَدَكَانَتْ لَكُمْ أَسْوَأَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ
499	43	6	سورة الممتحنة	لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أَسْوَأَ حَسَنَةٍ لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
500	52	8	سورة الصف	يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ
501	422	6	سورة الجمعة	مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّوَارَةُ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلُوا كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا
502	381	1	سورة المنافقون	إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ
503	381	4	سورة المنافقون	وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ
504	384	5	سورة المنافقون	لَحِشَّتٌ مُسْتَنَدَةٌ يُخْسِبُونَ كُلَّ صِدْقٍ عَلَيْهِمْ....
505	384	7	سورة المنافقون	وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْمَعُوا لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ رَأَوْهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ
506	395	8-7	سورة المنافقون	يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
507	208	5-6	سورة التغابن	هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا..
508	62	4	سورة التحریم	وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ.
509	216	2	سورة القلم:	أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
510	263	9-8	سورة القلم:	إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ.....
511	216	22	سورة القلم:	"مَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ لَكَ بِمُحْتَوٍ
512	217	51	سورة القلم:	لَا تُطِيعُ الْمُكْذِبِينَ. وَذُوقُوا نَذِيرَهُ فَيُذْهِبُونَ
				وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمُحْتَوٍ
				وَإِنْ يَكَاذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْزُقْنَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمُحْتَوٍ.

513	ولا تُطع كُلَّ خَلَّافٍ مَّهِينٍ. هَمَّازٌ مُشَاءٌ بِنَيْمٍ.	سورة القلم:	10	181
514	فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنُّ كَصَاحِبِ الْخَوْبِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ	سورة القلم:	48	449
515	وَمَا هُوَ إِلَّا وَحْدٌ لِلْعَالَمِينَ	سورة القلم:	52	53
516	وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ.	سورة الحاقة	41	203
517	فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ.	سورة الحاقة	38	203
518	فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا	سورة المعارج	5	449
519	إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	سورة نوح	3-1	451
520	ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَغْلَسْتُ لَهُمْ وَأَسْرَزْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا	سورة نوح	9-8	552
521	قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خُسَارًا	سورة نوح	21	130
522	وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا. وَقَالُوا لَا تُذَرُّ أَمْثَلَكُمْ وَلَا تُذَرُّ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا.	سورة نوح	22	131
523	وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا	سورة نوح	7	140
524	وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا. وَقَالُوا لَا تُذَرُّ أَمْثَلَكُمْ وَلَا تُذَرُّ وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَمُوتُ وَيَعُوقُ وَنَسَا	سورة نوح	23	158
525	وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا	سورة نوح	24	148
526	وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ.....	سورة نوح	7	248
527	قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا	سورة نوح	5	552
528	فُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا	سورة الجن	6-1	68
529	فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِيرِ مُعْرِضِينَ	سورة المدثر:	49	136
530	كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ	سورة المدثر	53	136
531	إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ.	سورة المدثر	18	186
532	كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ	سورة المدثر	38	166
533	سَأَرْفَعُهُ صَعُودًا. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ	سورة المدثر	16	186
536	ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا	سورة المدثر	11	108
537	كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ	سورة القيامة	21-20	421

538	فاضِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كَيْفُورًا	سورة الدهر	24	449
539	ادْقَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ	سورة النازعات	17	500
540	فَإِرَاهِ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ، فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ	سورة النازعات	20-21	252
541	ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ	سورة النازعات	22	352
542	أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ	سورة النازعات	24	95
543	فَحَشَرَ فَنَادَىٰ. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ	سورة النازعات	23	104
544	فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ.	سورة النازعات	37-41	421
545	وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰذَا... .	سورة المطففين	32	238
546	وَيَلَّيْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيِّتِ الْبَيْنِ.	سورة المطففين	10	181
547	كَأَلَّا بَلَ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ	سورة المطففين	14	443
548	إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَلُوا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ.	سورة المطففين	29-31	283
549	وَمَا تَقُومُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَيْرِ الْغَيْرِ الْحَمِيدِ	سورة البروج	8	309
550	إِنَّ هَٰذَا لَمِنَ الصُّحُفِ الْأُولَىٰ	سورة الأعلى	18	183
551	يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.	سورة الفجر	27	64
552	كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا. إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا	سورة الشمس	11-14	251
553	اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ	سورة العلق	1-5	420
554	أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ. عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ	سورة العلق	9-10	274
556	فليدع ناديه، سندع الزبانية	سورة العلق	17-18	274
557	وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ...	سورة البينة	5	49
558	قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ.	سورة الكافرون	1-6	263
559	تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ	سورة اللمب	1-4	122

فهرس الأحاديث الشريفة والآثار الواردة في الرسالة

الرقم	الحديث / الآثار	رقم الصفحة
1		
2	... لا تحزن إن الله معنا	339
3	أبشروا آل عمار وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة	312
4	اتعدت -لما أردنا الهجرة إلى المدينة- أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص ...	337
5	أحسنوا للملائكة كلكم سيروى ...	18
6	إذا قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرأى، أيكم يقوم إلى جزور آل فلان ...	298
7	إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: (أمين ولك بمثله)	437
8	إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي ...	587
9	أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ ...	288
10	أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ ...	288
11	ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري ...	565
12	أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتي ...	358
13	أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم ...	564
14	أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله عليه السلام من العذاب ما ...	310
15	ألا أحدثكما عنه - يعني: عمارا؟ - أقبلت مع رسول الله عليه السلام أخذا بيدي ..	587
16	أَنَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُزْءَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَنْ كَانَ يَشْكُبُ الْمَاءَ ...	300
17	أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله	581
18	أن أبا جهل كان إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنه وأخزاه ...	274
19	إن أبواب الجنة تحت ظل السيوف	593
20	إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء	46
21	إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه	442
22	أن الطفيل بن عمرو أتى النبي فقال يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة	72
23	إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إن أحب فلانا فأحبه ...	63
24	إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى ..	587
25	إن الملائكة قد بغوا علينا	14
26	إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنَ الَّذِينَ يُجْتَمِعُونَ فِي الْحِجْرِ، فَتَعَاقِدُوا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنَ اللَّيْلِ ...	301
27	إن الملائكة من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا بالليل والنهار ومناء ...	301

28	إن المؤمن إذا أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل	443
29	إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى...	440
30	أن النبي ﷺ صلى على أصحمة النجاشي	72
31	أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُتِبَتْ رِزَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُخِذَ وَشُجَّ وَشُجَّتْ شَجَّةٌ فِي جَنْبَيْهِ ...	300
32	أن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش - وكان ذا سن فيهم - وقد حضر	354
33	أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكانه ...	107
34	أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ مَسْتَوْتَةٍ فَأَكَلَتْ مِنْهَا ..	305
35	إن بيوتنا عورة، وهي خارجة من المدينة، ائذن لنا، فارجع إلى نسائنا وأبنائنا ...	389
36	أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فذكية ...	85
37	أن رسول الله عليه السلام بعث بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذيفة السهمي	291
38	أن رسول الله نعى لهم النجاشي في اليوم الذي مات فيه وقال: استغفروا لأخيكم	72
39	الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم ...	577
40	أنا عند ظن عبيدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته ...	18
41	إنا لا نرضى أن نكون اتباعاً لهم فاطردهم عنك ...	291
42	الأنبياء إخوة العلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد	38
43	اتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان ..	436
44	أنزل على رسول الله عليه السلام وهو ابن أربعين، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة	
45	أنزلت (عيسى وتولى) في عبد الله بن أم مكتوب. جاء إلى رسول الله عليه السلام	494
46	أنه أبصر رسول الله عليه السلام في مشرق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصا..	557
47	إني قممت من الليل، فتوضأت، وصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى ...	63
48	أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يظلي منه دماغه	427
49	أول شهيد كان في الإسلام استشهد أم عمار سمية، طعنها أبو جهل بحربة في قلبها	313
50	أي الرقاب أفضل؟ قال النبي عليه السلام: أغلاها ثمناً وأنفعها عند أهلها ...	426
51	أي إنما نحن نستعزى بالقوم ونلعب بهم ...	383
52	أيتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قال: قلت: بل ضعفاؤهم ...	80
53	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من ..	493
54	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على ...	504
55	بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام..	588
56	بعث النبي عليه السلام أقواماً من بني سليم إلى بني غامر في سبعين قُلماً قَدِمُوا ..	315

57	بعث رسول الله عليه السلام خيلاً قَبِيلَ نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال ...	503
58	بعثنا رسول الله عليه السلام إلى النجاشي، ونحن ثمانون رجلاً ومعنا جعفر ...	557
59	بعثني خالي عثمان بن مظعون لأبيه بلحاف، فأثبت النبي عليه السلام، فاستأذنته ..	589
60	بلغنا مخرج النبي عليه السلام ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه أن وأخوان لي ...	557
61	بينما رسول الله عليه السلام يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابه جلوس ...	281
62	يُنْمَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ ...	281
63	بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل ...	17
64	بينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة؛ قال قائل لأبي بكر ...	565
65	تساورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأنبتوه بالوناق، وقال ...	303
66	نعمس عبد الدينار نعمس عبد درهم نعمس عبد الحميصه نعمس عبد الحميلة إن ...	437
67	تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرج من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق ...	592
68	جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي عليه السلام فقال: إن دؤسا قد هلك، عصت ..	72
69	جاء خباب إلى عمر، فقال: ادن، فما أجد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار ...	313
70	جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفئتنا ...	325
71	جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون في رسول الله عليه السلام وأبي بكر دية كل ...	339
72	جِئْتُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ أَتْقَاضَهُ حَقِّي لِي عِنْدَهُ فَقَالَ لَا أُعْطِيكَ حَتَّى ...	284
73	حتى انتهى إلى ملأه من بني إسرائيل	17
74	حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ سَلُولٌ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ فَإِذَا فِي ...	290
75	خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ: كُنْتُ قَبِيلاً مَكَّةَ فَعَمَلْتُ لِلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ سَيْفًا ...	264
76	خرجنا مع النبي ﷺ في سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال ابن أبي	394
77	دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح، وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل ..	577
78	دعوها فإنها خبيثة	435
79	دعوها فإنها منتنة	436
80	دمي وجه رسول الله ﷺ ...	301
81	رأيت رسول الله ﷺ مر بسوق ذي الحجاز وأنا في بيعة ...	300
82	سأل أهل مكة رسول الله عليه السلام أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى عنهم ..	346
83	سمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ..	565
84	شكونا إلى رسول الله عليه السلام وهو متوسد بئردة له في ظل الكعبة، قلنا له	586
85	صبرا آل ياسر فإن مصيركم إلى الجنة	587
86	غدوة في سبيل الله أو روحه خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ...	592

434	غزونا مع رسول الله -عليه السلام- وقد ثاب معهن من المهاجرين حتى كثروا ..	87
338	فك الله أسره ونجاه، إذ تمكن من الخروج من مكة مهاجرا، وكان ذلك قبل ...	88
386	فقام رسول الله عليه السلام من يومه، فاستعذر من ابن أبي، وهو على المنبر ...	89
389	فلقد رأيتنا ليلة الأحزاب، ونحن صافون قاعدون: أبو سفيان ومن معه من الأحزاب	90
304	فلما أتاهم رسول الله عليه السلام يستعينهم في دية ذلك القتلين قالوا نعم ...	91
303	فلما أسند رسول الله عليه السلام في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول ...	92
86	فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله بها من قتل من صناديد ...	93
328	فلما فعلت ذلك فريش اخازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا ...	94
314	فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي عليه السلام فقلت له ...	95
386	فهلك في من هلك، وكان الذي تولى كبير الإفك عبدالله بن أبي ابن سلول ...	96
15	فيم يختصم الملاء الأعلى	97
258	قال ابن سوريا الفطوي: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك ...	98
231	قال أبو لهب: يا أيها الناس إن هذا قد غوى، فلا يغوينكم عن آلهة آبائكم ...	99
263	قال المشركون: يا محمد؛ هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد مانعبد، ونشركك في أمرنا ...	100
256	قال المغيرة: إن أول يؤم غرقت رسول الله عليه السلام أي كُنْتُ أَنشِي أَنَا ...	101
384	قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرانتنا هؤلاء، أرغب بطونا ...	102
109	قال رسول الله ﷺ لعمه: قل لا إله إلا الله أشهد لك بما يوم القيامة	103
346	قالت فريش للنبي عليه السلام: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك، ...	104
18	قد كانت في القوم مثلة، وإن كانت لعن غير ملأ منا ...	105
18	قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبثت ...	106
260	قل يا أبا الوليد أسمع ...	107
429	قلت يا رسول الله ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم	108
290	قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ...	109
274	كان النبي ﷺ يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أهلك عن هذا؟	110
311	كَانَ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَارُ وَأُمُّهُ ...	111
313	كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله عليه السلام بمكة عبد الله بن مسعود ...	112
493	كان رسول الله عليه السلام يعرض نفسه على الناس في الموسم فيقول: ألا رجل ..	113
309	كَانَ عَلَيْكَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَكَ سَاجِرٌ فَلَمَّا كَبِّرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِّرْتُ ...	114
307	كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس فإذا انصرفوا عنها أظلمت الملامكة بأجنحتها ..	115

116	كانوا رجالاً أجمل شيء ...	382
117	كأنني أنظر إلى النبي عليه السلام يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه ...	301
118	كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران ...	306
119	كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري ...	394
120	كنا مع النبي عليه السلام ستة نفر فقال المشركون له: اطرد هؤلاء لا يجترئون ...	93
121	كنت مع النبي عليه السلام في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت يا رسول الله ...	338
122	لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة ...	592
123	لا تطعموا محمدًا وأصحابه حتى تصيبهم جماعة فيتركوا بينهم ...	396
124	لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ...	592
125	لقد أوديت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد	297
126	لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْمَلِكِ	
127	لقد رأيته مع رسول الله عليه السلام بمكة، خرجت من الليل أبول، وإذا أنا ..	329
128	لقد ضربوا رسول الله عليه السلام يوماً حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ...	299
129	لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذا ...	288
130	لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله ...	521
131	لما اجتمع أصحاب النبي عليه السلام وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألح أبو بكر	563
132	لَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطَّائِفِ، عَمَدَ إِلَى نَقَرٍ مِنْ ثِقِيفٍ ..	288
133	لما خرج النبي ﷺ إلى أحد رجوع ناس ممن خرج معه ...	388
134	لَمَّا قُبِضَ خُبَيْرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ النَّبِيُّ ...	305
135	لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار؛ النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا الله ...	330
136	لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده ...	109
137	اللهم إن تملك هذه المصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض	429
138	اللهم عليك الملائكة من قريش	15
139	مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا أَصَابُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا كَانُوا يُظْهِرُونَ ...	282
140	ما رأيت قريشاً أرادوا قتل رسول الله عليه السلام إلا يوم اتهموا به وهم جلوس ...	302
141	ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ماعلى الأرض ...	592
142	ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانة ...	35
143	ماذا عندك يا ثمامة؟" فقال: عندي يا محمد! خير، إن تقتل تقتل ذا دم ...	77

144	مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ له علينا من ميثاق ...	258
145	مامن الأنبياء من نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان ...	342
146	مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا ...	64
147	مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم	592
148	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه	
149	مر الملة من القریش على رسول الله وعنده سيدنا خباب بن الارت ...	93
150	المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه	437
151	الملائكة يصلون على أحدهم مادام في مجلسه الذي صلى فيه ...	64
152	من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي ...	437
153	من قاتل في سبيل الله فؤاق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من نفسه	592
154	من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	581
155	من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله، قال محمد بن مسلمة: أنحب ...	578
156	من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ...	26
157	من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين	50
158	للمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه عليه السلام	
159	نحن نازلون غدا بخيف بني كنانة، حيث تقاسموا على الكفر، يعني بذلك	328
160	هؤلاء للملة من قومك قد تعاهدوا عليك، لو قد رأوك، قاموا إليك فقتلوك ...	16
161	والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه	437
162	وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره ...	386
163	وكانت الأنصار حين قدم النبي عليه السلام أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد	394
164	وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة ...	107
165	يَا أَيُّهَا الْحُكَمَاءُ، قُلُّمُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَى رَسُولِهِ أَذْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ ...	257
166	يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ...	377
167	يا رسول الله، إن لي موالى من يهود، كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ...	397
168	يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، فقال: إني أمرت	570
169	يا عدى، هل رأيت الحيرة، قلت: لم أرها، وقد أنبتت عنها، قال: فإن طالت ...	588
170	يَا مُعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيُذُكُّمُ اتَّقُوا اللَّهَ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ ...	258
171	يا محمد، إن الله سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثي ربك إليك ...	501

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

نحرس الأعلام من الصحابة رضي الله عنهم

والتابعين ومن بعدهم رحمهم الله.

الأعلام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

أنيس الغفاري

أنيس بن جنادة بن سفيان بن عبيد، الغفاري، أخو أبي ذر، أسلم بعده، وكان أكرمته عمرا. الإصابة 136/1، أسد الغابة 157/1.

إيماء بن رخصة

إيماء بن رخصة بن خربة، الغفاري، كان سيدا في قومه، أعان المشركين يوم بدر، ثم أسلم قبل الحديبية. الإصابة 169/1، الاستيعاب 135/1.

البراء بن عازب

البراء بن عازب بن الحارث، أبو عمارة الأنصاري، الأوسي، له ولأبيه صحبة، شهد غزوات كثيرة مع النبي ﷺ، واستصغر يوم بدر، نزل الكوفة، وتوفي سنة اثنتين وسبعين. الإصابة 278-279، سير أعلام النبلاء 194/3-196.

أبو بردة الأشعري

أبو بردة، واسمه عامر بن قيس الأشعري، أخو أبي موسى الأشعري، مشهور بكنته، قدم وإخوته برفقة جعفر وأصحابه من الحبشة، وذلك بين افبيح رسول الله ﷺ خير، فأسهل لهم مع من شهدا. الإصابة 36/7، الاستيعاب 1608/4.

بشر بن البراء

بشر بن البراء بن معرور، من أشرف بني سلمة، شهد العقبة مع أبيه وشهد بدرا وما بعدها، ومات بعد خير إثر أكله من الشاة المسمومة التي أهديت لرسول الله ﷺ. الإصابة 294/295، سير أعلام النبلاء 1/269.

ثابت بن قيس

ثابت بن قيس بن شماس، أبو محمد، الأنصاري الخزرجي، خطيب رسول الله ﷺ، كان بليغا جهوري الصوت، شهد أحدا وما بعدها، وكان على رأس الأنصار يوم اليمامة، واستشهد بها. الإصابة 1/395-396، سير أعلام النبلاء 1/308-314.

ثوبان

ثوبان، مولى رسول الله ﷺ، سبى من أرض الحجاز فاشتراه النبي ﷺ وأعتقه، فلزم النبي ﷺ وصحبه، وحفظ عنه كثيرا من العلم، وطال عمره، واشتهر ذكره، نزل حصص، وتوفي بها سنة أربع وخمسين. الإصابة 413/1-، سير أعلام النبلاء 15/3-18.

أبو ثعلبة الخشني

أبو ثعلبة الخشني، معروف بكنيته، واختلف في اسمه فقبيل جرثوم بن ناشر، وقيل غير ذلك، من أهل بيعة الرضوان، وأسهم له النبي ﷺ يوم خيبر، وأرسله إلى قومه فأسلموا، نزل الشام، وتوفي سنة خمس وسبعين، وهو ساجد يصلى في جوف الليل. الإصابة 58/7-60، سير أعلام النبلاء 2/567-571.

جابر بن سمرة

جابر بن سمرة بن جنادة، العامري السوائي، حليف بني زهرة، له و لأبيه صحبة، سكن الكوفة، وشهد فتح المدائن، توفي سنة أربع وسبعين. الإصابة 431/1، سير أعلام النبلاء 3/186-188.

جبير بن مطعم

جبير بن مطعم بن عدى، من حكماء قريش وسادتها، أسلم بين الحديبية والفتح، وقيل يوم الفتح، وكان من عمال عمر على الكوفة توفي في خلافة معاوية سنة تسع وخمسين. الإصابة 462/1-463، سير أعلام النبلاء 3/95-99.

أم جميل بنت الخطاب

أم جميل بنت الخطاب، القرشية، العدوية، من السابقات إلى الإسلام، زوج سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين. الإصابة 181/8.

جهجاه بن مسعود

قال ابن حجر: جهجاه بن سعيد، وقيل ابن قيس، وقيل ابن مسعود الغفاري. شهد غزوة المريسيع، وكان يومئذ أجيرا لعمر بن الخطاب، ووقع بينه وبين سنان بن وبر الجهني نزاع على الماء، شهد بيعة الرضوان، وعاش إلى خلافة عثمان.

الإصابة 518/1، أسد الغابة 1/ 365-366.

حرام بن ملحان

حرام بن ملحان، واسم ملحان مالك بن خالد بن زيد، الأنصاري النجاري، خال أنس بن مالك، شهد بدرًا وأحدا، واستشهد يوم بدر معونة.

الإصابة 2/ 47-48، أسد الغابة 1/ 473-474.

خالد العدواني

خالد بن أبي جهل، ويقال ابن أبي جيل، العدواني، من عدوان بن قيس بن غيلان، سكن الطائف، وشاهد رسول الله ﷺ يدعو الناس لما خرج إليها وحكى ذلك بعد إسلامه، وكان ممن بايع تحت الشجرة.

الاستيعاب 2/ 435، أسد الغابة 2/ 91.

أم الخير

أم الخير بنت صخر بن عامر القرشية النيمية، والدة أبي بكر الصديق دعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت بمكة قديما.

الإصابة 8/ 200-201، الاستيعاب 4/ 1934.

دحية الكلبي

دحية بن خليفة بن فروة، الكلبي، شهد أحدا وما بعدها، كان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورته أحيانا، نزل دمشق، وعاش إلى خلافة معاوية.

الإصابة 2/ 384-386، الاستيعاب 2/ 461-462، أسد الغابة 2/ 158.

ربيع بن عباد

ربيع بن عباد، بكسر العين وتخفيف الباء، الديلمي الحجازي، رأى النبي ﷺ.

بسوق ذي الحجاز قبل أن يسلم، قال البخاري وغيره: له صحبة، شهد اليرموك، ومات في خلافة الوليد.

الإصابة 2/ 469-470، سير أعلام النبلاء 3/ 516-517.

رفاعة الزرقى

رفاعة بن رافع بن مالك، أبو معاذ، الأنصاري، الخزرجي، الزرقى، شهد مع أبيهبيعة العقبة، وشهد بدرًا وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وتوفي سنة إحدى أو اثنتين وأربعين.

الاستيعاب 2/ 497، الإصابة 2/ -489، أسد الغابة 2/ 225-226.

أبو رهم

أبو رهم بن قيس الأشعري، أخ أبي موسى الأشعري، قدم وإخوته برفقة جعفر وأصحابه م الحبشة إلى رسول الله ﷺ، فوصلوا وقد فتح رسول الله ﷺ خيبر، فأسهم لهم مع من شهدوها. الإصابة 142/7، الاستيعاب 4/659.

زيد بن أرقم

زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان، الأنصاري الخزرجي، استصغر يوم أحد، وأول مشاهدته الخندق، له قصة في نزول سورة المنافقون، مات بالكوفة سنة ست وستين. الإصابة 2/589-590، سير أعلام النبلاء 3/165-168.

سلمة بن سلامة

سلمة بن سلامة بن وقش، الأنصاري الأشهلي، شهد العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا والمشاهد بعجها، استعمله عمر على الإمامة، مات بالمدينة سنة خمس وأربعين، وهو ابن سبعين. الإصابة 3/148-149، الاستيعاب 2/641، سير أعلام النبلاء 2/355-356.

سلمة بن هشام

سلمة بن هشام بن المغيرة، القرشي المخزومي، أخو أبي جهل، من السابقين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة، وحبس عن الهجرة إلى المدينة وأوذى في الله تعالى، فدعا له رسول الله ﷺ بالنجاة، وتمكن من الهدرة بعد الخندق، استشهد بأجيادين سنة أربع عشرة. الإصابة 3/155-156، أسد الغابة 2/435-436.

سنان بن وبر الجهني

سنان بن وبر، ويقال: وبرة، الجهني، حليف بني الحارث بن الخزرج، وهو الذي نازع جهجاه الغفاري على الماء يوم المريسيع. الإصابة 3/190، أسد الغابة 2/463.

سهل بن سعد

سهل بن سعد بن مالك، الأنصاري، الخزرجي، الساعدي، من فضلاء الصحابة، مات رسول الله ﷺ وعمره خمس عشرة سنة، توفي بالمدينة سنة إحدى وتسعين، وهو آخر من مات بها من الصحابة. الإصابة 3/200، سير أعلام النبلاء 3/422-424.

صفوان بن المعطل

صفوان بن المعطل بن رخصة، أبو عمرو السلمي ثم الذكواني، وهو المذكور بالبراءة في حديث الإفك المشهور بعد غزوة المريسيع، سكن المدينة واستشهد في غزاة أرمينية سنة تسع عشرة. الإصابة 3/440-442، سير أعلام النبلاء 2/545.

طارق المحاري

طارق بن عبد الله المحاري، له صحبة، نزل الكوفة، وروى عنه جامع بن شداد وربي بن حراش. الإصابة 3/511، الاستيعاب 2/756.

عامر بن فهيرة

عامر بن فهيرة التيمي، مولى أبي بكر الصديق عليه السلام، أحد السابقين المستضعفين المعذبين، ورفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر في هجرتهما إلى المدينة المنورة، شهد بدرًا وأحدًا، ثم قتل يوم بدر معونة قتله عامر ابن الطفيل. الإصابة 3/594-595. الاستيعاب 2/796-797.

العباس بن عباد

العباد بن عباد بن نضلة، الأنصاري، الخزرجي، شهد بيعة العقبة الثانية، وأقام بمكة حتى هاجر مع من هاجر إلى المدينة، فكان يقال له مهاجري أنصاري، وأخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عثمان بن مظعون، قتل يوم أحد شهيدًا. الإصابة 3/630-631، الاستيعاب 2/810.

عبد الله بن أبي أوفى

عبد الله بن أبي أوفى، واسمه علقمة، بن خالد بن الحارث، الأسلمي، له ولأبيه صحبة، شهد الحديبية وحضر بيعة الرضوان، نزل الكوفة وكان آخر من مات بها من الصحابة. الإصابة 4/18-19، سير أعلام النبلاء 3/428-430.

عبد الله بن أبي بكر

عبد الله بن أبي بكر الصديق، واسم أبي بكر عبد الله بن عثمان، فهو سمي أبيه وشقيق أسماء، أسلم قديمًا، وهو الذي كان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباه بأخبار قريش وهما في الغار يوم الهجرة، مات في خلافة أبيه سنة إحدى عشرة.

الإصابة 4/27-29، الاستيعاب 3/874-875.

عبد الله بن حذافة

عبد الله بن حذافة بن قيس، القرشي، السهمي، من السابقين لأولين، هاجر إلى الحبشة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى، وله قصة مشهورة لما أسر في إحدى غزوات الروم، شهد فتح مصر ومات بها في خلافة عثمان.

الإصابة 57/4-59، سير أعلام النبلاء 11/2-12.

عبد الله بن أبي ربيعة

عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، أبو عبد الرحمن، القرشي، يوم الفتح، ولاء رسول الله ﷺ الجند - ولاية - باليمن - توفي آخر خلافة عثمان وهو قادم لنصرته.

الإصابة 79/4-80، أسد الغابة 232/3-233.

عبد الله بن زمعة

عبد الله بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد، القرشي، الأسدي، ابن أخت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، من أشرف قريش، قتل يوم الدراسة سنة خمس وثلاثين.

الإصابة 95/4-96، الاستيعاب 910/3-912.

عدي بن حاتم

عدي بن حاتم بن عبد الله، أبو وهب الطائي، الأمير الشريف، ولد حاتم طي الذي يضرب بجموده المثل، أسلم في سنة تسع، وقبل سنة عشر، وكان نصرانيا قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردة، وشهد فتح العراق، توفي سنة سبع وستين.

الإصابة 469/4-472، سير أعلام النبلاء 162/3-165.

عقيل بن أبي طالب

عقيل بن أبي طالب، أخو علي وجعفر، وأكبر منهما سناً، كان سريع الجواب، علماً بأساب قريش، أسلم عام الفتح، وشهد غزوة مؤتة، مات في أول خلافة يزيد.

الإصابة 531/4-532، سير أعلام النبلاء 218/1-219.

عمرو بن عبسة

عمرو بن عبسة بن خالد السلمي، أحد السابقين إلى الإسلام، اعتزل الأوثان في الجاهلية، أسلم بمكة قديماً ثم رجع إلى قومه حتى هاجر بعد خير وشهد فتح مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان من أمراء الجيش يوم اليرموك، نزل حمص، ومات بها في أواخر خلافة عثمان.

عياش بن أبي ربيعة

عياش بن أبي ربيعة، واسم أبي ربيعة عمرو بن المغيرة، القرش ورافق عمر بن الخطاب في هجرته إلى المدينة، إلا أن أبا جهل لحق به وخذعه فعاد معه إلى مكة حيث حبس، ودعا له رسول الله ﷺ، وتمكن من الهجرة بعد زمن، واستشهد يوم اليرموك.

الإصابة 750/4، أسد الغابة 320/4-320.

أبو قحافة

عثمان بن عامر بن عمرو، القرشي، التيمي، الو قحافة، والد أبي بكر الصديق، أسلم يوم الفتح، وتوفي في خلافة عمر سنة أربع عشرة، وله سبع وتسعون سنة.

الإصابة 4452-454، الاستيعاب 1732/4-1733.

كعب بن زيد

كعب بن زيد بن قيس، الأنصاري، شهد بدرًا، وقتل يوم الخندق شهيدًا، وكان قد نجا يوم بدر معونة وحده حين قتل سائر أصحابه.

الإصابة 596/5-597، الاستيعاب 1371/3.

كوز بن علقمة

كوز بن علقمة، ويقال كرز، النجراي، من بني بكر بن وائل، قدم على رسول الله ﷺ وهو نصراني مع وفد نجران ثم أسلم بعد ذلك.

الإصابة 584/5-586.

مالك بن الدخشم

مالك بن الدخشم بن مالك بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف، شهد بدرًا، وهو الذي تولى إحراق مسجد الضرار مع معن بن عدي بأمر رسول الله ﷺ.

أسد الغابة 22/5-23، الإصابة 721/5-722.

محمد بن مسلمة

محمد بن مسلمة بن سلمة، الأنصاري، الأوسي، الحارثي، حليف بني الأشهل، أسلم على يد مصعب بن عمير، من فضلاء الصحابة، بدرًا والمشاهد بعدها إلا غزوة تبوك فإنه تخلف عنها بإذن النبي ﷺ، استخلفه الرسول ﷺ على المدينة في بعض غزواته، اعتزل الفتنة فلم يشهد الجمل ولا صفين، ومات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين، وهو ابن سبع وسبعين.

الإصابة 6/ 33-34، سير أعلام النبلاء 2/ 369-373.

المسيب بن حزن

المسيب بن حزن بن أبي وهب، القرشي، المخزومي، والد سعيد بن المسيب، له ولأبيه صحبة، وكان ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتوح الشام.

الإصابة 6/ 121-122، الاستيعاب 3/ 1400.

معن بن عدي

معن بن عدي بن الجند بن العجلان، الأنصاري، العجلاني، البلوي، من حلفاء بني مالك بن عوف، شهد العقبة وبدرا والمشاهد كلها، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة.

الإصابة 6/ 465، أسد الغابة 5/ 238.

المغيرة بن شعبة

المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي، أسلم قبل الخديبية، وشهدها وبيعة الرضوان، من دهاة العرب، ولاه عمر البصرة، ثم الكوفة أصيبت عينه باليرموك، وكان رسول سعد إلى رستم، مات سنة خمسين.

الإصابة 6/ 197-200، سير أعلام النبلاء 3/ 21-32.

المقداد بن عمرو

المقداد بن عمرو بن ثعلبة، القضاعي، الكندي، البهراني، اشتهر بالمقداد بن الأسود لأنه حالف الأسود بن عبد يغوث الزهري في الجاهلية فتنه، هاجر المهجرتين، وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله وسلم، مات بالمدينة في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين سنة.

الإصابة 6/ 203-204، سير أعلام النبلاء 1/ 385-389.

المنذر بن عمرو

المنذر بن عمرو بن خنيس، الأنصاري الخزرجي ثم الساعدي، شهد بيعة العقبة وكان نقيب بني ساعدة هو وسعد بن عباد، حضر بدرا وأحدا، واستشهد يوم بدر معونة.

الإصابة 6/ 217-218، أسد الغابة 5/ 259-270.

هشام بن العاص

هشام بن عاص بن وائل السهمي، أسلم قديما، وهاجر إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة حين علم بالهجرة إلى المدينة فحبسه قومه، حتى تمكن من الخروج مهاجرا بعد غزوة الخندق، وشهد المشاهد بعدها، واستشهد يوم اليرموك.

الإصابة 540/6-541، سير أعلام النبلاء 77/3-79.

الوليد بن الوليد

الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، أخو خالد بن الوليد، أسلم بعد بدر، فحبسه أخواله، فكان النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد عمرة القضاء.

الإصابة 619/6-622، أسد الغابة 454/5-455.

الأعلام من التابعين ومن بعدهم رحمهم الله تعالى

إبراهيم النخعي

إبراهيم بن يزيد، أبو عمران النخعي، اليماني ثم الكوفي، الإمام الحافظ، من أعلام التابعين، فقيه العراق، توفي سنة ست وستين.
سير أعلام النبلاء 4/520-، صفة الصفوة 3/86-90.

ابن الأثير

المبارك بن محمد بن محمد، محمد الدين أبو السعادات، الشيباني الجزري، ثم الموصلين الكاتب ابن الأثير، المحدث اللغوي العلامة، توفي سنة ست وستمئة، من كتبه: جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث.
سير أعلام النبلاء 21/488-491، الأعلام 5/272.

أحمد بن يحيى

أحمد بن يحيى بن يزيد، الشيباني مولاهم البغدادي، أبو العباس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللفظ، مشهور بالحفظ، توفي ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين، من كتبه: الفصيح، وإعراب القرآن.
سير أعلام النبلاء 14/5-7، الأعلام 1/267.

ابن إسحاق

محمد بن إسحاق بن يسار، أبوبكر القرشي المطلبي مولاهم المدني، إمام المغازي، وصاحب السيرة النبوية، صدوق يدلّس، نزل العراق، ومات ببغداد سنة احدى وخمسين ومائة.
تهذيب التهذيب 9/34-40، سير أعلام النبلاء 7/33-55.

الآلوسي

محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي، شهاب الدين، مفسر محدث أديب، ولد ببغداد، توفي بها سنة سبعين ومائتين وألف، ونسبة أسرته إلى جزيرة آلوس في وسط نهر الفرات، من مصنفاته روح المعاني في التفسير.
الأعلام 7/176-177.

البخاري

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله البخاري، الإمام الشهير ولد ببخارى، رحل في طلب الحديث فزار خراسان والعراق ومصر والشام وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ستمائة ألف حديث، توفي بمخرنك من

قرى ممرقند سنة ست وخمسين ومائتين، من أشهر مصنفاته: الجامع المسند الصحيح، والمعروف بصحيح البخاري.

الأعلام 34/6، سير أعلام النبلاء 12/391-471.

البغوي

الحسين بن مسعود بن محمد، البغوي، شيخ الإسلام، محي السنة، الشافعي الفقيه، المفسر المحدث، نسبته إلى بغا من قرى خراسان، توفي بمرو سنة ست عشرة وخمسة، من مصنفاته معالم التنزيل في التفسير ومصابيح السنة.

سير أعلام النبلاء 19/439-443، الأعلام 2/259.

الترمذي

محمد بن عيسى، السلمي الترمذي، من أئمة علماء الحديث، معروف بالحفظ والزهد والورع، تتلمذ للبخاري وشاركه في بعض شيوخه، رحل في طلب العلم إلى خراسان والعراق والحرمين، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين من مصنفاته الجامع الصحيح المعروف بسنن الترمذي، وكتاب الشمائل سير أعلام النبلاء 13/277-277، الأعلام 6/322.

ابن تيمية

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية، الإمام شيخ الإسلام، مشهود له بالبراعة في التفسير ولأصول، وسعة العلم في المنقول والمقول، أودى وسجن، وتوفي في معتقله سنة ثمان وعشرين وسبع مائة. من مصنفاته: منهاج السنة، والإيمان. الدرر الكامنة 1/154-169، الأعلام 1/144.

ابن جريج

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الأموي مولاهم المكي، شيخ الحرم في ومانع وأول من دون العلم بمكة، ثقة فقيه فاضل، صاحب تعبد ومجدد، توفي سنة خمسين ومائة. سير أعلام النبلاء 6/325-336، تقريب التهذيب 1/520.

ابن جرير الطبري

محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، الإمام العلم المجتهد كان رأساً في التفسير، إماماً في الفقه، علامة في التاريخ، عارفاً بالقراءات واللغة، توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة، من مصنفاته: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، وتهذيب الآثار.

سير أعلام النبلاء 267/14-282، شذرات الذهب 260/2.

أبو جعفر النحاس

أحمد بن محمد بن إسماعيل، أبو جعفر، المصري النحوي، العلامة إمام العربية، ارتحل إلى بغداد وأخذ عن الزجاج، توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، من كتبه: إعراب القرآن، وكتاب المعاني. سير أعلام النبلاء 401/15-402.

ابن الجوزي

عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج علامة عصره في التاريخ والحديث، توفي ببغداد سنة سبع وتسعين وخمسمائة من كتبه: تلبس إبليس، وصيد الخاطر. الأعلام 316/3-317.

الجوهري

إسماعيل بن حماد، أبو نصر التركي، إمام اللغة، مصنف كتاب الصحاح، سافر ورحل في طلب لسان العرب، توفي بنيسابور سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة. سير أعلام النبلاء 80/17-82.

ابن أبي حاتم

عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس أبو محمد التميمي الحنظلي الرازي، من أئمة الحديث. توفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، من كتبه: الجرح والتعديل، والمراسيل. الأعلام 324/3.

أبو حازم

سلمة بن دينار، أبو حازم، المدني المخزومي مولا هم الأعرج تابعي ثقة، توفي بعد سنة أربعين ومائة. سير أعلام النبلاء 96/6-103.

الحاكم

محمد بن عبد الله بن محمد، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، الإمام العلامة، المحدث الناقد، توفي سنة خمس وأربعمائة، من مصنفاته: معرفة علوم الحديث، ومستدرک الصحيحين. سير أعلام النبلاء 162/17-177.

ابن حجر

أحمد بن علي بن محمد، أبو الفضل، الكتاني، العسقلاني، المصري الشافعي، شهاب الدين، المعروف بابن حجر، الإمام الحافظ، أقبل على الحديث ورحل في طلبه، ولي قضاء مصر، مشهور في علم الرجال معول عليه، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، من تصانيفه: فتح الباري شرح صحيح البخاري، وتهذيب التهذيب. شذرات الذهب 270/7 - 273، الأعلام 178/1.

الحسن البصري

الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد البصري، من أئمة التابعين، وأحد العلماء الفقهاء، معروف بفصاحته وشجاعته، وزهده وعبادته، توفي بالبصرة سنة عشر ومائة. سير أعلام النبلاء 563/4 - 588، الأعلام 226 / 2.

حمزة الزيات القاري

حمزة بن حبيب بن عمارة، الزيات، أبو عمارة التيمي مولا هم الكوفي، شيخ القراءة، صدوق زاهد ورع، عالم بالحديث والفرائض، توفي سنة ست وخمسين ومائة. تقريب التهذيب 1 / 199، سير أعلام النبلاء 90/7 - 92.

أبو حيان

محمد بن يوسف بن علي، أبو حيان، الأندلسي، الغرناطي، أثر الدين، المفسر، المؤرخ إمام النحو واللغة، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة، من تصانيفه: البحر المحيط في التفسير، ونحاة الأندلس. شذرات الذهب 145/6 - 146.

الخليل بن أحمد

الخليل بن أحمد بن عمرو، الأزدي الفراهيدي، أبو عبد الرحمن البصري، من أئمة اللغة، وواضع علم العروض، كان ديناً ورعاً مفرط الذكاء، توفي سنة ضع وستين ومائة، من كتبه: العين، ومعاني الحروف. تقريب التهذيب 1 / 228، الأعلام 314/2، سير أعلام النبلاء 429 / 7 - 431.

الذهبي

محمد بن أحمد بن عثمان، أبو عبد الله، التركماني، الذهبي، شمس الدين، الإمام المحدث، العلامة النافذ، رحل ي طلب الحديث ومهر فيه، كان حديد الفهم ثاقب الذهن، توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، من كتبه: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، وسير أعلام النبلاء. الدرر الكامنة 426/3 - 427، شذرات الذهب 153/6 - 156.

الربيع بن أنس

الربيع بن أنس بن زياد البكري، بصري نزل خراسان، سمع من أبي العالية و أكثر عنه، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة.

سير أعلام النبلاء 6/ 269-170، تقريب التهذيب 1/ 243.

الزجاج

إبراهيم بن محمد، أبو إسحاق الزجاج، البغدادي، الإمام، نحوي عصره، توفي سنة احدى عشرة وثلاثمائة، من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق.

سير أعلام النبلاء 14/ 360.

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب، أبو بكر، القرشي، الزهري، تابعي من أهل المدينة، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ الفقهاء، نزل الشام واستقر بها، توفي سنة أربع وعشرين ومائة.

سير أعلام النبلاء 5/ 326-350. صفة الصفوة 2/ 136-139.

ابن زيد

محمد بن زيد بن المهاجر، القرشي، التيمي، المدني، تابعي ثقة.

تهذيب التهذيب 9/ 153، تقريب التهذيب 1/ 162 ب.

زيد بن أسلم

زيد بن أسلم، أبو عبد الله العدوي مولا هم المدني، من علماء التابعين، ثقة حجة، فقيه عابد، كانت له حلقة في مسجد رسول الله ﷺ توفي سنة وثلاثين ومائة.

تقريب التهذيب 1/ 272، ميزان الاعتدال 2/ 98.

السدي

إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، أبو محمد السدي الكوفي، أحد موالى قريش، من أئمة التفسير، توفي سنة سبع وعشرين ومائة.

سير أعلام النبلاء 5/ 264-265.

السعدي

عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، التميمي الحنبلي، قرأ على الشيخ صالح بن عثمان قاضي عنيزة ، والشيخ محمد الشنقيطي نزيل الحجاز، وغيرهما، وانتهت إليه رئاسة العلم في القصيم كان منقطعا للعلم والتعليم، توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف، من مؤلفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مشاهير علماء نجد 422/2-431.

أبو السعود

محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، الإمام العلامة المفسر، كان حاضرا ذهن سريع البديهة، ولي قضاء القسطنطينية وغيرها، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة، من مصنفاته: إرشاد السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، والذي اشتهر بتفسير أبي السعود. شذرات الذهب 398/8-400، الأعلام 59/7.

أبو زيد

سعيد بن أوس بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، النحوي البصري، روى له الترمذي حديثا في تفسيره سور الشعراء، توفي سنة أربع عشرة ومائتين. تهذيب التهذيب 4/4-5، تقريب التهذيب 1/291، ميزان الاعتدال 2/126-127.

سعيد بن جبير

سعيد بن جبير بن هشام، الأسدي الوالي مولاها الكوفي، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، روى عن ابن عباس فأكثر وجود، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين. سير أعلام النبلاء 4/321-343، صفة الصفوة 3/77-86.

سعيد بن المسيب

سعيد بن المسيب بن حزن، أبو محمد القرشي المخزومي، من الفقهاء الثقات، والأخيار الفضلاء، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، توفي بالمدينة سنة أربع وتسعين. تهذيب التهذيب 4/74-77، صفة الصفوة 2/79-82، سير أعلام النبلاء 4/217-246.

سعيد بن مينا

سعيد بن مينا، أبو الوليد الحجازي، إمام تابعي ثقة، حدث عنه محمد بن إسحاق وغيره. سير أعلام النبلاء 5/245.

السَّهْلِي

عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، الخثعمي السهلي، عالم باللغة والسير، توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، من كتبه: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام.
سير أعلام النبلاء 3/ 313

سَبِيويه

عمرو بن عثمان، أبو بشر الفارسي ثم البصري، إمام النحو، طلب الفقه والحديث مدة، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل عصره، توفي سنة ثمانين ومائة.
سير أعلام النبلاء 8/ 351-352

سَيِّد قُطْب

سيد بن قطب بن إبراهيم، من المفكرين الإسلاميين، والدعاة المعاصرين، سجن ثم قتل شهيدا إن شاء الله سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف، من كتبه: في ظلال القرآن، الإسلام ومشكلات الحضارة.
سير الأعلام 3/ 147-148

الشَّعْبِي

عامر بن شراحيل، أبو عمرو الهمداني ثم الشعبي، من أئمة التابعين، علامة عصره، مشهورة بقوة الحفظ، توفي سنة أربع ومائة.
- سير الأعلام 3/ 147-148

الشُّوكَّانِي

مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن في عصره، ولي قضاء صنعاء، توفي سنة خمسين ومائتين وألف، من كتبه: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة.
سير الأعلام 6/ 298

أبو صالح

بإدام، مولى أم هانئ بنت أبي طالب، تابعي، قال ابن عدي: عامة ما يرويه تفسير.
ميزان الاعتدال 1/ 296، تهذيب التهذيب 1/ 364-365، سير أعلام النبلاء 5/ 37-38

الصَّحَّاحُ

الضحاك بن مزاحم الهلالي، مفسر مشهور، من أوعية العلم، وثقه أحمد ويحيى بن معين وغيرهما، توفي سنة ست ومائة.

تهذيب التهذيب 4/ 397-398، سير أعلام النبلاء 4/ 598-600

عاصم بن عمر بن قتادة

عاصم بن عمر بن قتادة بن النعمان، الظفري الأوسى الأنصاري، ألو معر المدني، ثقة عالم بالمغازي، حدث عنه ابن إسحاق وكان يعتمد عليه كثيرا، توفي سنة عشرين ومائة.

- تقريب التهذيب 1/ 385، سير أعلام النبلاء 5/ 240-241

أبو العالية

رفيع - بالتصغير - ابن مهران، أبو العالية الرياحي، كان مولى لامرأة من بني رياح، تابعي ثقة، من أعلام المفسرين، توفي سنة تسعين.

ميزان الاعتدال 2/ 54، تقريب التهذيب 1/ 252، صفة الصفوة 3/ 211-212، سير أعلام النبلاء 4/ 207-213.

ابن عبد البر

يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، أبو عمر، النمرى، القرطبي، المالكي، فقيه مؤرخ أديب، من كبار حفاظ الحديث، ولى قضاء لشبونة، وتوفي بشاطبة سنة ثلاث وستين وأربعمائة، من كتبه: جامع بيان العلم وفضله، والاستيعاب في معرفة الأصحاب.

سير الأعلام 8/ 240

عبد الرحمن بن زيد

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، العدوي مولاهم المدني، ضعيف، روى التفسير عن أبيه زيد بن أسلم، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة.

تقريب التهذيب 1/ 480، ميزان الاعتدال 2/ 564-566

عبد الله بن أبي بكر

عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أبو محمد الأنصاري المدني، صاحب المغازي وشيخ ابن إسحاق، ثقة، توفي سنة خمس وثلاثين ومائة، وهو ابن سبعين سنة.

سير أعلام النبلاء 5/ 314-315، تقريب التهذيب 1/ 405

عبد الله بن المبارك

عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن، الحنظلي مولاهم التركي ثم المروزي، الإمام الحافظ، حديثه حجة بالإجماع، ارتحل إلى الحرمين والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان، جمع الحديث والفقه والعريية وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة، توفي سنة إحدى وثمانين ومائة.
سير أعلام النبلاء 8/ 378-421.

أبو عبيد

القاسم بن سلام بن عبد الله، أبو عبيد البغدادي، عالم بالقراءات والغريب والفقه واللغة، ثقة ورع فاضل، تولى القضاء بطرسوس ثمان عشرة سنة، ثم خرج إلى مكة وتوفي بها سنة أربع وعشرين ومائتين، من مصنفاته: كتاب غريب الحديث، وكتاب الأموال.
تقريب التهذيب 2/ 117، صفة الصفوة 4/ 130-132، الأعلام 5/ 176 سير أعلام النبلاء 10/ 490-509.

عبيد بن عمير

عبيد بن عمير بن قتادة، اليثي الجندعي المكي، الراعظ المفسر، من ثقات التابعين وأئمتهم، توفي سنة ثمان وستين.
سير أعلام النبلاء 4/ 156-157

عبيد الله بن المغيرة

عبيد الله بن المغيرة بن معيقب السبائي، أبو المغيرة المصري، وثقه العجلي، وقال أبو حاتم صدوق، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة.
تهذيب التهذيب 7/ 45-46.

عتبة بن أبي حكيم

عتبة بن أبي حكيم، الحمداني ثم الشعباني، أبو العباس الأردني، صدوق يخطئ كثيرا، توفي بصور سنة سبع وأربعين ومائة.
تهذيب التهذيب 7/ 87، تقريب التهذيب 2/ 4

ابن العربي

نجد بن عبد الله، أبو بكر ابن العربي، الأندلسي، الاشبيلي، المالكي، الإمام العلامة، الحافظ القاضي، كان ثاقب الذهن فصيحا بليغا، ولي قضاء إشبيلية، وصنف في العديد من فنون العلم، توفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، من تصانيفه: أحكام القرآن، والعواصم من القواصم.
سير أعلام النبلاء 20/ 197-204، الأعلام 6/ 230

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد، أبو عبد الله القرشي، الأسدي، مدني تابعي ثقة، أحد الفقهاء السبعة، لازم خالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، توفي سنة ثلاث وتسعين.
- سير أعلام النبلاء 4/ 421-437، صفة الصفوة 2/ 85-88، الأعلام 4/ 226

عطاء الحرساني

عطاء بن أبي مسلم الحرساني، نزيل بيت المقدس، مفسر، وثقه أحمد وبجي بن معين وغيرهما، عرف بالتهجد والجهاد، توفي سنة خمس وثلاثين ومائة.
سير أعلام النبلاء 6/ 140-143، الأعلام 4/ 235، صفة الصفوة 4/ 150-152

عطية القوفي

عطية بن سعد بن جنادة، العوفي الكوفي، أبوالحسن، تابعي مشهور ضعيف الحديث، توفي سنة إحدى عشرة ومائة.
تهذيب العنذيب 7/ 200-202، ميزان الاعتدال 3/ 79-80، سير أعلام النبلاء 5/ 325-326.

عكرمة

عكرمة بن عبد الله، مولى ابن عباس، أبو عبد الله المدني، بربري الأصل، تابعي ثقة، من علماء التفسير المشهورين، توفي سنة أربع ومائة، وهو ابن ثمانين سنة.
تهذيب التهذيب 7/ 234-242، تقريب التهذيب 2/ 30، صفة الصفوة 2/ 103-105، سير أعلام النبلاء 5/ 12-36

على بن أبي طلحة

على بن أبي طلحة، مولى بني العباس، أرسل عن ابن عباس ولم يره صدوق قد يخطئ، يعد في أهل حمص، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائة.
تقريب التهذيب 2/ 39، ميزان الاعتدال 3/ 134

أبو عمرو

أبو عمرو بن العلاء بن عمار، التميمي، ثم المازني البصري، المقرئ الإمام، عالم أهل البصرة، حجة في القراءة، بارز في النحو، مقل في رواية الحديث، مشهور بالفصاحة والصدق وسعة العلم، توفي سنة أربع وخمسين ومائة.

سير أعلام النبلاء 4/ 410، ميزان الاعتدال 4/ 556.

الفخر الرازي

محمد بن عمر بن الحسن، أبو عبد الله، التيمي البكري، فخر الدين الرازي، الإمام المفسر، توفي في هراة سنة ست وستمائة، من كتبه: مفاتيح الغيب والمعروف بالتفسير الكبير أو تفسير الفخر الرازي، والمحصل في علم الأصول.

الأعلام 6/ 313

الفراء

يحيى بن زياد بن عبد الله، أبو زكريا الأسدي مولاهم الكوفي، المعروف بالفراء، العلامة النحوي، توفي سنة سبع ومائتين، من تصانيفه: معاني القرآن.

سير أعلام النبلاء 10/ 118-121

القاسمي

جمال الدين، أو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق من أئمة الشام في عصره، رحل إلى مصر والمدينة وتوفي بدمشق سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف، من كتبه: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ومحاسن التأويل في التفسير.

الأعلام 2/ 135

قتادة بن دعامة

قتادة بن دعامة، أبو الخطاب السدوسي البصري، حافظ مفسر ثقة، من أوعية العلم، مشهورة بقوة الحفظ، توفي سنة سبع عشرة ومائة.

تهذيب التهذيب 8/ 315-319، ميزان الاعتدال 3/ 385، صفة الصفوة 3/ 259، سير أعلام النبلاء 5/ 269-283.

ابن قُتَيْبَة

عبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبو عُثْجَد، علامة ثقة فاضل، رأس في علم اللسان العربي، توفي سنة ست وسبعين ومائتين، من تصانيفه: غريب القرآن، وعيون الأخبار.
سير أعلام النبلاء 13/ 296-302.

الْقُرْطُبِي

عُثْجَد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج، أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي القرطبي إمام علم، من الفواصين على معاني الحديث، حسن التصنيف جيد النقل، توفي بمصر سنة إحدى وسبعين وستمائة، من مصنفاته الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأمور الآخرة.
شذرات الذهب 5/ 335

قيس بن أبي حازم

قيس بن أبي حازم البجلي، أبو عبد الله الكوفي، محضرم، ويقال له رؤية، ثقة حجة، توفي سنة ثمان وتسعين. تقريب التهذيب 2/ 127، ميزان الاعتدال 3/ 392-393، سير أعلام النبلاء 4/ 198-202

ابن القيم

عُثْجَد بن أبي بكر بن أيوب، أبو عبد الله الزرعي الدمشقي، شمس الدين بن قيم الجوزية، الإمام العلامة، تلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، واسع العلم، حريص الجنان، حسن الخلق، عارف بمذاهب السلف، توفي بدمشق سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، من كتبه: مفتاح دار السعادة، وزاد المعاد.
الدرر الكامنة 4/ 21-23، الأعلام 6/ 56

ابن كثير (المفسر)

إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، عماد الدين، البصري ثم الدمشقي، الإمام الجافظ، المؤرخ المحدث والفقير المفسر، لازم الحافظ المزني وتزوج ابنته، وأخذ عن ابن تيمية فأكثر عنه، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة، من مصنفاته: تفسير القرآن العظيم، والبداية والنهاية.
شذرات الذهب 6/ 231-232، الأعلام 1/ 320، الدرر الكامنة 1/ 399-400

ابن كثير (القارئ)

عبد الله بن كثير بن عمرو، أبو معبد الكنانى الدارى المكى، أحد القراء السبعة، مقرئ مكة، صدوق، قليل الحديث، واعظ فصيح مفوه، توفي سنة اثنتين وعشرين ومائة.
سير أعلام النبلاء 5/ 317-322، تقريب التهذيب 1/ 442.

الكسائي

علی بن حمزة بن عبد الله، أبو الحسن الأسدي مولاہم الكوفي، الملقب بالكسائي لكسائي أحرم فيه، أحد القراء السبعة، شيخ في القراءة وإمام في النحو، ومن تصانيفه: معاني القرآن، وكتاب في القراءات، توفي سنة تسع وثمانين ومائة.

سير أعلام النبلاء 9/ 131-132

أبو ليلى الكندي

سلمة بن معاوية، أبو ليلى الكندي مولاہم الكوفي، تابعي ثقة.
تهذيب التهذيب 12/ 237، تقريب التهذيب 2/ 467

أبو مالك

غزوان الغفاري، أبو مالك الكوفي، ثقة، مشهور بكنيته.
- تهذيب التهذيب 7/ 220، تقريب التهذيب 2/ 105

المُبرّد

مُحَمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبو العباس، الأزدي، البصري، إمام النحو، فصيح مفوه، توفي سنة ست وثمانين ومائتين.
سير أعلام النبلاء 13/ 576-577

مجاهد

مجاهد بن جبر، أبو الحجاج، المخزومي مولاہم المكي، إمام ثقة، شيخ القراء والمفسرين، أخذ القرآن والتفسير والفقه عن ابن عباس، توفي سنة اثنتين ومائة.
سير أعلام النبلاء 4/ 449-457، تقريب التهذيب 2/ 229، صفة الصفوة 2/ 208-211

مُحَمَّد بن كعب القرظي

مُحَمَّد بن كعب، القرظي، المدني، من حلفاء الأوس، تابعي ثقة ورع، من أئمة التفسير، وأوعية العلم، توفي سنة عشرين ومائة.
تقريب التهذيب 2/ 203، سير أعلام النبلاء 5/ 65-68، صفة الصفوة 2/ 132-134

مسلم

مسلم بن الحجاج بن مسلم، أبو الحسين، القشيري، النيسابوري، الإمام الحافظ الحجة، صاحب الصحيح، ارتحل في طلب الحديث وسماعه إلى العراق والحرمين ومصر والشام، توفي بنيسابور سنة إحدى وستين ومائتين عن بضع وخمسين سنة
سير أعلام النبلاء 12/ 557-580، الأعلام 7/ 221-222.

مقاتل بن حيان

مقاتل بن حيان، أبو بسطام النبطي البلخي، الخراز، الإمام العالم المحدث الثقة، صاحب سنة ونسك وفضل، توفي في حدود الخمسين ومائة.
سير أعلام النبلاء 6/ 340-341

موسى بن عقيب

موسى بن عقيب بن أبي عياش، أبو محمد القرشي مولاها الأسدي، عداة في صغار التابعين، إمام في المغازي، ثقة حجة، توفي سنة إحدى وأربعين ومائة.
ميزان الاعتدال 4/ 214، تقريب التهذيب 2/ 486، سير أعلام النبلاء 6/ 114-11

ميمون بن مهران

ميمون بن مهران، أبو أيوب الجزري الرقي، ثقة فقيه، من أئمة التابعين، توفي سنة سبع عشرة ومائة.
سير أعلام النبلاء 5/ 71-78، تقريب التهذيب 2/ 292

النسفي

عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو البركات النسفي، فقيه حنفي، مفسر، نسبته إلى نسف ببلاد السند بين جيحون وسمرقند، توفي سنة عشر وسبعمائة، من مصنفاته: مدارك التنزيل في التفسير، والمنار في أصول الفقه.
الأعلام 4/ 67-68، الدرر الكامنة 2/ 352

النوى

يحيى بن شرف الحوراني، النوى، الشافعي، أبو زكريا، محي الدين علامة في الفقه والحديث، ولد في نوا من قرى حوران بسورية، وإليها نسبته، ومما توفي سنة ست وسبعين وستمائة، من مصنفاته: التقريب والتيسير في مصطلح الحديث، وشرح المذهب للشيرازي.
الأعلام 8/ 149-150

ابن هشام

عبد الملك بن هشام بن أيوب، أبو محمد الذهلي، المعافري، البصري العلامة النحوي الأخباري، نزيل مصر، هذب السيرة النبوية، وممعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق، توفي سنة ثمان عشرة ومائتين. سير أعلام النبلاء 10/ 428-429

الهيثمي

علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، أبو الحسن، نور الدين، المصري، توفي سنة سبع وثمانائة، من مصنفاته: مجمع الزوائد ومنيع الفوائد وموارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. سير أعلام النبلاء 4/ 266

أبو وائل

شقيق بن سلمة، أبو وائل، الأسدي الكوفي، محضرم أدرك النبي ﷺ ومارآه، قال يحيى بن معين: أبو وائل ثقة لا يسأل عن مثله، توفي سنة اثنتين وثمانين. - سير أعلام النبلاء 4/ 161-166

الواحدى

علي بن أحمد بن محمد، أبو الحسن الواحدى، مفسر عالم بالأدب، توفي بنيسابور سنة ثمان ووستين وأربعمائة، من تصانيفه: أسباب النزول. الأعلام 4/ 255

الواقدى

محمد بن عمر بن واقد، أبو عبد الله، الأسلمي مولا هم الواقد المدني، العلامة صاحب التصانيف والمغازي، أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه إذ هو متروك الحديث، قال الذهبي: تقرر أن الواقدى ضعيف يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج، توفي سنة سبع ومائتين. سير أعلام النبلاء 9/ 454-469، الأعلام 6/ 311

يحيى بن عروة

يحيى بن عروة بن الزبير بن العوام، الأسدي، أبوعروة المدني، وثقه النسائي، وذكره ابن حبان في الثقات. تهذيب التهذيب 11/ 226.

يزيد بن رومان

يزيد بن رومان الأسدي، أبو روح المدني، مولى آل الزبير، تابعي ثقة، توفي سنة ثلاثين ومائة.

تهذيب التهذيب 284/11، تقريب التهذيب 364/2.

يزيد بن زياد

يزيد بن زياد، المدني، مولى عبد الله بن عياش المخزومي، ثقة، روى عن محمد بن كعب القرظي وعبد الله بن رافع، وروى عنه مالك وابن إسحاق.

تقريب التهذيب 364/2، تهذيب التهذيب 287/11، ميزان الاعتدال 423/4

أبو يزيد المدني

أبو يزيد المدني، معدود في أهل البصرة، وثقة يحيى بن معين.

تقريب التهذيب 490/2، تهذيب التهذيب 306/12.

اليزيدي

يحيى بن المبارك بن المغيرة، أبو محمد العدوي البصري النحوي، عرف باليزيدي لاتصاله بالأمير يزيد بن منصور خال المهدي، يودب ولده، كان ثقة عالما حجة في القراءة بصيرا بلسان العرب، توفي سنة اثنتين ومائتين، من تصانيفه: نواذر اللغة، والمقصود والممدود.

سير أعلام النبلاء 562-563/9

فهرس المصادر والمراجع

- 1 / القرآن الكريم :
- 2 / أساس البلاغة لمحمود بن عمر الزمخشري أبو القاسم (ت 538 هـ) دار الفكر بيروت ط . د 1399 هـ / 1979 م ج 1 .
- 3 / أسباب النزول لعلي بن أحمد الواحدي أبو الحسن (ت 468 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط . د 1419 هـ / 1998 م ج 1 تحقيق ودراسة : كمال بسيوي زغلول .
- 4 / الاستيعاب في معرفة الأصحاب ليوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري أبو عمر (ت 463 هـ) دار الجيل بيروت ط 1 1412 هـ ج 4 اسم المحقق : علي محمد الجاوي .
- 5 / أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير علي بن محمد الجزري أبو الحسن (ت 630 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت / لبنان ط 1 1417 هـ / 1996 م ج 7 تحقيق : عادل أحمد الرفاعي .
- 6 / أسرار البلاغة لعبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني أبو بكر (ت 471 هـ) ط . د ج .
- 7 / أسرار العربية لعبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي أبو البركات (ت 577 هـ) دار الجيل بيروت ط 1 1415 هـ / 1995 م ج 1 تحقيق : د . فخر صالح قدارة .
- 8 / أسلوب السخرية في القرآن الكريم عبد الحليم حفي
- 9 / تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد بن محمد الحسيني المشهور بالمرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ) دار الهداية للنشر والتوزيع ط . د ج 40 تحقيق جماعة من المحققين .
- 10 / تفسير ابن أبي حاتم (تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ع والصحابة والتابعين) للحافظ عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي (ت 327 هـ) المكتبة العصرية صيدا ط . د ج 10 تحقيق : أسعد محمد الطيب .
- 11 / تفسير ابن أبي زمنين (تفسير القرآن العزيز) لمحمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري أبو عبد الله (ت 399 هـ) الفاروق الحديثة مصر / القاهرة ط 1 1423 هـ / 2002 م ج 5 تحقيق : أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز .

- 12 / تفسير ابن الجوزي (زاد المسير في علم التفسير) لعبد الرحمن ابن الجوزي أبو الفرج (ت 597 هـ)
المكتب الإسلامي بيروت 1404 هـ ط 3 ج 9 .
- 13 / تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) لمحمد بن أحمد بن جزي الكلي (ت 741 هـ) طبعة
دار الكتاب العربي بيروت ط 4 1403 هـ / 1983 م ج 4 .
- 14 / تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) لمحمد بن أحمد بن جزي الكلي (ت 741 هـ) طبعة
دار إحياء التراث العربي لبنان 1425 هـ / 2004 م ط 1 ج 2 .
- 15 / تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب) لعمر بن علي الحنبلي أبو حفص (ت بعد 880 هـ)
(دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 1 1419 هـ / 1998 م ج 20 تحقيق : الشيخ عادل
أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض .
- 16 / تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير من التفسير) للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت 1393 هـ)
(دار سحنون للنشر والتوزيع تونس 1997 م ط . د ج 30 .
- 17 / تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي أبو عبد الله (ت 827 هـ) مركز البحوث
بالكلية الزيتونية تونس ط 1 1986 م ج 2 تحقيق : د . حسن المناعي .
- 18 / تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لعبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي
أبو محمد (ت 546 هـ) دار الكتب العلمية لبنان 1413 هـ / 1993 م ط 1 ج 5
اسم المحقق : عبد السلام عبد الشافي محمد .
- 19 / تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) للحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي أبو الفداء (ت 774 هـ)
(دار الفكر بيروت ط . د 1401 هـ ج 4 .
- 20 / تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود
(951 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 9 .
- 21 / تفسير أبي حيان (البحر المحيط) لمحمد بن يوسف بن حيان الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت
745 هـ) دار الكتب العلمية لبنان / بيروت ط 1 1422 هـ / 2001 م ج 8 تحقيق :
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض وجماعة .

- 22 / تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) لشهاب الدين السيد محمود البغدادي الألوسي (الكبير) البغدادي أبو الفضل (ت 1270 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 30 .
- 23 / تفسير البغوي (معالم التنزيل) للحسين بن مسعود البغوي أبو محمد (ت 516 هـ) دار المعرفة بيروت ط . د ج 4 تحقيق : خالد عبد الرحمن العك .
- 24 / تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للقاضي عبد الله بن محمد الشيرازي البيضاوي أبو سعيد أو أبو الخير (ت 685 هـ) دار الفكر بيروت ط . د ج 5 .
- 25 / تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت 875 هـ) دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي بيروت لبنان ط 1 1418 هـ / 1997م ج 5 تحقيق : علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وشارك في تحقيقه الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح أبو سنة .
- 26 / تفسير الثعلبي (الكشف والبيان) لأحمد بن محمد الثعلبي أبو إسحاق (ت 427 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط 1 1422 هـ / 2002م ج 10 تحقيق : أبو محمد ابن عاشور ومراجعة : نظير الساعدي .
- 27 / تفسير الثوري لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله (ت 161 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1403 هـ ج 1 .
- 28 / تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي (ت 864 هـ) وجلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) دار الحديث القاهرة ط 1 ج 1 .
- 29 / تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن (ت 725 هـ) دار الفكر بيروت / لبنان 1399 هـ / 1979م ط . د ج 7

- 30 / تفسير الخطيب الشربيني (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الخبير) لمحمد بن أحمد الخطيب الشربيني المصري (ت 977 هـ) دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1425 هـ / 2004 م ج 4 خرَجَ آياته وأحاديثه وعلَّقَ حواشيه : إبراهيم شمس الدين .
- 31 / تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لجار الله محمود بن عمر الزمخشري أبو القاسم (ت 538 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 4 تحقيق : عبد الرزاق المهدي .
- 32 / تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 هـ) وبذيله : الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير السكندري (ت 683 هـ) والكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط . د 1429 هـ / 2008 م مجلدين ج 4 ضبط وتوثيق : أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي .
- 33 / تفسير السعدي (تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت 1421 هـ / 2000 م (ط . د) ج 1 اسم المحقق : ابن عثيمين .
- 34 / تفسير السمرقندي (بحر العلوم) نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي أبو الليث (ت 367 هـ) دار الفكر بيروت ط . د ج 3 اسم المحقق : د . محمود مطرجي .
- 35 / تفسير السمعاني (تفسير القرآن) لمنصور بن بحر بن عبد الجبار السمعي أبو المظفر (ت 489 هـ) (دار الوطن الرياض ط 1 1418 هـ / 1997 م ج 6 تحقيق : ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس غنيم .
- 36 / تفسير السمين الحلبي (الدر المنصور في علوم الكتاب المكنون) لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي أبو العباس (ت 756 هـ) دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 1414 هـ / 1994 م ج 6 تحقيق وتعليق : علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وجماعة .

- 37 / تفسير السيوطي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي أبو الفضل (ت 911 هـ) دار الفكر بيروت ط . د 1993 م ج 8 .
- 38 / تفسير الشنقيطي (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت 1393 هـ) دار الفكر بيروت ط . د 1415 هـ / 1995 م ج 9 تحقيق : مكتب البحوث والدراسات .
- 39 / تفسير الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) لمحمد بن علي الشوكاني (ت 1250 هـ) دار الفكر بيروت ط . د ج 5 .
- 40 / تفسير الصنعاني (تفسير القرآن) لعبد الرزاق بن همام الصنعاني أبو بكر (ت 211 هـ) مكتبة الرشد الرياض ط 1 1410 هـ / 1989 م ج 3 تحقيق : د. مصطفى مسلم محمد .
- 41 / تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لمحمد بن جرير الطبري أبو جعفر (ت 310 هـ) دار الفكر بيروت ط . د 1405 هـ ج 30 .
- 42 / تفسير العز (تفسير القرآن) لسلطان العلماء عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي (وهو اختصار النكت للماوردي) (ت 660 هـ) دار ابن حزم بيروت ط 1 1416 هـ / 1996 م ج 3 تحقيق وتعليق : د . عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الوهيبي .
- 43 / تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب) لفخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمي (ت 606 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1421 هـ / 2000 م ج 32 .
- 44 / تفسير القاسمي (محاسن التأويل) لمحمد جمال الدين القاسمي (ت 1332 هـ) دار الفكر بيروت / لبنان ط 2 1398 هـ / 1978 م 10 مجلدات ج 17 .
- 45 / تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) لمحمد بن أحمد القرطبي أبو عبد الله (ت 671 هـ) دار الشعب القاهرة ط . د ج 20 .
- 46 / تفسير القشيري (لطائف الإشارات) لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري أبو القاسم الشافعي (ت 465 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 1 1420 هـ / 2000 م ج 3 تحقيق : عبد اللطيف حسن عبد الرحمن .

47 / التفسير القيم لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية أو ابن القيم (ت 751 هـ) دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط . د ج 1 .

48 / تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) لعبد الله بن أحمد النسفي أبو البركات (ت 710 هـ) ط . د ج 4 .

49 / تفسير الواحدي (الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) لعلي بن أحمد الواحدي أبو الحسن (486 هـ) دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت ط 1 1415 هـ ج 2 تحقيق : صفوان عدنان داوودي .

50 / التفسير الوسيط للقرآن الكريم للدكتور محمد سيد طنطاوي دار فضة مصر القاهرة ط . د ج 15 .

51 / تفسير آيات من القرآن الكريم للشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (ت 1206 هـ) مطابع الرياض الرياض ط 1 ج 1 تحقيق : د . محمد بلتاجي .

52 / تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت 728 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 1 1416 هـ / 1996 م ج 6 تحقيق : الشيخ زكريا عمران .

53 / تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم لمحمد بن أبي نصر الحميدي (ت 488 هـ) مكتبة السنة القاهرة / مصر ط 1 1415 هـ / 1995 م ج 1 تحقيق : الدكتور : زبيدة محمد سعيد عبد العزيز .

54 / تفسير مجاهد بن جبر المخزومي أبو الحجاج (ت 104 هـ) المنشورات العلمية بيروت ط . د ج 2 اسم المحقق : عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي .

55 / تفسير مقاتل لمقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي أبو الحسن (ت 150 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1424 هـ / 2003 م ج 3 تحقيق : أحمد فريد .

- 56 / التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي (ت 1398 هـ) دار الأرقم بن أبي الأرقم بيروت / لبنان ط . د ج 3 قام بضبط نصوصه وخرج آياته وأحاديثه : أحمد الزعبي .
- 57 / تقريب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر المسقلاني أبو الفضل (ت 852 هـ) دار الرشيد سوريا ط 1 1406 هـ / 1986 م ج 1 تحقيق : محمد عوامة .
- 58 / الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزعبي الدمشقي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية أو ابن القيم (ت 751 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط . د ج 1 .
- 59 / الجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر محمد بن نصر الله القرشي أبو محمد المعروف بابن أبي الوفاء الحنفي (ت 775 هـ) نشر : مير محمد كتب خانة كراتشي ط . د ج 2 .
- 60 / حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزعبي الدمشقي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية أو ابن القيم (ت 751 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط . د ج 1 .
- 61 / دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر (ت 458 هـ) مؤسسة البراق ط . د ج 7 .
- 62 / زاد المعاد في هدي خير العباد لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزعبي الدمشقي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية أو ابن القيم (ت 751 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت مكتبة المنار الإسلامية الكويت ط 14 1407 هـ / 1986 م ج 5 تحقيق : شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط .
- 63 / الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي محمد بن أحمد الأزهرى أبو منصور (ت 370 هـ) وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويت ط 1 1399 هـ ج 1 تحقيق : د. محمد جبر الألفي .
- 64 / الزاهر في معاني كلمات الناس محمد بن القاسم الأنباري أبو بكر (ت 328 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت ط 1 1412 هـ / 1992 م ج 2 تحقيق : د . حاتم صالح الضامن .

- 65 / زهر الآداب وثمر الألباب لإبراهيم بن علي الحصري القيرواني أبو إسحاق (ت 453 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 1 1417 هـ / 1997 م ج 2 تحقيق : أ. د. يوسف علي طويل .
- 66 / سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت 942 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1414 هـ ج 12 تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض .
- 67 / السنة لأحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الحلال أبو بكر (ت 311 هـ) دار الراية الرياض ط 1 1410 هـ - 1989 م ج 3 تحقيق : د. عطية الزهراني .
- 68 / سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد القزويني أبو عبد الله (ت 275 هـ) دار الفكر بيروت ط . د ج 2 تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- 69 / سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (ت 275 هـ) دار الفكر ط . د ج 4 تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد .
- 70 / سنن الترمذي (الجامع الصحيح) لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي أبو عيسى (ت 279 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 5 تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .
- 71 / السنن الكبرى لأحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر (ت 458 هـ) مكتبة الباز مكة المكرمة ط . د 1414 هـ / 1994 م ج 10 تحقيق : محمد عبد القادر عطا .
- 72 / السنن الكبرى لأحمد بن شعيب النسائي أبو عبد الرحمن (ت 303 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1411 هـ / 1991 م ج 6 تحقيق : د. عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن .
- 73 / سنن سعيد بن منصور (2) لسعيد بن منصور (ت 227 هـ) دار العصيمي الرياض ط 1 1414 هـ ج 5 تحقيق : د. سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد .
- 74 / السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات لمحمد عبد السلام خضر الشقيري دار الفكر ط . د ج 1 تحقيق : محمد خليل هراس .

- 75 / سير أعلام النبلاء لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله (ت 748 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت ط 7 1410 هـ ج 23 تحقيق : شعيب الأرنؤوط وجماعة .
- 76 / سيرة ابن إسحاق (المبتدأ والمبعث والمغازي) لمحمد بن إسحاق بن يسار (ت 151 هـ) معهد الدراسات والأبحاث للتعريف ط . د ج 3 تحقيق : محمد حميد الله .
- 77 / السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي (ت 1044 هـ) دار المعرفة بيروت ط . د 1400 هـ ج 3 .
- 78 / السيرة النبوية لعبد الملك ابن هشام المعافري أبو محمد (ت 213 هـ) دار الجيل بيروت ط 1 1411 هـ ج 6 تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد .
- 79 / شرح صحيح البخاري لعلي بن خلف بن عبد الملك بن بطلال البكري القرطبي أبو الحسن (ت 449 هـ) مكتبة الرشد السعودية / الرياض ط 2 1423 هـ / 2003 م ج 10 تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم .
- 80 / الصّاحح لإسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي أبو نصر (ت 398 هـ) بحواشي عبد الله بن بري بن عبد الجبار المقدسي المصري محمد ابن أبي الوحش أبو محمد (ت 582 هـ) وكتاب الوشاح للتادلي ؛ عبد الرحمن بن عبد العزيز المغربي أبو زيد (ت نحو 1200 هـ) دار أحياء التراث العربي بيروت / لبنان ط 4 1426 هـ / 2005 م ج 5 اعتنى بها : مكتب التحقيق بدار إحياء التراث العربي .
- 81 / صحيح ابن حبان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان لعلي بن بلبان بن عبد الله علاء الدين الفارسي المنعوت بالأمير : ت 739 هـ) للحافظ أبي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي (ت 354 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت ط 2 1414 هـ / 1993 م ج 16 تحقيق : شعيب الأرنؤوط .
- 82 / صحيح البخاري (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) (ت 256 هـ) تحقيق : د. مصطفى ديب البغا دار ابن كثير واليمامة بيروت ط 3 1407 هـ / 1987 م ج 6 .

- 83 / صحيح مسلم بشرح النووي لمحيي الدين يحيى بن شرف النووي أبو زكريا (ت 676 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط 2 1392 هـ ج 18 .
- 84 / صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 هـ) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت سنة 1374 هـ / 1954 م ج 4 .
- 85 / صفة الصفوة لعبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي أبو الفرج (ت 597 هـ) دار المعرفة بيروت ط 2 1399 هـ / 1979 م ج 4 تحقيق : محمود فاخوري - د . محمد رواس قلعه جي .
- 86 / عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت 855 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 25 .
- 87 / عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت 855 هـ) دار إحياء التراث العربي بيروت ط . د ج 25 .
- 88 / عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب (ت 1329 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 2 1995 م ج 14 .
- 89 / عون المعبود شرح سنن أبي داود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب (ت 1329 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 2 1995 م ج 14 .
- 90 / العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) دار ومكتبة الهلال ط . د ج 8 تحقيق : د . مهدي المخزومي د . إبراهيم السامرائي .
- 91 / العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) دار ومكتبة الهلال ط . د ج 8 تحقيق : د . مهدي المخزومي د . إبراهيم السامرائي .
- 92 / عيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أصيبعة أبو العباس (ت 668 هـ) دار مكتبة الحياة بيروت ط . د ج 1 تحقيق : الدكتور نزار رضا .

- 93 / غاية النهاية في طبقات القراء لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري الشيباني (ت 833 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1427 هـ / 2006 م ج 2 عن نشره : ج برجستراسر .
- 94 / غريب الحديث لإبراهيم بن إسحاق الحري أبو إسحاق (ت 285 هـ) طبع جامعة أم القرى معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي مكة المكرمة ط 1 1405 هـ ج 3 تحقيق : د . سليمان بن إبراهيم محمد العايد .
- 95 / غريب الحديث لأحمد بن محمد بن إبراهيم الخطاطي البستي أبو سليمان (ت 388 هـ) جامعة أم القرى مكة المكرمة ط . د 1402 هـ ج 3 تحقيق : عبد الكريم إبراهيم الغرابوي .
- 96 / غريب الحديث لعبد الرحمن بن علي بن الجوزي أبو الفرج (ت 597 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 1 1405 هـ / 1985 م ج 2 تحقيق : د . عبد المعطي أمين القلعجي .
- 97 / غريب الحديث لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري أبو محمد (ت 276 هـ) مطبعة العاني بغداد ط 1 1397 هـ ج 3 تحقيق : د . عبد الله الجبوري .
- 98 / غريب الحديث للناسم بن سلام الهروي أبو عبيد (ت 224 هـ) دار الكتاب العربي بيروت ط 1 1396 هـ ج 4 تحقيق : د . محمد عبد المعيد خان .
- 99 / غريب القرآن لمحمد بن عزيز السجستاني العزيزي أبو بكر (ت 330 هـ) دار ابن قتيبة ط . د 1416 هـ / 1995 م ج 1 تحقيق : محمد أديب عبد الواحد جمران .
- 100 / فتح الباري شرح صحيح البخاري لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي أبو الفضل (ت 852 هـ) دار المعرفة بيروت ط . د ج 13 تحقيق : محب الدين الخطيب .
- 101 / فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي (ت 1031 هـ) المكتبة التجارية الكبرى مصر ط 1 1356 هـ ج 6 .
- 102 / قادة الغرب يقولون: دمرُوا الإسلام أَيْدُوا أهله، الشباب المسلم في مواجهة التحديات لعبد الله علوان ص 51، ط 2، 1409، دار القلم.
- 103 / القاموس المحيط لمحمد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817 هـ) مؤسسة الرسالة بيروت ط . د ج 1 .

- 104 / القواعد الحسان لتفسير القرآن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت 1376 هـ) دار البصيرة الاسكندرية / مصر ط . د ج 1 .
- 105 / القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية لابن جُزَي الكَلْبِي (ت 741 هـ) المكتبة العصرية الدار النموذجية ط 1 2001 م ج 1 تحقيق : عبد الكريم الفضيلي .
- 106 / قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لمحمد بن علي ابن عطية الحارثي المشهور بأبي طالب المكي (ت 286 هـ) دار الكتب العلمية بيروت / لبنان ط 2 1426 هـ / 2005 م ج 2 تحقيق : د . عاصم إبراهيم الكيالبي .
- 107 / كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت 975 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1419 هـ / 1998 م ج 16 تحقيق : محمود عمر الدمياطي .
- 108 / لسان العرب لمحمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي أبو الفضل (ت 711 هـ) دار صادر بيروت ط 1 ج 15 .
- 109 / المبسوط لشمس الدين محمد بن أحمد بن سهل الشرخسي أبو بكر (ت 483 هـ) دار المعرفة بيروت ط . د ج 30 .
- 110 / مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ) بتحريه الحافظين : العراقي وابن حجر العسقلاني دار الريان القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ط . د 1407 هـ / 1987 م ج 10 .
- 111 / مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت 807 هـ) بتحريه الحافظين : العراقي وابن حجر العسقلاني دار الريان القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ط . د 1407 هـ / 1987 م ج 10 .
- 112 / المجموع لمحي الدين بن شرف النووي أبو زكريا (ت 676 هـ) دار الفكر بيروت ط . د 1997 م ج 9 .
- 113 / مدخل إلى الفقه الإسلامي ، منشورات جامعة القدس المفتوحة 1996 .

- 114 / المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري أبو عبد الله (ت 405 هـ)
دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1411 هـ / 1990 م ج 4 تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا
- 115 / المصنف لعبد الرزاق بن همام الصنعائي أبو بكر (ت 211 هـ) المكتب الإسلامي بيروت ط 2
1403 هـ / 1983 م ج 11 تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي .
- 116 / معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي أبو عبد
الله (ت 626 هـ) دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1411 هـ / 1991 م ج 5 .
- 117 / المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد الطبراني أبو القاسم (ت 360 هـ) دار الحرمين القاهرة ط
1415 هـ ج 9 تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني .
- 118 / معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله (ت 626 هـ) دار الكتب العلمية
بيروت ط 1 1410 هـ / 1990 م ج 5 تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي .
- 119 / مناهج الاجتهاد في الإسلام، د. محمد سلام جامعة الكويت ط 1، 1393 هـ، 1973 م
- 120 / منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس (ت 728
هـ) مؤسسة قرطبة ط 1 1406 هـ ج 8 تحقيق : د. محمد رشاد سالم .
- 121 / الموافقات في أصول الفقه لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشهير بالشاطبي (ت
790 هـ) دار المعرفة بيروت ط 1 ج 4 تحقيق : عبد الله دراز .
- 122 / موطأ الإمام مالك لمالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي (ت 179 هـ) دار إحياء التراث
العربي مصر ط 1 ج 2 تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
- 123 / ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 هـ) دار الكتب
العلمية بيروت ط 1 1995 هـ ج 8 تحقيق : الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد
الموجود .

فهرس الموضوعات

1	المقدمة.....
8	خطة البحث.....
12	الفهارس الفنية:.....
13	التمهيد.....
14	الأمر الأول مفهوم الملأ وتعريفه في ضوء القرآن الكريم.....
32	الأمر الثاني الألفاظ المقاربة والكلمات التي لها صلة بـ (الملأ) في القرآن الكريم.....
36	الأمر الثالث للمقاصد من ذكر "الملأ" في الآيات القرآنية وأغراضه.....
45	الأمر الرابع تحديات الملأ في المجتمع الباكستاني ومواجهتهم الدعوية:.....
60	الباب الأول: المظاهر والسمات الرئيسة للملأ في القرآن الكريم.....
61	الفصل الأول: أنواع الملأ في القرآن الكريم.....
62	المبحث الأول: الملأ الأعلى من الملائكة.....
67	المبحث الثاني: الملأ من الجن.....
69	المبحث الثالث: الملأ من الأنس.....
70	المبحث الرابع: الملأ للمؤمن.....
79	المبحث الخامس: الملأ من الكفار المكذبين.....
81	المبحث السادس: الملأ من الكفار المتعاطفين.....
89	الفصل الثاني أسباب عداوة الملأ لدعوة الرسل عليهم السلام.....
90	المبحث الأول: الاستعلاء والاستكبار.....
99	المبحث الثاني: الخوف على المنصب والجاه.....
106	المبحث الثالث: تأثير الملأ بعضهم على بعض.....
110	المبحث الرابع: الإصرار على الباطل.....
116	المبحث الخامس: الملأ والجهل.....

المبحث السادس: الملام والحسد.....	121
المبحث السابع: الملام والتقليد الأعمى.....	126
المبحث الثامن: انهماك الملام المتترف في الشهوات.....	129
المبحث التاسع: إنكار الملام للبعث والجزاء.....	134
المبحث العاشر: اتباع الباطل وكراهية الحق.....	138
الفصل الثالث: آثار الملام على الفرد والمجتمع.....	142
المبحث الأول: معاملة الناس مع الدعوة إلى الله تعالى.....	143
المبحث الثاني: الترغيب والإغراء.....	151
المبحث الثالث: الإرهاب والتخويف.....	154
المبحث الرابع: التلبيس والتضليل.....	157
المبحث الخامس: غلبة الجهل على الملام.....	163
المبحث السادس: أثر الملام على الحاكم وأتباعه.....	166
المبحث السابع: أثر الملام على الفرد والمجتمع.....	173
المبحث الثامن: أثر علاقة الملام بالمنافقين على الدعوة.....	175
الباب الثاني: أساليب الملام ضد الدعوة إلى الله.....	177
الفصل الأول: تشكيكات الملام حول الدعوة إلى الله تعالى.....	178
المبحث الأول: شبهات حول الدعوة إلى الله تعالى.....	179
المبحث الثاني: تشكيكات الملام حول الأنبياء والرسل عليهم السلام.....	195
الفصل الثاني: العقبات والمواجهات من الملام.....	245
المبحث الأول: الجحود والتكذيب المتواصل.....	246
المبحث الثاني: الإغراء والترغيب.....	260
المبحث الثالث: التهديد والوعيد.....	266

المبحث الرابع: الإيذاء الروحي والنفسي.....	276
المبحث الخامس: الإيذاء البدني والجسمي.....	292
المبحث السادس: التحصير والتضييق.....	317
المبحث السابع: استعجال الوعيد تعنتا وعنادا.....	341
المبحث الثامن: التخطيط والإعداد للمواجهة.....	349
المبحث التاسع: الآثار السلبية على عامة الناس.....	367
المبحث العاشر: المخادعة.....	379
الباب الثالث: عقبات الملا في المجتمع الباكستاني، ودور الدعاة في معالجته.....	406
الفصل الأول: أنزلا في المجتمع الباكستاني، وفيه ثلاثة مباحث.....	409
المبحث الأول: حكومة باكستان الإسلامية والدعوة إلى الله تعالى.....	409
المبحث الثاني: إيجابيات الملا في المجتمع الباكستاني.....	411
المبحث الثالث: سلبيات الملا وآثارها على المجتمع الباكستاني.....	415
الفصل الثاني: مشكلة الملا في المجتمع الباكستاني وفيه.....	417
المبحث الأول: الجهل.....	420
المبحث الثاني: الغلو والتطرف في المجتمع الباكستاني.....	426
المبحث الثالث: العصبية المذهبية للملا.....	429
المبحث الرابع: استمرار الملا على المعاصي.....	439
الفصل الثالث: دور الدعاة في معالجة الملا في المجتمع الباكستاني.....	445
المبحث الأول: الإخلاص والاستقامة في طريق الدعوة إلى الله تعالى.....	446
المبحث الثاني: الحوار والمحااجة والمجادلة.....	506
المبحث الثالث: التخطيط لنجاح الدعوة وسلامتها.....	551
الفصل الرابع: موقف الرسل عليهم السلام من المؤمنين بالدعوة فيما يثيره الملا ضدهم.....	582

594.....	خاتمة البحث.....
598.....	الفهارس الفنية.....
599.....	فهرس الآيات الكريمة حسب ترتيب للمصحف.....
627.....	فهرس الأحاديث الشريفة والآثار الواردة في الرسالة.....
633.....	فهرس الأعلام من الصحابة ؓ والتابعين ومن بعدهم رحمهم الله.....
658.....	فهرس المصادر والمراجع.....
671.....	فهرس الموضوعات.....

